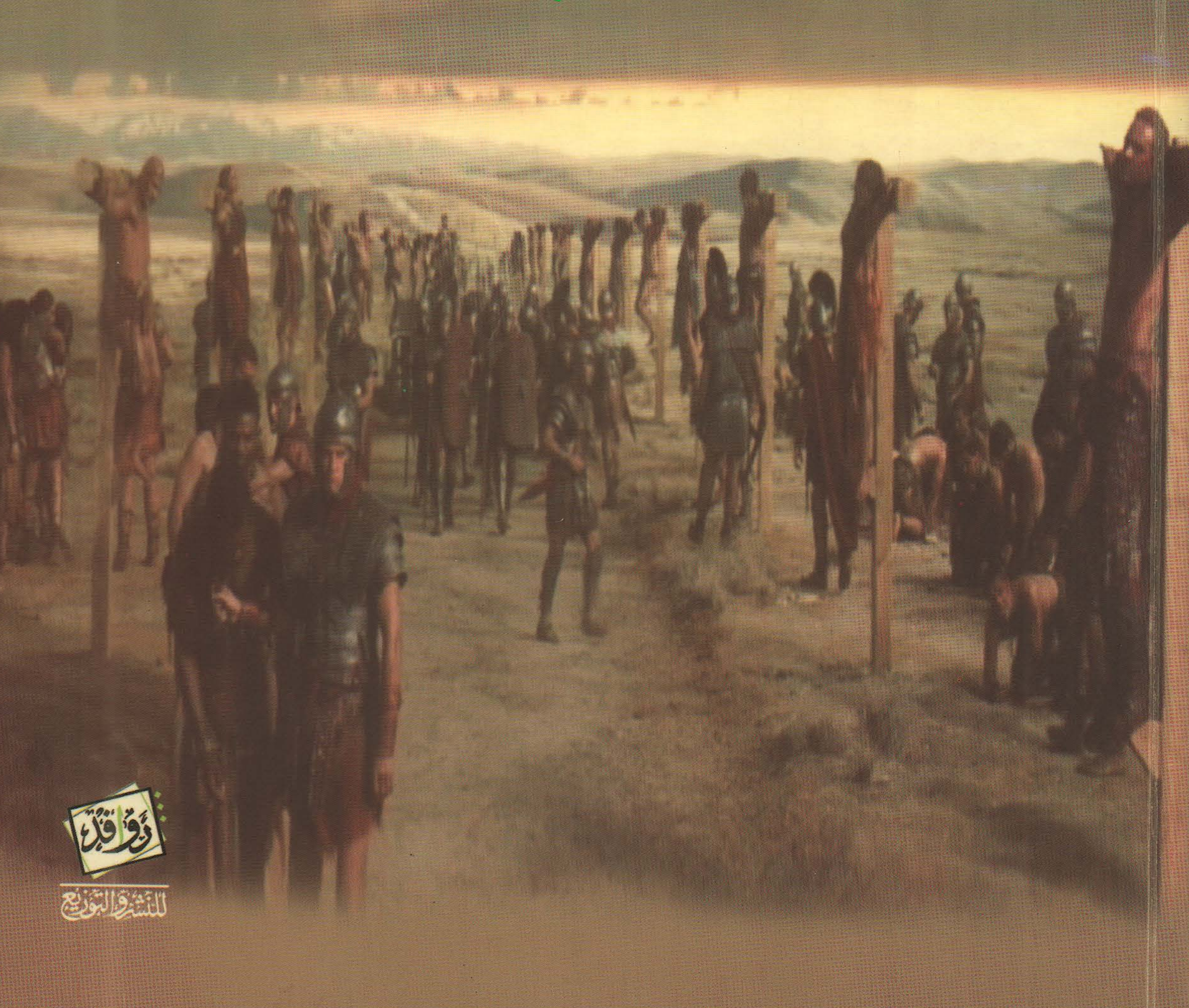
كارل كاوتسكي

الدين والصراع الطبقي

في المجتمع الشرقي العبودي القديم

ترجمة سعيد العليمي



رواند للنشر والتوزيع

كاوتسكي، كارل

الدين والصراع الطبقي في المجتمع الشرقي العبودي القديم/ كارل كاوتسكي

ترجمة: سعيد العليمي

روافد للنشر والتوزيع. 2014 ط 1، القاهرة

414 ص ؛ 24 سم

1- أديان

2- العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: 201،044

رقم الإيداع 10742 / 2014

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -037- 0



روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

الدين والصراع الطبقي
في المجتمع الشرقي العبودي القديم

العنوان الأصلي للكتاب

أسس المسيحية.. دراسة في أصول مسيحية

كارل كاوتسكي

ترجمة: سعيد العليمي

مدخل

كنت مهتمًا لفترة طويلة بالمسيحية وبالنقد الإنجيلى. وقد أسهمت منذ خمس وعشرين عامًا بتمامها بمقال فى مجلة كوزموس (cosmos)، حول أصل تاريخ ما قبل تاريخ الإنجيل، وبعد ذلك بعامين كتبت مقالاً آخر لمجلة الأزمنة الحديثة Neue Zeit حول أصل المسيحية. إنها من ثمَّ لهواية قديمة تلك التى أعود اليها الآن. وبمناسبة هذه العودة كانت ضرورة إعداد الطبعة الثانية من كتابى روّاد الاشتراكية.

إن الانتقادات التى وُجهت للكتاب الأخير - تلك التى اتيحت لى فرصة قراءتها - قد وجدت أخطاء فى المدخل بصفة خاصة، حيث عرضت فيه موجزًا قصيرًا عن شيوعية المسيحية الأوليَّة. لقد أعلنوا أن وجهة نظرى لن تصمد لضوء المعرفة الناتج عن الأبحاث الأخيرة.

وسرعان ما أعلن جوريه Göhre وآخرون عقب أن ظهرت هذه الانتقادات، أن وجهة النظر هذه - أي، لا شيء محدَّد يمكن أن يقال عن شخصية يسوع، وأن المسيحية يمكن أن تُفسَّر بدون الرجوع الى هذه الشخصية - التى دافع عنها أولاً برنوباور ثم قبلها بعد ذلك فى نقاطها الأساسية فرانز مهرنج وانا، وصغتها بشكل مبكِّر فى عام 1885، قد باتت الآن عتيقة.

ولذلك فلم أرغب فى نشر طبعة جديدة من كتابى، الذى ظهر منذ ثلاثة عشر عامًا مضت، دون أن أراجع بعناية أولاً، على أساس الأدب الأخير حول الموضوع، تلك الأفكار التى حصَّلتها من دراسات أسبق.

وفى النهاية توصَّلت إلى النتيجة المرضية بأن لا شيء يحتاج الى تغيير، غير أن الأبحاث اللاحقة قد كشفت لى عددًا من وجهات النظر الجديدة ومقترحات جديدة، أدَّت الى توسيع تنقيح مدخلي لكتاب روّاد الى كتاب كامل.

أنا لا أدَّعي، بالطبع، أننى استنفد الموضوع، الهائل بذاته الى حد يستعصي على الاستنفاد. وسوف أكون راضيًا إذا نجحت فى الإسهام فى فهم تلك المراحل من تاريخ

المسيحية التى تثير انتباهي باعتبارها الأكثر أساسية من وجهة نظر المفهوم المادي للتاريخ.

ولا أستطيع أن أجرؤ على مقارنة نفسي علمياً، بالنسبة لشئون التاريخ الديني، باللاهوتيين الذين جعلوا هذه الدراسة مهمة حياتهم، بينما كان عليّ أن أكتب المجلد الماثل فى ساعات الفراغ القليلة التى أتاحتها لى أنشطتي التحريرية والسياسية، فى فترة كانت فيها اللحظة الراهنة غاية فى الكفاية لتحتكر انتباه أى شخص يشارك فى النضالات الطبقية لزمننا، إلى الحد الذى كان فيه وقت قليل متاحًا للماضي: إننى أشير إلى الزمن الواقع بين استهلال الثورة الروسية عام 1905 وانفجار الثورة التركية عام 1908.

غير أن من المحتمل أن نصيبى الكثيف فى النضالات الطبقية للبروليتاريا قد زوَّدنى تحديداً بتلك اللمحات عن جوهر المسيحية الأوَّلية التى قد تبقى بعيدة عن متناول أساتذة اللاهوت والتاريخ الديني.

يرد المقطع التالي عند جان جاك "روسو فى كتابه جولى، أو هيلواز الجديدة:

"يبدو لى من السخرية محاولة دراسة المجتمع (العالم) كمجرد ملاحظ خارجي. إذ أن من يرغب فى أن يلاحظ، فقط، لن يلاحظ شيئًا، حيث لا فائدة في ذلك فى العمل الفعلي ومقيت فى التجديد، فلن ينطوي فى أيهما. إننا نلاحظ أفعال الآخرين الى المدى الذي نفعل فيه نحن أنفسنا فقط. فى مدرسة العالم مثلها فى ذلك مثل مدرسة الحب، يجب أن نبدأ بالممارسة العملية لذلك "الذى نرغب فى تعلُّمه". (القسم الثانى، الرسالة17).

ربما يوسِّع هذا المبدأ، المحدَّد هنا بدراسة الإنسان، لينطبق على بحث كل الأشياء. لن يجرى الحصول على الكثير فى أى مجال بمجرد الملاحظة دون مشاركة عملية. ويصدق هذا حتى على بحث مثل تلك الأشياء البعيدة كالنجوم. أين سيكون علم الفلك اليوم إذا كان قد اقتصر على مجرد الملاحظة، إذا لم يكن قد اقترن بالممارسة، أي باستخدام التلسكوب، والتحليل الطيفى، والتصوير ! ولكن يعتبر هذا المبدأ صائبًا حتى بدرجة أكبر حين يطبق على أشياء هذه الأرض، التي لممارستنا معها عادة إجبارنا على صلة أكثر قربًا من مجرد الملاحظة. إن ما نتعلمه من مجرد ملاحظة الأشياء قليل إلى حدٍ بعيد حين يُقارن بما يمنحه لنا العمل العملي على هذه الأشياء وبهذه الأشياء. دع القارئ يتذكَّر فحسب الأهمية الضخمة التى حازها المنهج التجريبي فى العلوم الطبيعية.

لا يمكن أن تُصنع التجارب كأدوات لبحث المجتمع الإنسانى، ولكن النشاط العلمي للباحث مع ذلك ليس بأيّة حال ذا أهمية ثانوية، كيفما كان الأمر، فإن شروط نجاحه مشابهة للشروط المتعلّقة بتجربة مثمرة. وتقوم هذه الشروط فى معرفة أكثر النتائج التى أحرزها الباحثون الآخرون أهمية، والمام بمنهج علمي يشحذ تقويم النقاط الأساسية فى كل ظاهره، مُعِينًا الباحث على تمييز الأساسي من غير الأساسي، كاشفًا العنصر المشترك بين تجارب متنوّعة.

لن يواجه المفكّر المجهّز بمثل هذه الملكات، والدارس لحقل هو منخرط فيه فى عمل فعّال، متاعب فى الوصول الى نتائج لم يكن له سبيل إليها إذا كان قد بقى مجرد ملاحظ.

ويعتبر هذا صحيحًا خاصة فيما يتعلّق بالتاريخ. إذا كان السياسي العملي مجهّزا بتدريب علمي كافٍ، سوف يفهم بسهولة أكثر تاريخ السياسة، وسوف يجد بسرعة أكثر وجهته فى دراستها من فيلسوف منعزل لم يكن لديه أبدًا أدنى اطّلاع عملي على القوى المحرّكة للسياسة. وسوف يجد الباحث أن تجربته العملية ذات قيمة خاصة، إذا كان منخرطًا فى دراسة حركة لطبقة فى المجتمع كان هو نفسه نشطًا فيها ومن ثمَّ مطّلعًا على نحو افضل على طابعها النوعي.

كان هذا الإلمام بالحقائق غالبًا حتى الآن، فى متناول الطبقات المالكة، التى احتكرت التعلم، على وجه القصر. وقد وجدت حركات الطبقات الدنيا فى المجتمع بُعدًا عند بعض الدارسين المقدّرين لأهميتها.

كانت المسيحية فى بداياتها بلا شك حركة الطبقات المفقرة من أشد الأنواع تباينًا، التى يمكن أن تسمّى بالمصطلح العام "بروليتاريين" على أن "يفهم هذا التعبير باعتباره لا يعني فقط العمّال المأجورين. إن رجلاً بات ملمًّا بالحركة البروليتارية الحديثة، والذى يفهم العنصر المشترك لمراحلها فى البلدان المختلفة من خلال عمله بنشاط فيها، رجل تعلّم أن يحيا فى مشاعر وإلهامات البروليتاريا، مقاتلاً بجانبها، له أن يدّعي القدرة على فهم كثير من الأشياء عن بدايات المسيحية بسهولة أكثر من المدرسيين الذين نظروا للبروليتاريا من بعيد فقط.

ولكن بينما للسياسي العملي المدرّب علميًّا ميزة على مجرد مدرسيى الكتاب من نواحى متعددة فى كتابة تاريخه، فإن هذه الميزة غالبًا ماتوازن على نحو فعّال بالغواية الأقوى التى يتعرّض لها السياسي العملي، وهى الا يسمح لفصيله بأن يعاق. فهناك

خطران يهدّدان بصفة خاصة الإنتاج التاريخي للسياسيين العمليين أكثر من إنتاج الباحثين الآخرين: فى المحل الأول، قد يحاولون أن يصيغوا الماضي كليًّة وفق صورة الحاضر، وفى المحل الثاني، ربما يسعون للنظر إلى الماضي على ضوء احتياجات سياسة الحاضر.

ولكننا نحن الاشتراكيين، إلى الحد الذى نكون فيه ماركسيين، نشعر بأن لدينا وقاية ممتازة ضد هذه الأخطار فى المفهوم المادي للتاريخ، الذى يرتبط جوهريًا بوجهة نظرنا البروليتارية.

ينظر المفهوم التقليدى للتاريخ للحركات السياسية باعتبارها صراعًا من أجل إيجاد مؤسسات سياسية نوعية معينة فقط - الملكية، الأرستقراطية، الديمقراطية، إلخ - والتى تُعرض بدورها باعتبارها نتاج مفاهيم ومطامح أخلاقية معيَّنة. ولكن إذا لم يتقدم مفهومنا للتاريخ ماوراء هذه النقطة، إذا لم نفتش عن أساس هذه الأفكار والمطامح والمؤسسات، فسرعان ما سنتوقف فجأة فى مواجهة حقيقة أن هذه الأشياء تعتريها فقط تغيرات زائفة فى مجرى القرون، حيث تبقى هي هى فى الأساس، حتى كأننا نتعامل دائمًا مع نفس الأفكار، والمطامح، والمؤسسات، التي تتكرَّر مرة بعد أخرى، وأن التاريخ بأسره يتجلّى كنضال طويل واحد لا ينقطع من أجل الحرية والمساواة، الذي يُقابل مرة بعد أخرى بالقمع وعدم المساواة، التى لم تتحقق أبدًا، ولم يُقضَ عليها تمامًا أبدًا.

حيثما كان أبطال الحرية والمساواة منتصرين لوهلة، فقد حوَّلوا انتصاراتهم دائمًا إلى قاعدة لقمع جديد ولا مساواة، مما نتج عنه الظهور الفوري لمناضلين جدد من أجل الحرية والمساواة. ويبدو المجرى الكلّي للتاريخ من ثمَّ كدورة تعود دائمًا إلى نقطة الاستهلال، تكرارًا أبديًّا لنفس الدراما، مع تغير الأردية فحسب، وبدون تقدم حقيقى للإنسانية.

إن من يتبنَّى هذه النظرة سوف ينزع دائمًا لتصوير الماضي فى صورة الحاضر، وكلما عرف الإنسان أكثر كما هو الآن، كلما أمعن في تصوير الإنسان فى العصور المنصرمة طبقًا لنموذجه الحاضر. هناك نظرة أخرى تتعارض مع هذه النظرة للتاريخ، وهي لا ترتضي بتقدير الأفكار التاريخية وحدها، وإنما تسعى لأن تلاحق أسبابها الحقيقية التى تكمن فى ذات أساس المجتمع. سوف نواجه فى تطبيق هذا المنهج مرة بعد أخرى نمط الإنتاج، الذي يعتمد بدوره على مستوى التقدم التقنى، بالرغم من أنه لا يعتمد عليه وحده.

بمجرد أن نباشر بحث المصادر التقنية ونمط إنتاج العصور القديمة، نتخلّى على الفور عن فكرة أن نفس التراجيكوميديا تتكرّر أبديًا على مسرح العالم. حيث يُظهر التاريخ الاقتصادي للإنسان تطورًا مستمرًا من الأشكال الدنيا الى الأشكال العليا، التى ليست، بأيّة حال، مُطّردة أو موحّدة فى الاتجاه. ولكن إذا بحثنا الشروط الاقتصادية للكائنات الإنسانية فى الفترات التاريخية المتنوّعة، فإننا نتحرّر على الفور من وهم التكرار الأبدى لنفس الأفكار والطموحات، والمؤسسات السياسية. نحن نعلم الآن أن نفس الكلمات ربما تغيّر معناها عبر مجرى القرون، وأن الأفكار والمؤسسات التى تشبه بعضها خارجيًا لها مضمون مختلف، لأنها نشأت من احتياجات طبقات مختلفة وفى ظل ظروف مختلفة. إن الحرية التى يطالب بها البروليتاري الحديث مختلفة تمامًا عن تلك الحرية التى كانت قد الهمت ممثلي الطبقة الثالثة عام 1789، وكانت هذه الحرية بدورها مختلفة جوهريًا عن تلك التي ناضل من أجلها فرسان الإمبراطورية الجرمانية فى بداية الإصلاح.

إذا ماتوقّفنا عن النظر الى النضالات السياسية باعتبارها مجرد نزاعات تتعلّق بأفكار مجرّدة أو بمؤسسات سياسية وكشفنا اساسها الاقتصادى، فإننا نكون مهيّأون لأن نفهم انه فى هذا الحقل، وكذلك فى حقل التقنية ونمط الإنتاج يجري تطور ثابت نحو أشكال جديدة، وأنه لا توجد حقبة تشبه تمامًا حقبة أخرى، وأن نفس الشعارات ونفس الجدالات ربما يكون لها فى أزمنة مختلفة معانٍ مختلفة.

إن وجهة نظرنا البروليتارية سوف تسمح لنا بأن نرصد على نحو أكثر سهولة مما يتيسّر للباحثين البورجوازيين تلك المراحل من المسيحية الأوّلية التى يجمعها شيء مشترك مع الحركة البروليتارية الحديثة. ولكن التأكيد الذى وضع على الشروط الاقتصادية، وهو لازمة ضرورية للمفهوم المادي للتاريخ، يقينًا من خطر نسيان الطابع النوعي للبروليتاريا القديمة لأننا نرصد فحسب العنصر المشترك فى كلا الحقبتين. إن سمات البروليتاريا القديمة تعود الى مركزها الاقتصادي النوعي، الذى جعل مع ذلك طموحاتها مختلفة كليًا عن تلك التي للبروليتاريا الحديثة برغم تشابهات عدة.

بينما تقينا النظرة الماركسية للتاريخ من خطر قياس الماضي بمستوى الحاضر وتشحذ تقديرنا لنوعية كل حقبة وكل أمة، فإنها تحررنا أيضًا من خطر آخر، وهو محاولة تكييف عرضنا للماضي للمصالح العملية المباشرة التى ندافع عنها فى الحاضر.

لايوجد إنسان شريف بالتاكيد، أيًا ما كانت وجهة نظره، سوف يسمح لنفسه بأن يضل فى تزييف واعٍ للماضي. ولكن الباحث ليس أحوج منه فى أى مجال لعقل غير متحيّز منه فى العلوم الاجتماعية، وليس هناك حقل أصعب منها لاكتساب مثل هذا الموقف.

ليست مهمة العلم ببساطة عرضًا لما هو كائن، بإعطاء صورة أمينة عن الواقع، حتى يقال بأن ملاحظًا بعينه سوف يشكّل عادة نفس الصورة. تكمن مهمة العلم فى ملاحظة العام، أي العنصر الأساسي فى كتلة الانطباعات والظواهر المتلقاة، وهكذا يزوّدنا بمفتاح يمكن لنا بواسطته أن نجد اتجاهنا فى متاهات الواقع.

أضف إلى ذلك، أن مهمة الفن، مشابهة تمامًا. إن الفن لا يعطينا صورة عن الواقع فحسب، حيث يتعيَّن على الفنان أن يعيد إنتاج مايثير انتباهه باعتباره المسألة الأساسية، الحقيقية المميّزة للواقع الذى يعرض تصويره. يتمثل الاختلاف بين الفن والعلم فى حقيقة أن الفنان يعرض الأساسي فى شكل طبيعي ملموس، يؤثّر فينا من خلاله، بينما يعرض المفكّر الأساسي فى شكل مفهوم، تجريد.

وكلما كانت الظاهرة أشد تعقيدًا. وكلما قلَّ عدد الظواهر التى يمكن أن تقارن بها، كلما كان أصعب عزل ما هو أساسي فيها عمًّا هو عرضي. كلما جرى الشعور أكثر بالسمة الذاتية للباحث ومعيد الإنتاج. وعلى ذلك فالأكثر لزومًا هو أن تكون نظرته واضحة وغير متحيِّزة.

من المحتمل أنه لا توجد ظاهرة أشد تعقيدًا من المجتمع الإنساني، مجتمع البشر، حيث كل واحد أكثر تعقيدًا فى ذاته من أي كائن آخر نعرفه. بالإضافة إلى ذلك، إن عدد العضويات الاجتماعية التي يمكن أن تقارن بعضها بالآخر، فى نفس مستوى التطور، قليلة للغاية نسبيًّا، لم يكن، من ثمَّ، مدهشا، أنه كان على الدراسة العلمية للمجتمع أن تبدأ متأخرة عن الدراسات التي تتعلق بأي مجال آخر من التجربة، وليس مدهشًا أنه فى هذا الحقل فقط كان على وجهات نظر الدارسين أن تتشعَّب بشكل واسع.

ويتزايد تعاظم الصعوبات إذا كان للباحثين المتنوعين، كما هو الحال غالبًا فى العلوم الاجتماعية، مصالح عملية تتجه فى اتجاهات غاية فى الاختلاف، وغالبًا متعارضة، بصدد نتائج أبحاثهم، الأمر الذى لا يعني أن هذه المصالح العملية يجب أن تكون شخصية حسب طبيعتها ؛ فربما تكون بشكل غاية فى التحديد مصالح طبقية.

البيِّن أنه يستحيل علينا تمامًا أن نحتفظ بموقف قضائي إزاء الماضي بينما نحن مهتمون بأي طريقة بالتعارضات والصراعات الاجتماعية فى زمننا، رائين ظواهر الحاضر هذه تكرارًا لتعارضات وصراعات الماضي. تصبح الأخيرة مجرد سوابق، متضمنة تبريرًا وإدانة للأولى، فالآن يعتمد الحاضر على حكمنا على الماضي. هل يمكن لمن يهتم حقًا بقضيته ان يبقى غير متحيِّز؟ كلما كان اكثر ارتباطًا بالقضية كلما تصبح وقائع الماضي أكثر اهمية بالنسبة له ـ وسوف يؤكد عليها باعتبارها أساسية ـ خاصة تلك التي يبدو أنها تدعم وجهة نظره الخاصة، بينما يزيح إلى الخلفية تلك الوقائع التى يبدو انها تدعم وجهة النظر المعاكسة. يصبح الدارس أخلاقيًا او محاميًا، مُمَجِدًا أو واصمًا ظواهر نوعيَّة من الماضي بسبب أنه مدافع عن أو خصم لظواهر مشابهة فى الحاضر، مثل الكنيسة، الملكية، الديمقراطية، إلخ.

يصبح الوضع مختلفًا تمامًا، على أيَّة حال، حين يُدرك الدارس، نتيجة لفهمه الاقتصادى، انه ليس هناك مجرد تكرار فى التاريخ، وأن الظروف الاقتصادية للماضي قد مضت ولن تعود أبدًا، وأن التعارضات الطبقية السابقة والصراعات الطبقية مختلفة بصفة أساسية عن تلك التى تدور في الحاضر، ومن ثمَّ فإن مؤسساتنا الحديثة وأفكارنا، بالرغم من تطابقها الخارجي مع تلك التى تتعلَّق بالماضي، هى مع ذلك ذات مضمون مختلف كلية. يفهم الدارس الآن أن كل حقبة يجب أن تقاس بمعيارها الخاص، وأن طموحات الحاضر يجب أن تؤسَّس على شروط الحاضر، وأن النجاحات والإخفاقات فى الماضي لها مغزى شديد الضآلة حين تعتبر وحدها فقط، وأن مجرد التوسُّل بالماضي من أجل تبرير متطلبات الحاضر قد يكون مضلِّلا بكل ما فى الكلمة من معنى. اكتشف ديمقراطيو وبروليتاريو فرنسا هذا مرة بعد أخرى أيضًا فى القرن الماضي حين وضعوا إيمانهم فى "تعاليم" الثورة الفرنسية أكثر مما فى فهم العلاقات الطبقية القائمة فعليًا.

إن من يقبل وجهة نظر المفهوم الاقتصادي للتاريخ يمكن أن يتبنَّى وجهة نظر غير متحيِّزة تمامًا بشأن الماضي، وإن كان منخرطًا بنشاط فى الصراعات العملية للحاضر. فعمله يمكن فقط أن يشحذ نظرته لكثير من ظواهر الماضي، فلا تبدو معتمة.

كان هذا هو الغرض من عرضي لركائز المسيحية الأوَّلية. لم يكن لديّ أي نيَّة سواء لتمجيدها او التقليل من شأنها، حسبي الرغبة فى فهمها. لقد عرفت أنه أيًّا ما كانت النتائج التى قد أصل إليها، فإن القضية التي أناضل من أجلها لن تتأثَّر بذلك.

أياماً كان الضوء الذي قد يظهر فيه بروليتاريّي الفترة الإمبراطورية لي، وأيًا ما كانت طموحاتهم، ونتائج هذه الطموحات، فليس هناك شك فى انهم كانوا مختلفين تماماً عن البروليتاريا الحديثة، مناضلين وعاملين فى وضع مختلف كلية وبمصادر مختلفة كلية. وأيًا ما كانت عظمة الإنجازات والنجاحات، النواقص الصغيرة والهزائم، الخاصة بالبروليتاريين القدامى، فلا يمكن ان تَعني شيئًا فى تكوين تقدير لطبيعة ومنظورات البروليتاريا الحديثة سواء من وجهة نظر مُحبَّذة أو غير محبَّذة.

ولكن، مادامت هذه هى الحالة، فهل هناك اي غرض عملي على الإطلاق من أن ينشغل المرء بالتاريخ؟ تعتبر النظرة العامة أن التاريخ بمثابة خريطة لذلك الذى يبحر فى بحر النشاط السياسي ؛ يجب أن تشير هذه الخريطة للجبال والمياه الضحلة التى سبَّبت حسرة للبحارة السابقين، وتمكّن خَلَفهُم من ان يبحروا فى البحر متفادين العاقبة. على أيّة حال، إذا كانت طرق الإبحار الصالحة فى التاريخ متغيِّرة دومًا، فإن المواقع الضحلة تتحوَّل متكوِّنة مرة بعد أخرى فى بقاع أخرى، وإذا كان على الملاح ان ينتقي طريقه من خلال سبر اغوار البحر من أجل إبحاره الخاص فى الطرق المائية ؛ فإن مجرد اتباع الخريطة القديمة فقط غالبًا ما يقودنا للضياع، لمَ إذن دراسة التاريخ على الإطلاق، إلا ربما كهواية تربية الحيوانات؟

إن القارئ الذى يصل لهذا الافتراض يرمي بالفعل الحنطة مع الزوان.

إذا استبقينا المجاز السابق، فيجب أن نعترف بأن التاريخ باعتباره خريطة دائمة لملاّح سفينة دولة هو بالفعل بلا فائدة، ولكن هذا لا يعني انه ليس له فائدة أخرى؛ إن الفائدة التي سيستخرجها منه ذات طبيعة مختلفة. فهو يجب أن يستخدم التاريخ بمثابة خيط سبر، كوسيلة لدراسة الطرق التي يبحر فيها، لفهمها ولموضعه فيها. إن الطريقة الوحيدة لفهم ظاهرة ما؛ هى فى تعلُّم كيف نشأت. لا استطيع ان افهم المجتمع الحاضر إذا لم أعرف الطريقة التي صار بها، كيف تطوَّرت ظواهره المتنوعة: الراسمالية، الإقطاعية، المسيحية، اليهودية، إلخ.

إذا كنت قد حصلت على فكرة واضحة عن الوظيفة الاجتماعية، المهام والمنظورات التى تخص الطبقة التى انتمي إليها او ربطت نفسى بها، يجب أن أحرز فهمًا للعضوية الاجتماعية، يجب أن اتعلَّم كيف أرصدها من كل زاوية، وهو الأمر الذي يستحيل كليًّا إذا لم أكن قد تتبعت نموها. فمن المستحيل ان تكون محاربًا واعيًا بعيد النظر فى الصراع الطبقي بدون فهم لتطور المجتمع. بدون فهم كهذا يبقى

المرء معتمدًا على الانطباعات التى تحيط به مباشرة واللحظة المباشرة، ولن يكون المرء متأكدًا ابدًا من ان هذه الانطباعات لن تأخذه إلى طرق تقود بوضوح إلى الهدف، ولكنها تأتي به بالفعل بين منحدرات لا مهرب منها.

لقد نجح بلا ريب عديد من الصراعات الطبقية بالرغم من حقيقة أنه لم يكن لدى المشاركين مفهومًا واضحًا عن الطبيعة الأساسية للمجتمع الذي عاشوا فيه. وتزول شروط مثل هذه النجاحات فى مجتمع اليوم، مثلما يصبح أمرًا عبثيًا بشكل متزايد فى هذا المجتمع أن يسمح المرء لنفسه بأن يُقاد فى اختياره للطعام والشراب مستهديًا بالغريزة والتقليد فحسب. ربما كانت هذه الأدلة كافية فى ظل ظروف طبيعية، بسيطة. كلما أصبحت شروط حياتنا أكثر اصطناعية، بسبب تقدم الصناعة والعلوم الطبيعية، كلما ابتعدت أكثر عن الطبيعة، وكلما باتت المعرفة العلمية المطلوبة أكثر ضرورة للفرد، حتى يختار من بين فيض المنتجات الاصطناعية المتاحة، تلك التى تكون أكثر ملائمة لعضويته. حينما شرب البشر الماء فقط، فقد كان كافيًا أن تكون لديهم غريزة تقودهم للبحث عن نبع ماء جيد وأن يتفادوا ماء المستنقعات الراكد. ولكن هذه الغريزة عاجزة فى وجود مشروباتنا المصنَّعة ؛ حيث يصبح الفهم العلمي الآن ضرورة مطلقة.

الحال شديد الشبه فى السياسة وفى النشاط الاجتماعي بصفة عامة. فى مجتمعات العصور القديمة، التي كانت غالبًا صغيرة جدًا، بشروطها البسيطة الواضحة، التي بقيت بلا تغيير لقرون، التقاليد و"الحس العام الواضح" - بمعنى آخر، الحكم السليم الذى حصل عليه الفرد من التجربة الشخصية - كانت كافية لتربية مكانة ووظيفته فى المجتمع. ولكن اليوم، فى مجتمع يطوق سوقه العالم كله، الذي هو فى عملية تحوُّل دائم، من الثورة الصناعية والاجتماعية، الذى ينظِّم فيه العمال أنفسهم فى جيش من الملايين، والرأسماليون يراكمون الملايين من النقود، فإنه من المستحيل لطبقة صاعدة، طبقة لا تستطيع أن تقنع باستبقاء الوضع القائم status quo، والمضطَّرة لأن تهدف إلى إعادة بناء كاملة للمجتمع، أن تقود نضاله الطبقى بذكاء ونجاح بواسطة اللجوء إلى مجرد "الحس العام الواضح" وللعمل التفصيلى للرجال العمليين. يصبح ضرورة لكل مقاتل أن يوسِّع أفقه من خلال الفهم العلمى وأن يرصد اشتغال القوى الاجتماعية الكبرى فى الزمان والمكان، ليس من أجل أن يلغي العمل التفصيلي، أو حتى أن يزيحه إلى المؤخِّرة، وإنما من اجل ان ينظِّمه فى علاقة محدَّدة مع العملية الاجتماعية ككل. ويصبح ذلك أكثر ضرورة مادام هذا المجتمع،

الذى يطوق عمليًا العالم بأجمعه الآن، ويدفع قدمًا تقسيمه للعمل، قاصرًا الفرد أكثر فأكثر على اختصاص مفرد، على عملية مفردة، وهكذا يميل إلى أن يدني بشكل متلاحق مستواه العقلى ليجعله أكثر تبعية وأقل قدرة على فهم العملية ككل، التي تتفكك فى نفس الوقت إلى أقسام هائلة.

يصبح عندئذ واجب كل إنسان جعل تقدُّم البروليتاريا عمل حياته، أن يعارض هذا الميل تجاه الركود الروحى والغباوة، وأن يجذب انتباه البروليتاريين لوجهات نظر عظمى، ولمنظورات كبرى، ولأهداف ذات قيمة.

تكاد لا تكون هناك أى طريقة لعمل هذا أكثر فعالية من دراسة التاريخ، بالنظر ورصد تطور المجتمع عبر فترات كبيرة من الزمان، خاصة حينما يكون هذا التطور قد شمل حركات اجتماعية هائلة يستمر عملها حتى الوقت الحاضر.

لإعطاء البروليتاريا فهمًا اجتماعيًا، وعيًا بالذات ونضجًا سياسيًا، لجعلها قادرة على تشكيل رؤى عقلية عظيمة، يجب أن ندرس لهذا الغرض العملية التاريخية بمساعدة المفهوم المادي للتاريخ. فى ظل هذه الظروف فإن دراسة الماضي، تكون بعيدة عن أن تكون مجرد هواية آثارية قديمة، وتصبح سلاحًا ماضيًا فى نضال الحاضر، بهدف تحقيق مستقبل أفضل.

كارل كاوتسكى

برلين، سبتمبر، 1908

القسم الأول
شخصية يسوع

الفصل الأول
المصادر الوثنية

أيًا ما كان موقفنا تجاه المسيحية، فيجب أن نعترف بها بوصفها واحدة من أكثر الظواهر العملاقة فى التاريخ البشري كما هو معروف لديّنا. لا نستطيع أن ننظر بدون إعجاب شديد للكنيسة المسيحية، التى استمرت حوالي عشرين قرنًا، والتي نعتبر أنها ما زالت مليئة بالقوة، أقوى فى عديد من البلدان حتى من الدولة. يصبح من ثمَّ، كل شيء، يمكن أن يسهم فى فهم هذه الظاهرة المهيبة اهتمامًا حاضرًا هامًا للغاية ذا مغزى عملي عظيم، هذا هو موقفنا إزاء دراسة أصل هذا التنظيم، الذي سوف يعود بنا آلاف الأعوام فى التاريخ.

تقودنا القوة الحالية للمسيحية لأن ننظر لدراسة بداياتها باهتمام أعظم مدى أكثر من أي بحث تاريخي آخر، ولو أنها تعود بنا فقط قرنين [1]، ولكنها تجعل أيضًا بحث هذه البدايات أكثر صعوبة مما إذا كانت خلافًا لذلك.

لقد أصبحت الكنيسة المسيحية تنظيمًا للهيمنة، سواء فى صالح رجالاتها أو رجالات تنظيم آخر، الدولة، حيث نجحت الأخيرة فى السيطرة على الكنيسة. إن مَن سيقاتل هذه القوى يجب أن يقاتل الكنيسة أيضًا. النضال من أجل الكنيسة، مثله فى ذلك مثل النضال ضد الكنيسة، قد أصبح من ثمَّ قضية حزبية، الذي ترتبط به المصالح الاقتصادية الأشد أهمية. بالطبع، من المحتمل للغاية أن يُعتِّم هذا الوضع وحده على المتابعة الموضوعية لدراسة تاريخية عن الكنيسة، وقد دعا الطبقات الحاكمة لفترة طويلة لمنع أي بحث عن بدايات المسيحية على الإطلاق، لإضفاء طابعًا إلهيًا على الكنيسة التى تقف فوق وما وراء النقد البشري.

نجح " التنوير" البورجوازي فى القرن الثامن عشر أخيرًا فى التخلُّص من تلك الهالة الإلهية مرة وإلى الأبد. فلم يكن البحث العلمي عن أصل المسيحية ممكنًا حتى آنذاك. ومن الغريب أن نقول، أن العلم غير الإكليركي قد ابتعد عن هذا الحقل حتى فى القرن التاسع عشر، وبدا أنه ينظر إليه باعتباره مازال ينتمى لمجال اللاهوت على

---

1 . من الواضح أنها إشارة لتأسيس المملكة البروسية فى 1701 - المترجم (عن النص الألمانى).

وجه الحصر، وهكذا ليس موضع اهتمام العلم على الإطلاق. إن عددًا عظيمًا من المؤلفات التاريخية، التى كتبها أكثر المؤرخين البورجوازيين أهمية فى القرن التاسع عشر، تعالج الفترة الإمبراطورية الرومانية بخطو متهيِّب واضح لأكثر ظواهر هذه الحقبة أهمية، أي، نشوء المسيحية. وهكذا قدَّم "مومسن"، فى المجلد الخامس من كتابه التاريخ الروماني، دراسة مفصَّلة عن تاريخ اليهود فى ظل القياصرة، ولم يكن بمقدوره تجنب ذكر المسيحية عرضًا فى هذا القسم، ولكن تظهر المسيحية فى مؤلَّفه كحقيقة ناجزة، المعرفة بوجودها مفترض مسبقًا. إجمالاً، يمكن القول بأن اللاهوتيين وخصومهم فقط، الدعاة أحرار الفكر هم مَن أظهروا حتى الآن اهتمامًا ببدايات المسيحية.

لم يكن بالضرورة جبنًا هو ما أعاق المؤرِّخين البورجوازيين، إلى الحد الذى كانوا ينتجون فيه التاريخ وحده وليس ايضًا أدبًا جداليًا من ان ينشغلوا بأصل المسيحية. لقد كان سببًا كافيًا لعدم التوجه لهذه المسألة، الضآلة التعسة للمصادر التى ينبغي أن نستخرج منها معرفتنا بهذا الموضوع.

إن المسيحية وفقًا لوجهة النظر التقليدية هى من خلق رجل واحد هو يسوع المسيح، ووجهة النظر هذه لم تنمحِ تمامًا بأيَّة حال. من المحقق، على الأقل، فى الدوائر "المستنيرة"، "المثقفة" أن يسوع لا يعتبر بعد إلهًا، ولكنه مازال يعد شخصية استثنائية. فهو من انطلق ليؤسِّس ديانة جديدة ونجح فى سعيه إلى درجة مرموقة واضحة فى عمومها لحد بعيد. لم يتبنَ وجهة النظر هذه اللاهوتيون المستنيرون فقط، ولكن أيضًا المفكِّرون الأحرار الجذريون، يميِّز الأخيرون أنفسهم عن اللاهوتيين فقط بواسطة النقد الذي يوجِّهونه لشخصية يسوع، حيث يحاولون أن يطرحوا منها إلى أقصى مدى ممكن كل ما هو نبيل.

على أيَّة حال، حتى قبل نهاية القرن الثامن عشر، فإن المؤرِّخ الإنجليزى جيبون، فى كتابه تاريخ تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية (الذي كتب من 1774 حتى 1788) أشار بسخرية ناعمة للحقيقة المذهلة بأنه لا أحد من معاصري يسوع قد روى أي شيء عنه، بالرغم من حقيقة وجود مزاعم بأنه اجترح مثل تلك الأفعال العجيبة.

"ولكن كيف نعذر عدم الانتباه المهمل للعالم الوثني والفلسفي تجاه هذه الأدلة التى قدَّمتها يد، كُليّ القدرة، ليس لعقلهم، بل لأحاسيسهم؟ فى خلال عهد المسيح، ورسله، وتلاميذهم الأوِل، كان المذهب الذى بشَّروا به قد صادقت عليه آيات لا تُحصى. مشى المفلوج، رأى الأعمى، وشُفى المرضى، وقام الموتى، وطُرد الشياطين، وأُوقفت قوانين

الطبيعة مرارًا لصالح الكنيسة. ولكن حكماء اليونان وروما التفتوا عن المشهد المهول، مواصلين الاهتمامات العادية بالحياة والدراسة، وظهروا كأنهم غير واعين بأى تغيير فى الحكومة الأخلاقية أو الفيزيائية للعالم ".

طبقا للتقليد المسيحي، فإن الأرض كلها، أو على الأقل كل فلسطين، قد غمرها الظلام لثلاث ساعات بعد موت يسوع. وقد جرى هذا أثناء حياة "بلينى الأكبر"، الذي كرَّس فصلاً خاصًا فى كتابه **التاريخ الطبيعي** عن موضوع الكسوفات، ولكنه لا يقول شيئًا عن هذا الكسوف (جيبون، الفصل 15 **تدهور وسقوط**، لندن، 1895. المجلد 2 ص ص 69- 70).

ولكن حتى إذا تغاضينا عن المعجزات، فمن الصعب أن نفهم أن شخصية مثل يسوع الأناجيل، الذي أثار وفقًا للرواية، مثل هذا الاضطراب فى عقول البشر، يمكن أن يواصل تحريضه ويموت فى النهاية باعتباره شهيد قضية بدون أن يكرِّس له معاصروه من الوثنيين والعبرانيين ولو كلمة واحدة.

يُذكر يسوع أول ما يُذكر من قبل مؤلف غير مسيحي فى كتاب **الآثار اليهودية**Jewish Antiquities (الذى كتبه) يوسيفوس فلافيوس. الفصل الثالث، من الكتاب الثامن عشر، الذي يتناول الوالي بنطس البيلاطي، وهو يقول، من بين أشياء أخرى:

"حوالى هذا الوقت عاش يسوع، رجل حكيم، إذا كان يمكن أن يسمَّى رجلاً، لأنه حقَّق معجزات وكان معلمًا للرجال، الذين قبلوا حقيقته بسرور، ووجد كثيرًا من الأتباع بين اليهود والهيلينيين. هذا الرجل كان المسيح. بالرغم من أن البيلاطى قد صلبه آنئذ وفقًا لاتهام أكثر الرجال امتيازًا من شعبنا، فإن هؤلاء الذين أحبوه بداية بقوا مخلصين له مع ذلك. لأنه ظهر لهم فى اليوم الثالث مرة أخرى، نهض لحياة جديدة، كما تنبَّأ أنبياء الرب بهذا وبآلاف الأشياء المعجزة الأخرى عنه. منه أخذ المسيحيون اسمهم؛ ولم تتوقف طائفتهم(φῦλου) منذئذ".

يتحدث يوسيفوس مرة أخرى عن المسيح فى الكتاب الثانى عشر، الفصل التاسع، 1، قائلا بأن رئيس الكهنة انانوس، فى ظل حكم الوالى "البينوس (فى عهد نيرون) قد نجح فى تقديم " يعقوب أخُ يسوع، المسمَّى بالمسيح (λξγομξνου χριστοῦ) للمحاكمة، مع عدد آخر أشير إليهم باعتبارهم منتهكي الناموس، ورجموا ".

لطالما قدَّر المسيحيون الأدلة، لأنها كلمة لم تصدر عن مسيحى، وإنما من يهودى وفرِّيسى، ولد فى عام 37 ب.م، وعاش فى أورشليم، ومن المحتمل أن كانت لديه من ثمَّ

معلومات موثوقة للغاية تتعلّق بيسوع. أضف إلى ذلك، فإن شهادته هى الأكثر أهمية، مادام، لكونه يهوديًا، ليس لديه سبب لتلوين الحقائق لصالح المسيحيين.

ولكن هذا التمجيد المغالى فيه ليسوع من اليهودي الورع تحديداً جعل هذا المقطع فى مؤلفه يبدو مشكوكاً فيه حتى بالنسبة للدارسين الأوائل. لقد نوقشت مدى الثقة فيه قبلاً فى القرن السادس عشر، ومن المؤكد الآن أنه تزييف لم يكتبه يوسيفوس على الإطلاق [1].

لقد أضيف فى مجرى القرن الثالث من قبل ناسخ مسيحي، يبدو من الواضح أنه قد صدم لأن "يوسيفوس" لم يقدّم أيّة معلومات تتعلق بشخص يسوع، بينما يورد أشد الثرثرات طفولية من فلسطين. لقد شعر المسيحى الورع عن صواب بأن عدم ذكره كان يساوي إنكار وجود، أو على الأقل أهمية، مخلّصه، وأصبح فضح إدراجه لهذا النص من الناحية العملية دليلاً ضد يسوع.

ولكن المقطع الذى يتعلّق بيعقوب هو أيضًا ذو طبيعة مشكوك فيها للغاية. إنه من الصحيح أن "أوريجن"، الذي عاش من 185 حتى 254 ب.م، يذكر، فى تعليقه على "متّى" **Mattew**، مقطعًا عند "يوسيفوس" يتعلّق بيعقوب. وهو يلاحظ فى هذا الصدد أنه من الغريب أن يوسيفوس مع ذلك لم يؤمن بيسوع باعتباره المسيح. وهو يقتبس مرة أخرى هذا التصريح الخاص بيوسيفوس فى جداله ضد سلسوس، ويشير مرة أخرى إلى شكية يوسيفوس. إن كلمات أوريجن هذه هى واحدة من الأدلة التى تظهر أن كتاب يوسيفوس فى شكله الأصلي لم يكن فيه المقطع الذى يتعلّق بيسوع الذى يعترف فيه بالأخير باعتباره المسيح، المخلّص. يبدو الآن أن المقطع الذي يتعلق بيعقوب، الذي وجده أوريجن عند يوسيفوس، هو أيضًا إدراج مسيحى، لأن هذا المقطع كما اقتبسه أوريجن مختلف تمامًا عن ذلك الذي تضمنته نصوص يوسيفوس التي وصلت إلينا. يعرض اقتباس أوريجن تدمير أورشليم كعقاب على إعدام يسوع. هذا الإدراج لم يمر إلى نصوص يوسيفوس الأخرى ومن ثمَّ لم يحفظ. ولكن المقطع الذي وصل فى نصوصنا ليوسيفوس، من ناحية أخرى، لم يقتبس من قبل أوريجن، بينما يذكر المرّات الثلاث الأخرى فى مناسبات متنوعة. وهذا بالرغم من حقيقة أنه قد اقتبس بعناية كل الأدلة عند يوسيفوس التى كانت تحبِّذ على الأرجح الإيمان المسيحي. إنه من ثمَّ من المعقول أن نفترض أن مقطع يوسيفوس الذي وصل إلينا هو تزوير أيضًا، وأنه قد

---

2 قارن، بين أعمال أخرى، شورر،
Geschichte Des Jüdishen Volkes Im Zeitalter Jesu Christi , v I. Third Edition , 1901 , p "544ff

ادرج من قبل أحد المسيحيين الورعين، من أجل مجد الرب الأعظم، بعد زمن أوريجن، ولكن قبل زمن إيوسيبوس، الذي يقتبسه.

ليس فقط ذكر يسوع ويعقوب عند يوسيفوس ولكن أيضًا يوحنا المعمدان (الآثار، 18، الفصل الخامس، 2) هو موضع شك باعتباره إدراجًا [1].

نحن من ثم نجد إدراجًا مسيحيًا لدى يوسيفوس عند كل خطوة، من البدايات الأولى للقرن الثانى. كان صمته فيما يتعلّق بالشخصيات الرئيسة للأناجيل مصدمًا للغاية ببساطة، وكان لابد أن يتغيَّر.

ولكن حتى لو أن التصريح المتعلّق بيعقوب حقيقيًا، فسوف يبيِّن على الأكثر أنه كان هناك يسوع ما يُدعى المسيح، أي، المخلّص. وليس من المحتمل أن يثبت أكثر من هذا. ولكن حتى إذا أقررنا بأن المقطع حقيقى، فلن يكون أقوى من خيط عنكبوت وسوف يجد اللاهوت النقدي من الصعوبة بمكان أن يوقف عليه شكلاً إنسانيًا. لقد كانت هناك وفرة من المُسحاء الكذبة فى زمن يوسيفوس، تعود حتى القرن الثاني، حتى أنه ليس لديّنا أكثر من ذكر موجز عنهم. كان هناك يهوذا من الجليل، ثيوداسى، مصرى بغير اسم، سامري، وبار كوخبى. وربما كان بالفعل هناك يسوع بينهم. كان اسم يسوع مألوفًا للغاية بين اليهود - يوشع، يوسع، المخلّص" [2].

يفيدنا المقطع الثاني عند يوسيفوس على الأكثر أنه من بين المحرِّضين الذين كانوا يشتغلون فى فلسطين باعتبارهم مخلصين، ومرسومين من الرب، كان هناك واحد يسمَّى يسوع. لا يخبرنا المقطع بأي شيء يتعلّق بحياته وعمله مطلقًا.

يذكر يسوع عند كاتب غير مسيحي فى حوليات **Annals** المؤرِّخ الروماني، تاسيت، التي أُلِّفت حوالي العام 100 ب.م. فى الكتاب الخامس عشر، وصف حريق روما فى ظل نيرون، ونقرأ فى الفصل 44 مايلي:

"من أجل أن ينفي الرواية (التى وضعت اللوم بشأن هذا الحريق على نيرون) فقد اتهم أشخاصًا كان يسميهم الشعب مسيحيين، والذين كرهوا بسبب أعمالهم الرديئة، بهذا الذنب، ومورست أشد العقوبات إيلامًا عليهم. ومن أخذوا عنه اسمهم، المسيح، كان قد أُعدم فى حكم طيباريوس من قِبل الوالي بيلاطس البنطيّ، ولكن بالرغم من

---

3 شورر، نفس المصدر، ص ص 438، 548، 581.

4 البرت خالتوف، نشوء المسيحية، ترجمة جوزيف ماك كابى، لندن، 1907 ص ص 20، 21.

أن هذه الخرافة كانت قد قمعت للحظة هكذا، فقد ثارت مرة أخرى ليس فى اليهودية فحسب، الموطن الأصلي لهذا البلاء (Mali)، ولكن حتى فى روما نفسها، فى أي مدينة كل اعتداء وكل عار (atrocia aut pudenda) يجد ملاذًا وانتشارًا واسعًا. فى البداية قبض على قلة الذين اعترفوا، وبعد ذلك بناءً على اتهامهم، قبض على عدد كبير من الآخرين، الذين لم يكونوا، على أيَّة حال، قد اتهموا بجريمة الإحراق عمدًا وإنما بجريمة كراهية الإنسانية. لقد جعل إعدامهم تسلية عامة، فغطُّوا بجلود الوحوش المفترسة ثم مُزقوا بعدئذ من الكلاب أو صلبوا، أو أُعدوا للمحرقة، ثم بعدئذ حرقوا بمجرد أن هبط الليل، لإضاءة المدينة. قدَّم نيرون حدائقه من أجل هذا المشهد، بل أعدَّ حتى ألعاب السيرك التى اختلط فيها مع الشعب فى زي سائق مركبة، أو اعتلى مركبة سباق. وبالرغم من أن هؤلاء الرجال كانوا مجرمين يستحقون أشد عقوبة، فقد وجد هناك بعض التعاطف معهم، لأنه بدا أنه قد ضحَّى بهم لا من أجل الصالح العام، وإنما بسبب قسوة رجل فرد".

ليست هذه الشهادة بالتأكيد تزويرًا صنعه المسيحيون فى صالح المسيحيين. "مما لا ريب فيه، فقد طعن في صدقها. لأن ديوكاسيوس لا يعرف شيئًا عن اضطهاد المسيحيين فى ظل نيرون. على أيَّة حال، فإن ديوكاسيوس قد عاش فى القرن التالى على تاسيت. أما سويتينيوس، الذي كتب ليس بعد فترة طويلة من تاسيت، فيروي فى سيرته الذاتية عن اضطهاد للمسيحيين، "الناس الذين اعتنقوا خرافة جديدة شريرة" (الفصل السادس عشر).

ولكن عن يسوع، لا يقول لنا سويتينيوس شيئًا على الإطلاق، وتاسيت لا ينبئ حتى باسمه. المسيح، الكلمة الإغريقية "المرسوم"، ليست أكثر من الترجمة اليونانية للكلمة العبرية " المخلِّص. " فيما يتعلَّق بنشاطات المسيح "ومضمون تعاليمه ليس لدى تاسيت شيء يقوله.

وهذا هو كل ما تخبرنا به المصادر غير المسيحية فى القرن الأول من عصرنا عن يسوع.

الفصل الثانى
المصادر المسيحية

ولكن ألا تفيض المصادر المسيحية على نحو أكثر غزارة؟ أليس لدينا فى الأناجيل أكثر الروايات دقة عن تعاليم وتأثير يسوع؟

مما لا شك فيه أنها دقيقة. ولكن جدارتها بالتصديق أمر مختلف تمامًا. إن مثال التزوير عند يوسيفوس قد جعلنا بالفعل ملمِّين بسمة مميِّزة للكتابة المسيحية الأولى للتاريخ، أي، لا مبالاتها الكاملة بالحقيقة. لم يكن الكتَّاب معنيون بالحقيقة، وإنما بتحقيق غايتهم، ولم يكونوا مرهفين على الإطلاق فى اختيار وسائلهم.

حتى نكون عادلين تمامًا، يجب أن نعترف أنهم لم يكونوا مختلفين فى هذا الصدد عن زمانهم. لم يكن الأدب الديني اليهودي أفضل بأيَّة حال، والحركات الصوفية " الوثنية " السابقة والتالية على بداية العصر المسيحي كانت موصومة بذات الانتهاك. إن سذاجة العوام، والرغبة فى خلق تأثير، وكذلك عدم الثقة فى قدراتهم الخاصة، والحاجة إلى التعلُّق بسلطات ما فوق إنسانية، افتقار الحس بالواقع، وهى خصائص سوف نفحص أسبابها لاحقًا، كانت حينئذ تفسد كامل جسد الأدب خاصة حيثما تمايز عن الخطوط التقليدية. سوف نجد أدلة كثيرة على هذا فى الأدبين المسيحي واليهودي. ولكن الحقيقة هى أن الفلاسفة الصوفيين أيضًا كانوا مائلين فى هذا الاتجاه - مما لا ريب فيه أنهم كانوا مرتبطين بوثوق بالمسيحية - كما ظهر على سبيل المثال، من جانب الفيثاغورثيين الجدد، وهى طائفة نشأت فى القرن السابق على ميلاد المسيح. مذهبهم، خليط من الأفلاطونية والرواقية، غنى بالإيمان بالرؤى، جائع للمعجزات، ادَّعى أنه تعاليم الفيلسوف القديم فيثاغورث، الذي عاش فى القرن السادس قبل الميلاد، والذي عرف عنه كان ضئيلاً للغاية. وهكذا أصبح من الأسهل نسبة أى شيء احتاج إلى نفوذ اسم عظيم إليه.

"لقد رغب الفيثاغورثيون الجدد فى أن يُعدُّوا تلامذة حقيقيين للفيلسوف الساموسى القديم: حتى يجعلوا من الممكن عرض تعاليمهم باعتبارها فيثاغورثية حقيقية، فقد قاموا بتلك التشويهات الأدبية التى لاحصر لها والتى نسبت كل شيء

بلا تردد بغض النظر عن جدته، أو لأي حد يمكن أن يكون معروفًا جيدًا أصله الأفلاطوني أو الأرسطي، إلى فيثاغورث أو ارخيتاس" [1].

والحالة بصدد الأدب المسيحي الأولى مشابهة تمامًا، فقد كان من ثمَّ فى وضع من التشويش تطلب العمل المثابر لبعض العقول الأكثر ذكاء فى القرن الماضي لترتيبه، بدون تحقيق أيَّة نتائج ملحوظة.

دعنا نشير إلى حالة واحدة وكيف كان التشوُّش الناتج عن خلط أكثر المفاهيم تنوُّعًا فيما يخص أصل الكتابات المسيحية الأوَّلية عظيمًا. إن الحالة المعنيَّة هى رؤيا القديس يوحنا، وهى جوزة يصعب كسرها بصفة خاصة. وعند بفليدرر ما يقال حول هذا الموضوع فى كتابه **المسيحية الأوَّلية، كتاباتها وتعاليمها** فيما يلي:

"كان كتاب دانيال هو الأبكر فى هذه "النبوءات، وقد وضع نموذجًا للسلاسل كلها. حين جرى البحث عن مفتاح لتفسير رؤى دانيال فى أحداث الحرب اليهودية فى زمن أنطيوخوس إبيفانس، فقد افترض بشكل صحيح أن النبوءة اليوحانية (نسبة إلى يوحنا) كان ينبغي أن تفسَّر استنادًا لظروف زمانها. وفقًا لذلك، حين فُسِّرَ العدد الصوفى 666 فى الإصحاح الثالث، الآية 18، غالبًا بشكل متزامن من قبل عدة باحثين (بنارى، وهيتزيج، ورويس) استنادًا للقيمة العددية للحروف العبرية، باعتباره يعني الإمبراطور نيرون، فقد استخلصت النتيجة من مقارنة الإصحاحين الثالث عشر والسابع عشر بأن النبوءة قد ظهرت فور موت نيرون عام 68. ظلَّت هذه لفترة طويلة وجهة النظر السائدة، خاصة فى مدرسة توبينجن الأسبق، التي استندت على الافتراض المسبق، والتي مازالت تتمسك به بحزم، ورأت أن تأليف الكتاب من قبل الرسول يوحنا، افترض أن المفتاح لكامل الكتاب كان يجب أن يوجد فى واقع الصراع الحزبي بين اليهوذيين **Judaisers** واتباع بولس – وهو تفسير لم يكن ممكنًا الخوض فيه بالتفصيل بدون اعتباطية عظيمة (واضحة بصفة خاصة عند فولكمار). أُعطى تلميذ فـيتسكر، دانيل فـولتر، دافعًا جديدًا نحو بحث كامل للمشكلة عام 1882، الذي صاغ الفرضية استنادًا إلى أن هناك مراجعة متكرِّرة وتوسيع أوَّلي للوثيقة من قِبل مؤلفين متعددين بين 66 و 170 (مثبتًا فيما بعد، عام 140 باعتباره الحد الأدنى). خضع منهج النقد الموثَّق المطبق هنا لأكثر التغييرات تنوعًا فى الخمسة عشر عامًا التالية. افترض فـيشر وثيقة يهودية بوصفها الأساس، الذى اشتغل عليه محرِّر مسيحي ؛

---

5 تسلر، **philosophie der griechen**، الجزء الثالث، القسم الثانى، ليبزج، 1868، ص 96.

وافترض ساباتير وشون، من ناحية اخرى وجود وثيقة مسيحية أصلية أدرجت داخلها مواد يهودية ؛ وميَّز ويلاند مصدرين يهوديين، يعود تاريخهما إلى زمنى نيرون وتيتوس، ومحرِّرًا مسيحيًّا من عهد تراجان، كما ميَّز سبيتا وثيقة أولية مسيحية من عام 60 ب.م، ومصدرين يهوديين من عام 63 ق.م. وعام 40 ب.م ؛ ومنقِّح مسيحي من عهد تراجان، وشميدت، ثلاث مصادر يهودية ومنقِّحين مسيحيين ؛ أما فــولتر (فى مؤلف ثان عام 1893)، فنبوءة أصلية من عام 62، واربع تنقيحات فى ظل تيتوس، دوميتيان، تراجان، وهادريان. وقد كانت نتيجة هذه الفرضيات المتعارضة معًا والمعقدة لهذا الحد أو ذاك، أخيرًا، أن " (من لا صلة له بالموضوع) تلقى انطباعًا بأن لا شيء مؤكد ولا شيء مستحيل فى حقل نقد العهد الجديد، (يوليشر، مدخل، "ص، 287)" [1].

ولكن بفليدرر يعتقد مع ذلك بأن "الأبحاث المثابرة للقرنين الماضيين" قد اثمرت "نتيجة محددة"، مع ذلك يجرؤ بالكاد على التصريح بذلك فى كلمات وافرة، بل يقوله فى شكل ما "يبدو" له هكذا. ويمكن القول بأن النتائج المطمئنة المعقولة بالنسبة للأدب المسيحي الأوَّلى قد جرى الحصول عليها غالبًا ويدون استثناء بطريقة سلبية، اي عبر التحقق مما كان مزيفًا بالتأكيد.

من المؤكد أن قلة ضئيلة فقط من الكتابات المسيحية الأوَّلية كتبت حقًا من قِبل المؤلفين الذين نسبت إليهم، أما بالنسبة للقسم الأعظم فقد ظهرت بشكل متأخر كثيرًا عن التواريخ التى شاع أنها لها، وأن نصَّها الأصلي قد شُوِّه بفظاعة فى حالات كثيرة بواسطة التنقيحات التالية والإضافات. وأخيرًا، فمن المؤكد أنه لم يكتب أي من الأناجيل أو الأعمال المسيحية الأوَّلية الأخرى من قبل اي معاصر ليسوع.

يعتبر الإنجيل المسمَّى باسم القديس مرقس الآن أقدم الأناجيل، وهو لم يكتب بالتأكيد قبل تدمير أورشليم، وهو ما يعرضه المؤلف باعتبار أنه قد جرى التنبؤ به من قبل يسوع، بمعنى آخر، فهو التدمير الذى يتعين أن يكون قد أنجز بالفعل حين كُتب الإنجيل. من ثمَّ، فمن المحتمل أن يكون هذا الإنجيل قد كتب ليس أقل من نصف قرن بعد الزمن الذي نسب إليه باعتباره زمن موت يسوع. إن ما يتضمنه هو من ثمَّ نتاج لتطور خرافة خلال نصف قرن.

بعد مرقس يأتي لوقا، وبعدئذ المسمَّى متَّى، وأخيرًا يوحنا، فى منتصف القرن الثانى،

---

6 بفليدرر، المسيحية الأولية، كتاباتها وتعاليمها فى ارتباطاتها التاريخية، لندن ونيويورك، 1906 – 1911، المجلد الثالث، ص ص 401، 402.

وعلى الأقل قرن بعد ميلاد المسيح. كلما تقدمنا أبعد فى الزمان، كلما أصبحت هذه الأناجيل عجائبية. مما لاريب فيه، فإن المعجزات تجري أيضًا عند القديس مرقس، ولكنها بريئة تمامًا بالمقارنة مع التالية لها. وهكذا، ففى حالة القيامة من بين الأموات، استدعى مرقس يسوع إلى جانب ابنة يايروس، التي أشرفت على الموت. الكل يعتقد أنها ماتت، ولكن يسوع يقول: "لم تمت الصبية ولكنها نائمة" ويضع يده عليها، فتنهض (مرقس الإصحاح الخامس).

عند لوقا، لدينا إضافة إلى ذلك إعادة الحياة إلى فتى نايين. لقد مات لفترة طويلة تكفي لأن يكون فى طريقة إلى المقبرة حين يقابله يسوع، جعله الأخير يقوم من نعشه (لوقا الإصحاح السابع).

بالنسبة للقديس يوحنا، فإن هذه الموضوعات ليست قوية بما فيه الكفاية. يسجل فى إصحاحه الحادى عشر "قيامة لعازر، الذى صار أربعة أيام فى القبر"، "وقد أنتن". وهكذا فإن يوحنا يضرب الرقم القياسى.

"ولكن الإنجيليين كانوا رجالاً غاية فى الجهل، أفكارهم حول موضوعات كثيرة تتعلق بما كتبوه خاطئة تمامًا. وهكذا جعل لوقا يوسف يرحل مع مريم من الناصرة إلى بيت لحم بمناسبة إحصاء روماني إمبراطوري للسكان مستهدفًا القول بأن يسوع قد ولد فى بيت لحم. ولكن لم يجر إحصاء كهذا فى ظل أغسطس. أضف إلى ذلك، أن اليهودية لم تصبح ولاية رومانية حتى بعد التاريخ المنسوب إلى ميلاد المسيح. أُجرى إحصاء للسكان فى العام السابع ب.م، بالفعل ولكن القائمين على الإحصاء ذهبوا إلى مستوطنات السكان. لم يكن ضروريًا على الإطلاق أن يذهبوا إلى بيت لحم [1].

سوف تكون لدينا فرصة العودة لهذه النقطة. أضف إلى ذلك، فإن إجراءات المحكمة عند محاكمة يسوع أمام بنطس البيلاطى لا تتفق لا مع القانون الروماني أو اليهودي. حتى فى حالات معيَّنة، حيث لا يسرد الإنجيليون فيها معجزات، يعرضون غالبًا مواقف غير حقيقية ومستحيلة.

وهكذا تخمَّر التلفيق فى "إنجيل" عانى أكثر من عدة تغيرات على أيدي "المحرِّرين" التاليين والنسَّاخين من أجل تثقيف المؤمنين.

---

7 حول هذه النقطة، انظر داڤيد شتراوس، **حياة يسوع، معالجة نقديا**، لندن، 1846، المجلد الأول ص ص 200 - 208.

تنتهى أفضل نصوص مرقس على سبيل المثال، بالإصحاح السادس عشر، الآية 8، عند النقطة التى تبحث فيها النساء عن يسوع الميت فى القبر، ولكنهن يجدن بدلاً منه شابًا لابسًا حُلّة طويلة بيضاء، حيث هربن من القبر، و "كن خائفات".

لا تنتهي طبعاتنا التقليدية عند هذه النقطة، ولكن ما تلى ذلك كتب فى وقت أكثر تأخرًا. مع ذلك، لم يكن من الممكن للمؤلف أن ينتهي بالآية الثامنة الموصوفة آنفًا. لقد افترض رينان سلفًا بأن ما تلى ذلك قد اصطنع لصالح القضية الخيِّرة، لأنه تضمَّن مادة تعارضت مع التفسير التالى.

من ناحية أخرى، فإن بفليدرر وآخرين انتهوا، بعد بحث شامل، إلى الاستنتاج بأن " إنجيل لوقا لم يحتوِ أصلاً على شيء عن الأصل ما فوق الطبيعى ليسوع، وإنما "ظهرت الرواية فيما بعد، وأُدرجت فى النص بإضافة الآيات 34 وما يليها [1] فى الإصحاح الأول، وللكلمات "على ما كان يظن " فى الإصحاح الثالث، 23 " [2].

على ضوء ماسبق، فليس من المدهش أن يبدأ كثير من الباحثين فى صدر القرن التاسع عشر بالفعل، في النظر للأناجيل باعتبارها غير ذات فائدة تمامًا بوصفها مصادر لسيرة يسوع، وقد ذهب برونوباور إلى حد الإنكار المطلق للحقيقة التاريخية ليسوع. وكان من الطبيعى ألاّ يكون اللاهوتيون مع ذلك قادرين على أن يتخلُّوا عن الأناجيل، وحتى الأكثر ليبرالية منهم قد بذل كل جهد ممكن للاحتفاظ بسلطتها. ماذا سوف يبقى من المسيحية إذا جرى التخلّى عن شخصية المسيح؟ ولكن من أجل إنقاذ الأخير فهم مضطرون للّجوء لأكثر التحريفات والتركيبات سذاجة.

وهكذا فإن هارناك، فى محاضراته عن أساسيات المسيحية (1900) أعلن أن دافيد فردريك شتراوس ربما اعتقد أنه كان يوقع بمصداقية الأناجيل وكأنها قبعة مطهية، ولكن العمل التاريخى والنقدي لجيلين قد نجح مع ذلك مرة أخرى فى تأسيس هذه الحقيقة إلى مدى بعيد. ولا شك، أن الأناجيل ليست أعمالاً تاريخية، "وهي لم تكتب من أجل أن تقدِّم حقائق كما حدثت، ولكن قصد بها أن تكون وثائق

---

8 فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا ولست أعرف رجلاً. فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلّلك، إلخ.

9وهو (على ما كان يظن) ابن يوسف هذا المقطع من بفليدرر مأخوذ من كتابه **المسيحية الأوّلية**، لندن ونيويورك، 1906 - 1911، المجلد الثانى، ص 103.

مُثقفة." مع ذلك فهى ليست بلا فائدة كمصادر تاريخية، خاصة وأن غرضها لم يكن غرضًا مفروضًا من الخارج، ولكنها تتوافق مع نيَّة يسوع بعدة طرق" (ص 14).

ولكن ماذا يمكن أن نعرف عن نوايا يسوع، إذا نحّينا جانبًا ما تقوله "الأناجيل لنا! إن تعليل هارناك بأجمعه دعمًا لجدارة الأناجيل بالتصديق بوصفها مصادر لحياة يسوع يبرهن فحسب على كيف أنه من المستحيل تقديم أي دليل واضح فى هذا الاتجاه.

يضطر هارناك نفسه لاحقًا فى مقالته، للاعتراف بأن كل شيء ورد خبره فى الأناجيل فيما يتعلق بالثلاثين عامًا الأولى من حياة يسوع هو غير تاريخى، وكذلك الأحداث اللاحقة التى يمكن أن يتم البرهان على أنها مستحيلة أو مصطنعة. ولكنه يود مع ذلك أن يحفظ الباقى باعتباره حقيقة تاريخية. "وهو يعتقد أننا مازلنا نحتفظ بـ " صورة حية لتعاليم يسوع، للقضاء على حياته، وللانطباع الذي تركه عند "تلامذته" (صفحة 20).

ولكن كيف يعرف هارناك أن تعاليم يسوع قد صوِّرت بأمانة تامة فى الأناجيل؟ "اللاهوتيون شاكون لمدى أبعد حين يتناولون موضوع إعادة إنتاج مواعظ أخرى فى تلك الأيام. وهكذا نجد زميل هارناك، بفليدرر، يخبرنا فى كتابه، المسيحية الأوَّلية:

" أن تجادل حول تاريخية هذه الأحاديث أو "تلك فى أعمال الرسل هو عبث بالفعل. يحتاج المرء فقط إلى أن يضع في اعتباره كل الشروط التى يتعين إنجازها حتى يتأمَّن (وجود) تسجيل لفظي دقيق، أو حتى صحيح بصفه عامة، لمثل هذا الحديث. لقد كان يتعين أن يُدوَّن فورًا من قبل أحد الحاضرين (بالفعل، حتى يؤمن تسجيلاً دقيقًا فقد كان يتطلب أن يدوِّن بالاختزال) وهذه الملاحظات المتعلِّقة بالأحاديث المختلفة كانت فى حاجة إلى أن تحفظ من قبل المستمعين، الذين كانوا فى أغلبهم يهودًا أو وثنيين والذين كانوا إما معادين أو محايدين تجاه ما قيل، لأكثر من نصف قرن، وأخيرًا جمعت من قبل المؤرخ من أكثر المواضع اختلافًا! إن من انجلت له كل هذه الاستحالات سوف يدرك مرة وإلى الأبد كيف أن عليه أن ينظر لكل هذه الأحاديث التى ترد، فى الواقع، فى أعمال الرسل، مثلها تمامًا مثلما عند كل المؤرخين العلمانيين للعصور القديمة، بوصفها مجرد إنشاءات حرة، يجعل فيها المؤلف أبطاله يتحدثون كما يظن أنهم ربما تحدثوا فى ظروف اللحظة" [1].

---

10 المسيحية الأولية، لندن ونيويورك، 1906 - 1911، المجلد الثالث، ص ص 234، 235.

سليم تمامًا ! ولكن لمَ لا ينبغى أن ينطبق كل هذا التعليل أيضًا على الأحاديث التى تخص "يسوع، التي تقع أبعد (من حيث الزمان) ما وراء مؤلّفي الأناجيل أكثر من انطباقه على الأحاديث فى أعمال الرسل؟ لمَ لا ينبغي أن تكون أحاديث يسوع فى الأناجيل شيئًا سوى أحاديث رغب مؤلفو هذه التسجيلات أن يكون يسوع قد ألقاها؟ وفى الحقيقة، فإن الأحاديث كما وصلت إلينا تحتوي على تناقضات عديدة، تعبيرات متمردة فى بعض الأوقات وخانعة فى أوقات أخرى، ويمكن تفسير ذلك فقط بحقيقة أن اتجاهات مختلفة كانت قائمة بين المسيحيين، وقد كيَّف كل منها حديث المسيح، فى تراثه، لحاجاته الخاصة. سوف أعطي مثلاً آخر للطريقة المتهوِّرة التى شرع فيها الإنجيليون فى هذه الأمور. قارن موعظة الجبل كما رواها لوقا مع التسجيل المتأخر لها عند متَّى. مازال هناك تمجيد للفقراء، وإدانة للأغنياء عند لوقا. فى أيام متَّى، لم يعد كثيرون من المسيحيين يحبون هذا الأمر، وإنجيل القديس متَّى، من ثمَّ، يُحوِّل الفقراء الذين يُباركون إلى هؤلاء الفقراء فى الروح، بينما حذفت إدانة الأغنياء كلية، إذا كانت هذه هي الطريقة التي عوملت بها الأحاديث التى كانت قد سُجِّلت بالفعل فأي سبب يدعونا لأن نعتقد أن هذه الأحاديث التى زُعم أن يسوع قد ألقاها قبل نصف قرن من تسجيلها قد تردَّدت بأمانة فى الإنجيل! فى المحل الأول، من المستحيل كلية للتقليد الشفوي وحده أن يحفظ بأمانة كلمات حديث لم تدوَّن على الفور، لفترة تجاوز خمسين عامًا بعد إلقائه. أي واحد، بالرغم من هذه الحقيقة الواضحة، يدوِّن أحاديث نُقلت بالسماع فقط، يشير بهذا الفعل ذاته لاستعداده لأن يكتب ما يسُرُّه، أو لسذاجته المطلقة فى التصديق استنادًا إلى القيمة الظاهرة لكل شيء قيل له.

من ناحية أخرى، يمكن إثبات أن كثيرًا من تصريحات يسوع لا تصدر عنه، بل كانت متداولة قبل زمنه.

على سبيل المثال، تعتبر صلاة الرب إسهامًا أصليًا من قبل يسوع. ولكن بفليدرر يشير إلى أن متعبدًا قادشيًا آراميًا من العصور القديمة العظمى ينتهي في دعائه بهذه الكلمات:

"ليتقدَّس ويتمجَّد اسمه العظيم فى العالم الذى خلقه وفق مشيئته. لتأتِ مملكته في حياتك وفي حياة كل بني إسرائيل". من الواضح أن الجزء الأول من صلاة الرب المسيحية هو بمثابة تقليد.

ولكن إذا لم يكن بمستطاعنا أن نؤمن بأحاديث يسوع، أو بالتاريخ الباكر لحياته، وبالتأكيد ليس فى معجزاته، ماذا يبقى فى الأناجيل؟

وفقًا لهارناك مازال لدينا تأثير يسوع على تلاميذه، وقصة آلامه. ولكن الأناجيل لم تؤلف من قبل تلاميذ يسوع، وهى لا تعكس الانطباع الذي خلقته هذه الشخصية، وإنما بالأحرى الانطباع الذي خلقه وصف شخصية المسيح على أفراد الطائفة المسيحية. حتى أكثر الانطباعات قوة لا يمكن أن تثبت شيئًا يتعلق بالصحة التاريخية لهذا الوصف. فربما تخلق حتى حكاية تتعلق بشخص خيالي أكثر الانطباعات عمقًا على نظام للمجتمع، على أن تكون الشروط التاريخية مواتية لإنتاج مثل هذا الانطباع. كيف كان عظيمًا الانطباع الذي ولّده جوته بروايته، آلام ڤـرتر، رغم أن الجميع قد عرف أنها كانت رواية فحسب، مع ذلك، كان لڤـيرتر أتباع وأخلاف.

مارست الشخصيات المصطنعة بين اليهود نفوذًا بالغًا، خاصة فى القرون التى سبقت وأعقبت زمن المسيح، وذلك حيثما توافقت الأفعال والتعاليم التى نسبت إليها مع الحاجات العميقة للشعب اليهودي. ويظهر هذا، على سبيل المثال، بواسطة شخصية النبي دانيال، الذي يروي عنه سفر دانيال أنه عاش فى ظل نبوخذ نصر، وداريوس وكورش، بمعنى آخر، فى القرن السادس ق.م، وأظهر أعظم المعجزات، ونطق بنبوءات تحققت فيما بعد بطريقة مدهشة. آخرها كانت أن بلايا عظيمة سوف تصيب أورشليم، وسوف يخلّصها منها أو ينقذها مخلّص، حتى تنهض مرة أخرى لمكانتها السابقة. دانيال هذا لم يعش أبدًا؛ السفر الذي يتناوله لم يكتب حتى حوالي عام 165، فى وقت الانتفاضة المكابية ؛ يكاد من ثمَّ أن يكون معجزة أن تنطبق كل النبوءات التي زعموا أن النبي قد تفوَّه بها بدقة على كل الأحداث السابقة على العام 165، والتي أقنعت القارئ الورع أن النبوءة الختامية لمثل هذا النبي المعصوم يجب أن تتحقق أيضًا بلا إخفاق. إن كل المسألة هى اختراع جريء كان له مع ذلك أعظم أثر ممكن ؛ الاعتقاد فى المخلّص، الاعتقاد فى فادى سوف يأتي، وجد أقوى دعم له فى هذا النبي، لقد أصبح النموذج لكل النبوءات التالية عن المخلّص. ولكن سفر دانيال يُظهر أيضًا كيف يلجأ الناس الورعين بلا تردد إلى الاحتيال فى هذه الأيام حينما كانوا يهدفون إلى توليد تأثير قوي. إن التأثير الذى ولّدته شخصية يسوع من ثمَّ ليس دليلاً على واقعيته التاريخية.

لم يتبقَ لدينا من ثمَّ شيء مما يظن هارناك نفسه أنه قد أنقذه باعتباره النواة التاريخية الحقيقية، عدا قصة آلام المسيح. مع ذلك فإن هذه القصة أيضًا، تتداخل

لحد بعيد مع معجزات من البداية وحتى النهاية، منتهية بالقيامة والصعود، حتى أنه من المستحيل تقريبًا أن نكتشف النواة التاريخية فى حياة يسوع. وسوف تكون لدينا فرصة لاحقة لنلم بمصداقية قصة الآلام.

ليست الحالة بالنسبة لبقية الأدب المسيحي الأوَّلي أفضل. الظاهر أن كل شيء قيل إنه كُتب من قبل معاصري يسوع، على سبيل المثال، بواسطة تلاميذه، قد اعتبر تزويرًا بمعنى أنه نتاج عصر تالٍ على الأقل.

لا تتضمن الرسائل الإنجيلية التى نسبت للقديس بولس واحدة لم يجادل فى حقيقتها أيضًا؛ إن عددًا منها تعرَّف عليه النقد التاريخي بصفة عامة باعتباره غير حقيقي. ومن المحتمل أن تكون أكثر هذه التزويرات صفاقة هى الرسالة الثانية إلى التسالونيكيين. ينطق المؤلف فى هذه الرسالة المقلدة الذي يخفي نفسه تحت اسم بولس بالتحذير التالي "الاّ تتزعزعوا سريعًا عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا" (2،2) (المقصود خطاب مزيَّف)، واخيرًا يصرخ المزوِّر: "السلام بيدي أنا بولس الذي هو علامة فى كل رسالة. هكذا أنا أكتب". بالطبع، هذه الكلمات فقط هي التي وشت بالتزوير.

ربما يحتوى عدد من رسائل بولس الأخرى بعضًا من المنتجات الأدبية الأقدم للمسيحية، ولكنها لا تذكر عمليًا اي شيء عن يسوع بخلاف حقيقة أنه صُلب ثم قام من بين الأموات.

تصديقنا بالقيامة هو بالكاد أمر نحتاج إلى مناقشته مع قرَّائنا. من ثمَّ، ليس هناك عمليًا عنصر واحد فى الأدب المسيحي يتعلق بيسوع قد يتحمَّل اختبار الفحص.

***

الفصل الثالث
الصراع من أجل صورة يسوع

لا يبدو ان النواة التاريخية للرواية المسيحية الأولية التى تتعلّق بيسوع تتجاوز فى افضل الأحوال ما يقوله لنا تاسيت: اي، انه فى زمن طيباريوس، أُعدم نبي، الذي تنتمي إليه الطائفة المسيحية في اصولها. ماذا علّم هذا النبي وماذا كان تأثيره، هذا موضوع لم تتأتَّ لنا عنه بعد اقل المعلومات إيجابية. على أيَّة حال، فهو بالتأكيد لم يجذب الانتباه الذي نُسب إليه فى السجلات المسيحية الأولية، وإلا لكان يوسيفوس قد روى لنا شيئًا عنه بالتأكيد، لأنه يحكي مرارًا عن اشياء ذات اهمية اقل كثيراً. إن تحريض وإعدام يسوع لم يثر ادنى اهتمام لدى معاصريه على أيَّة حال. ولكن إذا كان يسوع قد كان محرِّضًا فعلاً عبدته طائفة باعتباره بطلها وقائدها، فبالتأكيد سوف تنمو اهمية شخصيته بنمو طائفته. بدأ يتشكّل الآن تاج من الخرافات حول شخصيته، التي سوف تنسج حولها النفوس الورعة اي شيء رغبوا فى ان يكون نموذجهم/ مثالهم قد قاله أو فعله. ولكن حيث بات يسوع يعتبر اكثر فأكثر، كمثال لكل الطائفة، فقد حاولت أكثر كل المجموعات المتنافسة العديدة، التى تكوَّنت منها الطائفة فى البداية، أن تعزو لشخصيته تحديدًا تلك الأفكار التي كانت كل مجموعة اشد ارتباطًا بها، بحيث يمكنها أن تستشهد بهذا الشخص بوصفه حجة. وهكذا فإن صورة يسوع، كما صُوِّرت فى الخرافات التي جرى تناقلها فى البداية من فم إلى فم ودوِّنت فيما بعد فحسب، اصبحت اكثر فأكثر صورة شخصية ما فوق إنسانية، أو تناسخ لكل المُثل التي طوَّرتها الطائفة الجديدة، غير أنها أصبحت بالضرورة ايضًا مليئة بالتناقضات، و لم تعد السمات المتنوعة للصورة متوافقة مع بعضها البعض.

حين كانت الطائفة قد انتهت إلى أن تكون تنظيمًا ثابتًا، وأصبحت كنيسة شاملة، حيث توصَّل اتجاه نوعي فيها إلى أن يهيمن، كان واحد من مهماتها الأولى أن تضع قانونًا ثابتًا، وقائمة بكل هذه الكتابات المسيحية الأوَّلية التي اعترفت بها باعتبارها حقيقية. وسوف يعترف بالطبع بمثل هذه الكتابات لأنها كتبت من وجهة نظر هذا الاتجاه المهيمن. وعليه فقد رُفضت كل هذه الأناجيل والكتابات الأخرى التى احتوت صورة ليسوع لم تتفق مع هذا الاتجاه الخاص بالكنيسة بوصفها "هرطقية "،

ومزورة، أو على الأقل مشكوك فى صحتها (أبوكريفا)، وحيث إنها غير جديرة بالثقة، فلم تنشر، بل حتى حُظرت إلى أبعد مدى ممكن، وأُهلكت المخطوطات، مما مؤدَّاه أن قلة ضئيلة منها قد بقيت. كانت الكتابات التى سُمح بدخولها فى القانون (الكتابات المعترف بها) أيضًا "محررة" من أجل إدخال أكبر وحدة ممكنة عليها، ولكن لحسن الحظ كان التحرير قد أجرى بغير مهارة إلى حد أن آثارًا من تقويمات متناقضة أبكر، مازالت تتكشَّف هنا وهناك، وهي تسمح لنا بأن نخمِّن مسار تاريخ الكتاب.

ولكن الكنيسة لم تنجح فى هدفها، الذي كان مرتبطًا بإنتاج وحدة في وجهات النظر داخل الكنيسة بهذه الطريقة ؛ وكان هذا مستحيلاً. كانت الشروط الاجتماعية المتغيِّرة تولِّد دائمًا اختلافات جديدة فى وجهات النظر والطموحات داخل الكنيسة، وبفضل التناقض الذي حفظته صورة يسوع كما اعترفت بها الكنيسة بالرغم من التحرير والحذف الذي جرى عمله، فقد نجحت وجهات النظر المتنوِّعة هذه فى أن تجد دائمًا فى هذه الصورة نقاطًا تخدم أغراضها. من ثمَّ، أصبح الصراع بين القوى المتعارضة اجتماعيًا داخل إطار الكنيسة المسيحية بشكل غير حقيقى مجرد صراع يتعلق بتفسير كلمات يسوع، واعتقد المؤرخون الزائفون، من ثمَّ، بسيطي العقول بما يكفي أن كل الصراعات الكبرى وغالبًا الدموية داخل العالم المسيحى، التي حوربت تحت رايات دينية، لم تكن شيئًا أكثر من نضالات من أجل مجرد كلمات، ومن ثمَّ علامة مؤسفة على غباوة الجنس البشرى. ولكن حينما تعزى ظاهرة اجتماعية جماهيرية إلى مجرد غباوة البشر المشاركين، فإن هذه الغباوة الظاهرة تكون غباوة الملاحظ والناقد فحسب، الذي لم ينجح بوضوح فى أن يجد وجهته بين المفاهيم والآراء الغريبة عليه، أو فى النفاذ إلى الشروط المادية والدوافع الكامنة وراء هذه الأنماط من الفكر. كقاعدة فإن الحرب قد شنَّت بين مصالح شديدة الواقعية ؛ فحين تتجادل الطوائف المسيحية المتعدِّدة حول تفسير مختلف لكلمات المسيح فإن مثل هذه المصالح بالفعل هي التي تكون فعَّالة.

إن نشوء نمط التفكير الحديث وأفول نمط التفكير الإكليركي قد حرم بالطبع هذه الصراعات التى تتعلَّق بصورة المسيح من مغزاها العملي أكثر فأكثر، مختزلاً إياها إلى مجرد مماحكات من جانب اللاهوتيين، الذين تدفع لهم الدولة حتى يستبقوا السيكولوجية الإكليركية حية، والذين يجب أن يؤدُّوا مقابلاً ما لقاء مرتباتهم.

إن نقد الإنجيل الحديث، بتطبيق المناهج التاريخية لبحث المصادر على إصحاحات الإنجيل، أعطى حافزًا جديدًا لبذل جهد لخلق شكل لشخصية يسوع. وقد

قوَّض هذا النقد يقينية الصورة التقليدية ليسوع، ولكن لأنها وظَّفت بصفة رئيسية بأيدي اللاهوتيين، فنادرًا ما تقدمت، انتهاءً إلى المدى الذي أعلنته وجهة النظر التي طرحها أولاً برونوباور، وبعد ذلك آخرين، بصفة خاصة أ. خالتوف، وهي أنه من المستحيل على ضوء الأوضاع الحالية للمصادر أن نكوِّن صورة جديدة على الإطلاق. لقد حاول النقد مرة بعد أخرى أن يستعيد هذه الصورة، مع تكرار نفس النتيجة التى انتجتها سابقًا مسيحية القرون الأخرى: يضع كل واحد من أصدقائنا اللاهوتيين مُثِلَه الخاصة، ورُوحه الخاصة، فى صورته عن يسوع. تشبه أوصاف يسوع فى القرن العشرين تلك التى كُتبت فى القرن الثاني وفي هذا فهي لا تصوِّر ماذا عَلَّم يسوع بالفعل، ولكن ما رغب منتجو هذه الصوَّر في أن يكون قد علم.

يعطينا خالتوف تقييمًا دقيقًا للغاية لهذا التحوُّل لصورة يسوع:

"من وجهة النظر اللاهوتية الاجتماعية، فإن صورة يسوع هي من ثمَّ أكثر التعابير الدينية وأشدَّها تساميًا لكل القوى الاجتماعية والأخلاقية الفعَّالة فى العصر محل البحث؛ وتزوِّدنا التحوُّلات التى عانتها دومًا صورة المسيح هذه، خاصة توسُّعاتها وتقلُّصاتها، وإضعاف السمات القديمة وعودة ظهورها فى ألوان جديدة بأكثر الأدوات رهافة التى يمكن أن نقيس بها التغيرات التى تعاينها الحياة المعاصرة، من ذرى مُثلها الروحية، حتى أدنى أعماق أكثر ظواهرها مادية. سوف تُظهر صورة المسيح هذه حينًا سمات الفيلسوف الإغريقى، وحينًا سمات القياصرة الرومان، ثم مرة أخرى سمات الإقطاعي، ومعلِّم الحرفة، الفلاح القن المعذَّب، والبورجوازى الحر، وكل هذه السمات حقيقية، وكلها حية حتى أصبح لاهوتيى الكلية وقد استحوذت عليهم فكرة غريبة وهي إثبات السمات الفردية لزمنهم الخاص بوصفها الملامح التاريخية الأصلية لمسيح الأناجيل. وفى أفضل الأحوال، صنعت هذه السمات لتبدو تاريخية من خلال حقيقة أن القوى الأكثر اختلافًا، وحتى الأكثر تعارضًا، كانت فعَّالة فى الفترات الوليدة والمنشِئة للمجتمع المسيحي، وأن كل واحدة من إجمالى هذه القوى تحمل شبهًا معينًا مع القوى الفعَّالة اليوم. ولكن صورة المسيح تبدو اليوم مليئة تمامًا بالمتناقضات للوهلة الأولى. إنها مازالت تحمل إلى مدى معين سمات القديس القديم أو إله السموات، وكذلك أيضًا الملامح الحديثة كلية لصديق البروليتاري وحتى لقائد عمَّال. ولكن هذا التناقض هو انعكاس لأكثر التضادات جوهرية التى تحي حياتنا المعاصرة فحسب". وفى مقتطف أسبق:

"إن أكثر ممثلي ما يسمَّى باللاهوت الحديث يستخدمون مقصاتهم حين يقتبسون طبقًا للمنهج النقدي المحبَّب إلى دافيد شتراوس: إنهم يبترون العناصر الأسطورية فى الأناجيل، ويعلنون أن الباقي هو النواة التاريخية. ولكن حتى اللاهوتيون يدركون أن هذه النواة قد جرى تلميعها أيضًا لتسند عملياتهم.... ففي غياب كل اليقين التاريخي، فإن اسم يسوع قد أصبح وعاءًا فارغًا للاهوت البروتستانتي، حيث يصب فيه كل لاهوتى عدته الذهنية الخاصة. أحدهم سوف يجعل من يسوع هذا اسبينوزيا حديثًا، وآخر اشتراكيًا، بينما سوف ينظر اللاهوتيون الرسميون الأساتذة إلى يسوع بالطبع فى الضوء الديني للدولة الحديثة، في الواقع قد عرضوه بجسارة ما تنفك تتزايد فى الأزمنة المعاصرة كمدافع دينى عن تلك الطموحات التى تدَّعي الآن الهيمنة فى اللاهوت القومى، البروسي الأعظم" [1].

بالنظر إلى وضع الأمور فليس مما يدعو إلى الدهشة أن المؤرِّخين الزمنيين قد شعروا بميل ضئيل لبحث مصادر المسيحية، إذا ما بدأ هؤلاء المؤرخون بوجهة النظر التي تقول بأن المسيحية كانت من عمل رجل واحد. فإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فسوف يكون من المعقول بالطبع أن نتخلَّى عن كل جهد لتحديد أصل المسيحية، وأن ندع لاهوتيينا يحوزون حقل القص الديني حيازة لاتُنازع.

ولكن موقف المؤرِّخ يصبح مختلفًا تمامًا إذا نظر لديانة عالمية ليس بوصفها نتاجًا لإنسان أعلى فرد (سوبرمان)، بل كنتاج اجتماعى. الشروط الاجتماعية فى الزمن الذي ظهرت فيه المسيحية معروفة جيدًا. ويمكن أيضًا تعيين الطابع الاجتماعى للمسيحية الأوَّلية ببعض الدقة من دراسة أدبها.

من المحتمل الا تكون القيمة التاريخية للأناجيل ولأعمال الرسل أعلى من قيمة القصائد الهومرية، أو اغنية النيبلونجن. فربما تعالج هذه شخصيات تاريخية ؛ ولكنها تشي بفعالياتها من خلال هذه الرخصة الشعرية حتى يستحيل أن نستخرج من رواياتها أقل مادة تتعلق بالوصف التاريخي لهذه الشخصيات، هذا إذا تغاضينا عن حقيقة أنها تختلط بشدة بعناصر خرافية، وعليه لن نستطيع أبدًا ان نكون قادرين على أساس هذه القصائد وحدها أن نعيِّن من هي شخصياتها التاريخية ومن هي المخترَعة. فإذا لم تكن لدينا معلومات تتعلق بأتيلا عدا ما وجد فى أغنية النيبلونجن، فينبغي أن

---

1 Das Christusproblem. Gründlinien Zueiner Sozialtheologie , 1902 , pp. 15 , 17 , 80 , 81.

نقول عنه كما نقول الآن عن يسوع، اننا لسنا متيقنون أبدًا من أنه قد عاش، وربما كان شخصية أسطورية مثل سيجفريد.

ولكن مثل هذه الحكايات الشعرية لها قيمة لا تقدَّر في دراسة الشروط الاجتماعية التي ظهرت فى ظلها، والتي تعكسها بأمانة، بغض النظر عن تحرُّر مؤلِّفيها فى معالجة الوقائع والأشخاص. إن المدى الذي يتأسَّس عليه تقييم الحرب الطروادية وأبطالها على الحقيقة التاريخية مغلَّف بالغموض، وربما يبقى دائمًا هكذا، ولكن لدينا فى الإلياذة والأوديسة مصدران تاريخيان من المرتبة الأولى لدراسة الشروط الاجتماعية للعصر الهومري.

غالبًا ما تكون الأعمال الشعرية أكثر أهمية في دراسة زمانها من الروايات التاريخية الأشد أمانة. لأن الأخيرة تعطينا فقط العناصر الشخصية، المثيرة، غير العادية الأقل دوامًا فى تأثيرها التاريخى ؛ بينما تزوِّدنا الأولى من ناحية أخرى بوجهة نظر عن الحياة اليومية للجماهير، الثابتة والدائمة فى تأثيرها، ذات النفوذ الدائم على المجتمع، حيث لا يروي المؤرِّخ هذه الأشياء، لأنه يفترض أنها معروفة بصفة عامة وواضحة بذاتها. لهذا السبب فإن روايات بلزاك هى واحدة من أكثر المصادر أهمية عن الحياة الاجتماعية فى فرنسا فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

هكذا، قد لا نعلم شيئا محددًا من الأناجيل، وأعمال الرسل، والرسائل، عن حياة ومذهب المسيح، إلا أننا قد نحصل على معلومات غاية فى الأهمية تتعلَّق بالطابع الاجتماعي للمُثل والطموحات الخاصة بالمجمع المسيحي الأوَّلى. حين يكتشف النقد الإنجيلي المواد التى تجمَّعت فى طبقات متعاقبة فى هذه الكتابات، فإنه يزوِّدنا بفرصة تتبع تطور هذه المجامع إلى مدى معيَّن على الأقل، بينما تُمكننا المصادر "الوثنية" واليهودية من أن نلقي نظرة على القوى الاجتماعية التي كانت تتزامن فى التأثير فى المسيحية الأوَّلية. وهذا يمكننا من أن ندرك وأن نفهم الأخيرة كنتاج لزمنها ؛ وهذا هو أساس كل المعرفة التاريخية. ربما يؤثِّر الأفراد على المجتمع، وتصوير الأفراد البارزين أمر لا مفر منه من أجل تكوين صورة كاملة عن زمانهم. ولكن حين يُقاسون بالحقب التاريخية، فإن تأثيرهم عرضي فى أفضل الأحوال، يقدم فقط زخرفات السطح، التي تصدم العين حيث إنها قد تكون القسم الأول من الهيكل، ولا تكشف لنا عن شيء يتعلَّق بجدران أساسه. إنه الأخير الذي يحدِّد طابع ودوام الهيكل. إذا استطعنا أن نكشفه فإننا نكون قد أنجزنا العمل الأكثر أهمية فى فهم الصرح.

القسم الثاني
المجتمع الروماني
فى الفترة الإمبراطورية

الفصل الأول
نظام تملُّك العبيد

أ - ملكية الأرض

هؤلاء الذين سيفهمون الآراء المميزة لحقبة معيَّنة والتي تجعلها مغايرة لأفكار حقب أخرى، يجب أولاً وقبل كل شيء أن يدرسوا الحاجات، والمشاكل الخاصة بتلك الفترة. فهى فى الأساس نتاج لنمط معيَّن للإنتاج فى هذه الفترة، وللطريقة التى حافظ بها مجتمع هذا الزمن على حياته.

دعنا نحاول أولاً أن نتتبع النظام الاقتصادي الذي تأسَّس عليه مجتمع الإمبراطورية الرومانية من بداياته الأولى. إذ يمكننا بهذه الطريقة فحسب أن نفهم سماته النوعية فى لحظة خاتمة هذا التطور، أي، فى ظل الفترة الإمبراطورية، والاتجاهات النوعية التي أسفر عنها فى هذا الوقت.

كانت الزراعة هي أساس الإنتاج الاقتصادي فى البلدان التي تكوَّنت منها الإمبراطورية الرومانية، التي مورس إضافة لها الصناعة الحرفية والتجارة فى السلع على نطاق أصغر بكثير. وكان الإنتاج من أجل الاستهلاك المباشر هو القاعدة العامة. وقد كان إنتاج السلع، بمعنى آخر، الإنتاج من أجل البيع، مازال فى طفولته. كان للحرفيين والتجار فى حالات كثيرة مزارع تخصهم، وكانت هذه مرتبطة بوثوق بالحياة المنزلية، وكانت مهمتها الرئيسة الإنتاج من أجل الأسرة، حيث زوَّدت الزراعة المطبخ بمواد الغذاء وكذلك ببعض المواد الخام مثل الكتَّان، والصوف، والجلد، والخشب، الذي يصنع منه أفراد العائلة ملابسهم الخاصة، وآنيتهم وأدواتهم. كان كل ما يمكن أن يباع فائضًا - حين كان هناك بالكاد اى فائض - علاوة على احتياجات الأسرة.

يتطلب نمط الإنتاج هذا أن تكون هناك ملكية خاصة فى معظم وسائل الإنتاج، في كل ما يتضمن عملاً إنسانيًا، بما فيها أرض الزراعة، غير أنه لا يتطلب الملكية الخاصة للغابات والمراعي، التي قد تبقى حيازة مشتركة، والملكية فى الحيوانات

المنزلية، ولكن ليس فى لعبة [يبدو أن المقصود هو الألعاب العامة المترجم]، أخيرًا، فهو يتضمن الملكية الخاصة للأدوات والمواد الخام وكذلك المنتجات المتأتية عن استعمالها.

ولكن مع وجود الملكية الخاصة تكون لدينا بالفعل إمكانية عدم المساواة الاقتصادية. ربما تميِّز الأحداث حسنة الطالع وتُثرى مؤسسة ما بينما تُضير وتُفقر أخرى. سوف تنمو المؤسسات من النوعية الأولى؛ سوف تتزايد أرضها وماشيتها، ولكن ينتج هذا الشرط على الفور مسألة خاصة بالعمل بالنسبة للمؤسسات الأكبر، أي، مسألة من أين يجري الحصول على العمل الإضافي المطلوب من أجل العناية الملائمة بقطعان الماشية الأكبر والفلاحة المناسبة للحقول الأكثر اتساعًا.

تتجلّى الخلافات الطبقية والتعارضات الطبقية كلما يصبح العمل الزراعي منتجًا أكثر، كلما كان الفائض الذي يقدِّمه أعظم زيادة على حاجات المزارِع نفسه. يخدم هذا الفائض من ناحية فى إعالة الحرفيين، الذين كُلِّفوا بإنتاج مواد مفيدة معيَّنة، مثل الحدادين وصانعي الفخار، من ناحية أخرى ربما يستعمل الفائض فى مبادلة مواد مفيدة، أو مواد خام لا يمكن إنتاجها فى الإقليم نفسه، لأن الطبيعة لا تقدمها، أو أن المهارة الضرورية لإنتاجها مفتقدة. مثل هذه المنتجات يأتي بها التجار من أقاليم أخرى. يدفع ظهور الحرفي والتجارة إلى زيادة عدم المساواة فى الملكية العقارية. بالإضافة إلى عدم المساواة بين الممتلكات الكبيرة والصغيرة فإن لدينا الآن أيضًا مسألة القرب أو البعد من النقاط التى يتجمَّع فيها العاملون والتجار حتى يتبادلوا سلعهم من أجل الفائض الذي أنتجه الفلاحون. كلما كانت وسائل المواصلات أسوأ، كلما أصبح من الصعب أكثر الإتيان بالمنتجات إلى السوق. وكلما كانت ميزة من يعيش بقرب السوق أعظم.

إننا نلاحظ من ثمَّ تشكُّل طبقة الملاَّك العقاريين من بين كل هؤلاء الذين خُصُّوا بواحد أو أكثر من هذه العوامل، الذين يحصلون على فائض أعظم قياسًا بجمهور الفلاحين، والذين يستطيعون عبر التبادل تأمين منتجات تجارية وصناعية أكثر، ويملكون وقت فراغ أكثر من الفلاح المتوسط، ويتحكمون فى مصادر تقنية أكثر فى العمل والحرب، ويتلقون حوافزًا عقلية أكثر بواسطة العيش مع الآخرين، أو بواسطة العلاقات المتواترة مع الفنانين والتجار، ويستطيعون أن يوسِّعوا أفقهم العقلي. هذه الطبقة من الملاَّك العقاريين المحظوظين لديها الآن الوقت، القدرة والوسائل للقيام بالأعمال التي تتجاوز الحدود الضيقة للنظرة الفلاحية. إن لديها الوقت والطاقة التى

تمكّنها من أن تصهر معًا، عددًا من الجماعات الفلاحية فى دولة، وكذلك أن تدير وتدافع عن الدولة وتنظِّم علاقاتها مع الدول المجاورة والأكثر بعدًا.

تعيش كل هذه الطبقات، كبار الملاّك العقاريين، والتجار، والحرفيين، على الفائض الناتج عن العمل الزراعى، الذي سرعان ما أضيف له الفائض من العمل الصناعي. وحيث إن وظائفها فى المجتمع قد حظت بأهمية، يحوز التجار وملاّك الأرض الكبار مزيدًا ومزيدًا من هذه المنتجات الفائضة. وفور أن يصبح الملاّك العقاريون أكثر قوة، بفضل تميُّزهم الاقتصادي، وكذلك مركزهم القوي فى الدولة، يكونون قادرين على حرمان جمهور الفلاحين والحرفيين من الفائض الناتج عن عملهم. وهكذا فإنهم يحصلون على ثروة تتجاوز بعيدًا مستويات فلاحيهم وحرفييهم وبالمقابل تمتن سلطتهم الاجتماعية وقدرتهم على حيازة منتجات فائضة أكثر، ويحصلون على ثروات إضافية.

وهكذا نما فوق رؤوس الفلاحين والحرفيين، عدد من شرائح المستغلين الكبار، الملاّك العقاريون، والتجار، فضلاً عن المرابين، الذين سوف تكون لدينا الفرصة للتحدث عنهم فى معرض آخر. لقد صاحب زيادة ثروتهم حاجة متزايدة لتوسيع اقتصادهم المنزلي الذي مازال مرتبطًا بوثوق بفلاحة الأرض. إن من سيكون لدية اقتصاد منزلى خاص به يجب أن يكون فى هذه الفترة مازال يسيطر على مؤسسته الزراعية الخاصة، والتي تكون أكثر أمنًا حيثما تكون على أرضه الخاصة. إن الطموح العام من ثمَّ ينحو فى اتجاه ملكية الأرض، حتى طموح الحرفيين، والمرابين، والتجار. وتتقوَّم الرغبة العامة فى زيادة ملكية أرض المرء الخاصة مادام الإنتاج من أجل الاستعمال المنزلي سائدًا، فالرفاهية المتزايدة، والاقتصاد المنزلي الأكثر سخاءًا، يمكن أن يؤسِّسًا فقط على زيادة رقعة نطاق المزرعة.

إن الرغبة فى الحصول على زيادة كمية الأرض التي يملكها المرء هي العاطفة المهيمنة في هذه الفترة، التي تمتد من الحقبة التي يكف فيها المجتمع المؤسَّس على الزراعة، عن أن يكون رعويًا، بمعنى آخر، بدءًا من تأسيس الاقتصاد الفلاحي حتى زمن نشأة الراسمال الصناعي. لم يتجاوز المجتمع القديم حتى فى ذروته، فى الفترة الإمبراطورية هذه المرحلة، التي لم تزل حتى زمن الإصلاح.

ب - العبودية المنزلية

ولكن ملكية الأرض لا نفع فيها بدون أكارين يفلحونها. لقد أشرنا سلفًا إلى مشكلة العمل النوعية التي تنشأ من أول تكوين للملكيات العقارية الكبيرة. إننا نجد حتى قبل الأزمنة التاريخية، الأفراد الأغنياء يبحثون عن عمال يمكن الاعتماد عليهم دائمًا، من أجل ضمِّهم لاقتصادهم المنزلى بالإضافة لأعضاء العائلة، الذين يرتبطون بالأسرة بروابط الدم.

لا يمكن الحصول على مثل هؤلاء العمال فى البداية بتقديم أجور لهم. مما لاشك فيه، فإننا نجد حالات من العمل المأجور مبكرًا جدًا، ولكنه دائمًا ظاهرة استثنائية وعرضية، على سبيل المثال، فى المساعدة فى جمع المحاصيل. إن أدوات الإنتاج المطلوبة من جانب مؤسسة مستقلة لم تكن كثيرة لدرجة أن عائلة منافسة لا تستطيع أن تحوزها كقاعدة. كانت العائلة والروابط المشاعية مازالت قوية لدرجة أن أى حادث أصاب عائلة وحرمها من ملكيتها كان يمكن أن يواجه عادة بواسطة مساعدة الأقارب والجيران.

بينما لم يكن هناك سوى رافد قليل من العمال المأجورين، فقد كان هناك أيضًا طلبًا ضئيلاً للغاية عليهم. لأن الاقتصاد المنزلى وصناعته كانا مازالا مرتبطين بوثوق. إذا كانت هناك حاجة لعمال إضافيين من أجل المؤسسة، فقد كان عليهم أن يصيروا أعضاء فى الأسرة، مفتقرين بالضرورة ليس فقط لورشة تخصُّهم، وإنما أيضًا لحياة أسرية تخصُّهم، حيث يُستوعبون كليًا فى عائلة الغريب. لم يكن العمال الأحرار متوفرين فى ظل هذه الظروف. حتى خلال العصور الوسطى، فقد رضى العمال المياومين بقبول العضوية فى عائلة معلم (الحرفة) كمرحلة مؤقتة فقط، انتقالية حتى يصيروا معلمين، وحتى يؤسِّسوا عائلاتهم الخاصة. لا يمكن تأمين الرجال الأحرار فى هذه الفترة دائمًا بواسطة دفع أجور باعتبارهم عمالاً إضافيين فى عائلة غريب. يمكن لاحتجاز إجباري فقط أن يوفِّر العمال الإضافيين المطلوبين للمؤسسات الزراعية الكبرى. تحقق هذا الغرض بواسطة العبودية. وليس للغريب حقوق فى ظل العبودية. وبالنظر إلى صغر حجم الجماعة فى تلك الأيام، فإن مفهوم "الغريب" كان شاملاً. كان يُستعبد فى الحرب ليس فقط المحاربين المأسورين، وإنما غالبًا جدًا كامل سكان البلد المهزوم، وهم إما أن يقسَّموا بين المنتصرين أو يُباعوا. ولكن كانت هناك أيضًا وسائل للحصول على العبيد فى أزمنة السلام، خاصة عبر المواصلات البحرية، التي كانت ترتبط غالبًا بالقرصنة فى مراحلها الأولى، وقد كانت أكثر أنواع الجزية المرغوبة، بشرًا أقوياء ووسيمين، الذين كانوا يؤسَرون فى غارات على السواحل حين

يوجدون عُزّلاً من السلاح على الشواطئ. إضافة لذلك، فإن نسل العبد الذكر والأمَةَ الأنثى يدخل فى العبودية.

لم يكن وضع العبيد فى البداية سيئًا جدًا، وكانوا أحيانًا يقومون بمقطوعيتهم [نصيب العبد الإجباري من العمل] بهوادة بوصفهم أعضاء فى أسرة ثرية. وإذ انخرطوا غالبًا فى مهام تسهم فى الراحة أو الترف، فقد كانوا لا يعملون بشكل زائد إلى درجة ملحوظة. أما إذا كان عملهم ذا طبيعة إنتاجية، فقد كان ينجز غالبًا - فى المزارع الكبيرة - بمساعدة السيد MASTER، ومثل فقط إنتاجًا من أجل الاستهلاك العائلي، المحدود بالضرورة. كانت مقطوعية العبد محدَّدة بشخصية سيده، وبثروة العائلة التى انتمى إليها. لقد كان للسادة اهتمام عظيم بتحسين وضع العبيد، لأن ذلك تضمَّن تحسينًا فى وضعهم الخاص. اضف إلى ذلك وقف العبد، عبر الاتصال الشخصي الدائم مع السيد، بدرجة أكثر أو اقل فى علاقة إنسانية مع الثاني، وربما يصبح، إذا حاز ذكاء وفطنة، لا غنى عنه بالنسبة للسيد وصديقاً إذا جاز القول. يمكن ان نجد مقاطع عند الشعراء القدامى تظهر كيف كان العبيد أحرارًا مع سادتهم وبأيَّة عاطفة نظر كل منهم للآخر. ولطالما تكرَّر ان انهيت خدمات العبيد بهدية قيمة للخدمات المخلصة، وآخرون كان يمكن أن يدَّخروا ما يكفي لشراء حريتهم. ولكن لم تكن قلة تلك التي فضَّلت العبودية على الحرية، اي، فضَّلت الحياة كأعضاء فى عائلة ثرية على العيش الوحيد، الهزيل وغير المؤكد بعيداً عن عائلة كهذه.

يقول ينتش: "يجب الاّ يفترض، ان الوضع القانونى للعبد، الكريه للغاية بالنسبة لنا، كان يؤخذ جديًا فى الحياة الخاصة وأن العبد لم يكن يعتبر ولم يعامل ككائن إنساني، فحتى نهاية الحرب البوْنية الأولى فإن مقطوعية العبد لم تكن مؤذية. ينطبق ما قيل أيضًا على السلطة القانونية لرب العائلة على زوجته وأولاده على حقوقه إزاء عبيده، فبالرغم من انها غير محدودة قانونًا، فقد كانت معدَّلة بواسطة الدين، والعادة، والعقل، والعاطفة، والمصلحة الذاتية، والإنسان الذي كان يُعتبر فى نظر القانون سلعة، خاضعًا بدون دفاع للشراء ولنزوة سيده، كان يُقدَّر كزميل عامل مخلص فى الحقول وكرفيق فى المنزل، يمكن للمرء أن يتحدث معه بسرور جانب المدفأة بعد العمل معه خارج الأبواب" [1].

---

1 كارل ينتش،

=

وجدت هذه العلاقة الرفاقية ليس فقط فى مزرعة الفلاّح، وإنما نلاحظ أنه حتى الأسراء مازالوا يقومون بقدر من العمل فى العصر البطولي. فى الأوديسة، تقوم ابنة الملك الكينووس بالغسيل مع أَمَتِها؛ ولا يتحدى الأمير أوديسيوس منافسه بدعوته إلى مبارزة، ولكن إلى منافسة فى الحصاد والحراثة، وعند عودته إلى وطنه يجد أباه يعمل فى الحديقة مستخدمًا الجاروف. أضف إلى ذلك، فإن أوديسيوس وابنة تيليماخوس هما موضوع اهتمام عاطفي من عبدهما، مربي الخنازير الخالد،، إيومايوس، المقتنع بحزم أن سيده كان سيعطيه حريته منذ زمن طويل، وأيضًا مزرعة وزوجة، إذا كان سيده قد عاد فقط".

كان هذا الشكل من العبودية من أشد أشكال الاستغلال المعروفة لنا اعتدالاً. ولكن تغيَّر طابعه حين أصبح وسيلة للحصول على النقود، خاصة عندما بدأت الملكيات العقارية الكبيرة فى توظيف كثير من العمال، بعد أن انفصلت عن الاقتصاد المنزلي للسيد.

ج- العبودية فى الإنتاج السلعي

من المحتمل أن المناجم كانت أول مثل هذه الملكيات. التعدين واستخراج المعادن، وخاصة المعادن النفيسة لا تناسب البتَّة بطبيعتها الإنتاج من أجل الاقتصاد المنزلي فقط. فبمجرد أن تحرز مثل هذه الصناعات أقل درجة من التطور، فإنها تنتج فائضًا عظيمًا يتجاوز الحاجات المنزلية؛ أضف إلى ذلك أنها يمكن أن تحرز كفاية معيَّنة فقط من خلال توظيفها عمل مجموعات كبيرة من العمال بشكل منتظم، لأن العامل لايمكن أن يحوز المهارة الضرورية والخبرة بأي طريقة أخرى، أو أن يجعل الهياكل الهندسية الضرورية مربحة. إننا نجد بالفعل حتى فى العصر الحجرى مراكز كبرى كان فيها تصنيع الأدوات الحجرية يُنفَّذُ ببراعة وعلى نطاق واسع، حيث كانت توزَّع آنئذ بواسطة المقايضة من مجموعة إلى مجموعة أو من عشيرة إلى عشيرة. يبدو أن هذه المنتجات المعدنية كانت أول السلع التجارية ومن المحتمل أنها أول ماجرى إنتاجه بنيَّة مقايضته.

=

Spaziergänge Eines Laien Ins Klassische Altertum, 1900. Third Spaziergang„ Der Romerstaat, P. 237. Compare also the second spaziergang in the same book: Die Sklaverei Bei Den Antiken Dichtern.

بمجرد أن تطوَّرت عملية تعدين استنادًا إلى مخزون من المعادن الثمينة، وجاوزت حدود تعدين السطح الأكثر بدائية، فقد تطلبت جماعات أكبر فأكبر من العمال. ربما تجاوز بسهولة عدد العمال الأحرار الذين يمكن أن يستخدموا من مراتب العشيرة التي تملك المنجم. بيد أنه لا يمكن للعمل المأجور أن يقدِّم دائمًا فرقًا عدة من العمال، بينما يمكن للعمل الإجباري بواسطة العبيد أو المجرمين المدانين فقط أن يؤمِّن العدد الضروري من العمال.

ولكن هؤلاء العبيد لم يعودوا ينتجون فقط آنية من أجل المتطلبات الشخصية المحدَّدة لسيدهم، لقد عملوا من أجل أن يجني نقودًا. لم يكونوا يعملون من أجل استهلاكه للكبريت، الحديد أو النحاس، الذهب أو الفضة، في منزله، ولكن حتى يبيع المنتجات المعدنية، لتجعله حائزًا للنقود، هذه السلعة التي يمكن أن تشتري كل شيء، كل المتع، كل السلطة، والتي لا يحصل منها المرء على الكثير أبدًا، بقدر ما كان ممكنًا انتزاع عمل العمال في المناجم، لأنه، كلما عملوا أكثر، كلما حصل سيدهم على نقود أكثر. وقد كانوا يُطعمون ويلبسون بأردأ شكل ممكن. لأن طعامهم ولباسهم كان يجب أن يُشترى، كان يجب أن يدفع مقابلة نقودًا ؛ لا يستطيع العبيد في المنجم أن ينتجوها. بينما لم يكن بمستطاع مالك مؤسسة زراعية ثرية أن يفعل شيئًا آخر بفائضه من مواد الاستهلاك غير أن يسرف على عبيده وأصدقائه من الضيوف، كانت الحالة مع الإنتاج السلعي مختلفة، كلما قلَّ استهلاك العبيد كلما كان حاصل النقود أكثر من الصناعة. وقد أصبح وضعهم أسوأ فأسوأ عندما أصبحت الصناعة أكبر، وهكذا جرى إبعادهم أكثر فأكثر عن منزل السيد، وجرى تسكينهم في ثكنات خاصة تناقض عريها الموحش بحدَّة مع ترف المنزل الأسبق. أضف إلى ذلك، توقف كل اتصال شخصي بين السيد والعبد، ليس فقط لأن الورشة قد انفصلت عن منزله، ولكن أيضًا بسبب عدد العمال الكبير. وهكذا فقد رُوي أنه في أثينا في زمن الحرب البيلوبينزية أن هيبونيكوس كان لديه ستمائة عبد يعملون في مناجم تراقيا TRACIAN وألف في نيقيا. لقد أصبح مركز العبد بلية فظيعة له؛ بينما يمكن للعامل الحر بعد كل شيء أن يجري اختيارًا معيَّنًا من بين سادته ويمكن على الأقل في ظل ظروف مواتية معيَّنة أن يمارس ضغطًا معيَّنًا على سيده بأن يرفض أن يعمل، وهكذا يقاوم أفظع الانتهاكات، فإن العبد الذي هرب من سيده أو رفض أن يعمل له ربما يُقتل عند رؤيته.

لقد كان هناك سبب واحد فقط للإبقاء على العبد، السبب الذي يبقى المرء من أجله على الماشية؛ تكاليف شراء واحد جديد. لا يكلّف العامل المأجور شيئًا، فإذا دمَّره العمل فإن آخرًا سيأخذ مكانه، ولكن كان يجب شراء العبد، إذا مات قبل أجله، كان سيده هو الخاسر - ولكن كان لهذا السبب تأثير أضأل فأضأل حين كان العبيد رخيصين، وقد أتت أوقات كان ثمن العبد فيها متدنيًا للغاية، حين قذفت الحروب الأجنبية والمحلية بأسرى عديدين فى السوق.

وهكذا ففى الحروب الرومانية الثالثة ضد مقدونيا، فإن سبعين مدينة قد نهبت فى إبيبروس EPIRUS فى عام 169 ق.م، بيع فى يوم واحد، 150000 من سكانها كعبيد.

وفقًا لبوك BOCKH كان الثمن المعتاد للعبد فى اثينا يتراوح بين 100 - 200 دراخمة (20 - 40 جنيه إسترلينى). ويروى كسينوفون أن الثمن تراوح بين خمسين وألف دراخمة. يقول ابيانوس البنطي فى إحدى المناسبات بيع أسرى الحرب مقابل أربع دراخمات (مبلغ ضئيل يتجاوز 75 سنت) لكل منهم. حين بيع يوسف من إخوانه لمصر بيع بمبلغ عشرون شاقل (4.5 جنيه) [1] فقط.

كان حصان ركوب جيد أكثر تكلفة من العبد، وقد كان ثمنه فى زمن أريستوفان حوالي اثني عشر مينًا MINAE أو حوالي 250 جنيه.

ولكن نفس الحرب التي قدَّمت عبيدًا رخيصين قد دمَّرت أيضًا فلاحين كثيرين. مادامت الميلشيا الفلاحية قد كوَّنت آنئذ عماد الجيوش. فبينما كان الفلاح يشن الحرب فإن أرضه كانت تتشقق بسبب الافتقار إلى العمال. لم يكن لدى الفلاحين المدمَّرين مصادر أخرى غير اللجوء إلى قطع الطريق، هذا إذا لم تكن تواتيهم الفرصة لأن يذهبوا إلى مدينة مجاورة ويقتصدون فى عيشهم كحرفيين أو كجزء من البروليتاريا الرثّة [2]. هكذا أفرخ كثير من الجرائم والمجرمين الأمر الذي لم يكن معروفًا فى الأزمنة الأسبق، ووفَّرت مطاردة هؤلاء المجرمين عبيدًا جددًا، لأن السجون لم

---

2 هيرتزفلد،

Handelsgechichte Der JÜden Des Altertum , 1894 , P. 193.

3 هذه الكلمة الألمانية، التي تستعمل الآن كثيرًا فى المؤلفات الاقتصادية المكتوبة بالإنجليزية، تشير إلى قسم من البروليتاريا الذي لا يمثّل دخلها، رغم أنه ذو أبعاد بروليتارية، نتاجًا لعمل فعلي، وإنما للإحسان أو الابتزاز.

تكن معروفة بعد، حيث إنها نتاج لنمط الإنتاج الرأسمالى. وكان يحكم على الأشخاص الذين لم يصلبوا بالعمل الإجبارى.

كانت تتوافر عبر فترات معيَّنة من ثمَّ جموعًا من العبيد الرخيصين للغاية الذين كانت أوضاعهم بائسة. مناجم الفضة الأسبانية، وهي من بين الأكثر إنتاجية فى العصور القديمة، هي مثال ممتاز. يقول ديودورس عن هذه المناجم: "فى البداية تولَّى أفراد خاصين عاديِّين التعدين، وحصلوا من ثمَّ على ثروة عظيمة، حيث إن خام الفضة لم يكن على عمق فى الأرض وكان موجودًا بوفرة غزيرة. حين أصبح الرومان سادة أيبريا (أسبانيا)، فيما بعد انجذب عدد غفير من الإيطاليين نحو المناجم، محرزين ثروة عظيمة من خلال جشعهم لأنهم اشتروا عددًا من العبيد وسلمُّوهم إلى مشرف المنجم.... استخرج العبيد الذين كان عليهم أن يعملوا فى هذا المناخ كميات لا تصدَّق من أجل سادتهم، ولكن كثيرًا منهم، إذ يعملون عميقًا تحت الأرض ويجهدون أجسامهم نهارًا وليلاً فى مهاوى (المنجم) يموتون من فرط العمل. فلم يكن لهم حق استجمام أو عطلة من عملهم، ولكنهم كانوا يساقون بسياط مشرفيهم، ويتحملون أسوأ المتاعب ويشتغلون حتى الموت. إن قلة ممن تملك قوة بدنية كافية ورباطة جأش صابرة قادرة على تحمل هذه المعاملة، ولكنها تطيل من بؤسهم فقط، وهولها يجعل الموت يبدو مرغوبًا أكثر بالنسبة لهم من الحياة" [1].

ربما كانت العبودية البطريركية المنزلية هى الشكل المعتدل من الاستغلال، إلا أن العبودية فى خدمة الجشع هى بالتأكيد الأكثر بغضًا. إن الطرق التقنية للتعدين فى ظل الظروف المحددة جعلت من الضرورى تشغيل الإنتاج الكبير بالعبيد، فى المناجم. ولكن تزايد عبر مجرى الزمن الطلب على إنتاج السلع على نطاق كبير بواسطة العبيد فى فروع الصناعة الأخرى. لقد كانت هناك جماعات أكثر تميُّزًا بالقياس إلى جيرانها فى القوة العسكرية، وقد وجد هؤلاء الحرب مربحة لدرجة أنهم لم يتعبوا منها أبدًا. لقد قدَّمت الحرب معينًا لا ينضب من العبيد الجدد بغرض أن يُستثمروا فى عمل مربح. ولكن كانت هذه الجماعات مرتبطة دومًا بالمدن الكبرى. حين كانت مدينة كهذه، بسبب موقعها المتميز، قد أصبحت مكانًا عظيمًا للتجارة،

---

4 ديودورس الصقلى،Historiche Biblothek, Vol. XXXVI , 38 قارن المقتطف من نفس المؤلف 3، 38، حول مناجم الذهب المصرية، التي يشير إليها ماركس فى مؤلفه رأس المال، المجلد الأول، الفصل الثامن، 2، ملاحظة 43.

كانت التجارة فقط ستجتذب اهتمام أشخاص كثيرين، وإذا كانت المدينة كريمة فى منحها حق المواطنة للغرباء، فسرعان ما تصبح أغنى بالسكان، وفى وسائلها أيضًا، أكثر من الجماعات المجاورة الأخرى التي أخضعتها. كان نهب واستغلال الريف المحيط مصدرًا إضافيًا لزيادة ثروة المدينة وسكانها. وكان لمثل هذه الثروة أن تحفّز الحاجة إلى عمليات بناء كبيرة، سواء كانت مجاري ذات طبيعة صحية - قنوات سحب المياه؛ أو كانت ذات طبيعة جمالية ودينية - المعابد والمسارح، أو ذات طبيعة عسكرية - الأسوار المحيطة. كان يمكن لمثل هذه الهياكل أن تُبنى بأفضل شكل بواسطة جمهور غفير من العبيد. ظهر المقاولون، الذين اشتروا أعدادًا ضخمة من العبيد ونفّذوا عدة إنشاءات للدولة بعملهم. لقد قدّمت المدينة الكبيرة أيضًا سوقًا واسعًا من مواد الطعام للجماهير الغفيرة. وكان أكثر الفوائض ضخامة ينتج عن المؤسسات الزراعية التي تعمل على نطاق كبير، مع ثمن العبيد المنخفض. مما لاريب فيه، لم يكن التميُّز التقني للإنتاج الكبير فى الزراعة فى هذا الوقت بأيَّة حال حقيقة ناجزة. كانت العبودية، فى الواقع، أقل إنتاجية من عمل الفلاح الحر، ولكن مادامت لم تكن هناك حاجة لتوفير قوة عمل العبد، ويمكن سوقه إلى الموت دون أسف، فقد أنتج فائضًا زيادة وأكثر من تكاليف بقائه مما فعل الفلاح، الذي لم يكن قد تعلَّم بعد أن يُقَدِّر بركات العمل الزائد وكان معتادًا على الحياة السهلة. أضف إلى ذلك، كان لعمل العبد ميزة، فى هذه الجماعات تحديدًا، وهي أن العبد كان متحررًا من الخدمة العسكرية، بينما كان يمكن فى أيَّة لحظة أن يؤخذ الفلاح من على المحراث بسبب واجب الدفاع عن بلاده. وهكذا، ففي النطاق الاقتصادي لمثل هذه المدن الكبرى شبه المحاربة، بدأ الإنتاج الزراعي الكبير على أيدي العبيد. وقد رفعه القرطاجنيون إلى مستوى رفيع؛ وألمّ به الرومان فى الحروب مع قرطاج، وحين ضمُّوا أقاليم كبرى من منافستهم العظيمة، فقد ضمُّوا أيضًا ممارسة الإنتاج الزراعي الكبير، الذي طوَّروه أكثر ووسَّعوه.

وأخيرًا، فى المدن الكبرى حيث كان هناك عبيد كثيرون يمارسون نفس التجارة، وأيضًا سوق جيد لمنتجاتهم، فقد كان من البساطة بمكان شراء عدد كبير من هؤلاء العبيد وتشغيلهم فى مشغل FACTORY عام، حتى إنهم قد ينتجون من أجل السوق مثلما يفعل العمال المأجورين اليوم. ولكن مثل هذه المانيفاكتورات العبودية أحرزت أهمية فقط فى العالم الهيليني وليس فى الروماني. تطوَّر فى كل مكان، على أيَّة حال، نوع معيَّن من الصناعة العبودية مع الإنتاج الزراعي الكبير، بغض النظر عمَّا إذا كان

إنتاجًا كهذا مجرد زراعة تزوِّد بأنواع معيَّنة مثل الحبوب بطرق المصنع من أجل السوق، أو ما إذا كانت قد خدمت بصفة رئيسية الاستهلاك المنزلي للعائلة، بواسطة الاقتصاد المنزلي، ومن ثمَّ كان عليها أن تقدِّم اكثر المنتجات التي احتاجها الأخير تنوعًا.

العمل الزراعي له نوعيته فى انه يتطلب عددًا كبيرًا من العمال فى فصول معيَّنة من العام فقط، بينما فى فصول أخرى - خاصة فى الشتاء – لا يتطلب سوى قِلَّة. هذه مشكلة حتى بالنسبة لمؤسسات الإنتاج الزراعي الكبيرة الحديثة؛ لقد كانت مشكلة أصعب فى ظل نظام العمل العبودي. لأن العامل المأجور يمكن ان يفصل حين لا تكون هناك حاجة إليه ويعاد تشغيله حين تكون هناك حاجة إليه. كيف يتصرف فى الفترة الفاصلة هو أمر من شأنه. من ناحية أخرى، لا يستطيع الفلاح صاحب الإنتاج الكبير أن يبيع عبيده كل خريف ويشترى جددًا فى الربيع. كان سيجد مثل هذه الممارسة غاية في التكلفة، لأنه فى الخريف لن يساووا شيئًا وفى الربيع قيمة باهظة. لقد كان من ثمَّ مضطرًا أن يحاول أن يبقيهم مشغولين خلال الفترات التي لم تكن هناك فيها فلاحة. لقد كان تقليد وجود زراعة وصناعة مرتبطتان مازال قويًا، وكان الفلاح مازال يحوِّل كتانه، وصوفه، جلده، خشبه، ومنتجات أخرى من أرضه إلى ملابس وأدوات. كان عبيد المشاريع الزراعية الكبيرة يشتغلون من ثمَّ، خلال الزمن الذي تكون فيه الفلاحة عاطلة، فى مهام صناعية مثل النسيج ومعالجة الجلد، صنع العربات والمحاريث، إنتاج الآنية من كل الأنواع. ولكن، حين تقدَّم إنتاج مثل هذه السلع إلى مستوى عال، فقد صنعوها ليس فقط من أجل مؤسستهم الخاصة ومنزلهم، وإنما أيضًا من أجل السوق.

حين كان العبيد رخيصين، فقد كان يمكن لمنتجاتهم الصناعية أيضًا أن تكون رخيصة، حيث إن الأخيرة لم تتطلب إنفاقًا للنقود. قدم العقار، واللاتيفونديا (العزبة، الضيعة)، الغذاء والمواد الخام للعمال، وللقسم الأعظم حتى الأدوات وحيث كان ينبغى إبقاء العبيد أحياء فى أيَّة حالة خلال الفترة التي لا حاجة لهم فيها لأعمال الفلاحة، تضمَّنت كل المنتجات الصناعية التي أنتجوها ما يزيد عن حاجة مؤسستهم ومنزلهم فائضًا ربما سمح بربح حتى وإن بيعت بأثمان قليلة.

ليس مما يتير الدهشة أنه لم تتمكن طبقة حرفية حرة وصحيحة من التطور فى وجه هذه المنافسة من العمل العبودي. بقى الحرفيون فى العالم القديم، خاصة العالم الروماني، بؤساء، يعملون على الأغلب وحيدين بدون صبيان، وعادة في منزل العميل،

بمواد مقدَّمة من الأخير. إن طبقة حرفية صحية، مثل تلك التي تطوَّرت فيما بعد فى العصور الوسطى، غائبة كليًا. بقيت الطوائف الحرفية ضعيفة، والحرفيون دائمًا تحت رحمة عملائهم، الذين كان أكثرهم من الملاَّك العقاريين الكبار، ووفقًا لمن هم عملاؤهم فقد عاشوا غالبًا وجودًا طفيليًا على تخوم البروليتاريا الرثَّة.

ولكن الإنتاج الكبير المعتمد على العمل العبودي كان قويًا فقط بما يكفي ليمنع نموًا صحيًا لصناعة حرة وتطورًا لتقنياتها، الذي بقى دائمًا فى مستوى متدني فى الأزمنة القديمة؛ ولكن ربما تصبح مهارة الحرفي فى مناسبة ما متطوِّرة للغاية، وإن بقيت أدواته بائسة وبدائية. ولكن لم تكن الحالة مختلفة فى المشروعات الكبرى، هنا أيضًا للعبودية نفس الأثر الكابح على كل التطوُّر التقني.

د- الدونية التقنية لنظام تملُّك العبيد

لم يتضمن الإنتاج الكبير فى الزراعة بعد نفس شرط الكفاءة العالية كما فى التعدين. مما لاشك فيه، فإن زيادة إنتاج السلع قد انتج تقسيمًا للعمل حتى فى الزراعة، حيث اتجهت كثير من المزارع إلى زراعة الحبوب بينما قام البعض الآخر بتربية الماشية، إلخ. حين تطوَّرت مؤسسة الإنتاج الكبير، أصبح من الممكن أن تدار برجال مدرَّبين علميًا بقدرة أكبر مما للفلاح المعتاد، إننا نجد من ثمَّ بالفعل فى هذه البلدان التي أدخلت هذا الاقتصاد الزراعي الكبير، بمعنى آخر بين القرطاجنين وفيما بعد الرومان، علم متطور تمامًا للزراعة يقارب نفس المستوى الذي وُجد فى الزراعة الأوربية فى القرن الثامن عشر. ولكن كان هناك افتقار للعمال الذين ربما استخدموا هذا العلم لرفع مؤسسة الإنتاج الكبير ماوراء ممارسة المؤسسة الفلاحية. حتى العامل المأجور ليس مهتمًا كثيرًا أو توَّاقًا لعمله مثل المالك العقارى الحر؛ إن تشغيل عامل مأجور مربح فقط فى الأماكن التي تكون فيها مؤسسة الإنتاج الكبير أكثر تميزًا بما لا يقاس بالنسبة للمؤسسة الأصغر. ولكن العبد المستخدم فى مؤسسة إنتاج كبير، الذي لم يعد يعيش فى شروط عائلة بطريركية، هو عامل مكره، فجهوده، فى الواقع، موجهًة بصفة رئيسية للإضرار بصاحب عمله. لم يكن عمل العبد يعتبر حتى فى العبودية المنزلية منتجًا مثل عمل المالك الحر، يقول أوديسيوس فى حينه:

"الخدم لم يعودوا يحفَّزون من قبل السيد المهيب فهم يهملون على الفور ما أن يشرعوا فى القيام بالعمل الذي أعطاه لهم سيدهم. نصف كامل من فضيلة العناية الإلهية لزيوس تؤخذ من الإنسان بمجرد أن يدركه يوم القنانة!"

كيف كانت الحالة أسوأ مع العبيد الذين كانوا يُعذَّبون يوميًا فى الصميم، والذي كان موقفهم تجاه سيدهم موقف يأس وحقد. لقد كان ذلك يتطلب تميزًا كثيفًا من جانب الإنتاج الكبير على الإنتاج الصغير، حتى يحقق الأول نفس نتائج الأخير بنفس عدد العمال. ولكن الإنتاج الكبير لم يكن فقط غير متميز، وإنما كان بعدة طرق متدنيًا. وجد العبيد «الذين أسيئت معاملتهم هم انفسهم، متنفسًا لكل غضبهم فى معاملتهم للماشية، التي لا حاجة للقول بأنها لم تتكاثر بالمثل، فقد كان من المستحيل السماح لهم أن يستعملوا أدوات دقيقة. وقد أشار ماركس لهذا سلفًا. وهو يقول عن "الإنتاج المؤسَّس على العبودية".

"هذا هو أحد الشروط التي تجعل الإنتاج بواسطة عمل العبيد عملية باهظة هكذا. العامل هنا، إذا استعملنا تعبيرًا صارخًا عن القدماء، قابل للتمييز فقط باعتباره أداة ناطقةinstrumentum vocale من الحيوان باعتباره أداة شبه ناطقة instrumentum semi vocale وعن الأداة باعتبارها أداة صامتة instrumentum mututum ولكنه هو نفسه يعني بأن يدع كلاً من الحيوان والأداة تشعر بأنه ليس واحدًا منها، ولكنه إنسان. وهو يقنع نفسه برضى كبير، أنه كائن مختلف، بمعاملة الواحد بلا رحمة ومدمرًا بحماسةcon amore الآخر. من ثمَّ فإن المبدأ المطبَّق شموليًا فى طريقة الإنتاج هذه هو أن تستخدم فقط أكثر الأدوات خشونة وثقلاً وتلك التي يصعب تخريبها بسبب عدم صقلها كلية. صممت المحاريث فى الدول العبودية التي تتاخم خليج المكسيك، وحتى تاريخ الحرب الأهلية، وفق النماذج الصينية القديمة، التي كانت تقلب التربة مثل الخنزير، أو تبقى كتلة غير مستوية، بدلاً من عمل أخاديد، وهي وحدها التي كانت توجد فقط...". فى كتابه الدول العبودية الساحلية، يخبرنا أولمستد: "لقد شاهدت هنا أدوات لا يوجد إنسان يمتلك حواسه، معنا، سوف يسمح لعامل، يدفع له أجورًا، أن يكون مثقلاً بها. ويمكنني أن أقرِّر أن الوزن الزائد والخشونة التي لها سوف تجعل العمل أكبر على الأقل بنسبة عشرة فى المائة من تلك التى تستعمل عادة لدينا. وقد جرى التأكيد لي؛ عن الطريقة اللامبالية والخشنة التي لابد وأن تستعمل بها من قِبل العبيد، فأي شيء أخف أو أقل خشونة لم يكن ليزوِّدهم باقتصاد جيد، وأن تلك الأدوات التي نعطيها دومًا عمالنا ونجد ربحنا فى إعطائهم إيَّاها، لن تستمر ليوم واحد فى حقلِ ذرة فى فرجينيا — رغم أنها أخف كثيرًا وأكثر خلوًّا من الحجارة مما لأدواتنا. وهكذا، ايضًا، حين أسأل لماذا استُبدلت البغال بشكل شامل بالجياد فى المزرعة، أول سبب أُعطى، وباعترافهم السبب الأكثر حسمًا،

هو أن الجياد لا يمكن أن تتحمل المعاملة التي لابد وأن تتلقاها دائمًا من الزنوج؛ فسرعان ما تصاب الجياد دائمًا بالعرج أو تصاب بالشلل من قبلهم، بينما تتحمل البغال الضرب، أو فقد وجبة أو وجبتين بين الحين والآخر، ولن تصاب ماديًا، وهى لا تصاب بالبرد أو المرض؛ إذا أهملت، أو ضوعف لها العمل. ولكن لا أحتاج إلى أن أذهب أبعد من نافذة الغرفة التي أكتب منها، حتى أرى تقريبًا فى أي وقت، معاملة للماشية سوف تضمن الفصل الفورى لأي سائق من قِبل أي مزارع يملكها فى الشمال" [1].

غير ذكي، عابس، حقود، متطلّع إلى فرصة يُضير فيها المُعذّب المكروه، حينما سنحت الفرصة، أنتج عمل العبد فى اللاتيفونديا أقل كثيرًا من مزرعة الفلاح. أشار بلينى قبلاً، فى القرن الأول من عصرنا، إلى كيف كانت حقول إيطاليا مثمرة حينما كان الفلاح لم يحتقر بعد أن يفلحها بنفسه، وكيف أصبحت أمنا الأرض حين سُمح للعبيد المغلولين والموسومين أن يسيئوا معاملتها. ربما يتأتّى عن هذا النوع من الفلاحة فى ظل ظروف معيَّنة فائضًا أعظم من مزرعة الفلاح، ويمكن على أيَّة حال أن يُبقي اناسًا كثيرين فى رفاهية. على أيَّة حال، مادامت حالة الحرب قد استمرت، وهو ما أزعجت به روما كل العالم الذي أحاط بالبحر الأبيض المتوسط، فإن امتداد عملية الفلاح استمرت أيضًا، ولكن جنبًا إلى جنب معه ساد تدهور الاقتصاد الفلاحي المضطهد منه، مادامت الحروب قد قدَّمت غنيمة ثرية للملاك العقاريين الكبار الذين كانوا يشنُّوها، إضافة إلى أرض جديدة وأعداد غير متناهية من العبيد الرخيصين. وهكذا فإننا نجد فى روما عملية اقتصادية تحمل تشابها صارخا مع تلك التي تجري فى الأزمنة الحديثة: تدهور الصناعة الصغيرة، تقدُّم الإنتاج الكبير، ومازالت هناك زيادة أعظم للملكيات العقارية الكبيرة، اللاتيفونديا، التي جرَّدت الفلاح من ملكيته، وحينما لا يستطيعون أن يستبدلوه بواسطة طرق الزراعة أو أي إنتاج آخر كبير، يختزلوه على الأقل من مالك حر إلى مستأجر مستقل.

يقتبس بولمان PÖHLMANN فى مؤلفه تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة، من ضمن أشياء أخرى "نُواح الفقير ضد الغني" من المجموعة الكانتيلية المنحولة للخطب، التي وصف فيها نمو اللاتيفونديا بشكل ممتاز. إنه تفجع فلاح معدم، الذي ينوح قائلاً: " لم أكن دائمًا جارًا لرجل غنى. كل من هم حولى كانوا ذات مرة فى مزارع عديدة فلاحين مستقلين، متساوين فى الغنى، الذين فلحوا أرضهم المتواضعة

---

5 رأس المال، طبعة لندن، 1887، المجلد الأول، ص 178، هامش.

فى جيرة مسالمة. كيف اختلف الحال الآن ! الأرض التي أطعمت ذات مرة كل هؤلاء المواطنين هي الآن مزرعة واحدة كبرى، تخص رجلاً غنيًا واحدًا. لقد توسَّعت أملاكه فى كل الاتجاهات؛ منازل الفلاحين التي التهمها قد سوِّيت بالأرض ودمِّرت تماثيل آلهة الأسلاف. كان على الملاَّك السابقين أن يودِّعوا آلهتهم الحامية لبيت أسلافهم وأن ينطلقوا إلى مناطق أجنبية مع زوجاتهم وأطفالهم. إن تماثلاً عظيمًا للعمل يهيمن على نطاق واسع. تطوِّقنى الثروة فى كل مكان مثل جدار. هنا حديقة الغني، وهناك حقوله، هنا كرومه، وهناك غاباته ومراعيه. أنا أيضًا كنت لأرحل بسرور ولكني لم أجد بقعة واحدة من الأرض لن يكون لي فيها جيران أغنياء. لأنه أين نجد الأملاك الخاصة للأثرياء؟ إنهم لم يعودوا راضين عن توسيع ممتلكاتهم إلا أن يقابلوا حدًا طبيعيًا، كما تفعل الأمم، فى شكل نهر أو جبل، وهم يستولون على أكثر قفار الجبل والغابات بعدًا. ولا يواجه هذا التوسُّع فى أي مكان أي حد، أي حاجز، عدا حين تلتقى أرض غني بأرض غني آخر. وعنصر آخر فى الاحتقار الذي يوليه هؤلاء الأثرياء لنا نحن الفقراء، أنهم لا يعتبرون أن ممَّا له قيمة أن ينكروا أفعالهم إذا أدينوا بأي انتهاك للحقوق". (**تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة**، المجلد الثاني، الصفحتان 582، 583).

يعتبر بولمان ما سبق تشخيصًا للاتجاهات "الخاصة برأسمالية متطرفة بشكل عام" ولكن تشابه هذا التطور مع التطور الخاص بالرأسمالية الحديثة وتركيزها للثروة الرأسمالية هو تشابه زائف فحسب ومن المضلِّل للغاية أن نقارن الاثنين. إن من يدرس الموضوع على نحو أكثر عمقًا سوف يجد بالأحرى تعارضًا حادًا بين التطورين. قبل كل شيء، فى حقيقة أن هذا الاتجاه للتركيز، وسعى المشروعات الأكبر لأن تحلَّ محل الأصغر، وكذلك الاندفاع للاستقلال المتزايد للمشروعات الأصغر عن حائزي الثروات الكبيرة يجري فى الوقت الحاضر بصفة رئيسية فى الصناعة وبدرجة أقل كثيرًا فى الزراعة، بينما فى الأزمنة القديمة، كان الحال عكس ذلك تمامًا. أضف إلى ذلك، فإن إخضاع المشاريع الصغيرة من قبل الأكبر يجرى اليوم فى شكل منافسة، حيث تمكن الإنتاجية الأكبر للمؤسسة العاملة بآلات ومنشآت ضخمة أن يكون لها فعاليتها الكاملة. اتخذ الإخضاع فى العصور القديمة، شكل إضعاف الفلاحين الأحرار، المضطهدين بالخدمة العسكرية وبرخص أكبر لقوة العمل التي فى متناول حائزي مصادر النقود الكبرى فى شكل إمداد كثيف بالعبيد. وأخيرًا بسبب الربا، الذي سوف نتكلم عنه لاحقًا. كل منها عوامل خفضت إنتاجية العمل بدلاً من رفعه. كانت

الشروط الضرورية لتطوير واستعمال الآلات مفتقدة فى العصور القديمة كما أنه لم تكن قد تطوَّرت بعد طبقة حرفيين أحرار إلى مستوى عالٍ يمكنها من أن تقدِّم كميات ضخمة من العمل الماهر الحر، مستعدة لتأجير نفسها بشكل دائم لقاء أجر، بأعداد كبيرة، أي عمال يُطلبون لإنتاج الآلات وتشغيلها. ومن ثمَّ فإن الحافز الضروري للمفكرين والباحثين لاختراع الآلات كان أيضًا مفتقدًا، مادامت هذه الآلات كانت ستبقى دون فائدة عملية. على أيَّة حال، إذا ما اخترعت الآلات، ذات الصلاحية للاستخدام الناجح فى الإنتاج، وبمجرد أن يظهر عدد من العمال الأحرار، التائقين للتوظف فى الإنتاج واستخدام هذه الآلات، تصبح الآلة واحدًا من أكثر الأسلحة أهمية فى المنافسة بين أصحاب المشاريع أنفسهم. النتيجة سعي ثابت نحو الكمال وحجم متزايد للآلة، زيادة إنتاجية العمل، زيادة الفائض فوق الأجر المدفوع للعامل، وأيضًا ضرورة اختزان أو مراكمة قسم من هذا الفائض بغرض التزوُّد بآلات جديدة افضل، وأخيرًا أيضًا زيادة ضرورة توسيع السوق دومًا، مادامت الآلات المحسَّنة تستمر فى تقديم منتجات أكثر فأكثر يجب التخلص منها. ويقود هذا إلى زيادة غير متقطعة للراسمال، حتى أن إنتاج وسائل الإنتاج يفترض دورًا متزايد الأهمية فى نظام الإنتاج الراسمالى، انتهاءًا إلى ان الأخير، من أجل ان يتصرف بربحية فى أدوات الاستهلاك المتزايدة التي خلقت متزامنة مع وسائل الإنتاج المتزايدة، يجب أن يبحث أكثر فأكثر عن أسواق جديدة، حتى يمكن أن يقال أنه فى مجرى قرن واحد، أي القرن التاسع عشر، قد غزا العالم كله.

كان مجرى الأحداث مختلفًا تمامًا فى العصور القديمة. لقد رأينا أن العبيد الذين اشتغلوا فى المؤسسات الكبرى يمكن ان يزوَّدوا فقط بأكثر الأدوات خشونة، حتى يمكن أن يشتغل أكثر العمال غباوة وفظاظة، ومن ثمَّ كان الرخص البالغ لمادة العبد فقط هو الذي جعل مؤسسة الإنتاج الكبير مربحة بشكل معقول. لقد أثار هذا بين أصحاب مشاريع مؤسسات الإنتاج الكبير ميلاً ثابتًا نحو الحرب، بوصفها أكثر الوسائل فعالية للحصول على عبيد رخيصين، ونحو توسع مستمر للحدود القومية. أصبح هذا الميل بداية بالحرب ضد قرطاجنة، واحدًا من أعتى القوى المحرِّكة للسياسة الرومانية فى الغزو، التي أخضعت فى مجرى قرنين كل البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وفى زمن المسيح، بعد أن وضعت الغال – التي هي فرنسا الآن – تحت النير كانت تستعد لإخضاع ألمانيا، التي قدَّم سكانها الأشداء مثل هؤلاء العبيد الممتازين.

جعل هذا الميل الثابت النهم لزيادة المناطق المستغلة مشروع الإنتاج الكبير القديم مشابهًا إلى حد ما لمشاريع زمننا الحديث، ولكن كان هناك مع ذلك اختلافا كبيرًا فى الطريقة التى طُبِقَ بها إنتاج المنتجات الفائضة بواسطة الجموع المتزايدة من العبيد. على الراسمالى الحديث، كما راينا، ان يوفّر ارباحه إلى حد بعيد، من أجل ان يُحسن ويُوسِّع مشروعه، إذا لم يكن يرغب فى ان يستولى عليه ويهزمه منافسوه. لم يشعر مالك العبيد القديم بحاجة كهذه. لم يكن الأساس التقني الذي ارتكز عليه إنتاجه أعلى، وبالأحرى كان أدنى من أساس الفلاحين الصغار الذين كان يخرجهم عنوة. لم يكن هذا الأساس التقني يُثَور ويُوسَع دائمًا، ولكنه بقى دائمًا نفس الشيء. كانت كل المنتجات الفائضة التي تجاوزت التكاليف التي أنفقت، وإحلال أو تلف الأدوات، الماشية والعبيد، فى متناول مالك العبيد من أجل متعته، حتى وإن لم يكن مسرفًا. مما لا ريب فيه فإن النقود يمكن ان تستثمر فى التجارة والربا أو بقعًا جديدة من الأرض، ويمكن أن تصبح هكذا مصدرًا لربح متزايد، ولكن حتى هذا الربح الجديد لا يمكن أن يستثمر فى غرض آخر سوى المتعة. إن تراكم راس المال لأغراض إنتاج وسائل إنتاج جديدة ماوراء الكمية المحدَّدة سوف يكون مثيرًا للسخرية، لأن وسائل الإنتاج الجديدة هذه ربما لا تكون قد وظِّفت فى تطبيق جديد.

كلما حلَّت اللاتيفونديا أكثر مكان الفلاحين، كلما تعاظمت كميات الأراضى والعبيد التي تجمَّعت تحت إطار ملكية واحدة، وكلما أصبح الفائض أعظم، زادت الكنوز التي كانت فى متناول الأشخاص الفرديين، والتي لا يمكن للأخيرين أن يوظِّفوها فى غرض آخر غير استهلاكها لمسرَّتهم الخاصة. بينما يتسم الراسمالي الحديث بميله لمراكمة رأس المال، تميَّز الأرستقراطي الروماني فى الفترة الإمبراطورية بملاحقته للمتعة: لقد نشأت المسيحية فى هذه الفترة. لقد راكم الراسماليون الحديثون راسمالاً يجعل ثروة اغنى مواطن من روما القديمة مثارًا للسخرية بالمقارنة. إن نموذج ثراء الرومان القدماء كان نارسيس، عبد نيرون المحرَّر، الذي كانت لديه ثروة نافت على 20000000 مليون جنيه إسترلينى ولكن ما هي 20000000 مليون جنيه إسترلينى مقارنة بـ 1000000000 التي قيل ان السيد روكفلر يملكها؟ ولكن التبذير الذي يمارسه الأمريكيون ذوي الملايين لا يمكن أن يقارن، بالرغم من كل جنونه، بتبذير أسلافهم الرومانيين الذين قدَّموا السنة طيور العندليب فى مآدبهم وأذابوا لآلئ ثمينة فى الخل.

تزايد مع نمو الترف عدد العبيد المنزليين المستخدم فى الخدمة الشخصية أيضًا، وبات أكثر حين أصبحت مادة العبد أرخص. يقول هوراس فى واحدة من هجائياته إن أصغر عدد من العبيد يمكن لرجل أن يحتفظ به حتى يصبح مستريحًا نوعًا ما لا يقل عن عشرة. ربما يصل عددهم فى مؤسسة أرستقراطية إلى آلاف. بينما وُضع البرابرة فى المناجم وفى المزارع الكبرى، فقد كان الأكثر درية هم العبيد الأغارقة خاصة، مع "عائلات المدينة"، بمعنى آخر، فقد عاشوا فى منزل يقع في المدينة. ليس فقط الطهاة، والكتَّاب SCRIBES، والموسيقيون، والمربون، والممثلون، وإنما حتى أطباء وفلاسفة كانوا يعتبرون عبيدًا. تعارض وضع العبيد الذين خدموا فى زيادة ثروة المالك، مع وضع أغلب هؤلاء العبيد المتعلمين الذين كان لديهم عمل قليل يقومون به. كان العدد الأعظم منهم الآن عاطلين عظماء مثل سادتهم أنفسهم. ولكن الشرطين اللذين خدما سابقًا فى الإسهام فى معاملة حسنة لعبد العائلة اختفيا الآن: وهما ثمنه المرتفع، الذي جعل من الضروري الإبقاء عليه، والعلاقة الرفاقية مع سيده، الذي عمل العبد معه. الآن، على ضوء الثروة الكبيرة للسيد ورخَّص العبيد، لم يشعر أحد بأدنى التزام لأن يُبقي على الأخيرين. أضف إلى ذلك، توقفت كل علاقة شخصية مع السيد بالنسبة للجمهرة العظمى من العبيد المنزليين؛ لقد عرفهم السيد بالكاد. وإذا جرى اتصال شخصي بين السيد والعبد، فلم يكن بشأن عملهم، الذي كان مصدر احترام متبادل، وإنما فى العربدة والرذائل، التي تنتجها العطالة والغطرسة التي ألهمت السادة والخدم باحتقار متبادل. رغم أنهم عاطلون، وغالبًا مدلّلون، فقد كان عبيد المنزل معرَّضون لكل رداءة طبع بدون إمكانية دفاع، ولكل انفجار غاضب، الذي حمل لهم غالبًا مصائر خطرة. إن التصرف القاسى الذي قام به "فيديوس بوليو" معروف جيدًا: لقد كسر العبد آنية مصنوعة من الكريستال، وبسبب هذا الخطأ أمر بوليو أن يلقي به كطعام لسمك متوحش MURDENAE، كان يبقيه فى بركة، لأن أسماك الإنفليس هذه كانت تقدَّر آنذاك كطعام شهى.

لقد عنت الزيادة فى عدد هؤلاء العبيد المنزليين زيادة فى عدد العناصر غير المنتجة فى المجتمع، الذين تزايدت جموعهم بالمثل بنمو البروليتاريا الرثَّة، التي جُنِّدت جزئيًا من الفلاحين المحرَّرين. وجرت هذه العملية بينما كان طرد العمل الحر من قبل عمل العبيد يُنقص فى نفس الوقت لحد بعيد إنتاجية العمل فى عديد من المهن المنتجة.

ولكن كلما كان عدد أعضاء العائلة أكبر، أصبح من السهل أن تجهَّز المنتجات لاستهلاك المنزل من قبل عماله، منتجات كان أصغر منزل مضطرًا لشرائها، مثل أردية معيَّنة وأوعية. أدَّى هذا إلى تطور مجدَّد للإنتاج من أجل الاستهلاك المنزلي داخل العائلة. ولكن هذا الشكل الأخير من الاقتصاد العائلي للأثرياء لا يجب أن يخلط مع الاقتصاد العائلي البدائي البسيط، الذي كان مؤسَّسًا تقريبًا على غياب الإنتاج الجماعي، والذي أنتج هو نفسه تحديدًا أكثر المواد أهمية والتي لا غنى عنها من بين حاجاته، شاريًا فقط أدوات ومواد الترف. كان هذا الشكل الثاني من الإنتاج للاستهلاك المنزلي ضمن العائلة كما صادفناه في نهاية الجمهورية الرومانية والفترة الإمبراطورية، فى منازل الأغنياء مؤسَّسًا تحديدًا على الإنتاج الجماعي، على إنتاج المناجم واللاتيفونديا من أجل السوق: كان هذا الإنتاج المنزلي أولاً وبصفة رئيسة إنتاجًا لمواد الترف.

كان هذا التطور الجديد للإنتاج من أجل الاستهلاك المنزلي خطرًا على الحرفي الحر، حيث كانت المشاريع الصناعية فى المدن واللاتيفونديا، التي نهض بها العبيد، تسبِّب له ما يكفي من الأضرار. لقد كان من المحتَّم أن تتناقص طبقة الحرفيين الأحرار نسبيًا، وبمعنى آخر، إن عدد العمال الأحرار لم يكن إلا ليهبط مقارنة بعدد العبيد، حتى فى العمل الحرفي. ولكن فى عدد من التجارات ربما مازال عدد العمال الأحرار يتزايدون فى العدد بشكل **مطلق**، بفضل زيادة التبذير، التي خلقت طلبًا متزايدًا على موضوعات الفن وعلى الصناعات الفنية، بل أيضًا على مجرد مواد تافهة، مثل أدوات التجميل والدهانات العطرية.

إن من يحكم على رفاهية مجتمع بواسطة مثل هذا التبذير، ويتخذ نفس الموقف ضيق الأفق كذلك الذي زعمه القياصرة الرومان والملاَّك العقاريون الكبار وبطانتهم من الحاشية، والفنانين، والأدباء **LITERATI**، سوف يغالي في تقدير الظروف الاجتماعية فى فترة الإمبراطور أغسطس ويصفها بأنها ممتازة. لقد كانت الثروة اللامحدودة تتراكم فى روما من أجل غرض وحيد هو خدمة المسرَّة الشخصية، وترنَّح المسرفون الأثرياء الباحثون عن المتع، من مأدبة إلى مأدبة ناثرين بأيدٍ مبذِّرة الوفرة التي كان من المستحيل عليهم أن يستهلكوها كلها بأنفسهم. تلقَّى كثير من الفنانين والباحثين عطايا من النقود غاية فى الكرم من **MOECENATES**، وشيِّدت هياكل كبرى، اتسمت بالحجم الهائل والنسب الفنية التي هي موضوع إعجابنا حتى

اليوم، بدا العالم كله وكأنه يعرق ثروة من كل مسامه - ومع ذلك فإن هذا المجتمع كان قد حكم عليه بالدمار سلفاً.

د - التدهور الاقتصادي

إن نذيراً بحقيقة أن الأحوال كانت فى مسار هابط ظهرت بالأحرى فى وقت مبكر داخل الطبقة الحاكمة؛ نائين إذا جاز القول عن كل الأنشطة، فإن عملهم بما فيه ذلك المتعلّق بالدراسة والسياسة، كان يقوم به العبيد. خدم عمل العبد فى بلاد الإغريق، أولاً هدف منح وقت فراغ كبير للسادة، ولإدارة الدولة، وللتأمل الذي يتعلق بأكثر مشاكل الحياة أهمية. ولكن كلما تزايدت المنتجات الفائضة التي كانت متمركزة فى أيدي أفراد معيَّنين بتركيز الملكية العقارية، وتوسع اللاتيفونديا، وتزايد جمهرة العبيد، كلما أصبح الميل أعظم لاعتبار ممارسة الاستمتاع، فى تبديد تلك الفوائض، كأنه أكثر الوظائف الاجتماعية للطبقات الحاكمة أرستقراطية، وكلما تحرَّقوا أكثر بحماس المنافسة للتبذير، المنافسة فى أن يبز الواحد الآخر فى الأبهة، والترف، والعطالة. انجزت هذه العملية فى روما بشكل أكثر سهولة منها فى بلاد الإغريق، مادام البلد الأخير كان متخلفاً إلى حد ما فى مستواه الثقافي حين بلغ هذا النمط من الإنتاج. لقد توسعت القوة العسكرية الإغريقية بصفة رئيسة على حساب القبائل البربرية، بينما واجهت فى آسيا الصغرى ومصر معارضة قوية بالفعل. كان عبيدهم برابرة فلم يكن بمستطاع الإغريق أن يتعلموا منهم شيئًا، كما لم يستطيعوا أن يعهدوا إليهم بإدارة الدولة. والثروة التي كان من الممكن اقتطاعها من البرابرة كانت بالمقارنة ضئيلة. انتشر الحكم الروماني من ناحية أخرى، بسرعة فى المواقع القديمة للحضارة فى الشرق، بعيدًا حتى بابل (أوسلوقيا): لم يستخرج الرومان من هذه الولايات المغزوَّة حديثًا ثروة هائلة فقط، وإنما كثيراً من العبيد الذين كانوا أرفع قياسًا بسادتهم فى المعرفة، حيث كان على الأخيرين أن يتعلموا منهم الكثير، وأمكن أن يعهدوا إليهم بإدارة الدولة. خلف مدبِّرى الدولة، الذين كانوا سابقاً أرستقراطيين ملاَّك أرض كبار، أكثر فأكثر فى الفترة الإمبراطورية عبيد البيت الملكى وعبيد الإمبراطور السابقين، المعتقين الذين بقوا مخلصين لسادتهم السابقين.

كانت المتعة هي الوظيفة الوحيدة فى المجتمع التي بقيت لملاَّك اللاتيفونديا ولحاشيتهم الكبيرة من الطفيليين. ولكن الإنسان لا يستجيب لمثير يستمر فى التأثير فيه لفترة طويلة، للّذة كما للألم، للدوافع الشهوانية وللخوف من الموت. إن مجرد

اللذة المتواصلة، التي لا يخمدها العمل، أنتجت فى البداية سعيًا دائمًا لمتع جديدة، التي استهدف منها ان تفوق التجارب الأسبق، لهمز الأعصاب المنهكة من جديد، الأمر الذي قاد إلى أكثر الرذائل مخالفة للطبيعة، والى أكثر القساوات إتقانًا، والذي رفع التبذير إلى أكثر الذُّرا علوًا وعبثية. ولكن هناك حد لكل شيء، وإذا ماوصل الفرد إلى نقطة لم يعد فيها قادرًا بعد على زيادة ملذاته، إما من خلال الافتقار للمصادر، أو القوة، أو نتيجة لإفلاس مالي أو مادي، فقد كانت تعاينه اشد أنواع الغثيان حدَّة، مع بُغض شديد لمجرد فكرة اللّذة، وحتى مع اشمئزاز كامل من الحياة، بدت كل الأفكار والصور الأرضية الآن تافهة - VANITAS , VANITATUM , VANITAS. اليأس، الرغبة فى الموت، كانت النتيجة، ولكن تجذَّرت أيضًا الرغبة فى حياة أرقى جديدة. كانت هناك كراهية متأصِّلة للعمل فى عقول كثيرة، على أيَّة حال، حتى أن هذه الحياة الجديدة المثالية لم تكن تُتصور كحياة عمل مبهج، وإنما كحالة ساكنة تمامًا من النعيم، استخلصت كل مسرَّاتها من انفصالها الكامل عن الآلام وتحرِّرها من وهم الحاجات والمتع المادية.

ولكن ظهر أيضًا بين أفضل أفراد الطبقة المستغلة شعور بالعار استنادًا إلى حقيقة أن لذَّتهم كانت قائمة على تدمير عدد من الفلاحين الأحرار، وعلى سوء معاملة آلاف العبيد فى المناجم واللاتيفونديا. أيقظ وخز ضميرهم أيضًا إحساسًا بالتعاطف مع العبيد – الذي كان يتناقض بشكل غريب مع القسوة الفظّة التي كان ينظر بها لحياة العبيد - إننا فى حاجة إلى أن نشير عرضًا فقط إلى قتال المصارعين. أخيرًا أثار الضمير المريض أيضًا كراهية نحو شهوة الذهب، والنقود، التي كانت تحكم العالم فى هذا الزمن.

يصرخ بلينى فى الكتاب الثالث والثلاثين من التاريخ الطبيعى " نحن نعرف أن سبارتاكوس (قائد انتفاضة العبيد) منع أي شخص فى معسكره من أن يقتني ذهبًا أو فضة. لأي مدى يفوقنا عبيدنا الهاربون فى عظمة العقل ! يكتب الخطيب ميسالا أن تريمفير أنطونيوس قد استخدم الآنية الذهبية لحاجاته الجسدية الدنيا.... أنطونيوس، الذي حطّ من الذهب إلى هذا الحد، وجعله أدنى شيء فى الطبيعة، كان يستحق أن يعلن خارجًا على القانون. ولكن سبارتاكوس فقط هو الذي كان يمكن أن يجعله "خارجًا على القانون ".

في القاع، فى ظل هذه الطبقة الحاكمة، التي كان جزء فيها يُدمِّر نفسه بسعي مجنون إلى المتعة، والشهوة للنقود والقسوة، وكان جزء آخر مملوءًا بالتعاطف مع

الفقير، ومع كراهية الذهب والملّذات، وحتى مع الرغبة فى الموت، توسع هناك جمع كثيف من العبيد الكادحين، الذين كانوا يعاملون بقسوة أشد من حيوانات حمل الأثقال، جُنّدوا من أشد القبائل تنوُّعًا، خُلعوا وأُفسدوا بإساءة المعاملة الدائمة، بالعمل جماعات مقيدة بالسلاسل تحت قرقعات السوط، مملوئين بحنق عنيد، وبالرغبة فى الانتقام، واليأس، مستعدون دائمًا لانتفاضة عنيفة، ولكن غير قادرين - بسبب تخلُّف العناصر البربرية التي شكّلت أغلبيتهم - عن الإطاحة بمؤسسة نظام الدولة العاتي وإقامة نظام جديد، بالرغم من أن شخصيات بارزة مفردة بينهم ربما تابعت مثل هذه المطامح. لم يكن النوع الوحيد من التحرُّر الذي ربما نجحوا فى إحرازه يرتبط بالإطاحة بالمجتمع القائم، وإنما بالهروب من ذلك المجتمع، بالفرار إما للفئات الإجرامية، إلى قطاع الطرق، الذين كان عددهم يتضخم باستمرار، أو بالهرب بتخطي الحدود الإمبراطورية واللحاق بأعداء الإمبراطورية.

كانت هناك إلى حد ما فوق هذه الملايين الأكثر بؤسًا من كل البشر طبقة من العبيد تحتوي على عدة مئات من الآلاف، التي عاشت غالبًا فى ترف ووفرة، وشهدت دائمًا وعانت من العواطف الأكثر عنفًا وغلوًا، التي خدمت كملحق فى كل شكل للفساد يمكن تخيُّله، صائرين إما خاضعين للفساد أنفسهم ومن ثمَّ فاسدين تمامًا مثلهم مثل سادتهم، أو - مرة أخرى يشبهون بعض سادتهم، وغالبًا أبكر فى اللعبة من الآخرين، مادام كان عليهم أن يعانوا من شرور حياة اللّذة بشكل أسرع للغاية - مشمئزون بعمق من الفساد، والبحث عن اللّذة وحدها، ومليئين بتوق إلى حياة جديدة، أنقى، وأعلى.

وجنبًا إلى جنب مع كل هذا كانت هناك أيضًا حشود من مئات آلاف المواطنين المحرَّرين والعبيد المعتقين، وأيضًا بقايا عديدة مفقرة من الطبقة الفلاحية، حائزين متدهورين، حرفيين حضريين بائسين وحمّالي أثقال، وكذلك، أخيرًا، البروليتاريا الرثَّة فى المدن الكبيرة، لديها الطاقة والثقة فى الذات الخاصة بالمواطن المحرَّر ومع ذلك فقد أصبحت غير ضرورية اقتصاديًا فى المجتمع، مشرَّدة، بدون إحساس بالأمان، تعتمد بشكل مطلق على الفتات الذي يلقيه لها السادة الكبار فائضًا عن حاجاتهم، مدفوعين إما بالكرم أو الخوف، أو بالرغبة فى السلام.

حين يصوِّر إنجيل القديس متَّى يسوع قائلاً عن نفسه: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه " (الإصحاح الثامن، 20) فهذا يعبِّر فحسب فى حالة يسوع عن فكرة كان قد عبَّر عنها طيباريوس جراكوس

قبل 130 عامًا من ميلاد المسيح لكل بروليتاريا روما: "للوحوش فى إيطاليا كهوفها وأوجرتها التي تستريح فيها ولكن الرجال الذين يناضلون ويموتون من أجل عظمة إيطاليا لا يملكون شيئًا سوى النور والهواء لأنه لا يمكن سلبهم إياها. فهم مشرَّدون بلا مأوى يتجوَّلون مع زوجاتهم وأطفالهم". البؤس وعدم الأمان الدائم لوجودهم لابد وأن حنقهم أكثر مع الوقاحة المتزايدة والترف الذي كانت ثروة العظماء تضعه دومًا أمام أعينهم. تَوَلَّد من ذلك حقد طبقي عنيف عند الفقراء ضد الأغنياء، ولكن هذا الحقد الطبقي كان من نوع مختلف تمامًا عن ذلك الذي تعاينه البرولتياريا الحديثة.

كل مجتمع اليوم مؤسَّس على عمل البروليتاري. عليه أن يتوقف عن العمل فقط حتى يتزلزل المجتمع من أساسه. لم يقم البروليتاري القديم المتشرِّد بعمل وحتى العمل الذي قام به بقايا الفلاحين الأحرار والحرفيين لم يكن ضروريًا. لم يعش المجتمع على حساب البروليتاريا فى هذا الزمن، لقد عاشت البروليتاريا على حساب المجتمع. لقد كانت البروليتاريا نافلة تمامًا وكان لها أن تختفي كلية دون أن تضر المجتمع. على النقيض من ذلك كان بإمكان اختفاء البروليتاريا فحسب أن يجعل النظام أكثر أمنًا. كان عمل العبيد هو الأساس الذي بني عليه المجتمع.

تحارب اليوم المتناقضات بين الرأسمالي والبروليتاري فى المصنع، فى الورشة، والسؤال هو: من سيسيطر على المنتجات، مالك وسائل الإنتاج، أم مالك قوة العمل؟ يتضمن الصراع كامل نظام الإنتاج؛ إنه نضال من أجل إحلال نمط إنتاج أرقى محل القائم الآن.

لم يكن البروليتاري القديم المفقر معنيًا بهذا النضال. والحقيقة، أنه لم يكن يعمل ولم يرد أن يعمل. كل ما أراده هو نصيب فى متع الأغنياء، توزيع مختلف للملّذات، وليس وسائل الإنتاج، نهب الغنى، وليس تغيير نمط الإنتاج. لم تؤثِّر معاناة العبيد فى المناجم والمزارع فيه كما أثَّرت معاناة الحيوانات العامة.

الأقل إمكانًا أن يفكِّر الفلاحون والحرفيون فى محاولة إقامة نمط جديد أرقى. لا تطمح هذه الطبقات لأي شيء كهذا حتى الآن. لقد كان حلمها فى أفضل الأحوال استعادة الماضي، ولكنها كانت مرتبطة بوثوق بالبروليتاريا الرثَّة، وكانت طموحات الأخيرة مغرية بالنسبة لهم، حتى أنهم أيضًا لم تكن لديهم رغبة أو طموح أكثر مما لهؤلاء البروليتاريين المفقرين: حياة بلا عمل، تعاش على حساب الغنى، شيوعية بواسطة نهب الغنى.

ربما يعرض المجتمع الروماني فى نهاية الجمهورية وخلال الفترة الإمبراطورية، من ثم، متناقضات اجتماعية هائلة، كثير من الحقد الطبقي وكثير من الصراعات الطبقية، انتفاضات وحروب أهلية، نزوع لا حدود له لحياة مختلفة، أفضل، وإلغاء النظام القائم للمجتمع، ولكن لا يظهر أن هناك أي جُهد قد بذل فى اتجاه إدخال نمط إنتاج جديد أرقى [1].

لم تكن المتطلبات الأخلاقية والثقافية لحركة كهذه قائمة، فلم تملك أي طبقة المعرفة، والطاقة، والفرح بالعمل والإيثار المتطلبة لممارسة ضغط فعَّال فى اتجاه نمط إنتاج جديد، وأيضًا، كانت المتطلبات المادية غائبة، وبدونها لم تكن لتظهر فكرة مثل هذا الشيء.

لقد رأينا عاليه أن الاقتصاد العبودي لم يتضمن من الناحية التقنية تقدمًا وإنما تقهقرا، ذلك أنه لم يُخنث السادة فقط وجعلهم غير ملائمين للعمل، وأنه لم يفعل غير زيادة عدد العمال غير المنتجين فى المجتمع، ولكن إضافة إلى ذلك خَفَّض إنتاجية العمال المنتجين وأعاق التقدم فى التقنية العملية — ويمكن أن نستثني تجارات ترف معينة. إن من يقارن نمط الإنتاج الجديد مع النمط الذي يخصُّ طبقة الفلاحين الأحرار الذي أزاحه واضطهده، لا يمكن إلا أن ينظر إليه باعتباره تدهورًا، وعلى وجه اليقين ليس تقدُّمًا. بدأ الناس يشعرون أن الأزمنة القديمة كانت الأزمنة الأفضل، العصر الذهبي، وكل حقبة لاحقة كانت نسبيًا انحطاطًا. يتَّسم العصر الرأسمالي بفكرة التقدم اللانهائي للبشرية، بسبب جهد الرأسمالية الدائم لتحسين وسائل الإنتاج، وهو يسفر عن ميل للنظر إلى الماضي فى ألوان داكنة، وأن يرى فقط المستقبل ورديًا؛ ولكن فى الفترة الإمبراطورية الرومانية فإننا نجد وجهة نظر معاكسة، أي، أن هناك تدهورًا متلاحقًا لا يتوقف للبشرية، ونزوع دائم لاستعادة الأزمنة القديمة الطيبة. حينما كانت الإصلاحات الاجتماعية والمثل الاجتماعية فى الأيام

---

6 يضع بولمان بغباوة متناهية، فى المصدر الذي اقتبسنا منه قبلاً، تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمة، الصراعات الطبقية للبروليتاريين القدامى، حتى تلك التي تخص المزارعين المحررين من الديون،إنكار ديون الطبقة مالكة الأرض، نهب وتوزيع الأرض من قبل المحرومين من الإرث، على نفس المستوى مع الاشتراكية فى الأزمنة الحديثة، من أجل أن يثبت أن دكتاتورية البروليتاريا، لا يمكن تحت أي شروط أن تسفر عن أي نتيجة أخرى سوى القتل، والعنف، والإحراق العمدي، والقسمة، والعريدة. إن حكمة هذا البروفيسور من إرلانجن هي نفس حكمة المرحوم ايوجين ريختر المزيَّنة بعدد كبير من المقتطفات اليونانية.

الإمبراطورية معنية تمامًا بتحسين شروط الإنتاج، فقد استهدفت فقط استعادة نمط الإنتاج القديم، أي، نمط إنتاج الفلاحين الأحرار، هكذا بحق، لأن هذا النمط من الإنتاج كان أرقى نسبيًا. لقد أدّى العمل العبودي لطريق مسدود. على المجتمع أن يوضع مرة أخرى على قاعدة العمل الفلاحى قبل أن يستطيع البدء فى صعود جديد. ولكن كانت الحضارة الرومانية عاجزة عن أن تأخذ حتى هذه الخطوة، لأنها فقدت الفلاحين اللازمين. لقد كان من الضروري لهجرة الأمم أن تلقي بكتل كبيرة من الفلاحين الأحرار داخل الإمبراطورية الرومانية قبل أن تستطيع مرة أخرى بقايا الحضارة التي كانت تلك الإمبراطورية قد خلقتها أن تستخدم كأساس اجتماعي جديد.

مثل كل نمط إنتاج قائم على العداء المتبادل، كان الاقتصاد العبودي القديم يحفر قبره. كان هذا الاقتصاد فى الشكل الذي أحرزه فى النهاية فى الإمبراطورية الرومانية، مؤسسًا على الحرب. فقط حروب منتصرة لا تتوقف، إخضاع متواصل لأمم جديدة، وتوسع متصل للنطاق الإمبراطوري يمكن أن تقدّم كميات هائلة من مادة العبيد الرخيصين الذي احتاج إليها.

ولكن الحرب لا يمكن أن تُشن بلا جنود وكانت أفضل مادة للجنود هي الفلاح. المعتاد على العمل الشاق المتصل فى الهواء الطلق، فى القيظ والبرد، تحت الشمس المحرِقة وفى المطر المنهمر، استطاع أن يتحمل أشد المعاناة التي تلقيها الحرب على عاتق الجنود. إن بروليتاريّ المدينة المفقر، لم يعد معتادًا على العمل، وكذلك الحرفي الحاذق، نسّاجًا، أو صانعًا أو نحاّتًا، باتوا أقل ملائمة لمثل هذا الغرض. لقد عنى اختفاء الفلاحين الأحرار اختفاء الجنود للجيوش الرومانية. لقد أصبح ضروريًا أكثر فأكثر أن يستبدلوا بالمتطوعين من المرتزقة، والجنود المحترفين، عدد الجنود المطلوبين لخدمة الميليشيا الذين كانوا مستعدين لأن يخدموا ما بعد مدتهم العسكرية. وسرعان ما لم يعد يكفي هذا أيضًا، مالم يُقبل أيضًا مواطنيين غير رومانيين. قبل ذلك فى أيام طيباريوس، أعلن الإمبراطور فى مجلس الشيوخ، أنه كان هناك افتقار للجنود الجيدين، فكان لابد وأن يقبل كل أنواع الرعاع المتشردين. أصبح المرتزقة البرابرة أكثر فأكثر عددًا من الجيوش الرومانية، جُنّدوا من الولايات التي أُخضعت؛ وأخيرًا كان لابد وأن تملأ الخروق فى الجيش، بالمجندين الأجانب، أعداء الإمبراطورية. نجد بالفعل تيوتون فى الجيوش الرومانية فى ظل قيصر.

مع تناقص فرصة تجنيد الجنود للجيش من بين العرق المسيطر، ومع الندرة المتزايدة وتكلفة الجنود، تزايد حب الرومان للسلام بالضرورة، ليس بسبب أي تغير فى المفاهيم الأخلاقية، ولكن لأسباب غاية فى المادية. كان على روما أن تكون ضنينة بجنودها، ولكنها أيضًا لم تستطع أن تحتمل بعد توسيع حدودها الإمبراطورية، لقد كانت سعيدة كفاية بأن تكون قادرة على الحصول على عدد كافٍ من الجنود للاحتفاظ بالحدود القائمة. لقد جرى ذلك فى ذات الوقت الذي عاش فيه يسوع، أي، فى ظل طيباريوس، فالعدوان الروماني، إذا نظر إليه فى إجماله، قد انتهى إلى توقف تام. يبدأ الآن جهد فى الإمبراطورية الرومانية للإبقاء على وحدتها ضد الأعداء الذين يهدِّدونها من الخارج. وبدأت صعوبات هذا الوضع فى هذه اللحظة تصبح أشد خطورة، لأنه كلما زاد عدد الأجانب، خاصة التيوتون، الذين كانوا يخدمون فى جيوش روما، كلما أصبح جيران روما البرابرة أكثر معرفة بثروتها، وبأسلوب حربها، فضلاً عن ضعفها، وكلما أصبحوا ملهمين أكثر بالطموح إلى اختراق الإمبراطورية، ليس كمرتزقة وخدم، ولكن كغزاة وسادة. وبدلاً من القيام بحملات صيد أكثر للبرابرة، سرعان ما وجد السادة الرومان أنفسهم مضطرين للتقهقر أمام البرابرة أو لشراء السلام منهم. وهكذا ففي القرن الأول من عصرنا انتهى تدفق العبيد الرخيصين إلى توقف مفاجئ وأصبح ضروريًا أكثر فأكثر تربية العبيد.

ولكن كانت هذه عملية غاية فى التكلفة. كان تدريب العبيد مربحًا فقط فى حالة العبيد المنزليين من الأنماط الأرقى، القادرين على إنجاز عمل ماهر. لقد كان من المستحيل إدارة اللاتيفونديا باستخدام العبيد المدرَّبين. كان استخدام العبيد فى الفلاحة قد أصبح اقل فأقل حدوثًا وحتى التعدين كان يتدهور، أصبح العديد من المناجم غير مربح مع توقف إمداد العبيد المأسورين فى الحرب، التي لم تكن هناك حاجة للإبقاء عليها.

ولكن سقوط الاقتصاد العبودي لم يؤدِّ لانبعاث للطبقة الفلاحية. المخزون الضروري من الفلاحين الكُثر، الذي قد يهيِّئ لحل اقتصادي، كان مفتقدًا، وبالإضافة لذلك، كانت الملكية الخاصة للأرض عقبة. لم يكن ملاَّك اللاتيفونديا مستعدين للتخلِّى عن ملكيتهم، وإنما خفضوا فحسب من نطاق عملياتهم الأكبر. لقد وضعوا قسمًا من أراضيهم تحت تصرف حائزين صغار، مؤجِّرينها إلى مستأجرين أو إلى مستوطنين COLONI، بشرط أن يكرِّس الأخيرون قسمًا من عملهم لمزرعة السيد.

وهكذا نشأ نظام للزراعة، بقى حتى فيما بعد، فى الفترة الإقطاعية، طموح الملاّك العقاريين الكبار، حتى حلّت محله الرأسمالية بنظام الإيجار الرأسمالي.

كانت الطبقات العاملة التي جُنِّد منها المستوطن [1] جزئيًا من العبيد الريفيين والفلاحين الذين أصابهم الفقر، وجزئيًا بروليتاريين، حرفيين أحرار وعبيد من المدن الكبرى، لم يعودوا قادرين على أن يعيشوا فى الأخيرة، مادامت الحصيلة الإنتاجية للمؤسسات العبودية فى الزراعة والتعدين كانت فى تدهور، انتهاءً إلى أن شهامة وترف الغني كانت تعاني من انتكاس. إضافة إلى ذلك، كانت هذه القوى العاملة قد تضخَّمت أيضًا بواسطة سكان الولايات الحدودية الذين أُخرجوا من ممتلكاتهم بسبب تقدُّم البرابرة وفرُّوا نحو الولايات المركزية للإمبراطورية حيث وجدوا بيوتًا باعتبارهم مستوطنين.

ولكن لم يستطع نمط الإنتاج الجديد هذا أن يعوق عملية التدهور الاقتصادي الناجم عن الافتقار للإمداد بالعبيد. كان هذا النمط الجديد أيضًا متخلفًا تقنيًا مقارنة بطبقة الفلاحين الأحرار، وكان عقبة فى وجه التطور التقني. بقي العمل الذي كان على المستوطن أن يقوم به فى المزرعة مهمة إجبارية، وعولج بنفس البطء والإهمال، بنفس الاحتقار للماشية والأدوات، كما كان الحال فى العمل العبودي. مما لا ريب فيه أن المستوطن قد اشتغل بالفعل فى مزرعة تخصُّه، ولكنه أعطى مزرعة صغيرة حيث لم يكن هناك خطر من أن يظهر متعجرفًا، أو أن يحصل على أكثر من مجرد أسباب عيشه منها، يضاف إلى ذلك، الإيجار، الذي كان يدفع عينًا، وصار مفرطًا، حتى تعيَّن على المستوطن أن يسلِّم لسيده كل ما أنتجه زيادة على الحاجات الأساسية للحياة. لقد كان بؤس المستوطن قابلاً للمقارنة ربما مع بؤس المستأجرين الصغار فى أيرلندا، أو ربما مع فلاحي إيطاليا اليوم، حيث مازال نمط إنتاج مشابه قيد الوجود.

ولكن لدى الأقاليم الزراعية فى الوقت الحاضر صمام أمان فى الهجرة إلى الأقاليم المزدهرة صناعيًا على الأقل. لم يكن هناك شيء كهذا بالنسبة للمستوطن فى الإمبراطورية الرومانية. خدمت الصناعة آنئذ فقط بقدر ضئيل لإنتاج وسائل الإنتاج، ولكنها كانت مكرَّسة بصفة أساسية لمواد الاستهلاك والترف. حيث إن العائدات

---

7 انظر كلمة COLONUS، فى قاموس للفصحى - المترجم (عن النص الألمانى).

الفائضة لملاّك اللاتيفونديا والمناجم قد هبطت، تقهقرت الصناعة فى المدن وتناقص سكانها بسرعة.

ولكن كان سكان أقاليم الولايات أيضًا يتناقصون. لم يستطع الحائزون الصغار أن يعولوا عائلات كبيرة، لأن محصول مزارعهم فى الأوقات العادية كان كافيًا بالكاد لأن يبقيهم أحياء. يلقيهم عجز المحاصيل بلا مؤن وبدون نقود لشراء ما يفتقرون إليه. كان لمجاعة والبؤس بالضرورة حصاد غنى، حيث كانت فئات المستوطنين يهلك معظمها، خاصة أطفالها. إن تناقص السكان فى أيرلندا فى القرن الماضي يشبه النقص فى السكان فى الإمبراطورية الرومانية.

"من السهل أن نفهم أن الأسباب الاقتصادية التي كانت تسبّب نقصًا فى السكان فى كامل الإمبراطورية الرومانية أثّرت بالضرورة بشكل محسوس أكثر فى إيطاليا، وأكثر فى روما منها فى أي مكان آخر. إذا سأل قارئ عن الأرقام، فدعه يفترض أن مدينة روما فى زمن أغسطس قد حوت حوالى مليون من السكان، الذي بقى فى نفس المستوى تقريبًا خلال القرن الأول من الفترة الإمبراطورية، وعندئذ هبط فى عهد سيفري إلى حوالي 600000 نسمة؛ وبعد ذلك استمر العدد فى التناقص بسرعة "[1].

يطبع إدوارد ماير، فى مؤلفه الممتاز، **التطور الاقتصادي فى الأزمنة القديمة** (1895)، ملحقًا يتضمن الوصف الذي قدّمه ديوكريسوسوتم (ولد حوالى 50 ب.م) فى خطبته السابعة. حول ظروف مدينة صغيرة فى إيوبيا **EUBOEA**، والذي لا يورد اسمها، وهي تمثيل عنيف لتناقص سكان الإمبراطورية.

"تخص المقاطعة المحيطة بكاملها المدينة وتدفع جزية للمدينة. كل الأرض تقريبًا، إن لم يكن كلها، مملوكة للأغنياء، وهم ملاّك قطع أراضي شاسعة، تستخدم فى رعي الماشية والفلاحة. ولكن الأرض مهجورة كلية. أعلن مواطن فى الجمعية الشعبية، "ثلثى أرضنا تقريبًا، تترك فى راحة لأننا لا نستطيع أن نعمل فيها، ولأن عدد سكانها ضئيلون للغاية. أنا نفسي لديّ كثير من الأكرات مثل أي أحد آخر، ليس فقط فى الجبال، ولكن تحت فى الأودية. إذا أمكننى أن أجد أحدًا مستعدًا لأن يفلحها، فلن أدعه فقط يأخذها دون أن يدفع، ولكنى سوف أدفع له بسرور نقودًا فى الصفقة... "، لقد مضى المتحدث فى القول بأن هجر (الأرض) قد بات الآن على عتبة الأبواب، "إن

---

8 لودوم هارتمان

Geschichte Italiens Im Mittelalter , 1887 , Vol. I , P.7.

الأرض عاطلة تمامًا وتقدِّم مشهدًا حزينًا، كما لو كانت فى وسط الصحراء تقريبًا وليست خارج أبواب المدينة تمامًا. ولكن داخل جدران المدينة، فإن معظمها مستخدم كمراعي... لقد تحوَّل الجمنازيوم إلى حقل محروث، حتى أن هرقل وتماثيل الآلهة والأبطال الأخرى قد اختفت بسبب المحصول فى الصيف، والمتحدث الذي سبقنى يسوق ماشيته كل صباح لترعى أمام قاعة المدينة ومكاتب المدينة، انتهاءًا إلى أن الغرباء الذين يزوروننا يضحكون علينا أو يحزنون من أجلنا".

"وفقا لذلك، فإننا نجد أن بيوتًا كثيرة فى المدينة نفسها خاوية، السكان يتناقصون بوضوح. قلة من صيادي الأرجوان تعيش عند الصخور الكافارية CAPHARIC ROCKS، خلافًا لذلك فلا توجد نفس واحدة بطول وعرض الإقليم كله. كانت كل هذه المنطقة سابقًا تخص مواطنًا ثريًا حاز قطعان خيول وماشية عظيمة، مراعي كثيرة، وعديد من الحقول الجيدة المحروثة وكثير من الأملاك الأخرى. وبسبب ثروته، أمر الإمبراطور بقتله، أبعدت قطعانه، بما فيها الماشية التي تخص راعيه، ومنذئذ تعيش أرضه عاطلة. راعيان فقط، رجال أحرار ومواطنون من المدينة، قد بقوا هنا ويعولون أنفسهم بالصيد وقليل من الزراعة وتربية الماشية"...

إن الظروف التى وصفها ديو هنا - وعبر بلاد الإغريق كلها كانت الأشياء تقريبًا نفسها حتى فى أبكر أيام الإمبراطورية - هى نفس الظروف التي تطوَّرت فى القرون التي تلت مباشرة فى روما وما أحاط بها، والتي وضعت بصمتها على كامبانيا CAMPAGNA حتى يومنا هذا. إننا نجد فى هذه المقاطعة أيضًا أن المدن الريفية قد اختفت، تبقى الأرض قاحلة فى كل اتجاه، وتستخدم فقط فى تربية الماشية (أيضًا لزراعة الكرم على جوانب التلال) وأخيرًا روما نفسها تصبح خاوية من سكانها، ومنازلها خالية، وتنهار منشآتها العامة الكبرى فى الساحة العامة FORUM وفى الكابيتول قدَّمت الأرض مراعى للماشية. بدأت نفس الظروف فى الظهور فى قرننا (التاسع عشر) فى أيرلندا، وهي "لا تخفق فى أن تصدم أي زائر يأتي إلى دبلن أو يسافر عبر الريف". (نفس المصدر، ص ص 67 - 69).

كانت خصوبة التربة تهبط أيضًا. كانت التغذية للتسمين حتى آنذاك مستخدمة قليلاً، وبالضرورة كان يُلجأ إليها قليلاً فى نظام تملُّك العبيد، لأنها عنت هنا معاملة سيئة للماشية. ولكن عنى عدم وجود تغذية للتسمين عدم توفر سماد، والإخفاق فى إخصاب الأرض، أو زراعتها بكثافة، عنى أنها كانت تحرم من قدرتها على تقديم محاصيل تالية. يمكن الحصول على المحاصيل المربحة فقط من أفضل أنواع

الترب بطريقة الزراعة هذه. ولكن عدد مثل هذه الأراضي الجيدة كان يتناقص بثبات، مع المحاصيل الدورية دومًا، تصبح التربة مجهدة أكثر فأكثر.

إن ظاهرة مماثلة قد شهدتها أمريكا فى مجرى القرن التاسع عشر، حيث لم تكن التربة تخصب فى الولايات الجنوبية، إذ كان يعمل هناك العبيد أيضًا، ومن ثمَّ تدهورت بسرعة، وكان استخدام العبيد مربحًا فقط فى أكثر الترب مواتاة. أمكن فى هذا البلد لنظام ملكية العبيد أن يبقى بواسطة توسُّع دائم تجاه الغرب، مستوعبًا أكثر فأكثر أراضٍ جديدة، تاركًا خلفه التربة القاحلة التي كانت قد استُنفدت.والحالة كذلك فى الإمبراطورية الرومانية، وقد شكّل هذا واحدًا من أسباب الجوع الدائم للأرض عند سادة تلك الإمبراطورية، ولجهدهم فى غزو أراضٍ جديدة بواسطة الحرب. كانت إيطاليا الجنوبية، وصقلية، وبلاد الإغريق، بالفعل مجهدة زراعيًا فى بداية الفترة الإمبراطورية.

إجهاد للتربة، اقترن بافتقار متزايد للعمال، وكذلك باستخدام غير عقلاني للأخيرين، لم تكن له نتيجة أخرى سوى تناقص دائم فى المحاصيل.

ولكن تزامن مع ذلك أن كانت أيضًا قدرة الأمة على شراء المواد الغذائية من الخارج تتناقص. بات الذهب والفضة أقل ظهورًا، لأن المناجم كانت تنتج القليل، وكما رأينا، لكون العمال قلة. كان الذهب والفضة الذي كان متاحًا يفيض أكثر فأكثر داخل القنوات الأجنبية، بعضه إلى الهند والجزيرة العربية، لشراء مواد الترف لهؤلاء الأشخاص الأثرياء الذين كانوا مازالوا باقين، ولكن بصفة أساسية كجزية للقبائل البربرية على الحدود. لقد رأينا أن الجنود كانوا يجنَّدون بقدر متزايد من هذه القبائل؛ وكان عدد الجنود الذين كانوا يعيدون مرتباتهم معهم يتزايد، أو على الأقل ما تبقّى منها، حين كانت تنتهي مدة خدمتهم. إذ تدهورت القوة العسكرية للإمبراطورية فقد كان من الضروري أكثر فأكثر تهدئة الجيران الخطرين، وإبقاؤهم فى مزاج طيب، الأمر الذي كان يتأتّى بسهولة أكثر بواسطة دفع جزية باهظة. كان الإخفاق فى ذلك، يؤدِّي بالقبائل المعادية التي أتت للنهب إلى أن تغزو غالبًا إقليم الإمبراطورية. وقد خدم هذا أيضًا فى تناقص ثروة الإمبراطورية، وكانت البقية الأخيرة من هذه الثروة غارقة فى الملَّذات فى جهد يهدف لحمايتها. إذ هبطت القوة العسكرية الإمبراطورية، وإذ بات المجنَّدون المحليُّون أقل فأقل ورودًا، وإذ أصبحت الحاجة لاستيراد مجنَّدين من الخارج أكثر إلحاحًا، وتدفق البرابرة المعادين من ثمَّ أكثر اتساعًا، كل هذه الأسباب، أنتجت طلبًا متزايدا على المرتزقة، بينما كانت

المئونة تتناقص؛ وارتفع الأجر الذي كان يجب دفعه إليهم أعلى فأعلى. بداية بقيصر كان هذا الأجر 225 دينارى (50 جنيه إسترلينى) وبالإضافة له تلقّى الجند 4 مودى MODII من الحبوب شهريًا (أو 2/3ميديمنوس MEDIMNUS أو 36 لترًا) وفيما بعد ارتفعت العلاوة الشهرية حتى 5 مودى MODII. تلقّى العبد الذي عاش على الحبوب فقط، نفس العلاوة الشهرية. بالنظر إلى الاعتدال فى الطعام الذي لوحظ بين الجنوبيين، فإن معظم احتياجاتهم يمكن أن تشبع بالحبوب. رفع دوميتيان الأجر إلى 300 دينارى (65 جنيه إسترلينى)، وفى ظل الأباطرة المتأخرين كانت حتى الأسلحة تقدَّم مجانًا. أجرى سبتيميوس سيفيريوس وبعده كراكلا زيادة إضافية على مرتب الجند.

ولكن كانت القوة الشرائية للنقود آنئذ أعلى كثيرًا منها اليوم. يقول لنا سينيكا معاصر نيرون، أن فيلسوفًا يمكن أن يعيش على نصف سيسترتيوس SESTERTIUS (أقل من ثلاثة سنتات) فى اليوم. كانت كلفة 40 لترًا من النبيذ 6 سنتات، وكلفة حمل 10 سنتات؛ وخروف حوالى 40 سنتًا.

"كان من الواضح أن أجر الفيلقي الروماني مرتفعًا للغاية بالنظر للأسعار السائدة. وبالإضافة إلى أجره، تلقّى هدايا نقدية عند ارتقاء أباطرة جدد، فى الأيام التي كان يولّي فيها الجنود إمبراطورًا جديدًا كل بضعة شهور، وقد مثّل هذا اختلافًا إلى حد بعيد. حصل الجندي عند انتهاء خدمته على منحة عند صرفه، والتي كانت فى أيام أغسطس 3000 دينارى (650 جنيه إسترلينى)، خفض كاليجولا هذا المقدار إلى النصف، بينما رفعه كراكلا مرة أخرى وهذه المرة إلى 5000 دينارى (فوق 1000جنيه إسترلينى)" [1].

هذه أرقام ضخمة حين نتذكر أن عدد سكان الإمبراطورية كان قليلاً، بسبب المستوى المنخفض للزراعة، وأن فائض عملهم كان ضئيلاً. يقدِّر بيلوخ سكان كامل الإمبراطورية الرومانية، التي كان حجمها حوالي أربع أضعاف الإمبراطورية الألمانية الحالية، باعتباره حوالي 55000000 نسمة فى أيام أغسطس. إيطاليا التي تحتوي وحدها الآن 33000000 نسمة عدَّت آنئذ 6000000 نسمة هذه الـ 55000000

9 بول إرنست،
Die Sozialen ZustÄnde Im Römishen Reich Vor Dem Ein Fall Der Barbaren.
مجلة نويه تسايت، المجلد 11، رقم 2، ص ص 253 ومايليها.

نسمة، كانت مضطرة بطرقها البدائية، لأن تعول جيشًا كبيرًا مماثلاً لذلك الذي يمثّل عبئًا كبيرًا حتى للإمبراطورية الألمانية الحالية، بالرغم من التقدم التقني الضخم الذي جرى منذئذ، وهذا الجيش من المرتزقة المجنَّدين كان يُدفع له بشكل أفضل بما لا يقاس أكثر مما يدفع للمحارب الألماني اليوم [1].

وبينما كان السكان يتناقصون ويزدادون فقرًا كانت أعباء النزعة العسكرية تتزايد. كان هناك سببان لذلك؛ وقد أكملا معًا الانهيار الاقتصادي.

كانت الوظيفتان الرئيسيتان للدولة فى هذه الأيام هما شن الحرب وتشييد المباني الضخمة. إذا كانت ستزيد الإنفاق على الأولى، دون زيادة الضرائب، فهي بالضرورة يجب أن تهمل الأخيرة، وهذا ما فعلته. كانت الدولة فى فترة ثروتها، وحين كان هناك فائض كبير أنتجه عمل عدد كبير من العبيد، غنية بما يكفي لتنفيذ عمليات بناء كبرى،، والتي خدمت ليس الترف، والدين، وأغراض صحية فقط، وإنما أيضًا حاجات اقتصادية. شيَّدت الدولة بمساعدة جماهير الفلاحين الضخمة التي كانت طوع أمرها، هذه الأعمال الهائلة التي لم نتوقف عن الإعجاب بها حتى اليوم، تلك المعابد والقصور، قنوات سحب المياه والمجاري، وأيضًا نظام الطرق الممتازة الذي يربط روما بأكثر ممتلكات الإمبراطورية بعدًا، أداة جبَّارة للتوحيد الاقتصادي والسياسي وللمواصلات الدولية، فضلاً عن عمليات الري والصرف الكبرى. وهكذا، بواسطة تجفيف مستنقعات بونتين PONTINE جنوب روما، فإن إقليمًا واسعًا من التربة الخصبة، يصل إلى مائة ألف هكتار قد فتح للزراعة، وذات مرة اشتمل على ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين مدينة. إن إنشاء وصيانة شبكة صرف مستنقعات بونتين شكّل مصدرًا دائمًا للقلق لمن يتسنمون السلطة فى روما. تدهورت هذه الشبكة حتى أن إقليم المستنقع والأرض التي حوله قاحلة خربة إلى يومنا هذا.

حين ضعفت القوة المالية للدولة، آثر حكامها أن يهملوا صيانة كل هذه الإنشاءات بدلاً من أن يكبحوا النزعة العسكرية. باتت الصروح المهيبة خرائب مهيبة، وعجَّل اختفاؤها زيادة الافتقار لقوة العمل، التي جعلت من الأسهل أخذ مواد البناء من هذه المنشآت الجديدة، بدلاً من الحصول عليها من المحاجر النائية. أضارت هذه الطريقة أعمال الفن القديم أكثر مما فعل تدمير الوندال الغازين والقبائل البربرية الأخرى.

---

10 في عام 1908.

"يُغرى المشاهد، الذى يلقى نظرة حزينة على خرائب روما القديمة أن يتهم ذكرى القوط والوندال باعتبارهم سبب للأذى الذي لم يكن لديهم وقت فراغ، ولا قوة، وربما الميل، لأن يرتكبوه. ربما أصابت عاصفة الحرب بعض الأبراج السامقة وسوَّتها بالأرض؛ ولكن التدمير الذي قوَّض أُسس هذه المصانع الكبيرة كان مقموعًا، ببطء وفى صمت، خلال فترة عشرة قرون... إن آثار العظمة القنصلية أو الإمبراطورية لم تعد تحترم باعتبارها مجد العاصمة الخالد؛ لقد قدِّرت فقط باعتبارها منجمًا لا ينضب للمواد، أرخص وأكثر ملائمة من المحجر البعيد "[1].

لم تكن أعمال الفن فقط هي التي خرَّبها هذا التدهور، وإنما أيضًا المنشآت العامة التي كانت تخدم أغراضًا اقتصادية أو صحية، وانظمة الطرق وإمداد المياه، هذا الخراب العام، عاقبة الانهيار الاقتصادي الشامل، ساعد بدوره فى تعجيل هذا الانهيار.

ولكن الأعباء العسكرية كانت تتزايد بالرغم من كل شيء، وأخيرًا أصبحت غير محتملة محققة التدمير الأقصى. إن الإجمالي العام للأعباء العامة - المدفوعات العينية، المدفوعات بالعمل، الضرائب النقدية - بقيت كبيرة أو تزايدت، بينما كان السكان وثرواتهم تتناقص.

اصبحت الأعباء المفروضة على الفرد من قبل الدولة مضجرة أكثر فأكثر. سعى كل إنسان إلى أن ينقل هذا العبء إلى الأكتاف الأضعف؛ كان أكثر هذا النقل يتم باتجاه المستوطنين COLONI البائسين. وأصبح وضعهم الذي يحزن القلب بالفعل يائسًا، كما أظهرته انتفاضات عديدة مثل (انتفاضة) الباجاودى BAGAUDI، التي جرت في مستوطنة غالية GALLIC، حيث انتفضت أولاً فى ظل ديوكليتان، 285 ب.م، ثم قمعت بعد بعض النجاحات فى البداية، ولكنها عبرت مرة بعد مرة عن شدة بؤسها بالانخراط فى محاولات متجددة للانتفاض والتمرد.

كانت هناك فى هذه الأثناء طبقات أخرى من السكان مضطهدة بشكل أكثر قسوة، وإن لم تكن فى سوء (حالة) المستوطن. لقد أخذت خزانة الدولة FISCUS كل شيء استطاعت أن تضع يدها عليه، ولم يكن البرابرة ناهبين أسوأ من الدولة. بدأت عملية ثابتة من التفسُّخ الاجتماعي، نفور متزايد وعدم قدرة أعضاء متنوِّعين من

---

11 جيبون، تاريخ تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الفصل 36، لندن 1898، المجلد الرابع، ص 19.

المجتمع على إنجاز حتى أكثر الوظائف ضرورة للرفاهية العامة COMMON WEALTH ولكل منهم للآخر.

ما كان قد نظم ذات مرة بواسطة العادة والحاجة الاقتصادية، تطلّب الآن تدخُّلاً فعّالاً من الدولة لِتحقيقه. أصبحت الإجراءات أكثر تعدداً بعد ديوكليتيان. تربط بعض هذه القوانين المستوطن بالأرض، وهكذا فعلت محوِّلة إيّاه إلى قن، وأجبر البعض الآخر ملاّك الأرض على المشاركة فى إدارة المدينة، التي كانت وظيفتها بصفة أساسية جباية ضرائب الدولة. نظّمت قوانين أخرى كهذه الحرفيون فى اتحادات مهنية أجبرتهم أن يقدّموا خدماتهم وكذلك السلع بأسعار محدّدة. أصبحت بيروقراطية الدولة التي جرى الاحتياج إليها لتنفيذ هذه الإجراءات الإجبارية أعظم.

واجهت البيروقراطية والجيش - بمعنى آخر، سلطة الدولة – معارضة متزايدة، ليس فقط من الطبقات المستغَلّة وإنما أيضًا من المستغِلّين. كانت الدولة بالنسبة للأخيرين قد كفّت عن أن تكون مؤسسة حامية ومشجعة وصارت سلطة ناهبة ومخرِّبة. تزايد العداء للدولة، حتى اعتبر حكم البرابرة راحة. لقد كان سكان الحدود يهربون إلى الفلاحين البرابرة الأحرار، وفى النهاية دعى سكان الحدود الأخيرين باعتبارهم مخلصين ومنقذين من النظام السائد للحكومة والمجتمع، ورحّبوا بهم بأذرع مفتوحة.

يكتب سالڤيانوس وهو كاتب مسيحي من الفترة الإمبراطورية المتأخرة، ما يلي حول الموضوع فى كتابه DE GUBERNATIONE DEI:

"إن قسمًا كبيرًا من بلاد الغال وأسبانيا هو قوطي بالفعل، وكل الرومان الذين يعيشون هناك تدفعهم الرغبة فقط فى ألاّ يكونوا رومانيين مرة أخرى. سوف أدهش فقط إن لم يهاجر كل الفقراء والمحتاجين إليهم، إن لم يكن بسبب حقيقة أنهم يشعرون أنهم لا يستطيعون ان يتركوا أملاكهم وعائلاتهم وراءهم. ونحن الرومان نعتبر كوننا لا نستطيع التغلب على القوط أعجوبة، بينما نفضّل نحن الرومان أن نعيش بينهم أكثر مما بين شعبنا". هجرة الأمم، وغمر الإمبراطورية الرومانية بواسطة جموع الجرمانيين الأفظاظ لم يكن يعني التدمير المبكّر لحضارة مزدهرة، متقدمة، ولكن إنهاء عملية الانحلال فحسب لحضارة محتضرة ووضع الأساس لنمو ثقافي جديد، الذي، لا ريب فى أنه انطلق لقرون بطريقة شديدة البطء وغامضة.

اتخذت المسيحية شكلها: فى القرون الأربعة التي تقع بين تأسيس السلطة الإمبراطورية من قبل اغسطس وهجرة الأمم فى الفترة التي تبدأ بأعلى الذُّرا التي بلغها المجتمع القديم، مع أشد تراكم للثروة وللسلطة ضخامة ونشوة فى أيدي حفنة قليلة، مع تراكم كثيف لأعظم بؤس على العبيد، الفلاحين المتدهورين، والحرفيين وأدنى البروليتاريين، مع أشد المتناقضات الطبقية عنفاً، والحقد الطبقي الأشد قسوة - والذي ينتهي بالإفقار الكامل ويأس كل نظام المجتمع. طبعت كل هذه الأوضاع بطابعها المسيحية وتركت آثارها على شكلها.

ولكن المسيحية تحمل أيضًا بصمات تأثيرات اخرى نشأت من الحياة القومية والاجتماعية لهذا الزمن، التي بُنيت على أساس نمط الإنتاج الموصوف أعلاه، والتي عاظمت حتى بطرق مختلفة تأثيرات هذا النمط من الإنتاج.

***

الفصل الثاني
حياة الدولة

أ - الدولة والتجارة

كان هناك بالإضافة إلى العبودية نمطان آخران من الاستغلال فى المجتمع القديم اللذان وصلا أيضًا إلى أوجهما حوالى زمن أصل المسيحية، شحذا التضادات الطبقية حتى الحد الأقصى، ويعدئذ عجَّلا بشكل متلاحق من تدمير المجتمع والدولة: الربا، ونهب الولايات الخاضعة بواسطة السلطة المركزية القاهرة. كلاً من هاتين المؤسَّستين مرتبطتان بوثوق بطابع الدولة كما تشكَّلت حينئذ، وهي متناسجة بوثوق مع الوضع الاقتصادي لهذه الأزمنة بصفة عامة حتى أنه كان علينا أن نذكر الدولة مرارًا فى مناقشتنا حول أساس الدولة والمجتمع، أي، نمط الإنتاج. واجبنا الأول من ثمَّ هو أن نقدِّم موجزًا قصيرًا عن الدولة القديمة.

لم تتجاوز ديمقراطية العصر القديم أبدًا حدود جماعة المدينة أو العشيرة. لقد تكوَّنت العشيرة من قرية من القرى أو أكثر التي امتلكت وأدارت إقليمًا معيَّنًا بشكل مشترك. وقد تم هذا بواسطة التجنيد المباشر من جانب الناس أنفسهم، فى جمعيتهم لكل أعضاء العشيرة البالغين. تطلب هذا الوضع بالضرورة ألا تكون الكومونة أو العشيرة واسعة جدًا ؛ يمكن أن يكون إقليمها كبيرًا بما يكفى لتمكين كل عضو من أن يسافر من مزرعته إلى الجمعية الشعبية بدون إجهاد وخسارة مفرطة. لقد كان من المستحيل فى هذه الأزمنة القديمة تطوير أي تنظيم ديمقراطي ماوراء هذه الدرجة، حيث كانت الشروط التقنية والاقتصادية الضرورية لمثل هذا التوسُّع غائبة. كانت الرأسمالية الحديثة بكتبها المطبوعة وبمكاتب بريدها، مع الجرائد، والسكك الحديدية، وأجهزة البرق، هي القادرة فقط على أن تصهر الأمم الحديثة فى وحدات ليس فقط بالنسبة للغة، كما كانت الأمم القديمة، وإنما أيضًا فى عضويات سياسية واقتصادية صلبة. بقيت هذه العملية غير كاملة بصفة أساسية حتى القرن التاسع عشر. لقد تمكَّنت إنجلترا وفرنسا بسبب ظروف خاصة من أن تصبحا أمتين بالمعنى الحديث فى تاريخ أبكر، وأن تؤسِّسا برلمانية قومية، أساس الديمقراطية على نطاق أكبر من نطاق الكومونة. ولكن حتى فى هذه البلدان بات هذا الشرط ممكنًا فقط

بقيادة مركزين كبيرين هما لندن وباريس، وفي زمن متأخر حتى عام 1848 كان يهيمن على الحركة القومية الديمقراطية حركة مجتمعات بارزة معينة - باريس، فيينا، برلين.

بقيت الديمقراطية فى العصور القديمة بتسهيلات مواصلاتها الأقل تقدُّمًا بما لا يقاس، محدودة بنطاق الكومونة. كان الانتقال بين البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، حقيقة، ذو مستوى محترم بالأحرى فى القرن الأول من عصرنا، فقد بلغ مدى بعيدًا لحد أنه وضع لغتين موضع الأهمية الدولية، اي، الإغريقية واللاتينية. ولكن أنجز هذا تحديدًا لسوء الحظ فى الوقت الذي كانت فيه الحياة الديمقراطية والسياسية ككل على طريق الانحدار - نقول، لسوء الحظ، ولكن ليس كنتيجة لحادثة سيئة الحظ - كان تطوُّر المواصلات بين المجتمعات فى هذا الوقت مرتبطًا بالضرورة بشروط كانت تسبب موت الديمقراطية.

ليست مهمتنا أن نثبت هذا فى حالة بلدان الشرق، حيث أصبحت الديمقراطية، المحدودة بالكومونة، الأساس لنوع معيَّن من الاستبداد. سوف نتابع هنا فقط المسار النوعي للأحداث فى العالمين الهيليني والروماني، وسوف نفحص مثلاً واحدا فقط، وهو الخاص بالمجتمع الروماني. فاتجاهات التطور القديم هنا واضحة بشكل مؤكد، لأن هذا التطور انطلق هنا على نحو أكثر سرعة وعلى نطاق أكثر عظمًا مما هو الحال فى أي من مجتمعات المدينة الأخرى فى العالم القديم. ولكن كانت نفس الاتجاهات فاعلة، فى كل هذه المجتمعات وإن كانت ربما على نطاق أكثر تواضعًا وصغرًا.

كان لنطاق كل عشيرة وكومونة حدود غاية فى الضيق، لا تستطيع أن تنتشر وراءها، وقد سبَّب هذا في أن تبقى العشائر والكومونات المختلفة متساوية تمامًا طالما ساد اقتصاد فلاحى فقط. ولم تكن هناك فى هذه المرحلة أسباب عديدة لإثارة أنواع الغيرة أو للنزاعات بينها، حيث أنتجت كل عشيرة وكومونة بصفة عامة كل ما احتاجت إليه. فربما تسبب زيادة فى السكان نقصًا فى الأرض فى أسوأ الأحوال. ولكن الزيادة فى السكان لم تكن لتؤدِّي لتوسيع حدود العشيرة، لأن الأخيرة لا يمكن أن تكون شاسعة لتحول دون كل عضو وأن يكون قادرًا على السفر إلى الجمعية الشعبية التشريعية دون جهد مفرط وخسارة. إذا ما حدث وإن كانت الأرض الصالحة للزراعة الخاصة بالعشيرة فى سبيلها للزراعة، فسوف يشرع العدد الزائد من الشباب القادر على حمل السلاح فى الهجرة ويؤسِّس عشيرة خاصة به، إما بطرد العناصر الأخرى الأضعف،

أو بالاستقرار فى اقاليم مازال يوجد فيها نمط إنتاج أدنى، وبالتبعية سكان أقل ومساحة متاحة أكثر.

بقيت من ثم الكومونات والعشائر الفردية ذات قوة متساوية تمامًا. ولكن تغيَّر هذا الوضع بمجرد أن بدات التجارة فى العمل بجانب الاقتصاد الفلاحي.

لقد رأينا سلفًا أن التجارة فى السلع تبدأ مبكرًا جدًا، وهي ترجع للعصر الحجري. فى إقليم يتوافر فيه عدد من المواد المرغوبة أكثر يمكن الحصول عليها بسهولة أكثر، بينما فى مكان آخر لا توجد دائمًا أو لا توجد على الإطلاق، فقد كان من الطبيعي لسكان مثل هذه الأقاليم أن يحوزوا من هذه المواد أكثر مما استهلكوا، وإنه كان عليهم أن يطوِّروا مهارات أعظم فى كسب، وتسخير هذه المواد. وسوف يقدِّمون عندئذ فائضهم فى المقايضة بمنتجات أخرى لجيرانهم، الذين سوف ينقلونها بدورهم أبعد. كان بمقدور كثير من المنتجات فى عملية المقايضة هذه من قبيلة إلى أخرى أن تغطي مسافات كبيرة بشكل لا يصدق. وقد كان المفترض المسبق لهذه التجارة نمط حياة رعوي من جانب الرعاة الأفراد الذين اتصلوا مرارًا بعضهم ببعض فى تجوالهم وتبادلوا فوائضهم فى مثل هذه المناسبات.

توقفت مثل هذه الفرص حين شرع الإنسان فى الاستقرار، ولكن الحاجة إلى تبادل السلع لم تتوقف، خاصة الحاجة إلى الأدوات أو على الأقل المادة التي تصنع منها، التي كانت متوفِّرة فى مستودعات قليلة فقط، ومن ثم يجري الحصول عليها بصعوبة، إلا من خلال التجارة فى السلع، وقد نمت هذه بالضرورة. كان يجب لإشباع هذه الحاجة، أن تتشكَّل فئة خاصة من الرعاة، التجار وهؤلاء كانوا إما قبائل رعوية من مربِّي الماشية، الذين كرسُّوا انفسهم الآن للتزوُّد بالسلع من المقاطعات التي تكون فيها وفيرة، ومن ثمَّ رخيصة، وحملوها إلى مقاطعات أخرى تكون فيها نادرة، ومن ثم غالية الثمن، بمساعدة حيوانات الحمل، أو كانوا صيادين أبحروا فى قواربهم على طول الساحل أو من جزيرة إلى جزيرة. ولكن حيث ازدهرت التجارة أكثر فأكثر فحتى الفلاحين قد أغراهم أن يتعاملوا فيها. كقاعدة، كان لدى طبقة الملاَّك العقاريين احتقار متغطرس إزاء التجارة، بينما اعتبرت الارستقراطية الرومانية الربا حرفة لائقة، وليس التجارة؛ وهذا كله لم يمنع الملاَّك العقاريين من أن يحصلوا عرضًا على ميزات من عمليات التجارة. تتبع التجارة طرقًا معيَّنة تكون من ثمَّ الأكثر اعتيادًا فى السفر. تتلقَّى المدن التي تقع على مثل هذه الطرق سلعها بسهولة أكثر مما تفعل الأخريات، ويجدون فى التجار شراة لسلعهم. فى نقاط عديدة، حيث تصادف أن امتنع الانعطاف جانبًا عن

الطريق، والذي لا يمكن الدوران حوله، والذي يكون بالإضافة إلى ذلك، فى موضع محصور بالطبيعة، فإن سكان وسادة أماكن كهذه يقدرون على إيقاف التجار وتغريمهم، بفرض ضرائب عليهم. من ناحية أخرى، تصبح نقاطًا أخرى أماكن تخزين حيث يجب أن تنتقل السلع من سفينة لأخرى، على سبيل المثال، الموانئ البحرية أو تقاطع الطرق، حيث يصل التجار بأعداد كبيرة من أكثر البقاع اختلافًا وتبقى السلع غالبًا مخزونة لبعض الوقت.

تطورت هكذا كل الكوميونات التى ميَّزتها الطبيعة فى مسألة التجارة بالضرورة ما وراء حدود كوميونات الفلاحين، وبينما سرعان ما يصل سكان الكومونة الفلاحية حدًا فى نطاق وخصوبة إقليمهم، فإن سكان مدينة تاجرة يستقلون عن خصوبة التربة التي يملكونها وربما يمتدون ليتجاوزوها كثيرًا. فبالنسبة للسلع التي يتحكمون فيها فإنهم يملكون وسائل شراء كل شيء يحتاجونه، بمعنى آخر، يتمكنون أيضًا من الحصول على المواد الغذائية ممَّا وراء حدود القبيلة. تتطور أيضًا مع التجارة فى الأدوات الزراعية، وفى المواد الخام وأدوات الصناعة، وفى منتجات الترف الصناعية، التجارة فى الأغذية المطلوبة من قبل ساكنى المدينة.

ولكن توسُّع التجارة نفسها لا يواجه أي حدود ثابتة، وبطبيعته يستمر فى الامتداد ماوراء الحدود التي جرى الحصول عليها سلفًا، دائم البحث عن زبائن جدد، منتجين جدد، مستودعات جديدة للمواد الخام، أقاليم صناعية جديدة، مشترين جدد لمنتجاتها. وهكذا تجاوز الفينيقيون بشكل مبكِّر جدًا فى التاريخ البحر الأبيض المتوسط ووصلوا إلى الشمال حتى إنجلترا، بينما داروا فى الجنوب حول رأس الرجاء الصالح.

"فى فترة مبكِّرة لا تصدق نجدهم فى قبرص ومصر، فى اليونان وصقلية، فى أفريقيا وحتى فى المحيط الأطلنطى وبحر الشمال. ووصل حقل تجارتهم من سيراليون وكورنوال فى الغرب، تجاه الشرق حتى ساحل مالابار. مر الذهب ولآلئ الشرق خلال أيديهم، أرجوان صيدا، العبيد، العاج، جلود الأسود، والفهود، من داخل أفريقيا، اللبان من الجزيرة العربية، كتَّان مصر، الأواني والأنبذة الجيدة من بلاد الإغريق، فضة أسبانيا، القصدير من إنجلترا، والحديد من إلبا "[1].

---

12 تيودور مومسن، تاريخ روما، نيويورك، 1895، المجلد الثاني، ص 132.

من الطبيعي أن يفضّل الحرفيون، الاستقرار فى مدن تجارية، فى الواقع تقدّم الأخيرة السوق الوحيد لطبقات عديدة من الحرفيين، وهي تشجع تكوين مثل هذه الطبقات: هناك من ناحية التجار الذين يبحثون عن البضائع، ومن ناحية أخرى الفلاحون من القرى المجاورة الذين يرحلون إلى المدينة يوم السوق حتى يبيعوا موادهم الغذائية ويشتروا الأدوات والأسلحة، والزينة بدخلها. تكفل المدينة التجارية أيضًا للحرفيين الإمداد الضرورى بالمواد الخام، التي لا يستطيعون بدونها أن يمارسوا تجارتهم.

بالإضافة إلى التجار والحرفيين تنشأ أيضًا طبقة من الملاّك العقاريين الأثرياء فى مجتمع المدينة. إن أعضاء الكومونة الأصلية لهذه المدينة، الذين يملكون فى أراضى المدينة يصبحون الآن أغنياء، وحيث إن على الملكية العقارية طلبًا بين القادمين الجدد، تصبح ذات قيمة ويرتفع سعرها بثبات، ويربحون أيضًا من واقعة أنه من بين السلع التي أحضرها التجار كان هناك عبيد أيضًا، وكما رأينا سلفًا تمكّنت الآن عائلات معينة من الملاّك العقاريين التي تتجاوز فئة الفلاحين العاديين بملكيتها الأكبر فى الأرض أو ثروتها، لسبب أو لآخر، تمكّنت من توسيع منشآتها الزراعية بواسطة زيادة العبيد فقط، بينما تنسحب هي نفسها إلى المدينة وتكرّس نفسها للأعمال الحضرية، وإدارة المدينة أو شن الحرب. إن مالكًا عقاريًا من هذا النمط، الذي كان لديه سابقًا مزرعة فى الإقليم المجاور فقط، ربما يبني الآن أيضًا منزلاً بالمدينة ويعيش فيه، ويستمر مثل هؤلاء الملاّك العقاريين فى تأسيس قوتهم الاقتصادية ومركزهم الاجتماعي على ملكيتهم للأرض والزراعة، ولكن أضف إلى ذلك فهم يصبحون من ساكني المدينة ويزيدون سكان المدينة بعائلاتهم العديدة؛ والتي يمكن أن تصبح فى وقت ما، بإضافة العبيد لأغراض الترف، واسعة للغاية كما رأينا.

وهكذا تتزايد المدينة التجارية بثبات فى الثروة والسكان، ولكن بقدر ما تنمو قوتها، فإن روحها الحربية والرغبة فى الاستغلال تنمو أيضًا. لأن التجارة ليست بالشيء المسالم الذي تعلّمه لنا الاقتصاديات البورجوازية، وكان هذا صحيحًا على الأقل فى أيام بداياتها. لم تكن التجارة والمواصلات آنذاك منفصلتان بعد. لم يكن بمقدور التاجر أن يجلس فى مكتبه كما يفعل اليوم، يتلقى طلبات زبائنه كتابة، ويلبيها بمساعدة السكك الحديدية، والباخرة والبريد. كان عليه أن يحمل بضاعته إلى السوق بنفسه، وقد تطلّب هذا قوة وشجاعة عبر حقول لا ممرّات فيها، على القدم أو على ظهر جواد، أو فى البحار العاصفة فى قوارب صغيرة مفتوحة، وكان مضطرًا

لأن يكون فى الطريق لعدة شهور، وفى أحوال كثيرة لسنوات، بعيدًا عن الوطن. وقد تضمَّن هذا أعباءً ليست اقل شأنًا من (أعباء) حمله، التي كان الرجال الأقوياء فقط كفءً لها.

ولم تكن مخاطر الرحلة أقل من مخاطر الحرب. لقد كان التجار مهدَّدين فى كل لحظة ليس من قِبل الطبيعة فقط بأمواجها العظيمة أو منحدراتها الصخرية، بزوابعها الرملية، بالافتقار للمياه أو التغذية، البرد الثلجي أو الحرارة المهلكة، إنما شكَّلت الكنوز الثمينة التي حملها التاجر معه غنيمة دعت الأقوى لأن يأخذها منه. بينما جرت التجارة بين قبيلة وقبيلة أولاً، فقد مورست فيما بعد من قِبل مجموعات واسعة من الرجال، بواسطة القوافل فى البر، وبواسطة الأساطيل التجارية فى البحر. وكان على كل عضو فى حمله كهذه أن يكون مسلَّحًا وقادرًا على الدفاع عن ممتلكاته، والسيف فى يده. أصبحت التجارة هكذا مدرسة للروح الحربية.

ولكن بينما اضطرت القيمة الكبيرة للسلع التي حملها التاجر معه على تطويره قدرته كمحارب حتى يدافع عنها، فإن هذه القوة الحربية بدورها أصبحت تغري على ممارستها لأغراض الهجوم. نتج ربح التجارة عن الحصول على ما هو رخيص وبيعه غاليًا. ولكن كانت أرخص طريقة للحصول على أي شيء هي بلا جدال أخذ المرء ما يريد بدون إعطاء مقابل. السرقة والتجارة من ثمَّ فى البداية مرتبطتان بوثوق. أصبح التاجر بسهولة قاطع طريق، حيثما شعر بنفسه أنه الأقوى، حين كانت الغنيمة الثمينة على مرأى منه - ولم يكن أقل ما في هذه الغنيمة الإنسان نفسه.

ولكن التاجر احتاج لقوته الحربية ليس فقط لتمكينه من أن يقوم بمشترواته ومكتسباته بأرخص ما يمكن، ولكن أيضًا حتى يُبعد منافسيه عن الأسواق التي كان يتردَّد عليها؛ لأنه كلما زاد عدد المشترين، زاد سعر السلع التي أراد أن يشتريها؛ وكلما زاد عدد البائعين، قلَّت أثمان السلع التي كان يحملها إلى السوق؛ بمعنى آخر، كلما عظم الفرق الناتج بين سعر الشراء وسعر البيع، وهو ما يعني الربح. حيثما يقوم عدد من المدن التجارية الكبيرة دانية قريبة، فسرعان ما تتطوَّر الحرب بينهما، والمنتصر يتوقع لا أن يزيح فقط منافسيه من المجال، وإنما تحويل المنافسين من عامل سالب للربح إلى عامل جالب للربح؛ إما بأشد الطرق جذرية، وهي غير قابلة للتكرار، أي بالنهب الكامل لمدينة الخصم وبيع سكانها للعبودية، أو بالطريقة الأقل جذرية، التي تتضمن مكسبًا متجددًا كل عام، بإدماج المدينة المهزومة فى الدولة باعتبارها "حليف" ملزم بأن يقدِّم الضرائب والقوات وأن يحجم عن الإضرار بالمنافس المنتصر بأي طريقة.

ربما تضم مدن تجارية معيَّنة، مميَّزة بأوضاعها او بظروف اخرى بهذه الطريقة مدنًا اخرى كثيرة، بأقاليمها، فى تنظيم دولة بدون ان تمنع بالضرورة الوجود المتواصل لقوام ديمقراطي فى كل مدينة كهذه. ولكن كلية هذه المدن، والدولة ككل، بالرغم من ذلك ليست محكومة ديمقراطيًا، لأن المدينة المنتصرة المفردة هي وحدها التي تكون في موضع السيطرة بينما الأخرى يجب ان تطيع دون ان تكون لديها ادنى سيطرة على امور التشريع وإدارة الدولة ككل.

نجد فى بلاد الإغريق عددًا كبيرًا من دول المدينة هذه، كانت اثينا الأكثر قوة من بينهم، ولكن لم تكن اي من المدن المنتصرة قوية بما فيه الكفاية حتى تخضع كل المدن الأخرى على نحو دائم، وان تحوز سيطرة نهائية على كل منافسيها. من ثمَّ ليس تاريخ بلاد الإغريق شيئًا سوى حرب ابدية بين المدن المختلفة ودول المدينة بينها وبين نفسها، ونادرًا ما قاطع ذلك دفاع مشترك ضد عدو مشترك. لقد عجَّلت تلك الحروب بكثافة سقوط بلاد الإغريق، حيث ظهرت تبعات الاقتصاد العبودي، الذي وصف آنفاً. ولكن من المضحك ان تصبح ساخطًا اخلاقيًا على هذا الوضع كما يفعل اساتذتنا. فالصراع ضد المنافس هو لازمة ضرورية للتجارة. تتغيَّر اشكال هذا الصراع، ولكن الصراع يدخل بالضرورة مرحلة الحرب حين تقف المدن التجارية ذات السيادة وجهًا لوجه. ولم يكن من الممكن تجنُّب مشهد بلاد الإغريق تمزِّق لحمها بمجرد ان بدات التجارة فى جعل مدنها عظيمة وقوية. ولكن الهدف النهائي في اي صراع تنافسي هو إزاحة او قهر المنافس؛ اي تحقيق الاحتكار. لم تصبح اي مدينة فى بلاد الإغريق قوية بما يكفي لتحرز هذا الهدف، ولا حتى اثينا القوية. كان هذا الأمر محجوزًا لمدينة إيطالية، روما، التي اصبحت حاكم نظام الحضارة بكامله حول البحر الأبيض المتوسط.

ب - النبلاء والعامة

ليست المنافسة مع المنافسين السبب الوحيد الذي من اجله قد تشن الحرب مدينة تجارية كبيرة. حيث يكون إقليمها مجاورًا (لإقليم) فلاحين اشداء، خاصة فلاحين مربِّين للماشية فى الجبال، الذين هم عادة افقر من الفلاحين المزارعين فى الأودية الخصبة، ولكن اقل ارتباطًا بالأرض بلا ريب، فقد اعتاد الرجال إراقة الدماء والصيد، مدرسة ممتازة للحرب - ربما تثير ثروة المدينة بسهولة الرغبة فى الغنيمة لدى الفلاحين. ربما يمر الأخيرون بلا مبالاة جانب المدن الريفية الأصغر، خادمين فقط

التجارة المحلية لمنطقة محدودة وحامين قلّة من الحرفيين الصغار إضافة إلى ذلك، لكن لابد لكنوز مركز تجاري كبير بالضرورة أن تجذبهم وتغريهم بأن يتجمعوا معًا فى كتل من أجل هجوم لصوصي على المجتمع الثري. من ناحية أخرى، يقوم الأخير بجهد دائم لتوسيع ممتلكاته فى الأرض وعامة رعاياه. لقد رأينا أن نمو المدينة مصحوب بتطور سوق واسع داخلها لمنتجات الزراعة، وأن التربة التي تنتج السلع للمدينة تصبح ثمينة، مثيرة الرغبة في أرض أكثر، وربما يفلح العمال هذه الأرض التي جرت حيازتها حديثًا لصالح قاهريها. والنتيجة صراع دائم بين المدينة وقبائل الفلاحين المجاورة. إذا كان الأخيرون منتصرين تنهب المدينة ويجب أن تبدأ من جديد تمامًا. ولكن إذا انتصرت المدينة، فإنها تسلب قسمًا من أرض الفلاحين المهزومين، محوِّلة إيَّاها لملَّاك الأرض فيها، الذين يجعلون أحيانًا أبناءهم الذين لا أرض لهم يستقرون فيها، ولكن يترك القسم الأعظم الأرض المغزوة تُفلح لهم بالعمل الإجباري، الذي يُقدِّم أيضًا من المجتمع المهزوم، إما فى شكل مستأجرين أو اقنان اوعبيد. يتخذ أحيانًا، على أيَّة حال، إجراء أرق بحيث لا يتحوَّل السكان المخضعون إلى عبيد فقط، ولكن يسمح لهم حتى بالمواطنة، فى المدينة المنتصرة، ليس مواطنة كاملة، بلا شك، لأن المواطنين الكاملين يحكمون المدينة والدولة فى جمعيتهم، وإنما المواطنة من الدرجة الثانية، فيتمتعون بحرية تامة وكل الحماية القانونية للدولة، ولكن دون مشاركة فى حكومتها. احتاجت المدينة مثل هؤلاء المواطنين الجدد لأن ثروتها وبالتبعية أعباء الحرب تزايدت. مادامت عائلات مواطني الزمن القديم لم تعد قادرة على تقديم العدد المطلوب من الجنود المواطنين. كانت الخدمة العسكرية وحقوق المواطنة فى البداية مرتبطتين بوثوق شديد. لم تكن هناك طريقة لزيادة عدد المحاربين بسرعة سوى بجعل الدولة تستقبل مواطنين جددًا. لم يكن أقل الأسباب فى ارتقاء روما إلى العظمة، أنها كانت فى الواقع شديدة الكرم فى منح حق المواطنة للمهاجرين وكذلك للمجتمعات المجاورة التي كانت قد هزمتها.

أمكن توسيع عدد هؤلاء المواطنين الجدد حسب الإرادة.

لم تنطبق الحدود المفروضة على عدد مواطني الزمن القديم على المواطنين الجدد. كانت هذه الحدود جزئيًا ذات طبيعة فيزيائية. مادامت إدارة المدينة كانت وظيفة جمعية المواطنين القدامى، فربما لا تجعل هذه الجمعية غاية فى الكبر حتى لا يستحيل التعامل التجاري، ولا يمكن أن يعيش المواطنين بعيدًا جدًا عن مكان الجمعية حتى يستحيل بالنسبة لهم أن يسافروا إلى ذلك المكان دون صعوبة ودون إهمال

مزارعهم فى أوقات معينة. ولكن مثل هذه الاعتراضات لم تنطبق على حالة المواطنين الجدد. ففى الحالات التي تكون قد منحت لهم فيها حقوقًا سياسية معينة، حتى حق التصويت فى جمعية المواطنين (التي كانت نادرة عند التحاقهم للمواطنة)، لم يكن ضروريًا على الإطلاق - من وجهة نظر المواطنين القدامى - أن يتمكن المواطنون الجدد من أن يشتركوا فى هذه الجمعيات. فكلما كانت الأشياء على طريقة المواطنين القدامى، كلما أحبوها أكثر.

لم تنطبق الحدود المفروضة على عدد الأخيرين على المواطنين الجدد.

أمكن زيادة عدد المواطنين الجدد بقدر ما كان ذلك مرغوبًا؛ لقد كان محدودًا فقط بحجم الدولة وبحاجة الدولة إلى الجنود الذين يُعتمد عليهم. لأنه حتى حين كان واجب الإمداد بالقوات يقع على عاتق الولايات الخاضعة، احتاج الجيش بعد نواة تضمن جدارته بالثقة، وأمكن تقديم هذه النواة بواسطة فرقة طوارئ عسكرية من المواطنين الجنود. وهكذا ينشأ هناك فى المدينة النامية شكل ثانٍ لتنظيم غير ديمقراطي للدولة. بينما يصبح مجتمع المدينة الكبرى من ناحية السيد المطلق للكومونات والولايات المتعدِّدة، وهناك ينشأ داخل مواطني الكومونة، التي تمتد الآن بعيدًا وراء حدود إقليم المدينة الأسبق وأراضي المدينة، عداءً بين مواطني النمط القديم أو المواطنين الكاملين (النبلاء) والمواطنين الجدد (العامة) وهاتان العمليتان تحوِّلان الديمقراطية إلى أرستقراطية، ليس بواسطة الحد من دائرة المواطنين ذوي المميزات الكاملة، أو برفع بضعة أشخاص ذوي امتياز فوقهم، ولكن بواسطة نمو الدولة نفسها، التي تبقى فيها هذه الدائرة نفس الشيء بينما يكون لكل العناصر الجديدة التي التحقت بالجماعة القديمة أو العشيرة حقوق أقل أو لا حقوق على الإطلاق. ولكن هذين النمطين لنشوء الأرستقراطية من الديمقراطية لا تتبعان نفس المجرى تمامًا. واحدة من أنماط الاستغلال والسيطرة على الدولة من قِبل قِلَّة متميزة، وحكم جماعة واحدة على إمبراطورية بكاملها، ربما يتزايد دومًا فى مداه، كما ظهر من مثال روما، ويجب أن يتزايد، مادامت الدولة تمتلك طاقة حيوية ولم تطح بها قوة أعظم. ولكن الحال مع المواطنين الجدد ممن لا يتمتعون بحقوق سياسية هو أمر مختلف تمامًا. مادام هؤلاء المواطنين هم الفلاحون فقط، فقد قبلوا حقوقهم المقيدة بهدوء بهذا القدر أو ذاك. فبسبب المسافة الكبيرة بين مزارعهم والمدينة، فإن القسم الأعظم منهم غير قادر على ترك موطنه فى الصباح الباكر، لحضور جمعية المواطنين فى سوق المدينة فى الظهر، والعودة ثانية فى المساء. ومع نمو الدولة، تصبح ظروفها الداخلية والخارجية

معقدة أكثر فأكثر. وتصبح السياسة والحرب عملاً يتطلب تدريبًا سابقًا ليس متاحًا للفلاح. ولأنه لا يتوفر لديه قدر من الفهم للمسائل الشخصية والفنية التي تناقش في جمعيات المدينة السياسية، لذا يشعر بأضأل حاجة لطلب حق المشاركة فيها.

ولكن لا يبقى جسم المواطنين الجدد مقصورًا على الفلاحين. فقد جعلوا الأجانب الذين يقيمون فى المدينة ويعتبرون مفيدين لها مواطنين. ولم تتضمن المقاطعات الخاضعة التي منحت لها المواطنة قرويين فحسب؛ بل إنها احتضنت حتى مدنًا بها حرفيين وتجار، وكذلك ملاَّك عقاريين كبار ممن كانوا يملكون منزلاً بالمدينة بالإضافة إلى منزلهم الريفي. بمجرد أن يحوز الأخيرون حقوق المواطنة الرومانية، يشعرون بالحاجة للتحرُّك من المدينة الأصغر إلى المدينة الكبيرة، التي أصبحوا فيها أكثر من محتملين والتي جذبتهم إليها فرص العمل الأسهل والتسليات الأكثر إثارة. فى هذه الأثناء، وبالطريقة التي أشرنا إليها سلفًا صودر المزيد من الفلاحين بواسطة الحرب ومتطلبات العبودية. أفضل ملاذ لمثل هذه العناصر التي لا ميراث لها هو مرة أخرى المدينة الكبيرة، التي هم مواطنوها الذين حاولوا أن يشقُّوا طريقهم فيها كحرفيين أو حمَّالين، كباعة متجولين، أو مجرد بطانة لأحد السادة الأغنياء. الذين يصبحون «عملاءه» بشأن كل أنواع الخدمة الممكنة، والتي تكون حاشيته – البروليتاريا الرثَّة.

مثل هذه العناصر لديها الوقت والفرصة أكثر بما لا يقاس من الفلاحين لتنشغل بسياسات المدينة، التي يمكن إدراك أثرها عليهم لمدى أبعد كثيرًا ومباشرة. إن لديها اهتمامًا نشيطًا للحصول على نفوذ سياسي، وفى إحلال جمعية كل المواطنين محل جمعية المواطنين القدامى فقط، وفى أن تحقق لكل المواطنين حق انتخاب موظفي الدولة وتشريع القوانين.

حيث نمت المدينة، تزايد نمو عدد كل هذه العناصر، بينما لم يتزايد دائرة المواطنين القدامى. أصبحت الدائرة من ثم أضعف فأضعف نسبيًا، والأكثر حيث إنها لم تكن تملك أيَّة قوة عسكرية منفصلة عن قوة كل المواطنين، ومادام المواطنون الجدد وكذلك المواطنين القدامى كانوا جنودًا، حاملين السلاح، ومدرَّبون على استعمالها. وهكذا لدينا فى كل المدن من هذا النوع صراع طبقي مرير بين المواطنين القدامى والجدد منتهيًا دومًا آجلاً أم عاجلاً بانتصار الأخيرين، ومن ثمَّ الديمقراطية، والتي لا تبلغ شيئًا أكثر ولا أقل من توسع الأرستقراطية، على أيَّة حال، لأن الحرمان من حق التصويت واستغلال المقاطعات التي ليس فيها حقوق للمواطن، يستمر. بالفعل، أحيانًا

ما، تجري زيادة فى الإقليم، يرافقها فى بعض الأحيان استغلال أشد للمقاطعات، فى نفس الوقت الذي تحقق فيه تلك الديمقراطية تقدُّمًا داخل المدينة الحاكمة.

ج - الدولة الرومانية

توجد كل هذه الصراعات، التي هى سمة لكل مدينة تجارية مزدهرة فى العصور القديمة، متطورة تمامًا فى روما حين تظهر هذه المدينة أولاً فى التاريخ.

لقد كانت روما مدينة مميزة للغاية بموقعها وصيرورتها مدينة سلعية للبضائع. تقع المدينة على نهر التيبر، على مسافة ما من ساحل البحر، الذي لم يكن فى تلك الأيام عقبة أمام التجارة البحرية، لأن السفن كانت غاية فى الصغر فى الواقع، وكان ذلك ميزة لأن، كونها بعيدة عن الساحل، جعل المدينة محمية بشكل أفضل ضد القراصنة والفيضانات من المدن التي تقع على الساحل. ليس مصادفة أن كثيرًا من المدن التجارية العظيمة الأقدم لم تنشأ على ضفاف ساحل البحر نفسه، ولكن على أنهار صالحة للملاحة على مسافة ما من أفواهها - بابل وبغداد، لندن وباريس، أنتورب وهامبورج.

نشأت مدينة روما على نقطة مازال فيها التيبر صالحًا للملاحة وحيث هناك تلاّن محصَّنان بسهولة، امتدا لأسفل للالتقاء بالنهر، وهكذا تضمَّنا الحماية والأمن للمخازن التي تستخدمها السفن فى الشحن والتفريغ. كانت المقاطعة التي تقع فيها روما مازالت خشنة، يسكنها الفلاحون فقط، ولكن فى شمالها وجنوبها كانت هناك أراضي فى مرحلة متقدِّمة من التطور الاقتصادي، إتروريا وكامبانيا، مع صناعة نشطة، تجارة ممتدة، ولديها بالفعل اقتصادًا زراعيًا مؤسَّس على العمل الإجباري. ومن أفريقيا جاء القرطاجنيون الذين كانوا فى حوالي نفس مرحلة تطور الحضارة مثل المستعمرات الأتروسكانية والإغريقية فى إيطاليا الجنوبية، مع بضاعتهم.

هذا الموقع الجغرافي مميز جدًا لروما. لقد بدت المدينة التجارية لشعوب محيطها المباشر، اللاتين والفولسكيان، أنها تمثِّل حضارة أعلى؛ ولكن لهؤلاء الذين فى التخوم الأكثر بعدًا، الإتروسكيين والإغريق الإيطاليقيين، بقى الرومان مجرد شعب فلاحى فقط. وفى الحقيقة، بقيت الزراعة المصدر الرئيس للعيش بالنسبة للرومان، بالرغم من كل الزيادة فى التجارة. وحيث إنهم لم يكونوا قريبين من البحر، فلم يعرفوا شيئًا عن الملاحة وبناء السفن، ولكن ترك للتجار الأجانب وربابنة السفن مهمة الإبحار إلى روما والقيام بتجارتها. بقى هذا الظرف ثابتًا ويفسِّر جزئيًا حقيقة أن اليهود شكَّلوا مثل

هذه المستوطنة المهمة فى روما فى زمن قيصر وأخلافه المباشرين، بمعنى آخر، حوالي زمن أصل المسيحية، لقد نجحوا فى ذلك الوقت فى السيطرة على قسم من التجارة الرومانية. يمكن ان نلاحظ أن ظرفًا مشابهًا يوجد حتى اليوم فى القنسطنطينية حيث التجارة فى أيدي غير الأتراك بصفة رئيسة.

كلما ازدهرت روما بسبب تجارتها، كلما تنازعت أكثر مع جيرانها. حفز السوق من أجل المواد الغذائية، الذي فُتح بواسطة التجارة، الملاّك العقاريون الرومان لتوسيع ممتلكاتهم على حساب جيرانهم، بينما راود الأخيرون الجشع لثروة المدينة. من ناحية اخرى، نشأت صراعات تنافسية مع المدن الإتروسكية. خيضت سلسلة من الحروب الطويلة والحادة من قبل المجتمع الشاب، ولكنه خرج منها منتصرًا، والفضل للموقع النوعي المزدوًج، الذي ذكرناه سلفًا. انتصرت المصادر التقنية الأعلى والتنظيم الحازم للمدينة الكبيرة على الفلاحين، ولكن الإتروسكيين، الذين كانوا قد فقدوا سلفًا بعض قوتهم العسكرية نتيجة لاستبدال العمل الإجباري بطبقة فلاحية حرة، قد هزموا بسبب خشونة وقوة احتمال الفلاّح الروماني.

بمجرد أن أصبحت روما قوية بما فيه الكفاية لأن تتخلّص من الإتروسكيين، تعلّمت عبر هذا الإجراء أي عمل ممتاز يمكن أن تكونه الحرب. كان يمكن إحراز ثروة أكثر بما لا يقاس بالحرب منها بالتجارة، مادامت الأخيرة كانت فى الغالب فى أيدي الأجانب، أو من الزراعة، التي انتجت أرباحًا طفيفة للغاية كل عام، بسبب انشغال الفلاحين. إذا كانت الحروب ناجحة، وكانت قد شنّت ضد مدن وأمم ثرية، فكثير من النهب والجزية قد تأتي. التجارة وقطع الطريق مرتبطان بوثوق منذ البداية الأولى، ولكن من المحتمل أنه لم تكن هناك مدينة أخرى قد أكدت كثيرًا مرحلة قطع الطريق، أو جعلتها حتى مؤسسة قومية، إن لم يكن أساسًا لعظمة المدينة، مقيمة كل المؤسسات القومية على هذا الأساس، كما فعلت روما.

بمجرد أن قهرت ونهبت المدن الإتروسكية وجعلتها تدفع جزية لها، تحوًلت روما نحو هؤلاء الجيران الأغنياء فى الجنوب التي تضمنت ثروتهم النامية أيضًا فقدانًا لقوتهم العسكرية، لأسباب غالبًا ما صرًحنا بها فى هذه الصفحات، انتهاءًا إلى أن الغنيمة كانت فى نفس الوقت مرغوبة أكثر وأسهل كثيرًا فى أخذها. ولكن كانت هذه الثروة تجذب فى نفس الوقت أنظار شعب فلاحى آخر، السامانيينSAMNITES، الذي كان يجب أن يهزم حتى يمكن أن تأخذ روما المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا. لقد كانت حالة قبيلة فلاحية تقاتل قبيلة فلاحية، ولكن السامانيين لم تكن لديهم

مدينة كبيرة، مثل روما، فى مركزها، التي ربما وفّرت تنظيمًا مركزيًا للقوى الفلاحية المقاتلة.من ثمَّ خضعوا وهكذا تمهد الطريق لروما لتنهب وتُخضع المدن الثرية فى إيطاليا الجنوبية.

لم تكن هناك سوى خطوة واحدة من إيطاليا الجنوبية إلى صقلية، التي، لم تكن أقل ثروة من القسم الإغريقي من إيطاليا، التي جذبت بقوة أيضًا جيوش روما اللصوصية. ولكن فى هذا الحقل واجه الرومان عدوًا خطرًا، القرطاجنيين. قرطاجنة (قرطاج) مدينة تجارية قوية ليست بعيدة عن تونس اليوم، أخضعت النصف الغربي من الساحل الشمالي الإفريقي، وكذلك، إسبانيا، وكانت تحاول الآن أن تفعل نفس الشيء مع صقلية تحت تأثير نفس الغريزة اللصوصية مثل روما،. كانت قرطاجنة مستعمرة للفينيقيين، الذين اضطروا منذ فترة مبكرة بسبب طبيعة بلادهم أن يشتغلوا بالملاحة، وحازوا قوتهم الكبرى فى هذا المجال. اكتسبت قرطاجنة أيضًا عظمتها وثروتها بواسطة الملاحة، انتجت قرطاجنة بحّارة وليس فلاحين، وبدلاً من اقتصاد فلاحى طوَّرت نظام اللاتيفونديا بواسطة العبيد الأسرى الرخيصين، وأيضًا بعض التعدين. لقد افتقرت من ثمَّ إلى جيش فلاحى شعبى. بمجرد أن اضطرت قرطاجنة أن تخترق خط الساحل إلى الداخل، حتى تعزِّز غزواتها وتطوِّر قوة عسكرية فى البر، كان عليها أن تلجأ لاستئجار المرتزقة.

بدأ الصراع بين روما وقرطاجنة بالحروب الثلاثة المسمَّاة البونية، فى 264 ق.م، بالطبع كان هذا الصراع قد حسم بالفعل بهزيمة هانيبال التي أدَّت لنهاية الحرب البونية الثانية فى 201 ق.م. أصبحت هذه الصراعات حربيًا بين جيوش المرتزقة وجيوش الفلاحين، بين قوى محترفة وشعبية. غالبًا ما كان الأوَّلون ناجحين؛ شارفت روما فى ظل هانيبال على الهزيمة ولكن جيش الميليشيا، إذ كان يدافع عن بيوته، تبيَّن أخيرًا أنه أكثر احتمالاً، وأجبر خصم روما على الركوع فى نهاية النزاع العاتي. سويت قرطاجنة بالأرض، ودمَّر سكانها؛ وكانت مواردها الكثيفة من اللاتيفونديا، والمناجم، والمدن المهزومة، غنيمة المنتصر.

هكذا سقط خصم روما الأشد خطرًا؛ حكمت روما الآن بدون تدخُّل فى النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وسرعان ما كانت تحكم أيضًا النصف الشرقى، الذي كانت أممه قد تقدَّمت بعيدًا بالفعل على الطريق القديم للتدمير، الذي يعني استبدال العمل الإجباري للعبيد أوالأقنان، بعمل الفلاحين الأحرار وإفقار الفلاَّح بواسطة حروب لا نهاية لها، واستبدال قوى المرتزقة بالميليشيا. كانت أمم شرقي

المتوسط الآن ضعيفة للغاية من وجهة نظر عسكرية حتى أنها لم تكن قادرة على إبداء أيَّة مقاومة جدية لجيوش روما. أخضعت الأخيرة مدينة بعد أخرى، دون صعوبة، وبلدًا بعد آخر، بغرض نهبها والحكم عليها بأن تدفع جزية أبدية. من هذا الوقت فصاعدًا، أصبحت سيدة العالم القديم حتى نجح البرابرة التيوتون فى تهيئة نفس المصير لروما الذي أعدَّته روما بالفعل للأغارقة، بالرغم من أن الأخيرين كانوا أرفع شأنًا بما لا يقاس بالنسبة لروما بقدر ما تعلَّق الأمر بالفن والتعليم. لم يكن الرومان أبدًا أكثر من ناهبين للأغارقة، ليس فقط فى الاقتصاديات والسياسة، ولكن أيضًا فى الفلسفة والفن. إن أعظم مفكرى روما وشعرائها كان جميعهم تقريبًا منتحلي آراء الآخرين.

إن الأرض الأغنى فى العالم المعروف آنذاك، التي كانت قد راكمت الكنوز التي لا تحصى لحضارة استمرت لقرون، أو كما فى حالة مصر، لآلاف السنين، تعرَّضت الآن لنهب وسرقة روما.

إن الإجهاد الضخم للقوى العسكرية الذي أوصل لهذه النتيجة المهيبة، كان متاحًا لروما فقط حين كانت روما ديمقراطية، مدينة كان وجودها مثار اهتمام جاد - وإن لم يكن كله بدرجة متساوية - من كل طبقات السكان. نجح المواطنون الجدد، أو العامة، فى صراع طويل وخطير، يستمر من القرن السادس حتى الرابع ق.م، فى أن ينتزعوا من المواطنين القدامى، النبلاء، امتيازًا بعد امتياز، حتى انمحت فى النهاية كل الاختلافات القانونية بين الفئتين وكان للجمعية الشعبية لكل المواطنين امتياز سن القوانين وانتخاب أعلى الرسميين، القناصلة، البريتوريون، الأيديليون AEDILES، الذين دخلوا لاحقًا مجلس الشيوخ بعد انتهاء مدة منصبهم؛ وكان مجلس الشيوخ الحكومة الفعلية للدولة بكاملها.

ولكن لم يحز الشعب الروماني هكذا السيطرة على الدولة، ولكن فقط حق انتخاب الحكام. وكلما غلبت **البروليتاريا الرثَّة** على سكان المدينة كلها أصبحت هذه الديمقراطية بالفعل أداة للكسب، ووسيلة لابتزاز الهبات والتسليات من المرشحين. لقد أصبحنا سلفًا ملمِّين **بالوكلاء** CLIENTES، الذين أجَّروا انفسهم للسادة الأغنياء لتقديم خدمات من أي نوع. فى حالة **هؤلاء الوكلاء**، الذين كان لهم حق التصويت، كانت واحدة من أكثر خدماتهم أهمية هي التصويت وفقًا لرغبات حُماتهم. سيطر كل روماني ثري، كل عائلة ثرية، هكذا على أصوات عديدة فى الجمعية الشعبية، التي سخَّروها لخدمة مصالح العصبية التي انتموا إليها. احتفظت عصب قليلة من الأسر الغنية بهذه الطريقة بحكومة الدولة فى أيديها ومرة بعد مرة سوف تنجح فى تأمين

انتخاب أعضاء عائلاتها فى أعلى مناصب الدولة، ومن ثمَّ فى النهاية إلى مجلس الشيوخ. لم تغيِّر الديمقراطية أي شيء فى هذا النظام عدا أنها سمحت أيضًا للعائلات البربرية الثرية أن تدخل فى الدائرة المميزة، التي كانت مقصورة على النبلاء بينما بقى النظام الأرستقراطي على حاله.

كان القناصلة والبريتوريون بعد هذه الانتخابات، مضطرين لأن يقضوا العام الأول من نشاطهم الرسمي فى روما. تولّى كل منهم فى العام الثاني إدارة ولاية وحاول فى هذا الحقل الجديد أن يسترد النفقات التي دفعها بسبب الترشيح للمنصب، وأيضًا أن يحقق بعض الربح فى الاستثمار، لأن هؤلاء الموظفين لم يتقاضوا أجورًا؛ لقد كانت المناصب "مناصب شرفية". من ناحية أخرى، كان منظور الربح الذي يمكن أن يتحقق فى الولايات بالاغتصاب والارتشاء، وغالبًا أيضًا بواسطة سرقة فاضحة، سببًا للضغط على ترشيح المرء للمنصب بشكل أشد توكيدًا انتهاءًا إلى أن بزَّ المرشحون المتعددون كل منهم الآخر فى هداياه وتسلياته للشعب.

ولكن كلما زادت الطرق المتنوعة لشراء الأصوات الانتخابية منظورات الكسب من بيع البرولتياريا الرثّة امتيازات المواطنة، كلما عظم الإغراء أمام هؤلاء الفلاحين الذين حازوا حقوق المواطنين الرومان لأن يتخلُّوا عن شرطهم البائس، الكادح والمقهور فى الريف ويرحلوا إلى روما. زاد هذا الاتجاه بدوره عدد الغوغاء التي تملك حق الانتخاب، وأيضًا الطلبات التي تحمَّلها المرشحين. لم يكن هناك فى عهد قيصر أقل من 320000 مواطن روماني فى روما كانوا يتلقون منح الحبوب من الدولة، كان عدد الأصوات الانتخابية الذي يمكن أن يشترى من ثمَّ من المحتمل أن يصل إلى حوالي 320000. ربما يمكننا أن نتخيل أيَّة كميات ضخمة كانت تستهلك فى الانتخاب.

فى عام 53 ق.م، خلق شراء الأصوات الانتخابية مثل هذا الطلب على النقود، حتى أن الفائدة على رأس المال قد ارتفعت لحد بعيد لدرجة أن تلاها أزمة [1].

ويلاحظ مومسن أنه كان على النبالة (النبالة الساعية للمناصب) أن تدفع رغم أنفها "تكلّف قتال مصارعين 720000 سيسترسيس (حوالى 40000 جنيه إسترلينى). ولكنهم كانوا سعداء بأن يدفعوا لأنهم أبعدوا هكذا كل الأشخاص الذين لم يكن لديهم كثير من النقود عن المنصب" [2].

---

13 سالفيولى، الراسمالية فى العالم القديم، 1906، ص 243.

14 تاريخ روما، نيويورك، 1895، المجلد الثالث، ص 42.

بالفعل، لقد دفعوا مرارًا، حيث كانت هناك انتخابات جديدة كل عام. وهم لم يدفعوا، على أيّة حال، انطلاقًا من أي دافع مثالي، ولكن بسبب أنهم عرفوا أنهم كانوا يشترون هكذا الإذن بأن ينخرطوا فى نهب أكثر ربحًا للمقاطعات صانعين من ثمَّ تجارة جيدة للغاية.

أصبحت "الديمقراطية"، أو السيطرة على سكان الإمبراطورية الرومانية بكاملها، التي تحتوى على خمسين أو ستين مليونًا من السكان، بواسطة بضع مئات من آلاف المواطنين الرومان، أصبحت هكذا واحدة من أشد الوسائل فعالية فى المغالاة لأعلى درجة فى نهب وتجريد الولايات، بواسطة زيادة عدد الأشخاص المشاركين فى هذه العملية بكثافة. لم يفعل الحكام فقط كل ما في مقدورهم فى طريق الابتزاز، "ولكن يتبنّى كل منهم حشدًا من "الأصدقاء" معه، ممن ساعدوه فى الانتخاب، والذين يُطلقون الآن، ليسرقوا وينهبوا تحت جناحه الحامي كمكافأة.

ولكن هذا لم يكن كل شيء، فرأس المال الربوي في روما كان أيضًا قد أطلق له العنان ضد الولايات، التي أتيحت له فيها كل الفرصة لأن يطوّر قوته التدميرية إلى حدّها الأقصى، وأن يحرز موقعًا ذا أهمية لم يتمتع به فى أي جزء آخر من العالم القديم.

د - الربا

الربا نفسه قديم للغاية، قدم التجارة تقريبًا. بينما لا يمكننا تتبعه حتى العصر الحجري، فمن المحتمل رغم ذلك أن يكون أقدم من استخدام النقود. بمجرد أن تشكّل عدد من الاقتصاديات المنزلية بممتلكات محدَّدة لكل عائلة، فقد كان من الممكن لعائلة ما أن تصبح أثرى من الأخريات فى الماشية، الأرض، العبيد، بينما يمكن أن تصبح العائلات الأخرى فقيرة. لقد كان من ثمَّ طبيعيًا للفلاحين أن يوجدوا فى أوضاع يكونوا فيها متورِّطين في الاقتراض من فائض جارٍ ثرى، إما حبوبًا أو ماشية، وعلى المقترض أن يعد بأن يقدِّم بدلها بعد فترة، مع كمية إضافية، أو أن يقوم بمهمة معينة فى المقابل - وهذه هي بداية عبودية المدينين. مثل هذه التعاملات فى الربا ممكنة، وتجرى بالفعل، فى اقتصاد قائم على المنتجات الطبيعية فقط، حتى بدون استعمال النقود. إن ملكية الأراضى الكبيرة والربا، مرتبطان بوثوق منذ البداية الأولى؛ ورأس المال الربوي - يسمَّى اليوم "المالية العليا" - وكبار الملاّك العقاريين كانوا فى أوضاع كثيرة فى أفضل حالات الوفاق. كان الملاّك الكبار فى روما أيضًا مرابين منذ

زمن قديم بقدر ما يمكن أن نوغل فى التاريخ، و لم يكن الصراع بين النبلاء والعامة صراعًا فقط بين الملاّك العقاريين والفلاحين من أجل استخدام مشاعات الدولة وإنما أيضًا صراعًا بين المرابين والمدينين.

ولكن كانت إنتاجية العمل الفلاحي، ومن ثمَّ الفائض الذي ينتجه، ضئيلين لدرجة أن استغلال جماهير عظيمة من الرجال كان ضروريًا من أجل تزويد المستغلين بأي ثروة ذات وزن. بينما كان الأرستقراطيون الرومان يستغلون بالربا الفلاحين فى التخوم المحيطة بروما فقط، فربما كانوا يضطهدون هؤلاء الفلاحين إلى حد بعيد دون أن يجنوا شيئًا كثيرًا جدًا لأنفسهم. ولكن ازدهرت أحوال المرابين الرومان بالضرورة بشكل أكثر إرضاءًا وأنتجت ثروة معتبرة أكثر، حتى أنهم حصلوا تدريجيًا على منفذ لكل عالم زمنهم.

لكن تضمَّن هذا أيضًا تقسيمًا للعمل. إن أخذ فائدة ربوية من الجيران لم يكن عملاً يتطلب انتباهًا كبيرًا. وكان الأرستقراطيون قادرين على أن يعنوا به دون إهمال تدبير أملاكهم أو إدارة الدولة. من ناحية أخرى، لقد كان من الصعب استغلال أسبانيا وسوريا، الغال، وشمال أفريقيا، وإدارة أقدار الدولة الرومانية الضخمة فى نفس الوقت. يبدأ الآن عمل الربا فى التميز أكثر فأكثر عن (عمل) الحكومة. بجانب النبالة الرسمية، التي كانت تسرق الولايات بصفتها كقوَّاد وولاة، غير مترفعة فى نفس الوقت عن أن تكسب قليلاً من النقود جانبيًا، تطوَّرت هناك الآن طبقة خاصة من الرأسماليين الربويين الذين شكَّلوا أيضًا تنظيمًا اجتماعيًا خاصًا، طبقة "الفرسان". ولكن كلما أصبحت طبقة الرأسماليين أكثر عددًا، وهي التي كانت منخرطة على سبيل الحصر فى التعاملات المالية، كلما تنوَّعت أكثر أنماط هذه التعاملات.

كانت واحدة من الوسائل الرئيسة لنهب الولايات جباية ضرائبها. لم توجد آنذاك بيروقراطية يمكن أن تتولَّى جمع الضرائب، وكانت الطريقة الأكثر ملائمة لجمعها هي أن يوكِّل هذا الواجب بالنسبة لولاية معينة لمالي روماني، الذي يتعيَّن عليه أن يسلِّم إلى الدولة القيمة الكلية للضريبة ويترك ليكافئ نفسه بقدر ما يستطيع. كان هذا نظامًا للضرائب مشابهًا لذلك الذي مازال يمارس فى كثير من مناطق الشرق مصحوبًا بتلك النتائج الوبيلة، فلن يكتفي جابي الضرائب بالطبع بالكمية التي يستحقها عن عدل؛ فسكان الولايات تحت رحمته ويستنزفون.

يتصادف غالبًا جدًا أن مدنًا معيَّنة أو ملوكًا فرضت عليهم الجزية لا يتمكنون من آداء المبالغ التي فرضت عليهم. أظهر الماليون الرومان فى هذه الحالة استعدادًا لأن

يدفعوا مقدّمات إليهم، مقابل فائدة بالطبع. وهكذا، على سبيل المثال، فإن الجمهوري الكبير جونيوس بروتوس قام بـ "مضاربات ممتازة بإقراض نقود لملك كابادوشيا ولمدينة سلاميس. لقد أعطى قرضًا للأخيرة بفائدة قدرها 48 فى المائة "(سالڤيولى، نفس المصدر، ص 24) لم يكن هذا معدّلاً عاليًا استثنائيًا للفائدة. يفيد سالڤيولى فى كتابه بأن قروضًا أعطيت لمدن بمعدّلات تصل إلى 75 فى المائة. ومعدّل الفائدة سيكون حتى أعلى فى حالات المخاطر الاستثنائية. وهكذا، أقرض بيت التمويل الكبير لرابيريوس فى عهد قيصر ملك مصر بطلميوس المنفي كل موارده وموارد أصدقائه، بمعدّل فائدة بلغ مائة فى المائة. والحقيقة أن رابيريوس قد قام باستثمار سيىء، لأن بطلميوس حين استعاد عرشه، عجز عن أن يدفع وألقى بدائنة الملحف، الذي ادّعى الدولة المصرية بكاملها ملكه الخاص، فى السجن. هرب المالي إلى روما، على أيّة حال، وأعطاه قيصر فرصة لأن يصنع ثروة جديدة فى عقود من أجل الحرب الأفريقية.

كانت هذه العقود شكلاً آخر لكسب النقود. كانت الجزيات التي تجمع فى خزائن رومانية من الولايات الخاضعة ضخمة. ولكن الحروب التي لا تتوقف تكلّف كثيرًا من النقود أيضًا، لقد أصبحت وسائل نجح الماليون بواسطتها في أن يصبُّوا فى أكياسهم التي لا قاع لها كثيرًا من الغنيمة التي أخذت من الولايات التي لم تذهب إلى الماليين مباشرة بل سلّمت إلى الدولة. لقد قاموا بتزويد الدولة بإمدادات الحرب - وهو مصدر دائم لكسب النقود، حتى يومنا هذا. ولكنهم سوف يشرعون فى ممارسة الربا على دولتهم، حين تصادف أن تورّطت الأخيرة ماليًا، ولم يكن ذلك أمرًا غير عادى، لأنه كلما نجحت الدولة فى اجتلاب غنيمة أكثر من الولايات كلما ارتفعت عاليًا ادّعاءات مختلف أنواع البدلانات على الدولة. كان يجب أن تقدّم أحيانًا كميات كبيرة للدولة، كميات أكبر مما امتلكه أي فرد. لهذا الغرض، فإن تكوين شركات المحاصة كان مفيدًا للغاية. إن الربا ليس فقط الشكل الأبكر للاستغلال الرأسمالي، إنه أيضًا الوظيفة الأولى لشركات المحاصة.

أسّس ماليو روما شركات تماثل بنوك المحاصة عندنا، كان لديهم مديرون، وصيارفة، ووكلاء.. إلى آخره. تكوّنت فى ظل سولاSULLA شركة الأسياني **Asiani** برأس مال ضخم إلى الحد الذي استطاعت فيه الشركة أن تقرض الدولة عشرين ألف تالنت، أو خمسة وعشرين مليون دولار. زاد هذا القرض بعد إثني عشر عامًا إلى مائة وعشرين ألف تالنت.... كانت تستثمر موارد أصغر فى حصص بالشركات الكبيرة انتهاءًا إلى، كما يقول لنا بوليبيوس (السادس، 17) أن المدينة بأجمعها (روما) كانت

تشارك فى كل المشاريع المالية المتنوّعة التي ترأستها بعض الشركات القليلة البارزة. كانت المدّخرات الأصغر لها حصتها فى مشاريع جباة "الضرائب، التي حصَّلت الضرائب وأجرت أراضى الدولة، وأثمرت أرباحًا ضخمة ". (سالڤيولي، نفس "المصدر، ص ص 41،40)

كل هذا يبدو حديثًا جدًا بالنسبة لنا، وإنه علامة على الأقل على حقيقة أن المجتمع الروماني فى الوقت الذي كانت تولد فيه المسيحية قد تقدَّم إلى عتبة الرأسمالية الحديثة، ومع ذلك فإن تأثيرات هذه الرأسمالية القديمة كانت مختلفة تمامًا فى نوعها عن تأثيرات الرأسمالية الحديثة.

إن الطرق التي وصفناها هنا هي تقريبًا نفس الشيء الذي نتج عن تكوين الرأسمالية الحديثة، الطرق التي شخَّصها "ماركس باعتبارها طرق "التراكم الأولى": مصادرة ملكية السكان الفلاحين، نهب المستعمرات، تجارة العبيد، الحروب التجارية، والديون القومية. نجد فى الأزمنة الحديثة أن هذه الطرق تنتج نفس الآثار المدمِّرة والمخرِّبة التي أنتجتها فى العصور القديمة. ولكن الفرق بين العصور الحديثة والقديمة يكمن فى حقيقة أن العصور القديمة كانت قادرة على أن تطوِّر فقط التأثيرات المدمِّرة للرأسمالية، بينما تبدأ الرأسمالية الحقبة الحديثة بالتدمير حتى تطوِّر شروط إقامة أنماط إنتاج جديدة وأعلى. إن الطريقة التي تطوَّرت بها الرأسمالية الحديثة ليست بالتأكيد أقل بربرية، وقسوة من تلك التي تابعتها الرأسمالية القديمة، ولكن تخلق الرأسمالية الحديثة على الأقل أساسًا للتقدم ماوراء هذا النشاط القاسي، والمدمِّر، بينما الرأسمالية القديمة لم تستطع أبدًا أن تتجاوز هذا الحد.

لقد رأينا سلفًا أسباب ذلك فى الفصل السابق. إن التراكمات التي صنعتها الرأسمالية الحديثة، بالنهب والاغتصاب وبأعمال العنف الأخرى، تستخدم فقط جزءًا صغيرًا لأغراض الاستهلاك، وتخصِّصها بصفة رئيسة لإنتاج وسائل إنتاج جديدة وأرقى، وهكذا تزيد إنتاجية العمل الإنساني. لم تجد رأسمالية العالم القديم الشروط الأوَّلية الضرورية لهذه المهمة. كان تأثيرها على نمط الإنتاج محدودًا فى استبدال عمل الفلاحين الأحرار بعمل العبيد، الذي كان يساوي خطوة إلى الخلف من الناحية الاقتصادية فى أكثر حقول الإنتاج أهمية، ونقص فى إنتاجية العمل الاجتماعي، وإفقار للمجتمع.

مكاسب رجال المال الرومان هذه، وكذلك غنيمة القادة والرسميين الرومان، التي لم تتجه لتوظيف جديد فى الربا، بمعنى آخر فى خدمة نهب جديد، كان يجب إما أن

تبدِّد من ناحية، فى المتع، وكذلك فى إنتاج وسائل المتع - ويجب أن نحسب ليس فقط القصور ولكن أيضًا المعابد من بين وسائل المتع هذه - أو ربما تخصِّص هذه المكتسبات، إذا تجاهلنا تلك التى سحبت من عمليات التعدين القليلة، لحيازة ملكية، بمعنى آخر لمصادرة ملكية الفلاحين الأحرار واستبدال العبيد بهم.

خدم نهب وتخريب المقاطعات من ثمَّ في تزويد ماليِّي روما فقط بوسائل تتيح نقص إنتاجية العمل الاجتماعي، بسبب انتشار العبودية، لينطلق بسرعة مما إذا كان الحال على خلاف ذلك. لم يكن التدمير فى حقل معيَّن يواجه بازدهار اقتصادي فى حقل آخر، كما هي الحال أحيانًا على الأقل مع الرأسمالية الحديثة، ولكن عجَّل التدمير فى المقاطعات أيضًا تدهور روما. من ثمَّ، وكنتيجة لسيادة روما العالمية، يبدأ الإفقار العام للعالم القديم فى التحرُّك بشكل أسرع بعد بداية العصر المسيحي، بخلاف ما كان قبل ذلك.

ولكن توارت فى الظل لوقت طويل أعراض الإفلاس الاقتصادي بسبب الفخامة الباهرة لوضع روما. جمعت روما فى عقود قليلة، معًا تقريبًا كل الأشياء التي خلَّفتها قرون، وحتى آلاف السنين، من العمل الفني المتقن، فى كل مراكز الحضارة حول البحر الأبيض المتوسط. أصبح الإفلاس السياسي للنظام أشد سرعة من إفلاسها الاقتصادي.

ه ـ الاستبداد

لقد دمَّرت روما الحياة السياسية فى كل الأقطار التي غزتها، بكسر قدرتها على المقاومة وحرمانها من استقلالها. كانت كامل سياسة هذه الإمبراطورية الهائلة مركَّزة فى مدينة روما فقط. ولكن من هم الأشخاص الذين أصبحوا حملة الحياة السياسية فى تلك المدينة؟ لقد كانوا رجال مال فكَّروا فى مراكمة الفائدة على الفائدة فقط، وأرستقراطيين ترنَّحوا من متعة إلى متعة أخرى، الذين احتقروا العمل المنتظم، وكل جهد، حتى جهد الحكم وشن الحرب؛ وأخيرًا البروليتاريا الرثَّة، التي عاشت بواسطة بيع قوتها السياسية لمن يدفع أكثر.

وهكذا، يفيد سويتونيوس فى سيرة حياة قيصر، فيما يتعلَّق بهبات الأخير بعد الحروب الأهلية بما يلي:

"أعطى كل رجل من السكان، بالإضافة إلى عشرة مودى MODII من الحبوب وعشرة أرطال من الزيت، الثلاث مائة سيسترسس التي كان قد وعد بها سابقاً، سويَّة مع مائة سيسترسس كفائدة على الأقساط. (بمعنى آخر20 جنيه إسترليني فى وقت كان بإمكان المرء أن يعيش فيه بثلاث سنتات فى اليوم.ك) وشرع أيضًا فى دفع إيجارهم السنوي (لهؤلاء الذين يعيشون كمستأجرين فى المباني.ك)، فى روما حتى ألفى سيسترسس للعائلة (100 جنيه إسترلينى)، وفي إيطاليا حتى خمسمائة سيسترسس (25جنيه إسترليني). وبالإضافة إلى ذلك اقام مأدبة (لمائتي الف شخص، ك) ووزَّع اللحم مجانًا وبعد الانتصار على أسبانيا أقام أيضًا مأدبتي إفطار عامتين، لأن الأولى بدت له هزيلة للغاية ومن ثمَّ ليست جديرة بكرمه؛ "وطبقاً لذلك رتَّب لإفطار ثانٍ، بعد خمسة أيام تالية الذي كان عيداً رائعًا " (الفصل الثامن والعشرون) لقد "أعدَّ ألعابًا أيضًا ذات أبهة لم يُسمع بها، يتلقَّى فيها ممثل واحد، ديسيموس لابيريوس، خمسائة ألف سيسترسس، أو 25000جنيه إسترليني مقابل عرض واحد" !

يقول سويتينيوس فيما يتعلق بأغسطس:

"غالبًا ماوزَّع هدايا على الشعب، لم تكن دائمًا بنفس القدر، أحيانًا أربعمائة سسترسس (20جنيه إسترلينى) أحيانًا ثلاثمائة سسترسس (15جنيه إسترلينى) أحيانًا مائتى وخمسين سسترسس فقط (12جنيه إسترلينى) للشخص. وهو لم يغفل حتى عن الفتية الصغار، بالرغم من أنهم فى توزيعات أخرى لم يتلقَّوا شيئًا الا إذا كانوا فوق سن الحادية عشر. وبالمثل، فى أعوام المجاعة غالبًا ماوزَّع الحبوب على كامل السكان بسعر "زهيد للغاية، وشدَّد تعليماته من أجل توزيع نقود (أوكتافيوس، الفصل الثاني عشر)

من الطبيعي إذا سمحت البروليتاريا لنفسها بأن تُباع بهذه الطريقة، بعد أن وضعت قواعد فسادها فى نظام واستعرضته علنًا، أن تفقد استقلالها السياسي كلية. لقد باتت الآن أداة فقط فى أيدي من يدفع أكثر. أصبح الصراع من أجل السلطة فى الدولة تنافسًا بين عصب قليلة كانت قادرة على أن تُراكم الغنيمة الأعظم والتي تمتَّعت بأوسع ائتمان مع الماليين.

كان هذا العامل مؤكداً لحد كبير بنشوء نظام المرتزقة، الذي كان يجعل من الجيش سيد روما أكثر فأكثر. بعد أن جرى توسيع نظام المرتزقة، تدهورت البسالة الحربية لدى المواطن الروماني - أو بالأحرى سبب تدهور بسالته زيادة تطبيق نظام

المرتزقة. باتت كل عناصر السكان القادرة على الخدمة العسكرية موجودة فى الجيش، وفَقَدَ السكان خارج الجيش قدرتهم القتالية وروحهم القتالية أكثر فأكثر.

كان هناك عاملان يعملان بصفة خاصة فى اتجاه تدني الجيش أكثر فأكثر حتى يكون أداة طيِّعة فى يد أي قائد عسكري يمكن أن يُقدِّم له أو يَعِدَهُ بمرتب وجزية كافيين، وبسبب كونه بات محكومًا أقل فأقل بالاعتبارات السياسية. كان العامل الأول هو العدد المتزايد لغير الرومان، من سكان الولايات، وحتى الأجانب فيه، عناصر لم يكن لها حقوق كمواطنين، عناصر كانت مُستبعدة كليًا من أي إسهام فى الحياة السياسية، العامل الثاني كان النفور المتزايد من قِبل الأرستقراطية محبِّي المتع، والمخنَّثين من الاشتراك فى الخدمة العسكرية. لقد قدَّمت هذه الطبقة حتى الآن الضباط العسكريين، الذين كانوا يخلون الأرض أكثر فأكثر للضباط المحترفين؛ لم يكن الأخيرون مستقلين اقتصاديًا، كما كان الأرستقراطيون، ولم يكن لديهم اهتمام أيًّا كان بنزاعات الأحزاب الرومانية، التي كانت فى الواقع صراعات بين زمر الأرستقراطية المختلفة.

حيث تزايد غير الرومان فى الجيش أكثر فأكثر، بينما استمر استبدال الضباط الأرستقراطيين بالضباط المحترفين، كلما أصبح استعداد الجيش أعظم لبيع نفسه لمن يدفع أكثر وأن يجعله حاكم روما.

وهكذا وُضع الأساس للقيصرية، الشرط الذي مَكَّن أغنى رجل فى روما من أن يبتاع الجمهورية، مشتريًا السلطة السياسية لنفسه، وهذا بدوره كان حافزًا يمكن أن يحث قائدًا ناجحًا، له السيطرة على الجيش، لأن يسعى ليصبح أغنى رجل فى روما، الأمر الذي يمكن أن يحققه بأفضل شكل بتجريد خصومه ومصادرة ملكيتهم.

تحتوي الحياة السياسية للقرن الأخير من الجمهورية فى التحليل الأخير على لا شيء سوى الحروب الأهلية – وهو مصطلح شديد الخطأ، حيث إن المواطنين لم يكن لهم شأن بهذه الحروب. لم تكن حروب مواطنين، وإنما حروب بين ساسة فرديين، الذين كان أغلبهم ماليين جشعين وقادة بارزين فى آنٍ معًا، ذبحوا وسرقوا بشكل متبادل كل منهم الآخر حتى نجح أغسطس أخيرًا، بعد أن تغلَّب على كل منافسيه، فى تأسيس حكمة الفردي الدائم.

نجح قيصر إلى مدى معيَّن بالفعل فى هذا قبل أيام أغسطس؛ كان قيصر، مغامرًا أرستقراطيًا غارقًا فى الديون، وقد تآمر مع اثنين من أغنى الماليين الرومان،

بومبى وكراسوس، بغرض الاستيلاء على سلطة الدولة. يصف مومسن كراسوس على النحو التالى: "كانت ثروته قائمة على شراء الأرض خلال الثورة؛ ولكنه لم يحتقر أي وسيلة لكسب المال: لقد قام بعمليات بناء فى العاصمة كانت عظيمة بقدر ما كانت حكيمة، وكان مرتبطًا برجاله المعتقين الموزّعين فى أكثر المشروعات تنوُّعًا؛ وداخل روما وخارجها سوف يسلك كمصرفي إما مباشرة أو من خلال أصدقائه، لقد قدّم نقودًا لأصدقائه فى مجلس الشيوخ وسيقوم لحسابهم، بتنفيذ الأعمال العامة أو يرشو الهيئات القضائية، أيًّا ما كان مطلوبًا. لم يكن مرهفًا فى اختياره فى كيفية كسب النقود... وهو لن يتردّد فى قبول ميراث لأن الوصية التي ورد اسمه فيها كانت تزويرًا فاضحًا" [1].

لم يكن قيصر افضل، لم تَبدُ أيَّة طريقة لكسب النقود غاية فى الوضاعة بالنسبة له. سويتونيوس، الذي اقتبسنا منه سلفًا عدة مرَّات، عنده ما يقوله لنا فى سيرته الذاتية عن قيصر الذي مجّده مومسن فيما بعد:

"لم يظهر إيثارًا سواء كقائد أو كحاكم للدولة، لأنه كما نعلم من عدة مصادر فقد تلقّى نقودًا من حلفائنا حين كان نائب قنصل PROCONSUL فى أسبانيا، تسوَّل منهم حتى يدفع ديونه، ونهب عدة مدن فى لويستانيا، متظاهرًا بأنها كانت معادية، بالرغم من انها امتثلت لأوامره وفتحت أبوابها عند وصوله. سرق المعابد والحرم المقدسة، المليئة بثراء بالهبات فى بلاد الغال، لقد دمَّر مدنًا مرارًا وتكرارًا بسبب غنائمها أكثر مما بسبب انتهاكاتها. كان لديه من ثمَّ كثير من الذهب الذي جعله يعرض ويبيع الرطل منه مقابل ثلاثة آلاف سيسترسس (150 جنيه إسترليني) فى إيطاليا وفى الولايات [2]. سرق فى فترة قنصليته الأولى ثلاثة آلاف رطل من الذهب من الكابيتول، مستبدلاً إيَّاها بوزن مساوٍ من النحاس المطلي. لقد باع تحالفات وممالك من أجل النقود؛ وهكذا فقد أخذ من بطلميوس (ملك مصر) لنفسه فقط ولبومبي ستة آلاف تالنت (7500000جنيه إسترلينى) ". تحمَّل فيما بعد أبهظ مدفوعات الحرب الأهلية، الانتصارات والمهرجانات بواسطة أشد الابتزازات شينًا وبسرقات المعابد". (يوليوس قيصر، الفصل 54).

---

15 تاريخ روما، نيويورك، 1895، المجلد الرابع، ص ص 275، 276.

16 كانت قيمة رطل الذهب عادة اربعة آلاف سيسترسس. هبط به نهب قيصر لبلاد الغال لربع قيمته كاملة فى إيطاليا.

الحرب ضد الغال، التي كانت حتى حينئذ حرة من الاضطهاد الروماني ومن ثمَّ لم تخضع للنهب، تولاَّها بصفة رئيسة قيصر من أجل المكاسب. مكّنته الغنيمة الثريَّة التي حصل عليها من هذا البلد أنِ يقف على قدميه وأن يتخاصم مع رفيقه بومبي، الذي كان قد شاركه حتى آنذاك شئون الحكومة. وقع الشريك الثالث، كراسوس فى آسيا فى حملة لصوصية ضد "البارثيين، التي "أمل أن يحصل فيها ليس فقط على كثير من الشهرة بل أيضًا على كثير من النقود"، كما يقول لنا أبيان [1] - بنفس الطريقة التي طبَّقها قيصر بنجاح شديد فى بلاد الغال.

بعد موت كراسوس كان بومبي فقط مازال يقف فى طريق قيصر، كان بومبي محاطًا ببقايا الأرستقراطية التي كانت مازالت نشطة سياسيًا، وتخلَّص يوليوس العظيم منهم فى سلسلة من الحملات التي لم تكن أيضًا غير مربحة فى غنيمتها.

"لقد حكى أنه عرض في موكب انتصاره (فى نهاية الحرب الأهلية) ستون الف تالنت من الفضة وكذلك 2822 تاجًا ذهبيًا تزن 2414 رطلاً. استخدم فى أعقاب انتصاره مباشرة هذه الكنوز لتلبية مطالب جيشه معطيًا كل جندي خمسة آلاف دراخمة اتيكية (أكثر من 1000 جنيه إسترليني) وضعف قدرها لكل ضابط غير مقلَّد، وللضباط الأعلى ضعف قدر الضباط غير المقلَّدين، وهكذا تجاوز لحد بعيد وعوده الأصلية" [2]. لقد حكينا سلفًا، نقلاً عن سويتونيوس، الهبات التي أعطاها قيصر حينئذ لبروليتاريِّي روما.

منذ هذا الوقت فصاعدًا لم تُجادل علنًا سلطة قيصر الفردية، وكان الجمهوريون غير قادرين على إبداء احتجاجهم سوى بالاغتيال. سدَّد خلفاء قيصر، أنطوني وأغسطس لهم الضربة القاضية.

وهكذا أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكًا لفرد واحد، القيصر أو الإمبراطور. وتوقَّفت الحياة السياسية. لقد كانت إدارة هذه الأرض شأنًا خاصًا لمالكها، ومثل كل الممتلكات الأخرى، مرارًا ما كان يُختلف عليها بالطبع؛ هاجم قطَّاع الطرق، بمعنى آخر القادة الناجحون المالك الفعلي، الذي كان يُذبح فى حالات عديدة من قِبل حرَّاسه الخاصين، حتى يباع العرش الخالي لمن يدفع أكثر. غير أن هذا كان تعاملاً

---

17 **تاريخ الحروب الأهلية**، الكتاب الثاني، الفصل الثالث. لم يكن البارثيون مذنبين بأقل عداوة. على ذلك كانت تلك الحرب معهم فى الواقع مجرد حملة لصوصية.

18 أبيان، **تاريخ الحروب الأهلية**، الكتاب الثاني، الفصل الخامس عشر.

ماليًا، ليس أسوأ من بعض مثل هذه التعاملات فى نفس الفترة، وليس عملاً سياسيًا. توقّفت الحياة السياسية تمامًا، وسرعان ما نجد، فى البداية ضمن الطبقات الأدنى، وفيما بعد أيضًا فى الطبقات العليا، ليس فقط لامبالاة بالدولة، وإنما حتى كراهية للدولة وأصحاب المقامات الرفيعة، لقضاتها، وجباة ضرائبها، وجنودها، وللأباطرة أنفسهم، الذين لم يعودوا قادرين بالفعل على حماية أحد، الذين أصبحوا سوطًا حتى بالنسبة للطبقات المالكة، وحتى يهربوا منها بحث الأخيرون عن ملاذ بين البرابرة.

كانت هناك مواضع قليلة قد تبقّت فى الإمبراطورية الرومانية احتفظت ببقايا من الحياة السياسية بعد انتصارات قيصر، وسرعان ما أزيلت هذه البقايا أيضًا من قِبل أخلاف قيصر. بقيت حياة سياسية نشطة لفترة أطول فى أورشليم، المدينة الأكبر فى فلسطين. كانت أكثر الجهود جديَّة مطلوبة لتطويق هذا المعقل الأخير للحرية السياسية فى الإمبراطورية الرومانية. بعد حصار طويل وعنيد سويت مدينة أورشليم بالأرض فى عام 70 ب.م وأصبح الشعب اليهودي بلا مأوى.

الفصل الثالث
التيارات الفكرية
فى الفترة الإمبراطورية الرومانية

أ - إضعاف الروابط الاجتماعية

لقد رأينا أن العصر الذي نشأت فيه المسيحية كان عصر تفسُّخ كامل للأشكال التقليدية للإنتاج والدولة. وكانت الأشكال التقليدية للفكر تبعًا لذلك تحتضر بهذا القدر أو ذاك. كان هناك بحث عام وتلمُّس لأنماط جديدة من الفكر. شعر الفرد بأنه كان متوحدًا، لأن كامل الخلفية الاجتماعية التي امتلكها الفرد سابقًا فى جماعته أو عشيرته، والنظرات الأخلاقية التي تواصلت كانت تتحلّل الآن. كانت الفردية من ثمَّ واحدة من الملامح الأشد بروزًا لنمط الفكر الجديد. وبالطبع قد لا تتضمن الفردية أبدًا انعزالاً كاملاً للفرد عن ارتباطاته الاجتماعية ؛ سوف يكون هذا من المستحيل تمامًا. لا يمكن للفرد البشري أن يوجد إلا فى المجتمع وخلال المجتمع. ولكن الفردية يمكن على الأقل أن تذهب بعيدًا إلى الحد الذي تؤدي فيه بالرابطة الاجتماعية التي نما فى ظلها الفرد، والتي تبدو من ثمَّ طبيعية وواضحة بذاتها بالنسبة إليه، إلى أن تفقد قوتها، مواجهة الفرد هكذا بمهمة أن يتخذ طريقه الآن خارج العلاقات الاجتماعية السابقة. يستطيع الفرد أن يحقّق هذا فقط بواسطة الاتحاد مع أفراد آخرين ذوي مصالح ومتطلبات متشابهة، مكوِّنين منظمة اجتماعية جديدة. سوف تتحدَّد طبيعة هذه التنظيمات بالطبع بالظروف القائمة وليس بواسطة نزوة الفرد المعني. ولكن هذه المؤسسات لا تقارب الفرد فى صيغة منظمات تقليدية جاهزة الصنع، ولكنها يجب أن تُخلق بواسطته بالارتباط مع الآخرين ذوي المطامح المماثلة، الذي ربما يترافق مع أخطاء عديدة واختلافات عظيمة ممكنة فى الرأي، حتى تنبثق أخيرًا منظمات جديدة من صراع الآراء والتجارب، والمنظمات الجديدة، المتوافقة مع الشروط الجديدة، سوف تستمر وتقدِّم أمنًا ثابتًا للأجيال التالية كما فعلت المنظمات الأسبق التي تلتها. ربما يظهر فى مثل هذه الفترات الانتقالية أن المجتمع لا يشرط الفرد، وإنما الفرد يشرط المجتمع، وأن الأشكال الاجتماعية، مشاكلها وطموحاتها، معتمدة كلية على إرادته.

مثل هذه الفردية، فرد باحث ومتلمّس لأنماط جديدة من الفكر ومنظمات اجتماعية جديدة، هي ميزة، على سبيل المثال، لفترة الليبرالية التي تلت انحلال المنظمات الإقطاعية بدون أن تستبدلها مباشرة بمنظمات اجتماعية اخرى جديدة، حتى تطوّرت اخيرًا المنظمات الجديدة للعمال واصحاب الأعمال اكثر فأكثر إلى أن تكون العوامل المهيمنة فى المجتمع الراسمالي.

القرون الأولى من العصر الإمبراطوري الروماني شديدة الشبه بالقرن التاسع عشر فى هذا التحلّل لكامل المنظمات الاجتماعية وخلق (أخرى) جديدة. ولكن تشبه هذه الفترات أيضًا كل منها الأخرى فى حقيقة أن تفسُّخ العلاقات الاجتماعية القديمة انطلق فى كلا الفترتين بأشد سرعةٍ وبأكثر ما يمكن من التجسد فى المدن الكبرى، حيث إن مجمل الحياة الاجتماعية قد تحدَّد تدريجيًا اكثر فأكثر بواسطة هذه المدن.

قدَّمت للفلاح فى فترة قوته واكتفائه الذاتي فرصة ضئيلة للتفكير من خلال الحياة الاجتماعية لهذه الأزمنة، لأن الحياة كانت ثابتة تحديدًا بالنسبة له بواسطة العرف والعادة. ولكنه كان مضطرًا لأن يولي انتباهًا عظيمًا للطبيعة التي كان فى حرب دائمة معها، التي قدَّمت له يوميًا مفاجأة جديدة، التي كان يعتمد عليها بشكل كامل، والذي كان عليه أن يتغلّب عليها حتى يعيش. كان السؤال عن السبب الخاص بالظواهر الطبيعية المختلفة من ثمَّ قد فرض نفسه عليه. لقد سعى أولاً لأن يجيب عليه بسذاجة شديدة بواسطة شخصنة قوى طبيعية مختلفة، بافتراض وجود آلهة متعددة فعَّالة فى الطبيعة، ولكن بهذه الطريقة فى وضع السؤال فإن لدينا بالفعل بدايات العلوم الطبيعية، المؤسَّسة على نفس السؤال، سؤال سبب، أسباب كل الأشياء. بمجرد أن بدأ الإنسان فى فهم أن العلاقة بين السبب والنتيجة فى ظواهر الطبيعة هي علاقة منتظمة وضرورية، وأنها ليست معتمدة على نزوة آلهة أفراد، بات الطريق ممهَّدًا لمعرفة حقيقية عن العلوم الطبيعية. لم يكن لهذا الإدراك أن يتحقق بالطبع بواسطة الفلاحين الذين كانوا معتمدين بشكل مطلق على الطبيعة. لقد استسلم الفلاح بدون مقاومة للقوى الطبيعية، وحيث إنه غير قادر على السيطرة عليها من خلال المعرفة، فقد مال إلى استعطافها بواسطة الصلوات والأضاحي. إن دراسة علمية للطبيعة ممكنة فقط فى المدن، حيث إن الإنسان غير مجبول على الشعور باعتماده على الطبيعة بهذا الحد من المباشرة والقوة، انتهاءً إلى أنه ربما يبدأ فى العمل كملاحظ مستقل عن الطبيعة. نشأت فى المدينة وحدها طبقة لديها وقت فراغ كاف

للملاحظة، وليست خاضعة لدافع أن تستعمل وقت فراغها فى المتع الجسدية فقط، مثل الملاّك العقاريين الكبار فى الريف، حيث القوة البدنية والقدرة على التحمل عنصر هام فى الإنتاج، بما يترتب على ذلك من أن وقت الفراغ والوفرة يخلق تسليات من أشد الأنواع المادية فظاظة فقط، مثل مطاردات الصيد والمآدب.

تبدأ الفلسفة الطبيعية فى المدن، ولكن نمت تدريجيًا مدن عديدة لحد كبير حتى أن سكانها بدأوا فى الانقطاع عن أيَّة علاقة مع الطبيعة، وهكذا فقدوا كل اهتمام بالموضوع. كان مجرى الأحداث يولي تدريجيًا لهذه المدن القيادة أكثر فأكثر فى الحياة العقلية والاقتصادية لأقاليم كبرى. بالمثل كان نفس مجرى التطور هذا يُضعف كل الروابط الاجتماعية التي كانت حتى الآن قد ربطت الفرد بالمنظمات التقليدية وأشكال الفكر. ولكن كانت نفس العملية تشحذ التطاحنات الطبقية، مطلقة صراعًا طبقيًا أشد وحشية بما لا يقاس، اتخذ أحيانًا حتى شكل الإطاحة بالعلاقات القائمة. لم تكن الطبيعة، لقد كان الآن المجتمع الذي كان يمد الإنسان يوميًا بمفاجآت جديدة فى المدن الكبرى، مواجهًا إيَّاه يوميًا بمشاكل جديدة، لم يسمع عنها، تضطره يوميًا لأن يجيب على السؤال التالي: "ماذا نفعل بعد ذلك"؟

لم يكن السؤال بالنسبة للسبب فى الطبيعة، ولكن عمَّاذا ينبغي عمله فى المجتمع، ليس معرفة العلاقات الطبيعية الضرورية، ولكن الاختيار الحر الواضح لأهداف اجتماعية جديدة: هذا ما استولى على أفكار الإنسان بصفة رئيسة. مكان الفلسفة الطبيعية، لدينا الآن الأخلاق، اتخذت الأخيرة شكل البحث عن سعادة الفرد. كان هذا هو الحال بالفعل فى العالم الهيلينى بعد الحروب الفارسية. لقد رأينا سلفًا أن العالم الروماني كان يستعير فقط من الإغريق فى الفن والعلوم. لم يحوزوا ملكية أتت كنوزها العقلية (ولا المادية) بواسطة العمل، وإنما بواسطة النهب. لقد أصبح الرومان ملمين بالفلسفة الإغريقية حينما كانت الأخيرة معنيَّة أكثر بالفعل بالاهتمامات الأخلاقية من الاهتمام بدراسة الطبيعة. لم يولِ الفكر الروماني أبدًا من ثمَّ اهتمامًا كثيرًا للفلسفة الطبيعية ؛ حيث شغلت الفلسفة الرومانية نفسها منذ بداياتها الأولى بالأخلاق.

اتجاهان فلسفيان كانا سائدان بصفة خاصة فى القرون الباكرة من العصر الإمبراطورى، وهما (اتجاها) أبيقور والرواقية.

لقد دعا أبيقور الفلسفة نشاطًا يؤدي لحياة سعيدة بواسطة المفاهيم والبراهين. لقد ظن أنه يستطيع أن يحقق السعادة من خلال ملاحقة اللذة، ولكن من خلال ملاحقة اللذات العقلية الدائمة وحدها، وليس من خلال الرغبة فى المتع الحسية العرضية المغالى فيها، التي تؤدي لخسارة الصحة والثروة، ومن ثمَّ تؤدي للتعاسة.

لقد ناسبت هذه الفلسفة تمامًا استعمالات طبقة مستغلة، لم يكن لديها توظيف آخر تستثمر فيه ثروتها غير أن تستهلكها ؛ كان ما احتاجته تنظيم عقلي لحياة اللّذة. ولكن قدَّم هذا المذهب إشباعًا ضئيلاً لذلك العدد المتزايد دائمًا من الأشخاص الذين عانوا انهيارًا بدنيًا، وعقليًا أو ماليًا، للفقير والبائس، ولم يمنح عزاءًا للمتخمين، أي لهؤلاء الذين غثُّوا بالفعل من المتعة. ولم يتمكن من أن يمنح السرور لهؤلاء الذين كان مازال لديهم بعض الاهتمام بالأشكال التقليدية للحياة المشاعية، والذين كانوا لا يزالون يلاحقون أهدافًا تتجاوز حاجاتهم الشخصية الخاصة، لهؤلاء الوطنيين الذين كانوا يشهدون انحلال الدولة والمجتمع، مملوءين بحزن عاجز، ولكن غير قادرين على إعاقة العملية الجارية. بدت ملذَّات هذا العالم بالنسبة لكل هذه المجموعات تافهة وضحلة. لقد توجَّهوا نحو المذهب الرواقي الذي يمجِّد الفضيلة، وليس اللّذة باعتبارها الخير الأعلى، وباعتبارها منتهى السعادة. أعلن الرواقيون أن مجرد الطيبات الخارجية، مثل الصحة، والغنى، إلخ، أمورًا عديمة الأهمية مثلها فى ذلك مثل الشرور الخارجية.

وقد أدَّى هذا فى النهاية بأشخاص عديدين إلى أن يبتعدوا تمامًا عن هذا العالم، وأن يحتقروا الحياة، وحتى أن يرغبوا فى الموت. أصبح الانتحار عادة فى روما الإمبراطورية، وأصبح لبعض الوقت هو (الموضة) تمامًا.

ولكن لوحظ أنه تطوَّر بشكل متزامن مع الرغبة فى الموت أيضًا فى المجتمع الرومانى رعب حقيقى من الموت. شعر المواطن بنفسه في أي من جماعات العصور القديمة الكلاسيكية بأنه جزء من كل كبير سوف يبقى بعد موته، وقد كان خالدًا بالقياس إليه نفسه. سوف يستمر فى الحياة فى جماعته، وسوف يحمل آثار حياته، لم يكن في حاجة لخلود آخر. وفى الواقع فإننا لا نجد بين الأمم القديمة، التي لم يكن خلفها سوى فترة قصيرة من التطور الثقافى، أيَّة أفكار على الإطلاق عن حياة ما بعد الموت، أو أن فكرتها عن أنها حياة ظلال، هي فكرة أنتجتها الحاجة لتفسير ظهور الموتى فى الأحلام: حياة الظلال هذه كانت وجودًا جديرًا بالرثاء لم تراود أي شخص الرغبة فيه على الإطلاق. نحن نعرف مرثاة أخيل:

"أفضل، أن أفلح حقلي كعامل مياومة

لرجل محتاج، ليس لديه أرض أو ممتلكات
من أن أحكم بكل جموع الموتى المتلاشين!"
(الأوديسة، 11، 984 - 194)

نكرِّر، إن افتراض وجود ظلالي ما بعد الموت، فرضيه ساذجة استلزمها تفسير بعض ظواهر الأحلام، وليست نتيجة حاجة حقيقية للروح.

ولكن تغيرت الأشياء حين كانت الجماعة فى طور الهبوط وكان الفرد ينفصل عنها. لم يعد يتملَّك الفرد الشعور بأن نشاطه سوف يبقى فى الدولة، لأن موقفه تجاه الدولة كان (موقف) اللامبالاة بل وحتى العداء، ومع ذلك كانت فكرة أنه سوف يبيد تمامًا لا تُحتمل بالنسبة له. نشأ هناك خوف من الموت لم يكن مثله معروفًا حتى الآن فى العصور القديمة. ازدهر الجبن، وأصبح الموت صورة الرعب، بينما كان قد اعتبر سابقًا قرين النوم.

بدأت تُستشعر الحاجة أكثر فأكثر لمذهب يبقى خلود الفرد، ليس كظل متحرِّر من الجسد، ولكن كروح فرحة. سرعان ما لم تعد النعمة يبحث عنها فى المتع الأرضية ولا حتى فى الفضيلة الأرضية، وإنما فى تحقيق حياة أخروية أفضل، مثَّلت هذه الحياة بالنسبة لها استعدادًا فحسب، وجد هذا المفهوم دعمًا قويًا فى مذهب أفلاطون، وهذا الاتجاه هو ما اتخذته أيضًا المدرسة الرواقية.

افترض أفلاطون بالفعل وجود حياة فى المستقبل، تحرَّرت فيها، الأرواح من أجسادها، وسوف تواصل الحياة وسوف تكافئ وتعاقب على أعمالها فى الأرض. يخبرنا أفلاطون فى الفصل الثالث عشر من الكتاب العاشر من جمهوريته، عن البامفيلي الذي سقط فى الحرب، والذي، كان على وشك أن يُحرق فى اليوم الثاني عشر من موته، وقد عاد إلى الحياة فجأة مرة أخرى وأفاد بأن روحه بعد أن فارقت جسده، عاينت أماكن رائعة في شقوق عظيمة تمتد داخل السماء فوق، وتحت داخل أحشاء الأرض جلس القضاة فى ذلك المكان، ليحكموا على الأرواح عند وصولها ويقودوا إلى اليمين هؤلاء الذين وجدوا صالحين إلى الجنة، حيث ساد جمال لانهائى، بينما اقتيد الطالحون إلى الشمال، أسفل شقوق الأرض إلى هوَّة خفيَّة، حيث تعيَّن عليهم أن يكفِّروا عشرة أضعاف عن خطاياهم. هؤلاء الذين كانوا شرِّيرين لا سبيل إلى صلاحهم كان يمسكهم رجال غلاظ تجلّوا فى صورة النار، الذين غلُّوهم وعذَّبوهم. ولكن بقية هؤلاء الذين وضعوا فى الهوَّة الخفيَّة وكذلك هؤلاء الذين يحيون فى السماء، تيسَّر لهم أن

يحيوا حياة جديدة بعد انصرام الف عام. وأكّد البامفيلي الذي رأى كل هذا انه قد وُجِّه ليخبر عنها ومن ثمَّ فقد اعيد للحياة بمعجزة.

من ذا الذي لا يتذكر على الفور الجنة والجحيم بالمعنى المسيحي، والخراف عن اليمين والماعز على اليسار، والنار الأبدية المعدَّة فى الجحيم (متَّى، الإصحاح الخامس والعشرون، 33، 41) والموتى الذين سوف يبعثون مرة أخرى "حتى تنصرم الألف عام" (رؤيا "القديس يوحنا، 20، 5) إلى آخره؟ ومع ذلك فقد عاش أفلاطون فى القرن الرابع قبل المسيح. وليس أقل مسيحية الانطباع الذي ولّدته هذه الكلمات:

"الجسد عبء وعقوبة للروح ؛ إنه يقهر الروح ويبقيها أسيرة".

ليس مسيحيًا من كتب هذه الكلمات، ولكن مدرس ومعلم نيرون، مضطهد المسيحيين الفيلسوف الرواقي سينيكيا.

مشابه للغاية مقطع آخر:

"تختفي الروح بهذا الغشاء اللحمّي، متقنّعة، منفصلة عن ذاتها والحقيقة، وترمى فى الأضاليل، إن صراع الروح بكامله هو مع اللحم الذي يقهرها. تجاهد الروح نازعة إلى هناك حيث تطلق، هناك يلازمها السلام الأبدي، حيث تحفظ ماهو نقي وصافٍ بعد المظاهر المشوَّشة والمعقدة لهذا العالم ".

نجد فى مقطع آخر لسينيكا أيضًا عددًا مذهلاً من الصياغات اللغوية لجمل تتردد أيضًا فى "العهد الجديد وهكذا يقول سينيكا فى إحدى المناسبات: "تلبَّسوا روح رجل عظيم". يقارن برونوباور بصواب هذا التعبير بذلك الذي تتضمنه رسالة بولس إلى الرومانيين. "بل إلبسوا الرب يسوع المسيح" 14/13 الرسالة إلى الرومانيين. وفى الرسالة إلى الغلاطيين: "لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح"(27/3).

قادت هذه المصادفات بعض الأشخاص إلى الاستنتاج بأن سينيكا كان يستخدم مصادر مسيحية، وحتى أن سينيكا كان مسيحيًا، والأمر الأخير بمثابة نتاج للخيال المسيحي. فى الواقع، كتب سينيكا قبل أن تؤلَّف الأجزاء المختلفة من العهد الجديد، فإذا كانت هناك أية استعارة على الاطلاق، من ثم، فربما نفترض بالأحرى أن المسيحيين كانوا يحتذون الكتابات المنتشرة على نطاق واسع لفيلسوف عصري فى هذا الزمان. وكذلك من المعقول تمامًا أن نفترض انهم كانوا يستخدمون صياغات لغوية لجمل كانت رائجة فى هذا الوقت، باستقلال كل منهم عن الآخر.

يشير بفليدرر خاصة فيما "يتعلق بتعبير لبس المسيح" إلى أنه مستعار من عبادة ميثرا MITHRA الفارسية التي كانت مفضّلة للغاية فى روما الإمبراطورية. وهو يخبرنا فيما يتعلق بتأثير هذه العبادة على المفاهيم المسيحية من بين أشياء أخرى مايلي:

"لقد تضمَّنت قرابين ميثرا المقدسة أيضًا وجبة مقدسة، خدم فيها الخبز المقدس وكأسًا من الماء أو حتى النبيذ كرموز صوفية لتوزيع الحياة الأبدية على المؤمنين بميثرا. ظهر الأخيرون فى مثل هذه الاحتفالات مرتدين اقنعة حيوانات مشيرين بهذه التمثلات لصفات إلههم ميثرا، لقد "تلبَّس" المحتفلون إلههم، الذي يعنى أنهم دخلوا فى جماعة حياة معه. هذا أيضًا، مشابه للغاية لتعاليم بولس عن عشاء الرب باعتبارها "مشاركة": فى دم وجسد المسيح (كورنثوس اول، 6/10) إن من عُمِّد فقد "تلبَّس" (الغلاطيون 27/3)" [1].

ليس سينيكا الفيلسوف الوحيد فى زمانه الذي ابتكر أو استخدم صياغات لغوية لجمل تبدو لنا مسيحية.

خاصة الأفكار التي نعالجها فى هذه اللحظة، أي التي تتعلق بخلود الروح والحياة الأخرى، كانت تجد اتباعًا أكثر فأكثر فى الوقت الذي نشأت فيه المسيحية. وهكذا فإن فيلون اليهودي السكندري، الذي عاش مبكرًا فى العصر المسيحي، ينهي كتابه الأول قصص الشريعة الرمزية بجملة: "قال هيراقليطس أيضًا، نحن نحيا موتهم (الآلهة) ومتنا حياتهم، لأننا حين نحيا، ماتت الروح ووضعت فى صندوق الجسد كما فى متراس، بينما تحيا الروح حياتها الخاصة بعد أن متنا، متحرِّرة من الشر وجثَّة الحياة الت غُلَّت إليها".

بدأ يعتبر الاستعداد للحياة الأخرى أشد قيمة أكثر فأكثر من الصراع من أجل طيبات هذا العالم. أخذت مملكة الله مكان غنى هذا العالم: ولكن كيف نجد هذه المملكة؟ كان المواطن قد امتلك سابقًا ثلاث موجهات متميزة اعتمد عليها فى سلوكه، اتخذت شكل التقاليد، والإرادة الشعبية، واحتياجات الجماعة. أصبحت هذه الآن غائبة. لقد تحلَّل التقليد إلى ظل خاوٍ، لم يعد لدى الناس اي إرادة موحَّدة ؛ أصبح المواطن الآن لامباليًا باحتياجات الجماعة. إذ كان الفرد معنيًا فقط بنفسه، فقد

---

1 بفليدرر، اصول مسيحية، نيويورك، ب. وهيوبش، 1906، ص 158.

كان الفرد عاجزًا أمام سيل الأفكار الجديدة والعلاقات الذي كان يغمر المجتمع، ويبحث عن مرساة ثابتة. عن مذاهب ومعلّمين سوف يعلمونه الحقيقة وفلسفة صائبة عن الحياة دالين إيَّاه على الطريق المستقيم إلى مملكة الله.

كما فى كل الحالات التي تنشأ فيها حاجة جديدة، كان هناك أشخاص عديدون ينهضون لتلبية هذا المطلب. بدأ التبشير بالأخلاق الفردية، التي يمكن بواسطتها للفرد، دون أن يغيِّر المجتمع أن يرفع نفسه خارج وفوق المجتمع ويصبح مواطنًا جديرًا بعالم أفضل.

فى أي نشاط آخر يمكن للمواهب الخطابية والفلسفية أن تنخرط؟ توقف كل النشاط السياسي وقلَّ من ثمَّ الاهتمام بدراسة أسباب الأشياء، فى العمل العلمي.

ماذا تُرك لطموح الخطباء والفلاسفة، إضافة لإدارة إجراءات التقاضي لحيازة الملكية أو التبشير بمذهب احتقار الملكية، صائرين من ثمَّ إما قضاة أو مبشِّرين؟ كلا هذين الحقلين على ذلك، باتا مكتظين بكثافة شديدة فى الفترة الإمبراطورية، وكان الرومان فى ذلك الوقت مفرطين فى خطبهم التي تتعلق بتفاهة طيبات هذا العالم، وكذلك فى المذكرات القانونية المبتكرة للدفاع عن هذه الطيبات. لقد اصبحت (الموضة) إلقاء خطب منوِّرة وابتداع قواعد سلوك وحكايات مهذَّبة. ليست الأناجيل أيضًا شيئًا أكثر أو أقل من تصنيف لمثل هذه المجموعات من قواعد السلوك والحكايات.

ربما لا نحكم بالطبع على هذا العصر ببلاغته ذات الصبغة الأخلاقية فحسب. ليس هناك شك في أن الأخلاقية الجديدة باحتقارها لهذا العالم أجابت على حاجات عقلية قوية معيَّنة، والتي كانت قد نتجت بدورها عن ذات الشروط الاجتماعية الواقعية. ولكن فى الواقع كان من المستحيل الهروب من العالم ؛ لقد أثبت العالم دائمًا أنه الأقوى وهنا نشأ تناقض بين النظرية الأخلاقية، والممارسة الأخلاقية، الأمر الحتمي فى أى مذهب أخلاقي بهذا الطابع.

سينيكا، الذي ذكرناه سلفًا عدة مرَّات، هو مثل كلاسيكي على هذا. حرَّر هذا الرواقي الفاخر نفسه من المشاعر الأخلاقية ضد الاشتغال بالسياسة، وعنَّف بروتوس الذي انتهك، كما قال، المبادئ الأساسية للمذهب الرواقي باشتغاله بهذا النشاط. ولكن سينيكا نفسه الذي يوبِّخ الجمهوري بروتوس بسبب الإسهام فى الصراعات السياسية كان محرِّضًا على كل تصرفات أجريبينا ونيرون الدموية ولعب دور القوَّاد للأخير، بغرض وحيد هو أن يحتفظ بمنصبه كوكيل. أرعد سينيكا هذا نفسه فى

كتاباته ضد الثروة، والبخل، وحب الملذّات، ولكن فى عام 58 ب.م كان مضطرًا لأن يسمع سويليوس يتهمه فى مجلس الشيوخ بأنه قد راكم ملايينه بتزوير الوصايا وبالاشتغال بالربا. استنادًا إلى ديوكاسيوس، فإن انتفاضة البريتون فى ظل نيرون قد حدثت جزئيًا بسبب حقيقة أن سينيكا قد "قدّم لهم قرضًا قيمته عشرة مليون ديناري DENARII (2200000جنيه إسترليني) بمعدل فائدة مرتفعة، "وفيما بعد حاول فجأة أن يقبض كل المبلغ بأكثر الطرق وحشية. مادح الفقر هذا خلّف وراءه ثروة تُقدَّر "بثلاثمائة مليون سيسترسيس (15000000جنيه إسترليني)، وهي واحدة من أعظم الثروات فى هذه الأزمنة. "

فى وجه هذا المثل الرائع عن الرياء الحقيقي، فإنه على الأغلب لبيان قاصر عن الحالة حين يتهكم الكاتب الساخر لوسيان، بعد ذلك بقرن فى مؤلفه **هرموتيموس HERMOTIMUS**، على فيلسوف رواقي ابتدعه يبشر باحتقار النقود والمتع، ويقدّم تأكيدًا بأن تعليمه يسفر عن اتزان نبيل عبر كل تقلبات الحياة، والذي يقاضي مع ذلك تلاميذه فى المحاكم إن لم يكونوا قادرين على أن يدفعوا له أجرة التعليم التي اتفق عليها، الذي يثمل فى المآدب ويصبح شديد الحمية فى الجدالات حتى أنه يلقي بكأس فضية كبيرة على رأس خصمه.

أصبح التبشير الأخلاقي هو الموضة فى العصر الإمبراطوري. ولكن لم يبحث الناس فقط عن التعاليم الأخلاقية التي يمكن أن تكون عونًا للنفوس الضعيفة التي لم تكن مستقلة، والتي فقدت خلفيتها مع أنشطتها العامة المشتركة، والتقاليد؛ وإنما استشعرت الحاجة أيضًا لعون شخص. نحن نقرأ بالفعل عند أبيقور: "يجب أن نبحث لأنفسنا عن رجل نبيل وأن نجعله دائمًا أمام عيوننا، نعيش وكأنه يراقبنا ونتصرف وكأنه شاهدنا". يقتبس سينيكا هذا المقطع ثم يواصل: "نحن نحتاج إلى وصي ومعلم. سوف يختفي عدد كبير من الخطايا إذا وجد شاهد بجانب الإنسان الخاطئ. يجب أن يكون للروح أحد توقّرة باحترام يطهّر أيضًا جوهرها الأعمق. إن مجرد فكرة هذا المساعد لها قوة مرشدة ومصوّبة. "إنه الوصي، النموذج، والقاعدة، التي بدونها لا يستطيع المرء أن يصحّح ما هو خاطئ".

وهكذا أصبح الناس معتادين على اختيار رجل عظيم متوفى باعتباره قديسهم الحامي. ولكن بعض الأشخاص ذهبوا بعيدًا إلى حد إخضاع سلوكهم لسيطرة أشخاص مازالوا أحياء، أي لمبشرين أخلاقيين الذين تظاهروا بأنهم أرفع شأنًا، بسبب أخلاقيتهم العظيمة بالنسبة لبقية البشر. أعلنت الرواقية سلفًا بأن الفيلسوف متحرّر

من الخطأ والعيوب. بجانب التظاهر بالتقوى والنفاق، بدأت الآن تتطور عجرفة مرائية لعلم الأخلاق - صفات لم تكن معروفة فى العصور القديمة الكلاسيكية، التي كانت حصاد فترة من الانحلال الاجتماعي، والتي أصبحت بالضرورة بارزة أكثر فأكثر، حيث استبدل علم الأخلاق بالعلم فى الفلسفة، بمعنى آخر، إن تقصي العالم قد حلَّ محله صياغة مطالب على الفرد.

نشأ الآن مبشّرون أخلاقيون لكل طبقة اجتماعية، مبشّرون ادَّعوا أنهم قادرون على أن يرفعوا الإنسان لدرجة من الكمال الأخلاقي الأعظم من خلال مثال شخصياتهم المهيبة.كان الفلاسفة من مدرسة الكلبيين المعلمين الرئيسيِّين من هذا النوع للبروليتاريين، أخلاف الشهير ديوجين، الذي بشَّر فى الطرقات، وعاش على التسوُّل، ووجد السعادة فى القذارة والاقتصاد في الإنفاق، التي جعلت من غير الضروري بالنسبة لهم أن يشتغلوا بأي عمل، الذي كرهوه واحتقروه باعتباره خطيئة فظيعة. يُمثل المسيح وحوارييه أحيانًا كمبشّري طرق متسوِّلين. ليس هناك مكان للعمل فى الأناجيل؛ ففى هذا تتفق جميعًا بالرغم من كل تناقضاتها.

ولكن لدى الأرستقراطيين أخلاقيتهم الشخصية الخاصة، الذي انتمى أغلبهم للمدرسة الرواقية.

"احتفظ أغسطس، على طريقة العظماء منذ زمن السيكوبيين، بفيلسوفه الخاص قربه فى شخص آريوس، وهو رواقي من الإسكندرية، وأصبحت ليقيا أيضًا من أتباعه حتى تنال عزاءًا منه بعد موت ابنها دروسوس. أخذ أغسطس آريوس معه فى حاشيته حين دخل الإسكندرية بعد معركة أكتيوم، وقدَّمه إلى مواطنيه فى خطبته (وعد فيها أغسطس السكندريين بالعفو عنهم لأنهم ساندوا أنطونيو) بوصفه أحد دوافع رأفته. خدم مرشدون روحيون مماثلون الاحتياجات الروحية للعظماء فى قصور وبيوت أخرى. لأنهم كانوا سابقًا معلمي نظرية جديدة ما، أصبحوا بالنسبة للرومانيين، بعد الحروب الأهلية، مرشدين روحيين عمليين، موجِّهين عقليين، معزِّين فى أحوال سوء الحظ، وكهنة اعتراف. سوف يرافقون ضحايا النزوة الإمبراطورية إلى حتفهم ويقدِّمون إليهم الخدمات الكهنوتية الأخيرة. كانوس يوليوس، الذي تلقَّى الحكم بإعدامه من الإمبراطور كاليجولا بتعبير من الامتنان، والذي مات فى هدوء ورباطة جأش، كان يرافقه فى رحلته الأخيرة "فيلسوفه". أدخل تراسيا صهره هلڤيديوس والكلبى ديمتريوس، والأخير عمليا كاهنه المنزلي إلى غرفته حيث قام

بقطع شرايينه، وفى عذاب موته البطيء احتفظ بعينيه مثبتتين عليه (برونوباور، CHRISTUS UND DIE CÄSAREN ص ص 22، 23).

وهكذا، نجد حتى قبل نشأة المسيحية، أب الاعتراف يدخل إلى المشهد، وبسبب قوة الظروف الجديدة، وليس بسبب تعاليم أي شخص فرد تنشأ قوة تاريخية جديدة فى اقطار اوروبا، حكم كهنوتى. مما لاريب فيه، كان هناك كهنة بين الإغريق والرومان لوقت طويل، ولكنهم كانوا ذوي شأن ضئيل للغاية فى الدولة. ليس حتى العصر الإمبراطوري إلى أن نبدأ فى أن نجد الأوضاع فى بلدان أوربا ناضجة للحكم الكهنوتى، الذي كان قد وجد قبلاً فى العصور القديمة الباكرة فى بلدان عديدة فى الشرق. إننا نجد الآن حتى فى الغرب الشروط الأوَّلية الضرورية لكهنوت، لـ فئة كهنوتية كحكام على البشر، التي بدأت بالفعل من خلال التظاهر بالتقوى وغطرسة عديد من أعضائها فى تطوير السمات المميزة للكهانة، التي، تسبَّبت فى كل العصور حتى اليوم، فى أن تكرهها العناصر النشيطة فى المجتمع التي ليست فى حاجة إلى وصاية.

لقد أعلن افلاطون قبلاً أن الدولة لن تحكم بشكل صحيح حتى يسيطر عليها الفلاسفة ولا يبقى لدى المواطنين الباقين أي شيء يقولونه. إن حلمه قد تحقق الآن بطريقه لم تكن بالطبع، لتروقه. ولكن هؤلاء المبشّرين الأخلاقيين وآباء الاعتراف لم يكونوا كافين بأيَّة حال للجيل الذي أضعف وعاش آنذاك. كانت الدولة تتحرك بشكل لا يقاوم نحو الدمار. وكان صوت طَرْقِ البرابرة على أبواب الإمبراطورية أعلى فأعلى، التي كان يتمزَّق لحمها غالبًا بسبب الخلافات الدموية لقادتها. تلاحق تزايُدِ فقر الجماهير، وتناقُصِ السكان. كان المجتمع الروماني قد حُمل به وجهًا لوجه مع نهايته، ولكن هذا الجيل كان أيضًا فاسدًا للغاية، ضعيفًا للغاية فى البدن والروح، غاية فى الجبن، غاية فى ضعف الشخصية، فى غاية التغاير تمامًا مع ذاته وبيئته ليكون بمقدوره أن يقوم بمحاولة فعَّالة ليحرِّر نفسه من هذه الأوضاع غير المحتملة. لقد فقد الإيمان بنفسه، والسند الوحيد الذي حفظه من اليأس الكامل كان أمل المساعدة من بعض القوى الأعلى، من مخلِّص ما.

لقد اعتبروا القياصرة أولاً هذا المخلِّص. كانت هناك فى أيام اغسطس نبوءة متداولة من الكتب السيبيلية، تعد بمخلِّص فى المستقبل القريب [1] اعتبر اغسطس

2 مريفال، الرومان فى ظل الإمبراطورية، 1862، المجلد السابع، 349.

كأمير للسلام قائد الإمبراطورية غير المنظمة بعد الحرب قائدها، نحو حقبة جديدة من الرخاء والازدهار، وبـ"السلام على الأرض للبشر ذوي النيَّة الطيبة ".

ولكن لم يأتِ القياصرة لا بالسلام الدائم ولا بالتقدم الاقتصادي أو الأخلاقي، بالرغم من كل الثقة التي وضعت فى قوتهم الإلهية، مع ذلك كانت هذه الثقة عظيمة بالفعل.

لقد وضعوا بالفعل فى مصاف الآلهة، قبل أن ينشأ مذهب تحوُّل الإله إلى إنسان، كانت فكرة تحوُّل الإنسان إلى إله قد قُبلت، بالرغم من الصعوبة الأكثر بوضوح لهذا المنحى الأخير. حيث قضى على كل الحياة السياسية، فإن سيد الدولة يرتفع بغاية الجلالة فوق كتلة السكان حتى أنه يجب بالفعل أن يبهرهم باعتباره الأسمى، مادام يبدو فقط وكأنه يوحِّد فى نفسه كل قوة وسلطة المجتمع ويوجهها وفق إرادته. من ناحية أخرى، كان الآلهة متصورين بطريقة غاية فى البشرية فى العصور القديمة. لم يكن الانتقال من إنسان أعلى إلى إله، من ثمَّ أمرًا غاية فى الصعوبة.

بدأ الأغارقة المتفسِّخين من آسيا ومصر قبل عدة قرون من عصرنا فى أن يعتبروا مستبديهم كآلهة أو من نسل الآلهة؛ لقد وقروا حتى فلاسفتهم باعتبارهم كذلك. كانت قد ظهرت فى حياة أفلاطون بالفعل الخرافة التي ذكرت فى خطبة الجنازة التي ألقاها ابن أخيه سبيسيوس، بأن أمه بيريكتوين قد حملت به من أبولو وليس من زوجها. حين أصبحت الممالك الهيلينية ولايات لروما، حوَّلوا عبادتهم الإلهية من ملوكهم وفلاسفتهم إلى حكامهم الرومان.

ولكن كان يوليوس قيصر أول رجل جرؤ أن يطلب من الرومان ما قدَّمه الإغريق الجبناء له: أن يعبد كإله. لقد تبجَّح بأصله الإلهي؛ ولم تكن جدته الأعلى شخصًا أقل من الإلهة ڤـينوس، كما أوضح فرجيل، شاعر قصر أغسطس ابن أخ قيصر، فيما بعد بالتفصيل فى ملحمته الطويلة الإنيادة.

حين عاد قيصر إلى روما من الحرب، كمنتصر ظافر، فقد اتخذ قرارًا فى روما "بإقامة عدد من المعابد له مثله كالإله، مشتملاً على واحد مكرّس له ولإلهة الرحمة، الذي مَثل فيه وهو يقبض على يد هذه الإلهة" [1] جرت بهذه الحيلة البارعة محاولة مناشدة رحمة المنتصر. بعد "موته" فإن "يوليوس الإلهى" كان قد أدخل شكليًا بقرار

---

3 ابيان، حروب روما الأهلية، الفصل الثاني، 16.

من الشعب ومجلس شيوخ روما إلى كوكبة الآلهة الرومانية. وقد تم هذا،كما يقول سويتونيوس، "ليس اصطناعًا فقط، استنادًا إلى قرار، وإنما بسبب القناعة الداخلية للشعب".

لأن المُذَنبَ لم يظهر خلال الألعاب التي أعدَّها خَلَفَه اغسطس للشعب الأول بعد يوليوس الذي أصبح إلهًا لسبعة أيام متتالية، إلى أن ظهر حوالي الساعة الحادية عشر (بين الساعة الخامسة والسادسة بعد الظهر)؟ فقد اعتقدوا أن هذه كانت روح قيصر التي صعدت نحو السماء. ومن ثمَّ فما زال يصوَّر ونجمه فوق راسه".(الفصل 89). الا يذكر هذا بالنجمة التي أبانت الوهية المسيح الطفل لحكماء الشرق؟

لقد اعتبر بديهيًا منذ زمن اغسطس أن لكل إمبراطور ان ينعم بالألوهية بعد مماته. وقد أعطى فى القسم الشرقي من الإمبراطورية الاسم الإغريقي SOTER، يعنى المخلّص.

ولكن هذه التطوبيات (المؤلّهة) لم تكن قاصرة على الأباطرة الراحلين، ولكنها منحت أيضًا لمعارفهم والأثيرين لديهم. وقع هادريان "فى حب شاب إغريقي وسيم، أنطينوس، الذي "اصبح بكل الطرق الأثير عند الإمبراطور"، وكما يعبِّر هيرتزيرج عن ذلك بلطف فى مؤلفه (GESCHICHTE DES RÖMISCHEN KAISERREICHS (ص 369) [1]. بعد ان غرق عشيقه فى النيل، وضعه هادريان على الفور، فى مصاف الآلهة، مكافأة على خدماته البارعة، وبنى مدينة فخمة لا تبعد عن موقع الحادث، أسماها أنطينوبوليس، وفى هذه المدينة معبد عظيم لقديسه الفريد. انتشرت عبادة هذا الشاب بسرعة عبر الإمبراطورية ؛ فى أثينا كانت تعد الألعاب المهرجانية والقرابين على شرفه. ولكن يروى سويتنيوس فيما يتعلق بأغسطس:" بالرغم من انه عرف ان المعابد كانت "تخصّص حتى لنواب القناصل PROCONSULL (الحكام) فهو لم يقبل بالرغم من ذلك هذا الشرف فى أيَّة ولاية "إذا لم يكن المعبد مخصَّصًا له ولروما معًا. ورفض دائمًا داخل روما على نحو مشدَّد هذا الشرف". (الفصل 52)

ولكن اغسطس كان متواضعًا مقارنة بغيره. الإمبراطور الثالث من السلالة الجوليانية، جايوس، الملقَّب كاليجولا (الحذاء الصغير) جعل نفسه يُعبد فى روما حينما كان حيًّا، ليس فقط كشبه إله، وإنما كإله كامل، وقد شعر بنفسه أنه

---

4 الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب (روما الإمبراطورية، فيلادلفيا، 1905) تستبعد بلباقة رهافة وقلّة احتشام هذه الإشارة (ص 149، هامش) - المترجم عن النص الإلماني.

كذلك. قال ذات مرة "حتى مثل هؤلاء، إن من ينبغى أن يرعى الخراف والخنازير، ليسوا "خرافًا ولا خنازيرًا ولكنهم ذوي طبيعة أسمى، هكذا أيضًا هؤلاء الذين وضعوا كحكام فوق البشر ليسوا بشرًا "كالآخرين، وإنما آلهة". وفى الحقيقة فإن الطبيعة الخروفية للبشر هي التي تنتج ألوهية حكامهم. تطورت هذه الصفة شبه الخروفية بشكل غاية فى القوة فى الفترة الإمبراطورية ومن ثمَّ كانت العبادة الإلهية للأباطرة والأثيرين لديهم تؤخذ بجدية مثلها فى ذلك مثلما يأخذ بعض الأشخاص اليوم هدية قطعة من شريط لثقوب أزرارهم، ناسبين تأثيرات عجائبية لمثل هذه الهدية. تضمَّنت هذه العبادة الإلهية بالطبع قدرًا لا بأس به من الخنوع؛ فى هذا الصدد لم يجرِ التفوق على العصر الإمبراطورى حتى هذا اليوم، وهذا يعنى شيئًا كبيرًا. ولكن بالاضافة للخنوع، لعبت السذاجة أيضًا دورًا كبيرًا.

ب - السذاجة

لقد كانت السذاجة أيضًا حصادًا للظروف الجديدة. اضطر الإنسان، منذ بداياته الأولى، إلى أن يلاحظ الطبيعة عن قرب، وأن يتفادى أن تخدعه أيًّا من ظواهرها وأن يرصد بوضوح عددًا من علاقات السبب والنتيجة. إن كل وجوده يعتمد على هذه القدرة؛ وحين لا ينجح، غالبًا مايؤدِّى هذا إلى دماره.

إن كامل سلوك الإنسان مؤسَّس على التجربة وهي أن أسبابًا معيَّنة محدَّدة تعقبها نتائج معيَّنة محدَّده، وأن الحجر الذي يلقيه إنسان سوف يقتل الطائر حين يرتطم به، وأن لحم هذا الطائر سوف يشبع جوعه، وأن قطعتان من الخشب تحكّان ببعضهما سوف تنتجان نارًا، وأن النار تعطى الدفء، بينما يُستهلك الخشب أيضًا.

سوف يحكم الإنسان على أحداث طبيعية أخرى على أساس سلوكه الخاص كما تحدَّد بمثل هذه التجارب، حيث إن هذه الأحداث غير شخصية بهذا القدر أو ذاك فهو يرى فيها نتائج أعمال شخصيات مفردة، منحت قوى ما فوق بشرية، الآلهة. الأخيرون ليسوا فى البداية صانعي معجزات، بل منتجين لمجرى الأحداث العادي الطبيعي، لهبوب الرياح، لاصطخاب البحر، القوى المدمِّرة للبرق، وأيضًا لأفكار البشر، الحكيمة وكذلك الغبية. ومن المعروف جيدًا أن الآلهة تجعل مَن سوف تدمِّرهم عميانًا. يستمر إحداث هذه النتائج فى استمرار الوظيفة الرئيسة للآلهة فى الديانة الطبيعية البدائية.

إن سحر هذه الديانة هو فى طبيعيتها، فى ملاحظتها الحادة للأشخاص والأشياء، التي تجعل حتى هذا اليوم القصائد الهوميرية، على سبيل المثال، أعمالاً للفن لم تبز.

هذه الملاحظة الحادة والتقصّي الدائم عن مبعث، عن أسباب الأشياء فى العالم الخارجي، أصبحت أكثر رهافة مع تطور المدن وتلك الفلسفة الطبيعية فى المدن، كما رأينا. أصبح الملاحظون الحضريين قادرين الآن على اكتشاف ظواهر غير شخصية فى الطبيعة، غاية فى البساطة حقاً، ولكن بمثل هذا الانتظام الصارم حتى باتت سهلة الإدراك كعلاقات ضرورية، مع تجاوز عالم النزوة المرتبط بمفهوم الآلهة الشخصية. لقد كانت حركة النجوم بصفة خاصة هي التي دعت لنشوء مفهوم القانون والضرورة فى الطبيعة. يبدأ العلم الطبيعي مع علم الفلك. طبقت هذه الأفكار آنئذ على بقية الطبيعة ؛ يبدأ فى كل مكان بحث عن العلاقات الضرورية للقانون. إن التكرار المنتظم لتجربة معيَّنة هو أساس هذا النشاط العقلي.

ولكن هذا الظرف يتغيَّر، حينما ينتكس، استجابة للأسباب التي أشير إليها سلفاً، الاهتمام بالبحث العلمي فى الطبيعة ويحل محله الاهتمام الأخلاقى. لم تعد الروح الإنسانية مشغولة بمثل تلك الحركات البسيطة كمجرَّات النجوم، على سبيل المثال، التي تقدِّم نقطة انطلاق سهلة، إنها معنية بشكل حصري بذاتها، بأكثر الظواهر تعقيداً، بأكثرها تغيُّراً، أكثرها استعصاء على الإمساك، ظاهرة تستعصي على الدراسة العلمية أطول من غيرها. أضف إلى ذلك، لم تعد الأخلاق تتضمَّن معرفة بما هو كائن وبما كان، بما هو حاضر فى التجربة، وعادة فى تجربة متكرِّرة بانتظام ؛ تنشغل الأخلاق نفسها بالخطط والالتزامات فى المستقبل، ومع ذلك فهى خارج التجربة كلية، متضمنة من ثمَّ مجالاً من الإرادة الحرة المطلقة التي تقع أمامنا. فى هذا المجال الرغبة والحلم لهما اللعب الأكثر حرية، ربما يمرح الخيال ذاته مطلق العنان ويقف فوق كل حواجز التجربة والنقد. يلاحظ "ليكى" بصواب فى مؤلَّفه تاريخ الروح العقلانية: "ان فلسفة أفلاطون، بواسطة تعظيمها لحد كبير مجال الروحي، فعلت الكثير لتعزيز العقيدة ؛ وإننا نجد، سواء قبل أو بعد العصر المسيحي، أنه حيثما كان نجم الفلسفة آخذاً فى الصعود رافقها ميل إلى السحر" [1].

---

5 ليكى، تاريخ نشوء وتأثير روح العقلانية فى أوروبا، نيويورك ولندن، 0191، المجلد الأول، ص 34 (المجلد الأول، ص 7 من طبعة الباحث عن الحقيقة، نيويورك، 0191).

بالمثل، تحرم الحياة فى المدن الكبيرة سكانها، العنصر العقلي المهيمن الآن بين كل السكان، من الاتصال المباشر بالطبيعة، تحرِّرهم من كل من ضرورة وإمكانية ملاحظة وفهم الطبيعة. بدأ تذبذب مفهوم ما هو طبيعي وما هو ممكن، يفقد السكان معيارهم لصالح لامعقولية المستحيل، غير الطبيعي، مافوق الطبيعي.

كلما زاد شعور الفرد بعجزه، كلما بحث بجبن أكثر عن دعم حازم من أحد الشخصيات ظاهرة التفوق عن المتوسط العادي، وكلما أصبح الوضع دافعا لليأس أكثر كلما كان هناك احتياج أكثر لمعجزة لإنقاذه، كلما كان الأكثر رجحانًا أنه سيعزو للشخص الذي ربط نفسه به، كمنقذ، كمخلِّص، القيام بالمعجزات. فى الواقع فإنه سوف يطلب هذه المعجزات كاختبار للبرهنة على أن مخلِّصه يملك بالفعل القدرة على إنقاذه. ربما يلعب تذكُّر الخرافات الإلهية من فترة أبكر دورًا أيضًا، فكثير منها جسَّد دوافع مستعارة من مثل هذه الخرافات فى الأساطير الجديدة. ولكن الأخيرة مختلفة تمامًا عن الأولى. لقد نسبت القوى مافوق الإنسانية للآلهة القديمة حتى تقدِّم تفسيرًا للأحداث الفعلية التي كانت قد لوحظت بدقة وصواب. نسبت الآن القوى مافوق الإنسانية إلى البشر، حتى تجعلهم قادرين على أن ينتجوا آثارًا لم يلاحظها أحد حتى الآن، والتي كانت مستحيلة كليًا. ربما تكون مثل هذه الظواهر العجيبة قد تطورت من قبل خيال شديد الفعالية من الخرافات القديمة عن الآلهة، حتى فى أشد الأزمنة قدمًا ؛ ولكن الخرافات القديمة ليست مؤسَّسة على مثل هذه الأحداث العجائبية. تتضمَّن المعجزة نقطة انطلاق الأشكال الجديدة للأسطورة.

واحدة من أكثر النقاط التي توافقت فيها الخرافات القديمة والتالية كانت ميلاد البطل من إله. أحب البشر فى الأزمنة الباكرة أن يرفعوا من فخامة أسلافهم، أن يمثِّلوا الإنسان الذي أخذ جنسهم أصله منه (ليظهروه فى منتهى الفخامة) باعتباره إنسانًا أعلى، نصف إله. وفقًا لنمط التفكير الذي كان رائجًا عندئذ، الذي بحث عن إله خلف كل الأشياء، كان يمكن بالطبع الحصول على القدرة الضرورية من إله. مادام هؤلاء الآلهة، بالرغم من كل صفاتهم مافوق الإنسانية، كانوا يُتَصورون بطريقة غاية فى الإنسانية، بعواطف غاية فى الإنسانية، فقد كان من الطبيعى أن يُفترض أن أم البطل السلفية قد أثارت عاطفة رقيقة فى إله، كانت ثمرته هذا البطل الشجاع.

وبالمثل، تتضمَّن الخرافات التالية أيضًا مخلِّصين للعالم من أمهات فانيات، ولكن من آباء إلهيين. وهكذا، يروى لنا سوتينيوس:

"قرأت فى كتاب أسكلبيادس المندسي فيما يتعلق بالآلهة، أن أتيا، أم أغسطس، قد ذهبت مرة فى منتصف الليل إلى قدَّاس ديني على شرف الإله أبولو، وقد غفت فى محفتها حينما كانت تنتظر النسوة الأخريات، فجأة لحقها ثعبان فى المضجع، ثم سرعان ما تركها بعد ذلك، حين استيقظت خالجها نفس الشعور الذي يراودها حين يباشرها زوجها ومن ثمَّ طهَّرت نفسها، وظهرت مباشرة بقعة على جسدها، على شكل ثعبان، كان متعذرًا إزالتها، ودعتها من ذلك الحين فصاعدًا الاّ تظهر فى الحمَّامات العامة. ولد أغسطس فى الشهر العاشر التالي، حيث اعتبر ابنًا لأبولو". (أوكتافيوس، الفصل XCIV)

بدت علاقة غرامية مع إله فى هذا الوقت للسيدات الرومانيات ليست ممكنة فحسب، وإنما أيضًا (أمرًا) متميزًا تمامًا. يروى يوسيفوس قصه جميلة فى هذا الصدد. عاشت فى روما سيدة اسمها باولينا فى زمن طيباريوس، وكان جمالها عظيمًا كطهارتها. وقع فى حبها على نحو قاتل فارس ثري: ديسيوس مندوس وقدَّم لها مائتي ألف دراخمة مقابل ليلة واحدة، ولكنها رفضت. ولكن أَمَة معتَّقة استطاعت مساعدته، فقد علمت أن باولينا الجميلة كانت عابدة متعصِّبة للإلهة إيزيس، واستنادًا على ذلك وضعت خطتها. لقد رشت كهنة هذه الإلهة بأن "دفعت لهم أربعين ألف دراخمة لتجعلهم يخبرون باولينا أن الإله أنوبيس قد رغب فيها. "كانت هذه "السيدة مسرورة بل وتباهت أمام صديقاتها بالشرف الذي منحه أنوبيس إيَّاها. أخبرت زوجها أيضًا بأن أنوبيس قد دعاها لأن تتعشَّى معه وتعاشره. وافق الزوج بسرور، عالمًا بفضيلة زوجته. وعلى ذلك، ذهبت إلى المعبد، وبعد أن تعشَّت معه، حان وقت النوم، أطفأ الكاهن كل الأنوار وأغلق الباب. مندوس، الذي كان قد اختفى قبلاً فى المعبد، لحق بها الآن ولم ينتظر دعوة. لقد كان له ما شاء معها طوال الليل، لأنها ظنَّت انه إله. بعد أن أشبع شهوته، غادر فى الصباح، قبل أن يدخل الكهنة المعبد، وعادت باولينا إلى زوجها، وأخبرته أن الإله أنوبيس كان معها وكذلك تباهت بذلك أمام صديقاتها".

ولكن الفارس النبيل ديسيوس مندوس ذهب بوقاحته إلى حد توبيخ محبوبته بعدها بعدة أيام، حين قابلها فى الطريق، لأنها سلَّمت له نفسها مقابل لاشيء، السيدة الورعة التي تحرَّرت الآن من الوهم كانت ساخطة بالطبع لأقصى حد، اتجهت مباشرة إلى طيباريوس ونجحت فى إقناعه بصلب كهنة إيزيس وتدمير معبدهم، واختفى مندوس [1].

6 الآثار اليهودية، 18، 3.

تعتبر هذه القصة القصيرة الأكثر تسلية بسبب حقيقة أنها تلي مباشرة المقطع الذي ذكرناه فى البداية، الذي أشيد فيه بحماس بمدائح المسيح العجائبي. لم يُخفق تجاور هذين المقطعين فى جذب انتباه المعلّقين الورعين منذ وقت مبكر؛ فقد رأوا رابطة بين المسيح ومغامرة السيدة باولينا، مستشعرين فيها قذفًا مقنعًا من اليهودى الخبيث يوسيفوس فى عذرية مريم وسذاجة خطيبها يوسف، قذفًا سيتوافق بصعوبة بالطبع مع الاعتراف بمعجزات المسيح التي حواها المقطع التالى مباشرة. ولكن حيث إن يوسيفوس لا يعرف بالفعل شيئًا عن هذه المعجزات، وحيث إن المقطع الذي يتعلق بها هو إدراج مسيحي متأخر، كما يعرف القارئ الآن، فإن هذا التعريض بالعذراء المقدّسة وخطيبها الخاضع بإذعان غير مقصود كليًا. إنه يبرهن فقط على غباء أحد المزيِّفين المسيحيين، الذي اختار تحديداً هذا الموضع باعتباره قرين الجزء الأكثر مناسبة لشهادته فيما يتعلق بابن الرب.

أن تكون ابن الرب كان جزءًا من شئون المخلّص سواء كان قيصر أو واعظًا متجولاً. ولكن لم يكن أيضًا أقل ضرورة للقيام بالمعجزات، التي كانت فى كلتا الحالتين قد اخترعت نفس الخطوط.

حتى تاسيت، الذي لم يكن ميَّالاً إلى المبالغة على الإطلاق، يروى (تواريخ، المجلّد الرابع، الفصل 81) فيما يتعلق بـ ف. سباسيان، أن الأخير قد صنع كثيرًا من المعجزات فى الإسكندرية، مبرهنًا على قصد السماء الطيب نحو الإمبراطور. وهكذا فقد بلّل عيني رجل أعمى باللعاب فجعله يرى. وبالمثل، فقد خطا على يد مفلوجة لآخر وهكذا شفاها.

تحوَّلت القدرة على القيام بمثل هذه المعجزات فيما بعد من الأباطرة الوثنيين إلى الملوك المسيحيين. امتلك ملوك فرنسا الهبة المتميزة بكونهم قادرين على شفاء داء الملك (SCROFULA) وتضخُّم الغدة الدرقية فى حفلة تتويجهم بلمسه فحسب. أنجزت هذه المعجزة كما ينبغي متأخرًا فى 1825، فى حفل تتويج شارل العاشر، آخر (سلالة) البوربون الذي يحتل العرش الفرنسي.

روي عن قدرة على الشفاء مماثلة قام بها يسوع بالطبع أكثر من مرة. يفترض الورع مريفال [1] أن معجزة ف. سباسيان قد أنجزت وفق النموذج المسيحي - وجهة نظر لا تبدو جديرة بالتصديق حين نأخذ فى الاعتبار كيف كانت المسيحية غير معروفة

---

7 الرومان في ظل الإمبراطورية.

ولا أهمية لها، فى زمن ڤـسباسيان. يعلن برونو باور من ناحية أخرى، فى "كتابه المسيح والقياصرة: "سوف أسعد اللاهوتيين المثقفين فى العصر الحاضر، بتأكيدى أن المؤلف التالي "للإنجيل الرابع، والتالي أيضًا، محرِّر الإنجيل الأولى الذي تضمنته طبعة القديس مرقس، استعارا استعمال اللعاب فى العلاجات العجائبية للمسيح من مؤلف تاسيت هذا ". (يوحنا، 9، 6 ؛ مرقس 7، 33 ؛ 8، 33) "

ولكن ليس من الضروري فى رأينا أن نفترض حتى الاستعارة. كل حقبة تعتقد فى المعجزات لها أيضًا أفكارها النوعية عن كيفية إنتاجها. افترضوا فى العصور الوسطى المتأخرة بصفة عامة أن ميثاقًا مع الشيطان كان ينبغي أن يوقع بدم دافئ؛ وربما يستخدم كاتبان هذه المعالجة بنفس الطريقة فى قصصهما، بدون أن يكون الواحد بالضرورة قد استعارها من الآخر، بالمثل، فى أيام ڤـسباسيان، وفيما بعد، ربما كان اللعاب قد اعتبر مادة ملائمة للاستعمال فى العلاجات العجائبية، انتهاءً إلى أنه كان طبيعيًا ليس فقط للراوي الرزين عن المخلِّص الدنيوي على عرش القياصرة أن ينسب الشفاء بهذه الطريقة للشخص حتى يمجد، وإنما أيضًا للرواي الأكثر شطحًا عن المخلِّص على عرش المملكة الألفية ؛ ولا يحتاج أي مؤلف لأن يستعير من الآخر. بالتأكيد، لم يخترع تاسيت هذا العلاج، ولكنه وجد الخرافة فى التداول العام.

لم يكن القياصرة فقط هم من قاموا بالمعجزات عندئذ، ولكن أيضًا كثرة عظيمة من معاصريهم.

كانت حكايات المعجزات شديدة الشيوع آنئذ حتى أنها كفَّت عن أن تلقي أي انتباه. لا يعرض حتى رواة الأناجيل معجزات وآيات يسوع باعتبارها تنتج الانطباع العميق الذي يجب، بموقفنا الحديث، أن نتوقع أن تنتجه. حتى بعد الإطعام العجائبى للخمسة آلاف، يبقى أتباع المسيح ميَّالين إلى الشك. أضف إلى ذلك، ليس فقط يسوع ولكن أيضًا الرسل والأتباع، قاموا بمعجزات كثيرة. كان الناس فى الواقع شديدى السذاجة، حتى أنه لم يخطر أبدًا للمسيحيين أن تراودهم الشكوك بالنسبة للمعجزات المتأتية عن أشخاص اعتبروهم محتالين. لقد هربوا من هذه الصعوبة بواسطة الحيلة البسيطة بعزو مثل هذه المعجزات لقوة الشيطان والأرواح الشريرة.

لقد نبتت المعجزات كالفطر، أثمرها كل مؤسِّس لطائفة دينية أو مدرسة فلسفية باعتبارها خطاب توصيته. لدينا، على سبيل المثال، نموذج الفيثاغورثيين الجدد، أبولونيوس من تيانا، وهو معاصر لنيرون.

بالطبع حتى مولده كان عجائبيًا. حين كانت أمه حبلى فإن الإله بروتيوس، الإله الحكيم غير المفهوم من أحد، ظهر لها، ولكنها سألته بلا خوف أي طفل ينبغي عليها أن تحمل. وقد أجابها: "أنا" [1]. ترعرع "أبولونيوس الفتى، أعجوبة الحكمة، مبشّرًا بحياة أخلاقية طاهرة، يوزّع ثروته على أصدقائه وأقاربه الفقراء، ويسافر حول العالم كفيلسوف متسوّل، ولكنه أكثر تأثيرًا بمعجزاته منه بتقتيره وأخلاقه. والمعجزات لها شبه يلفت النظر مع تلك الخاصة بالمسيح ؛ وهكذا فقد أورد لنا مثلاً من زمن إقامته فى روما:

"ماتت عذراء فى يوم زفافها، أو على الأقل فقد اعتبرت متوفاة. تبع العريس نعشها، نائحًا، وناحت روما معه، لأن الفتاة كانت من عائلة غاية الأرستقراطية. الآن حين قابل أبولونيوس الموكب قال: "ضعوا النعش، سوف أكفكف دموعكم على هذه الفتاة؛ حين سأل عن اسمها اعتقد الجمع أنه نوى أن يلقى واحدة من الخطب الجنائزية المعتادة، ولكنه لمس الفتاة الميتة، وتمتم ببضع كلمات غير مفهومة وأيقظها من غشيتها. ولكنها رفعت صوتها وعادت إلى منزل أبيها" [2].

وفقًا للحكاية الخرافية فإن أبولونيوس يعارض بشجاعة الطاغيتين نيرون ودوميتيان، فيسجناه، وينجح فى تحرير نفسه من أغلاله دون صعوبة، ولكنه لا يفر، منتظرًا محاكمته، فى السجن؛ ويلقي فى المحكمة خطبة مطوّلة فى دفاعة عن نفسه، وعندئذ، قبل أن ينطق الحكم، يختفي بغموض من قاعة المحكمة فى روما، وفجأة يعلن ظهوره بعد بضع ساعات تالية فى ديكارخيا، بالقرب من نابولي، حيث عزّزته الآلهة بسرعة قطار سريع.

يمتلك أبولونيوس بدرجة عالية هبة التنبؤ الذي كان أمرًا لازمًا لمهام المخلّص، وكذلك القدرة على رؤية الأشياء التي تجري فى أجزاء أخرى من العالم. حين قتل دوميتيان فى قصره بروما، شاهد أبولونيوس وهو فى أفسس الفعل بوضوح كما لو كان فى ذات الموضع مطلعًا الإفسوسيين عليه مباشرة. هذا عمل فذ لإبراق لاسلكي، وماركوني هاوٍ رخيص مقارنة به. وقد انتهى بالاختفاء فى معبد فتحت أبوابه لاستقباله، وأغلقت خلفه "سمعوا من الداخل أغانى العذارى التي بدت وكأنها تدعوه لأن يصعد نحو السماء، بالكلمات: "أخرج من ظلمة الأرض، وأدخل فى نور السماء، تعال" [3].

---

8 **أبولونيوس من تيانا**، ترجمه من اليونانية فيلوستراتوس، مع ملاحظات إد.بالنزير، 1883، 1، 4.

9 نفس المصدر، 4، 45.

10 نفس المصدر، ص 378.

لم يوجد أبدًا جسد أبولونيوس. لقد أصبح من ثمَّ جليًا أن هذا المخلِّص أيضًا قد صعد إلى السماء.

نشأت منافسة حادة بين المعجزات التي آمن بها أتباع المسيحية وتلك التي قام بها أبولونيوس. فى ظل ديوكلتيان، كتب أحد الحكام المتأخرين، واسمه هيروكليس، كتابًا ضد المسيحيين، أشار فيه إلى أن معجزات المسيح ليست شيئًا حين تقارن (بمعجزات) أبولونيوس بالإضافة إلى أنهما ليسا ذوي قوة متساوية فى الشهادة عليهما. إيوسيبس من قيصرية كتب ردًا على هذا الكتاب، لم يعبِّر فيه عن أقل شك فى واقعية معجزات أبولونيوس، ولكن حاول أن يقلِّل من شأنها فحسب بوصفها ليست أعمالاً إلهية، وإنما أعمال سحر، عمل أرواح الظلام.

بمعنى آخر، حتى حين أصبح ضروريًا معارضة المعجزات، لم يفكر أحد فى الشك فيها. وقد نشأت هذه السذاجة مع التفسُّخ المتزايد للمجتمع، مع التدهور فى روح البحث العلمى والانتشار الوافر للتبشير الأخلاقى. ورافق تزايد السذاجة حب متزايد للمعجزات. تكف الأحاسيس عن إنتاج أثر حين تتكرَّر مرارًا. يجب أن يستعمل مثير أقوى فأقوى من أجل خلق تأثير. رأينا فى فصلنا الأول كيف تنطبق هذه القاعدة على الأناجيل، حتى أنه يمكننا تعقبها تحديدًا فى نموذج الإقامة من بين الأموات، وهى أبسط فى الأناجيل الأقدم منها فى (الأناجيل) التالية. إن أحدث إنجيل، أي إنجيل القديس يوحنا، يضيف إلى المعجزات الأقدم التي رويت من الأناجيل الأبكر، الإنتاج العجائبي للخمر فى عرس قانا، ويذهب يوحنا بعيدًا إلى حد القول بأن رجلاً مريضًا شفاه يسوع قد كان مريضًا لمدة ثمانية وثلاثون عامًا، بينما رجل أعمى كان قد ولد كذلك جعله بصيرًا، بمعنى آخر، يجعلون المعجزات خارقة أكثر عند كل مرحلة.

نقرأ فى الكتاب الثاني لموسى، 17، 1- 6، قصه أن موسى أخرج الماء من صخرة فى الصحراء حتى يروي الإسرائيليين العطشى. لم تكن هذه بالمعجزة الكافية فى الفترة المسيحية حيث نعلم من الرسالة الأولى للرسول بولس إلى الكورنثيين (10، 4) أن الصخرة التى استقى منها اليهود قد سافرت فى الصحراء معهم حتى لا ينقصهم الماء أبدًا - صخرة متدفقة رحالة.

هذه المعجزات التي تظهر فيما يسمَّى "أعمال الرسول بولس" فجَّة بصفة خاصة فى مباراة المعجزات التي جرت مع الساحر سيمون، حيث يستعيد الرسول الحياة لسمكة رنجة مملحة.

من ناحية أخرى، اعتُبرت أحداث طبيعية تمامًا معجزات فى عيون اناس هذه الأيام، وأدلة على التدخل التحكمي للرب فى مجرى الطبيعة، ليس فقط الشفاء والموت، الانتصارات والهزائم، ولكن التسلية اليومية مثل المراهانات. "كانت تتبارى فى سباق خيول فى غزة خيول مسيحي ورع، ووثني تقي "هزم المسيح مارناس" وأدّى ذلك بالوثنيين ان يتعمّدوا" [1].

ولكن الحدث الطبيعي الذي فسّر كمعجزة لم يكن موضع تفسير واحد فقط.

"خلال الحرب ضد الكادي (QUADI) (173- 4) فى حكم ماركوس أوريليوس، وجد الجيش الروماني، الذي أُنهك بسبب حرارة الشمس المحرقة، نفسه محاطًا بقوة أعتى، هدّدته بالإبادة، عندئذ تجمّعت فجأة سحب كثيفة معًا، وسقط المطر مدرارًا، وسبّبت عاصفة مخيفة دمارًا واضطرابًا فى صفوف العدو؛ أُنقذ الرومان وأحرزوا النصر. لقد كان أثر هذا الحدث غامرًا: وفقًا لعادة هذا الزمن فقد تم تخليده بتمثيل تصويري، واعتبر بصفة عامة معجزة، استمرت ذكراه حتى آخر أيام العصور القديمة، ولقرون تالية كان يستشهد به المسيحيون والوثنيون كدليل على حقيقة إيمانهم الخاص... يبدو أن الخلاص العجائبي للجيش قد عُزى بصفة عامة لصلوات الإمبراطور إلى جوبيتر ؛ وأكد آخرون، على أيّة حال، أنه كان راجعًا بالفعل إلى فن ساحر مصري يدعى أرنوبيس، عضو فى حاشيته وقد أسقط المطر من السماء بدعائه للآلهة خاصة الإله هرمس [2]. ولكن وفقًا لتقويم مسيحي معاصر، فإن المعجزة صنعتها صلوات الجنود المسيحيين من اللواء الثاني عشر (MELITENIAN). يشير ترتليان أيضًا (197) "إلى الطبعة المسيحية كما هو معروف، ويلجأ لخطاب ماركوس أوريليوس دعمًا له".

اتخذ الاشتياق للمعجزات، والسذاجة العامة درجات أعظم فأعظم، حتى مارس الرهبان أخيرًا فى فترة الانحطاط الأعظم فى القرنين الرابع والخامس، معجزات حين تقارن (بمعجزات) يسوع كما روى عنها الإنجيل، تبدو غير مؤثّرة لأبعد حد.

"كان جيلاً مؤمنًا يقتنع بسهولة بأن أقل نزوة لراهب مصري أو سوري كانت كافية لأن تُعوّق قوانين الكون. لقد اعتاد المُفَضّلون من السماء أن يشفوا الأمراض

---

11 فريدليندر، الحياة الرومانية وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكرة، لندن (روتلدج)، المجلّد الثالث، ص 197.

12 فريد ليندر، نفس المصدر، المجلّد الثالث، ص 132.

المتأصِّلة بلمسة، بكلمة، أو برسالة من بعيد؛ وأن يطردوا أشد الشياطين عنادًا من النفوس أو الأجسام، التي مسُّوها. لقد خاطبوا بالمثل بغير كلفه وأمروا بغطرسة، أسود وأفاعي الصحراء، نفخ الحياة النباتية فى جذع جاف، إيقاف الحديد على سطح الماء؛ تمرير النيل على ظهر تمساح، وانعشوا انفسهم فى اتون ناري" [1].

صوَّر شلوسر تشخيصًا ممتازًا للموقف العقلي لأفلوطين الفيلسوف الأفلاطوني الجديد الأكثر شهرة فى القرن الثالث من عصرنا، فى الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية، فى مؤلَّفه **تاريخ العالم**.

"كان افلوطين الذي وُلد عام 205 فى ليكوبوليس بمصر، والذي توفى عام 270 فى كامبانيا تلميذًا مجتهدًا لأمونيوس، لمدة إحدى عشر عامًا، ولكنه استغرق بعمق شديد فى التفكير حول موضوع الطبيعة الإلهية والبشرية، ولأنه، لم يكن راضيًا عن التعاليم الصوفية المصرية - الإغريقية لأسلافه ومعلمه، فقد توجَّه ايضًا للحكمة الفارسية والهندية، وارتبط بجيش جورديانوس الأصغر وذهب إلى فارس معه.... ذهب أفلوطين فيما بعد إلى روما حيث وجد الاتجاه المهيمن ينحو نحو الصوفية الشرقية موافقًا لغرضه غاية الموافقة، ولعب دور النبي لمدة خمسة وعشرين عامًا، نظر إليه الإمبراطور جالينوس وزوجته بتبجيل خرافي، حتى قبل وفاته بوقت قصير، حتى قيل إنه كانت لديهما النيَّة فى تأسيس دولة فلسفية فى إحدى مدن إيطاليا، تُحكم وفقًا لمبادئ أفلوطين. كانت عظيمة كذلك الاستجابة التي تلقَّاها افلوطين من أكثر عائلات المواطنين الرومان احترامًا، واصبح بعض من أكثر الرجال برزوا فى المدينة أكثر أبطاله تحمسًا وتلقَّوا تعاليمه وكأنها رسالة من السماء".

إن الضعف الروحي والأخلاقي للعالم الروماني والاتجاه السائد عمومًا باتجاه النشوة الهيستيرية، نحو الأخلاق الرهبانية وتجاه الصفات ما فوق الطبيعية والنبوئية، لم يعبِّر عنها فى أي مكان بهذا الوضوح كما فى الانطباع الذي خلقة أفلوطين والاحترام الذي تلقَّاه مذهبه، لسبب خاص جدًا وهو انه كان مبهمًا.

"كانت هذه الوسائل التي استخدمها أفلوطين وتلاميذه لنشر الفلسفة الجديدة مماثلة لتلك التي استخدمت فى نهاية القرن الثامن عشر من قِبل مِسمَر وكاليجوسترو فى فرنسا لتصويف النبالة المتدهورة، وبواسطة الروزيكروسيين، ساحري

---

13 جيبون، **تاريخ تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية**، الفصل السابع والثلاثون، لندن ونيويورك، 1898، المجلد الرابع، ص 75.

الأزواج وأمثالهم فى ألمانيا لتصويف ملك بروسي ورع. مارس أفلوطين السحر واستدعى الأرواح للظهور أمامه، وانحط حين كان يسأل من قبل معارفه حتى القيام بالنشاط الذي مارسته فى بلاده فئة من الأشخاص المحتقرين فقط وهو كشف المذنبين في سرقات صغيرة.

كان يعبر عن كتابات أفلوطين أيضًا بالطريقة النبوءية، لأنه وفقًا لشهادة أكثر تلاميذه شهرة كان يُدون إلهاماته المزعومة دون أن يتفضل أبدًا بالنظر إليها ثانية، أو حتى يصحح اللغة. لم تكتب روائع الإغريق القدامى أبدًا هكذا ! حتى أكثر قواعد التفكير أوَّلية، التي اعتدنا على تسميتها "المنهج"، مفتقرة فى كل من الكتابات والأطروحات الشفوية لهذا الرجل، الذي طلب من كل من يُقبل على تحصيل معرفة فلسفية الانسلاخ عن طبيعته الخاصة أو الخروج عن الحالة الطبيعية للفكر والشعور، باعتبار ذلك شرطه الأول.

من أجل نقل فِكْرة عن طبيعة تعاليمه وعن الأثر الذي أنتجته، نحتاج فقط إلى أن نقدِّم مادة قليلة تتعلق بمضامين كتاباته. يعتبر العيش مع البشر وبين البشر أمرًا أثيمًا وغير طبيعي، بينما الحكمة الحقيقية والنعيم يكمنان، وفقًا له، فى الانفصال الكامل عن عالم الأحاسيس، فى التأمل وفى السكينة وفى العزلة الموحشة لروح المرء الخاصة، والتركيز على الأشياء الأعلى.... هذه النظرية عن الحياة التي تقوِّض كل فعَّالية، وتتبدَّد فى وجه كل تجربة وكل العلاقات الإنسانية، والتي دافعت إضافة إلى ذلك بأشد احتقار ضد هؤلاء الذين لهم وجهات نظر مختلفة، مترافقة مع مفهوم نظري خالص عن الطبيعة وقوانينها، قائم فقط على أهواء عقلية غاية فى الخفّة. لقد أسَّس أرسطو أفكاره عن الطبيعة على التجربة، والملاحظة والرياضيات؛ ليس هناك أثرًا لذلك عند أفلوطين. اعتبر أفلوطين نفسه فيلسوفًا أناره الله ؛ وأعتقد من ثمَّ أن كل معرفته كانت تتأتَّى من مصدر داخلي للإلهام، وأنه لم يكن محتاجًا لأن يرتقي دَرَجًا حتى يحرز معرفة، لأن أجنحته حملته فوق الأرض وعبر كل عوالم الفضاء...

كان لدى أفلوطين ثلاثة تلاميذ وضعوا فى شكل يُحتمل الكلمات التي ألقاها فى شكل نبوءات، والذين نشروا تعاليمه باعتبارهم رسله: هيرينيوس، أميليوس، وفورفوريوس. كان الثلاثة جميعهم موهوبين تمامًا، ويذكر لونجينوس الأخيرين باعتبارهما الفيلسوفين الوحيدين فى زمنهما التي كانت كتاباتهما مقروءة، بالرغم من أن لونجينوس كان شديد العداوة فى معظم الأمور لأي فلسفة أدارت ظهرها للحياة والعقل السليم.

ولكننا يمكن أن نحكم بأفضل شكل على كيف كان حبهم للحقيقة متدنيًا من خلال سيرة أفلوطين التي كتبها فورفوريوس. يروي فورفوريوس أسخف القصص عن سيده ومعلمه، وحيث إن فورفوريوس يراوده إحساس عظيم بتصديقها هو نفسه، فلابد أنه قد اصطنعها قصدًا وعن معرفة من أجل رفع رصيد أفلوطين من المأثورات النبوئية (ORACULAR DICTA)" [1].

ج - اللجوء إلى الكذب

النفاق مكمِّل ضروري للسذاجة وحب المعجزات. أوردنا حتى هذا الحد الأمثلة التي حكى فيها الرواة معجزات تتعلق بالموتى فحسب، ولكن لم يكن هناك افتقار للأشخاص الذين رووا أعظم الأعاجيب فيما يتعلق بأنفسهم، مثل أبيون السكندري، معذب اليهود، ""ثرثار العالم" (CYMBALUM MUNDI)، مثلما سماه الإمبراطور طيباريوس، وهو رجل ملئ بالكلمات الكبيرة وأكاذيب أكبر بعد. بأكثر المعارف المضمونة لانهائية وإيمان غير محدود بنفسه، إن لم يكن عالمًا بالرجال، فعلى أي حال بعدم جدارتهم، معلم المقالات المشهور وكذلك فن التضليل مستعد للعمل، بارع، صفيق، ومخلِّص بغير شروط [2].

كان الرجال الذين يتسمون بهذا الطابع عادة مخلصين - أى ذليلين. تميَّز هذا الرغد المخلِّص بوقاحة أن يستحضر روح هوميروس من العالم السفلي ليستجوبه فيما يخص محل ميلاده. وقد أكد حتى أن روح الشاعر قد ظهرت له وأجابت على سؤاله، ولكنه تعهد لها أن يبقى سرًا!

كان الإسكندر الأبونوتيخوس محتالاً أشنع (ولد حوالي 105 ب.م، ومات حوالى 175 ب.م) الذي مارس السحر بأفظ الوسائل، وعلى سبيل المثال، ذبح حيوانات وجَوَّف صور الآلهة، التى أخفى فيها آدميين. استنزل هذا الرجل وحيًا يقدم معلومات مقابل آتعاب، ويقدر لوسيان دخل هذا العمل بحوالى 15000 جنيه إسترلينى فى العام. لقد نجح حتى فى أن يمارس نفوذًا من خلال المستشار روتيليانوس على الإمبراطور "الفلسفى" ماركوس أوريليوس. مات الوغد غنيًا مليئًا بالجوائز، ونصِّب تمثال لذكراه

14 تاريخ العالم، 1846، المجلِّد الرابع، 452 ومايليها.

15 مومسن، ولايات الإمبراطورية الرومانية من قيصر إلى ديوكلتيان، لندن، 1886، المجلِّد الثانى، ص193، 194.

حتى قيل إنه أطلق نبوءات بعد وفاته. وقد كانت هناك خُدعة محكمة أخرى تتمثل فيما يلي:

"يروى ديوكاسيوس أنه فى العام 22 ظهرت روح، أسمت نفسها (روح) الإسكندر الأكبر، تشابهت معه تمامًا فى الشكل والملامح. وارتدت لباسًا مماثلاً، مشت مع حاشية مكوَّنة من 400 شخص تزيَّت مثل كاهنات باخوس، من الدانوب إلى البوسفور BOSPORUS، حيث اختفت: ولم يغامر أي موظف رسمي بإيقافها، ولكن على العكس قدَّم لها المأوى والطعام فى كل مكان على حساب النفقة العامة" [1].

أبطال البعد الرابع لدينا والأكثر مادية مثل كابتن كوبينيك يجب أن يستحوا خزيًا حين يفكِّرون فى مثل هذه الإنجازات [2].

لم ينخرط المحتالون والدجَّالون فقط فى ممارسة كذب واع وخداع، وإنما حتى مفكِّرين جادين، وأشخاص آخرين كان قصدهم طيبًا، قد استخدموه مرارًا.

لم يتسم الأدب التاريخي للعصور القديمة أبدًا بإفراطه في صرامة المنهج النقدي، فلم يكن علمًا بالمعنى الأضيق للكلمة بعد، ولم يكن مُستخدمًا بعد لبحث قوانين تطوُّر المجتمع، وإنما لأغراض تربوية وسياسية. كان موضوعه تنوير القارئ أو إثبات صواب الاتجاهات السياسية التي حبَّذها المؤرخ. يجب أن تصنع أعمال أسلافهم العظيمة لترتقي بعقول الأجيال المقبلة وأن تلهمها لإنجاز أعمال مماثلة - جعل هذا كتابة التاريخ مجرد صدى نثرى للملحمة البطولية.

ولكن وجب أيضًا أن تتعلم الأجيال المقبلة من تجارب أسلافها وما تعيَّن عليهم أن يفعلونه أولاً يفعلونه. من السهل أن نفهم أن كثيرًا من المؤرخين، خاصة حين كان غرض التنوير والإلهام هو (الغرض) الرئيس، لم يكونوا شديدي الرهافة فى اختيار ونقد مصادرهم، وربما يكون المؤرِّخ قد سمح لنفسه حتى، فى صالح تأثيره الفني، أن يملأ الفجوات فى حكايته بمساعدة الخيال. كل مؤرخ اعتبر أن امتيازه بصفة خاصة هو أن ينقِّح بحرية الخطب التي جعل شخصياته تلقيها. ولكن المؤرخين القدماء عانوا حتى لا يكونوا مضلِّلين بوعي وبقصدية فى تصويرهم فعالية الشخصيات التي

---

16 فريدليندر، نفس المصدر، المجلَّد الثالث، ص 306.

17 فى 1906، تنكَّر عامل فقير اسمه فويجت، فى مدينة كوبينك، بالقرب من برلين كضابط جيش وأمَّن مساعدة لعدة جنود في سرقة خزانة المدينة فى قاعة المدينة - المترجم عن النص الألماني.

تناولوها. كان عليهم أن يكونوا أكثر عناية فى تجنب هذا الخطأ ماداموا كانوا يتناولون نشاطًا سياسيًا عامًا، الأمر الذي جعل سجلاتهم خاضعة لفحص دقيق.

ولكن مع تدهور المجتمع القديم، تغيرت مهمة كاتب التاريخ القديم. كفَّ الناس عن طلب تعليمات سياسية، لأن السياسة قد أصبحت لا أهمية لها أكثر فأكثر وزادت تنفيرًا لهم. ولم يستمروا فى تطلب أمثلة عن الشجاعة الرجولية، والتفاني للوطن، كان ما أرادوه التسلية، ومثيرات جديدة لأعصابهم المنهكة، ثرثرة وأحاسيس، معجزات. إن عدم دقة طفيفة بهذا القدر أو ذاك لم تكن تهم القارئ. أضف إلى ذلك أصبح فحص الوقائع المسجلة أكثر صعوبة، لأن المصائر الخاصة كانت الآن فى طليعة اهتمام القارئ، أي الأحداث التي لم تجرِ فى ضوء العلنية التامة. انتهى التاريخ الأدبي نفسه أكثر فأكثر، من ناحية إلى أن يكون حكايات للفضائح، ومن ناحية أخرى إلى مبالغات فظيعة من نمط مبالغات البطل الروائي منشوسن (MUNCHAUSEN TYPE).

أصبح هذا الاتجاه الجديد ظاهرًا فى الأدب الإغريقي حوالي زمن الإسكندر الأكبر، حيث كتب فيما يتعلق بأعمال الإسكندر أحد رجال حاشية الإسكندر أونيسكريتوس كتابًا يحفل ببساطة بالأكاذيب والمبالغات. ولكن هناك خطوة واحدة فقط تفصل بين الكذب والتزوير. أنجز هذه الخطوة إيمروس، الذي أحضر إلى الوطن فى القرن الثالث كتابات من الهند، زعم أنها عتيقة، ولكن كان الرجل الطيب قد اصطنعها بنفسه.

ولكن لم تكن هذه الطريقة الممتازة قاصرة على التاريخ الأدبي فقط. لقد رأينا كيف أن الاهتمام بأشياء هذا العالم كان يخبو تدريجيًا بين دارسي الفلسفة، بينما أصبح (الاهتمام) بالعالم الآخر أقوى. ولكن كيف يمكن لفيلسوف أن يقنع تلامذته أن أفكاره عن الحياة الأخرى كانت أكثر من مجرد خيالات؟ كانت أبسط وسائل إنتاج مثل هذا الاعتقاد بالطبع اختراع شاهد يعرض باعتباره قد عاد من المكان "الذي لا يعود من عالمه راحل" ويروي وضعه العام. حتى أفلاطون لم يترفَّع عن استخدام مثل هذه الحيلة كما رأينا فى حالة البامفيلي الممتاز الذي ذكرناه سلفًا.

أضف إلى ذلك تضمن الاهتمام المتناقص بالعلوم الطبيعية واستبدالها بالتأمل فى الأخلاق أيضًا هجر الروح النقدية التي تهدف إلى اختبار صحة كل قضية بواسطة التجربة الفعلية وإضعاف متزايد للقدرة الثقافية للأفراد المتنوِّعين، مؤدية هكذا

لظهور رغبة متزايدة فى إيجاد دعم فى شخص رجل عظيم ما. لقد تأثر البشر الآن ليس بالبراهين الفعلية وإنما **بالحجج/ بالثقات AUTHORITIES**، ومن أراد أن يمارس تأثيرًا عليهم كان لابد وأن ينظر إليه بوصفه مُؤيِّدًا من الحجج الضرورية. فإذا لم يقدِّم هؤلاء الحجج المقاطع المطلوبة فكان من الضروري تشذيبها قليلاً، أو خلق حجج المرء اجتزاءً. لقد أتيحت لنا الفرصة لأن نلاحظ حججًا من هذا النوع فى حالتي دانيال وفيثاغورث. كان يسوع حجة كهذه، وكذلك رسله، وموسى، والسيبليات **SIBYLS**.

لم يتحمل الكاتب دائمًا مشقة أن يكتب كتابًا كاملاً تحت اسم مزيَّف، غالبًا ما كان يكفيه إدراج جملة واحدة فى مؤلَّف أصلي مكتوب من قبل حجة معترف بها، جاعلاً هذه الجملة تعبِّر عن عقائد الكاتب الخاصة، ومن ثمَّ مخضعًا هذا الحجة لجداله. لقد تمَّ هذا بشكل أسهل استنادًا إلى حقيقة أن الطباعة لم تكن قد اخترعت بعد. لقد جرى تداول الكتاب فقط فى نسخ مكتوبة، خطَّها صاحبها، أو كتبها عبد، إذا كان مالكها ثريًا بما يكفى ليقيم أود عبد لتحقيق هذا الغرض. إضافة إلى ذلك، كان هناك ناشرين جعلوا عبيدهم ينسخون الكتب، التي كانت تباع عندئذ بربح كبير. لقد كان غاية فى السهولة أن تحذف فى هذه النسخ جملة تبدو غير ملائمة، أو إدخال أخرى طرأت حاجة إليها، خاصة إذا كان المؤلِّف قد مات، الذي جعل احتمال بروز احتجاج، فى هذه الأيام اللامبالية والساذجة، أمرًا بعيدًا. سوف يحرص النسَّاخون اللاحقون على حفظ هذا التزييف للأجيال اللاَّضحقة.

وجد المسيحيون منهج هذا الإجراء أسهل مقارنة بما فعل المؤرخون الآخرون. أيًّا ما كانت هوية أول معلمٍ ومنظمِّي المجامع المسيحية، فمن المؤكد أنهم ظهروا من أدنى فئات السكان، حتى أنهم لم يتمكَّنوا من الكتابة ولم يتركوا سجلات مكتوبة. كانت مذاهبهم فى البداية منتشرة شفهيًا. إذا كان أي من أتباعهم قد توسَّل بحجة المعلمين الأوائل للمجمع، فى أي مناقشة أثيرت، فقد كان من الصعب مناقضته، إذا لم ينتهك التقليد بفظاظة. سرعان ما كانت أكثر الطبعات تنوُّعًا من كلمات "السيد" ورسله بالضرورة فى التداول. وبالنظر إلى حالة النزاع المحتدم، التي سادت المجامع المسيحية فى البداية، قدَّمت هذه الطبعات المتنوِّعة فى البداية ليس بغرض تسجيل تاريخي موضوعي، وإنما لاستعمالها فى الجدال، حيث سجِّلت لاحقًا وجمعت فى الأناجيل. كان النسَّاخون والمحرِّرون اللاحقون مدفوعين بصفة رئيسة أيضًا بالأهداف الجدالية، التي دعتهم إلى استبعاد جملة غير ملائمة هنا وإدخال أخرى محلها حتى يكونوا

قادرين على استخدام كامل السجل كبرهان على حقيقة أن المسيح أو رسله قد أيَّدوا وجهة نظر او أخرى. نواجه هذا المنحى الجدالي عند كل خطوة فى تفحص الأناجيل.

وسرعان، ما لم يعد المسيحيون يرضون بتكييف وتزوير كتاباتهم المقدسة بهذه الطريقة، كلما تطلبت حاجتهم. كانت هذه الطريقة ملائمة للغاية حتى يمتنع تطبيقها على آخرين ايضًا، على مؤلفين "وثنيين"، بمجرد أن كان هناك عدد كاف من الأشخاص المتعلمين بين المسيحيين ليعطوا بعض الوزن للكتاب البارزين خارج العالم المسيحي، حين كان هناك عدد كاف من مثل هؤلاء الأشخاص، أصبح مما له قيمة أن تكون هناك نسخ خاصة مصطنعة معدَّة لهم، وقد حيوها برضى منهم وجرى تداولها أكثر. وقد حفظت عديد من هذه التزويرات حتى يومنا هذا.

لقد ذكرنا قبلاً تزييفًا كهذا، أي شهادة يوسيفوس عن يسوع. الكاتب التالي، مع تاسيت، الذي يتحدث عن المسيحيين كمعاصر لهم، هو بلينى الأصغر، الذي كتب خطابًا يتعلق بهم إلى تراجان، فى الوقت الذي كان فيه بليني (بروبريتور PROPRAETOR) فى بيثينيا (من المحتمل 111 - 113 ب.م)، الذي حفظ فى مجموعة خطاباته [1]. يطلب بلينى فى هذا الخطاب تعليمات عمَّا ينبغي أن يفعله مع المسيحيين فى ولايته، فيما يتعلق بهم فلا يعرف عنهم خبرًا سيئًا، ولكنهم يتسبَّبون فى أن تكون كل المعابد خاوية. لا تنسجم وجهة النظر هذه عن براءة المسيحيين تمامًا مع رأي صديق بليني تاسيت، الذي يؤكد على "كراهيتهم لكل الجنس البشرى". إنه لمن المصدم لنا بنفس القدر أن نعلم أن المسيحية كانت شديدة الانتشار بالفعل فى بيثينيا فى ظل تراجان، إلى الحد الذي تسبَّبت فيه في جعل المعابد خاوية، التي كانت لزمن طويل مهجورة بالفعل، والتي أهملت "احتفالاتها لزمن طويل، والتي نادرًا ما وجدت حيواناتها الأضحوية شاريا". كان علينا أن نميل لافتراض أن مثل هذه الأوضاع سوف تكون قد أثارت قدرًا من الانتباه يماثل الانتباه الذي يمكن أن يولي الآن لواقعة، إذا ما صادف وأن حدث أن الأصوات الاشتراكية وحدها هي التي قامت بالتصويت فى برلين. كان سيكون هناك اضطراب كبير بالفعل. ولكن بليني لا يسمع عن وجود المسيحيين حتى يتهمهم أحد. لهذا ولأسباب أخرى نفترض أن هذا الخطاب هو تزييف مسيحي. افترض سملر قبلاً مبكرًا فى عام 1788، ان هذا الخطاب الخاص ببليني بكامله قد اصطنعه مسيحي فى تاريخ لاحق، لتعظيم المسيحية. ولكن برونو باور يرى بأن هذا

1 C. Plinii Caecilii EPistolarum Libri Decem , Book X , letter 97.

الخطاب قد كتب حقًا من قبل بليني، ولم يكن أصلاً على الإطلاق مادحًا للمسيحيين، ومن ثمَّ فقد "جرى تضبيطه" من قِبل ناسخ مسيحي لاحق.

أصبحت ألتزييفات أكثر وقاحة .حين أغرق البرابرة التيوتون الإمبراطورية الرومانية فى فترة الهجرات العظيمة. كان السادة الجدد للعالم فلاحين بسطاء مليئين بمكر الفلاح لا شك، ورزينين ومحنَّكين بما يكفي بصدد الأشياء التي لم تكن غاية فى العمق بالنسبة لهم. كانوا مع كل بساطتهم أقل تعطشًا للمعجزات وأقل سذاجة من ورثة الحضارة القديمة، ولكن لم يعرفوا شيئًا عن القراءة والكتابة. أصبحت هذه الفنون ميزة الكهنوت المسيحى، الذي بات الآن الفئة المثقفة الوحيدة. لم يعد الكهنوت بحاجة إلى الخوف من أن تواجه تزييفاته فى صالح الكنيسة النقد، وهكذا تعدَّدت هذه التزييفات على نحو أشد تكاثرًا مما كانت من قبل، ولم تعد بعد مقصورة، كما كان الأمر قبلاً، على أمور المذهب، لم تعد تخدم فقط فى مناقشة الجدالات النظرية، الفنية أو التنظيمية، وانما أصبحت الآن وسائل حيازة الملكية، أو تبرر شرعًا استيلاءًا ناجزًا على الملكية. كانت أكثر هذه التزييفات فظاظة بالتأكيد هى هبات قنسطنطين ومراسيم إيزيودور، التى اصطنع كليهما فى القرن الثامن. فى الوثيقة الأولى، يسلم قنسطنطين (306 - 337 ب.م) إلى البابوات السلطان غير المحدود والأبدى على روما، وإيطاليا وكل الولايات حتى الغرب. مراسيم إيزيودور هى مجموعة من القوانين الكنسية جمعت ظاهريًا من قبل الأسقف الإسبانى إيزيودورس فى بداية القرن السابع، حيث يعلن فيها السلطة المنفردة للبابا فى الكنيسة.

ليس هذا القدر العظيم من التزييفات أقل الأسباب أهمية في جعل تاريخ أصل المسيحية شديد الغموض حتى اليوم. ليس من الصعب كشف كثير من هذه التزييفات، وقد عرض الكثير فى القرون الماضية، على سبيل المثال، كشف لورنتيوس فالا فى 1440 أن هبات قنسطنطين كانت تزييفًا ولكن ليس سهلاً بنفس القدر كشف وجود ذرة حقيقة فى واحد من هذه التزويرات، وأن نثبت حد هذه الحقيقة.

إن الصورة التى نسجلها ليست مفرحة: انحلال عام فى كل اتجاه، اقتصادي، سياسي، وأيضًا علمي وأخلاقي. اعتبر الرومان والإغريق القدامى التطور الكامل والمتناسق للرجولة بأفضل معنى لهذه الكلمة فضيلة. لقد دلَّت الفضيلة وARETE على الشجاعة والقدرة على الاحتمال، وكذلك أيضًا الكبرياء الرجولي، التضحية والتفاني غير الأناني للصالح العام. ولكن حيث غرق المجتمع على نحو أعمق فى العبودية، أصبح الخضوع هو الفضيلة العليا، ومنه اشتقَّت كل الصفات النبيلة التي

كرَّسنا لها اهتمامنا: كراهة الصالح العام والتركيز على المصالح الفردية، الجبن والافتقار للثقة بالنفس، التطلع إلى الانعتاق بواسطة إمبراطور أو إله، ليس بقوة المرء الخاصة أو بقوة طبقة المرء؛ الحط من الذات أمام القوي، الصفاقة المتزمّتة تجاه التابعين ؛ عدم اهتمام لامبالي واشمئزاز من الحياة، الإذعان للإشفاق كشعور، للأعاجيب، هيستيريا ونشوة، مقترنة بالنفاق، الكذب والتزييف. هذه هي الصورة التي يزوّدنا بها العصر الإمبراطوري، وآثاره تنعكس في نتاج هذا العصر، أي المسيحية.

د - النزعة الإنسانية

ولكن أبطال المسيحية سوف يقولون إن هذه الصورة أحادية الجانب ومن ثمَّ غير حقيقية. يجب أن نعترف بأن المسيحيين كانوا بشرًا فحسب، ولم يستطيعوا أن يحصّنوا أنفسهم كلية ضد التأثيرات المُحِطّة لبيئتهم، ولكن هذا جانب واحد فقط من المسيحية. من ناحية أخرى، يجب أن نلاحظ أيضًا ترويج أخلاقية أرفع كثيرًا من أخلاقية العصور القديمة، إنسانية متسامية، رحمة لانهائية، تجاه أي شيء يحمل شكلاً إنسانيًا، تجاه الأدنياء وعلية القوم، الغرباء ورفاق العشيرة، العدو وكذلك الصديق، حتى أنها تبشّر بأخوة كل الطبقات والأجناس. يُقال إنه لا ينبغي لهذه التعاليم أن تفسَّر على أساس الأزمنة التي نشأت فيها المسيحية، فمما هو جدير بالملاحظة أكثر أنها كانت تُعلَّم في فترة أشد عمقًا في فسادها الأخلاقي، يخذلنا التفسير المادي للتاريخ هنا ؛ فنحن نتعامل مع ظاهرة يمكن أن تفسَّر فقط بسمو الفردية المستقلة تمامًا عن شرط الزمان والمكان، إله - إنسان، أو إذا استخدمنا مصطلحًا رائجًا، إنسان أعلى (سوبرمان).

هذه هي الكيفية التي يضعها بها "مثاليونا".

ولكن ما هي الحقائق؟ دعنا نعتبر أولاً الإحسان نحو الفقير، والإنسانية نحو العبيد؛ هل توجد هاتان الظاهرتان بالفعل في المسيحية فقط؟ من الحقيقي أننا لا نجد كثيرًا من الإحسان في العصور القديمة الكلاسيكية، وليس عصيًا أن نجد السبب، فالإحسان يتضمن وجود الفقر على نطاق واسع. كانت الحياة الثقافية في العصور القديمة متجذّرة بعمق في شروط شيوعية، وفي ملكية عامة لأراضي العشيرة، الخاصة بالجماعة، للاقتصاد المنزلي، التي أعطت أعضاءها حقًا في منتجاتها العامة، ووسائل إنتاجها. ونادرًا ما كان إعطاء الصدقة ضروريًا.

لا يجب أن يخلط القارئ بين كرم الضيافة والإحسان. كان كرم الضيافة ملمحًا عامًا جدًا فى الأزمنة القديمة ؛ ولكنه علاقة بين متساوين، بينما تضمَّن الإحسان عدم مساواة اجتماعية، يُبهج كرم الضيافة كلاً من الضيف والمضيف، ولكن الإحسان يرفع من يعطي ويحط ويضع من يتلقّى.

تكون للمدن الكبيرة فى مجرى الأحداث جمهورًا بروليتاريًا، كما رأينا. ولكن هذه البروليتاريا إما امتلكت أو حققت السلطة السياسية، واستغلت الأخيرة حتى تنتزع نصيبًا لنفسها فى المواد الغذائية التي كانت تفيض بها مخازن الأثرياء والدولة كنتاج لعمل العبيد واستغلال الولايات. بفضل الديمقراطية وسلطتها السياسية، لم يحتَج هؤلاء البروليتاريين أبدًا إلى إحسان. يتضمن الإحسان ليس فقط بؤسًا عظيمًا عند الجماهير، وإنما أيضًا بروليتاريا بدون حقوق سياسية وأجهزة، وهي أوضاع لم تحدث على نطاق واسع قبل العصر الإمبراطوري. ليس من المدهش أن تبدأ فكرة الإحسان آنئذ فقط في أن تسود المجتمع الروماني. ولكنها لم تكن نتيجة للأخلاقية ما فوق البشرية للمسيحية.

اعتبر القياصرة فى الأيام الأولى من حكمهم، أنه مازال من المنصوح به أن يشتروا بواسطة الخبز والألعاب ليس الجيش فحسب، وإنما أيضًا بروليتاريا العاصمة. كان نيرون ناجحًا للغاية فى هذه الممارسة. استخدمت هذه الطريقة فى كثير من مدن الولايات الكبيرة أيضًا حتى تهدّئ الفئة الأدنى من السكان.

ولكن لم يستمر هذا الإجراء طويلاً. أجبر إفقار المجتمع المتزايد على تخفيض النفقات القومية، الذي كان من الطبيعي أن يطبقّه القياصرة أولاً على البروليتاريا، التي لم يعودوا يخشونها. من المحتمل أن الرغبة فى علاج النقص المتزايد فى قوة العمل قد قلّل أيضًا كرمهم نحو البروليتاريا. إذا لم تكن هناك هبات محاصيل، كان على البروليتاريين القادرين على العمل البدني أن يبحثوا عن عمل، وربما يرتبطون بكبار المُلاّك العقاريين باعتبارهم مستوطنين COLONI أو مستأجرين. وقد تسبَّب هذا النقص فى العمل الكافي تحديدًا فى نشوء أشكال جديدة من الهبات العامة.

تتحلّل فى العصر الإمبراطورى، كل المنظمات الاجتماعية القديمة، ليس فقط العشائر، وإنما أيضًا الاقتصاد المنزلي للعائلات الأكبر. وكل إنسان يفكّر فى نفسه فقط، تحلّلت الروابط العائلية وكذلك الروابط السياسية، يصبح استعداد المرء للتضحية من أجل قريبه خامدًا، مثله في ذلك مثل التفاني من أجل الجماعة أو الدولة أيضًا. عانى الأطفال اليتامى بصفة خاصة من هذا الوضع. أن يكونوا بلا

والدين جعلهم الآن بلا دفاع، لم يكن هناك أحد ليعتنى بهم. تزايد عدد الأطفال الذين ليس لهم أقارب يعولونهم لحد أبعد بواسطة حقيقة أن العوَز العام وتدنّي روح التضحية كانت تؤدي بعدد متزايد من الأشخاص لأن يتجنبوا الأعباء العائلية. حقق البعض هذا بعدم الزواج، باللجوء إلى الدعارة فقط، كانت دعارة الذكور، بالمناسبة فى وضع مزدهر، آخرون، بالرغم من أنهم متزوجون، سعوا لتجنب إنجاب الأطفال، كل من هاتين الممارستين أسهم بالطبع فى إنقاص سكان البلد وإنتاج نقص العمال، ومن ثمّ زيادة الفقر العام. وجد كثير من الأشخاص ممن لديهم أطفال أن الأكثر ملائمة هو أن يتخلّصوا منهم بهجرهم. اتخذت هذه الممارسة الممتازة نسبًا ضخمة؛ لم يكن للمنع أيّة فائدة حيث أصبحت مسألتان مُلحتّان أكثر إلحاحًا: العناية بالأطفال الذين لا يعولهم الأقارب، والعناية بأطفال الفقراء، الذين مازالوا يعيشون مع والديهم؛ هاتان المسألتان لقيتا بالضرورة كثيرًا من الاهتمام من المسيحيين الأوائل. كان الأخيرون معنيون دومًا بمسألة إعالة اليتامى. لم تكن الشفقة فقط، وإنما أيضًا الحاجة لقوة العمل والجنود، هي التي قادت إلى جهد لتأمين تربية اليتامى، واللقطاء، وأطفال البروليتاريين.

نجد بالفعل فى ظل أغسطس جهودًا بذلت فى هذا الاتجاه ؛ بدأت فى القرن الثاني من عصرنا فى اتخاذ شكل عملي. كان الإمبراطوران نرفـا وتراجان أول من أسّس مثل هذه المؤسسات فى الولايات الإيطالية، بجعل الدولة تشتري عددًا من الأملاك العقارية ثم تؤجرها من الباطن، أو أن تحوّلها إلى رهونات. كانت تستخدم غلّة الإيجار أو الفائدة على الرهونات فى تدريب الأطفال الفقراء، خاصة اليتامى [1].

وسع هادريان، مباشرة بعد تسنمه (السلطة)، هذه المؤسسة، التي خطّط لها فى ظل تراجان لحوالي 5000 طفل وطوّرها الأباطرة اللاحقين لمدى أبعد، ولكن هذا الإحسان القومي كان مترافقًا أيضًا مع إحسان مشاعي، سبقه الإحسان الخاص. إن أقدم مؤسسة إيواء خاصة لدينا معلومات عنها يعود تاريخها إلى زمن أغسطس. سلّم هلفيوس باسيلا، الذي شغل منصب البريتورية،22000 جنيه إسترليني لمواطني أتينا فى لاتيوم لإمداد عدد من الأطفال بالحبوب، ولسوء الحظ لم يذكر العدد [2].

---

19 أنظر ب. ماتياس،

Römische Alimentarinstitutionen und Agrarwirtschaft.

Jahrbuch für Nationalökonomie und Statistik , 1885 , Vol. I , Pp.503 Ff.

2 A. Müller, Jugendfürsorge In Der Römischen Kaiserseit, 1903, P. 21.

فيما بعد، فى ظل تراجان، يرد ذكر عديد من مثل هذه المؤسسات. وهبت سيدة غنية، وهي كاليًا ماكرينا، من تراسينا، فى وفاة ابنها مليون سيسترسس (أكثر من 50000 جنيه إسترليني)، كانت الفائدة التي تأتَّت منها تعول 100 فتى وفتاة ؛ وأسَّس بليني الأصغر مؤسسة إيواء عام 97 فى مسقط رأسه كوموم (الآن كومو)، كانت تتلقَّى الدخل السنوى لأملاك عقارية تقدَّر بـ500000 سيسترسس، خصَّصها لإطعام الأطفال الفقراء. وقد أسَّس أيضًا مدارس، ومكتبات إلخ.

لم تنجح هذه المؤسسات بالطبع فى أن تواجه أثر نقص سكان الإمبراطورية، لأن نقص السكان هذا كان راجعًا لأسباب تقع فى أعمق أعماق الشروط الاقتصادية؛ ومن ثمَّ تزايدت حيث تقدم الانحلال الاقتصادي. تقدم الإفقار العام إلى حد استهلاك الموارد الضرورية للاستمرار فى عمل رفاهية الأطفال هذا، أفلس الفقر ليس فقط مؤسسات التغذية، وإنما الدولة ذاتها.

فيما يتعلق بتطور مؤسسات التغذية نعرف من موللران:

"ربما يمكن تتبع حياتها لحوالي 180 عامًا تقريبًا. حَسَّن هادريان حصص الأطفال. وخصَّص أنطونيوس بيوس كميات جديدة لهذا الغرض. عام 145 ب.م نصب فتية وبنات كوبرا مونتانو، مدينة فى بيسيتم، الذين كانوا المستفيدين منه، نقشًا على ضريحه (تعبيرًا عن) الامتنان، كما فعل هؤلاء من سستينم من أومبريا عام 161. يشهد إهداءًا مماثلاً فى فيكوليا فى لاتيوم على الأنشطة المماثلة لماركوس أوريليوس. يبدو أن المؤسسة الأخيرة قد وصلت ذروتها مبكرًا فى حكم هذا الإمبراطور، منذ آنذاك فصاعدًا.كان الانحلال العام للإمبراطورية متوزايًا مع تاريخ المؤسسة، يبدو أن ماركوس أوريليوس بسبب الارتباطات التي كانت تسبِّبها له الحرب دائمًا، والتي اضطرته حتى لأن يبيع بالمزاد مجوهرات التاج، الصولجان، وأشياء ثمينة أخرى امتلكتها السلالة الإمبراطورية، قد ذهب بعيدًا إلى حد مصادرة الأموال الموقوفة على هذه المؤسسة وضمان دفع الفائدة من خزانة الدولة. كانت الخزانة فى ظل كومودس غير قادرة لمدة تسع سنوات على أن تقوم بهذا الالتزام، وبرتيناكس، غير قادر على دفع الديون المستحقة، وامتنع عن دفعها. ولكن يبدو أن ثروات المؤسسة تحسَّنت فيما بعد. مازال يذكر موظف رسمى راعيًا لها فى القرن الثالث؛ ولكن انتهى وجودها حوالي هذا الوقت. حيث لا نسمع عنها بعد فى ظل قسطنطين" [1].

---

21 نفس المصدر، ص ص7، 8.

ربما أباد الفقر المتزايد المؤسسات الخيرية، ولكنه لم يستطع أن يدمِّر مفهوم الإحسان، الذي أصبح بالضرورة أقوى فأقوى بالنظر إلى البؤس المتزايد. ولكن ليست هذه ميزة للمسيحية فقط على الإطلاق، فالمسيحية تشارك فيها حقبتها، التي لجأت إليها ليس بسبب السمو الأخلاقي لهذه الأزمنة، ولكن بسبب انحلالها الاقتصادي.

إن التقدير والإعجاب الذي حظي به الإحسان انتج أيضًا صفة أخرى أقل لطفًا: وهي التباهي بالصدقة التي أعطاها المرء. بليني، الذي ذكرناه سلفًا، هو مثل جيد على ذلك. كل معلوماتنا عن هذه المؤسسة الخيرية مأخوذه منه فقط: فقد وصفها بتفصيل كبير في كتب قصد نشرها. حين ننظر إلى بليني يرعى عواطفه السامية ويظهر إعجابًا لا حد له بنبل شخصيته، يبدو لنا أن هذا علامة أقل على العظمة الأخلاقية لـ"العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية، عن أكثر فتراتها سعادة، كما أسماها جريجورفيوس وأغلب زملائه [1]. وهي تنبئ عن التفاهة السخيفة للعصر، نسخة لامعة من العجرفة الكهنوتية ونفاقها الورع.

إن أقسى استهجان صرَّح به ضد بليني، بقدر ما نعرف، هو (استهجان) نيبور الذي اتهمه بـ"التفاهة الصبيانية" و"التواضع غير الأمين" [2].

كما في حالة الإحسان، فقد قيل لنا أن المعاملة الإنسانية للعبيد خاصة بالمسيحية. يجب أن نشير أولاً وقبل كل شيء أن المسيحية، على الأقل في الشكل الذي أصبحت في ظله ديانة دولة، لم تأخذ على عاتقها أبدًا أن تكافح العبودية كمبدأ. إنها لم تمارس تأثيرًا أبدًا باتجاه إلغاء العبودية. إذا كان استغلال العبيد لأغراض الريح قد توقَّف في زمن المسيحية، فأسباب هذا ليس لها صلة على الإطلاق بالمفاهيم الدينية. لقد كان لدينا قبلاً الفرصة لأن نلاحظ هذه الأسباب: كان تدهور روما العسكري يقطع إمدادات العبيد الرخيصة جاعلاً هكذا استغلال العبيد غير مربح! ولكن من ناحية أخرى استمر الاحتفاظ بعبيد الترف يمارس حتى فترة طويلة بعد الإمبراطورية الرومانية، في الواقع، نشأت هناك بالمثل مع المسيحية، في العالم الروماني تنويعة جديدة من العبيد الخصيان، الذين لعبوا دورًا هامًا خاصة في ظل الأباطرة المسيحيين، بدءًا من قسطنطين. لقد وجدوا بالفعل، على أيَّة حال، في بلاط كلوديوس، أب نيرون [3].

---

22 القيصر هادريان، 1884.

23 التاريخ الروماني، 1845، المجلَّد الخامس، ص 312.

24 سوتيونيوس، طيباريوس، كلوديوس، دروسوس، الفصل الثامن والعشرون 44.

ولكن لم يفكر أبدًا البروليتاريون الأحرار أنفسهم فى التخلص من العبودية. لقد سعوا لتحسين وضعهم بزيادة استنزافهم للأغنياء وللدولة دون أن يقوموا بأي عمل هم أنفسهم، الذي كان مستحيلاً إلا على أساس استغلال العبيد.

إنها حقيقة مثيرة للاهتمام أنه فى دولة المستقبل الشيوعية التي يسخر منها أرستوفانز فى مسرحيته نساء في البرلمان EKKLESIAZUSOE، تستمر العبودية في البقاء. ويتوقف الاختلاف بين هؤلاء الذين لديهم ممتلكات والذين ليس لديهم، ولكن فقط فى حالة الأحرار، كل شيء يصبح ملكًا عامًا لهم، بمن فيهم العبيد، الذين يستمرون فى مهمة الإنتاج. قصد أريستوفانز هذا بوصفه مُزحة بالطبع، ولكنها على اتفاق تام مع الفكر القديم.

نحن نجد موقفاً مشابهًا جرى التعبير عنه فى كراس يتعلق بمصادر الازدهار الأتيكي العام، كُتب فى القرن الرابع بعد الميلاد، الذي يلفت إليه بولمان الانتباه فى تاريخه، الذي اقتبسناه سلفاً فى هذا المؤلف.

يتطلب هذا الجدال، كما يطرحه بولمان، "توسيعًا ضخمًا لاقتصاد الدولة العام لأغراض المواصلات والإنتاج" وبصفة خاصة، أن تشتري الدولة العبيد لتشغيل مناجم الفضة. إن عدد عبيد الدولة هؤلاء يجب أن يزداد حتى يكون هناك فى النهاية ثلاثة عبيد لكل مواطن. ستكون الدولة عندئذ فى وضع تمنح فيه كل مواطن من مواطنيها الحد الأدنى على الأقل من راحة العيش" [1].

يعلن البرفسور بولمان أن هذا الاقتراح الرائع هو سمة مميزة لـ"الراديكالية الجماعية" و"الاشتراكية الديمقراطية"، التي تهدف لتأميم كل وسائل الإنتاج لصالح البروليتاريا. فى الحقيقة إنها سمة مميزة للموقف الخاص بالبروليتاريا القديمة، ومصلحتها فى الاحتفاظ بالعبودية، ولكن فهم بولمان لهذا المطلب هو سمة مميزة لضيق أفق العلم البورجوازى، الذي يعتبر كل تأميم للملكية، حتى ملكية البشر، كمثل على "الجماعية"، وكل إجراء اتخذ فى صالح البروليتاريا كمثل على "الاشتراكية الديمقراطية"، بغض النظر عما إذا كانت هذه البروليتاريا تعد مُستغِلة أم مُستغَلة.

---

25 بولمان، Geschichte Des Antiken Kommunismus، المجلد الثاني، ص 252 وما يليها.

توجد علامة على حقيقة أن البروليتاريين كانوا متهمين بالحفاظ على العبودية فى واقعة أنه حتى الممارسة الثورية للبروليتاريين الرومان لم تعارض أبدًا من حيث المبدأ ملكية البشر. العبيد، بدورهم، مستعدون أحيانًا لأن يُستخدموا فى إخماد انتفاضة بروليتارية. وجه العبيد الذين قادهم الأرستقراطيون الضربة القاضية إلى الحركة البروليتارية فى ظل كايوس جراكسوس. بعد خمسين عامًا، ضرب البروليتاريون الرومان الذين قادهم ماركوس كراسوس العبيد المتمردين بقيادة سبارتاكوس.

الطريقة التي كان يعامل بها العبيد تقف بمعزل تام عن فكرة إزالة عامة للعبودية التي لم يأخذها أحد بجدية. وهنا يجب أن نعترف أن تحسنًا عظيمًا فى النظرات المتعلقة بالعبودية، واعترافًا بالحقوق الإنسانية للعبيد، تظهر بالفعل بوضوح فى المسيحية، التي تتعارض بحدة مع الموقف البائس للعبيد فى بداية الفترة الإمبراطورية، حين كانت حياة وأوصال عبد، كما رأينا، خاضعة لكل نزوة تصدر عن سيده، الذي غالبًا ما استغل هذا الامتياز بأقسى شكل.

عارضت المسيحية بحدةً، بالفعل، هذه الطريقة فى النظر إلى العبيد. ولكن هذا لا يساوي القول بأن المسيحية كانت هكذا تتعارض مع روح زمنها، وأنها وقفت وحدها هذا الموقف من العبيد.

ما هي الطبقة التى ادَّعت أن لها حق إساءة المعاملة الذي لا حدود له وإعدام العبيد؟ بالطبع كانت طبقة الملاَّك العقاريين الأثرياء، وخاصة الأرستقراطية.

ولكن الديمقراطية، الطبقات الدنيا التي ليس لها نفسها عبيد، لم تكن مهتمة كثيرًا بامتياز إساءة معاملة العبيد مثلما كان ملاَّك العبيد الكبار. مما لاريب فيه، مادامت طبقة الفلاحين الصغار، هى نفسها مالكة للعبيد، أو على الأقل تقاليد هذه الطبقة، التي سادت وسط الشعب الروماني، فإن الأخيرة لم تشعر بأنها محمولة على الدفاع عن العبيد.

ولكن تغيرًا فى الشعور كان يختمر ببطء، ليس كنتيجة لتعليم أخلاقي محسَّن، ولكن كنتيجة للتكوين المتغيِّر للبروليتاريا الرومانية، كان يوجد الرومان الأحرار، خاصة الفلاحين الصغار، أقل فأقل بين الناس، بينما كان عدد العبيد المعتقين المشاركين أيضًا فى حقوق المواطنين الرومان، يتزايد بضخامة، وكان أغلبية سكان روما فى ظل الفترة الإمبراطورية من الطبقة الأخيرة. جرى تحرير العبيد لأسباب عديدة. كثير من الرجال الذين لم يكن لديهم أطفال، غالبًا ما كان هذا هو الحال،

بسبب رغبتهم فى التهرب من أعباء الزواج والذرية، كانوا مقتنعين، بسبب النزوة أوالطيبة بأن يشترطوا فى وصيتهم تحرير عبيدهم بعد وفاتهم. كان آخرون أحيانًا يحرّرون عبدًا أثناء حياتهم، كمكافأة على خدمات خاصة أو بسبب الزهو، لأن من استطاع تحرير عبيد كثيرين انتهى إلى أن يعتبر رجلاً غنيًا. آخرون حرَّروا عبيدهم بسبب حسابات سياسية، حيث يبقى المعتق عادة معتمدًا على سيده، كتابعه، بالرغم من كل حقوقه السياسية. زاد العبد من ثمَّ، النفوذ السياسي لسيده. سُمح للعبيد أيضًا بأن يدَّخروا نقودًا وأن يشتروا حريتهم بمدخراتهم، وكثير من الأسياد كانوا يجرون بنشاط صفقة غاية فى الجودة، حين يشتري عبد، بعد أن يكون قد اشتغل حتى بات هيكلاً عظميًا، حريته لقاء ثمن يسمح لسيده أن يشتري (عبدًا) جديدًا، مازالت قوته فتية بعد.

تزايد مع زيادة عدد العبيد فى السكان، عدد المعتقين أيضًا. كانت البروليتاريا الحرة، على أيَّة حال، تجند أكثر فأكثر من طبقة العبيد، وليس من الفلاحين. ولكن كانت هذه البروليتاريا أيضًا معارضة سياسيًا للأرستقراطية مالكة العبيد وحاولت أن تنتزع منها حقوقا سياسية وسلطات، الذي عنى إمكانية إحراز كسب اقتصادي جذَّاب. ليس هناك من ثمَّ سبب يدعو للدهشة أن نجد تعاطفًا ملموسًا مع العبيد وسط الديمقراطية الرومانية تمامًا فى الوقت الذي وصلت فيه تجاوزات ملاَّك العبيد نحو جياد عملهم البشرية ذروتها.

ولكن يجب أن يؤخذ عامل آخر فى الاعتبار أيضًا. حين حاز القياصرة السلطة، فإن اقتصادهم المنزلي، كان يدار من قِبل عبيد ومعتقين، مثل (الاقتصاد المنزلي) لأي روماني مبرز. مع ورغم انحطاط الرومان، فإن مواطنًا حرًا سوف يعتبر أنه مما لا يليق بكرامته أن يرضى بالقيام بخدمات شخصية حتى للأكثر نفوذًا من بين مواطنيه. أصبح الاقتصاد المنزلي للقياصرة الآن البلاط الإمبراطوري، وأصبح خدمهم المنزليين الحاشية الإمبراطورية. تطورت آلية جديدة لإدارة الدولة من بينهم، بالإضافة إلى طاقم الموظفين الموروث عن الجمهورية. و عُهد للآلية الأسبق بالشئون الفعلية للدولة أكثر فأكثر، وحكمت الدولة بينما أصبحت المناصب التي تخلَّفت عن الفترة الجمهورية ألقابًا خاوية أكثر فأكثر، ربما مُرضية للزهو الشخصي، لكنها لم تتضمن سلطة حقيقية.

أصبح العبيد والمعتقون فى البلاط الإمبراطوري حكام العالم، ومن خلال اختلاساتهم، ابتزازاتهم ورشاويهم، أكثر مستغليه نجاحًا. يصف فريدلندر هذا الوضع

بشكل ممتاز فى كتابه الشهير، **الحياة الرومانية وآداب وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكرة**، الذي اقتبسنا منه أكثر من مرة. "كانت الثروة التي هبطت عليهم بسبب مركزهم المتميز مصدرًا رئيسيًا لقوتهم. حين أصبح غنى المعتقين مضرب الأمثال لم يكن هناك بالتأكيد كثير من الأشخاص يمكن أن يقارنوا وقتها بهؤلاء الخدم الإمبراطوريين. كان لدى نارسيسوس 400000000 ستسترسس (21 مليون جنيه إسترلينى)، أعظم ثروة معروفة للعالم القديم، لپالاس 300000000 سسترسس (16 مليون جنيه إسترلينى). كاليستوس، إيبافروديتوس، دوريفورس وآخرون كان لديهم بالكاد كنوز أقل حجمًا. حين شكى الإمبراطور كلوديوس ذات مرة من الحالة المتدنِّية للمالية الإمبراطورية اعتبرت الثرثرات الرومانية بأنه سوف يغتني إذا ما ارتضاه عبديه المعتقين (نارسيسوس و لپالاس) كشريك ثالث".

فى الواقع، وجد عدة أباطرة مصدرًا ممتازًا للدخل فى ممارسة إجبار العبيد الأغنياء والمعتقين على إشراكهم فى متحصلات اختلاساتهم وابتزازاتهم.

"فاق المعتقون الإمبراطوريون بسبب امتلاكهم لمثل هذه الثروة الضخمة، الأرستقراطية الرومانية فى الترف والفخامة. كانت قصورهم هي الأكثر عظمة فى روما. كان (قصر) خصى كلوديوس بوسيدوس أكثر تألقًا من الكابتيول، وفقًا لجوڤينال، وزينته أندر وفيه أغلى الأشياء التي يمكن أن تكشف عنها الأرض فى إسراف وفير.... ولكن المعتقين الإمبراطوريين زيَّنوا روما أيضًا والمدن الأخرى فى المملكة بهياكل فخمة ومفيدة. كليندر، معتق كومودوس القوي، وظَّف قسمًا من ثروته الضخمة فى إنشاء المنازل، والحمَّامات، ومؤسسات أخرى مفيدة للأفراد وكذلك لمدن بكاملها ".

هذا الازدهار المفاجئ للعبيد الكثيرين والعبيد السابقين كان الأكثر لفتًا للنظر حين يقارن مع التدهور المالي المتزامن للأرستقراطية المالكة للأرض. إن لذلك شبهًا اليوم فى ظهور الأرستقراطية المالية اليهودية. وتمامًا مثل الأرستقراطيين المفلسين بالمولد فى الوقت الحاضر، الذين يكرهون ويحتقرون فى أعماق قلوبهم اليهود الأغنياء، ولكن يتملقونهم حين يحتاجون إليهم، هكذا كانت أيضًا معاملة العبيد الإمبراطوريين والمعتقين.

"سوف تبز الأرستقراطية الأعلى فى روما كل منها الآخر فى جهودها لتُحسن وفادة خدم الإمبراطور الأقوياء، لا يهم كيف احتقرت ومقتت بإخلاص هذه الذرية من

العائلات القديمة الشهيرة هؤلاء الأشخاص ذوي الأصل المكروه الذين وسموا بميسم العبودية الذي لا يُمحى، والذين كانوا قانونًا فى أكثر من جانب فى موقع أدنى من المتسوِّل الحر".

كان وضع الخدم الإمبراطوريين متواضعًا جدًا من الناحية الاجتماعية، خاضع لوضع أصحاب المقامات رفيعي المولد.

"لكن فى الواقع كانت العلاقة مختلفة تمامًا، فى الحقيقة غالبًا ما كانت على العكس تمامًا. و"العبيد" المحتقرون بلاحدود شعروا برضا لأن الأحرار النبلاء قد أعجبوا بهم وحسدوهم، وأن أكثر العائلات الرومانية بروزًا قد وضعت من نفسها بشدة أمامهم؛ قلة هي التي جرؤت على أن تعاملهم كخدم... ابتكر تملق فظ شجرة عائلة ل پالاس تتبعت أصله حتى ملك أركاديا الذي يحمل نفس الاسم، واقترح سليل آل سكيبيوس تصويتًا بالشكر فى مجلس الشيوخ لأن هذا السليل لبيت ملكي قد أخضع نبالته القديمة لصالح الدولة وتنازل ليصبح خادمًا لأمير. وفقًا لاقتراح أحد القناصل (فى عام 52 ب.م) قدَّم له صولجان البريتورية وحافظة نقود ضخمة (15000000 سيسترسس)" قبل پالاس الأولى فقط.

تبنَّى مجلس الشيوخ بعد هذا قرارًا بشكر پالاس "عرض هذا القرار علنًا على لوحة برونزية بجانب تمثال يوليوس قيصر فى درع كامل، وجرى تمجيد مالك الـ 300000000 سيسترسس" كنموذج للإيثار الصارم. ل. ڤيتيليوس، وهو أب إمبراطور بنفس الاسم، كان رجل فى منصب رفيع، بالرغم من أن ولعه بالنذالة قد أثار تعليقًا حتى فى هذه الأيام، فقد عبد بين آلهته المنزلية صورًا ذهبية ل پالاس ونارسيسوس "....

"ولكن لا يمكن لشيء أن يشي هكذا بمركز هؤلاء العبيد السابقين أكثر من حقيقة انه قد سُمح لهم أن يتزوجوا من بنات العائلات الأرستقراطية، بما فيها هؤلاء الذين يرتبطون بالبيت الملكي، فى الوقت الذي كان فيه كبرياء النبالة فى نسبها القديم وفى سلسلة طويلة لامعة من الأسلاف عظيمًا للغاية" [1].

تدنَّى المواطنون الرومان، سادة العالم من ثمَّ لأن يصبحوا محكومين بواسطة هؤلاء الذين كانوا أو لا زالوا عبيدًا، وأن يحنوا رؤوسهم أمامهم.

---

26 فريدليندر، نفس المصدر، ص ص 43- 48، طبعة روتلدج، لندن.

من الواضح كيف كان عظيمًا رد فعل هذا الوضع على وجهات النظر الجارية فى هذا الوقت. ربما كره الأرستقراطيون العبيد أكثر، لأنهم كانوا مضطرين لأن يذعنوا لهم أكثر، بينما كانت الكتل الشعبية قد أغريت باحترام العبيد، وبدأ العبيد أنفسهم يشعرون بالبهجة.

من ناحية أخرى، ظهرت القيصرية فى الصراع الذي كانت تشنّه الديمقراطية، التي تتشكّل هي نفسها فى قسمها الأعظم من العبيد، ضد الأرستقراطية مالكي العبيد الكبار. الأخيرون ليس فى غاية السهولة شراءهم مثل الجماهير المفلسة من الشعب، كانوا المنافس الوحيد الخطير الذي كان على القياصرة الطالعون أن يواجهونهم فى الكفاح من أجل سلطة الدولة، وكان كبار ملاّك العبيد المعارضة الجمهورية، فى المملكة الإمبراطورية، إذا كان لنا أن نتحدث عن معارضة كهذه على الإطلاق. ولكن العبيد والمعتقين كانوا أكثر مؤيّدي الإمبراطورية إخلاصًا.

أنتجت كل هذه التأثيرات بالضرورة موقفًا وديًّا لهذا الحد أو ذاك تجاه العبيد، ليس فقط داخل البروليتاريا، ولكن أيضًا في البلاط الإمبراطوري، وفى الدوائر التي تبعت البلاط، لقد عبَّر عن هذا الموقف فلاسفة البلاط على نحو غاية فى التشديد وكذلك مبشّري الطرقات البروليتاريين.

لن نورد أيَّة مقتبسات طويلة تعبِّر عن مثل هذه الآراء، ولكننا سوف نروي ببساطة حادثة شديدة التميز: عن رحمة الطاغية نيرون بالعبيد والمعتقين. كان نيرون دائمًا فى نزاع مع مجلس الشيوخ الأرستقراطي، الذي، كان مذعنًا للغاية تجاه الأفراد المعتقين الأقوياء، بينما تطلب دائمًا مع ذلك اتخاذ أقصى الإجراءات بشأن العبيد والمعتقين بصفة عامة. وهكذا فإن مجلس الشيوخ فى عام 56 ب.م طلب أن يكسر "جشع" المعتقين بمنح ملاّك العبيد السابقين الحق فى حرمانهم من حريتهم إذا ما تصرَّف هؤلاء المعتقين "بوقاحة"، أي، ليس بخنوع كافٍ، تجاه هؤلاء الملاّك السابقين. عارض نيرون هذا الاقتراح على نحو مشدَّد. أشار كيف كان رفيعًا الآن الوضع الذي أحرزه المعتقون، كثير من الفرسان وحتى أعضاء مجلس الشيوخ قد أتوا من بين صفوفهم، وذَكَّر بالمبدأ الروماني القديم بأنه أيًّا ما كان الاختلاف بين طبقات الشعب المتباينة، إلا أن الحرية ينبغي أن تبقى الملكية العامة للجميع. اقترح نيرون اقتراحًا بديلاً وهو الا تقلّص حقوق المعتقين، وأجبر مجلس الشيوخ الجبان على أن يوافق على اقتراحه.

أصبح الوضع فى العام 61 منطوياً أكثر على المخاطرة. فقد قُتل بيدانيوس سيكوندوس، والى المدينة، من قِبل أحد عبيده. كان هذا الفعل يستلزم وفقاً للقانون الأرستقراطي القديم، عقوبة فى شكل إعدام كل العبيد الحاضرين فى المنزل وقت القتل، فى هذه الحالة، ليس أقل من 400 شخص، بمن فيهم النساء والأطفال. ولكن كان الرأي العام يميل لإجراء أكثر ليناً. كانت جماهير الشعب منحازة فى صالح العبيد، لقد بدا أن مجلس الشيوخ نفسه سوف ينجرف بالمزاج العام. عندئذ وقف كايوس كاسيوس، وهو قائد معارضة جمهوري فى مجلس الشيوخ، سليل أحد قتلة قيصر، وقف خطيباً، وحذَّر مجلس الشيوخ فى خطبة نارية الاَّ يرهب، والاَّ يدع مجالاً للرحمة. حيث لا يمكن لحثالة البشرية أن تكبح إلا بالخوف. كانت خطبة المحرِّض هذه فعَّالة للغاية. لم يناقضه أحد فى مجلس الشيوخ، حتى نيرون اضطر أن يذعن، معتبراً أنه من الأحكم مسالمته. أعدم كل العبيد. ولكن حين تجرَّأ الأرستقراطيون الجمهوريون بهذا الانتصار، وقدَّموا اقتراحاً إضافياً فى مجلس الشيوخ وهو أن يُرَحِّلوا من إيطاليا كل المعتقين الذين عاشوا (فى أي وقت) تحت نفس السقف مع العبيد المدانين، نهض نيرون من مقعده وأعلن أنه بالرغم أن الرحمة والشفقة ربما لا يكون مسموحاً لها بأن تفل القانون القديم، فلا يجب أن يكون الأخير، على أيَّة حال، مُشدداً؛ وأدَّى هذا لهزيمة الاقتراح.

ذهب نيرون إلى حد أن يعيِّن قاضياً، استناداً إلى سينكا حتى يتقصَّى عن سوء معاملة العبيد من قِبل أسيادهم وأن يفرض حدوداً على قسوة ونزوة السادة وكذلك على شُحِّهم فى تقديم ما يؤكل. أنقص نفس الإمبراطور عدد مصارعات المجالدة، وأصرَّ فى بعض الأحيان، استناداً إلى سوتينيوس، الاَّ يذبح أحد من المشاركين، ولا حتى المجرمين المحكوم عليهم.

لدينا رواية مماثلة تتعلق بطيباريوس. تبيِّن الحقائق التي أوردناها عاليه بوضوح كيف يكون عقيماً تسجيل التاريخ بتلوينه أخلاقياً أوسياسياً، الذي يعتبر مهمته قياس رجال الماضي بالمعايير الأخلاقية والسياسية لأيامنا. يمنح نيرون، قاتل أمه وزوجته، بتساهل حياتهما للعبيد والمجرمين. بينما يضع الطاغية الحرية تحت حمايته حين تهدَّد من جانب الجمهوريين، ويمارس المختل الشهواني فضائل الإنسانية والإحسان نحو القديسين وشهداء المسيحية، ويطعم الجائع، ويعطي الشراب للظمآن، ويكسو العاري - دع القارئ يتذكَّر كرمه الأميري إزاء البروليتاريا الرومانية - ويناصر قضية الفقير والبائس؛ تسخر هذه الشخصية التاريخية من أيَّة محاولة

لتقويمها بالمعايير الأخلاقية. ولكن بالرغم من انه ربما يكون صعبًا وغبيًا أن نحاول التحقق مما إذا كان نيرون فى قرارة نفسه رجلاً طيبًا أم وغدًا، او كليهما، كما يفترض عامة اليوم، فإنه من السهل مع ذلك فهم نيرون وأفعاله، تلك التي ننظر إليها بعين العطف وكذلك تلك التي تنفرنا، إذ ننطلق من وجهة نظر عصره ومركزه الاجتماعي.

الرحمة التي أظهرها البلاط الإمبراطوري، وكذلك البروليتاريا، نحو العبيد، لابد وانها تقوّت بشدة بسبب حقيقة أن العبد كفَّ عن أن يكون سلعة رخيصة. من ناحية، مرحلة عمل العبد التي انتجت دائمًا اكثر القساوات فظاعة، اي، استغلالاً من اجل الربح، قد بلغت نهايتها. بقى هناك فقط عبيد الترف الذين بسبب طبيعة عملهم ذاته تلقَّوا معاملة افضل. اصبح العبيد نسبيًا عنصرًا اكثر اهمية بمجرد أن اصبح العبيد اندر واغلى، كلما اصبحت الخسارة التي يسبِّبها موت العبد فى غير الأوان أعظم، وكلما أصبح من الصعب استبدال العبد.

اخيرًا، كانت هناك تأثيرات أخرى تعمل فى نفس الاتجاه: النفور المتزايد من الخدمة العسكرية، الذي كان يدعو عددًا متزايدًا من ساكني المدينة لأن يتراجع عن إراقة الدماء؛ وأيضًا نظرية الأممية، التي علَّمت أن كل إنسانَ يجب أن يقدر دون نظر لأصله، وهكذا تزيل الاختلافات القومية والتعارضات.

ه ـ الأممية

لقد اشرنا سلفًا إلى كيف كان عظيمًا تطور المواصلات العالمية فى العصر الإمبراطوري. وَحَّد نظام من الطرق الممتازة روما بالولايات والأخيرة فيما بينها. كانت المواصلات التجارية بينها بصفة خاصة قد حفَّزها السلام داخل الإمبراطورية الذي أعقب الحروب الأبدية بين المدن والدول المختلفة، والحروب الأهلية التالية التي حفلت بها القرون القليلة الأخيرة من تاريخ الجمهورية. بفضل هذا الوضع، كانت القوة البحرية القومية فى العصر الإمبراطوري متاحة تمامًا لمكافحة القرصنة، لم تغب الأخيرة، كلية أبدًا من البحر الأبيض المتوسط قبل هذا، لكنها توقفت الآن. باتت المقاييس والأوزان والنقود الآن متماثلة فى كامل الإمبراطورية، ساعدت كل هذه العناصر بقدر عظيم فى التعامل بين أقسامها المتنوعة.

كان هذا التعامل بشكل جلي شخصيًا فى طابعه. كانت الاتصالات البريدية عندئذ، على الأقل بقدر ما يخص الأمر الخطابات الخاصة، قد تطوَّرت بشكل طفيف، أي أحد كان لديه عمل يؤدِّيه فى الخارج وجد نفسه مضطرًا لأن يدير هذا العمل شخصيًا بالسفر إلى الموقع، غالبًا أكثر مما هو الحال الآن.

وهكذا فإن الشعوب التي كانت تسكن حول البحر الأبيض المتوسط قد جُمِعت أكثر عن قرب معًا وسوِّيت خصائصها المحلية أكثر فأكثر. مما لاريب فيه، لم تتقدَّم الإمبراطورية بكاملها إلى الحد الذي كوَّنت فيه كتلة متماثلة معًا. لقد كان من الممكن دائمًا تمييز شقَّين، الغربي، الذي تحدَّث اللاتينية، وتأثَّر بالرومنة، والشرقي، الذي تحدَّث الإغريقية وتأثر بالهيلينية، وحين قضى على سلطة وحكم العالم من روما وتقاليدها، حين لم تعد روما عاصمة الإمبراطورية، فإن هذين القسمين انفصلا بكل من المعنى السياسي وكذلك الديني.

ولكن لم تكن هناك بعد فى الأيام الباكرة من العصر الإمبراطوري إمكانية هجوم خطير على وحدة الإمبراطورية.كانت هذه هي اللحظة التي كان فيها التمييز بين الأمم الخاضعة والمدينة المهيمنة يختفي. بمجرد أن فقدت روما قوتها، بدأ القياصرة فى عدم اعتبار أنفسهم بعد حكامًا للإمبراطورية بكاملها، كسادة روما والولايات، كسادة للولايات باسم روما. أطعمت روما - كلاً من الارستقراطية والشعب - بواسطة الولايات، ولكنها لم تعد قادرة على أن تنتج من مصادرها الخاصة جنودًا كافين وموظفين رسميين للسيطرة على الولايات، لم تعد روما الآن عنصر قوة فى إمبراطورية القياصرة، وإنما عنصر ضعف. ما أخذته روما من الولايات لم يذهب للقياصرة، ولم يكن هناك مكسب مكافئ للأخيرين. لقد أُكره الأباطرة من ثمَّ بسبب مصلحتهم الخاصة على أن يعارضوا وفي النهاية يقضوا على مركز روما المتميز فى الإمبراطورية.

كان حق المواطنة الرومانية يمنح بكرم الآن لسكان الولايات. ونجد الأخيرين يدخلون مجلس الشيوخ ويحتلون مناصب عُليا. كان القياصرة أول من وضع فى التطبيق العملي مبدأ مساواة كل البشر دون اعتبار لأصلهم: كان كل البشر خاضعين لهم بشكل متساوٍ ولقوا تقديرًا منهم فقط حسب فائدتهم، بغض النظر عن الشخص، وما إذا كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ أو عبيد، رومان، سوريين، أو غاليين. حوالي بداية القرن الثالث، تقدم تلاحم وتسوية الأجناس إلى حد أن كراكلا استطاع تحمل منح حقوق المواطنة الرومانية، لكل سكان الولايات، وهكذا فى آن معًا مزيلاً كل الاختلافات بين الحكام السابقين والمحكومين، توقفت كل هذه الاختلافات فى

الحقيقة منذ وقت طويل عن الوجود. لقد كان واحد من أكثر الأباطرة بؤسًا هو الذي عبَّر بوضوح هكذا عن واحدة من أكثر أفكار هذه الحقبة سموا، فكرة تدعى المسيحية أنها خاصة بها، والسبب الذى حرك الطاغية لاتخاذ هذا القرار - كان (سببا) بائسًا – وهو **العوز الاقتصادى**.

كان المواطنون الرومان معفين من الضرائب من الوقت الذى كانت الغنيمة قد بدأت فيه تتدفق بوفرة من الولايات المهزومة. "أتى إميليوس باولوس ومعه، 300000000 سيسترسس من الغنيمة المقدونية، للخزانة بعد أن هزم بيرسيوس. لم يدفع الرومان ضرائب منذ هذا الوقت فصاعدًا " [1]. ولكن بدءًا بعهد أغسطس، جعل العوز المالى المتزايد من الضرورى تدريجيًا إعادة فرض الضرائب فى شكل أعباء جديدة حتى على المواطنين الرومان. جعل "إصلاح" كراكلا الآن سكان الولايات مواطنين رومان، حتى يضطرهم لدفع الضرائب كمواطنين رومان بالإضافة إلى ضرائبهم الاعتيادية، وقد ضوعفت الأولى بشكل متزامن من قبل هذا العبقرى المالى الإمبراطورى. الجانب الآخر من القصة هو أنه زاد من ميزانية الجيش 15000000 جنيه إسترلينى ولسنا مندهشين من أن "إصلاحه المالى" كان ذو فائدة ضئيلة، وأنه كان عليه أن يلجأ لطرق أخرى، كانت أكثرها وقاحة التضخم وتزييف النقود.

كان التفسخ العام مواتيًا من جانب آخر بالنسبة لانتشار الأفكار الأممية واختفاء التحيزات القومية.

إن نقص السكان والفساد فى روما، انطلق بسرعة شديدة مع الرومان، إذ بعد أن كفوا عن تقديم جنود، سرعان ما توقفوا أيضًا عن أن ينتجوا **موظفين رسميين** ملائمين. نستطيع أن نتعقب هذا النقص حتى فى الأباطرة. كان الأباطرة الأوائل مازالوا من نسل عائلات روما الأرستقراطية القديمة، من عشيرتى جوليان وكلوديان. ولكن الإمبراطور الثالث من سلالة جوليان، كاليجولا، كان مجنونًا. ونيرون علامة على الافلاس الكامل لقدرة الأرستقراطية الرومانية على الحكم. خلف نيرون جالبا، كان أيضًا من عائلة رومانية عامية، ولكن تلاه أوتو من عائلة **إتروسكانية** مبرزة، وفيتيليوس، عامى من أبوليا. أخيرًا، ڤسباسيان، الذى أسس السلالة، كان عاميًا من أصل سابينى. ولكن العامة الإيطاليقيين ITALICS سرعان ماتبين أنهم فاسدين وغير أكفاء للحكم مثلما كان الأرستقراطيون الرومان تمامًا، ودومتييان البائس، إبن

27 بلينى، التاريخ الطبيعى، الفصل الثالث والثلاثين، 17.

فسباسيان، قد خلفه بعد حكم نيرفا القيصر الإسباني تراجان. يبدأ مع الأخير حكم الأباطرة الإسبان، الذى استمر لقرن تقريبًا، حتى دللوا هم أيضًا على الإفلاس السياسى، فى شخص كومودوس.

أسس سيبتيموس سيفيروس، بعد إنهاء الخط الإسبانى سلالة افروسورية. فورًا عقب قتل الإسكندر سيفيروس الإمبراطور الأخير فى هذا الخط، ذهب التاج إلى ثراسيانى، من أصل قوطى، وقدم الى، ماكسميين، من قبل الفيالق (الرومانية)، نذير بالزمن الذى سوف يحكم فيه القوط فى روما. هوجمت الولايات اكثر فأكثر بالعملية العامة للانحلال، واصبح من الضرورى اكثر فأكثر تنشيطها بالبرابرة، اي الدم غير الرومانى، حتى ينفخوا حياة جديدة فى الإمبراطورية المحتضرة، وكان يجب البحث الآن عن الجنود ابعد فأبعد عن المراكز الأساسية للحضارة، ليس الجنود فحسب، بل حتى الأباطرة.

لقد راينا آنفاً العبيد يحكمون بوصفهم حاشية الرجال الأحرار، ونحن نرى الآن الولاياتيون PROVINCIALS، حتى البرابرة الذين وضعوا على العرش كأباطرة، يحكمون باعتبارهم كائنات لها حق العبادة الإلهية. اختفى كل التحيز العرقى والطبقى للعصور القديمة الوثنية بالضرورة، واتجه شعور بالمساواة يتأكد اكثر فأكثر.

برهنت كثير من العقول على هذا الموقف فى مرحلة مبكرة، قبل أن تجعله الظروف الموصوفة آنفاً ظاهرة متكررة. وهكذا يكتب شيشرون بالفعل (DE OFFICIIS، 3، 6):

"إن من يدافع عن أننا يجب أن نقدر مواطنينا، والا نقدر الغرباء، ينتهك الروابط العالمية للجنس البشرى، وهكذا يلغي جوهريًا الإحسان، والكرم، والعطف والعدالة". يخلط مؤرخونا الأيديولوجيون هنا مرة أخرى السبب بالنتيجة ويحاولون أن يستخدموا مثل هذه الجمل (التى يجدها "الورع" فى الأناجيل، و"المستنير" فى الفلسفات الوثنية) كأسباب لتفسير ترقيق العادات وتوسيع مفهوم الأمة ليشمل كل البشرية. الصعوبة الوحيدة هى انهم مواجهون بحقيقة أن النفوس النبيلة والسامية التى يزعمون انها احدثت هذه الثورة فى عقول البشر قد تراسها مجرمون وشهوانيون مثل طيباريوس، نيرون، كراكلا، وكذلك كوكبة من الفلاسفة العصريين المسرفين فى الأناقة والمحتالين، مثل سينيكا، بلينى الأصغر، أبولونيوس من تيرانا، وأفلوطين.

لابد وان نشير على نحو عابر، إلى أن المسيحيون الأرستقراطيون، لم يجدوا من العسير ان يتكيفوا مع مجتمع عصبة النبلاء هذه، ودعنا نقدم مثلاً واحداً فقط على ذلك. من بين المحظيات من الأناث والذكور الذين احتفظ بهم الإمبراطور كومودوس (180- 192

ب م) - ذكر حريم مؤلف من 300 فتى و300 فتاة - كان شرف احتلال المكانة الأولى لمارسيا، وهي مسيحية ورعة، ابنة بالمعمودية لهاكينيثوس، كاهنة المجمع المسيحى فى روما. لقد كان نفوذها عظيمًا إلى حد انها أمَّنت تحرير عدد من المسيحيين المرحلين. ولكنها أخيرًا وجدت عشيقها الإمبراطورى مثيرًا للغثيان إلى حد ما، وربما خافت من ان تعطشه للدماء قد يكلفها حياتها. باختصار، اشتركت فى المؤامرة ضد حياة الإمبراطور وأخذت على عاتقها ان تنفذ الاغتيال. فى ليلة 31 ديسمبر 192، اعطت هذه السيدة المسيحية الورعة عشيقها الذى لم تراوده الشكوك قدحًا من السم، وحيث لم يسر مفعولة بسرعة كافية، خُنق الإمبراطور، الذى لم يكن واعيًا بالفعل.

مميزة بنفس القدر قصة كاليستوس، الذى حظى بحماية مارسينا.

"كان لدى كاليستوس هدايا خاصة للعمل المالى فى سنواته الباكرة، وقد احتفظ ببنك. كان فى البداية عبدًا لمسيحى مبرز، الذى أعطاه قدرًا معتبرًا من المال ليقرضه بفائدة. واستنادًا على قوة متانة مركز سيده حصل على نقود الأرامل وآخرين، وشارف أخيرًا حافة الإفلاس، وسأله سيده عندئذ عن الحساب. فهرب، ولكنه أسر، وأرسله السيد إلى طاحون التعذيب. إذ حصل على حريته من خلال توسلات إخوته المسيحين، أرسله الوالى عندئذ إلى المناجم السردينية، ونال عطف مارسيا، أكثر عشيقات الإمبراطور كومودوس قوة. فأطلق سراحه بناء على طلبها، وعين بعدها بوقت قصير أسقفًا لروما [1].

يعتبر خالتوف من الممكن أن الروايتين الواردتين فى الأناجيل التى تتعلق بالقهرمان الكافر الذى "يصنع اصدقاء بمال الظلم". (لوقا 161 - ، 1 - 9) والمراة الخاطية، التى غفرت خطاياها، "الكثيرة لأنها احبت كثيراً" (لوقا 7، 36 - 48). قد ضمنت فى الأناجيل حتى تقدم تفسيرًا إلهيا واقرارًا للشخصيتين المشكوك فيهما لمارسيا وكاليستوس، اللذين كانا شديدى البروز فى المجمع المسيحى فى روما. قد يخدم هذا أيضًا كإسهام فى تاريخ اصل الأناجيل.

لم يكن كاليستوس الأسقف والبابا الأخير الذى يدين بمنصبه لعشيقته، ولم يكن قتل كومودوس آخر عمل للعنف المسيحى: بدأ التعطش للدماء وقسوة كثير من الباباوات والأباطرة، من ازمنة قنسطنطين المقدس، وهى معروفة جيدًا حتى تستلزم ذكرها.

"ترقيق وترفيع آداب السلوك" الذى رافق إدخال المسيحية كان من ثم إلى حد ما ذو طبيعة خصوصية. ولفهم حدوده وتناقضاته، فمن الضرورى أن ندرس جذوره

---

28 خالتوف، نشوء المسيحية، ترجمة جوزف مكابى، لندن، 1907، 171 - 172.

الاقتصادية، حيث لن تفسره المذاهب الأخلاقية الرفيعة لهذه الأزمنة. ويصدق نفس القول على أمية تلك الأيام.

و- الاتجاه إلى الدين

مواصلات بامتداد العالم وعملية تسوية سياسية كانتا سببان قويان فى تزايد الأممية، ولم تكن هذه الزيادة لتصل النسب التى بلغتها، إذا لم تكن بسبب انحلال كل هذه الروابط التى لحمت الجماعات القديمة، وعزلت فى آن معًا كل منها عن الأخرى. التنظيمات التى حددت كامل حياة الفرد فى العصور القديمة، وزودته بدعم وإرشاد فقدت كثيرًا من مغزاها وقوتها فى الفترة الإمبراطورية. ولاينطبق هذا فقط على تلك التنظيمات التى أُسست على روابط الدم، مثل أخوية العشائر، متضمنة حتى الأسرة، وإنما أيضًا على تلك المؤسسة على الوحدة الإقليمية، على إقامة مشتركة فى نفس الموطن، كما فى حالة العشيرة والجماعة. نتج هذا، كما رأينا، عن سعى عام، من جانب الأشخاص الذين فقدوا هكذا دعمهم الأخلاقى، من أجل نماذج وقادة، بل وحتى مخلصين، ولكنه حث البشر أيضًا على السعى إلى تأسيس تنظيمات اجتماعية جديدة، تلبي على نحو افضل الحاجات الجديدة أكثر مما فعلت الأشكال التقليدية، التى اصبحت مجرد عبء أكثر فأكثر.

نجد بالفعل اتجاهًا عامًا قرب نهاية الجمهورية نحو تشكيل النوادى والجمعيات، خاصة لأغراض سياسية، ولكن أيضًا لأغراض تقديم مساعدة خيرية. لقد حلت هذه من قبل القياصرة، لأن الاستبداد لايخشى شيئًا بقدر مايخشى التنظيمات الاجتماعية. تكون قوة الاستبداد أعظم حين تمثل سلطة الدولة التنظيم الاجتماعى الوحيد، بينما يواجه مواطنى الدولة تلك السلطة كأفراد مبعثرين فقط.

". يروى لنا سويتنيوس (القيصر، الفصل 42)ان قيصر بالفعل "حل كافة الجمعيات سوى التى كانت غاية فى القدم بينما يقول عن اغسطس:

"نظمت كثير من الأحزاب فِرَقًا FACTIONES PLURIMOE تحت اسم كوليجيوم* لممارسة كل الفظاعات الممكنة.... حل هذه الكوليجيومات باستثناء تلك التى كانت غاية فى القدم ومعترف بها قانونًا" [1].

---

* كوليجيوم: مجلس يتمتع كل عضو من أعضاءه بسلطة مساوية تقريبًا لسلطة الأعضاء الآخرين. (المترجم)

يجد مومسن هذه التدابير جديرة بالثناء تمامًا. لاشك، لأن المحتال البارع وعديم الضمير قيصر يبدو له كرجل دولة حقيقى "خدم الشعب ليس من أجل مكافأة، ليس حتى مكآفأة لحبه" ولكن "من أجل نعمة الرفاهية، وفوق كل شيء للتصريح بإنقاذ وتجديد أمته" [2]. لفهم هذا التقويم لقيصر، يجب أن يتذكر القارئ أن مؤلف مومسن ظهر فى الأعوام التى تلت مباشرة معركة يونيو (ظهرت الطبعة الأولى فى 1854) حين كان الليبراليون يمجدون نابليون الثالث، وخصوصًا الألمان، باعتباره منقذ المجتمع، حيث جعل نابليون نمطًا معينًا من عبادة القيصر عصرية.

بعد توقف النشاط السياسى (ونشاط) الجمعيات السياسية، تحول هؤلاء الذين يرغبون فى التواصل الاجتماعى إلى جمعيات أكثر براءة، خاصة الجمعيات المهنية والجمعيات الخيرية لإعانات المرضى والمتوفين، ومساعدة الفقراء، جمعيات (إطفاء) الحريق الطوعية، ولكن نمت أيضًا هيئات تزجية أوقات الفراغ، المطاعم، الجمعيات الأدبية، وماشابه، مثل نبات الفطر. ولكن القياصرة كانوا شاكين جدًا لحد أنهم لم يحتملوا حتى هذه التنظيمات، لأن الأخيرة ربما تخدم كقناع لجمعيات أخطر نشاطًا.

ربما مانزال نقرأ فى المراسلات بين بلينى وتراجان رسائل يتحدث فيها بلينى عن حريق هائل دمر نقوديميا ويوصى بالتصريح بتأسيس جمعية حريق طوعية COLLEGIUM FABRORUM لا يزيد عددها عن 150 رجل، حيث يمكن إبقاء مثل هذا العدد بسهولة تحت المراقبة. ولكن تراجان وجد حتى هذا القرار خطرًا ورفض التصريح الذى طلب [3].

تبين لنا رسائل تالية (رقم 117 ورقم 118) انه حتى تجمعات الأشخاص فى مناسبات الزواج أو الاحتفالات الأخرى للأغنياء، التى كانت توزع فيها النقود، بدت لبلينى وتراجان بوصفها خطرًا على الدولة.

ولكن مؤرخينا يمجدون تراجان باعتباره واحدًا من أفضل الأباطرة.

وجدت غريزة التنظيم نفسها مضطرة تحت هذه الظروف إلى أن تنخرط فى نشاط سرى. عنى اكتشاف ذلك، على أية حال، عقوبة إعدام للمشاركين. من

=

29 أوكتافيانوس اغسطس، الفصل 32.

30 تاريخ روما، المجلد الخامس، ص 324.

31 بلينى، رسائل، العاشرة، 42، 43.

الواضح أن مجرد التسليات أو حتى الميزات التى تصبح حقًا للفرد فقط، رغم انها قد تضمن تحسينًا فى وضعه الشخصى، لايمكن ان تكون قوية بما يكفى حتى تحمل أى إنسان على أن يخاطر بعنقه. يمكن لمثل هذه التنظيمات أن تحافظ على نفسها وكذلك على هدفها بشئ يتعالى على مجرد الميزة الشخصية، وهو ما سوف يبقى حتى إذا هلك الفرد، غير أن مثل هذه التنظيمات يمكن أن تكتسب قوة فقط، إذا كان هذا الهدف يتوافق مع مصلحة اجتماعية وحاجة قوية ومقدرة بشكل شامل، مصلحة طبقية أو مصلحة عامة، مصلحة تشعر بها على نحو أكثر عمقًا جماهير كبرى، ومن ثم قادرة على حفز أكثر أعضائها حيوية وإيثارًا على المخاطرة بحياتهم حتى يلبوا متطلباتها. بمعنى آخر، فقط مثل هذه التنظيمات يمكن أن تحافظ على نفسها فى الفترة الإمبراطورية لأنها تابعت موضوعًا اجتماعيًا بعيد المنال، مثلاً أعلى. ليس مجرد الكفاح من أجل مميزات عملية، أو من أجل الحفاظ على المصالح العرضية، هو الذي يعطى الحياة والقوة لأى تنظيم، وإنما الحماس الأكثر ثورية أو مثالية.

ليس هناك مايجمع هذه المثالية مع المثالية الفلسفية. قد تكون متابعة الأهداف الاجتماعية الكبرى نتاج فلسفة مادية أيضًا، وفى الحقيقة فإن الطريقة المادية، التي تؤسس نفسها على التجربة، وعلى دراسة العلاقات الضرورية للسبب والنتيجة فى تجاربنا، قد تؤدي لاقتراح أهداف اجتماعية كبرى خالية من الأوهام. ولكن كانت كل المتطلبات الضرورية لوجود هذه الطريقة مفتقدة فى الفترة الإمبراطورية. أمكن للفرد أن يتجاوز نفسه فقط بواسطة صوفية خاضعة لسلطان القيم الأخلاقية، وهكذا تتحقق رؤية الأهداف التى تتعالى على الصالح الشخصى والعرضى، بمعنى آخر بواسطة هذا النمط من التفكير الذى يعرف باعتباره دينيًا فقط. بقيت فقط الجمعيات الدينية فى الفترة الإمبراطورية. ولكن سيكون لدينا فهم خاطئ لها إذا ما كان شكلها الدينى، وصوفيتها الخاضعة لسلطان القيم الأخلاقية، جعلنا نغفل المضمون الاجتماعى الكامن فى كل هذه التنظيمات، الذى أعطاها قوتها: التوق لإيقاف الظروف المحزنة القائمة، التطلع لأشكال اجتماعية أعلى، ومن أجل تعاون أوثق وعون متبادل لهؤلاء الأفراد الكثيرين الآن بلا مأوى عقلى، الذين استنبطوا شجاعة جديدة ومرحًا من التجمع معًا من أجل إنجازات عليا.

ولكن تضمنت هذه التنظيمات الدينية خطًا جديدًا للإنقسام فى المجتمع، فى ذات اللحظة التى كان يتوسع فيها مفهوم القومية، على الأقل بقدر ما تعلق الأمر ببلدان البحر الأبيض المتوسط، نحو ذلك الذى يخص الإنسانية. لم تضعف

التنظيمات الاقتصادية البحتة التى هدفت لمساعدة الفرد فقط فى جانب أو آخر، من ارتباط الفرد بالمجتمع القائم ولم تعطه اهتمامًا جديدًا بالحياة. ولكن كان الأمر مختلفًا مع الجمعيات الدينية، التى تابعت مثالاً اجتماعيًا أعلى تحت زى دينى. كان هذا المثال متعارضًا تمامًا مع النظام القائم للمجتمع، ليس فى مسألة واحدة فقط، ولكن فى كل الجوانب الممكنة. تحدث المدافعون عن هذا المثال نفس اللغة مثل بيئتهم، ومع ذلك لم يُفهموا من قبلهم، وفى كل خطوة واجه العالمين، القديم والجديد، كل منهما الآخر بطريقة عدائية، بالرغم من أن كليهما عاش على نفس الأرض. وهكذا نشأت معارضة جديدة بين البشر. فى ذات اللحظة التى بدأ فيها الغالى والسورى، الرومانى والمصرى، الإسبانى والإغريقى، يفقد فيها هويته القومية، ظهر هناك الاختلاف الكبير بين المؤمنين وغير المؤمنين - القديسون والخطاة، المسيحيون والوثنيون، الذى سرعان ما قسم العالم كما لو كان بهاوية.

كلما أصبح هذا التضاد أَحَدُ، كلما بات الصراع أكثر تشديدًا، وتزايد أيضًا عدم التسامح والتعصب، وهو ملازم ضرورى لأى صراع مؤلفًا مثل الصراع نفسه، عنصرًا ضروريًا للتقدم والتطور، إذا أعطى قوة وحيوية لقوى التقدم. ولكن دع القارئ يلاحظ أننا نستعمل كلمة "عدم التسامح" ليس باعتبارها تعنى قمعًا قهريًا لكل الآراء غير الملائمة، ولكن رفضًا حيويًا ونقدًا لكل وجهات النظر المختلفة، مصحوبة بدفاع حيوى عن وجهات نظر المرء الخاصة. يمكن للجبن والتراخي فقط أن "يتسامح" بهذا المعنى، حيث تكون مسائل الحياة العظمى والشاملة على المحك.

مما لاريب فيه، فإن هذه المصالح تخضع لتغير دائم، فمسألة حياة أو موت أمس، ربما تكون اليوم مسألة لاأهمية لها، من الصعب أن تكون جديرة بالقتال من أجلها. من ثم فإن دفاعًا تعصبيًا عن مثل هذه النقطة كان مازال ضرورة أمس ربما يكون اليوم مناسبة لطاقة مُبَددة، وعلى ذلك له تأثيرات غاية فى سوء الحظ.

وهكذا فإن عدم التسامح الدينى والتعصب الدينى لكثير من الطوائف المسيحية التى كانت تحرز قوة فى هذا الوقت شَكّل واحدًا من القوى التى سَرَّعت التطور الاجتماعى، مادامت الأهداف الاجتماعية كانت فى متناول الجماهير حين ترتدى رداء دينيًا فقط، بمعنى آخر، من العصر الإمبراطورى حتى عصر الإصلاح. ولكن هذه الصفات أصبحت رجعية، وشكلت وسائل لإعاقة التقدم، حين أبطلت مناهج العلم الحديث نمط التفكير الدينى، انتهينا إلى أن من يتعلق به هي الطبقات والفئات

المتخلفة من السكان أو الأقاليم المتخلفة فقط، وربما لايستمر بأى طريقة فى أن يخدم كغلاف لأهداف اجتماعية جديدة.

كان عدم التسامح الدينى سمة جديدة تمامًا فى نمط تفكير المجتمع القديم. وأيا ما كان عدم تسامح الأخير من وجهة نظر قومية، حيث قليلاً ما كان يحترم الغرباء، فضلاً عن الأجانب الذين استعبدهم أو قتلهم، بالرغم من أنهم ربما لم يقاتلوا كجنود، فإن المجتمع القديم مع ذلك لم يحلم باحتقار أحد بسبب قناعاته الدينية. هذه الحالات التى ربما تعد اضطهادًا دينيًا، مثل، محاكمة سقراط على سبيل المثال، يمكن أن تفسر كنتيجة للاتهامات السياسية التى لم تكن دينية فى طابعها.

كان النمط الجديد فى التفكير الناشئ فى العصر الإمبراطورى أول من حمل معه عدم التسامح الدينى، وقد فعل ذلك على كلا الجانبين، المسيحى وكذلك الوثنى، على الجانب الوثنى، لم يتضمن عدم التسامح كل الديانات الأجنبية بالطبع، ولكن فقط تلك التى كانت تبشر بمثال اجتماعى جديد تحت غطاء دينى، مثال، يتعارض على نحو مطلق مع نظام المجتمع القائم.

استبقى الوثنيون فى كل الحالات الأخرى، التسامح الدينى الذى مارسوه سابقًا، فى الواقع، لقد كان تحديدًا فى هذه الأزمنة الإمبراطورية من الاتصال الدولى أن تأسست أممية معينة للعبادات، حيث أخذ التجار الأجانب والرحالة الآخرين دائمًا آلهتهم معهم أينما ذهبوا، وكانت الآلهة الغريبة عندئذ تقدر عاليًا أكثر من الآلهة المحلية، لأن الأخيرة لم تكن ذات نفع كبير، لأنها أظهرت عجزها. قاد نفس شعور اليأس الذى نتج عن التفسخ العام أيضًا إلى فقدان الإيمان فى الآلهة القديمة دافعًا كثيرًا من النفوس الأشجع والأكثر استقلالاً أن تتجه إلى الإلحاد والشكية، نحو شكوك فى كل إله، وحتى فى كل فلسفة بينما توجهت العناصر الأكثر جبنًا، وضعفًا، على أية حال، للبحث عن مخلص جديد، الذى يمكن أن تجد فيه دعمًا وأملاً كما رأينا. ظن كثيرون أنهم وجدوا هذه الصفة فى القياصرة، الذين جُعلوا آلهة. ظن آخرون أنه من الأحكم التوجه نحو الآلهة التى وُقرت لزمن طويل باعتبارها كذلك، ولكنها لم تجرب بعد فى بلدها المختار. كانت النتيجة أن الديانات الأجنبية أصبحت شعبية.

فى هذه المنافسة الدولية بين الآلهة، على أى حال، هزم الشرق الغرب، جزئيًا بسبب أن الديانات الشرقية كانت أقل سذاجة، وأكثر تشبعًا بالفلسفة الغنية للمدن

الكبرى، لأسباب سوف نعلمها فيما بعد، ولكن جزئيًا أيضًا بسبب أن الشرق كان يهزم الغرب فى المجال الصناعى.

كانت حضارة الشرق القديم أرفع جدًا من حضارة الغرب عندما نهبها أولاً المقدونيون وفيما بعد الرومان. ربما يظن القارئ أن التسوية الدولية التى كانت قد بدأت آنئذ قد انطوت أيضًا على مساواة صناعية، رافعة الغرب بالضرورة لمستوى الشرق، ولكن العكس هو ما نتج بالفعل. لقد رأينا أنه بدء من نقطة معينة هناك عملية عامة من التفسخ فى العالم القديم، عاقبة جزئيًا لهيمنة العمل الإجبارى على العمل الحر، وجزئيًا لنهب الولايات من قبل رأس المال الربوى. ولكن ينطلق هذا الانحلال على نحو أكثر سرعة فى الغرب منه فى الشرق، انتهاءًا إلى نتيجة أن رقى الأخير الثقافى لقرون عديدة، بدءًا من القرن الثانى من عصرنا، وحتى حوالى 1000 ب.م لايتناقص بل يتزايد. يجرى الفقر، البربرية، نقص السكان بخطوات أسرع فى الغرب منها فى الشرق.

يوجد سبب هذه الظاهرة فوق كل شيء فى الرقى الصناعى للشرق والزيادة الدائمة لاستغلال الطبقات العاملة عبر الإمبراطورية. تدفقت الأرباح الفائضة التى أنتجتها الأخيرة فى قسمها الاعظم إلى روما، مرتكز كل المستغلين الكبار، من كل الولايات الرومانية. ولكن من كل الفائض الذى تراكم فى روما، الذى اتخذ شكل نقود، تدفق نصيب الأسد إلى الشرق. لأن الشرق فقط هو الذى أنتج كل مواد الترف المرغوبة من المستغلين الكبار. لقد كان الشرق هو من قدم الترف، والعبيد، وأيضًا المنتجات الصناعية، مثل الزجاج والأرجوان فى فينيقيا، الكتان والملابس المطرزة فى مصر، الأصواف الجيدة والجلود فى آسيا الصغرى، السجاد فى بابل. وكانت الخصوبة المتناقصة لإيطاليا تجعل مصر مخزن حبوب روما، لأنه، بفضل فيضانات النهر، الذي غطى تربة مصر بطمى خصب جديد كل عام، كانت زراعة وادى النيل لاتنضب.

مما لاريب فيه، أن كثيرًا مما قدمه الشرق كان يؤخذ بالقوة فى شكل ضرائب وفوائد ربوية، ولكن بقيت كمية معتبرة وجب أن يدفع مقابلها بثمار الاستغلال فى الغرب، الذى كان يتزايد فقره.

كانت المواصلات مع الشرق قد بدأت تتوسع ماوراء حدود الإمبراطورية. أصبحت الإسكندرية ثرية، ليس فقط من خلال بيع المنتجات الصناعية المصرية ولكن أيضًا بلعب دور الوسيط فى التجارة مع الجزيرة العربية والهند، بينما بدأ طريق تجارى إلى الصين من سينوب SINOPE على البحر الأسود. قدر بلينى فى مؤلفه التاريخ

الطبيعى ان حوالى 100000000 سيسترسس (اكثر من 5000000 جنيه إسترلينى) كانت تنتزع من الإمبراطورية سنويًا لدفع ثمن الحرير الصينى، الجواهر الهندية والتوابل العربية، دون عوض ذو قيمة فى شكل سلع، وأيضًا دون إجبار الاراضى الأجنبية بأى طريقة على ان تدفع جزية او فائدة. كان ينبغى ان تدفع كل الكمية بالمعدن الثمين.

ولكن مع البضاعة الشرقية، جاء التجار الشرقيون ايضًا إلى الغرب، أحضروا أشكال عبادتهم معهم. كانت هذه تلبي تمامًا احتياجات الغرب، بسبب حقيقة ان شروطًا اجتماعية مماثلة قد وجدت سلفًا فى الشرق، بالرغم من انها قد لا تكون قد تطورت بمثل تلك النسب الكارثية التى كانت قد بلغتها الآن عبر الإمبراطورية الرومانية. إن فكرة الخلاص بواسطة إله جرت حيازة نعمة الطيبة بواسطة التخلى عن المسرات الارضية كانت خصوصية بالنسبة لمعظم هذه العبادات التى انتشرت بسرعة الآن خلال الإمبراطورية، خاصة بالنسبة للعبادة المصرية لإيزيس، والعبادة الفارسية لميثرا.

"إيزيس بصفة خاصة، التى بدات عبادتها فى روما فى زمن سولا، ونالت عطفًا إمبراطوريًا فى ظل ڤسباسيان، كانت تنتشر الآن إلى اقصى نقطة غربيًا، وحازت تدريجيًا مغزى ضخمًا كلى الانتشار، اولاً كإلاهة للشفاء، خاصة بالمعنى البدنى الضيق.... كانت عبادتها حافلة بالمواكب العظيمة، وأيضًا بالضرب، التكفير، والالتزام الصارم، خاصة فى الأسرار. لقد كان تحديدًا التوق الدينى، الأمل فى اغتفار الخطايا، الرغبة فى الكفارات القاسية والأمل فى الحصول على خلود مقدس بالخضوع الكامل لإله، هى التى شجعت انتشار مثل هذه العبادات الغريبة فى الأولمب الإغريقى او الرومانى، الذى كان سابقًا غير مبال بالأحرى بمثل هذه الاحتفالات الغامضة، والنشوات المبهجة، والممارسات السحرية، نكران الذات، خضوع لاحدود له لإله، نكران زهدى للذات والتكفير كشرط للتطهر والقداسة. كانت مازالت العبادة السرية لميثرا اكثر قوة، التى انتشرت بصفة خاصة بواسطة الجنود، والتى ادعت أيضًا تحقيق الخلاص والأبدية ؛ أصبحت هذه العبادة معروفة أولاً فى زمن طيباريوس" [1].

---

32 هيرتسبرج،
Geschichte Des Römischen Kaiserreichs.
الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب، روما الإمبراطورية (فيلادلفيا، 1905) تستبعد هذا المقطع - المترجم عن الأصل الألماني.

أصبحت نظرات الهند الشرقية رائجة أيضًا فى الإمبراطورية الرومانية، على سبيل المثال، ابولونيوس من تيانا، الذى كانت لدينا فرصة ذكره آنفا، قام برحلة خاصة إلى الهند لدراسة المذاهب الفلسفية والدينية المتداولة فى ذلك البلد. لقد سمعنا أيضًا فيما يتعلق بأفلوطين انه قد رحل إلى فارس حتى يصبح ملمًا على نحو افضل بالحكمة الفارسية والهندية.

لم تخفق كل هذه النظرات والعبادات فى أن تترك أثرًا بين المسيحيين الذين كانوا يجاهدون من أجل الخلاص والتسامى؛ لقد كانت واحدة من أكثر التأثيرات قوة على عبادة وخرافات المسيحية.

"إيسيبيوس، أب الكنيسة، عامل هذه العبادة المصرية باحتقار باعتبارها "حكمة الجعارين"، مع أن أسطورة العذراء مريم هى مجرد صدى لأساطير نشأت على ضفاف النيل.

"كان أوزيريس يمثل على الأرض بالعجل ابيس، كما حملت أم أوزيريس به بدون تدخل إله، فقد كان ضروريًا أيضًا لممثله على الأرض أن يحمل به بواسطة بقرة عذراء دون مساعدة ثور. يخبرنا هيرودوت أن أم ابيس قد خصبت بواسطة شعاع شمس، بينما وفقًا لبلوتارخ فقد حملت من شعاع القمر".

"مثل ابيس، لم يكن ليسوع أب، فقد حُمل به بواسطة شعاع ضوء من السماء، كان أبيس عجلاً، ولكنه مَثّل إلها، وكان يسوع إلها مُثِّلَ بحَمَلْ، غير أن أوزيريس نفسه كان يمثل أيضًا باعتبار أن "له راس كبش" [1].

فى الواقع لاحظ معلق ساخر **SCOFFER**، ربما فى القرن الثالث، حينما كانت المسيحية قوية تمامًا بالفعل، بأنه لم يكن هناك اختلاف عظيم جدًا فى مصر بين المسيحيين والوثنيين: "هؤلاء الذين عبدوا سرابيس فى مصر هم أيضًا مسيحيون، وهؤلاء الذين يسمون انفسهم أساقفة مسيحيين هم أيضًا عبدة سرابيس ؛ كل حبر عظيم من اليهود، كل سامرى، كل كاهن مسيحى فى مصر، كان فى نفس الوقت

---

33 لافارج،

ss Lafargue, der Mythus von der Unbefleckten Empfängnis, die Neue Zeit, Vol. XI, No. I, P. 49.

ساحرًا، نبيًا، دجالاً (ALIPTES). حتى عندما يأتى البطريرك إلى مصر، يريده البعض أن يصلى لسرابيس بينما يريده البعض الآخر أن يصلى للمسيح "[1].

أضف إلى ذلك، فإن قصة ميلاد المسيح، كما توجد فى إنجيل لوقا لها ملامح بوذية معينة.

يشير بفليدرر أنه لم يكن لمؤلف الإنجيل أن يخترع هذه الحكاية من لاشيء، رغم أنها ربما غير تاريخية، فلابد وأنه أخذها من خرافات "وصلت لعلمه بطريقة ما"، يحتمل من خرافات قديمة كانت شائعة عند كل الشعوب الغرب آسيوية. لأننا نجد نفس الخرافات فى بعض الأحيان مع تماثل نفس العلامات المميزة بشكل لافت للنظر، فى قصة طفولة الهندى الشرقى المخلص بوذا (الذى عاش فى القرن الخامس ق.م، ك) وقد ولد هو أيضًا بطريقة عجائبية من العذراء المَلكة مايا الذى اخترق بوذا جسدها الطاهر بصفته ضوء من السماء. تظهر فى ميلاده أيضًا، الأرواح السماوية وتترنم بأغنية التمجيد هذه: "بطل رائع، بطل لايضاهى قد ولد. هبة للعالم، ملئ بالرحمة، انشروا اليوم خيريتكم على كل أشياء الفضاء الكونى! دعوا الفرح والرضى يغمران كل الكائنات، حتى تصبح ساكنة، سادة أنفسها وسعيدة". بوذا أيضًا أحضرته أمه عندئذ إلى المعبد حتى تقوم بالعادات الشرعية، هناك وجده الناسك العجوز أسيتا، الذى حثه هاتف على أن ينزل من الهيمالايا؛ ونبوءات أسيتا بأن هذا الطفل سوف يصبح بوذا، المخلص من جميع الشرور، مرشدًا للحرية والنور والأبدية..... وأخيرًا لدينا تقييم موجز عن كيف يتنامى الطفل الملكى يوميًا فى الكمال العقلى والقوة الجسدية والجمال - وهو الذى قيل تحديدًا عن الطفل يسوع فى إنجيل لوقا الإصحاح الثانى، 40، 52"[2].

"رويت أيضًا أمثلة عن الحكمة الباكرة للجاوتاما فى طور نموه، من بين قصص أخرى، فقد قيل أنه أثناء احتفال لشعبه، فُقد الصبى، وبعد بحث متلهف، وجد بجانب أبيه فى حلقة الرجال المقدسين المستغرقين فى تأمل ورع، وإذ ذاك "حث أباه المندهش أن يسعى وراء أشياء أعلى"[3].

---

34 مقتبس من مومسن، **ولايات الإمبراطورية الرومانية**، لندن، 1886، المجلد الثانى، ص 266.
35 **المسيحية الأولية**، لندن، 1906 - 1911، المجلد الثانى، ص ص 108 - 110.
36 بفيلدرر، **أصول مسيحية**، نيويورك، 1906، ص 229.

يشير بفليدرر فى الكتاب المذكور آنفاً، لعناصر إضافية أخذتها المسيحية من اشكال العبادة الأخرى؛ على سبيل المثال، من عبادة ميثرا. لقد اقتبسنا سلفاً إشارة بفليدرر السابقة للعشاء الرباني، الذى كان واحداً من أسرار ميثرا المقدسة (ص 158). من المحتمل ان تكون هناك عناصر وثنية أيضاً فى مذهب البعث.

"ربما كان بولس متأثراً بالفكرة الشعبية عن الإله الذى يموت ويعود إلى الحياة، التى هيمنت فى ذلك الوقت فى عبادات أدونيس، أتيس وأوزوريس فى آسيا الدنيا (HITHER) (بأسماء وعادات مختلفة، متشابهة كثيراً فى كل مكان). فى أنطاكية، العاصمة السورية، التى كان بولس نشطاً فيها لفترة يعتد بها، حدث الاحتفال الرئيسى بعيد - أدونيس فى الربيع ؛ فى أول يوم (فى احتفال أوزيريس كان اليوم الثالث بعد الوفاة، بينما فى احتفال أتيس كان فى اليوم الرابع)، كان يحتفل بموت أدونيس "الإله"، بينما فى "اليوم التالى، وسط أناشيد الرثاء العنيفة التى كانت تغنيها النساء، مثلوا دفن جثته (بواسطة صورة)، اما فى اليوم الذي يعقبه، فيجرى الإعلان عن أن الإله يحيا وجعل (صورته) تطير فى الهواء" إلخ [1].

ولكن بفليدرر يشير بصواب إلى أن المسيحية لم تتبنَ هذه العناصر الوثنية فحسب، ولكنها كيفتها لتناسب منظومة اعتقادها الموحدة. لأن المسيحية لم تكن تمنح ملاذا للآلهة الغريبة بدون تحويلها، وقد كان توحيدها وحده كافياً ليمنع مثل هذا الإجراء.

ز – التوحيد

ولكن حتى التوحيد، الايمان بإله واحد، لم يكن مميزا للمسيحية فقط. فى هذه الحالة أيضاً لدينا فرصة لأن نكشف الجذور الاقتصادية التى أسست عليها الفكرة. لقد رأينا سلفاً كيف أصبح سكان المدن الكبرى غرباء عن الطبيعة، وكيف أن كل التنظيمات التقليدية التى منحت سابقاً، دعماً أخلاقياً ثابتاً للفرد، قد تحللت ؛ واخيراً، كيف أن انهماما بالذات أصبح المهمة الرئيسية للفلسفة، التى اتخذت تدريجياً موقعاً جديداً فتحولت من بحث العالم الخارجى إلى إطالة التفكير فى مشاعر الفرد واحتياجاته الذاتية.

---

37 نفس المصدر، ص 175.

خدم الآلهة أولاً كتفسير لعمليات الطبيعة التى لم تكن ارتباطاتها السببية قد فهمت بعد. كانت هذه العمليات غاية فى التعدد ومن أشد الأنواع تباينًا، لقد تطلبت من ثم لتفسيرها خلق أكثر انماط الآلهة تنوعًا واختلافًا، رهيبة ومبهجة، وحشية ورقيقة، ذكرًا وانثى. عندئذ، مع التقدم فى معرفة العلاقات السببية فى الطبيعة، أصبحت الآلهة الفردية غير ضرورية أكثر فأكثر، ولكن فى مجرى آلاف الأعوام تجذرت بغاية الرسوخ فى فكر الإنسان، وأصبحت مرتبطة غاية الارتباط باهتماماته اليومية، بينما لم تكن الطبيعة بأى حال كاملة تمامًا حتى تزيل الإيمان بالآلهة كلية. وجد الآلهة انفسهم الآن مبعدين من مجال للفعالية بعد آخر، من كونهم رفقاء دائمين للإنسان، أصبحوا الآن ظواهر عجائبية غير عادية، إذ كانوا ذات مرة سكانا فى الارض، فقد نسبوا الآن لنطاقات فوق الارض، فى السماء، بعد أن كانوا نشيطين، عاملين ذوى طاقة ومحاربين، وأبقوا العالم فى حالة اضطراب بلا كلل، أصبحوا الآن مُرَاقبين، مُتأملِين للمشهد الكونى.

من المحتمل أن التقدم فى العلم الطبيعى كان سيزيلها فى النهاية جميعًا، إذا لم يكن نشوء المدن الكبيرة والتدهور الاقتصادى الذى وصفناه سابقًا لم يثمر غربة عن الطبيعة وتسبب في أن تكون طليعة الفكر مشغولة بصفة رئيسية بدراسة الروح بواسطة الروح، بمعنى آخر، ليس بواسطة دراسة علمية لجملة كل الظواهر العقلية التى خُبِرت، ولكن بدراسة أصبحت فيها روح الفرد مصدر كل الحكمة فيما يخص ذاتها، وجعلوا هذه الحكمة بدورها المفتاح لكل حكمة العالم. ولكن مع أن مشاعر واحتياجات النفس قد تتعدد، فقد افتُرض أن النفس ذاتها وحدة غير منقسمة، وقد جرى تصور نفوس الآخرين بوصفها من نفس النسيج تمامًا كنفس الفرد المدرك.

أي موقف علمى كان سيخلص إلى الاستنتاج بخضوع كل العمليات العقلية الضرورى لقوانين موحدة. ولكن فى الوقت الذى بدأت فيه الدعامات الاخلاقية تتحلل تمامًا، انتهاءًا إلى فقد الإنسان خلفيته السابقة وبدا وقتها أن الإنسان يملك حرية الارادة، بدت عندئذ طبيعة الروح المتماثلة فى كل البشر قابلة فقط لتفسير أن هذه الروح كانت فى كل مكان، جزءًا من نفس الروح، من روح مفردة كان فيضها وتشابهها يؤلف الروح الغامضة والمتماثلة فى كل الأفراد. كانت هذه الروح الكونية أيضًا لاحيز لها مثل روح الفرد. ولكن هذه الروح كانت تُتصور باعتبارها حاضرة وفعالة فى كل الاشخاص، بمعنى آخر، باعتبارها كلية الوجود وكلية العلم، ولايمكن أن تخفى عنها أشد الأفكار سرية. الانتباه الأعظم الذى أوليَ للاهتمام

الأخلاقى، باعتباره معارضًا للاهتمام بالطبيعة، الذى أدى لظهور الادعاء بهذه الروح الكونية، أضفى أيضًا طابعًا اخلاقيًا على الروح الكونية. انتهت الأخيرة إلى تجسيد كل الأفكار الأخلاقية التى كانت تشغل عقول البشر حينئذ. ولكن من أجل امتلاك هذه الحالة، كان على الروح أن تنفصل عن الطبيعة الجسدية الكامنة فى روح الإنسان معمية اخلاقيتها. وهكذا لدينا تطور إله جديد. هذا الإله كان بالضرورة وحدة مفردة، تتصل بوحدة روح الفرد، باعتبارها معارضة للطبيعة المتعددة لآلهة العصور القديمة، التى تتصل بتعقد العمليات الطبيعية التى تجرى حولنا، وهذا الإله الجديد المفرد وقف ماوراء الطبيعة وفوق الطبيعة، لقد وجد قبل الطبيعة، التى كانت إحدى مخلوقاته، بالتعارض مع الآلهة القديمة التى كانت جزءًا من الطبيعة ولم تكسب أية سمو على الطبيعة.

ولكن بينما كانت الاهتمامات الروحية الجديدة للبشر نفسية واخلاقية محضة فى طابعها، لم يستطيعوا أن يهملوا الطبيعة تمامًا. وحيث أن العلوم الطبيعية كانت تهمل، فقد أصبح مرة أخرى مألوفًا أكثر افتراض تدخل عناصر شخصية مافوق إنسانية من أجل تفسير الأحداث الطبيعية. لم تعد بعد الموجودات العليا التى كانت تمثل الآن باعتبارها تتدخل فى العملية الكونية آلهة ذات سيادة، كما كانت ذات مرة، ولكنها باتت خاضعة للروح الكونية مثلما كانت الطبيعة خاضعة لله، والجسد للروح، وفقًا لمفهوم تلك الأيام. لقد كانت مخلوقات وقفت فى مكان ما بين الله والبشر.

تدعمت هذه النظرة للأشياء لمدى أبعد بمجرى الأحداث فى المجال السياسى. فتدمير جمهورية الآلهة فى السماء سار يدًا بيد مع سقوط الجمهورية فى روما. أصبح الله قيصرًا للآخرة كلى القدرة، ومثل قيصر كان له بلاطه، القديسين والملائكة، وكانت معارضته الجمهورية الشيطان وجموعه.

أخيرًا ذهب المسيحيون إلى حد تقسيم بيروقراطية الله السماوية، الملائكة، وفقًا للرتبة، إلى فئات تتوافق مع التقسيمات التى عملها القياصرة بين بيروقراطيتهم الأرضية، وبدا الملائكة معرضون لنفس الزهو بالمكانة مثل الموظفين الرسميين لدى الإمبراطور.

بدء بقسنطنطين، كانت الحاشية وموظفى الدولة الرسميين مقسمين إلى عدد من المراتب، التى كان لكل منها حق استخدام لقب معين. ونجد الألقاب التالية:1- GLORIOSI، أى المجدون للغاية، الذين كانوا القناصلة؛ 2 ـ NOBILISSIMI، أو

الأكثر نبلاً، هؤلاء كانوا أمراء بالدم، 3 ـ PATRICII، النبلاء. بالإضافة إلى مراتب النبالة هذه كانت هناك أيضًا مراتب بين البيروقراطية العليا؛ 4 ـ ILLUSTRES، أو اللامعين ؛ 5 ـ SPECTABILES، أو المحترمين؛ 6 ـ CLARISSIMI، أو المشهورين؛ وتحت هؤلاء لدينا: 7 ـ PERFECTISSIMI، أو الأكثر كمالاً؛ 8 ـ EGREGII، أو المبرزين؛ 9 ـ COMITES، أو المستشارين الخصوصين.

إن لاهوتيينا سوف يؤيدونني حين أقول إن البلاط السماوى منظم تمامًا بنفس الطريقة.

وهكذا على سبيل المثال، فإن معجم الكنيسة للاهوت الكاثوليكى [1] (الذى أصدره ڤيتسر وڤـلته، فريبورج فى برايسجاو، 1894) يذكر فى مقالته "الملاك" العدد الضخم للملائكة ويواصل القول:

"اتباعًا لسابقة القديس أمبروزيوس، اعتقد كثير من المعلمين أن النسبة بين عدد الملائكة وعدد البشر 99 إلى 1؛ على سبيل المثال، الخروف الضائع فى حكاية الراعى الطيب (لوقا، الاصحاح الثانى عشر،32) يمثل الجنس البشرى، بينما ال 99 خروفًا الذين لم يضيعوا يمثلون الملائكة. ملائكة هذا الجمع الذى لايحصى مصنفين فى عدد من الفئات، والكنيسة - معارضة حتى رأى أوريجن، الذي رأى أن كل الأرواح يشبه كل منها الآخر فيما يتعلق بالجوهر، القوة، إلى آخره - أعلنت بصراحة تحبيذها للتمييز بين الملائكة، فى المجمع الثانى فى القنسطنطينية فى 553 ب.م. تعترف الكنيسة بتسع طبقات من الملائكة، الذين صنفوا فى مجموعات كل منها من ثلاث طبقات من الملائكة. هذه المراتب التسعة هى: 1- السيرافيم، 2- الشيروبيم، 3- ملائكة العرش THRONI، 4- الحكام DOMINATIONES، 5- الفضلاء VIRTUTES، 6- العتاة POTESTATES، 7- الأمراء PRINCIPATUS، 8- رئيس ملائكة ARCHANGELI، 9- الملاك ANGELI (الملائكة العاديون) [2].

يبدو بما لايدع مجالاً للشك أن الملائكة يتألفون بالمعنى الضيق للكلمة من الطبقة الأدنى الأكثر عددًا، بينما السيرافيم هى الطبقة الأعلى والأقل عددًا. الأشياء على الأرض ليست مختلفة كثيرًا: ليس هناك كثير من الموظفين الرسمين ذوى ألقاب عليا، وإنما لدينا عدد كبير من سعاة البريد العاديين.

---

38 بالألمانية – المترجم.

39 إن كلمة ANGELUS تشير أولاً ببساطة إلى رسول.

تحتوى المقالة المذكورة أيضًا على المعلومات التالية:

"يعيش الملائكة فى صلة حميمة وشخصية مع الله وعلاقاتهم بالله من ثم هى (علاقة) عبادة لامتناهية، خضوع متواضع، عاطفة لاتكل وهي التى تنكر كل حب بخلاف حب الله، من إستسلام تام مبهج بكامل كينونتهم، ولاء راسخ، من طاعة لاتردد فيها، احترام عميق، وامتنان لانهاية له، صلاة قانته، وكذلك تمجيد لايتوقف، من تعظيم دائم، من ثناء هائل، من تهلل مقدس، من فرح جذل ".

كان الأباطرة يطلبون خضوعًا بهيجًا مماثلاً من حاشيتهم وموظفيهم الرسميين. كان هذا نموذج البيزنطية.

من الواضح ان صورة الاله الواحد كما نمت فى المسيحية لم تكن نتاجًا اقل للاستبداد الإمبراطورى منها للفلسفة، التى اتجهت منذ ايام افلاطون أكثر فأكثر نحو التوحيد. كانت هذه الفلسفة فى توافق كبير مع الشعور العام والاحتياجات العامة التى سرعان ما اصبحت جزءًا من الوعى الشعبى. هكذا على سبيل المثال، فإننا نجد عند بلوتوس وهو كاتب مهازل، عاش فى القرن الثالث ق.م، والذى حملت افكاره فلسفة شعبية رخيصة، مقاطع مثل هذا التصريح التالى لعبد، يسأل صنيعًا:

"فى النهاية هناك إله، يسمع ويرى ما نفعله نحن البشر، وهو سوف يعامل ابنك كما عاملتنى انت هنا. وهو سوف يكافئ على الأعمال الطيبة ويجازى أيضًا على أعمال الشر". (أسرى الحرب، الفصل الثانى، المشهد الثانى).

نحن بالفعل أمام مفهوم لله مسيحى تمامًا. ولكن هذا التوحيد كان ساذجًا للغاية، بلا تفكير يسمح للآلهة القديمة بالأستمرار فى الوجود بجانبة. ولم يخطر للمسيحين أنفسهم أن يناقشوا وجود الآلهة القديمة، ماداموا قد قبلوا كثيرًا من المعجزات الوثنية بلا مناقشة. ولكن الإله المسيحى لم يحتمل جانبه آلهة غيره، سوف يكون حاكمًا منفردًا. إذا لم تخضع الآلهة الوثنية له وتقر بالدخول ضمن بلاطه، فلم يكن هناك دور يترك لهم عدا الدور الذى لعبته المعارضة الجمهورية فى ظل الأباطرة الأوائل، الذى كان فى القسم الأعظم منه دورًا مؤسفًا. لقد كمن فحسب فى جهود عرضية لممارسة بعض الخدع على الرب العظيم، لتحريض رعاياه الفاضلين ضده، بلا اى أمل أبدًا فى الإطاحه بالسيد، ولكن بتوقع وحيد هو إثارته عرضًا.

ولكن حتى هذا التوحيد غير المتسامح، الواثق من انتصاره، الذى لم يشك لحظة فى سموه وقدرة إلهه الكلية، كان قائمًا بالفعل حين ظهرت المسيحية فى المشهد. مما لاريب فيه، ليس بين الوثنيين، ولكن بين أمة صغيرة ذات طابع خاص، اليهود، الذين طوروا الاعتقاد فى مخلص، والإلزام بالمساعدة المتبادلة، وبتضامن حازم، إلى مدى أبعد كثيرًا، الذين لبوا على نحو أفضل كثيرًا الحاجة القوية التى استشعرت فى هذا

الوقت لمثل هذه المذاهب، أكثر مما فعلت أى أمة أو طبقة فى المجتمع فى هذا العصر. أضفى اليهود، من ثم، زخماً قوياً على المذهب الجديد الناشئ عن هذه الاحتياجات، وأسهموا فيه ببعض من عناصره الأكثر أهمية. حتى نكشف بشكل كامل عن كل هذه الجذور التى نمت منها المسيحية، يجب أن نضيف لدراستنا العامة عن العصر الهيلينى الرومانى، فى ظل العهد الإمبراطورى، دراسة خاصة عن الشعب اليهودى.

القسم الثالث
اليهود

الفصل الأول
شعب إسرائيل

أ - الهجرات القبلية السامية

إن بدايات تاريخ إسرائيل غارقة فى ظلمة عميقة، ربما حتى أكثر مما هو الحال مع التاريخ الإغريقى والرومانى. ليس فقط لأن هذه المرحلة الباكرة قد نقلت خلال عدة قرون شفاهة فحسب، إنما حتى لأنه حينما بدأت الخرافات القديمة تجمع وتسجل فقد شوهت بأسوأ الطرق دعائية. ليس هناك خطأ أشد من الافتراض بأن تاريخ الكتاب المقدس هو تسجيل لأحداث فعلية، قد تحتوى قصص الكتاب المقدس على نواة تاريخية، ولكن تحديد هذه النواة غاية فى الصعوبة.

لم تتخذ الكتابات "المقدسة" الخاصة باليهود الشكل الذى لدينا اليوم إلا بعد العودة من المنفى البابلى، فى القرن الخامس قبل الميلاد. كانت كل المأثورات القديمة فى هذا الوقت قد جرى التلاعب بها واستكملت بانتحالات، بأعظم جسارة، حتى تلبى متطلبات الفئة الكهنوتية الناشئة. وهكذا فإن تاريخ اليهود قد انقلب رأسًا على عقب؛ وهذا صحيح بصفة خاصة فيما يتعلق بما روى لنا عن ديانة إسرائيل قبل المنفى.

حين أسس اليهود جماعة خاصة بهم، بعد المنفى، فى أورشليم وفى الريف المتاخم، سرعان ما أثرت هذه الجماعة فى القبائل الأخرى بخصوصياتها، كما يظهر عدد من السجلات، ولكن لم تحفظ مثل هذه السجلات بالنسبة إلى الفترة السابقة على المنفى. قبل تدمير أورشليم من قبل البابليين، كان الإسرائيليون يعتبرون من قبل الشعوب الأخرى أمة كغيرها من الأمم، لم يبد أن هناك سمات خاصة تميزهم عن الآخرين ولدينا كل الأسباب لنفترض أن اليهود حتى آنذاك لم يظهروا بالفعل أية خواص استثنائية.

إنه من المستحيل، بالنظر إلى ضآلة وعدم جدارة المصادر المتاحة بالثقة، أن نرسم صورة دقيقة عن إسرائيل القديمة. ان النقد البروتستانتى للكتاب المقدس، كما مارسه اللاهوتيون، قد أثبت بالفعل أن الكثير قد زُيف واصطنع، ولكن الكثير مازال يُقبل حسب قيمته الظاهرية لأنه لم يُكشف بعد باعتباره تزييفًا ظاهرًا فحسب.

ليس لدينا عمليًا شيء سوى فرضية نهتدى بها فى محاولتنا لرسم تطور المجتمع الإسرائيلى، وروايات العهد القديم سوف تقدم لنا خدمة قيمة حيثما نكون قادرين على مقارنتها بأوصاف الشعوب فى مواقف مماثلة.

لايبدأ الوجود التاريخى لليهود حتى ينفذوا إلى بلد الكنعانيين. كل الحكايات عن فترة تبديهم هى اما خرافات قبلية قديمة، ذات زخرفات دعائية، أو حكايات خرافية، أو اختراعات لاحقة. انهم يظهرون فى التاريخ أولاً باعتبارهم منطوين ضمن هجرة سامية عظيمة للأمم.

تلعب هجرات الأمم فى العالم القديم نفس الدور الذى تقوم به الثورات اليوم. رصدنا فى القسم السابق سقوط الإمبراطورية الرومانية وتتبعنا المراحل الأولية قبل اجتياحها من البرابرة التيوتون، وهو الحدث الذى يسمى "هجرة الأمم". ليست هذه ظاهرة فريدة، لقد سبق للشرق القديم أن عرفها فى مناسبات متكررة، على نطاق أصغر، ولكن نتيجة لنفس الأسباب.

تطورت الزراعة فى كثير من الأحواض الخصبة للأنهار الشرقية الكبرى، فى زمن باكر، مقدمة فائضًا من المواد الغذائية ومتيحة وجود أعداد كبيرة من السكان متفرغة لمهن أخرى إضافة لتلك الخاصة بالزراعة. ازدهرت الفنون والحرف، والعلوم، وتطورت ارستقراطية، لديها فرصة أن تكرس وقتها على سبيل الحصر لفنون الحرب، وأصبحت هذه الارستقراطية غاية فى الضرورة حيث أن ثروة إقليم النهر بدأت تغرى الجيران البدو شبه المحاربين بأن ينخرطوا فى غارات لصوصية. احتاج الفلاح الذى رغب فى أن يفلح حقوله فى سلام لحماية مثل هذه الارستقراطية، الذى كان عليه أن يدفع لها. ولكن بمجرد أن باتت الارستقراطية أقوى، فقد خضعت بسهولة لإغراء أن توظف قوة ميولها الحربية لغرض زيادة دخلها، خاصة لأن تقدم الفنون والحرف نهض سنداً لكل انواع الترف التى يمكن أن يحصل عليها مالكى الثروة فقط. يبدأ قمع الفلاحين ويبدأ الأرستقراطيون في القيام بالحملات، وهم الأكثر مهارة فى حمل السلاح مع رعاياهم ضد الشعوب المجاورة بغرض اسرهم كعبيد. يبدأ العمل القسرى، ويُدفع المجتمع تدريجيًا لنفس المضيق المسدود الذى كان عليه فيما بعد أن يكون المرحلة الأخيرة للمجتمع فى العصر الإمبراطورى الرومانى أيضًا. دُمر الفلاح الحر، حل محله العمل الاجبارى؛ وبشكل متزامن دُمر أساس القوة الحربية للإمبراطورية. وبالمثل تفقد الارستقراطية بالرغم من تفوقها فى السلاح براعتها الحربية التى تقوضت بفعل تزايد الترف.

لقد فقدوا القدرة المطلوبة لتأدية الوظائف التى تطلبها مركزهم الاجتماعى: أى الدفاع عن الرفاه العام ضد غزوات الجيران الناهبين. يصبح هؤلاء الجيران واعين تدريجيًا بالغنيمة الثرية والمغرية التى فى متناول اليد، ويحتشدون تدريجيًا أقرب فأقرب على الحدود وأخيرًا تفيض بهم وهكذا يدشنون اتجاها يضم قبائل أكثر فأكثر تتدافع خلفهم انتهاء إلى أن هذه الحركة لاتنتهى لبعض الوقت. يستولى بعض الغزاة على الأرض وهكذا يخلقون طبقة فلاحية حرة جديدة. يؤسس آخرون، وهم الأكثر قوة، ارستقراطية حربية جديدة، بينما الارستقراطية الأقدم حارسة الفنون، وعلوم الحضارة القديمة، قد تستمر فى الاحتفاظ بوضع أرفع بالنسبة للغزاة البرابرة ولكنها لم تعد طائفة محاربين وإنما بالأحرى طائفة كهنة.

حين توقفت حركات الهجرة هذه يمر مجرى التطور مرة أخرى خلال نفس الدورة، التى ربما تقارن بنفس دورة الازدهار والأزمة فى المجتمع الراسمالى؛ ولكن الدورة القديمة لم تكن تتكرر فحسب فى كل عقد، وإنما كانت تغطى عدة قرون، دورة لم يجر تجاوزها حتى تدخل نمط الإنتاج الراسمالى، تماما مثل دورة أزمات اليوم التى لن يجرى تجاوزها حتى يقام الإنتاج الاشتراكى.

استمر مجرى التطور هذا فى مختلف اقاليم آسيا وافريقيا الشمالية لآلاف الأعوام، لقد كان محسوسًا أكثر فى البقاع التى انتجت فيها أودية الأنهار العريضة الخصبة ثروة ضخمة، ولكن افضت هذه الثروة إلى فساد ووهن عميقين بينما أنتجت الأقاليم الأقل ملائمة قبائل رعوية فقيرة غير انها شبه محاربة، مستعدة دوما لتغيير موطنها حين تدعوها الغنيمة، والتى يمكن أن تتجمع فى فرصة مواتية بسرعة بأعداد لاحصرلها فى اية بقعة حتى تخترق الإقليم بعنف مدمر. إن أودية هوانج - هو ويانجستى يانج، التى تطورت فيها الأمة الصينية هى أمثلة لهذا الوضع، أيضًا وادى الجانج حيث تركزت ثروة مغرية، (أودية) دجلة والفرات، حيث ظهرت الإمبراطوريتين القويتين بابل وآشور، واخيرًا وادى النيل الذى هو مصر.

ولكن لدينا فى إحدى الحالات آسيا الوسطى وفى (حالة) أخرى الجزيرة العربية التى كانت احتياطيا لاينضب من القبائل الرعوية شبه المقاتلة، والتى مثلت خطرًا دائمًا على جيرانها وأحيانًا استغلت ضعفها كفرصة لتبدأ فى هجرات مكثفة.

فى مثل فترات الضعف هذه سوف تخترق سيول من المغول من آسيا الوسطى وفى مناسبات معينة أيضًا من يسمون الهنود - الجرمان حواجز الحضارة. جاءت من

الجزيرة العربية هذه القبائل التى تندرج تحت الاسم العام الساميين. كانت أهداف الغزاة الساميين بابل، وأشور، ومصر، والإقليم المتوسط من البحر الأبيض.

تبدأ واحدة من هذه الهجرات السامية الكبيرة فيما يقرب من أكثر من ألف عام قبل ميلاد المسيح تتقدم نحو مابين الرافدين، سوريا، مصر، وربما تنقطع فى وقت ما فى القرن الحادى عشر ق.م. كان العبرانيون من بين القبائل السامية التى غزت إقليمًا حضاريًا مجاورًا فى ذاك الزمن. بالنظر لولعهم البدوى بالترحال فربما كانوا قد واجهوا الحدود المصرية وجبل سيناء قبل هذا ولم تتخذ الجماعة العبرانية شكلاً محددًا الا بعد أن استقرت فى فلسطين تاركة وراءها مرحلة عدم الاستقرار الرعوى التى لم تكن هناك فى ظلها إمكانية تشكيل امة كبيرة.

ب- فلسطين

منذ هذا الزمن فصاعدًا، لم يعد تاريخ وسمات الإسرائيليين محددة فقط بالخصائص المكتسبة فى المرحلة البدوية، وربما احتفظوا بها لبعض الوقت بعد ذلك، وإنما أيضًا بطابع وموقع فلسطين.

يجب أن نكون حذرين إزاء المبالغة فى تقدير أثر العامل الجغرافى فى التاريخ. فى الأزمنة التاريخية يستمر العامل الجغرافى - الموقع - طبيعة التربة، المناخ، اجمالاً بلا ريب كما هو فى معظم البلدان، هذا العامل قائم قبل أن يبدأ التاريخ وبالتأكيد له أثر قوى على الأخير. ولكن الطريقة التى سوف يؤثر بها العامل الجغرافى فى تاريخ بلد كثيرا ما تعتمد على المستوى الذى جرى إحرازه بواسطة المهارة التقنية والأوضاع الاجتماعية فى ذلك البلد.

هكذا، على سبيل المثال، لم يكن الإنجليز ليصلوا لمركزهم المهيمن فى العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلا بسبب الطابع الخاص لبلدهم، بثروته فى الفحم والحديد وموقعه الجزيرى. ولكن طالما أنهما لم يلعبا الدور الهام الذى لعباه فى عصر البخار فى الصناعة، فإن هذه الكنوز الطبيعية للتربة كانت ضئيلة الأهمية. وقبل أن تُكتشف أمريكا والطريق البحرى للهند وقبل أن تصبح إسبانيا، وفرنسا وألمانيا متحضرة بدرجة عالية، بينما كان لا يزال يسكن هذه البلدان مجرد برابرة، وكانت التجارة الأوربية متركزه حول البحر الأبيض وقامت بها بصفة رئيسية سفن تسيرها المجاديف، كان مازال موقع إنجلترا عاملا قطعها عن الحضارة الأوروبية وأبقاها فى وضع من الضعف والبربرية.

قد يكون لنفس الخصائص المعينة لبلد ما من ثم نتائج غاية فى الاختلاف فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة، حتى حيث لم تتحول طبيعة البلد بتغير نمط الإنتاج، لن يكون تأثيرها بالضرورة نفس الشيء. إننا نواجه مرة بعد أخرى مجمل الشروط الاقتصادية باعتبارها العامل المقرر.

وهكذا فإن تاريخ إسرائيل من ثم لم يتحدد فقط بطبيعة وموقع فلسطين منظورًا إليه على نحو مطلق وإنما بواسطة الأخيرين فى ظل شروط معينة محددة للمجتمع.

تَمَثَّل الموقع الخصوصى لفلسطين فى انه كان إقليما حدوديا تواجهت فيه العناصر المتعادية وحارب كل منها الآخر. انه يقع من ناحية فى نقطة تنتهي فيها الصحراء العربية وتبدأ أراضى الزراعة السورية، وحيث، تصادم من ناحية أخرى مجالى نفوذ هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين، اللتان تقفان عند بداية حضارتنا وتهيمنان على هذه البداية أى المصرية الناشئة فى وادى النيل، والرافدية الناشئة على دجلة والفرات، بمركزها حينًا فى بابل وحينًا فى نينوى.

كعنصر أخير فإن فلسطين قد اجتازتها طرق تجارية غاية فى الأهمية، لقد سيطرت على المواصلات بين مصر من جانب وسوريا وما بين الرافدين من جانب آخر، وكذلك التجارة الفينيقية مع الجزيرة العربية.

دعنا نزن أولاً أثر العامل الأسبق. كانت فلسطين بلدًا خصبًا، لم تكن خصوبتها استثنائية على الإطلاق، ولكنها بدت خصبة بالضرورة على نحو غير عادى حين قورنت مع الأقاليم المقفرة الصخرية والرملية المجاورة. اعتبرها سكانها أرضًا تفيض لبنًا وعسلاً.

أتت القبائل العبرانية باعتبارها من مربيى الماشية البدو وباتت فى نزاع دائم مع سكان فلسطين، الكنعانيين، الذين غزوا منهم مدينة بعد أخرى، مخضعين إياهم أكثر فأكثر لحكمهم. استقرت هذه القبائل العبرية تدريجيًا. ولكن ماغزوه فى حرب دائمة كان يجب أن يحتفظ به بحرب دائمة لأن بدوا آخرين كانوا يدفعونهم من الخلف، تائقين بالمثل لهذه الأرض الخصبة، الأدوميين، والموآبيين، والعمونيين، وآخرين.

بقى العبرانيون فى البلد المغزو رعاة لمدة طويلة، بالرغم من أن لهم الآن مواطن محددة. ولكنهم اكتسبوا تدريجيا ممارسة الزراعة التى كان قد مارسها السكان الأصليون، استنبات الحبوب، والكروم وزراعة الزيتون واشجار التين، وتزاوجوا مع

السكان الأوائل. ولكنهم احتفظوا لوقت طويل بسمات حياة البدو الرعوية التى كانت لهم.

لا يبدو ان تربية الماشية الرعوى بالصحراء موات بصفة خاصة للتقدم التقنى والتطور الاجتماعى. ان نمط حياة البدو فى الجزيرة العربية اليوم مازال يعيد إلى الذهن بقوة ذلك النمط الذى وجد فى الخرافات الإسرائيلية القديمة عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ينتج التكرار الابدى لنفس النشاطات والمحن نفس الحاجات والأفكار، عبر آلاف الأعوام، من جيل إلى جيل ينتج أخيرًا نزعة محافظة عنيدة، متجذرة على نحو أعمق عند الراعى البدوى أكثر منها حتى عند الفلاح وهى مواتية للغاية للاحتفاظ بالمؤسسات والعادات القديمة حتى بعد إدخال تعديلات كبيرة. قد نعتد بحقيقة أن الموقد ليس له مكان محدد فى منزل الفلاح الإسرائيلى، وحيث لايوجد لذلك مغزى دينى، كتعبير عن هذا التقليد الرعوى. يقول فلهاوزن: "فى هذه المسالة يشبة الإسرائيليين العرب ويتميزون عن الإغريق الذين يقفون أكثر قربا منهم فى امور الحياة اليومية الأخرى" ومضيفا: "قد يقال بالكاد ان للعبرانيين كلمة تقابل لفظة "الموقد" وكلمة "ashfot"، بينة بما فيه الكفاية، فقد اتخذت معنى "كوم النفاية". يختلف هذا تماما عن الموقد الهندوأوروبى، "المذبح المنزلى، لدى العبرانيين المصباح الأبدى بدلا من نار الموقد التى لاتطفأ ابدًا [1].

قد يكون من بين العادات التى احتفظ بها الإسرائيليون من مرحلتهم البدوية، الميل والولع بالتجارة فى السلع الأكثر أهمية.

لقد أشرنا قبلاً، فى دراستنا للمجتمع الرومانى، كيف تطورت التجارة باكرًا بين الشعوب، بالمقارنة (بالتجارة) بين الافراد. من المحتمل أن أول من مارس التجارة كانوا من الرعاة البدو الذين يعيشون فى البرية. أجبرتهم طريقتهم فى تحصيل عيشهم على ان يتجولوا من مرعى إلى آخر دون موطن ثابت. ولابد ان المصادر الشحيحة لبلدهم قد أثارت فى وقت أبكر الحاجة بينهم لمنتجات بلدان أكثر ملائمة من حيث موقعها، التى واجهوا حدودها. من المحتمل أنهم قايضوا الحبوب، الزيت، التمر، الادوات الخشبية، الحجر، البرونز، والحديد بالماشية، التى انتجوها بوفرة. ولكن تنقلهم قد سمح لهم أيضًا ليس فقط أن يحوزوا منتجات لأنفسهم من بعيد، ولكن أيضًا أن يقايضوا منتجات كان الطلب عليها شديدًا، وتُنقل بسهولة لحساب الآخرين،

1 Wellhausen, israelitsiche und jüdische geschichte, pp 87-88.

بمعنى آخر، ليس بغرض الاحتفاظ بمثل هذه المنتجات لاستعمالهم أو استهلاكهم الشخصى، وإنما لتمريرها فى معاملات تالية. وهكذا فقد أصبحوا أوائل التجار، ومادامت لم تكن هناك طرق وكانت الملاحة بائسة التطور، كان هذا الشكل من التجارة مهيمنًا بالضرورة، وربما قاد إلى حيازة ثروة ضخمة من قبل هؤلاء الذين مارسوها. فيما بعد، حيث زادت التجارة البحرية، وحيث شيدت الطرق الدائمة والسالكة، فان التجارة التى مارسها البدو الرحل سابقًا تناقصت بالضرورة، واقتصر الأخيرون مرة أخرى على منتجات بريتهم وأصبحوا أكثر فقرا. يجب أن نعزوا لهذا الشرط جزئيًا على الأقل التدهور العظيم للحضارة القديمة فى آسيا بعد اكتشاف الطريق البحرى للهند. أصبحت الجزيرة العربية مقفرة بالفعل لنفس السبب؛ واشتغل بدوها الرحل بتجارة مربحة للغاية مع المدن الفينيقية حين كانت الأخيرة فى أقصى ازدهارها. لقد زودوا الفينيقيين بالأجزاء الأسطوانية من المجاديف (looms) التى أنتجت للتصدير إلى الغرب، والصوف الثمين لاغنامهم، ولكنهم احضروا أيضًا منتجات العربية الجنوبية "السعيدة"، الغنية والخصبة، البخور، التوابل، الذهب، الأحجار الكريمة، وبالإضافة إلى ذلك أحضروا من الحبشة، المفصولة عن العربية السعيدة بممر ضيق فقط، سلعًا ثمينة مثل العاج والأبنوس. عبرت التجارة بالنسبة لقسمها الأعظم مع الهند أيضًا من خلال الجزيرة العربية، على امتداد سواحلها التى تواجه الخليج الفارسى والمحيط الهندى، كان يؤتى بالبضائع على السفن من مالابار وسيلان، ومن ثم تنقل عبر الصحراء إلى فلسطين وفينيقيا.

اغتنت كل القبائل التى مرت عبر أرضها هذه التجارة كثيرا بسببها، جزئيًا من خلال أرباحها كتجار، وجزئيًا من خلال المكوس التى كانت تفرض على السلع العابرة. "إنها لظاهرة عامة أن نجد قبائل غاية فى الثراء بين الأعراق". يقول هيرين: "يبدو أن لاأحد من القبائل بين العرب الرحل قد حقق أرباحًا ضخمة بشكل أبكر بواسطة تجارة القوافل أكثر من المديانيين، الذين اعتادوا على الترحال على طول الحدود الشمالية لهذا البلد، من ثم بالقرب من فينيقيا. لقد كانت قافلة من التجار المديانيين، محملة بالتوابل، والبلسم، والمر، فى طريقها من الجزيرة العربية إلى مصر، هى التى بيع لها يوسف. (سفر التكوين 28،37). الغنيمة التى حازها جدعون حين صد هجوما للمديانيين على كنعان "التى أخذها الإسرائيليون من هؤلاء القوم بشكل ذهب كانت عظيمة جدا إلى حد اثارة الدهشة، وهذا المعدن كان شائعًا للغاية بينهم حتى إنهم لم يجعلوه زينة لأنفسهم فقط، ولكن حتى أطواق حيواناتهم كانت من الذهب.

وهكذا نقرأ فى سفر القضاة، 8: "فقام جدعون وقتل زبح وصلمناع وأخذ الأهلة التى فى أعناق جمالها.... ثم قال لهم جدعون أطلب منكم طلبة أن تعطونى كل واحد أقراط غنيمته. (لأنه كان لهم أقراط ذهب لأنهم اسمعيليون).... وكان وزن أقراط الذهب التى طلب ألفًا وسبعمائة شاقل [1] ماعدا الاهلة والحلق وأثواب الأرجوان التى على ملوك مديان وماعدا القلائد التى فى أعناق جمالهم".

يناقش هيرين الآن الأدوميين ويواصل: "صنف اليونانيون كلّ القبائل الرعوية التى تجولت عند شمالى الجزيرة العربية تحت اسم الأنباط العرب. ديودوروس، الذى يصف بشكل ممتاز نمط حياتهم لايخفق أيضًا فى ذكر قوافل تجارتهم مع اليمن. يقول "ليس عددا ضئيلاً منهم يجعلونه عملهم أن يجلبوا للبحر الأبيض المتوسط، البخور، المر، والتوابل الثمينه الأخرى التى يتلقونها منهم وقد أتت من العربية السعيدة" (ديودورس، 2، ص93).

"كانت الثروة التى أحرزتها هكذا قبائل الصحراء المتنوعة عظيمة إلى حد اثارة جشع المحاربين الإغريق - كانت مدينة بترا المحصنة واحدة من مراكز تصدير البضائع العابرة لمنطقة الأدوميين، التى سمى وفقا لها شمال غربى الجزيرة العربية بترا العربية. حاول "ديمتريوس بوليوركيتس أن ينقض على ويخرب هذه المدينة" [2].

يجب ان نُعد الإسرائيليين فى مرحلتهم الرعوية مثل جيرانهم المديانيين. حتى إبراهام فقد روى أنه كان غنيًا جدًا، ليس فقط فى الماشية، وإنما أيضًا فى الفضة والذهب (تكوين 8، 2). امكن للرعاة المرتحلون أن يجنوا الثروة من خلال التجارة فقط. ولكن لم يكن فى الحسبان على أية حال أن يحد أو يضعف وضعهم اللاحق فى كنعان الروح التجارية التى اكتسبوها من وضعهم الرعوى. لأن موقع هذا البلد سمح لهم أن يستمروا فى دورهم التجاري بين مصر وبابل، وأن يربحوا بهذه التجارة جزئيًا، بالقيام بها وتطويرها، وجزئيًا بازعاجها بمهاجمة القوافل التجارية من حصون جبالهم، ونهبها أو فرض المكوس عليها. لايجب أن ننسى أن التجارة واللصوصية كانتا حرفتين مرتبطتين بوثوق. "حتى قبل أن يأتى الإسرائيليون إلى كنعان، كانت التجارة غاية

---

2 يساوى شاقل الذهب 8،61جرام أوحوالى 11 جنيه إسترلينى.

2 Heeren, ideen über die politik den verkehr und den handel der vornehmsten 1817, vol. I, II, pp 84-86..volker der alten welt

فى التطور فى هذا البلد. ذكرت رسائل تل العمارنة (من القرن الخامس عشر قبل المسيح) أن قوافل سافرت عبر البلد تحت حماية مسلحة" [1].

ولكن لدينا سجلا باكرا يرجع لعام 200 ق.م يتعلق بالعلاقات التجارية الحميمة بين فلسطين ومصر وكذلك بلدان الفرات.

يقتبس إرميا (وهو أستاذ فى جامعة ليبزج، وليس النبى العبرانى المعروف) من محتويات بردية من تلك الفترة بكلماته هو ما يلى: "القبائل البدوية فى فلسطين هى من ثم على صلة حميمة بالأرض الحضارية لمصر. شيوخهم كما نعلم من البردية يترددون أحيانا على بلاط فرعون وهم ملمون بأوضاع مصر. المبعوثون يسافرون جيئة وذهابا برسائل مكتوبة بين منطقة الفرات ومصر. هؤلاء البدو الآسيويون ليسوا بأية حال برابرة. القبائل البربرية التى ناهضها الملك المصرى مذكورة بوضوح باعتبارها متضادة معهم. اتحد شيوخ البدو أيضًا بغرض القيام بحملات عسكرية ضد أمراء الشعوب" [2].

يعالج هير تسفليد فى كتابه **التاريخ التجارى لليهود فى العصور القديمة**، بالتفصيل طرق القوافل التى تمر خلال أو بجوار فلسطين. وهو يحدس ان هذه الاتصالات "ربما كانت ذات اهمية تجارية أعظم فى العصور القديمة من سكك حديدنا بالنسبة لنا".

"امتد مثل هذا الطريق من جنوب غربى الجزيرة العربية، بموازة ساحل البحر الأحمر وخليجه الايلى**aelanitic**، حاملاً منتجات العربية السعيدة، وكذلك إثيوبيا وعددا من مناطق الأخيرة الداخلية (**hinterlands**)، بعيدًا حتى سيلا**sela**، التى أسميت فيما بعد بترا، حوالى سبعين كيلومترا جنوب البحر الميت. أتى طريق قوافل آخر بالمنتجات البابلية والهندية من الجرعاء **gerrha**، على الخليج الفارسى، مباشرة عبر الجزيرة العربية، وبالمثل إلى بترا. تتفرع من بترا ثلاث طرق: واحد إلى مصر مع فروع على اليسار إلى الموانئ العربية على البحر الأبيض المتوسط، وثان إلى غزة مع وصلة هامة بالشمال، وثالث على طول الشطآن الشرقية للبحر الميت والأردن، نحو دمشق. أصبحت ايلات على قمة الخليج الايلى التى أعطته اسمه مركز تصدير لبضائع بلدان ابعد نحو الجنوب، وكانت متصلة أيضًا بطريق قصير مع بترا. مر

1 Franz Buhl, die sozialen verhältnisse der israliten 1899, p. 76.
2 Jeremias, das alte testament im lichte des alten orients, 1906, p. 300.

الطريق الذاهب من غزة إلى الشمال، المذكور سلفًا، خلال وهاد اليهودية والسامرة، منتهيًا إلى سهل يزرعيل jisreel، حيث قابل طريقًا آخر من الشرق متجها إلى عكاaccoـ. من البضاعة التى تدفقت من هذه الطرق المتعددة، التى قصدت بها فينيقيا كان يعاد نقلها جزئيًا فى الموانئ العربية المذكورة آنفًا، أو فى غزة أو عكاacco، لأن الطريق من المدينة الأخيرة إلى صور وصيدون كان طريقًا صخريًا جدًا ولم يكن صالحا للاستخدام للمواصلات البرية حتى وقت متأخر للغاية. اتجه طرق القوافل الأكثر اعتيادًا من الشرق، المذكور سابقًا، من بابل إلى مجرى الفرات الأوسط، وعندئذ عبر الصحراء السورية العربية، التى ازدهرت فيها بالميرا لاحقا، وبعد الانطلاق لمسافة قصيرة على طول الضفة الشرقية للأردن الأعلى، عبر هذا النهر وجرى خلال سهل يزرعيل jisreel، حتى وصل إلى البحر داخل الطريق الذى ذكرناه آنفا قبل أن يمس الاردن بقليل، مؤديا من جلعاد، التى رأينا أنها كانت تستخدم بالفعل فى زمن يوسف، وقد علمنا سلفًا أن هذا الطريق قد التقى فى سهل يزرعيل jisreel، بالطريق الآتى من غزة، ولكن بافتراض أن هذا الطريق الذى مر فى فلسطين إلى مصر وفقًا (لسفر التكوين 37، 25، 41، 57) بدأ أيضًا من غزة..... لانستطيع ان نثبت أن هذه (الطرق التجارية والأسواق التى أقيمت فى تقاطعاتها) كان لها لوقت طويل أى تأثير، على الإسرائيليين، من أية وقائع سجلت فى التاريخ، ولا نستطيع أن نقدر مثل هذا التأثير، ولكن مما لاشك فيه أنه كان موجودا بالضرورة، وهذا الافتراض سوف يلقى الضوء على كثير من النصوص القديمة المتواضعة التى تعكس مثل هذا التأثير [1].

ازدهر الترف وصناعات التصدير، والفن أيضًا، على نحو اقل كثيرا بين الإسرائيليين من التجارة، من المحتمل ان يكون ذلك بسبب أن الإسرائيليين قد كفوا عن أن يكونوا رُحّلاً فى الوقت الذى كانت قد تطورت فيه الحرف اليدوية بالفعل إلى مستوى عال بين جيرانهم. كانت مواد الترف التى يحصلون عليها بواسطة التجارة أفضل وارخص من تلك التى صنعها الحرفيون المحليون. كانت النتيجة أن مثل هذا العمل كان مقصورًا على أبسط المواد. حتى الفينيقيون الذين أصبحوا أمة حضارية فى تاريخ ابكر بكثير، أعيق تقدم صناعتهم بسبب المنافسة بين السلع المصرية والبابلية التى تاجر فيها الفينيقيون. يحتمل بالكاد أن كان الفينيقيون متفوقين فى مجال

1 handelsgeschichte der juden, pp 22-25.

الصناعة بالنسبة إلى بقية سكان سوريا. من المحتمل "أن يكون هيرودوت محقًا حين يقول إن أول الفينيقيين الذين رسوا على ساحل بلاد الإغريق عرضوا سلعهم التى لم تكن منتجات وطنهم، انما منتجات مصر واشور، بمعنى آخر الخاصة بالمنطقة الداخلية(hinterlands) لسوريا. لم تصبح مدن فينيقيا الكبرى مدنًا صناعية مهيمنة حتى فقدت استقلالها السياسى وجزءًا مهمًا من علاقتها التجارية" [1].

ربما أعاق تطور الحرف اليدوية فعلاً أيضًا وضع الحرب الدائم. كيفما كان الأمر فمن المؤكد أن الحرف اليدوية لم تتطور لحد بعيد. يصف النبى حزقيال فى رثاءه لصور tyre، بغاية الكمال تجارة الأخيرة بما فيها التجارة مع إسرائيل. كانت صادرات الإسرائيليين زراعية على وجه الحصر فى طبيعتها: "يهوذا وارض إسرائيل هم تجارك. تاجروا فى سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزبيب وبلسان ". (27، 17)

حين جعل داود أورشليم عاصمته، فإن حيرام ملك صور أرسل له "خشب أرز، ونجارين، وبنائين، فبنوا لداود بيتًا. (صامويل الثانى 5، 11) وقد حدث نفس الشيء فى زمن سليمان عند بناء الهيكل. ودفع سليمان لحيرام سنويًا بالمقابل عشرين ألف كر حنطة طعامًا لبيته وعشرين كر زيت رضٍ. (ملوك أول 5، 11)

بدون حِرَف ترف يدوية عالية التطور، بمعنى آخر بدون حرف فنية، لايمكن أن تزدهر فنون الحفر والفنون التشكيلية وتحقق حتى تمثيلاً للشكل الإنسانى، وتتجاوز مجرد الإشارة للنموذج الإنسانى، تُفَرِد وتؤمثل موضوعاتها.

يمكن لمثل هذا الفن أن يؤسس فقط على مستوى عالٍ من التجارة، مزودًا الفنان بأكثر المواد اختلافًا ذات النوعيات الكثيرة، وهكذا تمكنه من اختيار الأكثر ملائمة لأغراضه. أضف إلى ذلك فمن الضروري وجود تخصص عميق، ومجموعة من الخبرات راكمتها اجيال فى معالجة هذه المواد المتنوعة، مقترنة فى النهاية بتقدير رفيع للفنان، رافعة إياه فوق مستوى الاضطرار للعمل، مانحة إياه وقت الفراغ، والبهجة والطاقة.

نحنُ نجد كل هذه العناصر مجتمعه فى المدن التجارية الكبرى فقط مع حرف يدوية قوية وقديمة. حازت فنون الحفر ذروة تطورها على أساس نظام حرفى يدوى حيوى فى طيبة وممفيس، وفى اثينا، وفيما بعد، بدءا بالعصور الوسطى، فى فلورنسا،

---

1 R. Pietschmann, geschichte der phönizier, 1889, p. 238.

أنتويرب وامستردام. لقد افتقر الإسرائيليون لهذا، وقد كان لهذا الافتقار أثرة أيضًا على دينهم.

ج - مفهوم الرب فى إسرائيل القديمة

مفاهيم الإله بين الشعوب البدائية الطبيعية غاية فى الغموض والاضطراب، وليست محددة بأية حال بدقة شديدة كما نجدها فى الميثولوجيات التى قُلِبت ظهرًا لبطن من قبل الباحثين. ولم يتم تصور الآلهة المتعددة بأشكال واضحة، ولاحتى مُيِّزَ الواحد منها عن الآخر بدقة، إنها غير معروفة، شخصيات غامضة، لها تأثير على الطبيعة والإنسان، تمنح السعادة أو التعاسة للأخير ولكنها بالفعل أكثر ضبابية وعدم تحدد فى صورتها فى البداية، أكثر من رؤى الأحلام.

تكمن التمييزات المحددة الوحيدة بين الآلهة المختلفة في مواطنهم. كل موضع أثار خيال الإنسان البدائى بصفة خاصة بدا له أنه موطن إله معين. الجبال العالية أو منحدر صخرى، البساتين فى المواقع الغريبة وأحيانًا حتى شجرة عتيقة، الينابيع، والكهوف، تحوز هكذا نوعًا من القدسية باعتبارها بيوت الآلهة. ولكن حتى حجر تشكّل بغرابة أو قطعة من الخشب ربما تعتبر موطن إله، موضوعًا مقدسًا، تؤمن حيازته لمن يملكونه مساعدة هذا الإله الذى يكتنفه. كل قبيلة، كل عرق حاول أن يقتنى مثل هذه الموضوعات المقدسة، مثل هذا الوثن. ويصدق هذا أيضًا على العبرانيين الذين كان مفهومهم عن الرب فى البداية على المستوى الذى ذكرناه لتونا، غاية فى البعد عن التوحيد. تبدو المعتقدات المقدسة للإسرائيليين فى البداية وكأنها لم تكن شيئا أكثر أو أقل من أوثان. بدءًا "بالصنم" **teraphim** (ترافيم)، الذى يسرقه يعقوب من صهره لابان، حتى تابوت العهد الذى يسكن فيه يهوه، والذى يمنح النصر والمطر والثروة لمن يعتصم به بحق. كانت الأحجار التى عبدت من قبل الفينيقيين والإسرائيليين تسمى "بيت إيل" أو بيت الله.

ليست آلهة المواضع المختلفة والأوثان متفردة فى هذه المرحلة بعد، غالبًا ما لا تختلف أسمائها، على سبيل المثال، بين الإسرائيليين والفينيقيين. كثير من الآلهة كانت تسمى **إيل** el (الجمع **إلوهيم**) بينما سميت أخرى بعل (السيد) من قبل الفينيقيين. "بالرغم من أسمائها المتطابقة كانت كل هذه البعول تعتبر أصلاً أنها

كائنات متميزة على نحو مطلق وكثيرًا ما لانجد طريقة أخرى لتمييزها الا بأن نضيف لأسمائها اسم المكان الذى عُبد فيه الإله المعنى" [1].

لم يصبح وجود تفريق أكثر تمييزًا بين الآلهة المختلفة فى الوعى الشعبى ممكنًا الا بعد أن تطور فن الحفر والفن التشكيلى إلى حد القيام بتفريد وأمثلة الأشكال الإنسانية، لخلق شخصيات محددة، ذات سمات شخصية، ولكن متضمنة أيضًا، جاذبية، وجلالة، وعظمة، أو رهبة جعلتها أسمى بالنسبة لأشكال البشر العاديين. هكذا أعطى الشرك أساسًا ماديًا، أصبح غير المرئيين الآن مرئيين، ومن ثم بمقدورهم أن يكونوا حاضرين بنفس الطريقة فى عقول الجميع. تميزت الآن الآلهة المختلفة دومًا كل منها عن الآخر، واختفى كل الاختلاط بينها. أصبح من الممكن منذ الآن فصاعدا التمييز والتفريد من كتلة الكائنات الروحية التى لاتحصى الساكنة فى فوضى عظيمة فى ذهن الإنسان البدائى، شخصيات نوعية محددة.

نستطيع أن نتتبع بجلاء فى مصر الزيادة فى عدد الآلهة النوعية اذ تنطلق فنون الحفر والفنون التشكيلية فى تطورها. وليس من قبيل المصادفة أننا نجد أن بلاد الإغريق لم تحرز فقط أعلى تطور فى صناعات الفن وفى تصوير الكائنات الإنسانية فى الفنون التشكيلية، وانما أيضًا اقصى تفريد متعدد الجوانب ومتميز لآلهتها، وقد تحقق كلا هذين المكتسبين بشكل متزامن.

التقدم الذى حققته الأمم المتطورة صناعيًا وفنيًا، فى استبدال الوثن، مسكن الروح أو الإله، بصورة الإله، لم يكن قد أنجزه الإسرائيليون بسبب تخلف صناعتهم وفنهم. انتهى تطورهم فى هذا الصدد أيضًا إلى توقف عند مستوى نمط التفكير البدوى. لم يطرأ لهم أبدًا أن يمثلوا آلهتهم الخاصة فى صور. فالصور الإلهية التى ألموا بها كانت صور آلهة قبائل أجنبية فقط، خاصة بالأعداء، آلهة مستوردة من الخارج أو نقلت عن نماذج أجنبية. من هنا الكراهية التى يظهرها الوطنيون لهذه الصور.

كان هذا راجعًا لتطور معاق، الذى أدى بالمثل على أى حال إلى أن ينجز الإسرائيليون بشكل أسهل الخطوة التى حررتهم من الشرك حيث أصبحوا ملمين بالتوحيد الفلسفى والأخلاقى الذى ظهر فى عدة مدن كبرى، فى ذروة الحضارة القديمة، لأسباب سبق وأن أشرنا اليها. حيثما تجذرت صورة الإله فى خيال الناس، أحرز الشرك هكذا، الذى لم يضعف بسهولة موطئ قدم ثابت. من ناحية أخرى فإن

1 R. Pietschmann, geschichte der phönizier, 1889, p. 183-184

ضبابية الصورة الآلهية، وكذلك تطابق أسماء الآلهة فى أكثر المواضع تنوعًا، مهدت الطريق لجعل فكرة إله واحد شعبية، باعتبارها معارضة لمن تمثل له كل الأرواح اللامرئية الأخرى كائنات خاضعة فقط. ليس من قبيل المصادفة بأى حال أن كل الديانات التوحيدية القومية قد انبثقت عن أمم كانت لا تزال فى المرحلة الرعوية للفكر ولم تطور صناعة أو فنا ذوى أهمية: إضافة لليهود، كان هناك الفرس، وفيما بعد العرب المسلمون الذين اعتنقوا التوحيد بمجرد أن اتصلوا بحضارة مدينية أعلى. ليس الإسلام فقط بل أيضًا ديانة الزند يجب أن تعد من الديانات التوحيدية. فالأخيرة تعرف أيضًا سيدًا وخالقًا واحدًا للعالم، اهورامزدا. انجرومانيو (اهرمان) هو روح أدنى والى حد ما مثل الشيطان.

حقيقة أن المراحل المتأخرة تستوعب التقدم في داخلها على نحو أكثر سهولة وتطوره قياسًا بتلك المراحل الأكثر تقدما، ربما تبدو متناقضة ظاهريًا، ولكنها حقيقة لدينا دليل عليها حتى فى تطور العضويات الفيزيائية. كثيرا ماتكون الأشكال عالية التطور اقل قابلية للتكيف وتهلك على نحو أكثر سهولة، بينما الأشكال الأدنى، التى تكون أعضاءها اقل تخصصًا قد تكون قادرة على أن تكيف نفسها بسهولة أكثر للظروف المتغيرة، وهى من ثم فى وضع افضل لأن تدفع أبعد مجرى التطور.

ولكن تطور أعضاء الإنسان ليس (تطورًا) غير واع فحسب، فإضافة إلى أعضاءه البدنية يطور الإنسان بوعى (أعضاء) اصطناعية أخرى، قد يتعلم إنشاءها من الآخرين. بمقدار ما يتعلق الأمر بهذه الأشكال الاصطناعية، فإن أشخاصا مفردين أو مجموعات قد تتخطى من ثم مراحل كاملة من التطور، ولكن بالطبع بعد أن يكون قد تم الوصول إلى المراحل الأعلى قبل ذلك بواسطة الآخرين التى اكتسبوها منهم فقط. انها مسألة معرفة عامة، على سبيل المثال، الإضاءة الكهربائية قد أدخلت على نحو أكثر سرعة فى كثير من القرى الفلاحية منها فى المدن الكبرى، التى كانت قد استثمرت بالفعل كميات كبيرة من رأس المال فى الإضاءة الغازية. يمكن للقرية الفلاحية أن تقوم بالقفزة من مصباح البترول إلى الإضاءة الكهربائية بتخطى مرحلة الإضاءة بالغاز، ولكن هذا بات ممكنا فقط بواسطة حقيقة أن التقدم التقنى فى المدن الكبرى قد امتلك القدرة على إنتاج الضوء الكهربائى بالفعل. لم تكن القرية الفلاحية لتطور هذه المعرفة لحسابها الخاص. وهكذا قبلت جماهير اليهود والفرس التوحيد بسهولة أكثر مما قبلته جماهير المصريين، والبابليين والهيلينيين، ولكن فكرة التوحيد كان يجب أن تنشأ أولاً على يد فلاسفة هذه الأمم الحضارية رفيعة التقدم.

ولكن الفترة التى نعالجها الآن، أى فتره ما قبل المنفى، لم تبلغ مرحلة التوحيد بعد. مازال هناك عالم بدائى من الآلهة سائداً.

د - التجارة والفلسفة

تُطور التجارة خواص عقلية مختلفة عن ما تطوره الحرف اليدوية والفن. فى نقده الاقتصاد السياسى وفى أعقاب ذلك فى رأس المال، يشير كارل ماركس للطابع المزدوج للعمل كما يتمثل فى السلع. كل سلعة هى مادة استهلاك ومادة تبادل، ومن ثم يمكن للعمل المتضمن فيها ان يعتبر كنمط نوعى خاص من العمل - مثل عمل النسيج، أو صنع الأوانى، أو الحدادة - وكعمل إنسانى مجرد بصفة عامة فى آن معًا.

النشاط الإنتاجى النوعى الذى ينتج موادًا معينة للاستهلاك مثير لاهتمام المستهلك الذى يتطلب مثل هذه القيم الاستهلاكية النوعية بصفة خاصة. اذ يحتاج إلى قماش، فانه يهتم بالعمل المبذول فى إنتاج هذا القماش لسبب بسيط هو أنه هذا العمل النوعى المنتج للقماش. ولكن بالنسبة لمنتجى السلع أيضًا - يعنى كقاعدة، فى مرحلة التطور التى نعالجها الآن، فهم ليسوا بعد عمالاً مأجورين، وانما فلاحون مستقلون، حرفيون، فنانون، أو عبيدهم - العمل هام فقط باعتباره النشاط النوعى، الذى يُمكّن المُنتِج من ان ينتج منتجات نوعية.

ولكن موقف التاجر مختلف. يكمن نشاطه فى شراء السلع رخيصة وبيعها غالية. أى تنويعه معينة من السلع يشتريها أو يبيعها غير ذات أهمية بالنسبة له فى التحليل الأخير، شرط ان يجد مشتريًا فقط. مما لاشك فيه، انه مهتم بكمية العمل الضرورى اجتماعيًا، لإنتاج السلع التي يتعامل فيها، في كل من موضعي الشراء والبيع، لأن هذا العنصر له تأثير فى تحديد أسعارها. ولكنه مهتم بهذا العمل فقط باعتباره عملاً إنسانيًا عامًا يضفى القيمة على السلع، تجريديًا، ليس بوصفه عملاً عينيًا، منتجًا قيمًا استهلاكية نوعية. لايفكر التاجر بالطبع فى الأمر بكثير من الكلمات، فقد استغرق الإنسان وقتًا طويلاً حتى يُكشف تحديد القيمة بواسطة العمل الإنسانى العام. وفى الحقيقة، لقد تطلب الأمر عبقرية كارل ماركس، فى مرحلة عالية التطور فى إنتاج السلع، لتحليل هذا الشرط بشكل كامل. ولكن حتى قبله بآلاف الأعوام، يحوز

العمل الإنسانى العام المجرد تعبيرًا ملموسًا باعتباره متعارضًا مع الأشكال العينية للعمل، لرصد ما ليست ادنى قوة للتجريد ضرورية لإدراكه، أى، فى النقود [1].

النقود هى ممثل العمل الإنسانى العام المتضمن فى كل سلعة، انها لاتمثل نوعًا خصوصيًا من العمل، ليس عمل النساج أو الفخارى او الحداد، إنما أى عمل، كل عمل، اليوم نوع معين، غدا آخر. ولكن التاجر مهتم بالسلعة فقط باعتبارها تمثل نقودًا، وليس بفائدتها النوعية، وإنما ثمنها النوعى.

المُنتِج – سواء كان فلاحًا، حرفيًا، فنانًا – مهتم بالطابع الخاص لعمله، بخصوصية المادة التى سوف يعالجها، وسوف يزيد إنتاجية عمله أكثر، كلما أصبح أكثر تخصصا فيه. يقيده عمله النوعى، على أى حال، بمكان معين، بأرضه او ورشته. ومن ثم فإن الحد الخاص للعمل الذى هو منخرط فيه سوف ينتج حدا عقليًا معينًا أعطاه الإغريق اسم **banausia** (مشتق من **banausos**، الحرفى). يقول سقراط فى القرن الخامس قبل عصرنا: "رغم ان الحدادين، والنجارين، وصانعى الأحذية قد يكونون ماهرين فى اختصاصهم، فإن أغلبهم نفوس وضيعة، لايعرفون ماهو الجميل والخير والعادل". وقد عبر اليهودى عيسى سيراخ حوالى عام 200 ق.م عن نفس الفكرة. يقول رغم أن الحرف اليدوية قد تكون نافعة، فإن الحرفى مع ذلك لاانفع فيه فى السياسة، وفى القانون وفى نشر الثقافة الأخلاقية.

الآلة فقط سوف تجعل من الممكن إزالة هذا الحد العقلى بالنسبة لجماهير العمال، ولكن إزالة نمط الإنتاج الرأسمالى فقط هى التى تخلق الشروط التى يمكن للآلة فى ظلها أن تنجز بأكثر الطرق كمالاً مهمتها العظيمة فى تحرير الجماهير العاملة.

9 تظهر النقود كمقياس للقيمة على نحو أبكر منها كأداة للتداول. لقد استخدمت على هذا النحو حتى أيام المقايضة، وهكذا نحن نقرأ عن مصر "أن الناس كانوا معتادين على أن يستخدموا قضبان النحاس **utes** التى تزن 19 جرامًا، التي لم تكن بعد فى شكل نقود فعلية، وأمكن أن يجرى تبادلها مع كل السلع الأخرى، كمقياس للقيمة بالفعل فى تبادل السلع، حيث يمكن بواسطتها تقدير السلع التى يجرى تبادلها. وهكذا حدث ذات مرة فى الإمبراطورية الحديثة أن دفع لقاء ثور، يقدر ب 119**utes** بخيزران مزخرف قيمته 25**utes**، وآخر ب 12**utes**، إحدى عشر إبريقًا من العسل 11**utes** إلى آخره. فيما بعد صدر النقد النحاسى البطلمى على هذا الاساس".
Edward Meyer, die wirtschaftlisches entwicklung des altertums 1895 p. 11

أنشطة التاجر لها تأثير مختلف تمامًا عليه أكثر مما(لأنشطة) الحرفى. فليس بمقدوره أن يكتفى بمعرفة فرع خاص من الإنتاج فى إقليم معين، فكلما توسع اهتمامه لأبعد، وشمل فروعا للإنتاج أكثر، وأقاليم أكثر، بشروطها النوعية للإنتاج ومتطلباتها النوعية، كلما سيكون قادرًا على نحو أفضل أن يختار تلك السلع التى يكون بيعها فى الوقت الحاضر الأكثر ربحًا، وتلك الأسواق، التى يمكن ان يشترى منها بأقصى ربحية وكذلك التى يستطيع ان يقوم فيها بأكثر المبيعات ربحًا. ولكن رغم القيمة الكبيرة للمنتجات والأسواق التى هو معنى بها، فإنه مهتم فى التحليل الأخير بشروط الثمن، بمعنى آخر، بشروط الكميات المتنوعة للعمل الإنسانى المجرد، أي، بالعلاقات العددية المجردة. كلما تتطور التجارة أكثر فأكثر، كلما انفصل الشراء والبيع أكثر عن بعضهما فى المكان والزمان، وكلما اختلفت أكثر أوضاع النقود التى يجب ان يتعامل بها التاجر، وكلما أصبح الاختلاف أعظم بين زمن الشراء والدفع، وكلما كانت مرحلة تطور نظام الائتمان ودفع الفوائد أكثر تقدما، كلما تصبح هذه العلاقات العددية بالفعل أكثر تعقيدًا وتنوعًا. وهكذا لابد أن تحفز التجارة التفكير الرياضى، وفى نفس الوقت التفكير المجرد. ولكن بينما توسع التجارة فى نفس الوقت الأفق ماوراء الحدود المحلية والمهنية، مانحة التاجر معرفة بأكثر المناخات والترب تنوعًا، وأكثر مراحل تطور الحضارة وأنماط الإنتاج تباينًا، فانها تحفزه على أن يقيم المقارنات، وتمكنه من اكتشاف العنصر العام فى جملة التفصيلات الخاصة، العنصر الضرورى فى جملة العوارض، العنصر المتكرر الذى سوف ينتج مرة بعد أخرى من شروط معينة. تطورت قوة التجريد فيما يتصل بذلك لحد هائل، وكذلك بواسطة التفكير الرياضى، بينما تُطَور الحرف اليدوية بالأحرى الحس بالعينى، وكذلك أيضًا لسطح بالأحرى منها لجوهر الأشياء. ليست الأنشطة "الإنتاجية"، الزراعة والحرف اليدوية، وإنما التجارة "غير المنتجة"، هي التى تطور مثل هذه الخواص العقلية التى تكمن فى أساس الدراسة العلمية.

ولكن هذا لايعنى أن التجارة تخلق من ذاتها مثل هذا البحث العلمى. الفكر النزيه، البحث عن الحقيقة، وليس للنفع الشخصى - هذا تحديدًا ما يفتقر التاجر إليه بشدة. يعيش الفلاح وكذلك الحرفى من عمل أيديهما فقط. للثروة المتاحة لهما حدود غاية فى التحدد، ولكن ضمن هذه الحدود من المؤكد انه يمكن ان يحصل عليها أى فرد متوسط معافى، مالم تقوض وتفقر الحرب أو قوى طبيعية عاتية الجماعة بكاملها. أن تكون هناك طموحات تبدو أعلى من المتوسط فى مثل هذه الظروف ليست

ضرورية ولا واعدة. تتميز هذه الحرف من ثم بقبول مبتهج لمكانتها الموروثة، طالما أن رأس المال، عادة فى شكل رأس مال ربوى، لايقهرها ويضطهدها هو أو من يحكمونها.

ولكن التجارة، بتوظيفها العمل الإنسانى العام، تنطلق على نحو مختلف تمامًا عن الحرف اليدوية، بعملها العينى المفيد. إن نجاح الأخيرة محدود بصرامة بقدرة الفرد، نجاح التجارة لايعرف حدودًا. يجد الربح فى التجارة حدوده فقط فى كمية النقود، في رأس المال، الذى يملكه التاجر، وقد تزداد هذه الكمية إلى مالانهاية. من ناحية أخرى تتعرض هذه التجارة لتقلبات أعظم مدى ومخاطر أكثر من الرتابة الثابتة فى عمل الفلاح الحرفى فى إنتاج السلع البسيط. يتأرجح التاجر بشكل دائم بين طرفى الثروة المترفة والخراب الكلى. تثار الرغبة فى الكسب فى مثل هذه الحالات على نحو أكثر فعالية منها بين الطبقات المنتجة. يتميز التاجر بجشع ونهم، وكذلك أيضًا بأكثر القساوات وحشية، تجاه كل من منافسيه واتجاه موضوعات استغلاله. حتى هذا اليوم فإن الوضع واضح باشمئزاز بالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون من عملهم الخاص، فى كل الأماكن حيث لايواجه الميل الاستغلالى لرأس المال مقاومة نشيطة، وذلك على سبيل المثال، فى المستعمرات.

ليس هذا نمطًا للتفكير يشجع على دراسة نزيهة، علمية. تُطور التجارة القدرة الضرورية لهذا الغرض، ولكن ليس تطبيقها للأغراض العلمية. على النقيض من ذلك، حين تؤمن التجارة نفوذا على التعليم، يتقوم تأثيرها فى اتجاه تكييف نتائج التعليم من اجل أغراض خاصة فقط، الذى يقدم له تعليمنا البورجوازى الراهن أمثلة عدة.

يمكن أن يتطور الفكر العلمى فقط فى طبقة منحت كل المواهب، الخبرات والمعرفة المتضمنة فى التجارة، وكذلك أيضًا المتحررة من ضرورة كسب العيش، ومن ثم تملك وقت الفراغ الضرورى، الفرصة، والمتعة فى البحث النزيه، فى حل المشاكل دون النظر لنتاجها المباشر، العملى، والشخصى. تطورت الفلسفة فقط فى المراكز التجارية الكبرى، وفقط فى تلك المراكز التى كانت فيها عناصر أخرى فضلاً عن التجارة حاضرة، التى أعطتها ثروتها أو مركزها الاجتماعى وقت الفراغ والحرية. فى عدد من المدن الإغريقية كان هؤلاء هم الملاك العقاريون الكبار، الذين حررهم عبيدهم من الحاجة إلى العمل، والذين لم يعيشوا فى الريف، وإنما فى المدينة، الذين لم يكونوا محدودين بالشجاعة البدنية الفظة للمالك الريفي، ولذلك كانوا معرضون أيضًا لتأثيرات المدينة وللتجارة واسعة النطاق.

مثل هذه الطبقة من كبار الملاك العقاريين، تحيا وتتفلسف فى المدن، يبدو أنها ظهرت فقط فى المدن البحرية التى كانت مناطقها الداخلية كبيرة بما يكفي تمامًا لتنتج نبالة ريف كهذه، ولكن لم تكن كبيرة بما يكفى لأن تبتعد الأخيرة عن المدينة وأن تحول انتباهها لتوسيع ملكيتها فى الأرض. توجد هذه الأوضاع بصفة خاصة فى مدن الموانئ الإغريقية. ولكن كانت المناطق الداخلية لمدن الموانئ الفينيقية غاية فى الضآلة لتنتج مثل هذه الملكيات العقارية الكبيرة. عاش كل واحد فى هذه الجماعات بواسطة التجارة.

من ناحية أخرى، فى تلك المدن، التى كانت محاطة بنطاق أرضى كبير، بدا أن كبار الملاك العقاريين قد بقوا أكثر تحت تأثير حياة الريف، وأنهم طوروا بالأحرى نمط تفكير المالك الريفى فى المراكز التجارية الكبيرة لآسيا الوسطى، وتمتع كهنة الأماكن المختلفة للعبادة بأعظم درجة من التحرر من العمل، واقل تعرض لمتطلبات الأعمال العملية. ليس قلة من هذه الأماكن أصبحت هامة وثرية بما يكفى لتكون قادرة على أن تعول بشكل دائم عددا من الكهنة كان مطلوبا منهم عمل قليل. كانت نفس المهمة الاجتماعية التى وقعت على عاتق الارستقراطية فى مدن اليونان البحرية من نصيب الكهنة فى أماكن العبادة فى المراكز التجارية الكبرى للقارة الشرقية، خاصة مصر وبابل، أى تطور التفكير العلمى، والفلسفة، ولكن هذا الوضع فرض حدًا على التفكير الشرقى بقى التفكير الإغريقى متحررًا منه: الارتباط والمرجعية للعبادة الدينية. كانت خسارة الفلسفة كسبًا للدين، وكسبًا للكهنة. بينما الكهنة اليونانيون مرافقون بسطاء للعبادة، حراسًا لأماكن العبادة والقائمين على الشعائر الدينية فيها، أصبحوا فى المراكز التجارية الكبرى فى الشرق حفاظًا وقائمين على كل المعرفة العلمية، وكذلك الاجتماعية: الرياضيات، علم الفلك، الطب، التاريخ، الشريعة. تزايد تأثيرهم من ثم على الدولة والمجتمع إلى حد ضخم. وقد تمكن الدين ذاته فى هذه الأقاليم من أن يحقق سلطة روحية لم تكن الميثولوجيا اليونانية قادرة على مثلها، حيت سرعان مارفضت الفلسفة الهيلينية الميثولوجيا. ولم تقم بمحاولة لأن تصبغ مفاهيمها الساذجة بمعرفة أكثر عمقًا، أو أن تؤلف بها بين الاثنين.

من المحتمل أن ديانة بلاد الإغريق القديمة قد تلقت قوتها الحسية، وطابعها الفنى الفرح بسبب السمو الذى بلغته الفنون، وكذلك بسبب حقيقة أن فلسفتها ابتعدت عن الكهنة. من ناحية أخرى، فى إقليم ذو تجارة دولية نشيطة، ولكن لايملك الفنون، بدون ارستقراطية دنيوية لديها ميول ثقافية وحاجات، ولكن ذو كهانة

متطورة تمامًا، ديانة تثمر تطورًا باكرًا للشرك، ذات شخصيات إلهية قاطعة التحدد، سوف تتخذ بسهولة أكثر طابعًا روحيًا مجردًا، بينما يمكن للإله أن يتغير بسهولة أكثر من شخصية إلى فكرة أو مفهوم.

ه - التجارة والقومية

للتجارة أثر آخر على الفكر الإنسانى بالإضافة إلى ماحللناه لتونا. إنها حافز ضخم للشعور القومى. لقد ذكرنا سلفا حدود الافق الفلاحى والبورجوازى باعتبارهما متعارضين مع الأفق الواسع للتاجر. يكتسب الأخير هذا الافق الواسع بسبب حقيقة أن طموحاته تتزايد على الدوام، تنقله من المكان الذى وضعته فيه واقعة ميلاده. لقد بدا هذا أكثر وضوحًا فى حالة الأمم البحرية، وجد فى الأزمنة القديمة الفينيقيون والإغريق، يغامر الأولون ماوراء البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنطى، ويكتشف الأخيرون البحر الأسود. لم تسمح التجارة عبر البر بمثل هذه الحملات التوسعية. وقد استلزمت التجارة البحرية درجة عالية من المهارة، خاصة فى بناء السفن، وقد جرت التجارة بين أمم عظمى وصغرى، حيث أخضع الأخيرون بسهولة، مما أدى إلى تأسيس مستعمرات من قبل الشعوب التجارية. كانت التجارة عبر البر هى الأبكر. وأدارتها على نحو غاية فى البساطة (القبائل) الرعوية التى زارت القبائل الأعلى تطورًا بكثير، ووجدت بينها بالفعل فائض منتجات الزراعة والصناعة. لم تكن هناك إمكانية فى حالات كهذه لتأسيس مستعمرات بواسطة الحملات المعزولة. ربما يتحد عدد من القبائل الرعوية عرضًا من اجل أن ينهبوا أو يخربوا البلدان الأكثر ثراءًا وتطورًا، ولكن حتى آنئذ فإنهم لم يأتوا كمستعمرين، باعتبارهم حملة حضارة أعلى. ولكن مثل هذه الاتحادات للقبائل الرعوية قد تحققت على نحو غاية فى الندرة، وعندئذ فى ظل ظروف استثنائية فقط، ما دامت الطبيعة الخاصة لتربية الماشية الرعوى تعزل القبائل المختلفة والأشخاص gentes، حتى الأسر، كل منها عن الأخرى مفرقة إياهم فوق مساحات شاسعة. يمكن للتجار الذين ينتمون لهذه القبائل كقاعدة أن ينفذوا داخل الجماعة الغنية والقوية التى كانوا يتاجرون معها فقط باعتبارهم مستجيرين جرى التسامح معهم.

هذا حقيقى أيضًا فيما يتعلق بالتجار الذين ينتمون للقبائل الصغيرة الذين استقروا فى معبر الأمم بين مصر وسوريا. أسست هذه القبائل أيضًا مثل الفينيقيين والأغارقة مستوطنات فى البلدان التى كانت تتاجر معها، من بابل حتى مصر ولكنهم

لم يكونوا مستعمرين بالمعنى الدقيق للكلمة، ليست مدنًا قوية، ليست أدوات للتحكم واستغلال البرابرة من قبل أمة متحضرة، ولكن جماعات ضعيفة من المستجيرين، محاطة بمدن قوية غاية فى التحضر. لقد كان في غاية الضرورة لأعضاء هذه الجماعات أن يبقوا ملتحمين معًا في مواجهة الغرباء الذين عاشوا بينهم، لذا أصبحت رغبتهم أقوى فى تأمين القوة والمكانة لأمتهم، لأن سلامتهم الخاصة ومكانتهم وسط الغرباء ومن ثم أيضًا ظروف نشاطهم التجارى تعتمد على مثل هذا الاعتراف.

فى كل مكان، حتى فى القرن التاسع عشر، كما سبق وان أشرت فى كتابى عن توماس مور [1] فإن طبقة التجار هى القسم الأكثر اممية والأكثر قومية فى المجتمع فى آن معًا. ولكن فى حالة التجار الذين ينتمون إلى الأعراق الصغيرة الذين كانوا معرضين بدون دفاع لكثير من سوء المعاملة فى الخارج تزايد هذا الشعور القومى، هذا التوق لتلاحم قومى ومكانة قومية، وكذلك زادت كراهيتهم للأجانب بالضرورة على نحو أكثر قوة.

هكذا كان حال التجار الإسرائيليين. من المحتمل أن الإسرائيليين ذهبوا لمصر بالأحرى باكرًا فى تاريخهم، ربما حينما كانوا رعاة ماشية متجولون فحسب، قبل أن يصبحوا سكانًا دائمين فى كنعان بزمن طويل. لدينا أدلة تتعلق بمهاجرين كنعانيين إلى مصر تعود لتاريخ مبكر للغاية، ربما تعود إلى الألف الثالثة قبل المسيح. يقول ادوارد ماير حول هذا الموضوع: "إن رسما شهيرا فى مقبرة امنحوتب، فى بنى حسن يظهر لنا أسرة بدوية تتكون من 37 شخصا، يقودهم رئيسهم الباشا، راحلون نحو مصر فى السنة السادسة من حكم سنوسرت **usertesen** الثالث [2]. ويسمون عامو **amu**، التى تعنى الكنعانيين، وملامح وجوههم تعينهم بوضوح باعتبارهم ساميين. وهم يرتدون حللا متعددة الألوان كانت مألوفة فى آسيا منذ أقدم الأزمنة، ومسلحون بالأقواس والرماح ويقودون بغالاً وماعزًا معهم، واحد منهم قادر أيضًا على أن يلعب على القيثارة، وقد أتوا وفي حيازتهم المادة الثمينة **meszemut**، لصبغ حواجبهم. وهم الآن يطلبون الدخول وفى هذا الصدد يتقدمون إلى كونت مينا تخوفو**menatchufu**، امنحوتب، الذى تخضع له أراضى الجبال. يقدمهم الكاتب الملكى نفرحوتب للأخير من اجل بعث رسالة

---

1 **Thomas more und seine utopie by karl kautsky. stutgart: j.h.w dietz nachf 1888.**

11 ملك من الاسرة الثانية عشر، التى امتدت على وجه التقريب من 2100 إلى 1900 قبل الميلاد، من الممكن أن تكون قد بدأت بضعة قرون ابكر.

رسمية ولتقديم تقرير إلى الملك. مناظر أخرى مثل تلك التى رسمت هنا ربما تكون غالبًا قد حدثت والتجار والحرفيين الكنعانيين بلا ريب استقروا فى المدن الشرقية للدلتا بأعداد كبيرة، حيث ستكون لدينا الفرصة أن نجدهم ثانية. وبالعكس كثيرًا ما اتى التجار المصريون بالتأكيد إلى المدن السورية. بالرغم من أن التجارة المصرية كان عليها أن تمر خلال أيدى كثير من الوسطاء، فمن المحتمل جدًا أنها قد امتدت بعيدًا إلى بابل حتى فى هذه الفترة الباكرة.

بعد بضعة قرون من هذا الوقت، حوالى العام 1800 ق.م، فى الوقت الذى كان يتحلل فيه المجتمع المصرى، غزا الهكسوس مصر الشمالية، وهي القبائل الكنعانية المتجولة بلا شك، التى أغواها ومكنها ضعف الحكومة المصرية من أن تغزو أراضى النيل الغنية، حيث بقوا لأكثر من قرنين. تكمن أهمية حكم الهكسوس فى تاريخ العالم فى حقيقة أنهم كانوا من أسس الرابطة النشطة التى لم تنقطع بين مصر والمقاطعات السورية منذ آنذاك. أتى التجار والحرفيون الكنعانيون إلى مصر بأعداد كبيرة، ونصادف الأسماء الأولى الكنعانية وأشكال العبادة من ثم فى الإمبراطورية الجديدة، بدأت الكلمات الكنعانية تتسلل إلى اللغة المصرية. يتبين لنا كيف كان هذا الاتصال نشطًا من خلال كشفنا لمؤلف طبي كُتب حوالى عام 1550 ق.م يحتوى على وصفة للعيون كتبه عامو من كبنى**amu from kepni**، واغلب الاحتمال انها المدينة الفينيقية ببيلوس [1].

ليس لدينا سبب لنفترض أن العامو، البدو الساميين وسكان المدن فى الشرق والشمال الشرقى من مصر، الذين ذهبوا إلى مصر، لم يشتملوا أيضًا على العبرانيين، بالرغم من أن الأخيرين لم يسموا تعيينًا. من ناحية أخرى، فإنه من الصعب أن نحدد اليوم ما يمكن أن نعده النواة التاريخية فى خرافات يوسف، وإقامة العبرانيين فى مصر، وخروجهم بقيادة موسى. أن نفترض أنهم هم الهكسوس، كما يفعل يوسيفوس، ليس محتملاً. ولكن يبدو الكثير مؤكدا، أنه ليس كل إسرائيل، وإنما أسرًا معينة وقوافل العبرانيين اتت إلى مصر فى تاريخ مبكر، حيث عوملوا، اعتمادًا على الظروف المتنوعة للأحوال فى البلد، بشكل ملائم بهذا القدر أو ذاك، فحينًا يستقبلون بأذرع مفتوحة، وبعدئذ يعذبوا ويطردوا باعتبارهم أجانب "غير مرغوب فيهم".

---

1 Eduard Mayer, geschichte des alten aegyptens, 1887 p.p 182 210.

هذا هو النصيب النموذجى لمستوطنات التجار الأجانب هذه، الآتية من قبائل ضعيفة، بعد استقرارهم فى الإمبراطوريات القوية. ال "شتات"diaspora، اي تبدد اليهود عبر العالم لايبدأ بالتأكيد متأخرًا مع تدمير أورشليم من قبل الرومان، ولا مع المنفى البابلى، وإنما أبكر كثيرًا، إنه نتيجة طبيعية للتجارة، وهي ظاهرة اشترك فيها اليهود مع أغلب الشعوب التجارية. ولكن لاينبغى أن ننسى ان الزراعة، كما فى حالة معظم هذه القبائل، بقيت المصدر الرئيسى للعيش، وللإسرائيليين أيضًا حتى زمن نفيهم. شكلت التجارة سابقًا هواية فقط لمربى الماشية الرعويين. بعد أن استقروا وأدخل تقسيم للعمل، وأصبح التاجر المرتحل متميزًا عن الفلاح، الذى عاش على الأرض، بقى عدد التجار صغيرًا نسبيًا، حيث يحدد الفلاح طابع الشعب. وكان عدد الإسرائيليين الذين عاشوا فى الخارج قليلاً على أى حال بالمقارنة مع هؤلاء الذين بقوا فى الوطن. لم يكن العبرانيون مختلفين عن الشعوب الأخرى فى هذا الصدد.

ولكنهم كانوا يعيشون فى ظروف سببت كراهية نحو الغرباء، والشعور القومى القوى، حتى الحساسية القومية، التى حُفزت فى التاجر، قد انتقلت إلى جسم السكان أكثر مما هو الحال عادة بين الشعوب الفلاحية.

و ـ كنعان، معبر الأمم

لقد رأينا كيف كانت عظيمة أهمية فلسطين فى التجارة بين مصر، وبابل وسوريا. ومنذ وقت لا تعيه الذاكرة جهدت هذه الدول لامتلاك هذا البلد.

تطورت روح حربية فى مصر فى الصراع ضد الهكسوس، الذين ذكروا سلفًا (حوالى 1800 ق.م إلى 1530 ق.م)، ولكن طور الهكسوس فى نفس الوقت التجارة كثيرًا بين مصر وسوريا. ظهرت من ثم بعد طرد الهكسوس الرغبة فى التوسع الحربى بين المصريين، خاصة بغرض التحكم فى الطريق التجارى إلى بابل. لقد تقدموا نحو الفرات واحتلوا فلسطين وسوريا. وقد أجبروهم الشيتا علي التقهقر من البلد الأخير cheta، ولكن بقوا فى فلسطين (لفترة) إطول من القرن الخامس عشر حتى الثانى عشر ق.م. سيطروا أيضًا على عدد من المعاقل هناك، وكانت أورشليم من بينها. لكن تدهورت فى النهاية القوة الحربية المصرية، وبدءًا من القرن الثانى عشر، لم تعد مصر قادرة على الاحتفاظ بفلسطين وبالمثل. اضعف الشيتيون cheitites السوريين فى نفس الوقت بسبب الانتشار الأولى للأشوريين، ومُنعوا من النفاذ أبعد نحو الجنوب.

هُجر الحكم الأجنبى فى فلسطين هكذا لبعض الوقت. وكانت هذه هى الفرصة التي سنحت لمجموعة من القبائل البدوية، تحت الاسم العام للإسرائيليين، لأن تدخل البلد كغزاة لتحتله تدريجيًا. لم يكونوا قد أكملوا هذه العملية تمامًا بعد، وكانوا مازالوا منخرطين فى نزاع نشيط مع سكان البلد السابقين، حين نهض أعداء جدد ليواجهونهم فى شكل قبائل بدوية أخرى كانت تدفعهم نحو "الأرض الموعودة". واجهوا فى نفس الوقت على أية حال، على خطهم الأمامى عدوا فى شكل سكان الأودية التى تفصل بلد الجبل الواقع تحت سيطرة الإسرائيليين عن البحر. كان هؤلاء هم الفلستينيين. لابد أن الأخيرين قد شعروًا بالتهديد بجدية بسبب تقدم شعب شديد العدوانية كالإسرائيليين. من ناحية أخرى فإن سهل الساحل لابد وأن كان مغريًا بصفة خاصة فى عيون الإسرائيليين، حيث مر عبر هذا السهل الطريق الرئيسى الذى يربط مصر بالشمال. ومن تحكم فى هذا الطريق تحكم فى نفس الوقت من ثم فى كل تجارة مصر الأجنبية مع الشمال والشرق. كانت التجارة البحرية لمصر فى البحر الأبيض المتوسط فى هذا الوقت ضئيلة الأهمية للغاية. ولكن إذ ظهر أن سكان هذه التلال التى طوقت السهل شعب مقاتل وسلاب، فلا بد أن يبقى ذلك بالضرورة تهديدًا دائمًا للتجارة من وإلى مصر، وللثراء الناجم عن تلك التجارة. وقد كانوا مقاتلون وسلابين. رُوى لنا مرارا عن تشكيل عصابات اللصوص فى إسرائيل، على سبيل المثال، يفتاح، الذى حوله: "اجتمع رجال بطالون وكانوا يخرجون معه" (قضاة،3،3). ونسمع أيضًا عن غزوات عصابات داخل بلد الفلستينيين. وهكذا فنحن نقرأ فيما يتعلق بشمشون أن "وحل عليه روح الرب فنزل إلى اشقلون وقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهرى الأحجية" (قضاة 41، 91) الذى يعنى أنه كان يسرقهم من أجل أن يدفع دينًا. داود يصور فى بداياته أيضًا بوصفه قائدًا لمجموعة لصوص "واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسًا وكان معه نحو أربع مئة رجل". (صموئيل الأول، 22 /2)

ليس هناك مايدعو للتعجب من وضع كهذا حيث ساد عداء دائم بين الفيلستينيين والإسرائيليين، انتهاءًا إلى أن الأولين قد بذلوا كل جهد للقضاء على جيرانهم المزعجين. مضغوطين من جانب من قبل البدو، ومن جانب آخر من قبل الفيلستينيين أكرهت إسرائيل على أن تكون في وضع من التبعية والخطر. لقد خضعت للفيلستينيين باستعداد أكبر مادام إقليم الجبل الذي سكنوه شجع تكوين روح محلية ذات خصوصية، وانقسام للعشائر، بينما كانت السهول على الأرجح تلائم

توحيد القبائل والجماعات المتنوعة الخاصة بالفيلستينيين لأجل عملية عظيمة مفردة. حينما نجحت مملكة داود العسكرية القوية فقط فى صهر مختلف قبائل إسرائيل فى وحدة صلبة كفت إسرائيل عن أن تُضطهد.

أطيح بالفيلسنتينيين الآن، وهزمت آخر المدن المحصنة فى نجد كنعان، التى كانت ماتزال تقاوم الإسرائيليين، بما فيها أورشليم، ذات الموقع الجيد الاستثنائي، بقعة منيعة تقريبًا. التى قامت بأطول مقاومة للإسرائيليين، والتى تحكمت فى كل الطرق الداخلية لفلسطين من الجنوب. وقد أصبحت عاصمة المملكة ومرتكز الوثن الاتحادى، تابوت العهد، الذى سكن فيه إله الحرب يهوه.

سيطر داود الآن على مجمل التجارة التى تمر بين مصر والشمال، وقد درت عليه هذه التجارة غنيمة غنية، مكنته من زيادة موارده الحربية وتوسيع حدود دولته باتجاه الشمال وباتجاه الجنوب، حيث أخضع القبائل اللصوصية بعيدًا حتى البحر الأحمر، وجعل طُرق التجارة آمنة إلى هذا البحر، بمساعدة الفينيقيين، لأن الإسرائيليين لم يكونوا ذوى معرفة بالإبحار، بدأ يواصل التجارة على البحر الأحمر، التى كانت قد مرت سابقًا بقرب الطريق البرى من العربية الجنوبية (سبأ) تجاه الشمال. لقد كان العصر الذهبى لإسرائيل، التى كان بمستطاعها، بسبب موقعها المهيمن على واحد من أكثر الطرق التجارية أهمية لهذا العصر، أن تحقق درجة مفسدة من القوة والثروة.

ومع ذلك فإن هذا الموقع المواتى تحديدًا كان مقدرًا له أن يسبب خرابها. لأن الأهمية الاقتصادية لهذا الموضع لم تكن سرًا بالنسبة للدول الكبرى المجاورة. كلما ازدهر البلد فى ظل داود وسليمان، كلما أثار بالضرورة جشع جيرانه الأقوياء، الذين كانت قوتهم الحربية تتحسن مرة أخرى فى هذا الوقت تمامًا، خاصة فى مصر بسبب حقيقة أن الميليشيا الفلاحية كانت تستبدل بالمرتزقة الذين يمكن استخدامهم بسهولة أكثر فى الحروب العدوانية، ومما لا ريب فيه، لم تكن لدى مصر قوة كافية لغزو فلسطين بشكل دائم. ولكن الأمر الأكثر سوءًا بالنسبة لإسرائيل هو أنه بدلاً من أن توضع فى حالة اعتماد دائم على أمة كبرى، تمنحها قوتها على الأقل السلام والحماية ضد الأعداء الخارجيين، فقد أصبحت كرة اللعب للمتنافسين المصريين والسوريين وفيما بعد الأشوريين أيضًا، وشكلت فلسطين مسرح الحرب التى حوربت عليها معارك هذه القوى المتعادية. إضافة إلى دمار الحروب التى كان عليها أن تحاربها دفاعًا عن مصالحها الخاصة، كان هناك الآن أيضًا دمار الجيوش الكبيرة التى كانت تتصارع هناك من أجل مصالح غريبة تمامًا عن سكان البلد، ولم تخف أعباء الجزية

الإلزامية والتبعية، التى فُرضت على الإسرائيليين من وقت لآخر، بسبب حقيقة أن الأعباء لم تكن مفروضة دائمًا من قبل نفس السادة، وأن السادة كانوا يتغيرون دومًا وفقًا لحظوظ الحرب المتغيرة، وأن كل سيد اعتبر حيازته قصيرة وأنها يجب أن تُستغل حتى الحد الأقصى على الفور.

كانت فلسطين فى هذا الوقت فى مركز مشابه إلى حد ما لمركز بولندا فى القرن الثامن عشر أو إيطاليا، خاصة إيطاليا الشمالية، من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر. إيطاليا وبولندا فى هذين الموضعين الأخيرين، مثل فلسطين فى زمن أبكر، وجدتا نفسيهما غير قادرتين على فرض سياسة من صنعهما، ومن ثم قدمتا مسرحًا للحرب وموضوعًا لاستغلال القوى الأجنبية. بولندا لها ذات العلاقة مع روسيا، والنمسا، إيطاليا مع إسبانيا وفرنسا، وكذلك مع سادة الإمبراطورية الألمانية، ولاحقا النمسا. وكما فى حالة إيطاليا وبولندا، حدث انقسام قومى فى فلسطين أيضًا، ومن المحتمل أنه يرجع لنفس السبب: فى فلسطين، كما فى إيطاليا كانت الأجزاء المختلفة للبلد متأثرة بتنوع الأجناس المجاورة. كان الجزء الشمالى من الإقليم، الذى احتله الإسرائيليون أكثر عرضة للخطر وأيضًا كثيرًا ما حكمه السوريون ولاحقًا الأشوريون. الجزء الجنوبى، بما فيه فلسطين والبلد المجاور، بمعنى آخر، على وجه التقريب إقليم سبط يهوذا، كان بالأحرى معرضًا لأن تهدده مصر أو أن يكون تابعًا لها، حسب مقتضى الحال. بدت إسرائيل بالمعنى الضيق للكلمة من ثم أحيانًا وكأنها تتطلب سياسة خارجية مختلفة أكثر مما فعلت يهوذا. من المحتمل أن هذا الاختلاف فى السياسة الخارجية قد أصبح السبب الرئيسى لانقسام إسرائيل إلى مملكتين، على نقيض الوضع السابق، الذى كانت فيه السياسة الخارجية سبب وحدة الأسباط الاثنى عشر ضد العدو المشترك الوحيد الذى يهدد الجميع بشكل متساو، أى، الفيليستينيين.

ولكن أنتجت الأوضاع المماثلة لفلسطين وإيطاليا وبولندا بالضرورة تأثيرات متشابهة فى حقل آخر أيضًا: نجد فى كل هذه البلدان نفس الشوفينية القومية، نفس الحساسية القومية، نفس الكراهية للأجانب، التى هى إلى حد ما أكثر تكثيفًا من المشاعر المرتبطة التى تأتت عن التعارضات القومية عند أجناس أخرى فى ذلك الزمن. لابد أن تتزايد هذه الشوفينية، حيث يستمر الوضع غير المحتمل للبلد، وخضوعه بلا توقف لنزوات جيرانه الكبار، جاعلين إياه مسرحًا للحرب من أجل غزواتهم اللصوصية.

بالنظر للأهمية التى حازها الدين فى الشرق، لأسباب جرى تعيينها قبلاً عبرت الشوفينية بالضرورة عن نفسها حتى فى الدين. أتت العلاقات التجارية

النشطة مع جيرانها أيضًا بوجهات نظرهم الدينية، أشكال العبادة، والصور الإلهية إلى إسرائيل، لكن كراهية الأجانب، من ناحية أخرى، اتخذت أيضًا شكل كراهية لآلهتهم، ليس لأن وجودهم كان مشكوكًا فيه، ولكن بسبب أنهم كانوا يعتبرون مساعدين فعالين للعدو.

لا تميز هذه المسألة العبرانيون عن الشعوب الشرقية الأخرى. كان سوتيخ SUTECH الإله السلفى للهكسوس فى مصر. حين طرد الهكسوس فى النهاية، عزلوا الإله السلفى أيضًا. حيث طابقوا بينه وبين إله الظلام، ست أو سوتيخ، الذى نظر إليه المصريون بمقت.

من المحتمل أن وطنيي إسرائيل وقادتهم الأنبياء كانوا حانقين بنفس القدر على الآلهة الأجنبية مثل الوطنيين الألمان فى أيام نابليون الذين كانوا حانقين على الموضات الفرنسية والكلمات الفرنسية فى اللغة الألمانية.

ز- الصراعات الطبقية فى إسرائيل

ولكن لم يكن الوطنيون راضين بكراهية الغرباء فحسب. لقد شعروا أيضًا بأنهم ملزمين بتجديد الدولة، بتزويدها بقوة أكبر. حيث أصبح القهر أكثر حدة من الخارج، فقد تزايد التحلل الاجتماعى داخل الجماعة الإسرائيلية. أتى نمو التجارة منذ زمن داود بثروة عظيمة إلى البلاد. ولكن، كما فى كل مكان آخر فى العالم القديم بقيت الزراعة فى فلسطين أيضًا أساس المجتمع، وكانت ملكية الأرض الشكل الأكثر أمنًا وشرفًا للامتلاك. وكما فى أماكن أخرى، سعت هذه العناصر التى أصبحت ثرية فى فلسطين لحيازة ملكية عقارية، أو إذا كانت تمتلكها بالفعل، أن تزيدها. هنا أيضًا نلاحظ بدايات اتجاه نحو تكوين اللاتيفونديا (الضيعة - العزبة). لقد جرى تشجيع هذا الاتجاه بحقيقة أن الفلاح كان "سائرًا للهلاك" فى ظل الظروف الجديدة، كما هو الحال فى بلدان أخرى،. بينما كانت صراعات الإسرائيليين سابقًا مجرد ضغائن محلية صغيرة، لاتتطلب غياب جندى الميليشيا الفلاحية لوقت طويل، ولا لمسافات بعيدة من وطنه، تغير هذا الشرط بمجرد أن أصبحت إسرائيل دولة كبرى، وانخرطت فى صراعات الدول الكبرى. كانت الخدمة العسكرية الآن تدمر الفلاح وتجعله معتمدًا على الجيران الأقوياء الذين امتلكوا النقود والذين واجهوه باعتبارهم مرابين، لهم سلطة طرده من أرضه أو سامحين له أن يبقى فيها كعبد مدين، لدفع ديونه. من المحتمل أن الوسائل الأخيرة هي التي فضلوها

غالبًا، لأننا نقرأ قليلاً عن عبيد ينتمون لأعراق أخرى فى فلسطين. إذا كان للعبيد المشترين أن يكونوا أكثر من رفاهية مكلفة للاقتصاد المنزلى الخاص، إذا كان لهم أن يصبحوا وسائل مريحه للاستثمار فى الإنتاج، فإنهم يفترضون مسبقًا بالضرورة حروب دائمة ناجحة، متيحة مادة وفيرة رخيصة من العبيد. لم تكن هناك إمكانية لهذه العملية بين الإسرائيليين. لقد انتموا فى قسمهم الأعظم لتلك القبائل التعيسة التى قدمت العبيد، ولم تصنعهم. كان ملاك اللاتيفونديا، الذين احتاجوا لأيدى عاملة رخيصة ومعتمدة، يفضلون كثيرًا بالضرورة عبودية المدين من مواطنيهم، نظام يلقى فى بلدان أخرى أيضًا - على سبيل المثال فى روسيا فى الوقت الراهن [1]، منذ إلغاء القنانة - تحبيذا بين الملاك العقاريين الكبار المحتاجين للعبيد أو الأقنان.

حيث تنامى هذا التطور، تناقصت قوة إسرائيل العسكرية بالضرورة بالمثل مع تناقص الفلاحين الأحرار، وما ترتب على ذلك من ضعف ناجم لقدرتها على مقاومة الأعداء الخارجيين. اتحد، من ثم الوطنيون مع المصلحين الاجتماعيين والشعبيين، من أجل كبح هذا الاتجاه الكارثى. لقد دعوا الشعب والمملكة أن يكافحوا كلا من الآلهة الأجنبية، وكذلك أعداء الفلاحين فى بلدهم، وتنبأوا بدمار الدولة إذا لم يكن من الممكن وضع حد لقهر وإفقار الطبقة الفلاحية. يصرخ إشعيا "ويل للذين! يصلون بيتًا ببيت ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبق موضع. فصرتم تسكنون وحدكم وسط الأرض. فى أذنى قال رب الجنود ألا أن بيوتًا كثيرة تصير خرابًا (بيوتًا) كبيرة وحسنة بلا ساكن ". (الإصحاح الخامس، 8،9)

وأعلن النبى عاموس:

" اسمعى هذا القول يا بقرات باشان التى فى جبل السامرة الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة لسادتها هات لنشرب. قد أقسم الرب بقدسه هو ذا أيام تأتى عليكن يأخذونكن بخزائم وذريتكن بشصوص السمك ". (الإصحاح الرابع، 1، 2).

"اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكى تبيدوا بائسى الأرض. قائلين متى يمضى رأس الشهر لنبيع قمحًا؟ والسبت لنعرض حنطة. لنصغر الأيفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش؟ لنشترى الضعفاء بفضة والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح؟ قد

---

13 سوف يتذكر القارئ أن كاوتسكى كتب هذه الكلمات فى 1908، حينما كان القيصر مازال يحكم روسيا - المترجم.

أقسم الرب بفخر يعقوب انى لن انسى إلى الأبد جميع أعمالهم. اليس من أجل هذا ترتعد الأرض وينوح كل ساكن فيها ؟" (عاموس، الإصحاح الثامن، 4 ـ 8)

حقيقة أن المُلاَّك والحكام كانوا يُوظفون جهاز الحكومة لإقرار النظام الجديد للأشياء فى شكل جبايات، هو أمر واضح من العويل الذى لايتوقف للأنبياء فيما يتعلق بالشرائع القائمة: يصرخ إشعيا الفصيح "ويل للذين، يقضون اقضية البطل وللكتبة الذين يسجلون جورًا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى، (الإصحاح العاشر، 1): صهيون تفدى بالحق، (الإصحاح الأول، 72). "حقًا انه إلى الكذب حولها قلم الكتبة" (إرميا، الإصحاح الثامن، 8). "حولتم الحق سما وثمر البر افسنتينا". (عاموس، الإصحاح السادس، 21)" [1].

من حسن حظ الأنبياء أنهم لم يعيشوا فى بروسيا أو ساكسونيا وإلا لما كانوا قد رأوا أبدًا نهاية لمحاكمتهم بالتحريض على العنف، وإهانة الملك **lese - majeste**، والخيانة العظمى.

ولكن رغم أن تحريضهم كان حيويًا، وضاغطًا كما كانت الحاجات التى نبع منها، فقد كان مستحيلاً أن يلقى الأنبياء اى نجاح فى المجتمع، على الأقل نجاح دائم، رغم أنهم قد يكونوا قد نجحوا عرضًا فى فرض تشريع لتخفيف العوز أو لإزالة التضادات الاجتماعية. لقد كان بمقدورهم أن يهدفوا فقط لاستعادة السلام، وإعاقة مد التطور الاقتصادى. لقد كان مستحيلاً عمل هذا، فجهود الجراكشى **gracchi** المماثلة فى روما كان محكومًا عليها مقدمًا بالإخفاق.

إن تدمير الفلاحين، والدولة أيضًا مع الفلاحين، كان ينطلق بلا مقاومة فى إسرائيل كما كانت الحالة فيما بعد فى روما. ولكن تدمير الدولة لم ينطلق بنفس العملية البطيئة من التحلل كما فى إمبراطورية روما العالمية. لقد ازالها فجأة الخصوم العتاة. الأرفع فى القوة، قبل أن تصل نهاية اختمارها المحلي بزمن طويل. كان هؤلاء الخصوم هم الأشوريين والبابليين.

---

1 M. Beer, ein beitrag zur geschichte des klassen kampfes im hebräischen altertum. die neue zeit , vol. xi , I , p. 447.

ح - سقوط إسرائيل

تبدأ السياسة الإمبريالية للأشوريين فى الاشتغال بطريقة عظمى حوالى زمن تيغلث فلاصر (حوالى 1115 - 1050 ق.م) وبالرغم من المعوقات المؤقتة، فإنها تأتى بالجيوش الأشورية اقرب فأقرب إلى كنعان. ولكن هؤلاء الغزاة الأقوياء أتوا معهم بطريقة جديدة لمعاملة المهزومين، التى قدر أن يكون لها تأثير الكوارث على الإسرائيليين. خلال مرحلتهم الرعوية، كان مجمل الشعب مهتما بالميزة التي يحصل عليها كل منهم من الحملة العسكرية. كان مقصودًا بمثل هذه الحملة إما مجرد النهب، أو غزو بلد خصب، قد يستقر فيه المنتصرون باعتبارهم المستغلين الأرستقراطيين للسكان المحليين. ولكن فى مرحلة الزراعة المستقرة، لم يعد لدى جماهير السكان، الفلاحين والحرفيين أى اهتمام بحرب غزو لبلد خصب، ولكن اهتمامهم بأى حرب دفاعية ناجحة أصبح بالضرورة أعظم، لأنه فى مثل هذه الحرب كانوا مهددين بفقدان حرياتهم وأراضيهم حال الهزيمة. كان التجار الكبار، على أى حال، محبذون للتوسع الخارجى بالقوة، لأنهم احتاجوا الأمان لطرقهم التجارية وأسواقهم بالخارج، الأمر الذى يمكن إحرازه فى اغلب الحالات بالاحتلال العسكرى فقط على الأقل لبعض الأماكن الأجنبية. كانت نبالة الأرض متطلعة أيضًا لغزو حربى، لأنها رغبت فى أرض أكثر وعبيد جدد، وبالمثل كان الملوك محبين للحرب، متطلعين لزيادة عوائد الضرائب.

ولكن مادام لم يكن هناك جيش دائم ولا بيروقراطية يمكن أن تُنزع من الوطن وتنقل إلى أى موضع، فقد كان الاحتلال الدائم وإدارة الإقليم المغزو من قبل المنتصر يواجه بصعوبات كبرى فى هذه المرحلة الاقتصادية. ارتضى المنتصر من ثم كقاعدة بنهب شامل وإضعاف الشعب المهزوم، وبوعد من الأخير بأن يدعمه وأن يدفع جزية معينة محددة له، غير أنه ترك الطبقات الحاكمة للبلد المأسور فى مركزها الاجتماعى، دون أن يجرى أى تغييرات فى مؤسسات البلد السياسية.

تمثلت نواقص هذا الوضع فى حقيقة أن المهزوم سوف يقتنص أول فرصة تلوح ليتخلص من النير المكروه، وهكذا فسوف يكون مطلوبًا حملة عسكرية جديدة لإخضاعه مجددًا، ومن الطبيعى الا تنته مثل هذه الحملة دون إنزال أشد العقوبات تطرفًا ب"المتمردين".

ابتكر الأشوريون طريقة وعدت بإعطاء غزواتهم دوامًا أعظم: حينما واجهوا مقاومة عنيدة، أو حينما لقوا انتفاضات متكررة، فكانوا يضعفون الشعب بقطع رأسه، بمعنى آخر، بحرمانه من طبقاته الحاكمة، بنفى السكان الأكثر تميزًا، الأكثر ثراءًا، ذكاءًا، الميالين للحرب، خاصة من العاصمة، إلى أحد الأقاليم البعيدة، حيث لا يملك الأشخاص المنفيون، فئة خاضعة يحكمونها، كانوا عاجزين بشكل مطلق. شكل الفلاحون الباقون والحرفيون الصغار، على أى حال، الآن كتلة غير متماسكة، غير قادرة على تقديم أى مقاومة قوية للغزاة.

كان شلمنصر الثانى (859 - 825 ق.م) أول ملك أشورى اخترق سوريا بالمعنى الضيق للكلمة (حلب، حماة، دمشق) وايضًا أول من أعطانا اية انباء عن إسرائيل. يذكر، فى تقرير مسمارى من 248 ق.م، من بين اشياء أخرى، جزية دفعها الملك الإسرائيلى، ياهو. وله صورة تمثل حاوية هذه الجزية، وهى أقدم تمثيل تصويرى لأفراد إسرائيليين نملكها الآن. انتهت إسرائيل منذ هذا الوقت فصاعدًا إلى اتصال أوثق مع أشور، إما فى مدفوعاتها للجزية، أو فى انتفاضاتها، بينما كانت الممارسة الموصوفة أعلاه بنفى الطبقات العليا من المهزومين، خاصة من الشعوب المتمردة، تتطور أكثر فأكثر بين الأشوريين. لقد كانت فقط مسألة وقت حينما يأتى أيضًا تدمير إسرائيل على أيدى الأشوريين غير المهزومين وغير القابلين للهزيمة بوضوح. لم تكن هناك حاجة لهبة النبوءة غير العادية بصفة خاصة للتمكن من التنبؤ بتحقق هذا الذى رآه الأنبياء اليهود مقدمًا بهذه الحيوية.

لقى القسم الشمالى من مملكتهم مصيره فى ظل الملك هوشع، الذى رفض دفع الجزية لأشور فى 427 ق.م، معتمدًا على مساعدة من مصر، لم تأت. انطلق شلمنصر الرابع إلى إسرائيل وهزم هوشع، وجعله سجينًا، وحاصر عاصمته السامرة، التى لم يتمكن من أخذها، على أية حال، إلى مابعد ثلاث سنوات من الحصار من قبل سرجون (722 ق.م) خلف سنحريب. "زهرة السكان" (وفقًا لفلهازون) 290و27 شخص، وفقًا للتقارير الأشورية، كانوا قد نُقلوا الآن للمدن الأشورية والمديانية. وضع ملك أشور مكانهم أشخاصًا أحضرهم من المدن البابلية المتمردة، "وأسكنهم فى مدن السامرة عوضًا عن بنى إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا مدنها" (الملوك الثانى، الإصحاح السابع عشر،42). لم يكن كامل سكان القبائل العشرة الشمالية لإسرائيل من ثم قد نقلوا بالقوة، وإنما فقط أكثر سكان المدن تميزًا، التى سكنها آنئذ الغرباء، ولكن هذا كان كافيًا تمامًا لتدمير قومية هذه القبائل العشرة، لأن الفلاح وحده غير قادر على

إنشاء حياة جماعية خاصة. إن سكان المدن الإسرائيليين والارستقراطيين الذين نقلوا إلى أشور وميديا (ماداى) من ناحية أخرى، اختفوا فى محيطهم الجديد فى مجرى الأجيال، مندمجين فيه.

ط - التدمير الأول لأورشليم

بقى هناك من شعب إسرائيل مدينة أورشليم فقط مع مقاطعتها يهوذا. لقد ظهر كما لو أن هذه البقية الصغيرة سوف تشارك فى مصير الكتلة الأعظم، وان اسم إسرائيل سوف ينمحي هكذا من وجه الأرض. ولكن لم يكن مقدرًا للأشوريين أن يأخذوا أورشليم ويدمروها. ممالاريب فيه، حقيقة أن جيش الأشورى سنحريب، الذى انطلق ضد أورشليم فى 701 ق.م، كان مضطرًا إلى العودة للوطن بسبب اضطرابات فى بابل، وهكذا كان الإبقاء على أورشليم، إرجاءًا فحسب. بقيت يهوذا دولة تابعة لأشور يمكن أن تبتلع فى اى لحظة.

ولكن بدءًا من زمن سنحريب تحول انتباه الأشوريين تدريجيًا نحو الشمال، لأنه كانت هناك قبائل حربية تتقدم أكثر فأكثر مهددة، تتطلب قوة عسكرية أكبر فأكبر لصدها: الكيمريون **cimmerians**، والماديون **medes**، والسكيثيين **scythians**. دخل الأخيرون غرب آسيا حوالى 625 ق.م، متقدمين فى مجرى نهبهم وتخريبهم حتى حدود مصر، ولكن تبددوا، فيما بعد بحوالى ثمانية عشر عامًا، بدون أن يؤسسوا أية إمبراطورية تخصهم. ولكن لم يختفوا دون أن يتركوا آثارًا معتبرة وراءهم؛ هز غزوهم الملكية الأشورية حتى أسسها. كانت الأخيرة معرضة من ثم لهجوم أكثر نجاحًا من قبل الميديين **medes**؛ انسحبت بابل وأصبحت حرة، بينما استغل المصريون الوضع ليحوزوا السيطرة على فلسطين. هزم المصريون الملك اليهودى هوشع وقتل فى مجدو (609ق.م) حيث عين نخاو، ملك مصر، يهوياكين كتابع له فى أورشليم، أخيرًا، فى عام 606 ق.م دمرت نينوى من قبل تحالف من البابليين والماديين **medes**، وبلغت الإمبراطورية الأشورية نهايتها.

ولكن هذا لم يُنقذ يهوذا. اقتفت بابل الآن خطى آشور وحاولت على الفور أن تحرز سيطرة على الطريق إلى مصر. عارض نخاو جهد البابليين تحت (قيادة) نبوخذنصر، الذى تقدم بعيدًا حتى سوريا الشمالية. هُزم المصريون فى معركة كركميش (506 ق.م)، وأصبحت يهوذا دولة تابعة لبابل فى اعقاب ذلك فورًا. كانت يهوذا تنتقل بوضوح من يد إلى يد، ففقدت كل استقلالها. رفضت يهوذا أن تدفع الجزية للبابليين،

بعد أن حرضتها مصر، ولكن إنهار هذا التمرد تقريبًا بلاصراع، كانت أورشليم محاصرة من قبل نبوخذنصر واستسلمت بلاشروط. فى ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار.(وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل فى السنة الثامنة من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عملها سليمان ملك إسرائيل فى هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى وجميع الصناع والأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض. وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل. وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل. (الملوك الثانى، الإصحاح الرابع والعشرون، 12 - 16)

كانت بابل مستمرة فى ممارسة الطريقة الأشورية القديمة، مرة أخرى لم يقوموا بتهجير كامل السكان، وإنما هجروا فقط البلاط الملكى، الارستقراطيين، الرجال القادرين على حمل السلاح والمواطنين المدنيين الأثرياء 10000 شخص إجمالاً. "مساكين شعب الأرض" من المحتمل أيضًا الذين من المدينة، تركوهم وراءهم، وبالتأكيد يشمل ذلك أيضًا قسمًا من الطبقات الحاكمة. لم تكن يهوذا قد دمرت بعد. لقد أعطاها سادة بابل ملكًا جديدًا. ومرة أخرى، للمرة الأخيرة، كانت الدورة الأخيرة تتكرر. حرض المصريون الملك الجديد، صدقيا على أن ينفصل عن بابل.

عندئذ ظهر نبوخذنصر خارج أورشليم، هزمها ومحا تمامًا هذه المدينة، التى كانت عنصرًا عنيدًا ومثيرًا للاضطراب بسبب موقعها المهيمن على طول معبر الأمم من بابل إلى مصر (586 ق.م).

"وفى الشهر الخامس جاء نبوزرادان، رئيس الشرط عبد ملك بابل، إلى أورشليم، وأحرق بيت الرب، وبيت الملك، وكل بيوت أورشليم، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار. وجميع أسوار أورشليم مستديرًا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين". (الملوك الثانى، الإصحاح الخامس والعشرون، 8- 21)

نقرأ فى إرميا بالمثل 39، 9، 10: "وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين سقطوا له وبقية الشعب الذين سباهم نبوزرادان رئيس الشرط إلى بابل. ولكن بعض الشعب الفقراء الذين لم يكن لهم شيء تركهم نبوزرادان رئيس الشرط فى أرض يهوذا وأعطاهم كرومًا وحقولاً فى ذلك اليوم ".

بقى من ثم عدد من العناصر الفلاحية. كان سيكون بلا معنى إفراغ البلاد من السكان كلية، وتركه بغير مزارعين، لأنه لم يكن ليتمكن آنئذ من دفع أية ضرائب. لقد رغب البابليون بوضوح أن ينقلوا خاصة هذا القسم من السكان، وفق ممارساتهم، الذى كان قادرًا على توحيد وقيادة الأمة، ويمكن من ثم أن يصبح خطرًا على الهيمنة البابلية. نادرًا ما كان الفلاح وحده قادرًا على تحرير نفسه من الحكم الأجنبى.

يصبح من السهل فهم المعلومات الواردة فى إرميا 93 إذا ماتذكرنا تشكيل اللاتيفونديا الذى كان يأخذ مجراه فى يهوذا أيضًا. لقد كان من الطبيعى الآن أن تقسم اللاتيفونديا وتوزع على الفلاحين المجردين من الملكية، أو أن يصبح العبيد المدينين والمستأجرين ملاكًا أحرارًا للأرض التى زرعوها. لأن طغاتهم قد كانوا قادة يهوذا فى صراعها ضد بابل.

طبقًا للتقرير الأشورى، كان سكان يهوذا فى ظل سنحريب 20000 دون احتساب (سكان) أورشليم، الذى ربما يقدر ب 25000. عدد الملاك العقاريين الكبار قدر ب15000؛ نقل نبوخذنصر 7000 من هؤلاء بعد الغزو الأول لأورشليم [1]. وقد ترك وراءه من ثم 8000. مع ذلك يقرر كتاب الملوك الثانى، 24، 14، أن الذين بقوا بالفعل كانوا هم فقط "مساكين شعب الأرض". هؤلاء الثمانية آلاف قد سبوا لاحقًا فى التدمير الثانى. من المحتمل أنها كانت كرومهم وحقولهم هى التى أعطت إلى مساكين الشعب، الذين لم يملكوا شيئًا.

اقرب الاحتمال أنه لم ينقل كامل السكان هذه المرة أيضًا، ولكن كل سكان أورشليم قد نقلوا. على أية حال، معظم سكان البلد قد بقى. ولكن ما بقى كف عن أن يشكل مجتمعًا يهوديًا نوعيًا. كانت كامل الحياة القومية لليهود قد تركزت فى سكان المدن الذين يعيشون الآن فى المنفى.

---

1 F. Buhl, die sozialen verhältnisse der israeliten, pp 52-53. قارن

لقد اكتسبت الحياة القومية الآن مسحة خصوصية، بسبب الوضع الخصوصى لليهود المدنيين. بينما كان الإسرائيليون حتى الآن عرقًا لم يختلف بقوة عن الأعراق الأخرى المحيطة به، ومن ثم لم يثر أى انتباه خاص وسط هذه الأعراق، فإن بقاياه، التى استمرت الآن فى عيش حياة قومية منفصلة، تطورت إلى عرق مختلف عن أى (عرق) آخر فى الوجود. لم يكن متأخرًا عن تدمير أورشليم من قبل الرومان، بل باكرًا عند تدمير أورشليم من قبل نبوخذنصر، أن باتت لدينا بدايات الوضع غير الطبيعى لليهود الذي يجعلهم ظاهرة فريدة فى التاريخ.

الفصل الثاني
اليهود بعد المنفى

أ النفي

من الواضح أن يهوذا لاقت نفس المصير بعد تدمير أورشليم كما جرى لأسباط إسرائيل بعد تدمير السامرة. ولكن ذات المصير الذي محا إسرائيل من التاريخ رفع يهوذا من شيء خامل عديم الأهمية إلى أن تصبح واحدة من العوامل الأكثر قوة في تاريخ العالم، بسبب الظروف التي تعود لعظم المسافة من أشور، وللتحصينات الطبيعية لأورشليم، وكذلك بسبب غزو القبائل الشمالية، فإن تدمير أورشليم قد جرى عقب مائة وخمسة وثلاثين عامًا بعد تدمير السامرة.

تعرض اليهود لمدة أربعة أجيال أطول من الأسباط العشر لكل هذه التأثيرات التي ذكرناها باعتبارها حافزة للتعصب القومي لأعلى درجة. لهذا السبب، إن لم يكن لآخر، ذهب اليهود إلى المنفى بمشاعر قومية متطورة أكثر بما لا يقاس من إخوانهم الشماليين. ولكن كان عامل آخر يعمل في نفس الاتجاه وهو حقيقة أن الجماعة اليهودية تألفت في الأساس من مدينة كبيرة مفردة فقط، تطوقها المنطقة المحيطة، بينما كانت الإمبراطورية الشمالية تجمعًا من عشرة أسباط، ليست بأي حال مرتبطة بوثوق الواحدة مع الأخرى. ألفت يهوذا من ثم كتلة أكثر توحدًا واندماجًا إلى حد بعيد من إسرائيل.

مع ذلك كان اليهوذيون سيفقدون قوميتهم أيضًا في المنفى إذا كانوا قد بقوا تحت الحكم الأجنبي بنفس طول إقامة القبائل العشرة. إن من يُنفى بين الغرباء ربما يحن لموطنه القديم ويكون غير قادر على أن يضرب بجذوره في محيطه الجديد. ربما يقوي نفيه حتى المشاعر القومية. ولكنه من غير العادي أن تجد مثل هذه المشاعر القومية بين الأطفال الذين ولدوا في المنفى، الذين نشأوا في البيئة الجديدة وعرفوا الظروف القديمة من خلال حكايات آبائهم فقط. إلا إذا أبقي توقع عودة باكرة لموطنهم السابق حيًا بسبب الحرمان من الحقوق، أو المعاملة غير الملائمة في البلد الأجنبي. سوف يتذكر الجيل الثالث، بدوره، بالكاد قوميته، إذا لم يكن كما صرحنا سلفًا، قد بقي دائمًا في تبعية لمحيطه، منزوع بالقوة عن بقية السكان كعرق منفصل

أدنى، معرض هكذا للقهر وسوء المعاملة من قبل العرق المهيمن. يبدو أن الحال لم يكن كذلك مع اليهود الذين نقلوا إلى أشور وبابل، وأنه قد كان من المحتمل من ثم أن يفقدوا قوميتهم ويختفوا وسط البابليين، إذا كانوا قد بقوا بينهم لأكثر من ثلاثة أجيال. ولكن عقب تدمير أورشليم مباشرة بدأت الإمبراطورية المنتصرة تتداعى، وأتيح للجماعات المنفية أن تأمل في عودة باكرة لأرض آبائها. وبالفعل في مجرى الجيل الثاني كان هذا الأمل قد تحقق، تمكن اليهود من العودة إلى أورشليم من بابل. لأن القبائل التي احتشدت في ما بين الرافدين من الشمال ودمرت أشور لم تهدأ على نحو غاية في السرعة. كان الأكثر قوة بينها قبيلة الفرس الرعوية، التي دمرت وارثي الحكم الأشوري، مملكتي الميديين والبابليين، ولم تعد فقط تأسيس الإمبراطورية الأشورية البابلية في شكل جديد، وإنما حتى وسعتها إلى حد ضخم، غازية مصر وآسيا الصغرى أيضًا، وخالقة للمرة الأولى نظامًا عسكريًا وإدارة قومية قادرة على تأمين أساس متين لإمبراطورية عالمية، صاهرة إياها بحزم ومحتفظة بسلام أهلي دائم داخلها.

لم يكن لدى غزاة بابل سبب للاستمرار في أن يبعدوا عن موطنهم هؤلاء الذين قهروا ونفوا إلى الخارج من قبل هذه الدولة. غزا الفرس بابل في 538 ق.م. بدون ضربة سيف، مما يظهر إلى أي حد كانت المدينة ضعيفة، وفي العام التالي يسمح كورش، الملك الفارسي، لليهود بأن يعودوا للوطن بالفعل. لم يستمر نفيهم نصف قرن، ومع ذلك، كان كثير منهم قد كيفوا أنفسهم للظروف الجديدة حتى أن قسمًا منهم فقط استغل الإذن، وبقي غير قليل منهم في بابل، حيث شعروا أكثر بأنهم في وطنهم. هناك شك غاية في الضآلة في أن اليهود كانوا سيختفون تمامًا لو أن أورشليم شاركت مصير السامرة. إذا كانت الفترة بين تدميرها وغزو بابل من قبل الفرس قد كانت فترة مائة وثمانين عامًا بدلاً من خمسين عامًا فقط.

ولكن رغم قصر فترة النفي اليهودي، إلا أنها أنتجت مع ذلك أكثر التغيرات بُعدًا في مداها في اليهودية، حافزة عددًا من الاتجاهات، وبدايات صغيرة كانت قد أنتجت قبلاً في ظروف يهوذا لأن تتطور وتقوى إلى أقصى مدى مضفية أشكالاً متميزة متطرفة على تلك الخصائص، بسبب الوضع الخصوصي الذي وُضع فيه اليهود منذ هذا الوقت فصاعدًا.

استمروا في المنفى في الوجود كأمة، أمة بغير فلاحين، أمة تتشكل على سبيل الحصر من السكان الحضريين. هذه واحدة من أكثر الملامح أهمية عند اليهود حتى

هذا اليوم، التي أسست عليها أشد "ملامح العرق" أساسية، التي تمثل بالفعل لا شيء أكثر من العادات المعتادة لسكان المدن أكدتها فترة طويلة من الحياة الحضرية، وبغياب عناصر جديدة يقدمها الفلاحون كما أشرت باكرًا في 1890 [1].

تغير هذا الظرف وإن على نحو طفيف وفقط بشكل مؤقت بعد عودتهم إلى فلسطين من منفاهم كما سنعلم في التكملة.

ولكن اليهود أصبحوا الآن ليس فقط أمة من سكان المدن، وإنما أيضًا من التجار. لم تكن الصناعة متطورة لحد بعيد في يهوذا، كما رأينا، لقد كانت كافية بالكاد لاحتياجات الاقتصاد المنزلي البسيطة. كان اليهود من ثم في وضع غير موات وسط البابليين المتطورين صناعيًا، حيث كانت الخدمة العسكرية وإدارة الحكومة مغلقة أيضًا بالنسبة لليهود بسبب فقدان استقلالهم: فأي عيش آخر بقي لسكان المدن سوى التجارة؟

إذ كانت التجارة مهمة جدًا في فلسطين منذ أزمان باكرة، فقد أصبحت بالضرورة المهنة الأساسية لليهود في منفاهم.

ولكن مع الزيادة في تجارتهم تضمن هذا بالضرورة زيادة في ذكاء اليهود، وحسهم الرياضي، قدرتهم على التركيب والتجريد العقليين. ولكن سوء حظهم القومي زود فطنتهم في نفس الوقت بموضوعات أنبل تتجاوز مجرد الكسب الشخصي. يصبح أعضاء القبيلة متحدين على نحو أكثر وثوقًا في بيئاتهم الأجنبية. حتى مما هم عليه في الوطن. يصبح شعورهم بالتماسك باعتبارهم متعارضين مع الأجانب أقوى، لأن الفرد يشعر بنفسه ضعيفًا وأكثر عرضة للخطر حين يقف وحيدًا. تصبح المشاعر الاجتماعية، والشفقة الأخلاقية، أكثر قوة، مشربة الإبداع اليهودي بأكثر الأفكار عمقًا بالنسبة لأسباب التعاسة القومية ووسائل إصلاح الأمة.

كان قد حفز الفكر اليهودي بالضرورة، في نفس الوقت، على أية حال، فخامة مدينة بابل المتروبوليتانية، مواصلاتها العالمية، حضارتها القديمة، علمها وفلسفتها. كما ارتقى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، المفكرون الألمان إلى أعلى وأفضل إنجازاتهم بإقامتهم في بابل على السين، وهكذا فإن إقامة في بابل على الفرات في القرن السادس ق.م لابد وأنها قد أثرت بالضرورة بالمثل على اليهود ووسعت فجأة أفقهم لحد ضخم.

---

1 Das Jüdentum, die Neue Zeit, Vol. VIII, p. 23FF.

لكن بالطبع، كما في كل المراكز التجارية الشرقية التي لا تقع على شطئان البحر الأبيض المتوسط وإنما في الأراضي الداخلية بقى العلم مرتبطًا بالدين مقيدًا بالدين لأسباب سبق وأن أشرنا إليها. ومن ثم فإن كل الانطباعات القومية الجديدة عبرت عن نفسها في شكل ديني بين اليهود، في الواقع، أصبح الدين الآن بالضرورة الأكثر بروزًا بين اليهود بسبب حقيقة أن تدمير استقلالهم القومي لم يترك إلا عبادتهم القومية العامة بوصفها الرابطة الوحيدة التي ما زالت توحد الأمة. شكلت كهانة هذه العبادة الآن التنظيم المركزي الوحيد الذي يحتفظ بسلطة ما في عيون كامل السكان. يبدو أن التنظيم القبلي قد حاز على حيوية جديدة في المنفى.

تركيب الدولة قد اختفى [1]. ولكن الخصوصية القبلية لم تكن عاملاً يلحم الأمة. سعت يهوذا الآن أن تحفظ وتنقذ أمتها في الدين، ترتب على ذلك أن حصلت الكهانة على القيادة بينها.

استعارت الكهانة اليهودية من الكهانة البابلية دعاواها المتغطرسة، وكذلك أيضًا كثير من أفكارها عن العبادة. فعدد يعتد به من الخرافات التوراتية ذو أصل بابلي، على سبيل المثال، تلك التي تتعلق بخلق العالم، الجنة، السقوط من النعمة الإلهية، إنشاء برج بابل، الطوفان. وليست المراعاة الصارمة للسبت بأقل بابلية من ناحية أصلها. لم يجر التأكيد على السبت بمثل هذه القوة من جانب اليهود قبل فترة نفيهم.

"التأكيد الذي وضعه حزقيال من ثم لحفظ السبت مقدسًا هو شيء جديد تمامًا لا أحد من الأنبياء الأسبق عليه يضع مثل هذا التأكيد على الاحتفال بالسبت. بالنسبة لارميا (17، 19 وما يليها) ليس شاهدًا حقيقيًا" [2].

حتى بعد العودة من المنفى في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد كان غاية في الصعوبة فرض مراعاة السبت، "لأنه كان متعارضًا بقوة شديدة مع العادات القديمة" [3].

---

1 Frank Buhl, die sozialen verhaltnisse der israeliten, pp 43. قارن

2 B. Stade, Geschichte des Volkes Israel, vol. II, p. 17.

19 نفس المصدر، ص 187.

لكن يمكننا أن نستنتج بأنه من المحتمل أن الكهانة اليهودية اكتسبت من الكهانة البابلية الأعلى تطوراً، ليس فقط الخرافات والعادات الشعبية، وإنما أيضاً مفهوماً أعلى عن الإله وأكثر روحية، رغم أنه ليس لدينا دليل مباشر على هذا الأثر.

لقد كان مفهوم الإله بين الإسرائيليين ولفترة طويلة فجاً تماماً. كانت العناية التي أبداها مراجعو ومحررو القصص القديمة عظيمة، لاستبعاد كل آثار الوثنية منها، مع ذلك ما زال لدينا عدد من هذه الآثار في طبعات هذه القصص التي وصلت إلينا.

دعنا نتذكر، على سبيل المثال، القصص المرتبطة بيعقوب، إله لا يمد له يد العون فقط في معاملات مشبوهة من كل نوع، وإنما يَضَعُ مِن نفسه إلى حد مصارعة يعقوب، في مناضلة هزم فيها الإنسان الإله: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه طلع الفجر: فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل: لأنك جاهدت مع الله وقدرت. وسأل يعقوب وقال: اخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي. (تكوين 32/ 24 30).

العظيم المجهول الذي صارعه يعقوب وانتصر عليه والذي حصل على بركته بالقوة، كان من ثم إله أخضعه إنسان. وهذا يشبه كثيراً جداً صراعات الآلهة والبشر في الإلياذة. ولكن حين ينجح ديوميدس في جر آرس فذلك بمساعدة بالاس أثينا، بينما يسوي يعقوب الأمر مع إلهه دون عون أي إله آخر.

بينما كانت مفاهيم الإله بين الإسرائيليين ساذجة للغاية، كان للأمم المتحضرة التي تحيط بهم في حالات عديدة طبقات كهنوتية بلغت حد التوحيد، على الأقل في تعاليمها السرية. كان هذا الوضع واضحاً ذات مرة بشكل مؤكد بين المصريين.

"إننا غير قادرين بعد على أن نقدم بالتفصيل أو أن نعدد وفق ترتيب زمني كل أوهام التأمل المتعددة. كل المراحل التي مر بها تاريخ الفكر (بين المصريين). ولكننا انتهينا أخيراً إلى حد إدراك، أنه في التعليم السري فإن حورس ورع، الابن والأب، يتطابقان على نحو مطلق، وأن الإله يلد نفسه من أمه. إلهة السماء وهي نفسها تبقى

نتاجًا فحسب، خلقًا، للإله الخالد الواحد. هذا المذهب لم يعبر عنه بوضوح وعلى نحو جلي بكل ما يترتب عليه، قبل بداية الإمبراطورية الحديثة (بعد الهكسوس، في القرن الخامس عشر ق.م)، ولكنه يبدأ بالفعل في أن يتخذ شكلاً في الفترة التي تبدأ مع نهاية الأسرة السادسة (حوالي 2500 ق.م) والأفكار التي تكمن في أساسه قد ثبتت على نحو محدد بالفعل في الإمبراطورية الوسطى (حوالي 2000 ق.م) "نشأ المذهب الجديد في أون (تسمى في اللغة المصرية القديمة إيونو **Iounu**" اشتق منها اسم أون (المذكور في التوراة اليونانية)*، مدينة الشمس (هليوبوليس) [1].

مما لا ريب فيه، بقى هذا المذهب سريًا، ولكن كان له تطبيق عملي واحد على الأقل. جرى هذا قبل أن يدخل العبرانيون كنعان، في ظل أمينحوتب الرابع، في القرن الرابع عشر ق.م. يبدو أن هذا الأمير كان في نزاع مع الكهانة، التي هددت ثروتها وقوتها بأن تبزه. لم يعرف طريقة أخرى في مكافحتها غير أخذ مذهبها السري بجدية، فأمر بأن يعبد إله واحد فقط، واضطهد بقسوة كل الآلهة الأخرى، الذي بلغ في الحقيقة حد مصادرة الثروة الضخمة المرتبطة بالآلهة الأخرى.

ليس لدينا معلومات تتعلق بتفاصيل الصراع بين الكهانة والملكية. لقد استمر لفترة طويلة، ولكن عقب أمينحوتب الرابع بمائة عام، انتصرت الكهانة تمامًا وأعادت تأسيس عبادة الآلهة القدامى كلية.

تبين هذه القصة بمجملها إلى أي حد تقدمت النظرات التوحيدية بالفعل في المذاهب الكهنوتية السرية في المراكز المتحضرة للشرق القديم. ليس لدينا سبب لنفترض أن الكهنة البابليين كانوا أكثر تخلفًا من (كهنة) مصر حيث يبدوا أنهم متكافئين في كل الفنون والعلوم. حتى إرميا يتحدث عن "توحيد مستتر" في بابل. مردوخ خالق السماء والأرض، كان أيضًا سيد الآلهة الذي كان "يرعاهم كخراف"، كانت الآلهة المتعددة تجليات خاصة فحسب للإله الواحد الأحد. وهكذا فنحن نقرأ في نص بابلي يتعلق بالآلهة المختلفة: "نينيب، مردوخ القوة. نرجال: مردوخ المعركة. بل: مردوخ الحكومة. نابو: مردوخ الأعمال. سن: مردوخ يضيئ الليل. سمس: مردوخ الشريعة. اددو: مردوخ المطر".

---

* موسوعة الفراعنة، فيرنوس، يويوت. ترجمة د. محمد طه، ص 271، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991. (المترجم).

1 Eduard Mayer geschichte des alten aegyptens, 1887 pp 192-193.

في زمن نفي اليهود تحديداً، كان هناك نوع من التوحيد يبزغ أيضاً بين الفرس الذين اتصلوا ببابل، لدينا إشارات بأنه "أُختطت في بابل أيضاً بداية نحو التوحيد، يحتمل أنها تبدي تشابهات قوية جداً مع عبادة الشمس الفرعونية، الخاصة بأمينوفيس الرابع (أمينحوتب). هناك نقش على الأقل يعود للفترة القصيرة السابقة على سقوط بابل يمثل إله القمر باعتبار أن له دوراً مشابهاً لدور إله الشمس أمينوفيس الرابع، الذي يتفق تماماً مع أهمية عبادة القمر في بابل" [1].

ولكن بينما كانت الجماعة الكهنوتية في بابل وكذلك في مصر لها مصلحة حقيقية في الاحتفاظ بوجهات نظرها التوحيدية المحتملة بعيداً عن الشعب، ما دامت كل سلطتها وثروتها تعتمد على التعددية التقليدية، كانت الحالة مختلفة تماماً مع كهانة الوثن الاتحادي في أورشليم.

تزايدت أهمية هذا الوثن حتى قبل تدمير أورشليم، لأن السامرة قد دمرت والإمبراطورية الشمالية لإسرائيل قد ذهبت معها. كانت أورشليم الآن المدينة الوحيدة الكبيرة للقومية الإسرائيلية، وبقيت منطقة الريف المعتمدة عليها، غير ذات أهمية نسبياً. بدأت مكانة الوثن الاتحادي التي كانت عظيمة في إسرائيل، خاصة في سبط يهوذا وربما قديماً من زمن يسبق داود، بدأت الآن تبز وتفوق كل ممتلكات الشعب المقدسة الأخرى، كما فاقت أورشليم كل المدن الأخرى في يهوذا. وبالمثل حازت الكهانة خادمة هذا الوثن بالضرورة مركزاً مهيمناً على الكهنة الآخرين في الريف. نشأ صراع بين كهنة الريف وكهنة العاصمة، انتهى بإيلاء مركز احتكاري لوثن أورشليم، ربما حتى قبل المنفى. هذا ما أشير إليه على الأقل في رواية سفر تثنية الاشتراع، "كتاب المذهب" الذي أكد كاهن أنه وجده في الهيكل عام 621 ق.م. لقد احتوى على الأمر الإلهي بالقضاء على كل أماكن العبادة خارج أورشليم، ونفذ الملك يوشياهو بأمانة هذا الأمر: "ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا، وما يحيط بأورشليم؛ والذين يوقدون للبعل، للشمس، للقمر، والمنازل، ولكل أجناد السماء.... وجاء بجميع الكهنة من مدن يهوذا، ونجس المرتفعات حيث كان الكهنة يوقدون، من جبع إلى بئر سبع... وكذلك، المذبح في بيت أيل، في المرتفعات التي

---

1 H Winckler, Die Babylonische Geistskultur, 1907, p. 144.

عملها يربعام بن نباط، الذي جعل إسرائيل يخطئ، فذانك، المذبح والمرتفعة هدمهما، وأحرق المرتفعة، وسحقها حتى صارت غبارًا، وأحرق السارية" [1].

ليس فقط الأماكن التي عبدت فيها الآلهة الأجنبية، وإنما الأماكن التي قدست ليهوه نفسه، بما فيها أقدم مذابحه، كانت قد انتهكت قدسيتها هكذا ودمرت.

ولكن من المحتمل أن هذه القصة بكاملها، مثلها في ذلك مثل كثير غيرها في الكتاب المقدس، هي اختراع فقط من فترة ما بعد المنفى، محاولة لتبرير أحداث جرت بعد المنفى، بتصويرها كتكرار لأحداث سابقة، مخترعين سوابق لها، أو على الأقل مضخمين ومبالغين في هذه الأحداث. كيفما كان الأمر، يمكن لنا أن نفترض أنه حتى قبل المنفى فقد وجدت غيرة بين كهنة العاصمة (وكهنة) الولايات التي ربما كانت قد أدت مؤقتًا لإغلاق أماكن مقدسة مثلت منافسة غير ملائمة. في حالة اليهود المنفيين، الذين جاءت أغلبيتهم من أورشليم، لم يكن من الصعب تأمين الاعتراف بحقوق الاحتكار للهيكل في أورشليم. تحت تأثير، الفلسفة البابلية، من ناحية، والخيبة القومية، من ناحية أخرى ومن المحتمل أيضًا الديانة الفارسية التي كانت تتطور في نفس الاتجاه تقريبًا مثل الديانة اليهودية، وفضلاً عن، انتهائها لاتصال معها حوالي هذا الوقت، مانحة حافزًا للديانة اليهودية ومتلقية مثل هذا الحافز أيضًا تشجع الكهنوت على اتخاذ خطوة جديدة. بدأ الطموح الذي أتوا به معهم من أورشليم لوضع وثنهم في مركز احتكاري، تحت تأثير كل هذه الأوضاع، في تطوير اتجاه نحو التوحيد الأخلاقي، الذي لن يتجلى فيه يهوه بعد باعتباره إلهًا سلفيًا خصوصيًا لإسرائيل فحسب، وإنما باعتباره الإله الواحد للعالم، شخصنة الخير، وتجسيد كل الأخلاقية.

حين عاد اليهود من منفاهم إلى أورشليم، تطورت ديانتهم وأصبحت أكثر روحية إلى حد أن بدت لهم المفاهيم الفظة وأشكال عبادة اليهود الفلاحين الذين تخلفوا بالضرورة كشيء وثني بغيض. إذا لم تكن هذه الخطوة قد اتخذت في تاريخ أبكر، فقد كان من السهولة بمكان الآن على كهنة وسادة أورشليم أن يؤمنوا القضاء النهائي على هذه الأشكال الولاياتية من العبادة، وأن يقيموا احتكار كهنوت أورشليم على أساس دائم.

---

22 ملوك ثان، 23، 5، 8، 15.

هكذا كانت بداية التوحيد اليهودي. لقد كان أخلاقيًا في طابعه مثلما كان أيضًا توحيد فلسفة أفلاطون. ولكن في حالة اليهود لم ينشأ المفهوم الجديد عن الإله خارج الدين كما هو الحال عند الإغريق؛ لم يكن مدعمًا من طبقة تقف خارج الكهنوت. وهكذا فإن الإله الواحد لم يظهر كإله جديد، يقف فوق وما وراء عالم الآلهة القديم، ولكن كتركيز لمجموعة الآلهة القديمة في إله واحد أكثر قوة، الذي كان فضلاً عن ذلك أقرب لأفكار سكان أورشليم، الإله السلفي الحربي القديم والمحلي يهوه، الذي كان أي شيء إلا أن يكون أخلاقيًا.

أدخلت هذه العملية عددًا من التناقضات الخطيرة إلى الديانة اليهودية. بوصفه إلهًا أخلاقيًا فإن يهوه هو إله كل البشرية، لأن مفهومي الخير والشر إذ يفهمان بطريقة مجردة فهما صالحان لكل الأشخاص على السواء. وكونه إلهًا أخلاقيًا، شخصنة للفكرة الأخلاقية، هذا الإله الواحد كلي القدرة، لأن الأخلاقية تعتبر صالحة في كل مكان على السواء. ولكن الدين، بمعنى آخر، عبادة يهوه كانت أيضًا الرابطة القومية الأقوى بين يهود بابل، وكانت إمكانية استعادة الاستقلال القومي مرتبطة بشكل لا ينفصم باستعادة أورشليم. أصبح تشييد الهيكل في أورشليم، وصيانته اللاحقة الآن الشعار الذي سوف تلتئم حوله الأمة اليهودية. وأصبح لكهنوت هذا الهيكل بشكل متزامن السلطة القومية الأعلى لليهود، طبقة لديها كل المصلحة في إبقاء احتكار العبادة لهذا الهيكل. وهكذا فإن التجريد الفلسفي الرفيع لإله واحد كلي القدرة، الذي يسأل فقط قلبًا نقيًا ونمطًا للحياة بلا خطيئة، لا الأضحية، بقى مرتبطًا على نحو مخصوص بالوثنية البدائية القديمة، التي وطنت الإله في مكان معين، المكان الوحيد الذي يمكن فيه تقديم التقدمات من كل الأنواع بشكل مؤثر حتى تكون موضع الاعتبار. بقى الهيكل في أورشليم الموطن المقصور على يهوه، الذي كان على كل يهودي أن يوجه إليه أفكاره، وأن يكون هدف اشتياقه.

كان هناك تناقض آخر لم يكن أقل غرابة: أصبح الإله تجسيد المطالب الأخلاقية التي كان لها صلاحية عامة بالنسبة لكل البشر، ومع ذلك فقد بقي الإله السلفي لليهود. لقد جرت محاولة إزالة هذا التناقض بإعلان أن الإله بالفعل هو إله لجميع البشر، وبجعل واجب كل البشر أن تحبه وتوقره، ولكن جعل أيضًا اليهود الشعب الوحيد الذي اختاره كتجل لهذا الحب والتوقير، الشعب الوحيد الذي أظهر له عظمته، تاركًا الوثنيين على ضلالهم. كان ذلك تحديدًا خلال زمن المنفى، عند أدنى نقطة من ذلهم ويأسهم، أن ظهر هذا الشعور الغريب بالتفوق على بقية الإنسانية بداية

بين اليهود. كانت إسرائيل قبلاً، شعبًا لا يختلف عن الشعوب الأخرى، ويهوه إلهها يشبه الآلهة الأخرى، ربما أقوى من الآلهة الأخرى، كما كان طبيعيًا تمامًا الاعتقاد بأن أمة المرء أقوى من الأمم الأخرى، ولكن بالتأكيد ليس الإله الحقيقي الوحيد، وإسرائيل ليست المالك الوحيد للحقيقة بالتأكيد.

"لم يكن إله إسرائيل الكلي القوة، ولكن الأكثر قوة فقط بين الآلهة. لقد كان في نفس المستوى معها وكان عليه أن يصارع ضدها، خاموس وداجون وحدد كانوا مساوين له تمامًا، أقل قوة ولكن ليس أقل حقيقية منه، يبعث يفتاح هذه الرسالة للشعوب المجاورة التي تخترق الحدود "ما أعطاكم إلهكم خاموس لتقهروا" فهي تخصكم، وما قهره إلهنا يهوه من أجلنا، فهو لنا"، إن ممالك الآلهة من ثم متميزة بوضوح كممالك الشعوب، ليس لأي إله حقوق في أراض تعبد إلهًا آخر" [1].

ولكن تغير هذا الوضع الآن. مؤلف اشعيا، بدءًا من الإصحاح الأربعين، الذي كتب في نهاية فترة المنفى أو في أعقابها بوقت قصير، قد جعل يهوه يعلن: "أنا الرب، هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات... غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر، وملؤه، الجزائر، وسكانها. لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار: لتترنم سكان سالع، من رءوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجدًا، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر" [2].

لم يعد هناك ما يفيد تحديد سلطة الإله بفلسطين، أو حتى بمدينة أورشليم بمفردها. ولكن يقول يهوه عند نفس المؤلف: "وأما أنت، يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي. الذي أمسكته من أطراف الأرض، ومن أقطارها دعوته، وقلت له أنت عبدي اخترتك ولم أرفضك، لا تخف لأني معك. لا تتلفت لأني إلهك.... يكون محاربوك بلا شيء وكالعدم... أنا أولاً قلت لصهيون ها هم ولأورشليم جعلت مبشرًا [3].

هذه تناقضات غريبة، ولكنها تناقضات ترجع إلى الحياة الفعلية لهذه الأزمنة، تعود إلى الوضع الشاذ لليهود في بابل، الذين كانوا قد نقلوا إلى حضارة جديدة، كانت الانطباعات الكثيفة تُثِور كامل نمط تفكيرهم، بينما كانت كل ظروف

23 فلهاوزن، نفس المصدر، ص 32.

24 إشعيا 42/ 8، 10، 12.

25 إشعيا 41، 8، 25.

حياتهم لا تزال تضطرهم للإبقاء على تقاليدهم القديمة، ما دامت هذه كانت الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بوجودهم القومي الأكثر أهمية بالنسبة لهم مما للقبائل الأخرى، إزاء وضع مؤلم استمر لقرون مما طور حساسيتهم القومية، بطريقة عارمة ومؤكدة بصفة خاصة.

لقد أصبحت مهمة المفكرين اليهود الآن توحيد الأخلاق الجديدة مع الوثنية القديمة، ليوفقوا فلسفة وحكمة الحضارة الضخمة التي تركزت في بابل واحتضنت أعراقًا عديدة، مع ضيق أفق قبيلة صغيرة من الجبليين نظرت للأجانب باستهجان. وقد كان من الضروري تحقيق هذا التوفيق على أساس الدين، بمعنى آخر، الإيمان التقليدي. لقد كان واجبهم من ثم أن يثبتوا أن الجديد لم يكن جديدًا، ولكن غاية في القدم، إن حقيقة هؤلاء الغرباء، التي بدت لا تقاوم، لم تكن لا جديدة ولا غريبة، وإنما ملكية يهودية حقيقية، لم يعن اعتراف اليهود بها هجرًا لقوميتهم في وعاء الإذابة البابلي، ولكن بالأحرى تقوية وتمتينًا نهائيًا لقوميتهم.

لقد كانت هذه المهمة محسوبة جيدًا لشحن الذكاء، لتطوير فن التفسير، والجدال في أمور تافهة، الذي تطور منذ هذا الوقت فصاعدًا إلى حد الكمال، خاصة بين اليهود، وكان هذا ما وضع علامته الغريبة على الأدب التاريخي لليهود.

والآن تبدأ عملية كثيرًا ما جرت، والتي حللها ماركس في بحثه لوجهات النظر الخاصة بالشروط الطبيعية للإنسان كما جرى تبنيها في القرن الثامن عشر. يتحدث ماركس عن هذه العملية على النحو التالي:

"الفرد والصياد المعزول وصياد السمك الذي يشكل نقطة الانطلاق مع سميث وريكاردو ينتمي إلى الأوهام التافهة للقرن الثامن عشر. إنهم روبنسيون، الذين لا يمثلون بأي طريقة كما يتخيل دارسو تاريخ الحضارة، رد فعل ضد رهافة زائدة وعودة إلى حياة طبيعية أسيئ فهمها. إنهم ليسوا مؤسسين على مثل هذه النزعة الطبيعية أكثر من العقد الاجتماعي لروسو، الذي يجعل الأفراد المستقلين طبيعيًا يتواصلون ويتصلون بواسطة عقد. إنهم خيال والخيال الجمالي فقط للروبنسيين الصغار والكبار. إنهم، إضافة إلى ذلك، استباق "المجتمع البورجوازي" الذي كان في مجرى التطور منذ القرن السادس عشر وحقق خطوات تجاه النضج في الثامن عشر. في مجتمع المنافسة الحرة هذا يبدو الفرد حرًا من روابط الطبيعة، الخ، التي جعلته في أحقاب التاريخ السابقة جزءًا من مجموعة بشرية محددة. بالنسبة لأنبياء القرن الثامن عشر، الذين ما زال يقف على أكتافهم سميث وريكاردو، يؤلف فرد القرن الثامن

عشر هذا، النتاج المشترك لانحلال الشكل الإقطاعي للمجتمع ولقوى الإنتاج الجديدة التي تطورت منذ القرن السادس عشر، يظهر كمثال ينتمي وجوده إلى الماضي، ليس نتيجة للتاريخ، وإنما كنقطة انطلاقة منذ أن بدا هذا الفرد على اتساق مع الطبيعة وتوافق مع مفاهيمها عن الطبيعة الإنسانية، كان ينظر إليه ليس باعتباره نتاجًا للتاريخ، وإنما للطبيعة. هذا الوهم مميز لكل حقبة جديدة [1].

هكذا كان الوهم الذي عاناه المفكرون الذين طوروا أفكار التوحيد والهيمنة الكهنوتية بين اليهود، خلال وبعد فترة المنفى. لم تبد لهم هذه الفكرة بوصفها نتاجًا لتطور تاريخي، وإنما كشرط معطى منذ البداية، ليس باعتبارها "نتيجة تاريخية" وإنما باعتبارها "النقطة الاستهلالية للتاريخ". إن التاريخ ذاته يتصور الآن بمعنى مماثل ويكيف بشكل أكثر سهولة للأوضاع الجديدة مادام قد كان إلى حد كبير مجرد مأثور شفوي وبالنسبة للقسم الأعظم لم يكن مؤسسًا على دليل وثائقي. الإيمان بإله واحد وسيطرة كهنة يهوه على إسرائيل جعل الآن نقطة انطلاق تاريخ إسرائيل، الشرك والوثنية، التي لم يكن ممكنًا إنكارها كلية قد صورت باعتبارها انحرافات لاحقة عن إيمان الآباء، وليس بوصفها هذا الإيمان البدائي نفسه، الذي كانته بالفعل.

وقد كان لهذا المفهوم ميزة عظيمة في امتلاك جاذبية مغرية على نحو استثنائي، كما فعل أيضًا إعلان العرق لنفسه شعب الله المختار. الافتراض بأن يهوه قد كان فقط الإله السلفي لإسرائيل جعل من الضروري تفسير هزائم هذا الشعب باعتبارها هزائم وفيرة لإلههم، الذي تبين أنه الأضعف في الصراعات مع الآلهة الأخرى، لقد توفرت من ثم كل الأسباب للشك في يهوه وكهنته. ولكن الحالة أصبحت مختلفة تمامًا عندما لم يكن هناك إلهًا غير يهوه، إذا كان يهوه قد اختار الإسرائيليين قبل الشعوب الأخرى فكافئوه بعدم الامتنان وبالارتداد (عن دينه)، لظهر كل سوء حظ إسرائيل ويهوذا الآن بوصفه عقوبات عادلة شديدة الكثرة لخطاياها، لإهمالها كهنة يهوه، وهكذا تصبح أدلة لا على ضعف الإله وإنما على غضبه، لأنه لن يُسخر منه هزوًا. ولكن كانت هناك نتيجة لازمة طبيعية لهذه الفكرة وهي أن الإله سوف يرحم مرة أخرى شعبه، سوف ينقذه ويخلصه بمجرد أن يتشرب ثانية بالإيمان الصحيح به

---

26 ماركس، مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي، مطبوع مع إسهام في نقد الاقتصاد السياسي، شيكاغو، 1913، ص ص 256- 267.

ويكهنته وأنبيائه. إذا لم يكن للحياة القومية أن تنقرض أصبح مثل هذا الإيمان أكثر ضرورة حيث أصبح مركز الجماعة الصغيرة، "دودة يعقوب ويا شرذمة إسرائيل" (إشعيا، 41/ 14) أكثر يأسًا بين الجماعات المعادية للقوة الأعظم.

قوة ما فوق طبيعية، ما فوق إنسانية، إلهية، منقذ، مخلص مرسل من الله فقط، يمكن أن ينقذ الآن ويحرر يهوذا وأخيرًا يرفعها لتكون سيدة كل الشعوب التي تسيء معاملتها. يظهر الإيمان بالمخلص متزامنًا مع التوحيد، وهو مرتبط به بوثوق. لهذا السبب بالذات فإن المخلص لا يُتخيل باعتباره إلهًا، وإنما باعتباره إنسانًا أرسل من قبل الإله. لأن وظيفته كانت أن يقيم مملكة أرضية، وليس مملكة الله، لأن الفكر اليهودي لم يكن قد وصل بعد هذه المرحلة من التجريد، أي مملكة اليهود. في الواقع كانوا قد حيوا كورش بالفعل، الذي حرر اليهود من بابل وأعادهم إلى أورشليم بوصفه المرسوم من يهوه، المخلص، المسيح. (إشعيا 45/ 1).

تَحوُل الفكر اليهودي هذا، الذي تلقى أقوى حوافزه خلال المنفى، والذي لم يحقق بالتأكيد شكله النهائي في تلك الفترة، لم يكن بإمكانه أن يجري في لحظة واحدة أو بوسائل سلمية. لا يمكن لنا أن ننسى أن هذا التحول كان يعبر عن نفسه في جدالات قوية في أسلوب الأنبياء، في شكوك عميقة وتأملات على طراز سفر أيوب، وأخيرًا في شخصنة تاريخية في أسلوب المكونات المختلفة لأسفار موسى الخمسة التي دونت في هذا الوقت.

لم تنته هذه الفترة التوراتية إلا بعد وقت طويل من المنفى. برزت وجهات نظر معينة محددة عقائدية، إلهية، شرعية وتاريخية. وقُبلت باعتبارها صائبة من قبل الكهنوت الذي نال السيطرة على الشعب وكذلك من جماهير الشعب نفسه. أُعلن أن كتابات معينة وهي التي كانت تتوافق مع هذه النظرات شديدة القدم ومقدسة ونقلت بوصفها كذلك إلى الخلف. ولكن شعروا أنه من الضروري إدخال بعض الوحدة على المكونات المختلفة لهذا الأدب، الذي كان ما زال مليئًا بالمتناقضات، مرددًا داخله بأشد الطرز تنافرًا عناصر قديمة وجديدة، مفهومة بصواب وغير مفهومة على الإطلاق، حقيقية ومصطنعة، وتحقق هذا الغرض عن طريق "التحرير" الشامل، والبتر والإدراج. برغم كل هذا "العمل التحريري" فإن لدينا لحسن الحظ نتيجة له، العهد القديم، ما يكفي من المادة الأصلية لتمكننا من أن نتعرف فيها على أثر على الأقل من بين وفرة التزييفات الكثيرة عن طابع الشعب العبراني القديم ما قبل المنفى، ذلك الشعب العبراني الذي ليس اليهود المحدثون استمرارًا له، وإنما أيضًا النقيض تمامًا منه.

ب الشتات اليهودي

في عام 538ق.م، اذِنَ كورش لليهود البابليين ان يعودوا إلى أورشليم، ولكننا قد راينا سلفاً أنه لم ينتهزوا جميعًا بأي حال فرصة هذا الإذن. كيف كان يمكن للجميع أن يعيشوا في أورشليم؟ كانت المدينة مخربة وفي حاجة لوقت لجعلها قابلة للسكنى، ومحصنة، وإعادة بناء معبد يهوه. ولكن حتى آنذاك فهي لن تقدم لكل اليهود فرصة للعيش، من المحتمل أنه كان حقيقيًا آنذاك مثله الآن أن يميل الفلاح للتوجه نحو المدينة، بينما الانتقال من الحياة الحضرية إلى الزراعية صعب كما أنه نادر.

من المحتمل أن اليهود قد حازوا بالكاد مهارة صناعية لا تذكر في بابل، ومن الممكن أن يكونوا قد عاشوا هناك وقتًا قصيرًا جدًا. لم تحصل يهوذا على أي استقلال قومي، بقيت معتمدة على الغزاة الأجانب، أولاً على الفرس، ثم، بدءًا بالإسكندر الأكبر، على الإغريق، وأخيرًا بعد فترة استقلال قصيرة، ومن الثورات الأشد تنوعًا وتدميرًا، باتت تحت سيطرة الرومان. كانت كل الشروط كقاعدة مفتقرة لوجود مملكة حربية، تحوز الثروة بإخضاع ونهب الجيران الأضعف.

بينما لم تقدم الزراعة، والصناعة، والخدمة العسكرية، مجالات شديدة الاتساع لليهود بعد المنفى فإن أغلبيتهم لم تكن لديهم وسائل للعيش عدا التجارة، الذي كان بالفعل واقع الحال في بابل. لقد اهتبلوا هذه الفرصة بسهولة أكثر ما داموا كانوا يمتلكون المؤهلات والأداة العقلية الضرورية لقرون.

ولكن تصادف في هذه الفترة تمامًا بدءًا من الأسر البابلي أن كانت تجري تغيرات عظيمة في السياسة والتجارة التي كانت لها تأثيرات كارثية على الوضع التجاري في فلسطين. الزراعة الفلاحية وأيضًا الحرف اليدوية هي مهن محافظة للغاية. نادرًا ما يجري تقدم فيها، ونادرًا ما يثير حتى التقدم اهتمامها، حيث يغيب حافز المنافسة هكذا كما هو الحال دائمًا في الشروط البدائية بينما تقدم في المجرى العادي للأحداث، حين لا يكون هناك تلف في المحاصيل، أوبئة، حروب وسوء حظ جماعي مماثل، لكل عامل يشتغل بالطريقة التقليدية، خبزه اليومي، بينما الجديد وغير المجرب، قد يكون مناسبة للإخفاق والخسارة.

لا تنشأ التطورات التقنية في الزراعة الفلاحية وفي الحرف اليدوية عادة من ثم مباشرة من هذه المصادر، وإنما من التجارة، التي تأتي بمنتجات جديدة وعمليات جديدة من الخارج، التي تعطي سببًا للفكر وأخيرًا تنتج زراعة جديدة مربحة وطرائق جديدة.

التجارة أقل محافظة إلى حد بعيد، منعتقة من البداية من الحدود المحلية والمهنية، وهي بطبيعتها ناقدة لتقاليد الوطن، لأنها قادرة على مقارنتها وقياسها بالمستوى الذي جرى بلوغه في أماكن أخرى، وفي ظل ظروف أخرى. أضف إلى ذلك، يخضع التاجر لضغط المنافسة بسهولة أكثر من المزارع أو الحرفي لأنه يلتقي بمنافسين من أشد الأمم اختلافاً في المراكز الكبرى للتجارة. إنه مضطر من ثم إلى أن يكون دائماً في نقطة المراقبة لشيء جديد، خاصة أن يعمل من أجل تحسين وسائل المواصلات، ولتوسيع دائرة علاقاته التجارية. ما دامت الزراعة والصناعة لا تدار باستخدام رأس المال ولم تبن على أساس علمي، تكون التجارة هي العنصر الثوري الوحيد في الاقتصاد، والتجارة البحرية بصفة خاصة لها أثر أقوى في هذا الاتجاه. تجعل الملاحة البحرية من الممكن تغطية مساحات أعظم وتؤمن الاتصال بين شعوب أكثر تنوعاً بخلاف ما هو عليه الحال في التجارة البرية. لأن المحيط في البداية يفصل الأعراق أكثر مما يفعل البر، وهكذا يجعل تطور كل شعب أكثر استقلالاً وخصوصية عن الآخرين. ولكن مع تطور التجارة البحرية التي تقيم الاتصال بين شعوب منفصلة حتى حينها، كثيراً ما تلتقي التطرفات المتباعدة أكثر من التي تقترن معاً في التجارة البرية. ولكن يستلزم الإبحار أيضاً متطلبات أعلى في شكل مهارة تقنية، لذا تتطور التجارة البحرية متأخرة كثيراً عن التجارة البرية، حيث تفترض سيطرة شاملة على الطبيعة أكثر بكثير حال إنشاء سفن جديرة بالإبحار منها في عملية ترويض حمل أو بغل. من ناحية أخرى، إنها تحديداً الأرباح الضخمة لتجارة البحر، التي يمكن اجتناؤها على أساس درجة عالية من القدرة على بناء السفن وحدها، التي تشكل واحداً من أقوى الدوافع لتطوير هذه القدرة. من المحتمل أن المهارة التقنية للأزمنة القديمة لم تتطور إلى حد بعيد، أو تحقق مثل هذه النجاحات في أي مجال آخر، مثلها في حقل إنشاء السفن.

لا تقوم التجارة البحرية عائقاً أمام التجارة البرية، على النقيض من ذلك، فإنها تشجع التجارة البرية. يتطلب عادة ازدهار مدينة ذات ميناء بحري وجود أرض داخلية Hinterland تقدم السلع التي تحمل على السفن في ميناء بحري، والتي تشتري السلع التي يؤتى بها إلى الميناء بواسطة السفن. يجب أن يسعى الميناء البحري لتطوير تجارته البرية مع تجارته البحرية، ولكن الأخيرة تستمر في الاستحواذ على أهمية أكثر فأكثر، إنها تصبح العامل الحاسم، بينما تبقى الأولى معتمدة عليها. إذ تتغير طرق التجارة البحرية، فإن (طرق) التجارة البرية ينبغي أن تتغير أيضاً. قدمت فينيقيا

التي تقع بين مركزي الحضارة القديمة على النيل والفرات، وتسهم في تجارتهما، أول البحارة الذين قاموا برحلات كبرى في البحر الأبيض المتوسط. كان لهذا البلد مدخل جيد إلى البحر الأبيض المتوسط كما كان لأرض المصريين، ولكن الأخيرة دعت سكانها بصفة رئيسية للزراعة، التي كان إنتاجها، بسبب فيضانات النيل، لا ينضب، وليس للإبحار. افتقرت مصر للخشب الضروري لإنشاء السفن، ولكنها افتقرت أيضًا لحافز الضرورة وهو الدافع الوحيد الذي يمكن أن يُغري الإنسان في مرحلة مبكرة لأن يعرض نفسه لمخاطر البحر المفتوح. مع أن تطور الملاحة النهرية كان عظيمًا بين المصريين، فقد بقيت ملاحة أعالي البحار لديهم ملاحة ساحلية ذات دورات قصيرة. لقد طوروا الزراعة والصناعة، خاصة النسيج، وازدهرت مواصلاتهم التجارية، ولكنهم لم يسافروا إلى الخارج كتجار، لقد انتظروا الأجانب لإحضار سلع إليهم. بقيت الصحراء والبحر عنصرين معاديين في نظرهم.

عاش الفينيقيون من ناحية أخرى، على شُقةٍ من الأرض على طول الساحل، التي دفعتهم بالمعنى الحرفي نحو البحر، لأن هذه الشقة تقع على طول أسفل سلسلة صخرية من الجبال التي قدمت فرصًا وإن قليلة لزراعة، وهكذا جعلت من الضروري أن تكمل مردودها غير الكافي باصطياد السمك، والتي قدمت أيضًا خشبًا فاخرًا لبناء السفن. كانت هذه هي الشروط التي اضطرت الفينيقيين الي أن يلجأوا إلى البحر. وحقيقة أنهم وضعوا بين أقاليم ذات صناعة عالية التطور قد حفزتهم فيما بعد لتوسيع حملات الصيد إلى عمليات تجارية بواسطة البحر. وهكذا أصبحوا حملة المنتجات الهندية، والعربية، والبابلية والمصرية، خاصة سلع النسيج والتوابل، إلى الغرب، حيث أتوا بالمقابل بمنتجات من نوع آخر، خاصة المعادن.

ولكن في مجرى الزمن واجهوا منافسين خطرين في شخص الإغريق، سكان أقاليم جزرية وساحلية كانت أرضها الزراعية شحيحة تقريبًا (كأراضي) فينيقيا، وصولاً إلى أن الإغريق كانوا مضطرين أيضًا لأن يقوموا بعمليات صيد الأسماك والإبحار. نمت هذه إلى نسب أكبر وأكبر واصبحت خطرة أكثر فأكثر على الفينيقيين. سعى الأغارقة في البداية لتجنب الفينيقيين واختطاط طرق جديدة نحو الشرق. وقد اخترقوا البحر الأسود، حيث أسسوا من موانيه البحرية تجارة مع الهند عن طريق آسيا الوسطى. حاولوا في نفس الوقت أن يقيموا علاقات مع مصر وأن يفتحوا هذا البلد لتجارتهم البحرية. نجح الأيونيون **Ionians** والكاريائيون **Karians** في هذه المحاولة قبل فترة السبي البابلي لليهود بالضبط. بدءًا من زمن بسماتيك كان لهم (663ق.م)

موضع قدم ثابت في مصر، غامرينها تقريبًا بتجارتهم. في ظل أمازيس (569- 525 ق.م) كانوا قد أُعطوا بالفعل منطقة على طول الذراع الغربي للنيل، ليؤسسوا عليها ميناءهم البحري الخاص على طرازهم الخاص. والذي كان يسمى نقراطيس Naukratis. كان هذا يخدم باعتباره المركز الوحيد للتجارة مع بلاد الإغريق. بعد ذلك سرعان ما خضعت مصر للفرس (525 ق.م) كما خضعت بابل قبلاً. ولكن لم يتغير مركز الأغارقة في مصر بسبب هذا الظرف. أُعطي الأجانب من ناحية أخرى الآن حقوقًا كاملة للتجارة مع كل مصر، وقد ربح الأغارقة كثيرًا من هذا الترتيب. حالما ضعف النظام الفارسي، وأصبحت الروح الحربية للشعوب الرعوية السابقة واهنة بسبب الحياة في المدن الكبيرة هب المصريون متمردين وحاولوا استعادة استقلالهم وهي المحاولة التي نجحوا فيها لبعض الوقت (404- 342 ق.م). لم يكن ممكنًا أن يتم هذا دون مساعدة الأغارقة، الذين كانوا في هذه الأثناء قد أصبحوا أقوياء بما يكفي لأن يدفعوا خلفًا الفرس العتاة في البر والبحر، وليس الفرس فقط، وإنما أيضًا رعاياهم، الفينيقيين. يبدأ المجتمع الإغريقي في ظل الإسكندر المقدوني، في 334 ق.م، في اتخاذ موقف هجومي ضد الإمبراطورية الفارسية، ويضمها، ويضع نهاية لمجد المدن الفينيقية، الذي كان يتدهور لزمن طويل.

تدهورت تجارة فلسطين على نحو أكثر سرعة من (تجارة) فينيقيا وهجرت المواصلات العالمية طرق فلسطين، ليس فقط صادرات الهند، وإنما أيضًا (صادرات) بابل، الجزيرة العربية، الحبشة ومصر. حيث أن فلسطين هي الحاجز بين مصر وسوريا، بقيت المسرح الذي خيضت عليه الحروب بين أمراء سوريا ومصر في الأغلب، ولكن التجارة بين هذين الإقليمين جرت الآن عبر البحر مع إهمال لطريق البر. لقد احتفظت فلسطين ببساطة بكل مساوئ مركزها الوسيط فاقدة كل الميزات. بينما كانت أغلبية اليهود مدفوعة أكثر فأكثر إلى التجارة كمهنة، كانت إمكانية ممارستها التجارية في بلادها تتناقص بشكل متلاحق. ما دامت التجارة، من ثم، لم تأت إليهم فقد كانوا مضطرين للسعي إليها في الخارج، بالتجارة مع أمم كتلك التي لم تطور طبقة تجارية تخصها، وإنما انتظرت التجار ليأتوا إليها. كان هناك عدد كاف من هذه الأعراق. حيث أعالت الزراعة غالبية السكان، حيث لم يكن ضروريًا استكمالها بواسطة تربية الماشية أو صيد الأسماك، وحيث أشبعت الأرستقراطية رغبتها للتوسع بمراكمة اللاتيفونديات في الوطن وشن الحرب في الخارج، فقد كان من المفضل بشكل عام انتظار التجار ليأتوا إلى البلد بدلاً من الارتحال لتأمين السلع الأجنبية بالخارج.

كانت هذه ممارسة المصريين، وكان لها أن تكون ممارسة روما، وفي كلتي الحالتين كان التجار أجانب، خاصة أغارقة ويهود. وكان أعظم ازدهار صادفه تجار كهؤلاء في بلدان من النمط المذكور آنفاً.

الشتات، تَبَدُدَ اليهود خارج وطنهم، يبدأ من ثم بالضبط في الوقت الذي يعقب المنفى البابلي، بمعنى آخر، في الوقت الذي كان قد سمح فيه لليهود بالعودة لوطنهم. لم يكن هذا التبدد نتيجة لعمل عنف، مثل تدمير أورشليم، وإنما لتحول غير محسوس كان يتفاعل آنذاك، أي تحول طرق التجارة. وحيث أن طرق التجارة العالمية لم تؤثر فلسطين أبداً منذ آنذاك، فقد جرى تجنب هذا البلد حتى الآن من قبل غالبية اليهود، حتى حين أتيحت لهم فرصة الاستقرار في أرض آبائهم. لن تغير الصهيونية شيئًا في هذا الشرط إذا لم تمتلك القوة على تحويل مركز التجارة العالمية إلى فلسطين.

جرى أعظم تجمع لليهود في المدن التي تميزت بأكثر الأنشطة التجارية، والتراكم الأعظم للثراء، أي في الإسكندرية ولاحقاً في روما. تزايد اليهود في هذه الأماكن، ليس فقط من ناحية العدد، وإنما أيضًا في الثروة والقوة. صهرهم شعورهم القومي القوي أيضًا بقوة معًا، الذي كان عاملاً ذو أهمية أعظم ما دامت الروابط الاجتماعية في أيام التحلل الاجتماعي العام والمتزايد الذي كان مميزًا للقرون السابقة مباشرة على المسيح، كانت تتحلل كليًا وتختفي. وكما كان ممكنًا أن نجد يهودًا في كل المراكز التجارية لمجمل الحضارة الهيلينية والرومانية كما وجدت في ذلك الوقت، فإن روابط قرابتهم امتدت خلال هذه المنطقة، مكونة أممية قدمت المساعدة لكل أعضائها، بغض النظر عن البلد الذي أتى منه، إذ نأخذ في الاعتبار بالإضافة إلى ذلك القدرات التجارية التي حازوها في مجرى قرون عديدة، والتي كانت تتطور منذ نفيهم تحت أثر الضغط في اتجاه واحد، فسوف نفهم هذه الزيادة في قوتهم وثروتهم.

يقول مومسن عن الإسكندرية إنها: "كانت تقريبًا مدينة اليهود بقدر ما كانت مدينة للأغارقة، لابد أن اليهود السكندريين كانوا على الأقل مساوين (ليهود) أورشليم في العدد، والثروة، والذكاء، والتنظيم. قدر أنه كان هناك مليون يهودي في العصر الإمبراطوري الأول، مقابلَ عشرة مليون مصري، ومن المحتمل أن نفوذهم كان أعظم من أن يمثل بهذه النسبة.... هم، وهم فقط، كان مسموحًا لهم بأن يشكلوا جماعة داخل المجتمع إن جاز القول، وبينما كان غير البلديين **Non-Burgesses** الآخرين

يُحكمون من قبل سلطات الهيئة البلدية، فقد سمح لهم إلى مدى معين أن يحكموا أنفسهم.

يقول سترابو: "اليهود لهم قائد (ξθυάρχης) قومي خاص بهم في الإسكندرية الذي يرأس الشعب ويقرر العمليات وينظم العقود والترتيبات كما لو كان يحكم جماعة مستقلة". وقد جرى هذا لأن اليهود أعلنوا أن مثل هذا القضاء النوعي كان متطلبًا لقوميتهم، أو ما يساوي نفس الشيء، لديانتهم. أضف إلى ذلك أولى التنظيم العادي الانتباه لدرجة بعيدة للوسواس القومي والديني لليهود، ومنحت الإعفاءات الضرورية حيثما كان ذلك ممكنًا. حقيقية أنهم عاشوا معًا قوت هذا المركز الخصوصي، على سبيل المثال، في الإسكندرية، كان اثنان من الأحياء الخمسة للمدينة، يسكنها اليهود بصفة أساسية" [1].

أصبح بعض يهود الإسكندرية ليسوا أثرياء فقط وإنما حازوا أيضًا سمعة حسنة عالية ونفوذًا بين حكام العالم.

على سبيل المثال، مستأجر الجمارك العليا في الجانب العربي من النيل، الألبارخ الإسكندر، كان له نفوذ ضخم. أجريبا الذي أصبح فيما بعد ملك اليهودية، اقترض مائتي ألف دراخمة منه في ظل حكم طيباريوس. أعطاه الإسكندر خمسة تالنتات Talents نقدًا وأمرًا بدفع المتبقي في ديكارشيا Dekarchia[2]. يظهر هذا كيف كانت العلاقات التجارية وثيقة بين اليهود في الإسكندرية وهؤلاء الذين في إيطاليا. لقد كانت هناك جماعة يهودية مهمة في ديكارشيا أو بوتيولي، قرب نابولي. يروي لنا يوسيفوس المزيد عن نفس اليهودي السكندري: "هو، الإمبراطور، كلوديوس، حرر مرة أخرى الألبارخ الإسكندر ليسيماخوس، صديقه الطيب القديم، الذي كان أمينًا Trustee لأمه أنطونيا وكان قد سجن من قبل كايوس في نوبة غضب. تزوج ابن الإسكندر ماركوس فيما بعد بيرينيس، ابنة أجريبا" [3].

ما كان صحيحًا بالنسبة للإسكندرية هو صحيح أيضًا بالنسبة لأنطاكية: "لقد منح اليهود استقلالاً معينًا كجماعة، ومركزًا متميزًا، ليس فقط في عاصمة

---

27 مومسن، **ولايات الإمبراطورية الرومانية**، لندن، 1886، المجلد الثاني، ص ص 163- 165.
28 يوسيفوس، **الآثار اليهودية**، 18، 6، 3.
29 **الآثار**، 21، 5، 1.

مصر، وإنما أيضًا في (عاصمة) سوريا، والمركز الذي احتلته هاتين المدينتين كمركزين للشتات اليهودي لم يكن أقل العناصر التي أسهمت في تطورهم" [1].

نستطيع أن نتتبع في الماضي وجود اليهود في روما حتى القرن الثاني قبل الميلاد. في 139 ق.م نفي البريتور الروماني الموكل بالأجانب يهودًا أدخلوا مهتدين جددًا إيطاليقيين Italic للاحتفال بسبتهم. ربما كان هؤلاء اليهود أعضاء سفارة أرسلت من قبل شمعون المكابي للحصول على تأييد الرومان، الذين استغلوا هذه الفرصة للقيام بالدعاية لأنفسهم. سرعان ما نجد في أعقاب ذلك اليهود متوطنين في روما، وأصبحت الجماعة اليهودية هناك قوية تمامًا حين غزا بومبي أورشليم في 63 ق.م. لقد أحضر عددًا كبيرًا من أسرى الحرب اليهود إلى روما، الذين استمروا في العيش هناك كعبيد أو كمعتقين. أصبحت هذه الجماعة ذات نفوذ. اشتكى شيشرون حوالي العام 60 من أن قوتهم كان يحس بها حتى في الساحة العامة Forum. استمرت هذه القوة في التزايد في ظل قيصر، ووصفها مومسن بهذه الكلمات:

"كيف كان السكان اليهود عديدين حتى في روما بالفعل قبل زمن قيصر، وكيف كان اليهود في هذا الوقت قد انصهروا حتى كمواطنين، يتبين بملاحظة أبداها مؤلف من هذه الفترة، مفادها أنه كان خطيرًا لحاكم أن يؤذي يهود مقاطعته، حيث يعتقد بالتأكيد أنه كان سيستهجن بعد عودته من عامة الناس في العاصمة. حتى في هذا الوقت كان العمل الغالب لليهود هو التجارة. تحرك التاجر اليهودي في كل مكان مع التاجر الروماني الغازي عندئذ، بنفس الطريقة التي صحب بها فيما بعد الجنوي Genoese والبندقي Venetian، وفاض رأس المال في كل الأيدي إلى اليهودي، بجانب التجار الرومان. نواجه في هذه الفترة، أيضًا، النفور الخاص للغربيين نحو هذا العرق الشرقي الأصيل وآرائه وعاداته الأجنبية. هذه اليهودية رغم أنها ليست الملمح الأكثر إرضاءًا في الصورة غير المرضية في أي مكان من خليط الأمم الذي ساد حينئذ، كانت مع ذلك عنصرًا تاريخيًا يطور نفسه في المجرى الطبيعي للأشياء، الذي لم يستطع رجل الدولة أن يتجاهله ولا أن يكافحه، والتي تبناها قيصر على العكس، تمامًا مثل سلفه الإسكندر، بقوة تمييزه الصائبة للظروف، إلى أبعد حد ممكن. بينما لم يفعل الإسكندر، بوضعه أساس اليهودية السكندرية، أقل مما فعله داودها الخاص بتخطيط هيكل أورشليم، دفع قيصر أيضًا مصالح اليهود في الإسكندرية وفي روما

---

30 مومسن، **ولايات الإمبراطورية الرومانية**، لندن، 1886، المجلد الثاني، ص 127.

بالمحرمات والامتيازات، وحمى بصفة خاصة عبادتهم ضد الرومان وكذلك ضد الكهنة الأغارقة المحليين. لم يفكر الرجلان العظيمان بالطبع في وضع القومية اليهودية على قدم المساواة مع القومية الهيلينية أو الإيطالية الهيلينية. ولكن اليهودي الذي لم يتلق مثل الغربي هدية باندورا من التنظيم السياسي، ويقف بقدر عظيم في علاقة من عدم الاهتمام بالدولة، المتردد فضلاً عن ذلك، في التخلي عن جوهر خصوصيته القومية، والمستعد لتلبيسها بأي قومية حسب الطلب وأن يكيف نفسه إلى درجة معينة للعادات الأجنبية كان اليهودي لهذا السبب بالذات إذا جاز القول قد صنع من أجل دولة، كان عليها أن تُبنى على أنقاض آلاف المنظمات القائمة، وأن يضفي عليها، من البداية، قومية مجردة ملطفة. كانت اليهودية حتى في العالم القديم خميرة مؤثرة للنزعة الكوسموبوليتانية وللتفسخ القومي، ولهذا المدى عضو متميز بصفة خاصة في الدولة القيصرية التي كانت حكومتها تتحدث بصرامة عن لا شيء عدا مواطنية العالم، والتي لم تكن قوميتها في الأساس غير الإنسانية" [1].

ينجح مومسن هنا في أن يأوي في جملة واحدة ثلاث تنويعات متميزة من الحكمة التاريخية الأستاذية. في المحل الأول، هناك مفهوم أن الملوك يصنعون التاريخ، حتى إن بضعة مراسيم من الإسكندر الأكبر خلقت اليهود في الإسكندرية، وليس تغير الطرق التجارية الذي أتى بمستوطنة يهودية كبيرة إلى مصر واستمرت في التطور والتقوية بعد موت الإسكندر، أو أننا سوف نعتقد أن كل عالم تجارة مصر، الذي استمر لعدة قرون، قد خلقه الغازي المقدوني، كنتيجة لهوى عارض خلال إقامته المؤقتة في ذلك البلد؟

هذا الاحترام الخرافي للمراسيم الملكية تلاه مباشرة خرافة العرق. إن أعراق الغرب مجهزة بالطبيعة ب"هدية باندورا" من التنظيم السياسي، التي يفتقر إليها اليهود منذ الميلاد. تعرض الطبيعة بوضوح بوصفها خالقة ميولاً سياسية من مصادرها الخاصة، قبل أن يوجد أي شيء كالسياسة وعندئذ توزعها بشكل نزوي بين "الأعراق" المختلفة، أيا ما كان يعني هذا. هذه النزوة الغامضة للطبيعة هنا هي أكثر كوميدية في أثرها حين نتذكر أن اليهود حتى زمن نفيهم امتلكوا وطبقوا نسبة كبيرة تماماً من "هدية باندورا" من التنظيم السياسي كما فعلت كل الأعراق الأخرى في مرحلتها المعينة من

31 مومسن، تاريخ روما، نيويورك، 1895، المجلد الخامس، ص ص 418- 419.

الحضارة. حرمهم ضغط الظروف الخارجية فقط من دولة وهكذا من المادة الضرورية للتنظيم السياسي.

بالإضافة إلى هذه المفاهيم الملكية والأنثروبولوجية عن التاريخ، يزودنا مومسن بمفهوم ثالث، يعرض فيه جنرالات ومنظمي الدولة بوصفهم متأثرين بعمليات عقلية مشابهة لتلك التي أفرخها الأساتذة الألمان في دراساتهم. يمثل المختلس عديم الضمير، وجندي الثروة، يوليوس قيصر، باعتباره راغبًا في خلق قومية مجردة لمواطنية عالمية وإنسانية، وحيث أدرك ذلك فقد فَضَّل اليهود باعتبارهم أكثر الوسائل فائدة في إحراز هذه الغاية!

حتى إذا كان قيصر قد تظاهر بأنه يتصرف بهذه الروح، فلا ينبغي أن نشعر بأننا ملزمين باعتبار مثل هذا التعبير متوافقًا مع أفكاره الحقيقية، بقدر ما أننا غير مستعدين بالمثل تمامًا أن نأخذ بجدية عبادة نابليون الثالث. الأساتذة الليبراليون للفترة التي كتب فيها مومسن تاريخ روما سوف يسمحون لأنفسهم أن ينخدعوا بسهولة بالمجاز النابوليوني، ولكن هذا الاتجاه لم يشكل فضيلة سياسية. كما أن قيصر لم يقل حتى كلمة واحدة توحي بأي فكرة كهذه. لم يستخدم القياصرة أي عبارة عدا تلك التي راجت وقتها التي يمكن أن تستخدم لأغراض ديماجوجية، بين البروليتاريين السذج أو الأساتذة السذج. حقيقة أن قيصر لم يتسامح مع اليهود فقط وإنما فضلهم يمكن أن تفسر على نحو أكثر بساطة، رغم أنها ليست بهذه العظمة تمامًا، بواسطة ديونه الأبدية وشهوته الأبدية للنقود. أصبحت النقود القوة الحاسمة في الدولة. لقد حماهم قيصر ومنحهم امتيازات لأن اليهود كانت لديهم النقود وقد أصبحوا مفيدين له، وليس بسبب أن مميزاتهم قد تكون ذات قيمة في خلق "قومية جاهزة مجردة".

قدر اليهود هذا الصنيع، وقد تفجعوا بعمق في وفاته. "في الحداد العام الكبير فقد رثاه أيضًا السكان (في روما)، من كل أمة وفقًا لأسلوبها، خاصة اليهود، الذين ذهبوا إلى حد زيارة غرفة حفظ الجثث عدة ليال متلاحقة [1]. قدر أغسطس أيضًا أهمية اليهود. "حاولت جماعات آسيا الصغرى في ظل أغسطس أن تثقل على مواطنيها اليهود بالمثل في جباية الضرائب، وألا يسمح لهم بمراعاة السبت، ولكن أجريبا اتخذ قرارًا ضدهم وأبقى الوضع القائم Status Quo في صالح اليهود، وربما، قنن الآن بالأحرى،

---

32 سوتينوس، يوليوس قيصر، الفصل الرابع والثمانون.

للمرة الأولى إعفاء اليهود من الخدمة العسكرية وميَّز سبتهم، التي سبق وإن منحت وفقًا للظروف فقط من قبل حكام أفراد أو جماعات الولايات اليونانية. وجه أغسطس أبعد من ذلك حكام آسيا بألا يطبقوا القوانين الإمبراطورية الصارمة فيما يتعلق بالاتحادات والجمعيات ضد اليهود.... تكشف أغسطس عن كونه ميالاً باستحسان للمستوطنة اليهودية الكائنة في ضواحي روما على الضفة الأخرى من التيبر، وسمح لهؤلاء الذين أهملوا في قبض هباته بسبب السبت، أن يتلقوا حصتهم فيما بعد" [1].

لابد وأن اليهود في روما كانوا غاية في الكثرة في هذا الوقت. أكثر من ثمانية آلاف (رجال فقط؟) اشتركوا من مجمعهم في وفد يهودي توجه إلى أغسطس في عام 3 ق.م حديثًا جدًا، اكتشفت مرة أخرى أماكن دفن يهودية متعددة في روما.

أضف إلى ذلك، بينما كانت التجارة مهنتهم الرئيسية، لم يكن كل اليهود الذين يعيشون في الخارج تجارًا. حيث عاش كثيرون معًا، فقد وظفوا أيضًا حرفيين يهودًا، الأطباء اليهود مذكورين في نقوش أفسس والبندقية [2]. يخبرنا حتى يوسيفوس عن ممثل في البلاط يهودي في روما: "في ديكارشيا، أو بيتولي، كما يسميها الإيطاليون تعرفت على الممثل (μιμολόγος) اليتوروس الذي كان من أصل يهودي وذا حظوة عند نيرون. وقد تعرفت من خلاله على الإمبراطورة پوبايا [3].

ج الدعاية اليهودية

لم يتكاثر شعب إسرائيل حتى نفيه بمعدل غير عادي، ليس أكثر من الأعراق الأخرى. ولكن بدءًا من هذا الوقت فصاعدًا فقد تزايد إلى حد ملحوظ. وعد يهوه الذي زعموا أنه أعطاه لإبراهام قبلاً، قد تحقق الآن: "أباركك مباركة، وأكثر نسلك، تكثيرًا، كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك من نسلك جميع أمم الأرض" [4].

هذا الوعد، عمليًا مثل كل وعود الكتاب المقدس الأخرى، لم يصطنع إلى أن تحقق الوضع المتنبأ به بالفعل مثل النبوءات التي يتمتم بها بعض الأبطال الإلهيين

---

33 ،ومسن، ولايات الإمبراطورية الرومانية، لندن، 1886، المجلد الثاني، ص 171- 172.
2 Shürer, Geschichte des Jüdischen Volkes, vol. III, p. 90.
35 يوسيفوس، السيرة الذاتية.
36 تكوين، 22، 17، 18.

المختارين في الدراسات التاريخية الحديثة. لم يكن من الممكن أن يكون وعد يهوه لإبراهيم قد كتب حتى ما بعد المنفى، لأن التصريح لا معنى له قبل هذه الفترة، ولكن عندئذ كان ملائماً بروعة. زاد عدد اليهود بالفعل، مؤسسين أنفسهم في كل المدن المهمة لعالم البحر الأبيض المتوسط، ممتلكين أبواب أعدائهم "حافزين تجارتهم في كل مكان" ومباركين كل الأمم في الأرض".

يقول الجغرافي سترابو، الذي كتب حوالي الوقت الذي ولد فيه المسيح عن اليهود: "دخل هذا العرق كل مدينة ومن الصعب أن تجد بقعة واحدة من الأرض المسكونة لم تستقبل هؤلاء القوم ولم تحكم (ماليًا) بهم".

من المحتمل أن هذه الزيادة السريعة في السكان اليهود يجب أن تعزى جزئيًا إلى خصوبتهم الشديدة. ولكن حتى هذه الخصوبة التي قد تؤخذ باعتبارها ملمحًا عرقيًا خاصًا في هذه الحالة لكانت قد جذبت الانتباه من الأزمنة الأبكر هي بالأحرى ملمحًا خاصًا للطبقة التي تمثل الآن بصفة رئيسية بواسطة اليهود، الطبقة التجارية.

ليس فقط كل شكل المجتمع، وإنما كل طبقة ضمن المجتمع المعطى لها قانونها الخاص للسكان. البروليتاريا المأجورة الحديثة، على سبيل المثال، تتزايد بسرعة، بسبب حقيقة أن البروليتاريين، الأنثى وكذلك الذكر، يصبحون مستقلين اقتصاديًا منذ سن مبكر ولديهم فرصة أن يؤمنوا أعمالاً لأطفالهم بينما ما زالوا صغارًا؛ أضف إلى ذلك، ليس لدى البروليتاري ممتلكات لتقسم، التي قد تغريه بأن يحدد عدد أطفاله.

القانون الذي يحكم الزيادة في السكان المزارعين المستقرين متغير، حيثما يجدون أرضًا خالية. كما هو الحال دائمًا حين يغزون بلدًا جديدًا، يستوطنها حتى حينها، الصيادون أو الرعاة فإنهم يتكاثرون بسرعة عظيمة، لأن شروط وجودهم أكثر مواتاة بكثير لتنشئة أطفالهم من شروط الصيادين الرحل ذوي موارد الغذاء غير المؤكدة والافتقار للتغذية في شكل لبن بخلاف لبن الأم على سبيل المثال، وهو شرط يجبر الأمهات على حضانة أطفالهن لعدد من السنوات. ينتج المزارع وفرة من الغذاء على فترات منتظمة وتنتج الماشية التي يربيها أيضًا لبنًا وفيرًا، أكثر من ماشية الرعاة الرحل، الذين يستنفدون كثيرًا من طاقتهم في البحث عن المرعى.

ولكن الأرض المتاحة للزراعة محدودة، والتحديدات التي تفرضها الملكية الخاصة ربما تصبح أعظم من تلك التي تفرضها الطبيعة. بالإضافة إلى ذلك فإن التطور التقني للزراعة بالنسبة للقسم الأعظم بطئ جدًا. آجلاً أم عاجلاً من ثم فإن أمة من

الفلاحين سوف تصل إلى مرحلة لا تجد فيها أي أراض جديدة لتأسيس بيوت وعائلات جديدة. هذا يجبر الفلاح، ما لم يكن لنسله الزائد أن يوظف في حرفة أخرى، الخدمة العسكرية، أو الصناعة الحضرية، على سبيل المثال، على أن يفرض حدودًا اصطناعية على عدد الأطفال. الفلاحون الذين يواجهون بهذا الوضع هم نماذج للمالثوسيين.

ولكن مجرد الملكية الخاصة في الأرض ربما يكون لها نفس الأثر، حتى وإن لم تكن كل الأرض الصالحة للزراعة قد فُلحت. حيازة الأرض هي الآن مصدر للقوة، كلما امتلك المرء أرضًا أكثر، كلما كان للمرء قوة وثروة أكبر في المجتمع. وتصبح الآن رغبة الملاك العقاريين أن يزيدوا ممتلكاتهم في الأرض، وحيث أن نطاق البلد ثابت وليس قابلاً للتوسع فإن الملكية الفعلية يمكن أن تزداد فقط بواسطة ضم الأرض الموجودة بالفعل. ربما تشجع قوانين الميراث أو تعوق هذه العملية، ربما تشجعها بواسطة الزواج، إذا ورث كلا الطرفين أرضًا، التي يمكن عندئذ أن تضم معًا، وربما تعوقها حيثما يجب أن تقسم قطعة من الأرض على عدة ورثة. ومن ثم سوف ينتهي الملاك العقاريون الكبار وكذلك الفلاح المالك إلى مرحلة، سوف يحد فيها من عدد ذريته، من أجل أن يحافظ على ملكيته كبيرة بقدر الإمكان، أو أن يحرم كل الذرية من الميراث عدا واحد. حيثما تبقى قسمة الميراث بين الذرية هي القاعدة، سوف تؤدي الملكية الخاصة في الأرض عاجلاً أم آجلاً إلى تحديد عدد ذرية ملاك الأرض، وفي ظل ظروف معينة إلى تناقص معتبر في هذا العدد. هذا هو أحد الأسباب التي أدت إلى تناقص سكان الإمبراطورية الرومانية، لأن الإمبراطورية كانت مؤسسة بصفة أساسية على الزراعة.

كانت خصوبة العائلات اليهودية تتعارض بقوة مع هذا. كف اليهود توًا عن أن يكونوا أناسًا منخرطين بصفة رئيسية في الزراعة. وكانت الأغلبية العظمى منهم تجارًا ورأسماليين. ولكن رأس المال يختلف عن الأرض في أنه يمكن زيادته. حين تزدهر التجارة فربما تتزايد على نحو أكثر سرعة من ذرية التجار، الأخيرون من ثم ربما يتزايدون بسرعة تمامًا، بينما تتزايد ثروة كل (منهم). ولكن كانت الزيادة الملحوظة في التجارة قد جرت فقط في القرون التي تبدأ بالمنفى وتمتد إلى القسم الباكر من العصر الإمبراطوري. تزايد بسرعة استغلال العمال المنخرطين في الزراعة العبيد، المستأجرين، الفلاحين، بينما كان نطاق هذا الاستغلال يتسع. استمر استغلال المناجم في الزيادة إلى أن انخفض الإمداد بالعبيد. أدى هذا الأخير، كما رأينا، إلى تدهور الزراعة، وتناقص سكان الولايات، وفي المدى الطويل إلى إضعاف القوة العسكرية، متضمنة أيضًا وقف التزويد بالعبيد، الذي كان مرتكزًا على حروب مستمرة ناجحة،

ومن ثم مرة أخرى إلى تدهور التعدين. ولكن مر وقت طويل قبل أن تستشعر هذه العواقب، تراكم الثروة في أيدي قليلة، وتزايد ترف الأغنياء بينما أصبح السكان ككل مفقرين. ولكن كانت التجارة عندئذ تجارة في الأشياء المترفة بصفة رئيسية. لم تكن طرائق المواصلات قد تطورت بعد إلا قليلاً، كانت الشحنات الرخيصة ذات الأحجام الكبيرة قد بدأت تصبح ممكنة. حققت التجارة التي حملت الحبوب من مصر إلى إيطاليا بعض الأهمية، ولكن بقيت أدوات الترف الموضوع الرئيسي للتجارة بصفة عامة. بينما التجارة الحديثة معنية بصفة أساسية بإنتاج واستهلاك جماهير كبيرة، فقد كانت معنية سلفاً بالأحرى بغطرسة وتبذير عدد قليل من المستغلين. بينما تعتمد التجارة اليوم على زيادة استهلاك الجماهير، فقد اعتمدت سابقاً على الاستغلال والتبديد. إنها لم تجد شروطاً أكثر مواتاة للأخير منها في الفترة التي تبدأ بتأسيس الإمبراطورية الفارسية وتنتهي بزمن أول القياصرة. بينما فرض تحول طرق التجارة معاناة كبيرة على فلسطين، فقد حفزت التجارة بكثافة بصفة عامة من الفرات إلى النيل، إلى الدانوب والراين، من الهند إلى بريطانيا. الأمم التي كان أساسها الاقتصادي زراعيًا ربما تنقص وتخسر السكان، ولكن أمة من التجار ازدهرت بالضرورة حيث لم يكن لديها ما يستلزم فرض أي حد مهما صغر على زيادتها الطبيعية في السكان. كما لم يكن هناك أي ضغط خارجي يسهم في تخفيض هذه الزيادة.

ولكن بغض النظر عما قد يكون عليه تقديرنا العالي للخصوبة الطبيعية للشعب اليهودي، فإن هذه الخصوبة بمفردها لن تكون تفسيرًا كافيًا لزيادته السريعة. لقد تعزز هذا العامل إلى حد بعيد بسبب قوة الدعاية اليهودية.

إن مشهد أمة يزيد عددها بوسائل الدعاية اليهودية هو أمر استثنائي مثله في ذلك مثل الوضع التاريخي لليهود أنفسهم.

مثل الأمم الأخرى، فقد تماسك اليهود في البداية بواسطة روابط الدم، حل التركيب العشائري في ظل الملوك محل التنظيم الإقليمي، الدولة ومقاطعاتها. كفت هذه الرابطة عن أن تكون فعالة حين جر اليهود إلى المنفى، استعادت العودة إلى أورشليم هذه الرابطة لشق صغير من الأمة فقط. كان القسم الأعظم والمتزايد دائمًا من القوم يعيش خارج الدولة القومية اليهودية، في الخارج، ليس فقط بشكل مؤقت كما يفعل تجار الأمم الأخرى، بل على نحو دائم. غير أن هذا قد أدى إلى خسارة رابطة إضافية للقومية، أي، اللغة المشتركة. لقد كان على اليهود الذين يعيشون في الخارج أن يتحدثوا بلسان أجنبي، وإذا كانت عدة أجيال قد عاشت بالفعل في الخارج، فإن

الأجيال الأصغر في النهاية سوف تتمكن من أن تتحدث فقط بلغة بلدها المحلية، ناسية لغتها الأم. أصبحت اللغة الإغريقية بصفة خاصة شديدة الشعبية بينهم. بالفعل، ترجمت الكتابات المقدسة لليهود إلى الإغريقية في القرن الثالث ق.م. ويحتمل بسبب أن قلة فقط من اليهود السكندريين هي التي كانت لا تزال تفهم العبرية، ويمكن أيضًا أن يكون لأغراض الدعاية بين الأغارقة. أصبحت الإغريقية لغة الأدب اليهودي الجديد، حتى لغة الشعب اليهودي الذي يعيش في إيطاليا. "كان للجماعات (اليهودية) المختلفة في روما مدافن مشتركة، خمسة منها معروفة. خطت النقوش بصفة أساسية بالإغريقية، وقد كتب بعضها تقريبًا بلغة مضطربة غامضة، بعضها باللاتينية، لا شيء بالعبرية" [1]. لم يكن اليهود قادرين على إبقاء استخدام لغتهم العبرية حتى في فلسطين حيث تبنوا لغة السكان المحيطين بهم، والتي كانت الآرامية.

قبل عدة قرون من تدمير أورشليم من قبل الرومان، كفت العبرية بالفعل عن أن تكون لغة حية. لم تعد تخدم كوسيلة اتصال بين أعضاء الأمة، وإنما فقط كوسيلة للوصول للكتابات المقدسة للعصور القديمة، التي لم يكن عمرها حقيقة عدة قرون أو كثرة من آلاف السنين كما زُعم أنها كذلك، لقد ضمت معًا حديثًا من بقايا قديمة واصطناعات جديدة.

يزعمون أن ديانتهم قد أوحي بها لآباء إسرائيل الأوائل، ولكنها تشكلت بالفعل خلال وبعد فترة المنفى، أصبحت مع نشاطهم التجاري الرابطة الأقوى بين اليهود، العلامة الوحيدة التي تميزهم عن الأمم الأخرى.

ولكن الإله الواحد لهذه الديانة لم يعد واحدًا من كثرة من الآلهة الأسلاف كما كان ذات مرة، لقد أصبح الآن الإله الوحيد للعالم، إله كل البشر، الذي تنطبق وصاياه على كل البشر، اختلف اليهود عن كل الآخرين فحسب بحقيقة أنهم قد اعترفوا به بينما أخفق الآخرون في أن يفعلوا ذلك بسبب عماهم. كان الاعتراف بهذا الإله الآن علامة اليهودية: إن من اعترف به وبوصاياه كان من بين المختارين من الإله، كان يهوديًا. خلق التوحيد من ثم الإمكانية المنطقية لتوسيع حدود اليهودية بنشر هذه الفكرة. ربما ما كانت لتوظف هذه الإمكانية إذا لم تكن قد توافقت مع اتجاه اليهود للتوسع. عرضتهم أعدادهم الصغيرة لأعمق إذلال، مع ذلك لم يدمروا. لقد تجاوزا أسوأ المحن، ووجدوا مرة أخرى موقع قدم راسخ، وكانوا قد بدأوا يحوزون القوة

---

37 فريدلاندر، الحياة الرومانية وآداب السلوك في ظل الإمبراطورية الباكرة، المجلد الثالث، ص 178.

والثروة وسط أكثر البيئات اختلافًا. أوحى لهم هذا الظرف بالثقة الفخورة بأنهم كانوا بالفعل الشعب المختار، قدر لهم حقًا أن يحكموا الأمم الأخرى، ولكن كما كان إيمانهم عظيمًا بإلههم وبالمخلص الذي سوف يرسله إلههم، لم يكن من الممكن أن يخفقوا مع ذلك في إدراك كيف كان وضعهم ميئوسًا منه إذا بقوا أمة غاية في الصغر وسط ملايين الوثنيين الذين أصبح تفوقهم العددي بالضرورة أكثر وضوحًا لهم حيث اتسعت دائرة علاقاتهم التجارية. كلما كانت رغبتهم في القوة والرفعة أقوى، كلما كانوا مضطرين لأن يزيدوا بعناية عدد شعبهم، وأن يجدوا أتباعًا بين الأمم الأجنبية. إننا نجد من ثم بين اليهود في القرون التي تسبق مباشرة تدمير أورشليم اتجاهًا قويًا للتوسع.

في حالة سكان الدولة اليهودية، كانت أبسط طريقة لتحقيق هذا التوسع بواسطة التحويل بالقوة. لم يكن شيئًا غير عادي أن تقهر شعبًا؛ حينما نجح اليهود في هذا فقد حاولوا أن يفرضوا ديانتهم عليه. لقد حدث هذا في عصر المكابيين وخلفائهم، الذي امتد تقريبًا من 165 حتى 63 ق.م. حين أتاح سقوط الإمبراطورية السورية للشعب اليهودي مجالاً واسعًا للحركة لبعض الوقت، التي وظفوها ليس فقط للإطاحة بالنير السوري، وإنما أيضًا ليوسعوا إقليمهم الخاص. غزوا الجليل التي لم تكن يهودية قبلاً، في هذه الفترة، كما أبان شورر [1]. أخضعت أدوميا والأرض التي تقع شرق الأردن، وأحرز حتى موطئ قدم على الساحل، في يافا. لم تكن سياسة غزو كهذه غير عادية؛ ولكن كان من غير العادي تمامًا لسياسة كهذه أن تتطور إلى غزو ديني. كان على سكان الأقاليم المغزوة حديثًا أن يقبلوا (كإله) من كان يعبد في الهيكل في أورشليم، كان عليهم أن يقوموا بالحج إلى أورشليم لعبادته، وأن يدفعوا عشور الهيكل إلى أورشليم، وأن يصبحوا مميزين عن الأمم الأخرى وذلك بممارسة الختان وبمراعاة الشرائع الطقسية اليهودية الخاصة.

كان مثل هذا الإجراء غير معروف على الإطلاق في العالم القديم، حيث سمح الغازي عادة بحرية دينية وأخلاقية كاملة للمقهورين وطلب من الأخيرين فقط جزية في الثروة والدم.

كان مثل هذا الشكل من التوسع اليهودي ممكنًا فقط لبعض الوقت. على أية حال، حدث ذلك حينما كانت قوة السوريين غاية في الضعف، و(قوة) الرومان لم تكن بعد قريبة بما يكفي لتعوق التقدم العسكري ليهوذا. حتى قبل أن يحتل بومبي أورشليم

1 Shürer, Geschichte des Jüdischen Volkes, vol. II, p. 5.

(63 ق.م) فإن تقدم اليهود في فلسطين كان قد انتهى بالفعل إلى توقف. كان توسع الجماعة الدينية اليهودية بواسطة القوة قد توقف بفعالية من قبل القوة الأعظم للرومان.

بدءًا من هذا الوقت فصاعدًا لجأ اليهود بأعظم طاقة إلى الطريقة الأخرى لزيادة عدد مؤمنيهم، أي للدعاية السلمية، كانت الأخيرة أيضًا ظاهرة استثنائية في عصرها. طورت اليهودية أبكر من المسيحية، نفس الدرجة من الحماس التبشيري كالأولى، ولقيت نجاحًا ذو وزن. لقد كان من الطبيعي، وإن لم يكن بالطبع منطقيًا جدًا، أن لام المسيحيون اليهود على حماسهم الذي طوروه هم أنفسهم بمثل هذا التناسب مع ديانتهم الخاصة:

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراؤون!". يضع الإنجيلي هذه الكلمات في فم يسوع. "لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحدًا ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا". (متى، 23، 15).

هكذا كانت النغمات المسيحية التي عبر فيها حماس المنافسة عن نفسه.

لابد وأن المصلحة المادية وحدها قد قادت بعضًا من الأتباع من المحيط "الوثني" إلى اليهود. أن يكونوا أعضاء في تنظيم تجاري مزدهر متشعب بهذا الحد من الاتساع لابد وأنه كان منظورًا مغريًا لفئة غير قليلة. لايهم أين أتى يهودي، فقد كان يمكنه الاعتماد على دعم حيوي وتشجيع من زملائه المؤمنين.

أسهمت أسباب أخرى أيضًا في قوة اليهود في الدعاية. لقد رأينا آنفًا كيف أن موقفًا ملائمًا معينًا تجاه التوحيد الأخلاقي قد تولد من مرحلة معينة في تطور حياة المدينة. ولكن كان توحيد الفلاسفة يتعارض مع الدين التقليدي، أو على الأقل خارج مجاله. تطلب هذا التوحيد استقلال الفكر. ولكن أدى نفس التطور الاجتماعي الذي ميز الفكرة التوحيدية أيضًا، كما رأينا، إلى تحلل الدولة والمجتمع، إلى عزلة متزايدة للفرد، لحاجة ناشئة إلى سلطة حازمة؛ في الموقف تجاه الحياة، إنه لم يؤد من ثم إلى الفلسفة، التي تجعل الفرد معتمدًا على ذاته، وإنما إلى الدين، الذي يقارب الفرد كنتاج ناجز وثابت لسلطة ما فوق بشرية.

توصلت أمتان فقط من الحضارة القديمة، وهما الفرس واليهود، بسبب ظروف خاصة، إلى التوحيد ليس كفلسفة وإنما كدين. ديانتا الاثنتين أحرزتا تقدمًا جديرًا بالاعتبار بين أمم العالم الهيليني وفيما بعد الإمبراطورية الرومانية. ولكن بسبب

وضعهم المحزن كشعب، اندفع اليهود بحماس عظيم إلى التبشير، واتصلوا في الإسكندرية بالفلسفة اليونانية بشكل وثيق.

تمكن اليهود هكذا من تقديم الغذاء العقلي الأكثر قبولاً لأذهان العالم القديم المنحل، الذي شكك في آلهتهم التقليدية الخاصة، والذي لم يمتلك طاقة كافية لأن يخلق نظرة عن الحياة بدون إله أو بإله واحد فقط، زاد هذا منذ أن قرن اليهود مع اعتقادهم في قوة أخلاقية بدائية مفردة، اعتقادًا أيضًا في مجيء مخلص كان يتوق إليه كل العالم آنئذ.

كانت الديانة اليهودية بين الديانات العديدة التي تلاقت في الإمبراطورية الرومانية هي التي أجابت بشكل أفضل على فكر وحاجات الحقبة؛ لقد كانت أرقى ليس بالنسبة لفلسفة "الوثنيين"، وإنما لديانتهم نكاد لا نتعجب من أن اليهود قد شعروا بفخر بأنهم أرقى من الآخرين وأن عدد أتباعهم كان يتنامى بسرعة. قال السكندري اليهودي فيلون: "كل البشر تغزوهم اليهودية وتحثهم على الفضيلة، البرابرة، الهيلينيون، الساكنون في القارات والجزر، أمم الشرق والغرب، أوروبيون، آسيويون، أعراق الأرض". لقد توقع أن تصبح اليهودية دين العالم؛ وقد كان هذا في زمن المسيح [1].

لقد أشرنا سلفًا إلى انه باكرًا في 139 ق.م جرى ترحيل اليهود من روما لأنهم قاموا بالتبشير في إيطاليا. لقد روي عن أنطاكية أن أغلبية المجتمع اليهودي في هذه المدينة يتألف من يهود متحولين وليس يهودًا بالمولد. لابد وأن الأوضاع كانت متماثلة في أماكن أخرى كثيرة. تبين هذه الحقيقة وحدها عبث الجهد المبذول لتفسير ملامح اليهود على أساس عرقهم.

حتى الملوك تحولوا إلى اليهودية: إيزاتس **Izates** ملك مقاطعة أديابين **Adiabenc** في أشور، أغرته باعتناق اليهودية عدة نساء كن قد تحولن إلى هذا الإيمان، الذي اعتنقته أيضًا أمة هيلينا. لقد أخذه الحماس إلى حد أن يُختن، بالرغم من أن معلمه اليهودي قد أشار عليه بخلاف هذا، لأنه قد يعرض وضعه للخطر بغير ضرورة. أصبح أخوة الملك يهودًا أيضًا، كان هذا في زمن طيباريوس وكلاوديوس.

أتت اليهوديات الجميلات بعدد كبير من الملوك الآخرين لأذرع اليهودية.

---

39 قارن كتاب طوبيت، 14، 6، 7.

وهكذا، فإن الملك عزيز، من اميسا **Emesa**، تحول إلى اليهودية حتى يتزوج دورسيلا، أخت أجريبا الثاني. لقد كافأت هذه السيدة تفانيه بالأحرى فيما بعد بدناءة بهجر سيدها الملكي من أجل ضابط مالي روماني يدعى فيلكس. أختها بيرينيس، التي تختن الملك بولمون من أجل خاطرها لم تتصرف بشكل أفضل. في الواقع أصبح بولمون مشمئزًا من خلاعة زوجته، وليس فقط من الزوجة، وإنما أيضًا من ديانتها. ولكن السيدة بيرينيس، التي اعتادت تغيير الرجال لم تفتقر للعزاء. تزوجت في البداية واحدًا (اسمه) ماركوس، وبعد موته عمها هيرود. بعد ان مات هو أيضًا عاشت مع أخوها أجريبا حتى زواجها من المذكور آنفًا بولمون. ارتقت في النهاية على أية حال، إلى منصب عشيقة الإمبراطور تيتوس.

بينما كانت هذه السيدة غير مخلصة لشعبها، كانت هناك كثيرات أخريات اعتنقن اليهودية التي كان لها سحر معين بالنسبة لهن. كانت من ضمنهن زوجة نيرون بوبباسابينا، التي قيل لنا عنها إنها يهودية متحمسة، التي لم تحسن، على اي حال سلوكها الأخلاقي.

يروي يوسيفوس عن سكان مدينة دمشق انهم قد نووا بمناسبة الانتفاضة اليهودية في ظل نيرون، ان يقضوا على اليهود الذين عاشوا في المدينة. "لقد كانوا خائفين فقط من زوجاتهم، لأن كل واحدة منهن تقريبًا كانت ذات اعتقاد يهودي. وقد احتفظوا بخطتهم سرية عن الأخيرات، وقد كانت ناجحة. لقد قتلوا 10000 يهودي في ساعة واحدة" [1].

تنوعت الأشكال التي أعلن بها التحول إلى اليهودية إلى حد بعيد. قبلها المتحولون الجدد الأكثر تحمسًا بمجملها. وقد كان دخولهم مؤسسًا على ثلاث متطلبات؛ في المحل الأول، الختان؛ الثاني، غمر (في الماء) من أجل تطهيرهم من الخطيئة الوثنية؛ أخيرًا، اضحية. كانت النساء، بالطبع معفيات من المتطلب الأول.

ولكن لم يكن كل المتحولين ليكرهوا أنفسهم على الالتزام بكل قواعد الشريعة اليهودية بلا استثناء. لقد رأينا اليهودية مليئة بالمتناقضات، حتى أنها تضمنت من ناحية توحيدًا عالميًا رفيع الاستنارة، ومن ناحية أخرى توحيدًا قبليًا ضيق الأفق إلى حد متطرف، وهكذا وحدت أخلاقًا مجردة مع استبقاء هلوع للعادات التقليدية، ومن ثم

---

40 الحرب اليهودية، الجزء الثاني، 20، 2.

معتنقة ليس فقط، افكارًا ظهرت حديثة للغاية وارقى بالنسبة لأناس ذلك العصر، ولكن أيضًا مفاهيم لابد وانها ظهرت شديدة الغرابة وحتى منفرة، خاصة بالنسبة إلى الهيلينيين أو الرومان، والتي جعلت من ثم الاتصال الاجتماعي بين أعضاء الجماعة اليهودية وغير اليهودية صعبًا إلى أبعد الحدود. كانت من بين هذه، على سبيل المثال، شرائع التغذية، والختان، والمراعاة الصارمة للسبت، وغالبًا ما ينتهي الأخير إلى تطرفات مثيرة للسخرية.

نعلم من جوفينال أن الموقد غير الناري، الذي يعتبر الآن اختراعًا حديثًا للغاية في التدبير المنزلي، كان معروفًا بالفعل لليهود القدامى. في عشية السبت وضعوا طعامهم في سلال مملوءة بالقش، حتى يحفظوه دافئًا. يقال أن مثل هذه السلة يفتقر إليها في الاقتصاديات المنزلية غير اليهودية. وهذه إشارة لعدم الملائمة المتضمنة في مراعاة السبت الصارمة. ولكن كان يغالى في هذه المراعاة أحيانًا إلى حد تصبح فيه ذات طابع كارثي لليهود. لم يكن المحاربون الورعون اليهود، الذين هاجمهم العدو في (يوم) السبت، ليدافعوا عن انفسهم ولا أن يقاتلوا، وإنما قبلوا أن يصرعوا دون مقاومة، حتى لا ينتهكوا وصايا الرب.

لم يكن بمستطاع الكثيرين الشعور بمثل هذا التعصب والإيمان بالرب.

ولكن لم يكن حتى تنفيذًا أقل صرامة للشريعة اليهودية ليلائم ذوق كل واحد. إننا نجد من ثم، معًا هؤلاء اليهود الذين دخلوا المجمع اليهودي وقبلوا كل نتائج الشريعة اليهودية، مع عدد ممن شاركوا في الخدمة الإلهية اليهودية وحضروا في المعابد، رفضوا القواعد اليهودية. كان هناك خارج فلسطين حتى كثيرون بين اليهود أنفسهم لم يعنوا بهذه القواعد. لقد قنعوا في حالات عديدة بعبادة الإله الحقيقي، معتقدين في مجيء المخلص، مستغنين عن الختان وكانوا راضين أن يطهر صديقهم المنضم حديثًا إلى المجمع نفسه من خطاياه بالغمر (التعميد). يحتمل أن هؤلاء الرفاق "الورعون" Sebomenoi لليهودية قد شكلوا غالبية هؤلاء الوثنيين الذين اعتنقوا الإيمان. من المحتمل أنهم شكلوا أيضًا أرضية للتجنيد أكثر أهمية للمجمع المسيحي حينما بدأ الأخير في الاشتغال خارج أورشليم.

د. كراهية اليهود

رغم عظمة قوة الدعاية اليهودية، إلا أنه لم يكن لها بوضوح نفس التأثير على كل الطبقات. لابد أن كثيرين قد نفرتهم اليهودية، خاصة الملاك العقاريين الكبار، الذين كانت عاداتهم الدائمة في التوطن وضيق أفقهم المحلي متعارضان للغاية مع الطابع غير المستقر والأممي للتاجر. أضف إلى ذلك أن التاجر قد حقق قسمًا من ربحه على حساب مالك الأرض، لأن التاجر سوف يحاول أن ينقص بقدر الإمكان ثمن المنتج الذي يبيعه مالك الأرض، وأن يرفع بقدر الإمكان أثمان تلك المنتجات التي يشتريها مالك الأرض. لقد كان الملاك الكبار دائمًا في توافق عظيم مع رأس المال الربوي، لقد رأينا أنهم يستمدون كثيرًا من قوتهم من الربا وذلك في فترة باكرة. ولكن كان ملاك الأرض، كقاعدة، معادين للتجارة.

على أي حال، كان العمال الصناعيون الذين يعملون في تجارة التصدير في علاقة عداء مع التاجر، تماثل تلك التي بين العمال المنزليين تجاه تجار الجملة.

اتخذت هذه المعارضة للتجارة بصفة رئيسية شكل معارضة لليهود، الذين تشبثوا بحزم بقوميتهم، والذين وإن خدمت لغتهم على نحو أقل في تمييزهم عن محيطهم، إلا أنهم بقوا مرتبطين على نحو أكثر حزمًا بالعادات القومية التقليدية، التي التحمت الآن على نحو أكثر صميمية مع الرابطة القومية، الدين، والتي جعلت اليهود موضوعًا لمثل هذا الاهتمام المكثف لجمهور السكان خارج فلسطين. بينما استدعت مثل هذه الخصوصيات في معظم الأحيان سخرية الغوغاء فقط، مثل كل شيء أجنبي، إلا أنه قد نظر إليهم بعدواة حينما شُعر الناس أنهم يمثلون طبقة تعيش على الاستغلال، وهو الحال مع كل التجار، الذين كانوا في نفس الوقت قد التحموا معًا في تنظيم أممي وثيق باعتباره معارضًا لبقية السكان، وكان يتزايد في الثروة والامتيازات بينما كان يصبح بقية السكان أفقر بجلاء يتمتعون بحقوق أقل فأقل.

"أدخل موسى عادات دينية جديدة، تعارضت مع عادات البشر الآخرين، كل شيء مدنس بينهم مقدس بالنسبة لنا؛ وكل شيء مسموح به بينهم مثير للاشمئزاز بالنسبة لنا" ويذكر من بين مثل هذه الأعراف الامتناع عن لحم الخنزير، الصيامات المتواترة، السبت.

"لقد دافعوا عن هذه العادات الدينية، أيًا ما كان أصلها، على أساس قدمها العظيم. ظهرت عادات أخرى كريهة وممقوتة بسبب شرهم، ولهذا فقد تسببوا في أن أصبح أسوأ الأشخاص غير مؤمنين بديانة آبائهم وأتوا لهم بتبرعات وهبات، وهكذا: تزايدت ثروة اليهود. وذلك يرجع أيضًا إلى حقيقة أنه بينهم تسود أشد أمانة وأشد

النزعات توقًا للخير، مقرونة بعداء كريه للآخرين. إنهم ينفصلون عن الآخرين في وجباتهم، وهم يحجمون عن التعاشر مع نساء ينتمين للعقائد الأخرى. ولكن بينهم لا يوجد شيء غير مسموح به. لقد أدخلوا الختان، كوسيلة لتمييز أنفسهم عن الآخرين. يقبل أيضًا هؤلاء الذين يلتحقون بمراتبهم الختان، وهم غير مفعمين بشيء سوى باحتقار الآلهة، تخلوا عن أرض آبائهم، عقوا الوالدين، والأولاد والأخوة، وهم يحاولون دومًا زيادة أعدادهم، ويبدو لهم أن قتل ذرية الإنسان جريمة. إن أرواح هؤلاء الذين قتلوا في معركة، أو أعدموا بسبب دينهم، يعتبرون من جانبهم خالدين، من هنا ميلهم لإنجاب الأطفال، واحتقارهم للموت".

يناقش تاسيت عندئذ رفضهم لكل عبادة للصور ويستنتج: "إن عادات اليهود بلا معنى وخسيسة (**Judoeorum mos absurdus sordidusque**) [1].

سخر الهجاؤون من اليهود، ووجدت النكات عن اليهود دائمًا جمهورًا تواقًا. يصور جوفينال في أهجيته الرابعة عشر تأثيرات مثال الوالدين على الأطفال. الأب الذي لديه ميل نحو اليهودية يقدم مثالاً رديئًا لأطفاله:

"سوف تجد بشرًا قدرهم أن لهم أب يحفظ السبت مقدسًا. مثل هؤلاء الناس يصلون فقط للسحب ولإله في السماء. إنهم يعتقدون أن لحم الخنازير لا يختلف عن اللحم الإنساني، لأن أباهم لم يأكل لحم خنازير. وسرعان ما يتخلون عن قُلفهم ويحتقرون شرائع الرومان. ولكنهم يتعلمون، ويطيعون، ويشرفون الشرائع اليهودية، باختصار، كل شيء، سلمه موسى في صحفه السرية. إنهم لن يرشدوا أحدًا ضل الطريق عدا من يشاركونهم نفس الإيمان، إنهم سوف يقودون المختن (**verpos**) فقط إلى النبع الذي يشتاق إليه العطشان. هكذا هو تأثير الأب بالنسبة له كل سابع يوم كان يوم راحة (**Ignavus**)، يمتنع فيه عن أي تعبير عن الحياة" [2].

مع تزايد البؤس الاجتماعي، تزايدت العداوة لليهود أيضًا.

كانت هذه العداوة في ذلك الزمن الباكر بالفعل أبسط وأقل الطرائق بطولة للتعبير عن عدم الرضى عن انحلال الدولة والمجتمع. لم يكن أمرًا سهلاً مهاجمة الأرستقراطيين وملاك اللاتيفونديا، المرابين والقادة العسكريين أو حتى المستبدين على

---

41 تواريخ، 5، 5.

42 اهجيات، 14، 96، 105.

العرش، ولكن اليهود كانوا تقريبًا عزلاً عندما تعلق الأمر بسلطة الدولة، بالرغم من امتيازاتهم.

في الأيام الباكرة للعصر الإمبراطوري، حين تلاحق إفقار الطبقة الفلاحية بالفعل إلى حد بعيد، وكان يتراكم جحافل من رعاع المدن، تواقون للنهب، جرى اللجوء عرضًا لمذابح منظمة.

نجد عند مومسن وصفا ممتازا لواحدة من هذه المذابح المنظمة التي جرت في ظل الإمبراطور جايوس كاليجولا (37- 41 ب.م)، بمعنى آخر، في حوالي نفس الوقت الذي قيل أن المسيح قد مات فيه.

"حضيد لهيرود الأول والجميلة مريمنة، يدعى هيرود أجريبا، (سمي) على اسم حامي وصديق جده، والذي كان على الأرجح الأشد تفاهة وعدم جدوى من أبناء الأمراء العديدين الذين يعيشون في روما، والذي بالرغم من ذلك، أو ربما لهذا السبب بالذات، كان المفضل وصديق طفولة للإمبراطور الجديد، والذي كان قد عرف حتى آنئذ بخلاعته وديونه فقط، قد تلقى كهدية من حاميه الذي كان محظوظًا جدًا لأنه كان أول من أخطره بموت طيباريوس، واحدة من الولايات اليهودية الخالية الصغيرة، بالإضافة إلى اللقب الملكي. وصل هيرود أجريبا في العام 38 ب.م، في رحلته إلى مملكته الجديدة، إلى مدينة الإسكندرية، حيث كان قد حاول قبل بضعة شهور، بعد أن هرب من دفع صكوكه الحالة، أن يقترض نقودًا من الصيارفة اليهود. حين ظهر علنًا في الإسكندرية في ثيابه الملكية، وبمطارِده (المِطْرَدْ = رمح وفأس حرب- المترجم) المهيأة بفخامة، ألهم بشكل طبيعي السكان غير اليهود لهذه المدينة العظيمة المغرمون كما كانوا بالسخرية والفضيحة البعيدون عن أن (يكونوا) ودودين مع اليهود، أن ينطلقوا في محاكاة ساخرة حول الوضع، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. لقد تصاعد إلى مطاردة غاضبة لليهود، سرقت وأحرقت مساكن اليهود التي لم تكن قريبة من بعضها، ونهبت السفن اليهودية في الميناء، وأسيئت معاملة اليهود الذين وجدوا في الأحياء غير اليهودية وذبحوا. ولكن كان من المستحيل إحداث شيء بواسطة العنف ضد الأحياء اليهودية الخالصة للمدينة. عثر قادة الاضطهاد بالمصادفة على خطة لوقف المعابد، التي كانوا قد كرسوا لها أقصى عنايتهم، إذا لم تكن قد دمرت بالفعل، كمعابد للحاكم الجديد ولوضع صور الأخير فيها جميعًا، في المعبد الرئيسي تمثال على كدريجة (مركبة بدولابين تجرها أربعة جياد المترجم). كل واحد، بمن فيهم اليهود والحكومة، عرفوا أن الإمبراطور جايوس اعتبر نفسه بجدية جدية بقدر ما تسمح به

روحه المضطربة إلهًا حقيقيًا بلحمه وشحمه. الحاكم أفـيليوس فلاكوس، وهو رجل متمكن وإداري ممتاز في ظل طيباريوس، إلا أنه تعرقل الآن بسبب الفتور الذي اعترى علاقته بالإمبراطور الجديد. وإذ كان خائفًا من أن يُستدعى ويُتهم في أي لحظة، فلم يترفع عن أن ينتهز هذه الفرصة لرد اعتباره. لم يصدر مرسومًا بمنع إبداء أي مقاومة لنصب هذه التماثيل في المعابد فقط. وإنما دخل أيضًا في روح المذبحة المنظمة. أمر بإلغاء السبت، وأعلن بالإضافة إلى ذلك في مراسيمه أن هؤلاء الأغراب الذين جرى التسامح معهم قد حازوا أفضل أقسام المدينة بدون أخذ تصريح؛ وقد عين لهم الآن واحد من الأحياء الخمسة بمفرده وسلمت كل المنازل الأخرى التي تخص اليهود للغوغاء، بينما اضطجع سكانها السابقون دون مأوى على الشاطئ بأعداد كبيرة. ما من توسل أنصت إليه، ثمانية وثلاثون عضوًا من مجلس الكبار، الذي حكم الطائفة اليهودية بدلاً من الاثنارخ **Ethnarch**، ضربوا بالسياط في السيرك المفتوح أمام مجمل السكان. هجع أربعمائة منزل في خراب؛ باتت التجارة والمواصلات في توقف تام، أغلقت دور الصناعة. لم يكن أحد ليستطيع أن يقدم مساعدة سوى الإمبراطور. ظهر وفدان مفوضان سكندريان أمامه، أحدهما من اليهود قادة المذكور عاليه فيلون، عالم من الاتجاه اليهودي الجديد، ذو لطف أكثر منه شجاعة في قلبه، ولكن الذي التمس الرحمة مع ذلك بشجاعة لشعبه في تلك اللحظة العسيرة، وذلك الوفد المعادي لليهود الذي قاده أبيون وهو عالم سكندري أيضًا وكاتب، "ثرثار العالم" (**Cymbalum Mundi**)، كما اعتاد أن يسميه الإمبراطور طيباريوس، مليء بالكلمات العظيمة وبأكاذيب أعظم، وبأشد (أنواع) الجهل وقاحة وبإيمان لا يساءل بنفسه، ذو معرفة إن لم يكن بالرجال، فعلى الأقل بدوافعهم، ذو باع في البلاغة وكذلك في الديماجوجيا، ذو فهم سريع، حاد، بلا حياء، وموالي دون شروط. ربما أمكننا أن نتوقع نتيجة المعاملة سلفًا؛ أدخل الإمبراطور الحزين حينما كان يجوس خلال أراضي بساتينه، ولكن بدلاً من أن يعطي المتوسلين أذنًا صاغية، طرح أسئلة ساخرة عليهم، حياها المعادون لليهود في تحد لكل قواعد اللياقة مع ضحك صاخب، وحيث أنه كان في مزاج طيب فقد قنع بالتعبير عن أسفه عن أن هؤلاء الناس، وهم أصحاب طيبون من نواح أخرى، احتواهم هذا القدر من التعاسة بحيث لم يتمكنوا من رصد طبيعته الإلهية الفطرية، التي عناها بلا شك بجدية. هكذا حصل إبيون على

البرهان الأفضل، وفي كل الأماكن حيث شعر المعادين لليهود بميل شديد لذلك، تحولت معابد اليهود لجايوس" [1].

هل هناك أحد لا يُذكِّره هذا الوصف بالأوضاع الراهنة في روسيا؟ [2] والتشابه ليس مقصوراً على المذابح. لا نستطيع أن نذكر جايوس، الوحش المجنون للعرش الإمبراطوري، دون أن نفكر في الحماة رفيعي المولد للمذابح المنظمة في روسيا. إن هؤلاء الأوغاد ليسوا حتى أصيلين في طرائقهم!

كانت القوة العسكرية المتاحة في روما نفسها عظيمة للغاية، وكان الأباطرة معارضون بقوة شديدة لأي حركة شعبية، أو أن يسمحوا لمثل هذه المناظر أن تجري في تلك المدينة، ولكن منذ أن تمتنت السلطة الإمبراطورية، ولم يعد القياصرة يحتاجون اليهود، قمعوهم. وبالنظر إلى عدم الثقة التي راودت القياصرة إزاء كل التنظيمات، حتى أكثرها براءة، لابد أن هذا التنظيم الديني الأممي قد أثر فيهم على نحو غير ملائم للغاية.

بدأت اضطهادات اليهود بالفعل في ظل طيباريوس.

يصف يوسيفوس قضيتهم كما يلي: "كان هناك يهودي في روما، رجل لا إله له لحد بعيد، كان قد اتهم بعدة انتهاكات في مسقط رأسه، وأصبح هارباً ليتفادى العقوبة. هذا الرجل أعد نفسه ليصبح معلماً للشريعة الموسوية، ومنضماً مع ثلاثة شركاء أغوى فلڤـيا، وهي سيدة أرستقراطية اعتنقت الإيمان اليهودي، ووضعت نفسها رهن تعليماته، بأن تقدم هدية تتكون من الذهب والأرجوان إلى الهيكل في أورشليم. عندما تلقوا هذه الهدية من السيدة استخدموها لأنفسهم، لأنه لم يكن لهم غرض آخر. اشتكى ساتورنينوس، زوج فلڤـيا، من هذا لصديقه الإمبراطور طيباريوس، بناء على طلبها، وأمر طيباريوس على الفور بنفي كل اليهود من روما. جعل أربعة آلاف يهودي جنوداً وأرسلوا إلى ساردينيا" [3].

هذه القصة نموذجية في بيان ميل السيدات المتميزات في مجتمع البلاط الإمبراطوري لاعتناق اليهودية. إذا كانت هذه الحادثة قد خدمت كفرصة لاتخاذ مثل هذه الإجراءات القاسية ضد مجمل اليهود في روما، فلم يكن من الممكن بالتأكيد

---

43 مومسن، **ولايات الإمبراطورية الرومانية**، لندن، 1886، المجلد الثاني، ص ص 191- 194.
44 كان كاوتسكي يكتب عام 1908 المترجم عن النص الألماني.
45 الآثار، 18، 3، 8.

أن تكون السبب الحقيقي بالنسبة لهم. لم يكن جايوس كاليجولا أقل عداء كما رأينا آنفاً. طرد اليهود في ظل كلاوديوس (41- 54 ب.م) كما يفيد سويتنيوس (كلاوديوس، الفصل الخامس والعشرون)، فقد أثاروا اضطرابات تحت قيادة من يدعى خريستوس. لم يكن الأخير يهوديًا بالمولد، وإنما إغريقي تحول إلى اليهودية. تخدم هذه الحادثة مرة أخرى كمثال توضيحي على كل من كراهية اليهود وكذلك على قوة الدعاية اليهودية.

ه أورشليم

من الظاهر أن هذا الموقف تجاه اليهود من جانب الطبقات الحاكمة وكذلك الناس أنفسهم لابد وأن جعل اليهود يتطلعون بتوق ناحية أورشليم ومحيط بلدها، الركن الوحيد في العالم الذي كانوا فيه على الأقل بقدر ما سادة منازلهم، التي يكون فيها مجمل السكان من اليهود، الركن الوحيد الذي كان على الإمبراطورية العظيمة الموعودة أن تنبثق منه، وحيث المخلص الذي تطلعوا إليه سوف يؤسس مملكة يهودية. وهذا، بالرغم من الاستحالة المتزايدة لإيجاد وسائل كافية للعيش في وطنهم الأم.

بقيت أورشليم المركز، وظلت عاصمة اليهودية، تنمو مع نمو الأخيرة. أصبحت مرة أخرى مدينة ثرية، مدينة من حوالي 200000 من السكان، ولكنها لم تعد تؤسس عظمتها وثروتها على القوة الحربية أو تجارة شعوب فلسطين، كما كانت في ظل داود وسليمان، وإنما فقط على هيكل يهوه، كل يهودي، لا يهم أين قد يعيش، كان عليه أن يسهم في الحفاظ عليه، لهذا الغرض كان مضطرًا أن يدفع سنويًا ضريبة معبد، دراخمة مضاعفة، كانت ترسل إلى أورشليم.

أضف إلى ذلك، تلقى الحرم كثيرًا من الهدايا الاستثنائية الأخرى. لم تكن مثل هذه الهدية تبدد مثل الهدايا الثمينة التي أخذها المحتالون اليهود من فلڤيا، طبقاً ليوسيفوس. لكن إضافة لهذا، كان كل يهودي ورع مضطرًا مرة واحدة في حياته على الأقل لأن يقوم بالحج إلى المكان الذي سكن فيه إلهه والذي كان المكان الوحيد الذي يتلقى الرب فيه هذه التقدمات. كانت معابد اليهود في مختلف المدن خارج أورشليم أماكن للتجمع والصلاة فقط. وكذلك مدارس، ولكن ليست معابد تصنع فيها التقدمات إلى يهوه. أدت ضرائب المعبد والحجاج بالضرورة بكميات ضخمة من النقود إلى أورشليم وأعالت عددا كبيرا من الأشخاص العاملين على نحو مجز. عاش مباشرة أو غير مباشرة، ليس فقط، كهنة الهيكل والكتبة على عبادة يهوه، إنما حتى البدالين

والصيارفة، الحرفيون، المزارعون، الفلاحون، مربو الماشية، الصيادون من يهوذا والجليل، الذين وجدوا في أورشليم سوقًا ممتازًا لقمحهم وعسلهم، لحملانهم وجديانهم، وكذلك للسمك الذي كان يجري اصطياده على ساحل البحر وفي بحيرة جينيسارت(بحر الجليل)، وارسل مجففًا او مملحًا إلى أورشليم. حينما وجد يسوع باعة ومشترين في الهيكل، صيارفة وبائعي حمام، كان هذا يتفق تمامًا مع المهمة التي أوليت للهيكل من أجل أورشليم.

إن ما كان قد صُوِّر في الأدب اليهودي باعتباره وضع الأسلاف الأقدم، كان حقيقيًا بالفعل عن الفترة التي انتج فيها هذا الأدب: عاش كامل السكان اليهود الآن بالمعنى الحرفي على عبادة يهوه، وكانوا مهددين بالدمار بمجرد أن تخمد هذه العبادة، او حتى تتخذ اشكالاً مختلفة. لم يكن هناك افتقار في محاولات تأسيس أماكن أخرى لعبادة يهوه في أورشليم.

وهكذا فإن (شخصًا) يدعى اونياس، ابن حبر يهودي، اقام معبدًا ليهوه في مصر في ظل بطليموس فيلوميتر (173- 146 ق.م)، بمساعدة الملك، الذي توقع ان يكون اليهود أكثر رعاياه أخلاصًا إذا كان لهم معبد يختصون به في بلده.

ولكن المعبد الجديد لم يحرز اي اهمية، ويحتمل لأن غرضه كان ان يضمن فقط ولاء يهود مصر كرعايا مخلصين. استمروا في البقاء غرباء في مصر، اقلية يجرى التسامح معها: كيف يمكن ان يظهر مخلصهم من مصر، الذي كان عليه ان يأتي بالاستقلال والعظمة القومية لشعبهم؟ ولكن كان الإيمان بالمخلص واحدًا من اقوى الدوافع المحركة في عبادة يهوه.

كان وجود معبد منافس ليس بعيدًا عن أورشليم على جبل جرزيم بالقرب من شكيم، الذي كان قد بني من قبل الطائفة السامرية غير ملائم تمامًا، كما يروي يوسيفوس، في زمن الإسكندر الأكبر وفقًا لشورر، قرن أسبق حيث قامت الطائفة بعبادتها ليهوه. ليس مما يثير الدهشة ان اشد العداوات حدة نشأت بين هذين المتنافسين. ولكن كان العمل المؤسس القديم غنيًا جدًا وتمتع بسمعة رفيعة حتى ليتأثر كثيرًا بالمشروع الأصغر. بالرغم من كل دعاية السامريين فإنهم لم يتزايدوا بسرعة كما فعل اليهود الذين اعتبروا أن إلههم سكن في أورشليم.

ولكن كلما أعيق الاحتكار في أورشليم كلما راقب السكان اكثر "نقاوة" عبادتهم وكلما عارضوا على نحو أكثر تعصبًا اي جهد لتغيير اي شيء بشأنها، او الذهاب

بعيدًا إلى حد فرض تغيير عليها بالقوة. من هنا التعصب الديني وعدم التسامح الديني ليهود اورشليم، وهما بمثل هذا التضاد الغريب مع الليبرالية الدينية للأمم الأخرى لذالك الزمن. اعتبرت الأمم الأخرى آلهتهم وسائل لتفسير الظواهر الغريبة، وايضًا كوسيلة للعزاء والعون في الحالات التي بدت فيها القوة الإنسانية غير كافية. ولكن لاذ يهود فلسطين بإلههم باعتباره الوسيلة التي يتعيشون منها. كان لديهم الآن موقف تجاه الرب الذي هو عادة موقف كهنته فقط. اصبح التعصب الكهنوتي في فلسطين تعصب مجمل السكان.

ولكن بالرغم من ان هؤلاء السكان كانوا متحدين في الدفاع عن عبادة يهوه، وبالرغم من انهم عارضوا كرجل واحد من حاول أن ينتهكها، بالرغم من ذلك فقد شعروا بالتمايزات الطبقية، حتى أورشليم لم تتفاداها. سعت كل طبقة لإرضاء يهوه وحماية هيكله بطريقة او بأخرى. وكانت كل طبقة تنتظر، على طريقتها، المخلص الذي كان سيأتي.

و الصدوقيون

يروي يوسيفوس في الفصل الثامن من الكتاب الثاني من تاريخه عن الحرب اليهودية، أن هناك ثلاث تيارات بين اليهود؛ الفريسيون، والصدوقيون، والإسينيون. فيما يتعلق بالأولين ينطلق في القول:

"بالنسبة إلى الطائفتين الأخريين، يُعتقد ان الفريسيين يفسرون الشريعة على نحو اكثر صرامة. لقد كانوا اول من شكل طائفة اعتقدت ان كل شيء محدد بالقدر وبالرب فقط. في رايهم قد يتوقف بالفعل على الإنسان ما إذا كان يصنع الخير أم الشر، ولكن للقدر اثر على افعال الإنسان. ويعتقدون، فيما يتعلق بروح الإنسان، انها خالدة، وان أرواح الخيرين سوف تدخل في اجساد جديدة، بينما (اجساد) الأشرار سوف تعذب بمعاناة أبدية.

الطائفة الأخرى هي الصدوقيون. وهم ينكرون ان للقدر اي اثر على الإطلاق ويعلنون ان الرب لا يلام على الأفعال الخيرة او الشريرة للفرد، فالإنسان مسئول عنها حيث انه يقوم بالأفعال الخيرة ويمتنع عن الأفعال الشريرة، بالتوافق مع إرادته الحرة الخاصة. وهم ينكرون ايضًا ان الأرواح خالدة وانه سوف تكون هناك اية مكافأة او عقاب بعد الموت.

"الفريسيون خيرون ويحاولون أن يعيشوا في اتفاق مع جماهير الشعب. الصدوقيون، من ناحية أخرى، قساة حتى الواحد منهم مع الآخر، وصارمون فيما يتعلق بكل من مواطنيهم وكذلك تجاه الغرباء".

تصور هذه الطوائف هنا باعتبارها تجسد وجهات نظر دينية معينة. ولكن بالرغم من أن التاريخ اليهودي قد درس لهذا المدى تقريبًا على نحو حصري من قبل اللاهوتيين الذين تمثل الديانة لهم كل شيء بينما التضادات الطبقية لا تعد شيئًا، حتى هؤلاء المؤرخين قد اكتشفوا أن التضاد بين الصدوقيين والفريسيين ليس في الأساس (تضادًا) دينيًا، وإنما تضادًا طبقيًا، عداوة يمكن أن تقارن بتلك (العداوة) التي بين النبالة والطبقة الثالثة قبل الثورة الفرنسية.

كان الصدوقيون ممثلي النبالة الكهنوتية، التي أحرزت السيطرة على الدولة اليهودية، ومارست هذه السلطة، أولاً في ظل الهيمنة الفارسية، وفيما بعد في ظل (هيمنة) خلفاء الإسكندر الأكبر. كانت هذه الكهانة سيدة مطلقة للهيكل. عبر سيطرتها على الهيكل حكمت أورشليم إضافة إلى كل اليهودية. كانت للكهانة كل الضرائب التي تدفع للهيكل، ولم تكن بأية حال طفيفة. حتى المنفى، بالطبع، كانت عائدات الكهانة متواضعة وغير منتظمة، ولكن منذ هذا الوقت فصاعدًا تزايدت إلى حد هائل. لقد ذكرنا سلفًا ضريبة الدراخمة المزدوجة (أو نصف الشاقل الذي يساوي حوالي أربعون سنتًا من النقد الأمريكي). حيث كان على كل يهودي ذكر، غنيًا أو فقيرًا يتجاوز من العمر عامين، أن يدفعها سنويًا إلى الهيكل، لقد ذكرنا أيضًا الهدايا التي تفيض إلى الهيكل. سوف نعطي بعض أمثلة فقط لنشير إلى الكميات التي تلقاها الهيكل. صادر ميتراداتس في إحدى المناسبات ثمانمائة تالنت في جزيرة كوس، كانت مخصصة للهيكل" [1].

يقول شيشرون في خطبة القيت في 59 ق.م دفاعًا عن فلاكوس، الذي كان حاكمًا لولاية آسيا قبل عامين: "حيث أن نقود اليهود تتسرب خارج إيطاليا وكل الولايات كل عام لدفعها إلى أورشليم، أمر فلاكوس بعدم تقديم أي نقود (إلى أورشليم) من ولاية آسيا (غربي آسيا الصغرى)". يواصل شيشرون روايته بأن فلاكوس صادر الأموال المخصصة للهيكل التي تجمعت في مدن مختلفة في آسيا الصغرى، وقد صادر في أفامية وحدها مائة رطل من الذهب.

---

46 يوسيفوس، **الآثار**، 14، 7؛ تالنت 1100 جنيه إسترليني.

أضف إلى ذلك، كانت هناك الأضاحي. سابقًا كان هؤلاء الذين يصنعون التقدمات يستهلكونها في احتفال فرح، قد يشترك فيه الكاهن فقط. ولكن يجري بعد المنفى تحديد نصيب هؤلاء الذين يصنعون الأضاحي أكثر فأكثر بينما تزايد (نصيب) الكهنة. بعد أن كان إسهامًا في مأدبة مرحة، تستهلك من قبل المانحين أنفسهم في صحبة مفرحة، وأن تكون سرورًا ليس فقط للرب وإنما أيضًا للإنسان، تصبح هذه الهدية مجرد ضريبة نوعية، يطلبها الرب لنفسه، أي، الكهنة، وتزايدت كمية هذه الضريبة أكثر فأكثر. ليس فقط التقدمات في الحيوانات ومواد الأغذية الأخرى تخص الآن أكثر فأكثر الكهنة على سبيل الحصر ولكن كانت قد أضيفت مدفوعات العشور (الجزء العاشر) من كل المدفوعات الزراعية وكذلك مدفوعات البكر من كل حيوان. البكر من كل حيوان "طاهر"، الماشية، الماعز، بمعنى آخر، مثل هذه الحيوانات التي كانت تؤكل، كان يجب أن تُدفع عينًا في بيت الرب. ويمكن أن تستبدل الحيوانات "النجسة" الجياد، والبغال، والإبل بالنقود، كما كان الحال أيضًا مع البكر البشري الذكر، حيث كان يُدفع للأخير خمس شواقل.

هذا يعطينا فكرة طيبة عن كم حصلت الكهانة اليهودية من الشعب، وتزايدت هذه الكميات فيما بعد، وهكذا فإن الجزء الثالث من شاقل سرعان ما جرت زيادته إلى نصف شاقل، كما أشير في نحميا الإصحاح العاشر، 32- 39:

"وأقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل كل سنة لخدمة بيت إلهنا.. وألقينا قرعًا على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب لإدخاله إلى بيت إلهنا حسب بيوت آبائنا في أوقات معينة سنة فسنة لأجل إحراقه على مذبح الرب إلهنا كما هو مكتوب في الشريعة ولإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل شجرة سنة فسنة إلى بيت الرب وأبكار بنينا وبهائمنا كما هو مكتوب في الشريعة وأبكار أبقارنا وغنمنا لإحضارها إلى بيت إلهنا إلى الكهنة الخادمين في بيت إلهنا وأن نأتي بأوائل عجيننا ورفائعنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة إلى مخادع بيت إلهنا وبعشر أرضنا إلى اللاويين واللاويون هم الذين يعشرون في جميع مدن فلاحتنا. ويكون الكاهن ابن هرون مع اللاويين حين يعشر اللاويون ويصعد اللاويون عشر الأعشار إلى بيت إلهنا إلى المخادع إلى بيت الخزينة. لأن بني إسرائيل وبني لاوي يأتون برفيعة القمح والخمر والزيت إلى المخادع وهناك آنية القدس والكهنة الخادمون والبوابون والمغنون ولا نترك بيت إلهنا".

من الواضح أن هذا الهيكل لم يكن ليقارن تمامًا مع صرح كنيسة. لقد اشتمل على مخازن ضخمة، احتوت مخزونًا عظيمًا من المنتجات الطبيعية، وأيضًا من الذهب والفضة. وفقًا لذلك كان لابد أن يحصن بقوة وأن يحرس جيدًا. كان يعتبر مثل المعابد الوثنية مكانًا تحفظ فيه النقود والممتلكات جيدًا بصفة خاصة. وبطريقة مماثلة، من ثم، فقد كان غالبًا ما يستعمل حتى من الأشخاص الخاصين كمكان تودع فيه كنوزهم. من المحتمل أن يهوه لم يأخذ على عاتقه القيام بهذه الوظيفة كبنك إيداع دون مكافأة.

أيًا ما كان الأمر، فمن المؤكد أن ثروة كهانة أورشليم قد تزايدت إلى حد ضخم. استغل ماركوس كراسوس، الزميل المتآمر مع قيصر، الذي تعرفنا إليه سلفًا، هذا الظرف حينما شرع في حملته اللصوصية ضد الفرثيين، ففي رحلته، عرج على أورشليم ووضع في جيبه كنوز الهيكل اليهودي.

"حينما كان كراسوس على وشك أن يبدأ رحلته ضد الفرثيين، أتى إلى يهوذا وأخذ كل النقود (χρηματα) من الهيكل، التي تركها بومبي لم تمس، ألفي تالنت، وكذلك الذهب غير المسبوك، الذي بلغ ثمانية آلاف تالنت. أضف إلى ذلك، أنه سرق قضيبًا من الذهب يزن ثلاثمائة ميناي، ولكن المينا عندنا تزن رطلان ونصف" [1].

يبلغ هذا حوالي اثني عشر مليون دولار إجمالاً: مع ذلك سرعان ما ملئ المعبد بالذهب مرة أخرى.

كانت عضوية الكهانة مقصورة على عائلات معينة. لقد شكلت أرستقراطية بالمولد، كان داخلها هذا المنصب وراثيًا. وفقًا ليوسيفوس، الذي يشير إلى هيكاتيوس (جدال ضد أبيون، 1، 22)، "هناك ألف وخمسمائة كاهن يهودي يتلقون الضرائب ويديرون الجماعة".

نشأ تدريجيًا وسط هذه الكهانة انقسام بين أرستقراطية عليا ودنيا. تمكنت عائلات معينة من أن تنتحل لنفسها سلطة الحكومة الكاملة بشكل دائم، وهكذا زادت من ثروتها، التي عنت بالمقابل زيادة أكثر في نفوذها. لقد شكلت عصبة متماسكة بحزم التي عينت دائمًا الحاخام الأعلى من مراتبها الخاصة. ومتنت سلطتها باستئجار المرتزقة وبالدفاع عن سلطتها ضد الكهنة الآخرين، التي نجحت في إنزالهم لمركز أدنى.

---

47 يوسيفوس، الآثار، 14، 7.

وهكذا يروي يوسيفوس: "حوالي هذا الوقت منح الملك أجريبا الحاخامية لإسماعيل، ابن فابي، ولكن الحاخامات دخلوا في صراع مع الكهنة وكبار الشعب في أورشليم. كل واحد أحاط نفسه بعصابة من الأشخاص الخارجين عن القانون والمزعجين، وصار قائدهم. وكان لهم عرضًا منازعات كلامية، قدح فيها الواحد في الآخر ورموا حجارة الواحد على الآخر. لم يكن أحد قادرًا على إيقافهم، لقد بلغت افعالهم حدًا من العنف وصل إلى المدى الذي بدا فيه بأنه لم تكن هناك سلطة في المدينة. اصبح الحاخامات اخيرًا متهورين للغاية إلى حد انهم لم يترددوا في إرسال جنودهم إلى الأهراء، لينتزعوا العشور التي تخص الكهنة، حتى مات بسبب ذلك بعض الكهنة المفقرين جوعًا" [1].

بالطبع لم تصبح الظروف سيئة هكذا حتى جرى بلوغ المراحل الأخيرة للمجتمع اليهودي.

ولكن منذ بداياتها الأولى، رفعت الأرستقراطية الكهنوتية نفسها فوق جماهير الشعب واصبحت مشربة بنظرات واهواء معارضة (لنظرات واهواء) الشعب، خاصة المنسوبة للسكان اليهود في فلسطين. اصبح هذا واضحًا بصفة خاصة في سياستها الخارجية.

لقد راينا أن فلسطين، بسبب وضعها الجغرافي، كانت خاضعة دومًا للحكم الأجنبي او على الأقل لخطر الحكم الأجنبي. كانت هناك طريقتان يمكن بها مقاومة هذا الوضع أو على الأقل إضعافه: الديبلوماسية أو الانتفاض بالقوة.

حينما كانت الإمبراطورية الفارسية ما زالت قائمة، لم تعد أيًا من هاتين الطريقتين بأي نجاح، ولكن الموقف اصبح مختلفًا تمامًا بعد أن دمر الإسكندر هذه الإمبراطورية. تحلل الشكل الجديد للدولة الذي اقامه مكانها بعد موته ومرة أخرى نجد إمبراطورية سورية بابلية تناضل ضد إمبراطورية مصرية من أجل السيادة على إسرائيل. ولكن كلتاهما الآن حكمتا من قبل إمبراطوريتين إغريقيتين، واحدة من قبل السلوقيين، والأخرى من قبل البطالمة، واصبحت كلتاهما مشربتان اكثر فأكثر بالروح الإغريقية.

---

48 يوسيفوس، الآثار اليهودية، 20، 8، 8، انظر ايضًا 9، 2.

لقد بدا غير ذي جدوى محاولة هزيمة أي من هاتين القوتين بوسائل عسكرية؛ ولكن كان الأكثر إمكانًا هو الحصول على مكاسب من خلال ديبلوماسية ذكية، بالانضمام للأقوى محققة هكذا وضعًا متميزًا كجزء من إمبراطورية الأخير. ولكن بسبب كراهية الأجانب ورفض الحضارة اليونانية الأرقى، وأدوات سلطتها، لم يجر القيام بهذا، أضف إلى ذلك، فقد كان من الضروري امتصاص هذه الحضارة.

كانت الأرستقراطية في أورشليم مدفوعة في اتجاه قبول الثقافة الإغريقية، بسبب معرفتها بالأشياء الأجنبية، التي كانت ميزة نالتها بسبب وضعها الاجتماعي مقارنة بجمهور السكان؛ ولكن دفعتها ثروتها أيضًا في هذا الاتجاه. لم تزدهر الفنون المنتجة، وكذلك فنون المتعة، في فلسطين؛ ولكن الأغارقة بلغوا بهذه الفنون مستوى تجاوز أي شيء تحقق في أي بلد في هذا الزمن أو لعدة قرون فيما بعد. كانت الطبقات الحاكمة لكل الأمم، حتى لروما المنتصرة، تستعير أشكال الأبهة والاستمتاع بالحياة من بلاد الإغريق. تمامًا كما جرى تبني الأشكال الفرنسية في القرن الثامن عشر من قبل كل المستغلين الأوروبيين.

مع تزايد استغلال اليهود من قبل أرستقراطيتهم، ومع الثروة المتنامية للأخيرة، اصبحت هذه الأرستقراطية اكثر توقًا للثقافة الهيلينية.

وهكذا، ينوح الكتاب الأول من المكابيين فيما يتعلق بفترة أنطيوخس إبيفانس (175- 164 ق.م):

"وفي تلك الأيام خرج من إسرائيل منافقون فأغروا كثيرين قائلين هلم نعقد عهدا مع الأمم حولنا فإنا منذ انفصلنا عنهم لحقتنا شرور كثيرة. فحسن الكلام في عيونهم وبادر نفر من الشعب وذهبوا إلى الملك فأطلق لهم أن يصنعوا حسب أحكام الأمم. فأبتنوا مدرسة في أورشليم على حسب سنن الأمم (بمعنى آخر، مجتلد ظهر فيه مصارعون عراة). وعملوا لهم غُلَفًا وارتدوا عن العهد المقدس ومازجوا الأمم وباعوا أنفسهم لصنع الشر"..

كان هناك أشخاص شريرين غاية في الشر، صنعوا لأنفسهم قلفًا اصطناعية، لقد أنكروا حتى أسمائهم اليهودية، واستبدلوها بأسماء إغريقية. حاخام دُعي يسوع سمى نفسه جاسون، حاخام آخر دعي إلوخيم سمى نفسه الكيموس، (واحد يدعى) منسي أعاد تسمية نفسه مينيلاوس.

ولكن تأذت جماهير الشعب اليهودي بسبب هذا التشجيع للأساليب الهيلينية الأجنبية. لقد اشرنا عدة مرات إلى كيف كان ضئيلاً تطور الصناعة والفن في يهوذا. عني تقدم التأثير الهيليني إدخال منتجات أجنبية محل المنتجات المحلية. ولكن الهيليني اتى دائمًا كمضطهد ومستغل، سواء جاء كملك سوريا أو ملك مصر. يهوذا التي استُنزفت حتى الجفاف بالفعل من قبل أرستقراطيتها شعرت بشكل طبيعي أن الجزية ستكون عبئًا أعظم حيث كان ينبغي الآن أن تدفع إلى الملوك الأجانب ورسمييهم. وتمكن الأرستقراطيون كقاعدة من أن يقوا أنفسهم بجعل أنفسهم يعينون كممثلين وجباة ضرائب للسادة الأجانب؛ أضف إلى ذلك، فقد كانوا قادرين على الإثراء بتطبيق ممارسات ربوية على هؤلاء المضطهدين بالضرائب. ولكن شعر الناس بعبء الحكم الأجنبي فقط.

جرى هذا بالفعل في ظل الحكم الفارسي، كما وصف بدقة شديدة في تقرير قدمه اليهودي نحميا، الذي عينه الملك أرتاكسيركيس ليكون حاكمه في يهوذا (445ق.م) وهو يعطينا السجل التالي عن نشاطاته الخاصة:

"وكان صراخ الشعب ونساؤهم عظيمًا على أخوتهم اليهود. وكان من يقول بنونا وبناتنا نحن كثيرون. دعنا نأخذ قمحًا فنأكل ونحيا. وكان من يقول حقولنا وكرومنا وبيوتنا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحًا في الجوع. وكان من يقول استقرضنا فضة لخزاج الملك على حقولنا وكرومنا. والآن لحمنا كلحم أخوتنا وبنونا كبنيهم وها نحن نخضع بنينا وبناتنا عبيدًا ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيء في طاقة يدنا وحقولنا وكرومنا للآخرين.

فغضبت جدًا حين سمعت صراخهم وهذا الكلام. فشاورت قلبي وبكت العظماء والولاة وقلت لهم إنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه وأقمت عليهم جماعة عظيمة. وقلت لهم نحن اشترينا إخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم حسب طاقتنا. وأنتم أيضًا تبيعون إخوتكم فيباعون لنا. فسكتوا ولم يجدوا جوابًا. وقلت ليس حسنًا الأمر الذي تعملونه أما تسيرون بخوف إلهنا بسبب تعيير الأمم أعدائنا؟ وأنا أيضًا وإخواتي وغلماني أقرضناهم فضة وقمحًا. فلنترك هذا الربا. ردوا لهم هذا اليوم حقولهم وكرومهم وزيتونهم وبيوتهم والجزء من مئة الفضة والقمح والخمر والزيت الذي تأخذونه منهم ربا. فقالوا نرد ولا نطلب منهم. هكذا نفعل كما تقول. فدعوت الكهنة واستحلفتهم أن يعملوا حسب هذا الكلام. ثم نفضت حجري وقلت هكذا ينفض الله

كل إنسان لا يقيم هذا الكلام من بيته ومن تعبه وهكذا يكون منفوضًا وفارغًا. فقال كل الجماعة آمين وسبحوا الرب. وعمل الشعب حسب هذا الكلام.

وأيضًا من اليوم الذي اوصيت فيه أن أكون واليهم في أرض يهوذا من السنة العشرين إلى السنة الثانية والثلاثين لارتحشستا الملك اثنتي عشرة سنة لم آكل أنا ولا إخوتي خبز الوالي. ولكن الولاة الأولون الذين قبلي ثقلوا على الشعب وأخذوا منهم خبزًا وخمرًا فضلاً عن أربعين شاقلاً من الفضة حتى إن غلمانهم تسلطوا على الشعب. وأما أنا فلم أفعل هكذا من أجل خوف الله. وتمسكت أيضًا بشغل هذا السور (جدران مدينة أورشليم) ولم اشتر حقلاً. وكان جميع غلماني مجتمعين هناك على العمل. وكان على مائدتي من اليهود والولاة مائة وخمسون رجلاً فضلاً عن الآتين إلينا من الأمم التي حولنا. وكان ما يعمل ليوم واحد ثورًا وستة خراف مختارة. وكان يعمل لي طيور وفي كل عشرة أيام كل نوع من الخمر بكثرة. ومع هذا لم أطلب خبز الوالي لأن العبودية كانت ثقيلة على هذا الشعب. أذكر لي يا إلهي للخير كل ما عملت لهذا الشعب"[1].

مدح للذات كهذا ليس أمرًا غير اعتيادي في الوثائق القديمة، خاصة في الشرق. ولكن سوف يكون من المغالاة إذا افترضنا دائمًا أن الرسمي المعني قد استحق فعلاً وكذلك من شعبه ما تظهره قصته المتبجحة. ولكن شيء واحد نتبينه بوضوح من خلال هذه الحكايات، أي: الطريقة التي استغل واضطهد بها الحكام والنبلاء الشعب كقاعدة. لم يكن لدى نحميا سبب ليتبجح بأفعاله إذا لم يكن قد اعتبرها استثنائية. لن يعلن أحد بتبجح أنه لم يسرق ملاعق شاي (مصنوعة) من الفضة إذا لم تكن مثل هذه السرقات شيئًا منتظم الحدوث في المجتمع الذي هو جزء منه.

عدلت ضرائب فلسطين في ظل الملوك السوريين والمصريين. وكان جابي الضرائب كقاعدة هو الحاخام. ولكنه واجه عرضًا منافسون من طبقته، وعندئذ كان هناك دائمًا شجار وسط الكهانة الموقرة.

من ثم، كان لدى جمهور الشعب في يهوذا سبب أكبر بما لا يقاس لمعارضة الحكم الأجنبي أكثر مما فعلت الأرستقراطية التي استفادت منه. أثير غضبهم تجاه الأجانب إلى مدى أبعد بجهلهم انحياز القوى الحقيقي. لم يعرف جمهور اليهود في

---

49 نحميا، 5، 1- 19.

فلسطين كيف كانت قوة الخصم أرقى إلى حد هائل. لكل هذه الأسباب احتقروا الدبلوماسية وطلبوا الإطاحة بالنير الأجنبي بالقوة. ولكنهم لم يذهبوا أبعد من هذا؛ لم يتحدثوا عن نير الأرستقراطية. كانت الأخيرة عبئًا ثقيلاً على الشعب، ولكن بعد كل شيء، ففي كل من أورشليم والريف المجاور، حصل الناس معاشهم بسبب الهيكل، بسبب مغزى عبادته وكهانته. من ثم، فإن كامل الغضب الذي سببه بؤسهم كان مركزًا بالضرورة على المستغلين الأجانب فقط. تحولت الديمقراطية إلى شوفينية.

بسبب انعطاف مواتٍ في الأحداث، توجت انتفاضة لهذا الشعب الصغير ضد قاهريه العتاة بالنجاح في إحدى المناسبات كما أشرنا سلفًا، جرى هذا الحدث في الزمن، الذي كانت فيه إمبراطورية السلوقيين مضطربة بعمق، بسبب الحرب الداخلية، وكانت منخرطة في عملية تحلل كامل، مثل (عملية تحلل) البطالمة، بينما كانت كلتا الإمبراطوريتين تقاتل الواحدة الأخرى بشراسة، وتمهدان الطريق لإخضاعهما الكامل من قبل حكام الشرق والغرب الجدد، الرومان.

مثل أي نظام مضمحل، زاد هذا النظام من إجراءاته القمعية، التي انتجت مقاومة على نحو طبيعي. أصبح موقف الوطنية اليهودية متمردًا أكثر فأكثر ووجد مركزه وقيادته في تنظيم الحسيديين ASIDOEANS.

ربما كان سفر دانيال واحدًا من منتجات النشاط الحسيدي، لقد كتب حولي هذا الوقت (بين 176 و164 ق.م)، وهو كتيب يتنبأ للمضطهدين بأن إسرائيل سرعان ما ستنهض وتحرر نفسها. ستكون إسرائيل منقذة نفسها، مخلص نفسها. هذه هي سلسلة كتيبات الدعاية الخلاصية التي أعلنت هزيمة الحكم الأجنبي وانتصار اليهود، تحررهم وسيادتهم على أمم الأرض.

ولكن في سفر دانيال، ما زال يعبر عن هذه الفكرة في شكل ديموقراطي. ما زال المخلص يصور مثل الشعب نفسه باعتباره "شعب قديسي العلي" والمملكة والسلطان، وعظمة المملكة تحت كل سماء تعطي لشعب القديسي العلي. ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون" [1].

سرعان ما ظهر أن هذه النبوءة الخلاصية قد انجزت على نحو رائع. كانت حرب العصابات ضد المضطهدين تتخذ ابعادًا اعظم فأعظم، إلى ان نجم رؤساء بيت

---

50 دانيال، 7، 27.

الحشمونيين المحظوظين، بمن فيهم في المحل الأول يهوذا المكابي، وشرعوا في إثبات همتهم في الصراعات في المعارك المكشوفة مع القوات السورية، وأخيرًا في غزو أورشليم، التي كان يسيطر عليها السوريون. أصبحت يهوذا حرة ووسعت حتى حدودها. بعد أن سقط يهوذا المكابي (160ق.م)، كان لدى أخوه شمعون ما يكفي من الشجاعة لينجز مهمة حققها قبل ذلك قادة عديدين للديمقراطية. فبعد أن انتزع الحرية لشعبه بواسطة حرب ناجحة، سلب هذه الحرية ووضع التاج على رأسه الخاص. أو بالأحرى، سمح شمعون للشعب بأن يضع التاج على رأسه. قرر تجمع عظيم من الكهنة والشعب (141ق.م) انه يجب ان يكون حاخامًا، سيدًا أعلى للحرب، واميرًا للشعب (archiereus, strategos and ethnarches, 141 B. C). هكذا اصبح شمعون مؤسس السلالة الحشمونية. من المحتمل انه شعر كيف كان الاستقلال الذي أحرز حديثًا غير آمن، لأنه اندفع لالتماس دعم أجنبي. نجد في عام 139 وفدًا، أرسله إلى روما، بغرض أن يطلب من الرومان أن يضمنوا (أمن) المنطقة اليهودية. كان هذا هو الوفد الذي أشرنا إليه سلفًا، الذي جرى ترحيل بعض أعضائه بسبب نشاطاتهم التبشيرية، لكن الوفد حقق غرضه.

ولكن شمعون لم يتخيل أن هذا الحكم سوف يكون لمدة قصيرة، حتى تبين له أن أصدقاء يهوذا الجدد هم أشد الأعداء خطرًا، فقد كان مقدرًا لهم في النهاية أن يدمروا الدولة اليهودية إلى الأبد. ما دامت هناك حروب رومانية جارية بين مختلف القادة الرومان، كان مصير يهوذا ما زال متقلبًا. غزا بومبي أورشليم في 63 ق.م، وأخذ أسرى حرب كثيرين وأرسلهم إلى روما كعبيد؛ وقصر المنطقة اليهودية على يهوذا، والجليل، وبيرايا PERAEA وفرض جزية على اليهود. نهب كراسوس الهيكل في 54 ق.م، بعد هزيمته، تمرد اليهود ضد الرومان في الجليل، وأُخمدوا، بيع كثير من السجناء كعبيد، عامل قيصر، بدوره، اليهود بشكل أفضل، جعلهم أصدقاءه. خربت الحروب الأهلية بعد موت قيصر يهوذا أيضًا وفرضت عليهم أعباء ثقيلة. بعد انتصار أغسطس، بدا الأخير ثانية، مُحبذًا لليهود، ولكن يهوذا بقيت معتمدة على الرومان، احتلت مرة أخرى بواسطة الفيالق الرومانية، وباتت تحت إشراف روما وأخيرًا تحت الإدارة المباشرة للرسميين الرومان، وقد رأينا سلفًا كيف أن هؤلاء الرفاق المرحين قد (انهمكوا) في اللهو في المقاطعات التي استنزفوها تمامًا حتى الجفاف. نمت العداوة من ثم ضد الرومان بسرعة، خاصة بين جماهير السكان، الملوك الدمى والأرستقراطيون الكهنوتيون الذين حكموهم حاولوا أن ينالوا عطف السادة الرومان الجدد، كما انهم حاولوا أن

يداهنوا السادة الرومان قبل الانتفاضة المكابية، رغم أنه لابد وأن كثيرًا منهم قد كرهوا الأجانب بمرارة في أعماق قلوبهم. ولكن حزبهم، (حزب) الصدوقيين، كان جديرًا بتقديم مقاومة أقل من الحزب الديموقراطي الوطني، أي (حزب) الفريسيين.

يروي يوسيفوس فيما يتعلق بفترة باكرة جدًا، تعود لعام 100ق.م في آثاره: "كان الأغنياء في جانب الصدوقيين، ولكن جمهور الشعب مال إلى الفريسيين" (13، 10، 6) وهو يخبرنا أيضًا فيما يتعلق بفترة هيرود (زمن المسيح):

"ليس لطائفة الصدوقيين سوى اتباع قليلين، لكنهم الناس الأكثر تميزًا في البلد. على أية حال فإن أمور الدولة لا تدار وفق وجهات نظرهم. فبمجرد أن يحوزوا منصبًا عامًا عليهم ان يتصرفوا طوعًا أو كرهًا بالاتفاق مع وجهات نظر الفريسيين، وإلا لن يحتملهم الناس العاديين". (الآثار، 18، الأول 40).

كان الفريسيون يصبحون تدريجيًا الحكام العقليون للشعب اليهودي، آخذين مكان أرستقراطيتهم الكهنوتية.

ز الفريسيون

لقد تعرفنا سابقًا، في الصراعات المكابية، بالورعين، الحسيديين. عقب بضعة عقود في ظل يوحنا هيركانوس (135- 104ق.م)، يظهر حملة هذا المذهب تحت اسم الفريسيين، حملة المذهب المعاكس يأخذون للمرة الأولى اسم الصدوقيين.

أصل الاسم الأخير ليس واضحًا، ربما كانت الكلمة مشتقة من (اسم) الكاهن صادوق، الذي أسميت الكهانة بعده سلالة الصدوقيين، الفريسيون (**perushim**) هم بالفعل المعتزلون، ولكنهم دعوا انفسهم "الرفاق" (**chaberim**) أو الشركاء.

يخبرنا يوسيفوس في إحدى المناسبات أنه كان هناك حوالي 6000 منهم وهذا يعد لحد بعيد تنظيمًا سياسيًا لمثل هذا البلد الصغير. وهو يروي في زمن هيرود (37- 4ق.م):

"ولكن عاش عندئذ أناس بين اليهود كانوا فخورين بمراعاتهم الصارمة لشريعة آبائهم، والذين اعتقدوا أن للرب تعلق خاص بهم. كان هؤلاء الناس يسمون فريسيون. كانت لهم سلطة عظيمة وكانوا قادرين بشكل أفضل على معارضة الملك، ولكنهم كانوا حكماء بما يكفي لينتظروا فرصة تبدو ملائمة لمثل هذه الانتفاضة. حينما

اقسم كامل الشعب اليهودي ان يكون مخلصًا للإمبراطور (أغسطس) وأن يطيع الملك هيرود، رفض هؤلاء الرجال ان يقسموا، وكان هناك منهم اكثر من 6000" [1].

لم يجرؤ المستبد القاسي الذي كان مستعداً دائمًا لأن يلجأ لعقوبة الإعدام ان يعاقب بقسوة هذا الرفض لأخذ قسم الخضوع، الذي هو علامة احترامه لنفوذ الفريسيين على جماهير الشعب.

اصبح الفريسيون السادة الروحيين للجماهير، وبين الفريسيين "الكتبة" أو الطبقة المثقفة، الذين يذكرون دائمًا في العهد الجديد كان الحاخامات (الحاخام/ الرِبي Rabbi =) هم المجموعة المهيمنة.

كانت طبقة المثقفين اصلاً هي الفئة الكهنوتية وسط اليهود وكذلك في كل مكان آخر في الشرق. ولكن عانت هذه الطبقة في يهوذا مصير كل أرستقراطية. ترافق مع تزايد ثروتها زيادة إهمالها للوظائف التي تأسس عليها مركزها المتميز. يمكن بالكاد أن يقال إنهم قد فعلوا اكثر من تنفيذ الاحتفاليات الروتينية للعبادة التي تخصهم. لقد اهملوا اكثر فأكثر انشطتهم العلمية، الأدبية، التشريعية، والقضائية، انتهاءً إلى وقوع الأخيرة كلية تقريبًا في أيدي العناصر المتعلمة المنبثقة من الشعب.

حازت الأنشطة القضائية والتشريعية اهمية خاصة. المجموعات التشريعية غير معروفة لأمم الشرق القديم. كل شريعتهم تأخذ شكل سابقة، من شريعة قديمة. مما لا ريب فيه قد يستمر التطور الاجتماعي، قد ينتج شروطًا جديدة، تتطلب صيغة قانونية جديدة، ولكن الشعور بأن الشريعة تبقى ابدًا نفس الشيء، اي من الرب، متجذر بشكل عميق في العقل الشعبي حتى ان الشرائع الجديدة تكون مقبولة برضى اكبر حين تتخذ شكل الشريعة الاعتيادية، الشريعة التقليدية، الموجودة منذ زمن لا تعيه الذاكرة. وتبدو جديدة فقط لأنها كانت مهجورة.

ابسط الوسائل في جعبة الطبقات الحاكمة لصنع شريعة جديدة تبدو كالشريعة القديمة هي تزوير الوثائق. إن كهانة يهوذا، كما رأينا سلفًا في حالات عديدة، استفادت من هذه الممارسة. لم يكن هذا صعبًا في بلد شعرت فيه الجماهير بأن طبقة حاكمة بمفردها هي التي ظهرت بصفتها خبيرة وحافظة للتقاليد الدينية. ولكن في البلدان التي كانت تنشأ فيها طبقة جديدة من أشخاص ذوي تعليم أدبي

---

51 الآثار، 17، 2، 4.

جانب الكهانة القديمة، فقد أصبح من الصعب تمامًا لأي من هاتين الطبقتين أن تحاول إدخال أي بدعة بوصفها عملاً خلقه موسى أو بعض الحجج الثقات في الأزمنة القديمة. لأن الطبقة المنافسة كانت تراقب بشدة ممارسات مثل هؤلاء المزورين.

هناك جهد لا ينقطع من جانب الحاخامات خلال القرنين السابقين على تدمير أورشليم من قبل الرومان لأن يسدوا الخرق في قانون الكتابات المقدسة الذي وضعته الكهانة وأن يزيدوه بإضافة نتاجات أدبية جديدة كان عليها أن تقدم باعتبارها قديمة، ومن ثم تستحق نفس الاحترام مثل الكتابات الأولى، لكن هذا الجهد لم يلق نجاحًا.

في جداله ضد ابيون (1، 7 و8) يفحص يوسيفوس جدارة الكتابات اليهودية بالتصديق: "لأنه ليس لكل إنسان الحق في أن يكتب كما يسره، لأن الحق يخص فقط الأنبياء الذين سجلوا بإخلاص أشياء الماضي في ظل وحي الرب، وكذلك أحداث زمنهم. لهذا السبب نحن لا نملك آلاف الكتابات، التي يناقض وينكر بعضها الآخر، ولكن اثنين وعشرين كتابًا فقط، التي تسجل الذي حدث منذ بدء العالم، وهي تعتبر عن حق من أصل إلهي"؛ أي كتب موسى الخمسة، ثلاثة عشر كتابًا للأنبياء، التي تضم الفترة من موت موسى حتى أرتاكسيركيس وأربعة كتب للمزامير والأمثال.

"مما لا ريب فيه، أن كل شيء قد سجل أيضًا، منذ زمن أرتاكسيركيس حتى الوقت الحاضر، ولكنه ليس جديرًا بالثقة جدًا.. الاحترام الرفيع الذي كان لدينا لكتاباتنا المقدسة يتبين من حقيقة أنه ولوقت طويل لم يجرؤ أحد على إضافة أي شيء، أو استبعاد أي شيء، أو تغيير أي شيء".

لا شك أن هذا كان هو الحال في أيام يوسيفوس. حتى أصبح أكثر صعوبة تغيير الشريعة القائمة كما تضمنها الأدب الذي عددناه أعلاه، كان المبتكرون مضطرين للجوء أكثر فأكثر إلى تفسير الشريعة من أجل تكييفها للأوضاع الجديدة. ناسبت كتابات اليهود المقدسة جيدًا هذه الممارسة، ما دامت لم تكن كلاً موحدًا، وإنما شكلت الرواسب الأدبية لأكثر الفترات والشروط الاجتماعية اختلافًا. لقد ضمت خرافات من الفترة البدوية البدائية وكذلك الحكمة المتروبوليتانية رفيعة الثقافة لبابل، والكل قد جرى تحريره في ظل هيئة تحرير كهنوتية في الفترة ما بعد البابلية، هيئة تحرير غالبًا ما كانت فجة وغير لبقة للغاية، متيحة لتناقضات صريحة بأن تمر دون مسائلة. جسمًا ل"شريعة" من هذا النوع سوف يسمح بإثبات أي شيء، إذا امتلك المُوظِف الحدة الضرورية وقوة الذاكرة الضرورية لتعلم كل صفحات الشريعة

غيبًا واحتفظ بها دومًا على طرف لسانه، وهكذا كانت بالفعل طبيعة الحكمة الحاخامية. لم يجعلوا مهمتهم درس الحياة، وإنما أن يُشَرِّبوا دراسيهم بمعرفة محددة بالكتابات المقدسة، أن يوظفوا قواهم لأعلى درجة في حضور البديهة وحدة ذهنهم في تفسير هذه الكتابات. بالطبع، لقد بقوا بلا وعي تحت تأثير الحياة التي كانت تصطخب من حولهم، ولكن كلما مضى قدمًا تطور الحكمة الحاخامية المتحذلقة، كلما كفت أكثر عن أن تكون وسيلة لفهم الحياة، ومن ثم في السيطرة على الحياة؛ لقد أصبحت من ناحية فن خداع كل الآتين بمن فيهم الإله نفسه، باشتغال بالتوافه قضائي فطن، ذكاء مختلق، ومن ناحية أخرى فن تعزية وتهذيب الذات في أي وضع في الحياة بواسطة اقتباس ورع. إنها لم تسهم في معرفتنا بالعالم، في الحقيقة، كان جهلها بالعالم يتزايد بثبات. أصبح هذا واضحًا تمامًا في الصراعات التي أسفرت في النهاية عن دمار أورشليم.

كان الصدوقيون الحكماء والمتحذلقون ملمين جيدًا بميزان القوة في زمانهم. لقد عرفوا أنه من المستحيل إبداء مقاومة جدية ضد الرومان. حاول الفريسيون، من ناحية أخرى، بكل نشاط أن يتخلصوا من النير الروماني، كلما ثقل الأخير بكل وزنه على يهوذا ودفع الناس إلى اليأس. أعطت الانتفاضة المكابية مثلاً رائعًا لكيف كان على الشعب وأمكن له أن يدافع عن حريته ضد طاغية.

أصبحت الآمال في مجيء المخلص، التي أعطت دعمًا قويًا لتلك الانتفاضة، والتي تقوت بدورها كثيرًا بنجاحها، أقوى مع نمو الرغبة المتزايدة في التخلص من النير الروماني. مما لا ريب فيه أن الرومان كانوا خصومًا أكثر هولاً من الإمبراطورية السورية المنحلة، وتزايدت الثقة في قدرة الأمم على العمل لنفسها عبر العالم القديم منذ أيام المكابيين. كان ما سمي بالحروب الأهلية هو في الواقع صراعات قادة ناجحين معينين لتحقيق سلطة عالمية. وهكذا فإن مفهوم المخلص لم يعد مفهوم شعب يهودي يحرر نفسه، وإنما (مفهوم) بطل قوي، مليئ بطاقة عجائبية، أرسل بواسطة الرب لينقذ ويخلص الأمة المعذبة من المختارين والمتقدسين من محنهم وبلاياهم.

حتى الفريسيين الأكثر شغفًا لم يعتبروا من الممكن هزيمة مضطهديهم دون عون قائد عجائبي كهذا. ولكنهم لم يبنوا آمالهم عليه فقط. من المحتمل أنهم تطلعوا إلى الزيادة الدائمة في عدد أتباعهم في الإمبراطورية، خاصة بين الشعوب المجاورة، ولقوتهم العددية في الإسكندرية، بابل، دمشق، وأنطاكية. ألن يأتي الأخيرون لنجدة

وطنهم الأم المضطهد إذا كان سيتمرد؟ وإذا نجحت مدينة واحدة، مثل روما في إحراز سلطة عالمية لم لا تكون أورشليم العظيمة الفخورة قادرة على أن تفعل نفس الشيء.

إن أساس رؤيا القديس يوحنا هو وثيقة دعاية يهودية على طراز سفر دانيال. من المحتمل أنها كتبت في الوقت الذي كان فيه فسباسيان ثم تيتوس يحاصران أورشليم. تنبأت الرؤيا بنزاع بين روما وأورشليم، ناظرة لروما، "المرأة الجالسة على التلال السبعة"، "بابل (أي روما)، العظيمة، أم الزواني ورجاسات الأرض" التي زنى معها ملوك الأرض"، "ويبكي تجار الأرض وينوحون عليها لأن بضائعهم لا يشتريها أحد فيما بعد"، سوف تأخذ مكانها مدينة أورشليم المقدسة، "وتمشي شعوب المخلصين بنورها وملوك الأرض يجيئون بمجدهم وكرامتهم إليها". (21، 24). لم تكن أورشليم في الحقيقة مدينة يمكن أن تبدو في عقول الأشخاص بسطاء العقول، غير الملمين بقوة روما، كمنافس خطير لسيدة العالم على التيبر.

يروي يوسيفوس أن الكهنة أحصوا ذات مرة عدد الأشخاص الذين وجدوا في أورشليم في مناسبة عيد الفصح. "احصى الكهنة 256500 حمل فصح. ولم يكن هنا أقل من عشرة أشخاص على مائدة واحدة يحتفلون على كل حمل. ولكن أحيانًا كان هناك، عدة منهم تبلغ عشرين شخصًا على حمل واحد. ولكن إذا عددنا عشرة أشخاص فقط لكل حمل، سوف نصل إلى رقم 2700000 شخص" بدون حساب النجسين والكفار، الذين لم يكن مسموحًا لهم أن يشتركوا في عيد الفصح" [1].

بالرغم من أن يوسيفوس يشير هنا إلى إحصاء فعلي، فإن معلوماته تبدو مع ذلك غير جديرة بالتصديق، حتى إذا افترضنا أن هؤلاء ال 2700000 شخص اشتملوا على عديد من الريفيين من المقاطعات المجاورة، الذين لم يتطلبوا لا غذاء ولا مأوى في أورشليم. كانت إرساليات ضخمة من المواد الغذائية من مسافات بعيدة ممكنة فقط في هذا الزمان بواسطة السفن. حيث كانت المدن الكبيرة في ذلك الزمان تقع كلها على الأنهار الصالحة للملاحة أو على ساحل البحر. ولكن لم تكن هناك أية إمكانية لأي مواصلات تصل إلى أورشليم بواسطة الماء، مادام كلاً من البحر ونهر الأردن كانا بعيدين، والأخير، إضافة إلى ذلك، ليس صالحًا للملاحة. لم يكن يمكن لمثل هذه الأعداد الضخمة من الناس أن تزود حتى بماء شرب كاف في أورشليم. نحن نعرف أن المدينة تعتمد جزئيًا على إمدادات مياه الأمطار المحفوظة في صهاريج.

---

52 الحرب اليهودية، 6، 9، 3.

بالمثل فإنه من المستحيل تصديق تصريح يوسيفوس الموجود في نفس الصفحة، بأن 1100000 يهودي هلكوا في أورشليم خلال الحصار السابق على تدمير المدينة.

يعطي تاسيت عددًا أصغر بكثير[1]. بلغ عدد السكان المحاصرين الذين يشملون كل الأعمار وكلا الجنسين، وفقًا له 600000. حيث كان هناك كثيرين بين المحاصرين لم يعيشوا بشكل اعتيادي في المدينة، ربما كان من المعقول أن نعين حوالي نصف الرقم المذكور آنفًا باعتباره سكانها العاديين خلال العقود القليلة التي تسبق تدميرها مباشرة. حتى إذا أخذنا ثلث هذا الرقم فقط وهو 600000 فإن عدد السكان بالأحرى عظيم بالنسبة لمدينة في هذا الزمن. ولكن تبين أرقام يوسيفوس كيف تضخم هذا الرقم في خيال الشعب اليهودي.

ولكن، كيفما كانت أورشليم عظيمة وقوية، فلم تكن لديها إمكانية لإحراز نصر دون عون من الخارج، وكان اليهود يعتمدون على مثل هذه المساعدة، ولكنهم نسوا أن السكان اليهود خارج فلسطين كانوا سكان حضريين صرفًا؛ في الحقيقة، سكان المدن الكبرى، أضف إلى ذلك يشكلون أقلية في كل مكان. ولكن في هذا الزمن، وكذلك في الفترات اللاحقة، كان الفلاح هو القادر فقط على احتمال خدمة عسكرية طويلة. لم يكن بمقدور الجماهير في المدن الكبرى، التي تتكون من التجار، والعمال في الصناعات المنزلية وبروليتاريا رثة، أن تشكل جيشًا يمكن أن يصمد في معركة مكشوفة أمام فرق مدربة. ليس هناك شك في أنه في زمن الانتفاضة الكبرى الأخيرة لأورشليم، كانت هناك أيضًا اضطرابات يهودية خارج فلسطين، ولكنها لم تبلغ في أي مكان درجة أن تكون عونًا حقيقيًا لأورشليم.

إذا لم يجترح مخلص بالفعل معجزات بدت كل الانتفاضات اليهودية لا أمل فيها، وكلما كان الوضع أكثر تمردًا في يهوذا، كلما كان التعلق بأمل المخلص في الدوائر الفريسية أكثر حيوية. بالطبع، كان الصدوقيون بالأحرى شاكين في هذه الآمال، وكذلك بمذهب القيامة، الذي كان مرتبطًا بوثوق بآمال مجيء مخلص.

كما في بقية ميثولوجيتهم، فإن أفكار بني إسرائيل فيما يتعلق بوضع الإنسان بعد الموت لم تحتو على شيء يمكن أن يميزهم عن الأمم الأخرى على نفس المستوى من الثقافة. أدت حقيقة أن أشخاص المتوفين قد تظهر في الأحلام إلى افتراض أن المتوفى ما

---

53 **تواريخ**، 5، 13.

زال مستمرًا في عيش حياة شخصية، ولكنها غير مادية، وأن له وجودًا شبيه بالظل. من المحتمل أن دفن المتوفى في مدفن مظلم هو الذي قدم أساسًا لوجهة النظر القائلة بأن هذا الوجود أشبه بالظل وأنه يرتبط بموضع خفي مظلم. والحب الصاحي للحياة ومسرات الحياة، أخيرًا، لم يستطع أن يتخيل أن نهاية الحياة تكون أيضًا نهاية كل الفرح والمسرة، وأن هذا الوجود الظلالي للمتوفى يمكن أن يكون شيئًا عدا (وجود) غير مفرح ومظلم.

نجد هذه النظرات بصفة أصلية بين الإسرائيليين القدماء، وكذلك، على سبيل المثال، بين الإغريق القدماء. إن هاديس الأخيرين تقابل شيول الإسرائيليين، مكان مظلم غاية في الكثافة، بعيدًا في باطن الأرض، الذي كان محروسًا جيدًا حتى لا يتمكن هؤلاء الذين ماتوا وهبطوا إليه من أن يعودوا مرة أخرى. إذا كان ظل أخيل يرثي عند هوميروس حقيقة أن عامل مياومة حي خير من أمير ميت، فإن مبشر سليمان (في سفر الجامعة، وهي وثيقة كتبت في زمن المكابيين) ما زال يعلن: "الكلب الحي خير من الأسد الميت"، ويواصل، "أما الموتى فلا يعلمون شيئًا وليس لهم أجر بعد، لأن ذكرهم نسي. ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عمل تحت الشمس".

قد لا يتوقع الموتى من ثم أية مكافأة، سواء كانوا طالحين أم صالحين، فهم يعاينون جميعًا نفس المصير في العالم السفلي. ربما كان الفرح والمسرة في الحياة فقط.

"لكل الأحياء يوجد رجاء. اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب لأن الله منذ زمان قد رضي عملك. لتكن ثيابك في كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن. التذ عيشًا مع المرأة التي أحببتها كل أيام حيوه باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس كل أيام باطلك. لأن ذلك نصيبك في الحيوه وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها". (الجامعة، 9، 4- 10).

ما زال لدينا هنا فرح "هيليني" صرف بالحياة، وكذلك أيضًا نظرة "وثنية" خالصة عن الموت. هكذا كانت المفاهيم اليهودية القديمة، كما حفظها الصدوقيون. مفاهيم من نوع مضاد نشأت بالفعل في زمن الجامعة (المبشر). كان هذا الفرح بالحياة في توافق تام مع الشعور الشعبي في زمن طبقة فلاحية صحيحة البدن ومزدهرة. بعد

سقوطها، ربما ما زالت الأرستقراطية تجد فرحًا في الواقع، مسرة في الحياة، قد ترفع حتى هذه المباهج إلى درجة الشهوانية، ولكن كانت الطبقات الأدنى تخسرها أكثر فأكثر، حيث صار وجودها أكثر بؤسًا. على أية حال، فإنها لم تهبط بعيدًا إلى حد أن تشك في كل إمكانية لتحسين الشروط الفعلية. كلما أصبحت الأخيرة أكثر بؤسًا، كلما تعلقت بحماس أكثر بأمل الثورة، التي سوف تزودها بحياة أفضل وهكذا بكثير من فرحها. عني المخلص الثورة التي انتهت بالطبع إلى أن تكون مؤسسة أكثر فأكثر على قوى ما فوق إنسانية، على المعجزات، حيث أن ميزان القوى الفعلي تحول تدريجيًا في غير صالح الجماهير المستغلة والمعذبة. حيث تزايد الاعتقاد في المعجزات والإيمان بالقوى العجائبية للمخلص الذي كان سيأتي، فإن حجم المعاناة والتضحيات المتطلبة بالصراع ضد الاضطهاد تزايدت بنفس المعيار، أيضًا عدد الشهداء الذين قضوا في هذا الصراع. هل كان من الممكن الاعتقاد بأنهم جميعًا قد أملوا وانتظروا بلا جدوى، وأن الحياة الرائعة التي سوف يأتي بها انتصار المخلص لمختاريه سوف تحجب عن أبطاله الأشد تفانيًا وشجاعة؟ أيجب على من تخلوا عن كل مسرة في قضية القديسين والمختارين، الذين ضحوا بحياتهم نفسها، الا يتلقوا مكافأة على هذه التضحيات؟ هل يجب أن يعاينوا وجودًا مظلمًا، وظلاليًا في شيول، بينما رفاقهم المنتصرين في أورشليم حكموا العالم واستمتعوا بكل مسراته؟ إذا كان المخلص قد خص بقوة كافية ليقهر روما، فمن المحتمل أن بإمكانه أيضًا أن يقهر الموت، لم يكن يعتبر بعث الموتى عندئذ مستحيلاً.

هكذا تشكلت هذه النظرة تدريجيًا ومفادها أن أبطال أورشليم الذين سقطوا في المعركة سوف ينهضون من قبورهم بنشاط جسدي كامل، وسوف يبدأون حياة جديدة من المسرة والمتعة. لم يكن هذا اعتقادًا في خلود الروح، ولكن في إعادة إحياء الجسد، الذي كان عليه أن يتمتع بمسرات حقيقية للغاية في مدينة أورشليم المنتصرة. يعد الاستهلاك الواسع للخمر ملمحًا بارزًا في هذه الآمال. ولكن مسرات الحب لم تنس أيضًا. يروي لنا يوسيفوس عن خصي لهيرود، كسبه الفريسيون لقضيتهم من خلال وعدهم إياه بأن المخلص الآتي سوف يمنحه القدرة على المضاجعة وإنجاب الأطفال [1].

ولكن إذا كان للمسيح أن يكون قويًا بما يكفي لمكافأة المؤمنين فقد كان من الطبيعي أيضًا أن تعزى إليه قوة مماثلة في أمور العقاب. في الواقع، بينما كانت فكرة

---

54 **الآثار**، 17، 2، 4.

أن الشهداء سوف لا يكافئون غير محتملة، فقد كانت غير محتملة بنفس القدر لهؤلاء الذين يقاتلون من أجل اليهودية فكرة أن كل مضطهديهم الذين ماتوا سعداء كانوا الآن معفيين من العقوبة، ما داموا كانوا يعاينون نفس الوجود غير المحسوس في العالم السفلي كما كانت ظلال الصالحين. من ثم فإن أجساد هؤلاء الأشخاص الشريرين كان يجب أيضًا أن تبعث بواسطة المخلص وأن تخص بعذاب مخيف.

تضمن المفهوم الأصلي حتمًا بعثًا لكل الموتى. كان على البعث أن يمثل الحصاد النهائي للصراع من أجل الاستقلال والسيادة العالمية لأورشليم، وكان من ثم معنيًا فقط بهؤلاء الموتى الذين قاتلوا على أي الجانبين في هذا الصراع. وهكذا فنحن نقرأ في سفر دانيال فيما يتعلق بيوم انتصار اليهودية:

"وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحيوة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي". (12، 2)

إن ما يسمى برؤية القديس يوحنا، كما لاحظنا سلفًا، هي مؤلف ينتمي لنفس الفئة. في الطبعة المسيحية التي وصلت، تميز الرؤيا بين بعثين. الأول لا ينطبق على كل البشر ولكن فقط على الشهداء، في طبعتنا التقليدية، بالطبع على الشهداء المسيحيين، الذين يبعثون لآلاف الأعوام من الحياة في هذا العالم: "نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله، والذين لم يسجدوا للوحش، ولا لصورته، ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة. أما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة". (20، 4، 5)

كان الاعتقاد في البعث مذهب معركة. ولد من تعصب صراع طويل ووحشي مع عدو ذي قوة عاتية، ولا يسبر غوره، على هذا الأساس فحسب، كان هذا الاعتقاد قادرًا تمامًا على الاستمرار في تعزيز وإعطاء القوة لمثل هذا التعصب.

ولكن واجه هذا الاعتقاد فى العالم غير اليهودى رغبة الإنسان فى الخلود، باستقلال تام عن متطلبات المعركة، نتاج بالأحرى للتعب والنكوص. لهذا تدين المفاهيم الفلسفية لخلود الروح التى وجدت فى المذهبين الأفلاطونى والفيثاغورسى بانتشارها الشديد. ولكن الأمل فى البعث الذى روجه الفريسيون كان له أثر أكثر مباشرة وحيوية بما لايقاس على جماهير البشر فى تلك الأيام، الذين كان لديهم إيمان بالمعجزات، ولكن بغير تدريب على التفكير المجرد. لقد قبلوا بسرور هذا الأمل الذى ترجموه من البيئة اليهودية إلى لغتهم الخاصه المختلفة تماما.

لقد دانت اليهودية فى نجاح دعايتها حتى زمن تدمير أورشليم بقدر كبير إلى الاعتقاد فى البعث. ولكن تدمير هذه المدينة دمر أغلبية هؤلاء الذين توقعوا بحزم مجيء المخلص فى تاريخ مبكر، بينما زعزع أساس الإيمان فى قرية الباكر، بين يهود آخرين.

كف التوقع الخلاصى عن أن يكون قوة دافعة للسياسات العملية فى اليهودية، لقد أصبح رغبة ورعه وتوق هوسي. بالمثل، على اية حال، فقد الاعتقاد الفريسى فى البعث مواقعه فى الفكر اليهودى. حفظ هذا الاعتقاد مع الاعتقاد فى المخلص، فى المجمع المسيحى فقط، الذى اقتبس هكذا من الفريسيين قسمًا من أفضل دعايتهم.

ولكن المجمع المسيحى، اجتذب حتى طاقة أكبر من العناصر البروليتارية فى اليهودية أكثر من الديمقراطية البورجوازية، اذا جاز لنا أن نسميها كذلك.

ح- الغيورون (القنائيون)

كان الفريسيون ممثلى جماهير الشعب بوصفهم معارضين للأرستقراطية الكهنوتية. ولكن هذه الجماهير شابهت "الطبقة الثالثة" فى فرنسا قبل ثورة 1789 فى أنها كانت مؤلفة أيضًا من عناصر غاية فى الاختلاف ذات مصالح متباينة للغاية، وذات درجات متنوعة من الروح القتالية والقدرة القتالية.

يصدق هذا حتى على اليهود خارج فلسطين. بينما الف هؤلاء اليهود سكانا حضريين على سبيل الحصر، يعيشون بصفة أساسية على التجارة والمعاملات المالية، وجباية المكوس وما أشبه، مع ذلك سوف يكون خطأ قاتلاً أن نفترض انهم تألفوا فقط من التجار الأغنياء والصيارفة. لقد سبق وأن اشرنا إلى أن التجارة غير آمنة إلى حد بعيد أكثر من مهنة الفلاح او الحرفى. لقد كان الحال حتى أكثر آنذاك منه الآن، لأن الإبحار كان أقل كمالاً وازدهرت القرصنة على نطاق واسع. والآن كم عدد الأشخاص الذين أفلستهم الحروب الأهلية !

ولكن لابد وأن كان هناك كثير من اليهود الذين كانوا أغنياء وأصبحوا الآن فقراء، وكثيرون لم ينجحوا فى أن يصيروا أغنياء. بينما كانت التجارة المهنة التى منحتهم أفضل الآفاق فى ظل الشروط القائمة، الا أن هذا لايعنى أن كل فرد كان لديه رأس المال المتاح الضرورى للتجارة على نطاق واسع. لابد وأن التجارة التى مارسها معظم اليهود قد بقيت بيعا جوالا صغيرًا أو بدالة.

أضف إلى ذلك، أنه من المحتمل انهم قد مارسوا حرفا كهذه لأنها لم تتطلب مهارة كبيرة أو ذوقا جيدا استثنائيا. حيثما عاش عدد كبير من اليهود معا، فإن خصائص قواعد سلوكهم وعاداتهم فقط لابد وأنها أنتجت طلبا على كثير من الحرفيين الذين ينتمون لعقيدتهم. حين نقرأ أنه كان هناك مليون يهودى بين الثمانية ملايين من سكان مصر، فإنه من المستحيل افتراض أن كل هؤلاء اليهود قد عاشوا على التجارة، ونحن نجد ذكرًا بالفعل لصناعات يهودية فى الإسكندرية وكذلك حرفيين يهودا فى مدن أخرى.

لابد وأن اليهود فى عديد من المدن، خاصة فى روما، قد كانوا ممثلين تماما بالأحرى بين العبيد أيضا، ومن ثم ضمن المعتقين. قدمت نضالاتهم المخفقة المتكررة وانتفاضاتهم التى حاولوها موردًا دائم التجدد لأسرى حرب جدد، الذين بيعوا كعبيد.

من كل هذه الطبقات، التى كان بعض منها قريبا تماما بالفعل إلى البروليتاريا، جند ثقل حثالة البروليتاريا، التى أصبحت عند بعض (المراحل) كثيرة العدد. وهكذا على سبيل المثال، يبدو أن المتسولين اليهود قد جذبوا انتباها خاصا بين البروليتاريا الرومانية. يعطينا مارتيال وصفا لحياة الشوارع فى العاصمة: مع الحرفيين العاملين فى الشارع، سلاسل الكهنة، المحتالين والباعة المتجولين، وهو يذكر أيضًا الصبى اليهودى الذى أرسلته أمه ليتسول. يتحدث جوڤينال فى أهجيته عن بستان أجريا Egeria، فيقول: "قد أجرد الآن اليهود، الذين تتكون آنيتهم المنزلية من سلة وحزمة من القش. لأن كل شجرة مجبرة الآن على أن تثمر لنا أرباحًا. الغابة الآن يملكها المتسولون، وقد طردت الموزيات (عرائس الشعر) خارجًا [1].

بالطبع هذا دليل من الفترة التى تعقب تدمير أورشليم، من حكم دوميتيان، الذى أخرج اليهود من روما وسمح لهم أن يقيموا فى هذا البستان على أن يدفعوا جزية رأس. كيفما كان الأمر، فإنها تشير لوجود عدد كبير من المتسولين اليهود فى روما.

كان المتسول Schnorrer (الطفيلى) بالفعل ظاهرة جديرة بالملاحظة فى اليهودية فى هذا الزمن الباكر.

كانت البروليتاريا الرثة بالطبع، عنصرًا غير مستقر للغاية.

---

55 جوڤينال، **الأهجيات**، 3، 13- 16.

كان الهدف الرئيسى لحج اليهود المتسولين هو مدينة أورشليم بالتأكيد. هناك شعروا فى قرارة انفسهم انهم بموطنهم، ولم يكن لديهم ما يدعوهم لأن يخشوا من انه سوف يهزأ بهم أو تساء معاملتهم من سكان معادين أو على الأقل غير متعاطفين. تجمع هناك الحجاج الأغنياء من أكثر أجزاء العالم اختلافا بأعداد كبيرة، هناك بلغت دوافعهم الدينية وبالمثل كرمهم أيضًا أعظم الدرجات.

لم تكن هناك فى زمن المسيح مدينة كبرى واحدة لا تملك بروليتاريا رثة كثيرة العدد. ويحتمل أن أورشليم ضمت أكبر بروليتاريا بهذا الوصف بعد روما، على الأقل نسبيا، لأنه فى كلتى المدينتين جندت هذه الغوغاء من كل الإمبراطورية. إن حرفيى هذه الفترة كانوا مازالوا على اتصال وثيق مع هذه البروليتاريا، لقد كانوا كقاعدة عمالا منزليين فحسب، وحتى اليوم فإن العمال المنزليين يعدون ضمن البروليتاريين. لم يكن أمرًا غير عادى بالنسبة لهم أن يختلطوا مع المتسولين وحمالى الأثقال.

حيثما تجمعت مثل هذه الطبقات المفلسة من السكان بأعداد كبيرة، أصبحت عدوانية بصفة خاصة. وبخلاف الطبقات المالكة، ليس لديها شئ لتفقده، كان وضعها الاجتماعى غير محتمل، ولم تكن لتكسب شيئا من خلال الانتظار. لقد تشجعت بوعى عددها. أضف إلى ذلك، لم تكن القوة العسكرية لتستطيع أن توظف قوتها بسهولة فى الشوارع الضيقة والمنعطفة لتلك الأيام. وإذ قليلا ما كان البروليتاريون ملائمين للخدمة العسكرية فى المعارك المكشوفة، غير مرض كما كان تصرفهم عادة فى أوضاع كهذه، فإنهم مع ذلك كانوا أندادا لمتطلبات معارك الشوارع. أظهرت الأحداث فى كل من الإسكندرية وأورشليم صواب هذه الملاحظة.

فى أورشليم كانت هذه البروليتاريا مُلهمة، بروح قتال مختلفة تماما عن روح الطبقات المالكة والمثقفة التى قدمت المجندين من الفريسيين. بالطبع، فى الأوقات العادية قبل البروليتاريون أن يقودهم الفريسيون، ولكن حيث احتدمت التناقضات بين أورشليم وروما، وحيث باتت اللحظة الحاسمة أقرب فأقرب، أصبح الفريسيون حذرين وهلعين أكثر فأكثر، وهكذا تنازعوا مرارًا مع البروليتاريين المتقدمين.

وجد الأخيرون دعما قويا فى سكان الريف فى الجليل. كان الفلاحون الصغار والرعاة يُستغلون لأقصى حد بواسطة ضغط الجباية والربا، وقد رموا فى براثن العبودية أو صودرت ملكيتهم، حيث أنهم كانوا فى كل مكان فى الإمبراطورية. من المحتمل ان جاء بعضهم إلى أورشليم مزيدين قوة البروليتاريا هناك. ولكن كما فى

أقاليم أخرى من الإمبراطورية، لجأ أكثر العناصر طاقة بين هؤلاء الذين صودرت ملكيتهم ودفعوا إلى اليأس إلى الانتفاض العنيف، إلى قطع الطريق، قرب الصحراء، التى مازالت موطنا لأعراف البدو وعاداتهم، وسهل هذا الصراع بتقديم أماكن اختفاء عديدة معروفة فقط لهؤلاء الملمين بالبلد. وقدمت الجليل نفسها، بأرضها غير المستوية وكهوفها العديدة، أوضاعًا لم تكن أقل مواتاة لتجارة قطاع الطرق **Bandit**. كانت الراية التى حارب فى ظلها هؤلاء اللصوص الأمل فى المخلص. تماما مثلما هو الحال اليوم، فى روسيا، فقد اتخذ كل سارق الثورة ذريعة لتنفيذ "مصادراته"، ومثلما، من ناحية أخرى، تصنع الرغبة فى تعجيل الثورة عصابة من كثير من الثوريين العدوانيين بسطاء العقول [1] هكذا كان الحال أيضًا فى الجليل. أعلن رؤساء العصابات أنهم المخلص أو على الأقل رواده والمتحمسون الذين شعروا بأنهم دعوا لأن يكونوا أنبياء أو مخلصين، أصبحوا رؤساء عصابات.

كانت عصابات الجليل وبروليتاريا أورشليم تتعاون بشكل وثيق كل منها مع الاخري، ويدعم كل منها الآخر، وأخيرا ألفوا حزبا عاما معارضا للفريسيين، أى حزب (الغيورون) **zealots**، او هؤلاء المملوئين حماسة. يظهر التضاد بين هاتين المجموعتين كثيرا من نقاط التشابه مع التعارض بين الجيروند واليعاقبة.

تصير الرابطة بين بروليتاريي أورشليم والعصابات المسلحة فى الجليل، وتوقهم للعمل، واضحه بصفة خاصة فى زمن المسيح.

فى خلال مرض هيرود الأخير (4ق.م) تمردت جماهير أورشليم بالفعل فى فتنة عاتية ضد البدع التى قام بها هيرود، فوق كل شيء، ثار غضبهم بسبب نسر ذهبى وضعه هيرود على سقف معبده. أُخمد هذا الشغب بقوة السلاح. ولكن بعد وفاة هيرود ثار الناس مرة أخرى فى عيد الفصح، وفى هذه المرة بطاقة بلغ من عتوها أن فيالق أرخيلاوس، ابن هيرود لم تنجح فى إخماد الانتفاضة إلا بعد إراقة بالغة للدماء فقط ؛ ذبح 3000 يهودى. ولكن حتى هذا لم يثبط الروح العدوانية للجماهير فى أورشليم. حين سافر أرخيلاوس إلى روما حتى يعلن نفسه ملكا، تمرد الناس مرة أخرى، ولكن الآن تدخل الرومان. قادوس، الذى سقط فيما بعد فى معركة ضد الشيروسكيين**cherusci**، كان عندئذ حاكم سوريا. أسرع إلى أورشليم، أخمد التمرد، ثم عاد إلى أنطاكية، تاركا فيلقا وراءه فى أورشليم بقيادة الضابط المالى سابينوس.

---

56 سوف يتذكر القارئ أن كاوتسكى كتب هذه الكلمات فى 1908 - المترجم عن النص الألمانى.

الأخير، إضطهد اليهود إلى الحد الاقصى ونهب وسرق بقدر ما استطاع معتمدا على قوته العسكرية. كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهرالبعير. تجمع أشخاص عديدون فى عيد العنصرة pentecost فى اورشليم، بمن فيهم عدد كبير من الجليليين. كانوا أقوياء بما فيه الكفاية ليتحلقوا ويحاصروا الفليق الرومانى، ومعه المرتزقة الذين جندهم هيرود، الذين استمروا فى العمل بعد موته. حاول الرومان أن يفتحوا ثغرات بلاجدوى، بالرغم من أن كثيرا من اليهود قد قتلوا فى تلك الجهود. لم يرتد المحاصرين، ونجحوا حتى فى أغواء بعض فرق هيرود فى الالتحاق بهم.

انفجر التمرد فى نفس الوقت فى مقاطعات الريف. وجد قطاع طرق الجليل الآن كثيرا من الأتباع وشكلوا جيوشا نظاميه. أعلن قادتهم انفسهم ملوكا لليهود، بمعنى آخر مخلصين. من بينهم كان، يهوذا بارزا بصفة خاصة، الذى كان أبوه حزقيا لصًا مشهورًا بالفعل واعدم بصفته كذلك (47ق.م). فى بيريا جمع عبد سابق لهيرود، شمعون، عصابة أخرى، بينما تآمر على (عصابة) ثالثة الراعى اثرونجيسس.

عانى الرومان مصاعب جمة فى إخماد هذه الانتفاضة، التى جعلت من الضرورى لفادوس أن يأتى بفيلقين وقوى احتياطية عديدة لمساعدة هؤلاء المحاصرين فى أورشليم. بدأ هناك ذبح ونهب لايوصف. صلب الفان ممن أسروا، آخرين كثيرين بيعوا عبيدًا.

كان هذا فى الوقت الذى يعزى عامة لميلاد المسيح.

كان هناك سلام الآن لبضع سنوات، إنما لبضع سنوات فقط. فى 6ب.م، وضعت يهوذا مباشره تحت الحكم الرومانى. كان الإجراء الأول الذى إتخذه الرومان هو القيام بإحصاء، بغرض تقدير الضرائب. تسبب هذا فى محاولة جديدة للانتفاض من قبل يهوذا، الجليلى، من المحتمل أنه نفس يهوذا الذى كان بارزا جدا فى الانتفاضة قبل عشر سنوات. لقد تحالف مع الفريسي صادوق، الذى وجه لأن يثير اناس أورشليم. لم يكن لهذه المحاولة نتائج مهمة، ولكنها أدت إلى خرق بين الطبقات الدنيا من السكان والجليليين المتمردين من ناحية، والفريسيين من ناحية أخرى. كانوا فى انتفاضة 4 ق.م مازالوا يعملون معا. شعر الفريسيون الآن أن لديهم ما يكفى، ورفضوا أن يعملوا مع الآخرين. كان حزب (الغيورون) zealots من ثم قد تشكل فى تعارض معهم. لم تخمد منذ هذا الوقت فصاعدا نيران الانتفاضة أبدا بشكل كامل فى يهوذا والجليل حتى تدمير أورشليم. يصف يوسيفيوس هذا الوضع من وجهة نظره الفريسية:

"عندئذ يهوذا، وهو جولانى، من مدينة جمالا، بمساعدة صادوق، وهو فريسى حرضا الناس على التمرد بدفعهم للاعتقاد أنهم سوف يصبحون عبيدا إذا خضعوا لإحصاء ملكيتهم، وأن عليهم ان يدافعوا عن حريتهم. وأشارا أنهم هكذا لن يحفظوا ممتلكاتهم فقط، وإنما سوف يحصلون على حظ طيب اعظم بما لايقاس، لأن جسارتهم سوف تأتى لهم بشرف وشهرة عظيمتين. لن يساعدهم الإله فى هذا الطموح إلا إذا تبنوا إجراءات فعالة ولم يدخروا وسعا فى تنفيذها. كان الناس سعداء لسماع هذا واصبحوا ملهمين تماما للقيام بالأعمال الجسورة.

"من المستحيل أن نسهب طويلا جدا فى كمية الشر التى أنتجها هذان الرجلان بين الناس. لم يكن هناك سوء حظ لا ينسب إليهما. لقد أثارا حربا بعد أخرى وكانا يلجآن دوما إلى العنف، من اظهر أنه ضد مثل هذا العنف كان عليه أن يدفع حياته لقاء ذلك. أغار قطاع الطرق على الارض. قتل أكثر الأشخاص تميزا بزعم ان ذلك يُبقى الحرية. كان هذا فى الواقع بسبب الجشع وبسبب الرغبة فى سرقة ممتلكاتهم. وعندئذ تلى ذلك عدة انتفاضات وإراقة عامه للدماء. مادام من ناحية كان أناس البلد هم أنفسهم يتقاتلون الواحد ضد الآخر، ويسعى كل حزب للإطاحة بالآخر، بينما كان الأعداء الخارجيين من ناحية أخرى يصرعونهم. وأخيرًا، اضيفت المجاعة لكل هذا، التى أزالت كل الحواجز أمام التدمير، وغمرت المدن ببؤس بالغ، حتى انتهى هيكل الرب فى النهاية إلى رماد من قبل الاعداء. وهكذا فان بدعهم وتغييراتهم للعادات القديمة أضيفت إلى تدمير المتمردين انفسهم. بهذه الطريقة، يهوذا وصادوق، اللذان ادخلا مذهبا رابعا ووجدا أتباعا عديدين، لم يزعجا الدولة فقط فى أيامهما، وإنما أعطيا أيضًا من خلال هذا المذهب الجديد، الذى لم يسمع عنه قبلا، سندا لكل البلايا التى تسريت فيما بعد..... الشباب الذين أصبحوا مرتبطين بهذا المذهب قد أنتجوا دمارنًا (الآثار، 81، 1،1).

يتحدث يوسيفوس فى نهاية نفس الفصل على نحو أكثر احتراما عن نفس الغيورين zealots الذى يشجبهم على نحو مشدد فى افتتاحيته. كلماته الآن هى: "إن رابع هذه المذاهب (الثلاثة الأخرى هى مذاهب الفريسيون، والصدوقيون والإسينيون) قد أدخله يهوذا الجليلى. وافق أتباعه الفريسيون فى كل الأمور، عدا أنهم قد أظهروا حبا عنيدا للحرية وأعلنوا أن الإله وحده هو من يجب الاعتراف به كسيد وأمير. إنهم يفضلون أن يعانوا أكثر العذابات فظاعة، وأن يروا أصدقائهم وأقاربهم ذاتهم يعذبون، من أن يسموا أى كائن إنسانى سيدهم. ولكن لن أسهب فى هذا الموضوع باستفاضة،

لأنه من المعروف للغاية أى عناد أظهروا فى هذه الأشياء. لست خائفا من أن لاأصدق، ولكن بالأحرى لاننى لن أجد الكلمات التي تعبر بما فيه الكفاية عن البطولة والثبات اللتين تحملا بها أسوأ أنواع التعذيب. أصاب هذا الجنون بالعدوى مجمل الناس كأنه مرض ناقل للعدوى، حين أساء الوالى جيسيوس فلورس (64- 66ق.م) استخدام سلطته عليهم إلى حد دفعهم لليأس لأن ينسحبوا من الرومانيين ".

حيث أصبح النير الرومانى أكثر اضطهادا وتزايد يأس الجماهير اليهودية، فقد ابتعدت أكثر فأكثر عن نفوذ الفريسيين وانجذبت إلى الغيورين، بينما كان الأخيرون يطورون بالمثل نتاجات ثانوية من نوع خصوصى.

كانت واحدة من هذه النتاجات هى الوجد الصوفى. فلم تكن المعرفة هي النقطة القوية عند البروليتارى القديم، ولاحتى الرغبة فى المعرفة. إذ كان مُعتمدًا على القوى الاجتماعية أكثر من أى شريحة أخرى من السكان، وهي قوى لم يفهمها، فقد بدت خارقة بالنسبة له، مما دفعه إلى اليأس أكثر من أى طبقة أخرى. حيث كان يتعلق بكل قشة، فقد كان ميالا بصفة خاصة إلى الاعتقاد فى المعجزات، أستولت علية النبوءة الخلاصية بصفة خاصة، وقد ترك أكثر من أى طبقة أخرى فى جهل تام بكل الظروف الفعلية، ظرف توقع فيه أن يحدث المستحيل.

كل مجنون أعلن نفسه مخلصا ووعد بتحرير الناس من خلال المعجزات التى سوف يقوم بها، وجد أتباعا عديدين، واحد كهذا كان النبى ثيوداس، فى ظل فترة ولاية قادوس (تبدأ من 44ب.م)، الذى قاد حشدا معه إلى الأردن، حيث بددهم فرسان قادوس. وأسر ثيوداس نفسه وقطعت رأسه.

فى ظل الضابط المالى فيلكس (52- 60ب.م) أصبحت هذه الممارسات الوجدية حتى أكثر انتشارا.

"كانت هناك عصبة من الأشرار، الذين لم يقتلوا بالفعل، وإنما الذين كانت لديهم أفكارًا ملحدة، والذين جعلوا المدينة (أورشليم) مضطربة وغير آمنه بقدر ما استطاع القتلة أنفسهم أن يفعلوا. لأنهم كانوا مخادعين غواة، بشروا تحت ستار الوحى الالهى ببدع من كل نوع، وحرضوا الناس على الانتفاض. لقد اغووهم بالدخول فى الصحراء وتظاهروا بأن الرب سوف يتيح لهم أن يروا علامة الحرية. وإذ افترض فيلكس أن هذه بداية التمرد، أرسل جنودا ضدهم، فرسانا وكذلك مشاه، وقتل عددا كبيرا منهم".

"مازال هناك سوء حظ عظيم جلبة على اليهود نبى كاذب من مصر (أى، يهودى مصرى، ك.) كان مشعوذا ونجح فى جعل نفسه مقبولا كنبى بسبب السحر. لقد ضلل حوالى ثلاثين الف شخص، أصبحوا أتباعه؛ قادهم خارج الصحراء إلى ما يسمى بجبل الزيتون، حتى يخترق أورشليم من هذه النقطة، مهيمنا على الفليق الرومانى، وهازما السلطة على الشعب. بمجرد أن تلقى فيلكس أنباءاً عن خطته، انطلق للقائه، مع الجنود الرومان، وكل الناس الذين كانوا مستعدون للقتال من أجل الصالح العام، عاركوه. هرب المصرى مع بضعة آخرين. أسر معظمهم، واختفت البقية فى الريف.

كانت هذه الانتفاضة قد أخمدت بالكاد ومرة أخرى، كما لو كان من جسم عليل مصاب بالعدوى، ظهر طاعون جديد. تجمع بضعة عرافين وقتلة وسايرهم كثير من الأتباع. لقد دعوا كل واحد لأن يقتنص حريته، وهددوا بالموت هؤلاء الذين منذ آنذاك فصاعدا سوف يستمرون في الخضوع مطيعين السلطة الرومانية، قائلين عنهم: يجب أن يحرر المرء، هؤلاء الذين كانوا مستعدين لإحناء رؤوسهم تحت نير العبودية، حتى ضد إرادتهم.

"لقد جاسوا خلال كل الأرض اليهودية، نهبوا بيوت الأغنياء، قاتلين هؤلاء الذين سكنوا فى هذا المكان، أشعلوا النار فى القرى، وأغاروا على الأرض بفظاعة شديدة حتى انهم مثلوا اضطهادا لكامل الشعب اليهودى، وانتشر هذا الطاعون المدمر يوما بعد يوم" 1.

لم يكن تمرداً مكشوفاً ضد السلطة العسكرية الرومانية داخل أورشليم أمرا سهلا. هنا لجأ الأعداء المرورين للغاية من النظام الحاكم إلى الاغتيال. تشكلت فى ظل الوالى فيلكس، الذى أصبح اللصوص والأنبياء أكثر فى ظل ولايته، جماعة إرهابية أيضا. حيث أن المواد المتفجرة لم تكن قد اخترعت بعد، فقد كان السلاح المفضل للإرهابيين خنجر محنى أخفى تحت عباءاتهم؛ هذا الخنجر(sica) أعطاهم اسمهم حاملى الخناجر (sicarians).

الاضطراب اليائس الذى نجم بواسطة كل هؤلاء المدافعين عن قضية الشعب كان فقط الإجابة الحتمية على الغضب الذى لاخجل فيه لمضطهديهم. دع القارئ يلم ببساطة بما يرويه يوسيفوس، الذى شهد كل هذه الأشياء، فيما يتعلق بأعمال الواليين الأخيرين اللذين حكمًا يهوذا، قبل تدمير أورشليم:

---

57 يوسيفوس، الحرب اليهودية، 2، 13، 4- 6.

"اصبح فيستوس حاكما (60- 62). لقد قام بمحاولات جادة لمكافحة اللصوص الذين انزلوا كارثة بالأرض اليهودية، فأمسك وقتل كثيرًا منهم. خلفه ألبينوس (62- 64) الذي لم يتبع مثاله لسوء الحظ. حيث لم تكن هناك جريمة ولا رذيلة شديدة الفظاعة لا يتورع عنها. فهو لم يختلس فقط الأموال العامة حينما كان يدير الولاية، وإنما اعتدى حتى على الملكية الخاصة لرعاياه، مستوليًا عليها لنفسه بالقوة. اضطهد الناس بضرائب ضخمة وغير معقولة. اللصوص الذين ألقتهم سلطات المدن وكذلك أسلافه فى السجن أطلق سراحهم مقابل مبلغ من النقود، وفقط هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا كانوا مجرمين وبقوا فى السجن. وهكذا زادت جراءة المتمردين فى أورشليم. لقد تمكن الأغنياء من الحصول على أفضال بواسطة الهدايا والهبات، حتى أنه أغمض عينيه على جمعهم حاشية حولهم. ولكن جماهير الشعب، التى لاتحب السلام، بدأت تربط نفسها بهم، لأن ألبينوس فضلهم. من ثم فإن كل فاعل شر أحاط نفسه بعصابة كان هو نفسه متميزًا فيها باعتباره الوغد الأعظم، الذى جعل المرتزقة تنهب وتسرق كل المواطنين الطيبين. صمت هؤلاء المسروقين، والذين لم يسرقوا بعد نافقوا الوغد أشبه بالشناق، خوفًا من أنهم إذا اعترضوا سيتعرضون لمعاملة مماثلة. لم يجرؤ إنسان على الشكوى، لأن الاضطهاد كان عظيمًا للغاية. هكذا زرعت جرثومة دمار مدينتنا".

"بالرغم من أن ألبينوس واصل عمل أسلافه بطريقة مخجلة وخبيثة، فقد فاقه كثيرًا خلفه جيسيوس فلورس (64- 66)، انتهاءًا إلى أن ألبينوس، فى مقارنة بين الاثنين، سوف يبدو أنه كان الأفضل. لأن ألبينوس واصل أفعاله الرديئة سرًا وكان قادرًا على أن يخفي كل شيء تحت مظهر عادل، لكن خلفه فعل كل شئ علنًا كما لو كان يبحث عن شهرته بإساءة معاملة شعبنا. لقد سرق، ونهب، وفرض عقوبات، وتصرف ليس كما لو كان قد أرسل ليكون حاكمًا، وإنما ليكون شناقًا ليعذب اليهود. حينما كانت الرحمة مطلوبة، طبق القسوة، أضف إلى ذلك، كان صفيقًا مخاتلاً، ولم يكن فى مقدور إنسان أن يخترع حيلاً ليضلل الناس أكثر منه. لم يكن يكفيه أن يستنزف الأفراد الخاصين وأن يجنى ربحًا على حسابهم. لقد نهب مدنًا وخرب الأمة بكاملها. لقد تفادى فقط أن يعلن على الملأ أن لكل أن يسلب أو يسرق

كما يحب بشرط أن يحصل على نصيبه فقط. هكذا انتهينا إلى مأزق أصبحت فيه كل الأرض مهجورة، منذ أن ترك كثيرون وطنهم الأم وذهبوا لمناطق أجنبية" [1].

ألا يبدو هذا كتقرير يتعلق بفظاعات المائة السود CHIONOVNIKS الروس؟

أخيراً أتت الانتفاضة الكبيرة فى ظل فلورس، التى ثار فيها كل الشعب بكل قوته ضد معذبيه. تمردت أورشليم حينما إقترح فلورس نهب الهيكل، فى مايو، 66ب.م. أو بالأحرى، تمردت الطبقات الدنيا من سكان أورشليم. خاف أغلبية الأثرياء، الفريسيون وكذلك الصدوقيون، من هذا التمرد ورغبوا فى السلام. عنى التمرد ضد الرومان أيضًا بداية الحرب الأهلية. كان حزب الحرب منتصراً، استسلم حزب السلام فى قتال الشوارع، واضطر الفيلق الرومانى فى أورشليم أن يغادر المدينة ومزقت أوصاله حين كان يفعل ذلك.

كان عظيمًا حماس القتال عند المنتفضين، حتى أنهم نجحوا فى جعل جيش نجدة مكون من 300000 رجل وصل تحت قيادة الوفد الرسمى السورى سيستوس جالوس، يلوذ بالفرار.

هب اليهود فى كل فلسطين وبعيدا ما وراء حدودها، متمردين. تطلبت انتفاضة اليهود فى الإسكندرية استنهاض كل القوى العسكرية التى كانت للرومان فى مصر.

لم يكن أمرا وارداً بالطبع أن يهزم اليهود روما، لقد كانوا غاية فى الضعف، وكان طابع سكانهم حضريًا للغاية على وجه الحصر. ولكنهم ربما نجحوا مع ذلك فى انتزاع بعض الاعتبار ليهوذا من الرومان لبعض الوقت على الأقل، اذا كان المتمردون قد اتخذوا موقفا هجوميا مباشرة وبحيوية، وتابعوا المكاسب التى أحرزوها. فسرعان ما كانت الأوضاع ستصبح فى صالحهم. فى العام الثانى من الحرب اليهودية، ثار الجنود فى القسم الغربى من الإمبراطورية ضد نيرون، استمر التناضل بين الفيالق المختلفة حتى الى ما بعد موته. (9يونيو، 68ب.م)؛ أولى فسباسيان، القائد الأعلى للجيش الذى كان سيعيد السلام إلى يهوذا، اهتماما أعظم بما لايقاس للأحداث فى الغرب، التى تضمنت السيطرة على الإمبراطورية، من الحرب المحلية الصغيرة التى جُر إليها.

ولكن الفرصة الضئيلة الوحيدة التى عَرَضَتْ نفسها للمتمردين قد أُهملت. سوف يتذكر القارئ ان الطبقات الأدنى هى التى أعلنت الحرب على الرومان وهزمت حزب

---

58 الحرب اليهودية، 2، 14، 1، 2.

السلام اليهودى. ولكن كان لايزال لدى الأثرياء والمثقفين قوة كافية لإحراز السيطرة على إدارة الحرب ضد الرومان، انتهاء إلى ان هذه الحرب لم تكن قد شنت قلبا وقالبا، بغرض هزيمة العدو، وإنما بغرض الوصول إلى تفاهم معه فحسب. بالطبع لم تبقى هذه الطبقة العليا فى موضع القيادة لفتره طويلة، لاحظ المتمردون فى النهاية كيف حارب قادتهم بفتور، ونجح الغيورون **zealots** الآن فى السيطرة على السلطة العسكرية.

"عزا حزب الشعب المتعصب مجرى الأحداث سيئ الحظ - وقد كان كذلك بحق - إلى الافتقار للطاقة الذى أبدته الإدارة السابقة للحرب. خاطر رجال الشعب من ثم بكل شيء من أجل أن يسيطروا على الوضع بأنفسهم وأن يطردوا القادة السابقين. حيث أن الأخيرين لم يتخلوا طوعا عن مركزهم، أعقب ذلك حرب أهلية دموية فظيعة فى أورشليم فى شتاء 67- 68، مع أعمال وحشية يمكن أن نجد شبيهًا لها فقط فى الثورة الفرنسية الأولى" 1.

فى الواقع، لايستطيع اى مراقب لهذه الأحداث أن يتفادى إجراء مقارنة مع الثورة الفرنسية. ولكن بينما كان حكم الإرهاب فى فرنسا قد استخدم كوسيلة لإنقاذ الثورة وتمكينها من التقدم بنجاح ضد جيوش كل أوروبا، كان مِثْل هذا النتاج ممتنعا مسبقا، بسبب طبيعة الحالة، فى أورشليم. أتى حكم الإرهاب الذى أسسته الطبقات الأدنى متأخرا جدا فى أورشليم ليقتنص فترة راحة قصيرة للدولة اليهودية، لأن أيام الأخيرة كانت معدودة. أفضى اللجوء إلى الإرهاب فقط لإطالة الصراع، مُزيدا معاناته، ومفاقما غضب المنتصر النهائى (للقيام) بفظاعات أسوأ. ولكنه أدى إلى انه ترك للعالم مَعْلَمًا للاحتمال، والبطولة، والتفانى، التى تتفرد بأثرها لأبعد مدى وسط مستنقع الجبن العام وأنانية هذه الأزمنة.

لم يستمر كل السكان اليهود بأورشليم لثلاث سنوات، حتى سبتمبر، 70 ب.م، فى القتال فى المعركة اليائسة ضد عدو متفوق بالطريقة الأشجع، الأشد عنادا، والأشد ذكاءً، مغطين كل بوصة من الأرض بالجثث، قبل ان يستسلموا، بينما أضنتهم المجاعة والمرض، واستُنفدوا فى الخرائب المحترقة. وجد القسم الأعظم من الكهنة، والكتبة، والتجار، الأمان باكرًا فى الحصار. لقد كان الحرفيون الصغار والبدالين

1 Schïrer, Geschichte des Jüden Volkes, Vol, I , P. 617.

وكذلك بروليتاريي أورشليم هم من أصبحوا أبطال أمتهم، مع الفلاحين المتبتلرين **proletarised** من الجليل الذين وجدوا طريقهم إلى أورشليم.

كان هذا هو المناخ الذى ظهر منه المجمع المسيحى. انه لايقدم على الإطلاق تلك الصورة الباسمة التى صورها لنا رينان فى مؤلفه حياة يسوع، حين يصف بيئته، لأن رينان أسس صُوَرَهُ ليس بالاستناد على التفكر فى الشروط الاجتماعية لهذا الزمن وإنما على الانطباعات الفاتنة التى يتلقاها السائح المعاصر فى الجليل. لهذا يجد رينان من الممكن أن يقول فى روايته عن يسوع (حياة يسوع)، ان هذا البلد الجميل فى زمن يسوع "امتاز بالوفرة، والبهجة، والراحة حتى ان اى تاريخ عن أصل المسيحية يجب أن يتخذ شكل أنشودة رعوية جميلة". لابد وأن أقول، ليس أكثر مدعاة للبهجة، من شهر مايو الجميل فى باريس عام 1871 (يشير كاوتسكي هنا إلى مجازر كومونة باريس المترجم).

ط - الإسينيون

ولكن يجب أن نعترف أنه فى وسط الصورة الفظيعة للكارثة والدماء التى تمخض عنها تاريخ يهوذا فى عهد المسيح، هناك مرحلة تخلق الانطباع عن نموذج سلمى. انها طائفة الإسينيين أو الأسيانيين [1]، التى ظهرت، وفقا ليوسيفوس، حوالى عام 150 ق.م، واستمرت فى الوجود حتى تدمير أورشليم، وإذ ذاك تختفى من التاريخ.

مثل الغيورين **zealots**، كان الإسينيون ذوى أصل بروليتارى، وإن اختلفوا تماما فى طابعهم. لم يطور الغيورون **zealots** نظرية خاصة بهم عن المجتمع؛ ولم يتمايزوا عن الفريسيين بالغاية التى استهدفوها، ولكن بوسائلهم، بالقسوة والعنف التى حاربوا بها لتحقيق هذه الغاية. اذا ما تحققت الغاية، إذا ما أخذت أورشليم مكان روما كسيدة للعالم، متلقية كل الكنوز التى تهبط الآن على روما، سوف يتوقف عوز كل الطبقات. بدت القومية عادلة بالنسبة للبروليتاريين لتجعل الاشتراكية غير ضرورية. عَبَّر الطابع البروليتارى عند الغيورين عن نفسه فقط فى الحيوية والتعصب لوطنيتهم.

ولكن لم يكن كل البروليتاريين مستعدين لانتظار المخلص لتحسين وضعهم حتى يأتى بأورشليم جديدة تحكم العالم. سعى الكثيرون لتحسين وضعهم على الفور، وحيث لم يبدو أن السياسة تقدم أى علاج مباشر، فقد بدأوا بمسألة التنظيم

---

60 يكتب يوسيفوس "الإسينيون" فيلون "الإسيانيون". الكلمة هى الصيغة الإغريقية للكلمة السورية **khasi** (بالعبرية **khasid**) "ورع". جمع الكلمة له شكلان: **khasen** و **khasuya**.

الاقتصادى. من المحتمل أن الإسينين قد دانوا بأصلهم لهذا الموقف، ولايخبرنا التراث بشيء عن الموضوع.

ولكن طبيعة تنظيمهم واضحة، لقد كانت شكلا ظاهرا من الشيوعية. فى زمن يوسيفوس كان هناك أربعة آلاف إسينى، يعيشون فى منازل الطائفة فى قرى متعددة ومدن ريفية من يهوذا.

يقول فيلون عنهم: "هناك عاشوا معًا" انتظموا فى جمعيات، اتحادات حرة، نوادى إيواء (κατά θάσονς έταίρίας σνσσίτια ποιομενοι) ومنشغلين دائما بمهام مختلفة من أجل الجماعة.

"لأن لاأحد منهم يرغب فى أن تكون له ملكية تخصه، سواء بيت، أو عبد، أو أرض، أو قطعان، أو أى شيء آخر منتج للثروة. وإنما بالأحرى، جامعين معا كل شيء بلا استثناء، كل ربح عام منها لهم جميعهم.

"النقود التى يكسبونها بمختلف أنواع العمل، يودعونها لدى امين منتخب، الذى يتلتاها ويشترى بها ماهوضرورى، مزودا إياهم بطعام وفير وكل شئ مطلوب للعيش ".

ربما نستنتج من ثم أن كل واحد كان ينتج لنفسه أو يعمل بأجر.

يصف يوسيفوس حياتهم كما يلى:

"فور ذلك (بعد صلاة الصباح) ينصرفون (بتوجيه) مشرفيهم وينطلق كل منهم إلى عمله الذى تعلمه، وبعد ان يعمل الجميع باجتهاد حتى الساعة الخامسة (تحسب من شروق الشمس حتى الحادية عشر صباحا) يتجمعون فى مكان معين، يطوقون انفسهم بملابس كتانية، ويغسلون أجسادهم بماء بارد. بعد هذا التطهر يدخلون فى قاعة الطعام، التى لايسمح بالدخول إليها لمن لم يكن من طائفتهم. يدخلون إليها نظيفين واطهارًا كما لو كانوا يدخلون معبدا. بعد أن يجلسوا فى صمت، يأتى الخباز ويضع خبز كل رجل أمامه، ويضع الطاهى بالمثل أمام كل أناء طعام؛ عندئذ يأتى الكاهن ويبارك طعامهم. وليس من المسموح أن يمس الطعام حتى تنتهى الصلاة. بعد أن تؤكل الوجبة، يقدمون الشكر بالمثل، وهكذا شكروا الرب فى بداية وختام وجبتهم باعتباره واهب كل طعام. وبعد ذلك يضعون عباءاتهم جانبا مرة أخرى، باعتبارها رداءا مقدسا، ويشرعون مرة أخرى فى عملهم حتى المساء. انهم يتشاركون فى عشائهم مثلما فعلوا تماما فى غذائهم، واذا كان هناك ضيوف (من المحتمل أعضاء الطائفة من مدن أخرى، لأن الغرباء لم يكن مسموحا لهم بالدخول إلى قاعة الطعام، ك). يسمحون

للأخيرين بأن يجلسوا على المائدة معهم. ليس هناك أبدا صراخ ولا أى إزعاج ينتهك قدسية البيت، وإذا تحدث كل منهم مع الآخر، فالواحد يتحدث بعد الآخر، وليسوا جميعا فى نفس الوقت، حتى أن الأشخاص خارج بيتهم يعتبرون الهدوء الذى يخيم على المبنى يثير رهبة توحى بالغموض. سبب حياتهم الصامتة هو اعتدالهم الدائم، فهم لايأكلون ولايشربون أكثر مما هو مطلوب لحفظ حياتهم.

"كقاعدة فانهم لايقومون بعمل سوى ما يكون بتعليمات مشرفيهم، ولكنهم ربما يقدمون تعبيرا حرا عن مشاعر شفقتهم وخيريتهم، حينما يتطلب سوء الظروف ذلك، ربما يقدم كل منهم مساعدة لهؤلاء الذين يحتاجونها ويستحقونها، ويعطون أيضًا الطعام للفقراء. ولكن ربما لايعطون أى شئ للأصدقاء والأقارب بدون أن يخطروا مشرفهم مسبقا أو أمينهم".

دُفعت الشيوعية بينهم إلى الحد الأقصى، وامتدت حتى لأمور الملابس. يخبرنا فيلون: "ليس طعامهم فقط، وإنما أيضًا ملابسهم عامة للجميع. هناك عباءات سميكة لوقت الشتاء، وثياب خفيفة لوقت الصيف، كل واحد مسموح له أن يستخدمها حسب اختياره. لأن ماهو مملوك لشخص، يخص الجميع، بينما ما هو مملوك للجميع يخص كل واحد".

لم يُحبذوا العبودية. كانت الزراعة مهنتهم الرئيسية، ولكنهم عملوا أيضًا كحرفيين. لقد منعوا فقط إنتاج مواد الترف وأدوات الحرب، وكذلك كل تجارة.

كان أساس كل نظامهم الشيوعى جماعية للاستهلاك، وليس للإنتاج الاجتماعى. ممالاريب فيه، أن الأخير حتى قد اقترح، ولكننا قرأنا أيضًا عن مهام أنجزها الفرد اتت له بنقود، سواء فى شكل أجور، أو كمقابل للسلع المبيعة، ولكن هذه المهام أنجزت خارج هيئتهم الإجتماعية. من ناحية أخرى، كان كل أعضاء الطائفة لهم مأواهم ووجباتهم بشكل مشترك، وهذا هو ما خدم بصفة رئيسية فى إبقاءهم معا. هذه هى شيوعية الاقتصاد المنزلى المشترك، الذى يتطلب التخلى عن الاقتصاد المنزلى المعزول، للعائلة المعزولة، ومن ثم أيضًا عن الزواج الفردى.

نجد فى الواقع أن كل التنظيمات المؤسسة على شيوعية الاستهلاك، على اقتصاد منزلى مشترك، تواجه صعوبات ترجع إلى الزواج الأحادى، وانها تسعى من ثم لإلغائه. هناك طريقتان يمكن بهما عمل ذلك - وهما تمثلان القطبان المتعاكسان فى العلاقات الجنسية، واللتان تبدوان متعارضتان تماما كل منهما مع الأخرى، أى

العفة المتطرفة و"الشر" المتطرف. ومع ذلك فان هاتين الطريقتين تتبعان بشكل متساوٍ على الأغلب فى التنظيمات الشيوعية. من زمن الإسينيين، فى كل الطوائف الشيوعية المسيحية، حتى المستعمرات الشيوعية الطائفية فى الولايات المتحدة فى زمننا، ربما نتتبع هذا الاتجاه لرفض الزواج، وهذا الميل لتحبيذ العزوبية أو جماعية الزوجات.

لن يكون هذا متصورا اذا كانت هذه الشيوعية وبناؤها الفوقى العقلى مؤسسان على اعتبارات أيديولوجية فحسب، ولكن من السهل تفسيرها على أساس شروطها الاقتصادية.

لم يحبذ أغلب الإسينيين ملامسة النساء على الإطلاق.

"لقد احتقروا الزواج، ولكنهم تبنوا أطفالا غرباء، اذا كانوا مازالوا صغاراً ولايزال يمكن تعليمهم، احتفظوا بهم كأطفالهم، ووجهوهم فى عاداتهم وقواعد سلوكهم. إنهم لايرغبون فى أن يلغوا أو يمنعوا زواج وتناسل الإنسان. ولكنهم يقولون أن على المرء أن يكون حذرا بسبب عدم طهارة النساء، لأنه لاتوجد إمراة ترضى برجل واحد فقط". وهذا هو يوسيفوس فى الفصل الثامن من الكتاب الثانى من مؤلفه **تاريخ الحرب اليهودية**، الذى أوردنا منه الاقتباسات الآنفة التى تتعلق بالإسينيين. وفى الكتاب الثامن عشر من مؤلفه **آثار اليهود**، الفصل الأول، يقول أيضًا حول هذا الموضوع:

"انهم لايأخذون زوجات ولايستبقون عبيدا. وهم يتخيلون أن الأخير ليس عدلا، وأن الأول يثير الخلاف".

فى كلتى الحالتين يعزو يوسيفوس اعتبارات عملية فقط كسبب لمعاداة الزواج، وليس دافعا زهديا، وقد عرفهم يوسيفوس من ملاحظته الخاصة، وكان قد ضم جهوده بالتعاقب، إلى الصدوقيين، الإسينيين، والفريسيين، وفي النهاية بقى مع الأخيرين.

يوسيفوس من ثم هو أفضل من يخبرنا عن سبب معارضة الإسينيين للنساء، الذى لايعنى أن هذه الاعتبارات كانت بالضرورة هي السبب النهائى لهذه المعارضة. يجب أن نميز دائما بين الحجج التى يقدمها الإنسان كأسباب لأفعاله، والدوافع السيكولوجية التى تشترط بالفعل هذه الأفعال. بضعة أشخاص يعون بوضوح هذه الدوافع. يحب مؤرخونا أن يقبلوا الحجج التى وصلتهم باعتبارها الدوافع الحقيقية للأعمال والشروط التاريخية. وهم يدينون "البحث عن الدوافع الحقيقية" باعتباره "إنشاء" تحكميا، أى، إنهم يرغبون فى ألا تحرز معرفتنا التاريخية مستويات أعلى من تلك التى تحققت فى الأزمنة التى يحددها تاريخ مصادرهم. إن كامل المتن الواسع

للمادة التى تراكمت منذ هذه الأزمنة، تُمكننا من ان نعزل العناصر الأساسية والنموذجية فى أكثر الظواهر التاريخية تنوعا عن العناصر غير الأساسية والعرضية، وأن نكتشف الدوافع الحقيقية للبشر التى تكمن خلف دوافعهم المفترضة - علينا أن نعتبر كل هذه المادة كأنها غير موجودة !

إن من يعرف تاريخ الشيوعية سوف يفهم على الفور انها لم تكن طبيعة النساء، وإنما طبيعة الاقتصاد المنزلى الشيوعى، التى اثارت اشمئزاز الإسينيين من الزواج. حيث عاش كثير من الذكور والإناث معا فى اقتصاد منزلى مشترك، فان إغراءات الزنا وعدم التوافق الزوجى بسبب الغيرة كانت كثيرة جدا. ما لم يتخل المرء عن مثل هذا الاقتصاد المنزلى، كان المرء مضطرا بالضرورة اما ان ينكر سكن الرجال والنساء معا، أو الزواج الأحادى.

لم يتبنى كل الإسينيين المنحى الأول. يروى يوسيفوس فى الفصل الثامن من الكتاب الثانى من **الحرب اليهودية**، الذى اقتبسنا منه مرارا كثيرة:

"هناك نوع آخر من الإسينيين، الذين يشبهون الأولين تماما فى نمط حياتهم، عاداتهم وتنظيماتهم، ولكنهم يختلفون عنهم فقط فى النظر إلى الزواج، لأنهم يقولون إن هؤلاء الذين يحجمون عن المعاشرة الزوجية يحرمون الحياة من وظيفتها (μέρος) الأكثر اهمية، فلابد وان يتناقص النسل بثبات، ويضمحل الجنس البشرى بسرعة، اذا فكر الجميع مثلهم. عند هؤلاء الإسينيون عادة اختبار زوجاتهم لمدة ثلاث سنوات (δοκιμάιοντες). إذا أظهرت النساء بعد ثلاثة قروء أنهن صالحات للحمل بالأطفال، يتزوجهم الإسينيون. وبمجرد أن تحمل امرأة، لايعود يباشرها زوجها، غاية هذه الممارسة هو أن يظهروا أنهم "تزوجوا ليس من اجل ملذات الجسد، وإنما من أجل أن ينجبوا أطفالاً".

ليس هذا المقطع واضحا تماما، وكيفما كان الأمر، فإنه يذهب لتبيان أن زواجات الإسينيين هذه كانت مختلفة عن الزواج الشائع. ليست "اختبارات" النساء قابلة لأى افتراض آخر، على أية حال، غير افتراض نوع من مشاعة الزوجات.

من البناء الفوقى الأيديولوجى الذى نشأ على القواعد الاجتماعية، فان فكرة واحدة تستحق الذكر، أى، غياب حرية الإرادة، التى احتفظ بها الإسينيون فى تعارض مع الصدوقيين، الذين اعتقدوا بحرية الإرادة، والفريسيين، الذين أخذوا موقفا وسطيا.

"بينما يدافع الفريسيون عن أن كل شيء يجري بالاتفاق مع القدر، فإنهم رغم ذلك لايلغون إرادة الإنسان الحرة، ولكنهم يعلنون أن الله قد سره أن يحدث نوعا من المزيج بين قرار القدر وقرار الإنسان، الذى يرغب فى أن يفعل الخير أو الشر" [1].

"الإسينيون من ناحية أخرى، يعزون كل شئ إلى القدر، يعتقدون أن لاشئ يصيب الإنسان اذا لم يكن مقدرا. ولكن الصدوقيون لايعتقدون بالقدر على الإطلاق. يقولون أنه لايوجد شئ كهذا، وانه لايحكم مصير البشر، وهم يعزون كل شيء لإرادة الإنسان الحرة، مما مؤداه ان عليه أن يشكر إن أصابه الخير، بينما عليه أن يعزو الأحداث المعاكسة لحماقته الخاصة" [2].

يبدو وكأن هذين الموقفين المختلفين نتاج الفلسفة وحدها. ولكن القارئ يعرف بالفعل أن كلا من هذين الاتجاهين يمثل طبقة مختلفة، وإذا قرأنا التاريخ بعناية، فإن الطبقات الحاكمة تميل غالبا لقبول فكرة حرية الإرادة، بينما غالبا ما لاتفضل الطبقات المضطهدة أكثر، من ناحية أخرى، فكرة إرادة حرة.

وهذا سهل الفهم للغاية. تشعر الطبقات الحاكمة بنفسها حرة فى أن تتصرف أو تمتنع عن الفعل، كما يتراءى لها. ليس هذا نتيجة فقط لقوة مركزها، وإنما أيضًا (نتيجة) العدد الصغير لأعضائها. تصبح العملية الضرورية للقوانين الطبيعية واضحة فقط فى ظواهر واسعة النطاق، التى تنفى فيها الانحرافات المتعددة عن العادى كل منها الأخرى بشكل متبادل. كلما قل عدد الأفراد تحت الملاحظة، كلما كانت هيمنة العناصر الشخصية والعرضية أعظم من العناصر الشاملة النموذجية. تبدو الأخيرة فى حالة أحد الملوك غائبة كلية.

من ثم لايجد الحكام من الصعب اعتبار انفسهم أرفع من التأثيرات الاجتماعية، التى، مادامت لم تدرك، تبدو للبشر وكأنها قوى غامضة، مثل القدر، والمصير. تشعر الطبقات الحاكمة بنفسها أيضًا مدفوعة إلى أن تعزو حرية الإرادة ليس فقط لنفسها، وانما أيضًا للمحكومين من قبلها. يبدو بؤس الإنسان المستغل بالنسبة لهم وكأنه يرجع لخطأه؛ وتبدو كل واحدة من آثامه قاعدة إثم، ناشئة فحسب من فرح شخصى بالشر، وتتطلب عقوبة قاسية.

---

61 يوسيفوس، الآثار، 18، 1، 3.

62 يوسيفوس، الآثار، 13، 5، 9.

إن افتراض حرية الإرادة سوف يجعل من السهل على الطبقات الحاكمة أن تنجز وظائفها كقضاة وأوصياء على الطبقات المضطهدة مع شعور بالسمو الأخلاقى، والسخط، الذى لابد وأن يخدم بالتأكيد فى تعزيز طاقتها.

ولكن الكتلة العظمى من الفقراء والمضطهدين لابد وأن تشعر فى كل خطوة بأنها عبيد الظروف، القدر، وقرارته التى قد تكون غامضة بالنسبة لهم، ولكن التي كيفما كان الأمر فهى أقوى منهم. إن أجسادهم قد صنعت لتشعر بعبث المثل الذى القى عليهم بشكل خطابى من قبل المحظوظين: "كل إنسان هو مهندس حظه". إنهم يحاولون الهرب بلا جدوى من الشروط التى تضطهدهم. ويشعرون دومًا بضغط هذه الشروط. ويتعلمون من أعدادهم الكبيرة أنه ليس الفرد فقط من بينهم هو الذى يحدث له هكذا، وإنما أنهم يجرون نفس السلسلة. وهم يقدرون تماما أنه ليست افعالهم فقط ونتائج أفعالهم، وإنما مشاعرهم وأفكارهم واختياراتهم معتمدة تماما على الشروط المحيطة بهم.

قد يبدو مسليا أن نرى الفريسيين بسبب مركزهم الاجتماعى المتوسط قبلوا بالمثل بحرية الإرادة وايضا ضرورة القانون الطبيعى. مع ذلك، فعل الفيلسوف العظيم كانط، تحديدا نفس الشيء بعد زمنهم بألفى عام.

لا يتطلب بقية البناء الفوقى الأيديولوجى المؤسس على التركيب الإسينى للمجتمع معالجة أكثر هنا، رغم أن المؤرخ يولى معظم اهتمامه عادة لهذه النقطة فقط. لأن هذه الأفكار تعطيه فرصة لأن يؤسس أبحاثا عميقة عن أصل الإسينية فى الزرادشتية، أو البوذية، أو الفيثاغورثية، أو فى اى "إيه" ism اخرى.

السؤال فيما يتعلق بالجذور الحقيقية للإسينيية لايمكن أن يحل هكذا. تنشأ المؤسسات الاجتماعية داخل أمة دائما من حاجاتها الحقيقية، وليس من خلال مجرد التقليد للنماذج الأجنبية. ليس هناك شك فى أننا قد نتعلم من البلدان الأجنبية، أو العصور القديمة، ولكننا نقبل منها فقط بقدر مايمكن ان يستخدم، بقدر ما يتوافق مع حاجاتنا الخاصة. وجد القانون الرومانى على سبيل المثال ترحيبا فوريا فى ألمانيا بعد عصر النهضة لسبب وحيد أنه أجاب بشكل يثير الإعجاب على متطلبات طبقات معينة قوية وصاعدة، أى الملكية المطلقة والتجار. يوفر المرء على نفسه بالطبع مشاق اختراع أداة جديدة اذا كانت هناك أداة ناجزة جاهزة فى اليد. ولكن حقيقة أن أداة ما هى من

اصل أجنبى لن يفسر لم وجد استعمال لها فهذا يمكن أن يفسر بالاحتياجات الفعلية ضمن الأمة ذاتها فحسب.

أضف إلى ذلك، كل التأثيرات التى تكون قد مورست على الإسينيية من جانب الزرادشتية، البوذية، أو من قبل الفيثاغورثية ذات طبيعة مشكوك فيها للغاية.ليس هناك دليل فى أى مكان على التأثير المباشر لأى من هذه العناصر على الإسينيين. ويمكن أن تفسر التشابهات بينها فقط بحقيقة أنها جميعا قد نشأت تقريبا فى ظل نفس الظروف، التى مارست فى كل منها ضغطا فى اتجاه نفس محاولات الحل.

من المحتمل ان الأكثر معقولية من هذه الصلات هى تلك التى بين الفيثاغورثيين والإسينيين. حتى يوسيفوس يقول (الآثار، 15، 10، 4) انه كان للإسينيون نمط للحياة يشبة تماما (النمط) الفيثاغورثى. ولكن يمكن لنا ان نسأل كذلك ما اذا كان الإسينييون هم الذين تعلموا من الفيثاغورثيين أم الفيثاغورثيين منهم. بالطبع يدعي يوسيفوس (جدال ضد ابيون،22،1) ان فيثاغورث نفسه قد قبل الأفكار اليهودية ونشرها باعتبارها افكاره وتلك مبالغة يحتمل انها تقوم على التزوير، بغرض تمجيد اليهود.

فى الواقع، إننا نعرف بالكاد اى شيء محدد عن فيثاغورث، فقط بعد وقت طويل من موته نبدأ بالفعل فى الحصول على ماده غنية إلى حد معقول فيما يتعلق به، وتصبح الأخيرة اكثر تعددا وأكثر تحديدا - وأيضا أكثر جدارة بعدم التصديق - حيث يستطيل إنصرام الزمن منذ وفاته. لقد اشرنا فى البداية إلى أن فيثاغورث صار حاله حال يسوع، أصبح شخصية نموذجية نسبت إليها كل هذه الخصائص التى كانت مطلوبة من نموذج للأخلاقية، لقد أصبح أيضًا صانع عجائب ونبيا، الذى أعطى دليلا على مهمته الإلهية بواسطة أكثر الإنجازات استثنائية. تحديدا لأن لا شيء محدد قد عرف عنه، يمكن للمرء أن ينسب إليه أيا من الأعمال والكلمات التى ظن المرء أنها أفضل. أيضًا تنظيم الحياة الذين زعموا أن فيثاغورث قد أدخله، كان مشابها جدا (لتنظيم)، الإسينيين، بجماعية طيباته، قد يكون من أصل متأخر، ربما ليس أقدم كثيرا من الإسينى.

من المحتمل أن لهذه الفيثاغورثية أصل فى الإسكندرية [1]. واتصال ما مع اليهودية كان أمرًا طبيعيا جدا فى ظل هذه الظروف؛ وعليه من المحتمل تماما أن وجهات النظر الفيثاغورثية قد تسربت إلى فلسطين. العملية المعاكسة ممكنة أيضا. أخيرا، ليس أقل احتمالا أن كلا النظامين كانا ينهلان من مصدر مشترك، من ممارسة المصريين، لانه فى مصر انتهت المرحلة العليا للتطور الاجتماعى بالأحرى باكرًا بالمقارنة إلى أن تأخذ خطوة تأسيس المؤسسات الرهبانية.

إذا كانت الثقافة القديمة لمصر، وعملية انحلالها التى طالت، قد أنتجت ابكر من اى من اقسام الإمبراطورية الرومانية كرها لمسرات الحياة والملكية الخاصة، ورغبة فى الهرب من العالم، فان هذه الرغبة لايمكن أن تنفذ بملائمة فى أى مكان آخر أكثر من مصر، حيث بدت الصحراء دانية من مرتكزات الحضارة. فى اى قسم آخر من الإمبراطورية، يجد من يهرب من المدينة الكبيرة ملكية خاصة حتى فى الريف، وهذه كانت الأكثر اضطهادا من بين كل أشكال الملكية الخاصة، إنها الملكية العقارية، بخلاف ذلك فقد كان من الضرورى لمثل هذا الإنسان أن يعتزل فى البرية، أميالا عديدة بعيدا عن الحضارة، التى يمكن جعلها قابلة للسكن فقط بواسطة العمل الأكثر نشاطا، وشكل للعمل كان أقل مايكون ملائمة للساكن فى المدينة.

فى الصحراء المصرية، كما فى كل الصحراوات الأخرى، لم تكن هناك ملكية خاصة للأرض. مع ذلك لم يكن صعبًا العيش فى الصحراء. لم يتطلب مناخها نفقات عظيمة للبناء، الملابس، الوقود، حماية ضد قسوة الطقس. وكانت الصحراء غاية فى القرب من المدينة حتى أن الناسك يمكن فى اى وقت أن يتزود بسهولة باحتياجات الحياة من أصدقاءه، فى الواقع انه قد يؤمن حتى هذه المواد بنفسه بجهد المشى ساعة.

بدأت مصر من ثم فى عهد مبكر فى تطوير نظام نسك شبيه بنظام الرهبان. عندئذ ظهرت الفيثاغورثية الجديدة فى الإسكندرية، وأخيرا نشأت، فى القرن الرابع من عصرنا، الرهبانية المسيحية فى نفس المدينة. ولكن اليهود السكندريين طوروا أيضًا طائفة خاصة من الرهبان، اى (طائفة) المداوين **THERAPEUTE**. كتاب فيلون **حول حياة الحكمة**، الذى يروى لنا فيه عنهم، قد اعلن أنه منحول، ولكن يبدو الشك بلا اساس فى هذه الحالة.

---

63 حول هذا الموضوع، وكذلك حول الفيثاغورثيين بصفة عامة، ارجع إلى تسللر، فلسفة الإغريق، المجلدين 1و3. ظهرت ترجمة فى مجلدين فى لندن عام 1881- المترجم عن النص الالمانى.

وفقا لهذا التقرير فقد تخلوا عن كل الممتلكات كما يفعل الحكيم، مقسمينها بين أقاربهم وأصدقائهم، هجروا إخوتهم، وأطفالهم، وزوجاتهم، وأصدقائهم، وآبائهم، ومسقط رؤوسهم ووجدوا موطنهم الحقيقى بالتشارك مع آخرين من ذوى العقول المشابهة. وجدت هذه الجمعيات فى كثير من أجزاء مصر، خاصة بالقرب من الإسكندرية. هنا يعيش كل واحد منهم بنفسه فى صومعة بسيطة قريبة من صوامع الآخرين، ولكنه يقضى وقته فى تأمل ورع. غذائهم بسيط للغاية يتكون من الخبز، والملح والماء. فى السبت يتجمع الكل، رجالا ونساء، فى قاعة طعام عامة، التى ينفصل فيها الجنسين، على أية حال، بحاجز، ليغنوا ويسمعوا خطبا ورعة. وهم يدينون أكل اللحم، شرب الخمر، والعبودية ولكن لانسمع شيئا عن العمل فى نظامهم؛ من المحتمل أنهم يعيشون على الصدقات من أصدقائهم والراغبين فى الخير.

من المحتمل تماما أن اليهود السكندريون اتوا بأفكار المداوين THERAPEUTAE إلى فلسطين، وهكذا مارسوا تأثيرا على الإسينيين، ومع ذلك فان الاثنين مختلفان بصفة أساسية. المداوون THERAPEUTAE عاشوا فى بطالة تأملية على عمل الآخرين، وعمل الإسينيين بكد وكسبوا ما يكفى ليس فقط ما يمكنهم من العيش عليه، وانما حتى ان يعطوا المحتاج من فائضهم. كلاهما ادان الملكية الخاصة، ولكن المداوين لم تكن لديهم فكرة عما يمكن عمله بطيبات هذا العالم. كما كان العمل كريها بالنسبة لهم كالمتعه، لقد عاشوا دون أدوات إنتاج او استهلاك ووزعوا ممتلكاتهم على الأصدقاء والأقرباء. عمل الإسينيون، لذا فقد احتاجوا الأدوات، ومن ثم فإن أعضائهم لم يوزعوا هذه الممتلكات على أصدقائهم، إنما جمعوها للاستعمال المشترك.

فى العمل، يجب أيضًا ان يبقوا أكفاء، لابد وان يتناولوا غذاء كافيًا. الزهد المتزمت مستحيل بالنسبة لهؤلاء الذين يعملون.

الفرق بين المداوين من ناحية - خاصة الفيثاغورثيين الجدد - الذين بالنسبة للقسم الأعظم منهم ثرثروا حول الزهد فحسب، والروحانية، والتخلى عن الملكية، والإسينيين من ناحية أخرى، يدل على التضاد بين يهود فلسطين وبقية حضارة روما القديمة فى الزمن الذى نشأت فيه المسيحية.

نلتقى فى الإسينية بنفس النشاط الذى صادفناه عند الغيورين، والذى يرفع بعظمة كبيرة يهود هذا العصر فوق كثرة الشكوى الجبانة للشعوب المتحضرة

الأخرى، التى هجرت المتعة والغواية لانها خافت من الصراع، حتى اتجاهاتهم الشيوعية اتخذت طابعا جبانا وزهديا.

كان الشيء الذى جعل الإسينية ممكنة، الحيوية اليهودية، ولكن ليست وحدها، فعوامل أخرى مسئولة أيضًا عن جعل هذه الظاهرة تتجلى بين اليهود أكثر منها فى اى مكان آخر.

نجد فى القرن الأخير قبل المسيح، أن الفقر المنتشر قد ترافق مع رغبة متزايدة عند البروليتاريين وأصدقائهم لعلاج الشر بواسطة تنظيماتهم. تخدم الوجبات المشتركة، وهي البقية الأخيرة من الشيوعية الأصلية، أيضًا كبداية للشيوعية اللاحقة.

ولكن كانت الحاجة بين اليهود للاتحاد والمساعدة المتبادلة عظيمة بصفة خاصة. ابناء البلد الذين يعيشون فى الخارج سوف يتضامنون على نحو أكثر قربا مما فى الوطن، ولم يكن هناك احد لامأوى له، وأكثر دواما فى البلدان الأجنبية من اليهودى خارج يهوذا. ومن ثم كان اليهود بينهم أنفسهم يتسمون بفعل الخير الذى كان ملفتا للنظر بقدر امتناعهم عن ذلك فيما يتعلق بغير اليهود. يذكر تاسيت فى نفس الوقت كراهيتهم نحو كل الأمم الأخرى، وخيريتهم الحاضرة دائما كل منهم نحو الآخر [1].

يبدو أنهم تشبتوا بعناد خاص بتنظيماتهم لتناول وجبات مشتركه. بخلاف ذلك سوف يكون من المستحيل تفسير لماذا كان على قيصر، الذى منع كل التنظيمات التى لم تكن ذات عمر كبير، ان يقوم باستثناء التنظيمات اليهودية.

"بينما جعل تأسيس كل التنظيمات المستقلة الأخرى التى تحوز ملكية خاصة بها تعتمد على اقرار من مجلس الشيوخ، فلم يضع شيئا فى طريق تشكيل التنظيمات اليهودية ذات الوجبات المشتركة وملكيتها الخاصة. بالنظر إلى الرغبة فى الزمالة واسعة الانتشار التى وسمت التنظيمات التى خشيت منها الدولة كثيرا واضطهدت من قبل الدولة، فإن هذا التفضيل للتنظيمات الدينية اليهودية أدى بعدد كبير من الوثنيين لطلب الالتحاق بالجماعة اليهودية، الذى منح لهم دون صعوبة [2].

---

64 تواريخ 5: 5.
2 O. holtzmann , das ende des jüdischen stattswesens und die entstehung des christentum , 1888 , p 460.

لقد كان من الطبيعى لمثل هذا الاتحاد، اذا كان بروليتياريا، أن يتخذ طابعا شيوعيا خالصا. لكنه كان من الصعب للتنظيم فى مدينة كبرى أن يفعل أكثر من تقديم وجبات مشتركه من المؤن المشتركة. ولم تكن هناك حاجة شديدة لأكثر من ذلك، لم يكن ارتداء الملابس أمرا مهما بين البروليتاريين فى اوربا الجنوبية، لقد كان زينة أكثر منه حماية من الطقس. استطاع بروليتاريو المدينة دائما ان يجدوا ركنا يناموا فيه. أضف إلى ذلك، فان مهنهم وزعتهم عادة على أقسام المدينة المختلفة، وتمثلت فى التسول، السرقة، البدالة، حمل الاثقال إلى آخره.

الوجبة المشتركة للتنظيم - التى أسهم فيها كل عضو بحصته والتى حضرها كل عضو، بغض النظر عن انه صادف ان يكون فى مركز من يساهم ام لا - كانت الرابطة الأشد أهمية التى تلحم التنظيم، أكثر الوسائل أهمية فى حماية العضو الفرد ضد تقلبات الحياة، وهى شديدة الخطر بالنسبة لهؤلاء الذين لم تكن لهم ملكية.

ولكن لم يكن نفس الشيء فى المدينة كما فى الريف. فى المدينة، الاقتصاد المنزلى، والحرفة مرتبطان بوثوق. تتطلب الوجبات المشتركة أيضًا سكنا مشتركا وإدارة مشتركة. لم تكن المؤسسات الزراعية الكبيرة شيئا غير عادى فى هذه الازمنة: تدار إما بواسطة العبيد أو عائلات شيوعية كبيرة، أخويات المعيشة، إنها (سمة) خصوصية لتلك المرحلة من المجتمع.

ولكن كانت فلسطين الإقليم الوحيد الذى كان لليهود فيه طبقة فلاحية، الأخيرة، كما رأينا، كانت على اتصال وثيق دائم مع مدينة أورشليم الكبيرة والبروليتاريا فيها. لقد كان من ثم من غير الصعب للاتجاهات الشيوعية، وهي أكثر طبيعية بالنسبة للبروليتياريا اليهودية أكثر من أى أحد آخر فى هذه الفترة، ان تتسرب إلى مقاطعات الريف وتحرز هناك التطور الذى يميز الإسينيين.

كان الأساس الاقتصادى للتنظيم الإسينى الاقتصاد الفلاحى. "لقد انخرطوا جميعا فى الزراعة" . هو تصريح يوسيفوس المبالغ فيه إلى حد ما. (**الآثار**،18، 1، 5).

ولكن مثل هذا التنظيم كان من الممكن أن يحافظ على نفسه فقط فى الولايات التي تتسامح فيها معه الدولة. لا يمكن ان يوجد تنظيم تعاونى إنتاجى كجمعية سرية، خاصة فى الريف.

كانت الإسينية من ثم مرتبطة بوجود الحرية اليهودية. عنى تدمير الأخيرة تدمير الأولى ايضا. ولم تكن قادرة على الوجود فى مدينة كبرى، خارج فلسطين حرة، كجمعية سرية.

كان مقدرا لمدينة أورشليم الكبيرة بالرغم من ذلك أن تطور شكلا من التنظيم تبين انه أكثر قابلية للتكيف من اى تنظيم آخر لاحتياجات البروليتياريا الحضرية عبر الإمبراطورية، وأخيرا حتى أكثر قابلية للتكيف أكثر من أى تنظيم آخر لاحتياجات الإمبراطورية ذاتها.

ولد هذا التنظيم من اليهودية، وامتد على اتساع الإمبراطورية بكاملها وتمثل كل العناصر ذات الموقف الجديد تجاه الحياة، الذى نشأ من التحول الاجتماعى وتحلل العصر.

علينا الآن أن ندرس هذا التنظيم، وهو المجمع المسيحى.

* * *

القسم الرابع
بدايات المسيحية

الفصل الأول
المجمع المسيحى الأولى

أ- الطابع البروليتارى للمجمع

لقد رأينا أن الطابع القومى المحض للغيورين الديمقراطيين لم يستجب لحاجة كثير من العناصر البروليتارية فى أورشليم. ولكن الفرار من المدينة الكبيرة إلى الريف المفتوح، الذى كان مسعى الإسينيين، لم يكن يلائم ذوق كل أحد. كان الحال آنذاك، مثله الآن، حيث من السهل الهرب من الريف، ومن الصعب الهرب من المدينة. لم يعد البروليتارى الذى أصبح معتاداً على حياة المدينة يشعر بأنه على راحته حين يكون فى الريف. ربما وجد الأغنياء، فى قصورهم الريفية، تغييراً مبهجاً من اضطراب المدينة الكبيرة، ولكن العودة إلى الريف فى حالة البروليتارى عنيت له عملاً شاقاً فى الحقول، لم يتعلم أن يقوم به، ولم يكن كفؤا له.

فضل جمهور البروليتاريين بالضرورة، فى أورشليم وكذلك فى المدن الكبيرة الأخرى، أن يبقوا فى المدينة. لم تقدم لهم الإسينية ما احتاجوا إليه. بالتأكيد ليس لهؤلاء الذين إنتموا من بينهم إلى البروليتاريا الرثة وأصبحوا معتادون على العيش كطفيليات اجتماعية.

نشأ هناك بالضرورة بجانب الغيورين **Zealots** والإسينيين اتجاه بروليتارى آخر، موحداً الاتجاهين الغيوري والإسينى فى حركة واحدة. تجلى التعبير عن هذا الاتجاه فى مجمع المخلص.

من المعترف به بصفة عامة أن المجمع المسيحى قد احتضن بصفة أصلية عناصر بروليتارية تقريبا على وجه الحصر، وكان تنظيما بروليتاريا. وكان هذا صحيحا لفترة طويلة بعد البدايات الباكرة.

يشير القديس بولس فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين أنه لا الثقافة ولا الملكية كانت ممثلة فى المجمع.

"فانظروا دعوتكم، أيها الإخوة، أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى" [1].

قدم فريدلاندر وصفا جيدا للطابع البروليتارى للمجمع المسيحى الأولى فى كتابه الحياة الرومانية وآداب وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكرة، الذى اقتبسنا منه سلفاً عدة مرات:

"أيا ما كان عدد الأسباب التى أسهمت فى انتشار الإنجيل، فمن المؤكد أنه قبل منتصف أو نهاية القرن الثانى فقد كان له فقط بضعة أتباع معزولين وسط الطبقات العليا. لم يقدم فقط تمرسها الفلسفى، وتعليمها العام المرتبط بوثوق بتعدد الآلهة، المعارضة الأقوى، وإنما بالإضافة لذلك، أدى الإعلان المسيحى للإيمان إلى أشد النزاعات خطراً مع النظام القائم للأشياء، وأخيراً، فإن رفض كل المصالح الأرضية كان بالطبع أشد صعوبة لهؤلاء الذين امتلكوا الشرف، والثروة والنقود. يقول لاكتانتيوس إن الفقراء والأدنياء، أكثر استعداداً للإيمان من الأغنياء، الذين ثار عدائهم بلا شك بطرق مختلفة ضد الاتجاهات الاشتراكية الخاصة بالمسيحية. من ناحية أخرى، ساعد انتشار المسيحية فى الشريحة الأدنى من المجتمع، إلى حد ملحوظ تشتت اليهود، الذي لابد وأنه كان سريعًا جدًا، ولابد وأن عدد المسيحيين باكرًا فى عام 64 كان ذو وزن، خاصة فى روما".

ولكن كان هذا التوسع قاصراً لوقت طويل على بعض المواقع.

"تظهر التصريحات التى حفظت بشكل عرضى تماماً انه من 98 - 42، من 180 74، من 325 اكثر من 550، مكاناً ضمت جماعات مسيحية ".

"ولكن لم يشكل المسيحيون فى الإمبراطورية الرومانية أقلية صغيرة فقط كما هو الحال مؤخرا فى القرن الثالث، ولكن هذه الأقلية، على الأقل حتى بدايات القرن، قد أتت على وجه الحصر تقريباً من أدنى طبقات المجتمع. لقد كان مزحة بين الوثنيين أن المسيحيين تمكنوا من أن يحولوا (الى عقيدتهم) بسطاء العقول فقط، العبيد فقط، النساء والأطفال؛ وأنهم كانوا أجلافاً، غير متعلمين، وريفيون؛ وأن أعضاء جماعاتهم كانوا بصفة رئيسة أناساً لا اعتبار لهم، الحرفيون والنساء العجائز.

---

1 كورنثيين، 1، 26، ومايليها.

لم يجادل المسيحيون أنفسهم فى هذا. يقول جيروم: ليست جماعة المسيح مجندة، من الليسيوم LYCEUM والأكاديمية، وإنما من أدنى العامة (DE VILI PLEBECULA). لقد صادق بوضوح الكتاب المسيحين على انه، حتى منتصف القرن الثالث، لم يتسلل الإيمان الجديد سوى لعدد قليل من الأتباع ضمن الطبقات الأعلى. يقول إيوسيبيوس إن السلام الذى تمتعت به الكنيسة، فى ظل كومودوس (180 - 192ب.م) أسهم إلى "حد عظيم فى انتشارها " حتى أن عدة أشخاص فى روما، متميزون بحكم مولدهم وثروتهم، قد مالوا إلى "الخلاص بكامل بيوتهم وعائلاتهم". يقول أوريجن، فى حكم الإسكندر سيڤيروس (222 - 235 ب.م)، إنه "فى الوقت الحاضر يستقبل الرجال الأغنياء وكثير من أصحاب المقامات العليا، وكذلك سيدات رقيقات ذوى أصل نبيل، الرسل المسيحيين للكلمة ". أى، لقد حققت المسيحية عندئذ نجاحات لم تكن قادرة على التباهى بها سابقًا.... وعلى ذلك منذ زمن كومودوس فصاعدًا، تجلى انتشار المسيحية بين الطبقات العليا بشكل متعدد وواضح، بينما كان الحال بخلاف ذلك فيما يتعلق بالفترة السابقة..... الوحيدان ذوى المرتبة فى الوقت السابق على كومودوس، الذى يبدو أن تحولهما إلى المسيحية محتملاً، هما القنصل فلاڤيوس كليمنس، أعدم عام 59 ب.م. وزوجته (أو أخته)، فلاڤيا دوميتيلا التى نفيت إلى بونتيا" [1].

هذا الطابع البروليتارى للمسيحية الأولية ليس أقل الأسباب فى كوننا فقيرى المعرفة بهذه المرحلة الباكرة. ربما كان المدافعون الأوائل عنها أشخاصًا بلغاء للغاية، ولكنهم لم يكونوا ضليعين فى القراءة والكتابة. كانت هذه الفنون أكثر غرابة بالنسبة لعادات، جماهير الناس فى تلك الأيام منها الآن. كان التعليم المسيحى لتاريخ مجمعهم مقصور لعدد من الأجيال على النقل الشفوى، بلاغ أشخاص مستثارين بانفعال شديد، سذج إلى حد لايصدق، تقارير عن أحداث شهدتها فقط حلقة صغيرة، هذا إذا كانت قد حدثت بالفعل على الإطلاق؛ والتى لم يكن ممكننًا من ثم التقصى عنها من قبل جمهور السكان، وبالتأكيد ليس من قبل عناصره الناقدة وغير المتحيزة. فقط حينما تحول أشخاص أكثر تعليمًا، من مستوى اجتماعى أعلى، إلى المسيحية، اختطت بداية التثبيت المكتوب للتراث، ولكن حتى فى هذه الحالة لم يكن الغرض تاريخيًا بقدر ماكان جداليًا، للدفاع عن نظرات ومطالب معينة.

---

2 الحياة الرومانية وآداب وقواعد السلوك فى ظل الإمبراطورية الباكرة، المجلد 3، ص ص 205 - 208.

كثير من الشجاعة أو كثير من التحيز مطلوب، إذا تغاضينا عن جهل كامل بشروط الثقة التاريخية، لادعاء أنك قادر على تقديم سيرة CAREER وحتى أحاديث شخصيات معينة بيقين مطلق، على أساس الوثائق الأدبية التى أنتجت بالطريقة السابقة المليئة بالمستحيلات والتناقضات الصريحة. لقد بينا سلفاً فى مقدمتنا أنه من المستحيل أن نقول أى شيء محدد عن المؤسس المزعوم للمجمع المسيحى. بعدما قيل توا، ربما نضيف أنه ليس ضرورياً بالفعل أن نعرف أى شيء عنه. كل أنماط الفكر التى عينت بصفة عامة، فى معرض المدح أو الذم، باعتبارها مسيحية نموذجياً، قد ظهر أنها بالفعل نتاجات جزئياً للتراث الهيليني الروماني، وجزئياً التراث اليهودى. ليس هناك فكرة مسيحية واحدة تتطلب افتراض نبى رفيع وإنسان أعلى لتفسير أصلها، وليس هناك فكرة واحدة لايمكن أن نجدها قبل زمن يسوع فى الأدب "الوثنى" أو اليهودى.

إنه لأمر ضئيل الأهمية، بقدر ما يتعلق الأمر بمفهومنا التاريخى، على أى حال، أن نكون ملمين تماماً بما يخص شخصية يسوع ورسله، مع ذلك فإنه لفى غاية الأهمية أن تكون لدينا معلومات محددة تتعلق بطبيعة المجمع المسيحى الأولى.

لحسن الحظ ليس هذا مستحيلاً بأى حال من الأحوال. لايهم كيف زينت على نحو رائع أو كيف ملئت بالاختراعات المحضة الخطب وأعمال الأشخاص الذين يجلهم المسيحيون بوصفهم أبطالهم ومعلميهم، ليس هناك من شك في أن المؤلفين المسيحيين الأوائل كتبوا بروح المجامع المسيحية التى كانوا يعملون فيها ومن أجلها. لقد كانوا ببساطة ينقلون التراث من زمن أبكر، ولا ريب، ربما، غيروا فيما يتعلق بالتفاصيل، ولكن الذي كان طابعه الجوهرى مع ذلك محدداً جداً حتى أنهم كانوا ليواجهون معارضة نشطة إذا كانوا قد حاولوا أن يغيروا هذا التراث بأى طريقة فظة. ربما حاولوا أن يضعفوا أو أن يعيدوا تفسير الروح التى سادت فى بدايات المجمع المسيحى، ولكن لم يكن بإمكانهم أن يستبعدوها كلية. مازال من الممكن إثبات هذه التخفيفات، التي تصبح أجرأ بمجرد أن يفقد المجمع المسيحى أكثر فأكثر طابعه البروليتارى الأولى ويقبل المتعلمين وكذلك الأثرياء والشخصيات المحترمة كأعضاء. ولكن تمكننا هذه المحاولات تحديداً من أن ندرك بوضوح هذا الطابع البروليتارى الأصلى.

تجد المعرفة التى حزناها هكذا دعماً فى تطور الطوائف المسيحية اللاحق، المعروفة جيداً منذ بداياتها الأولى والتى تعكس بوضوح فى تاريخها اللاحق تطور المجمع المسيحى بعد القرن الثانى، كما نعرفه الآن. ربما نستنتج من ثم أن هذه

السلسلة من الأحداث شكلت قانونًا طبيعيًا، وأن البدايات، المعروفة لدينا جيدًا، للطوائف اللاحقة تقدم تناظرًا مع البدايات غير المعروفة للمسيحية. مما لاريب فيه، لايشكل برهانًا بالقياس كهذا دليلاً فى حد ذاته فقط ولكنه ربما يقدم بامتياز دعمًا للفرضية التى تشكلت بطريقة أخرى.

كلا هذين العنصرين، تناظر الطوائف اللاحقة، وكذلك البقايا المحفوظة بالفعل للتراث الباكر للحياة المسيحية الأولية، محدد تمامًا كأدلة عن اتجاهات توقعناها بشكل معقول مقدمًا بمعرفتنا الطابع البروليتارى للمجمع.

ب - الحقد الطبقى

فى المحل الأول، هناك حقد طبقى وحشى تجاه الأغنياء. هذا الحقد الطبقى واضح بجلاء فى إنجيل القديس لوقا، الذى كتب باكرًا فى القرن الثانى، خاصة فى حالة لعازر، التى نجدها فى هذا الإنجيل فقط (16، 19 وما يليها). فى هذا المقطع، يذهب الإنسان الغنى إلى الجحيم والإنسان الفقير إلى حضن إبراهيم، ليس بسبب أن الأول خاطيًا والأخير بارًا، لا يقال لنا شيء عن هذا. لقد أدين الإنسان الغنى لسبب بسيط هو انه إنسان غنى. يناديه إبراهيم: "أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك وكذلك لعازر البلايا، وهو الآن "يتعزى وأنت تتعذب". لقد كانت الرغبة فى الانتقام من جانب المضطهدين هى التى تمخضت عن هذا الوصف لدولة المستقبل. يجعل نفس الإنجيل يسوع يقول "ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى مملكة (βαισλξιφυ) الله، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من ان يدخل غنى إلى ملكوت الله". (71 / 42، 52). هنا أيضًا يدان الإنسان الغنى بسبب ثروته، وليس بسبب خطيئته.

بالمثل فى الموعظة على الجبل (لوقا 6/ 20 وما يليها): طوباكم أيها المساكين (ητωχοί) هم هؤلاء الذين بلغوا غاية الفقر حتى انهم لابد وأن يتسولوا): لأن لكم ملكوت الله، طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون؛ طوباكم أيها الباكون الآن: لأنكم ستضحكون..... ولكن ويل لكم أيها الأغنياء: لأنكم قد نلتم عزاءكم؛ ويل لكم أيها الشباعى! لانكم ستجوعون، ويل لكم ايها الضاحكون الآن! لأنكم ستحزنون وتبكون".

سوف يلاحظ القارئ انه ان يكون المرء غنيًا ويستمتع بثروته يعتبر جريمة، جديرة بأشد العقوبات قسوة.

مازالت نفس الروح فى رسالة القديس يعقوب إلى الاثنى عشر سبطًا فى الشتات التى يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثانى: " هلم الآن، أيها الأغنياء، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة، غناكم قد تهرأ وثيابكم قد أكلها العث؛ ذهبكم وفضتكم قد صدئا، وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار. قد كنزتم فى الأيام الأخيرة هوذا، أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم، المنجوسة منكم تصرخ: وصياح الحصادين قد دخل إلى أذنى رب الجنود. قد ترفهتم على الارض وتنعمتم؛ وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح. حكمتم على البار، قتلتموه، لايقاومكم. فتأنوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب ".(5، 1ومايليها)

إن القديس يعقوب يستشيط غضبًا حتى ضد هؤلاء الذين فى صفوفه، ضد هؤلاء الذين إنضموا إلى المجمع المسيحى:

"وليفتخر الأخ المتضع بارتفاعه: واما الغنى فباتضاعه، لأنه كزهر العشب يزول، لأن الشمس اشرقت بالحر فيبست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره. هكذا يذبل الغنى أيضًا فى طرقه..... اسمعوا يا إخوتى الأحباء. أما اختار الله فقراء (هذا) العالم أغنياء فى الإيمان، وورثة الملكوت الذى وعد به الذين يحبونه؟ واما انتم فأهنتم الفقير. أليس الأغنياء يتسلطون عليكم وهم يجرونكم إلى المحاكم؟ أما هم يجدفون على الاسم الحسن الذى دعى به عليكم" [1] ؟

قليلة هى المناسبات التى اتخذ فيها الحقد الطبقى للبروليتاريا الحديثة مثل هذه الأشكال المتعصبة كتلك الخاصة بالبروليتاريا المسيحية. فى اللحظات القصيرة التى حازت فيها بروليتاريا حقبتنا السلطة حتى الآن، لم تنهال بانتقامها أبدًا على الغنى. مما لاشك فيه أنها تشعر بنفسها اقوى بكثير اليوم مما شعرت به بدءًا بروليتاريا المسيحية الوليدة. ولكن من يعرف بأنه قوى يكون دائمًا أكثر ميلاً إلى أن يبقى رحب الصدر أكثر ممن هو ضعيف. إن علامة فقدان الثقة عند البورجوازية فى قوتها الخاصة أنها دائمًا تُنزِل مثل هذا الانتقام الفظيع ببروليتاريا ناهضة.

إن إنجيل القديس متى أحدث ببضعة عقود من (إنجيل) القديس لوقا. فى نفس الوقت، بدأ الأشخاص الأثرياء والمثقفون فى السعى للاتصال بالمسيحية، وبدأ كثير من الدعاة المسيحيين يستشعرون الحاجة لأن يضعوا المذهب المسيحى بشكل أكثر

---

3 يعقوب، 9- 11؛ 2/ 7- 5.

لطفاً حتى يجذبوا هؤلاء الناس. إن طريقة "أكل النار" المسيحية الأولية لم تعد متاحة. ولكن هذا الموقف الأقدم قد ضرب عميقاً بجذوره حتى يمكن إزاحته فحسب، وقد بُذل جهد من ثم ببساطة ل"مراجعته" بمعنى انتهازي. إن هذه الروح المُراجعة هي التى جعلت إنجيل القديس متى ""إنجيل التناقضات" [1]، وكذلك أيضًا "الإنجيل المفضل لدى الكنيسة". وجدت الكنيسة، فى هذا الإنجيل "الطابع الجرئ والثورى للحماس المسيحى الأولى والاشتراكية – وقد تعدل للغاية إلى وسيلة ذهبية ملائمة لانتهازية إكليركية، حتى إنه لم يعد يبدو كعقبة فى سبيل وجود كنيسة منظمة صنعت سلامها مع المجتمع الإنسانى".

بالطبع، حذف الكتاب المتعددون الذين اشتركوا بشكل متعاقب فى إنتاج إنجيل القديس مرقس كل الأجزاء غير الملائمة التى كان من الممكن أن يستبعدوها، مثل قصة لعازر، إدانة خلاف الميراث، الذى يقود أيضًا إلى تقريع مطول ضد الأغنياء (القديس لوقا 12 / 13 وما يليها). ولكن يحتمل أن الموعظة على الجبل أصبحت غاية فى الشعبية ومعروفة للغاية حتى يكون من الملائم معالجة هذا الحدث بنفس الطريقة. وعلى ذلك فقد هُذبت الموعظة. يقول يسوع عند متى ":"طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات.... طوبى للجياع والعطاشى إلى البر، لأنهم يشبعون".

بالطبع، أزالت هذه المراجعة الماكرة كل أثر للحقد الطبقى. إنهم الآن الفقراء فى الروح الذين سيُباركون. ليس من المؤكد أى ضرب من الأشخاص قد قُصدوا بهذا التعبير، ما إذا كانوا بلهاء، أو مثل هؤلاء المتسولين فقط فى خيالهم الخاص وليس فى الواقع، بمعنى آخر، هؤلاء الذين يستمرون فى الامتلاك بينما يزعمون أن قلوبهم ليست متعلقة بممتلكاتهم. من المحتمل أن الأخيرين هم الذين قُصدوا، ولكن كيفما كان الأمر فإن إدانة الثروة التى جرى التعبير عنها ذات مرة بإعلان مباركة المتسولين لم تعد موجودة. من المسلى أن نجد أن الجوعى قد تحولوا الآن إلى هؤلاء الجوعى للعدالة، الذين يطعمون بمنظور أنهم سيشبعون من العدالة. الكلمة الإغريقية المترجمة هنا ب"لأنهم يشبعون" (χo□τά□ω) قد استعملت غالبا للحيوانات، وتقال على البشر بمعنى تحقيرى أو للسخرية فقط، لتعيين طريقة رديئة لملأ المعدة. حقيقة أن الكلمة تتردد فى الموعظة على الجبل أيضًا هى أثر للأصل البروليتارى للمسيحية، من

---

4 بفليدرر، المسيحية الأولية، مجلد 2، ص ص 378، 380.

المحتمل أن التعبير كان جاريًا فى الدوائر التى أخذ منها، ليشير إلى إشباع كامل للجوع الجسدى. ولكنه يصبح مثيرًا للسخرية حين يطبق على إشباع الجوع للعدالة.

لا يوجد نظير هذه الطوباويات، أى لعن الإنسان الغنى، عند متى على الإطلاق حتى أكثر التشويهات حذقًا لم يكن من الممكن أن تخترع شكلاً يجعلها مقبولة عند الطبقات الثرية الذى كان تحولها مرغوبًا، ومن ثم كان على هذا الجزء أن يستبعد.

ولكن بغض النظر عن كم حاولت كثيرًا دوائر معينة ذات نفوذ بالمجمع المسيحى، حيث انها أصبحت أكثر فأكثر انتهازية، السعى لإزالة الطابع البروليتارى، فلم يقضى على البروليتاريا وحقدها الطبقى بتلك الوسيلة، وظهر مفكرون متفرقون من وقت لآخر ليعبروا عن هذا الحقد. سوف يجد القارئ مجموعة جيدة من المقاطع من كتابات القديس كليمنت، الأسقف أستيريوس لاكتانتيوس، باسيليوس الأعظم، القديس جريجورى من نيسا، القديس أمبروز، القديس يوحنا فم الذهب، القديس جيروم، القديس أوغسطين، إلى آخره، كلهم تقريبًا يكتبون فى القرن الرابع، حين كانت المسيحية بالفعل دين الدولة، فى كتاب بول بفلوجر الصغير اشتراكية آباء الكنيسة [1]. أطلقوا كلهم أكثر الإدانات حدة على الأغنياء التى تضعهم على نفس المستوى مع اللصوص وقطاع الطرق.

ج - الشيوعية

بالنظر لهذا الطابع البروليتارى الواضح للمجمع، فمن الطبيعى أنه كان عليه أن يهدف لتحقيق تنظيم شيوعى. فى الواقع، أعلن الكثير تحديدًا. نحن نقرأ فى أعمال الرسل: "وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة (κοινωία) وكسر الخبز والصلوات...... وجميع الذين آمنوا كانوا معًا وكان عندهم كل شيء مشتركًا، والأملاك والمقتنيات كانوا "يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج (2 / 42، 44) "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة: ولم يكن أحد يقول أن شيئًا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركًا...... إذا لم يكن فيهم أحد محتاجًا: لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كان يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات، ويضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج". (4 / 32، 34)

---

1 Der Sozialismus der Kirchenväter.

سوف نتذكر أن حنانيا وسفيرة اللذان حاولا أن يحتفظا ببعض من نقودهما خفية عن المجمع قد جوزيا على هذا الانتهاك بالموت بتدخل إلهى.

كان القديس يوحنا فم الذهب (تعنى الكلمة الأطول CHRYSOSTOM "فم الذهب")، وقد سمي كذلك بسبب بلاغته النارية، وكناقد غير هياب لزمنه (347 - 407 ب.م)، أضاف إلى العرض المقدم سابقًا عن الشيوعية المسيحية الأولية مناقشة لميزاتها، التى كان لها صلاحية اقتصادية شديدة الواقعية، وابتعدت غاية البعد عن الوجد الزهدى. نحن نجد هذا المقطع فى موعظته الحادية عشره HOMILIES تعليقًا اعلى أعمال الرسل. وكلماته مايلى:

"كانت النعمة بينهم، لأن أحدا لم يعانى حاجة، بسبب أنهم أعطوا بغاية الكرم حتى لم يبقى منهم فقيرًا. لأنهم لم يعطوا قسمًا ويحتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، كما لم يعطوا كل شيء كما لو كان ملكهم الخاص. لقد ألغوا عدم المساواة وعاشوا فى وفرة عظيمة؛ وقد فعلوا ذلك بأشد الطرق جدارة بالإطراء. لم يجرؤوا على أن يضعوا الصدقة فى أيدى المحتاجين، ولم يقدموا الهبات بتعطف مكابر، وإنما وضعوها تحت أقدام الرسل وجعلوهم سادة وموزعى هذه الهبات. كل إنسان أخذ حاجته حينئذ من موارد الجماعة، وليس من الملكية الخاصة للأفراد. منع هذا الواهبين من أن يكتسبوا رضى ذاتيًا باطلاً.

"إذا كان علينا أن نصنع هذا اليوم، فلا بد وأن نحيا بشكل أكثر سعادة بكثير، الأغنياء وكذلك الفقراء. ولن يحصل الفقراء من ثم على سعادة أكثر من الأغنياء. لأن الواهبين ليس فقط لم يصبحوا فقراء وإنما جعلوا الفقير غنيًا أيضًا ".

"دعنا نصور الأمر لأنفسنا هكذا: الكل يعطون ما لديهم للمالية العامة. لاتدع أحدًا ينزعج بهذا المشهد، سواء كان الإنسان الغنى أو الإنسان الفقير. هل تعلم كم من النقود قد تجمع هكذا؟ افترض - لأنه لايمكن تحديدها بيقين مطلق - أنه لو تخلى كل إنسان عن كل نقوده، حقوله، أراضيه، منازله (إذا تغاضينا عن العبيد، لأن لنا أن نفترض إن المسيحيين الأوائل لم يكن لديهم أحدًا منهم، الأكثر احتمالاً أنهم حرروهم)، افترض أن قدرا يبلغ حوالى مليون رطل من الذهب يمكن أن يتجمع وربما ضعفى أو ثلاث أضعاف هذا القدر. لأنه، دعنا نرى، كم عدد الأشخاص الذين تضمهم مدينتنا (القنسطنطينية)؟ كم عدد المسيحيين؟ ألا يوجد مائة ألف بتمامهم. وكم عدد الوثنيين واليهود؟ كم عدد آلاف أرطال الذهب التى يمكن أن تجمع هكذا؟ وكم

عدد الفقراء لدينا؟ أنا لاأعتقد أن هناك أكثر من خمسين ألف. ماهو القدر المطلوب من أجل إطعامهم كل يوم؟ إذا كان عليهم أن يأكلوا على مائدة مشتركة، لايمكن أن تكون التكاليف كبيرة جدًا. كيف سنبدأ العمل برصيدنا العملاق؟ هل تعتقد أنه يمكن أبدًا أن يستنفد؟ ألن تنصب علينا نعمة الله بوفرة أكثر ألف مرة من ذى قبل؟ ألن نصنع جنة من الأرض؟ إذا ثبت فى النهاية أنها تجربة ناجحة إلى حد غاية فى الروعة فى حالة ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف شخص (المسيحيون الأوائل)، ولم يعانى أحد منهم احتياجًا، كم ينبغى أن يكون العائد أفضل فى حالة عدد كبير جدًا كما هو الحال الآن؟ ألن يضيف كل قادم جديد شيئًا يخصه.

"إن تقسيم الأراضى يؤدى لنفقات أعظم ومن ثم ينتج الفقر. إعتبر فقط منزلاً به زوج وزوجه وعشرة أطفال. هى تنسج، وهو يحاول أن يكسب عيشه فى السوق، هل سيكون من الأرخص بالنسبة لهم أن يعيشوا معًا فى بيت واحد أو أن يعيشوا منفصلين؟ بالطبع سوف يكون مكلفًا أكثر أن يعيشوا منفصلين. إذا انفصل الأبناء العشرة، سوف يحتاجون إلى عشرة منازل، عشرة موائد، عشرة خدم، وكل شيء آخر سوف يضاعف إلى عشرة بنفس الطريقة. وكيف سيكون الحال مع جمهور العبيد؟ ألا يطعمون معًا على مائدة واحدة من أجل توفير النفقات؟ يؤدي التقسيم دائمًا إلى التبذير؛ الانضمام يؤدي دائمًا إلى الاقتصاد في الموارد. وهكذا يعيش الناس الآن في الأديرة وهكذا عاش المؤمنون. من مات عندئذ من الجوع؟ من لم يشبع بوفرة؟ ومع ذلك يخشى الناس هذا الوضع أكثر مما يخشون من وثبة في البحر الذي لا حدود له. لم لا نبذل جهدًا على الأقل ونشرع في الأمر بشجاعة! كيف ستكون نعمتنا عظيمة بهذه الطريقة! لأنه إن كان في تلك الأيام، حين كان عدد المؤمنين صغيرًا جدًا، من ثلاثة إلى خمسة آلاف فقط، إذا كان في ذلك الوقت حين كان العالم كله معاديًا لنا، حيث لم نقابل بمواساة في أي مكان، شرع أسلافنا في المهمة بعزم مصمم، فأي قدر من الثقة ينبغي أن يكون لدينا، الآن حيث هناك مؤمنون في كل مكان بنعمة الله! من سوف يرغب في أن يكون وثنيًا؟ أظن لا أحد. يجب أن نجذب الجميع إلينا ونجعل الجميع يميلون نحونا" [1].

لم يكن المسيحيون الأوائل قادرون على أن يصدروا مثل هذا التصريح الواضح والهادئ عن الحالة. ولكن ملاحظاتهم القصيرة، تعجباتهم، طلباتهم، لعناتهم، تشير بوضوح في كل حالة للطابع الشيوعي الموحد للمرحلة الأولى من المجمع المسيحي.

---

1 S. P. N. Joanni Chrystomi Opera Omina Quoe Exstant, Paris, 1859, Ed. Migne, Vol. IX, pp. 96-98.

في إنجيل القديس يوحنا الذي، يجب ان نقر بأنه لم يكن قد كتب حتى منتصف القرن الثاني، اعتبرت الرفقة الشيوعية ليسوع مع رسله أمرًا مفروغًا منه. لم يكن لهم جميعًا سوى حافظة (نقود) واحدة، وهذه الحافظة كان يحملها يهوذا الإسخريوطي. يوحنا، الذي يحاول في هذه الحالة كما في الحالات الأخرى ان يبز أسلافه، يزيد الاشمئزاز حيث لابد وأن يُقبض على الخائن يهوذا بوصمة باعتباره مختلسًا للمالية العامة. يصف يوحنا واقعة مسح مريم قدم يسوع بطيب ثمين.

"فقال واحد من تلاميذه، وهو يهوذا الإسخريوطي، المزمع ان يسلمه، لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطي للفقراء؟ قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء بل لأنه كان سارقًا وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقى فيه" [1].

في العشاء الأخير، يقول يسوع ليهوذا: "ما انت تعمله فاعمله بأكثر سرعة".

"وإما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به. لأن قومًا إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج إليه للعيد، أو، ان يعطي شيئًا للفقراء" [2].

يطلب يسوع مرارًا في الأناجيل من تلاميذه أن يتخلى كل واحد عن كل شيء يملكه.

"فكذلك، كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر ان يكون لي تلميذًا" [3].

"بيعوا أموالكم، واعطوا صدقة". (لوقا، 12/ 33).

"وسأله رئيس (ἄρχων) (يسوع) قائلاً، أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحيوة الأبدية؟ فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا. لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، ولا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك. فقال هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فلما سمع يسوع ذلك، يعوزك أيضًا شيء: بع كل مالك، ووزع على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال، اتبعني. فلما سمع ذلك حزن؛ لأنه كان غنيًا جدًا" [4].

---

7 يوحنا، 12/ 4- 7.
8 يوحنا، 13/ 27- 29.
9 لوقا، 14/ 33.
10 لوقا، 18/ 18- 23.

يدفع هذا الحديث يسوع إلى أن ينطق بمثل الجمل، الذي سيكون أيسر عليه أن يدخل من ثقب إبرة، من أن يدخل غني ملكوت الله. تبدو مملكة السماء متاحة فقط لهؤلاء الذين يشاركون الفقراء في ثروتهم.

يعرض الإنجيل المنسوب إلى القديس مرقس المسألة في نفس الضوء.

ولكن المحرف القديس متى يخفف هنا مرة أخرى الحدة الأصلية للطلب، بوضعه فقط في شكل افتراضي. يجعل متى يسوع يقول للشاب الغني: "إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء". (19/ 21).

لقد صُور ما كان يطلبه يسوع من كل واحد من أتباعه، من كل عضو في مجمعه، وكأنه أصبح في وقت طلبًا يعرض فقط على هؤلاء الذين ينزعون إلى الكمال.

هذه السلسلة من الأحداث طبيعية تمامًا في تنظيم كان في البداية بروليتاريًا محضًا وفيما بعد أدخل فيه المزيد والمزيد من عناصر كانت ثرية.

بالرغم من ذلك، هناك عدد من اللاهوتيين الذين ينكرون الطابع الشيوعي للمسيحية الأولى. وهم يزعمون أن الخبر الوارد في أعمال الرسل حول هذا الموضوع ذو أصل لاحق، كما كان الحال غالبًا في العصور القديمة، وهم يزعمون أن الكاتب هنا أيضًا قد وضع الشرط المثالي الذي حلم به، في الماضي. ولكن ينسى هؤلاء اللاهوتيون أن الطابع الشيوعي للمسيحية الأولى لم يكن ملائمًا تمامًا للكنيسة الرسمية الخاصة بالقرون التالية، التي كانت تحتضن الأغنياء بهذا القدر أو ذاك. إذا كانت هذه الصورة للمسيحية الأولى قد اعتمدت على تلفيق لاحق، فإن أبطال الاتجاه الانتهازي ما كانوا ليترددون في الاحتجاج ضدها وسوف يعتبرون أن الكتب التي تحتوي مثل هذه الصور كان يجب أن تستبعد من الكتب القانونية التي اعترفت بها الكنيسة. لم تحتمل الكنيسة تزويرات أبدًا إلا عندما كان يتفق تمامًا مع سياستها أن تفعل ذلك، بالتأكيد لم يكن هذا لينطبق على الشيوعية. إذا كانت الشيوعية قد اعتبرت رسميًا المطلب الأكثر أساسية للمجمع الأولي، فقد أُبدي مثل هذا الاعتراف بالتأكيد فقط لأنه كان من المستحيل عمل خلاف ذلك، لأن التقليد في هذه المسألة ضرب بجذوره عميقًا وانتشر أيضًا بصفة عامة.

د الاعتراضات على الشيوعية

إن اعتراضات هؤلاء الذين ينكرون وجود الشيوعية في المجمع الأولي ليست بأي حال من الأحوال مقنعة. نحن نجد أن كل هذه الاعتراضات قد أعاد تلخيصها ناقد يعارض الصورة التي رسمتها عن المسيحية الأولية في مؤلفي رواد الاشتراكية.

الناقد أ. ك، وهو دكتور في اللاهوت، طبع اعتراضاته في مقالة في الأزمنة الحديثة Neuezeit تتعلق بما يسمى الشيوعية المسيحية الأولية [1].

يشير لنا، قبل كل شيء، بأن "مواعظ الناصري لم تهدف لتحقيق ثورة اقتصادية" ولكن من أين يحصل أ. ك على هذه المعلومة؟ تبدو أعمال الرسل بالنسبة له مصدرًا غير مؤكد يؤسس عليه وصف التنظيمات التي يعزو أصلها إلى فترة ما بعد الموت المزعوم للمسيح؛ أما الأناجيل، وبعضها أحدث من أعمال الرسل، فيعتبرها بمثابة مصادر مؤكدة كلية حتى بالنسبة لأحاديث المسيح!

في الواقع، تنطبق نفس الحقيقة على الأناجيل كما تنطبق على أعمال الرسل. ما يمكن أن نعلمه منها هو شخصية هؤلاء الذين كتبوها، بالإضافة إلى ذلك ربما تتضمن أيضًا بعض الذكريات الماضية، ولكن الذكريات الماضية للتنظيمات أكثر قابلية للتذكر من الأحاديث، ولا يمكن أن تشوه بسهولة شديدة. أضف إلى ذلك، كما رأينا، فإننا نستطيع أن نتحقق جيدًا جدًا في الأحاديث التي بلغتنا عن المسيح خاصية تشير لشيوعية المجمع المسيحي الأولي بشكل غاية في التحديد.

لا يمكن أن تستخدم التعاليم الخاصة بيسوع، التي لا نعلم عنها شيئًا محددًا على الإطلاق، للبرهنة على أي شيء ضد افتراض الشيوعية الأولية. أضف إلى ذلك، فإن أ. ك يبذل قصارى جهده ليجعلنا نعتقد أن الشيوعية العملية للإسينيين، التي كانت تتطور تحت حدقة بروليتاريي أورشليم، لم يكن لها تأثير عليهم على الإطلاق، وإنما النظريات الشيوعية للفلاسفة والشعراء الإغريق هي التي مارست التأثير الأكثر عمقًا على البروليتاريين غير المتعلمين للمجمع المسيحي خارج أورشليم وقد أشربوا بالمثل الشيوعية، الذي وضع تحقيقها، بالتوافق مع عادات الزمان الماضي، أي، في فترة المجمع الأولي في أورشليم.

بمعنى آخر، لقد قيل لنا إن المتعلمين نجحوا لاحقًا في صبغ البروليتاريين بشيوعية، كانت مراقبتها العملية قد تركتهم سابقًا غير متأثرين بها. لابد وأننا

---

1 Der Sogenannte Urchristliche Kommunismus. Die Neuezeit, Vol. XX VI, Noo, p 482.

نحتاج بالتأكيد إلى أقوى البراهين لنجعل هذه النظرة تبدو لنا جديرة بالتصديق: فكل دليل لدينا يتعارض معها. حيث يتزايد نفوذ الطبقات المتعلمة على المسيحية، تبتعد المسيحية أكثر فأكثر عن الشيوعية، كما رأينا سلفًا في إنجيل متى، وكما سوف نعلم لاحقًا في تتبع تطور المجمع.

إن أفكار أ. ك عن الإسينيين خاطئة تمامًا. وهو يقول عن المجمع المسيحي الشيوعي في أورشليم: "الواقع أن هذه التجربة الشيوعية المفردة التي تصادف أنها أقيمت بواسطة جمعية تحتوي على اليهود لابد وأن تثير شكوكنا. نزولاً حتى البدايات الأولى لعصرنا، لم يقم اليهود أبدًا بمثل هذه التجارب الاجتماعية؛ لم يكن هناك قبل ذلك أبدًا شيء يدعى شيوعية يهودية. ولكن الشيوعية نظريًا وعمليًا معًا لم تكن شيئًا جديدًا على الهيلينيين".

إن ناقدنا لا يكشف المصدر الذي يكتشف فيه الشيوعية العملية للهيلينيين في زمن المسيح. ولكنه تقريبًا مما لا يصدق أن نسمعه يقول إنه يجد شيوعية أقل بين اليهود مما بين الهيلينيين بينما الحقيقة الفعلية أن شيوعية الأولين هي أرفع بما لا يقاس من الرؤى الشيوعية للأخيرين بسبب أنها قد نفذت بالفعل. وليس لدى أ. ك بوضوح أدنى شك في حقيقة أن الإسينيين قد ذكروا قبل المسيح بمائة وخمسين عامًا، ولكن يبدو أنه يظن أنهم لم يظهروا حتى زمن المسيح!

مع ذلك، فإن نفس هؤلاء الإسينيين الذين قُدموا بوصف أنه لم يكن لهم تأثير على ممارسات مجمع أورشليم، يزعم أنهم أنتجوا الخرافة الشيوعية التي تخللت أعمال الرسل في القرن الثاني بعد المسيح. الإسينيون، الذين اختفوا من مجال النظر مع تدمير أورشليم، ويحتمل أن الدمار العام للجماعة اليهودية قد طواهم يقدمون بوصفهم قد أشربوا البروليتاريين الهيلينيين خرافات تتعلق بأصل المجمع المسيحي، وأدت بهم إلى تبني فكرة الماضي الشيوعي، في وقت كان العداء فيه بين اليهودية والمسيحية قد اتخذ بالفعل أكثر الأشكال حدة، بينما يزعم أيضًا أنه في الوقت الذي أسس فيه اليهود البروليتاريون تنظيمًا في أورشليم الذي كان له بالضرورة اتصالاً وثيقًا شخصيًا وعمليًا مع الحركة الإسينية، لم يكن للأخيرة أقل تأثير على ذلك التنظيم.

من الممكن تمامًا أن تكون الخرافات الإسينية ونظراتها قد حملتها العناصر التي تضمنها الأدب المسيحي الباكر. ولكن الأكثر احتمالاً إلى حد بعيد أنه في هذه الحالة الباكرة للمجمع المسيحي، التي لم يكن قد أنتج فيها أدبًا بعد، أن كان تنظيمه واقعًا

تحت تأثير النماذج الإسينية. وأمكن لهذا أن يكون تأثيرًا بمعنى التنفيذ الفعلي للشيوعية، وليس بمعنى تخيل ماض شيوعي مزعوم فحسب، لا صلة له بواقع ما.

إن هذا الإنشاء الاصطناعي بكامله، خلق اللاهوتيين المحدثين والمقبول من أ. ك الذي ينكر التأثير الإسيني في الوقت الذي كان فيه هناك تأثير بالفعل، ثم يعزو إليه وظيفة واضحة في وقت كان فيه قد توقف، يبين فحسب كيف يمكن أن تصبح عديد من العقول اللاهوتية في خدمة مهمة تحرير الكنيسة الأولية "من العطر غير اللائق" للشيوعية.

ولكن كل ما سبق ليس أسبابًا قاطعة عند أ. ك وهو يعرف "سببًا رئيسًا" لم يقدر أبدًا حتى الآن وهو: أن خصوم المسيحيين قد اتهموهم بكل الانتهاكات الممكنة، ولكن ليس بأنهم كانوا شيوعيون. ومع ذلك فإن هؤلاء الخصوم لم يكونوا ليفوتوا فرصة توجيه مثل هذا الاتهام إذا كان هناك أساس له". أخشى أن يستمر العالم في تجاهل هذا "السبب الرئيسي". لأن أ. ك لا يمكن أن ينكر أن الطابع الشيوعي للمسيحية قد شدد عليه بوضوح عدد من المقاطع في أعمال الرسل وكذلك في الأناجيل. وهو يردها بالقول بأن هذه المقاطع خرافية محضة فحسب. ولكنه لا ينكر انها هناك وانها تعبر عن اتجاهات مسيحية حقيقية. إذا لم يشدد خصوم المسيحية بالرغم من ذلك على شيوعية المسيحية، فذلك لا يمكن أن يعود إلى حقيقة أنهم لم يجدوا دعمًا لمثل هذا الاتهام. لأنهم اتهموا المسيحيين بأشياء أخرى، مثل قتل الأطفال، الاتصال بالمحارم، إلخ، التي لم يكن عليها أدنى دليل في الأدب المسيحي. إنه من الصعب أن نصدق، من ثم، أنهم قد تقاعسوا عن توجيه اتهامات كان يمكن أن يقدموا دليلاً عليها في الكتابات المسيحية حتى في الفترات الباكرة للأدب المسيحي.

يجب أن نبحث عن سبب ذلك في مكان آخر غير غياب الشيوعية في المسيحية الأولية.

السبب الحقيقي هو أن الموقف تجاه الشيوعية في تلك الأيام كان مختلفًا عما هو عليه اليوم.

اليوم، أصبحت الشيوعية بالمعنى المسيحي الأولي، بمعنى آخر، القسمة **Dividing** غير متناسبة مع تقدم الإنتاج، مع وجود المجتمع. اليوم، تتطلب الحاجات الاقتصادية على نحو غير مشروط العكس تمامًا من القسمة، اي، انها تتطلب تركيزًا للثروة في مواضع قليلة، إما في أيدي أفراد خاصين، كما هو الحال اليوم، أو في أيدي المجتمع،

الدولة، البلديات، وربما أيضًا في أيدي التنظيمات التعاونية، كما في الخطة الاشتراكية للأمور.

ولكن كان الحال مختلفاً تماماً في أيام المسيحية. بخلاف التعدين، كانت الصناعة بمجملها تقريباً من نوع صغير. في الزراعة، من الحقيقي أنه وجدت هناك حالات مؤسسات واسعة ذات نمط كبير، ولكن هذه المشاريع الكبيرة التي أديرت بشرياً من قبل العبيد،، لم تكن أرفع تقنياً من المؤسسات الصغيرة، وأمكن أن تحافظ على نفسها فقط حيث توفر استغلال مدمر قاس للموارد بمساعدة عمل العبيد الرخيصين. لم يصبح الإنتاج الكبير أساس مجمل الإنتاج كما هو الحال اليوم.

من ثم، عني تركيز الثروة في أيدي حفنة قليلة عندئذ أي شيء آخر عدا تعزيز إنتاجية العمل، وبالتأكيد لم يكن أساساً لعملية الإنتاج ومن ثم للرفاهية الاجتماعية.

لم يعن تركيز الثروة في أيدي حفنة قليلة تطوراً للقوى المنتجة، وإنما تراكما لمواد الاستهلاك فحسب بقدر ما لم يكن من الممكن للفرد أن يستهلكها بنفسه، انتهاءً إلى أنه ليس لديه سبيل آخر سوى أن يتشارك فيها مع الآخرين.

وقد فعل الأغنياء هذا على نطاق واسع، وجزئياً بشكل طوعي. كان الكرم يعتبر واحداً من الفضائل الأشد تميزاً في العصر الإمبراطوري الروماني. لقد كان وسيلة لكسب الأتباع والأصدقاء ومن ثم وسيلة لزيادة سلطة الشخص.

"تلقى العبيد عند عتقهم، بصفة عامة هبة سخية بهذا القدر أو ذاك. في حالات عائلية 10000000 (سيسترسس). تلقت عائلات الأقارب والوكلاء أيضاً منحاً وحماية. ومعتق من كوتا ميسالينيوس، صديق طيباريوس، يحتفل على شاهد قبره في فـيا ابيا، بأن راعيه مراراً ما أعطاه مبالغ تصل إلى ما يتقاضاه الفرسان Knightly Census (400000 سيسترسس)، علموا أطفاله، وقدموا أبوياً أسباب العيش لأبنائه، أنعموا بالتريبيونية العسكرية على ابنه كوتانوس، ودفعوا تكاليف شاهد القبر هذا" [1].

كانت هناك حالات كثيرة جداً كهذه. ولكن حيث سادت الديموقراطية، كانت هناك أيضاً مشاركة إجبارية في الممتلكات إضافة للطوعية. كان على من يرغب في منصب أن يشتريه بالهبات السخية للناس، الأخيرون، حينما كانت لديهم قوة، إضافة

---

12 فريدلاندر، الحياة الإمبراطورية وآداب وقواعد السلوك في ظل الإمبراطورية الباكرة، المجلد 1، ص ص 114- 115.

إلى ذلك فرضوا ضرائب مرتفعة على الأغنياء، حتى يعيشوا على عائد هذه الضرائب، بينما كان المواطنون يكافئون من عائدات الدولة لمشاركتهم في الجمعيات العامة وحتى لحضورهم في الاحتفالات العامة **Spectacles**، وتمتعوا على حساب الإنفاق العام على الموائد العامة الكبيرة، أو أعطوا طعامًا من المخازن العامة.

لم يكن هناك ما هو عدائي في عيون الجماهير في فكرة أن الأغنياء قد وجدوا حتى يشاركوا ملكيتهم مع الآخرين، لم يكن هناك شيء يناقض وجهات النظر العامة. لقد كانت بالأحرى فكرة تتوافق تمامًا مع هذه النظرات.

لم تكن الجماهير تنفر من مثل هذه الأفعال، وإنما بالأحرى امتدحتها. كان خصوم المسيحية سيكونون أغبياء لو شددوا على هذه المرحلة فقط. دع القارئ يلاحظ فحسب الاحترام الذي يتحدث به مثل هؤلاء الكتاب المحافظون مثل يوسيفوس وفيلون عن شيوعية الإسينيين، إنهم لا يجدون هذه الشيوعية منفرة أو مضحكة وإنما راقية تمامًا.

"الاعتراض الأساسي" عند أ. ك على افتراض شيوعية مسيحية أولية، أي، أن المسيحيين لم يتهموا بهذه الممارسة من قبل خصومهم، هي من ثم دليل فحسب على أن أ. ك يرى الماضي بعيون المجتمع الرأسمالي الحديث وليس بعيونه الخاصة.

بالإضافة إلى هذه الاعتراضات، التي لم تؤسس على أدلة على الإطلاق ولا تعدو أن تكون مجرد تخيلات، يوظف أ. ك الآن عددًا من الانتقادات القاسية المؤسسة على حقائق رويت في أعمال الرسل. بفضول كاف، ناقدنا، المتشكك للغاية، في أن يأخذ في الاعتبار أوصاف الشروط القائمة طويلاً، في الأدب المسيحي الأولي، يقبل الآن كل ما يذكر عن حادث بعينه بقيمته الظاهرة. إنها نفس الحال إذا ما أعلنا أن أوصاف الشروط الاجتماعية في العصر البطولي التي توجد في الأوديسه هي اختراعات ومع ذلك قبلنا بولڤيميوس وسيرس باعتبارهما شخصيتان تاريخيتان قامتا بالفعل بالأعمال التي نسبت إليهما.

ولكن حتى هذه الحقائق المفردة لا تؤثر على افتراض الشيوعية في المجمع الأولي.

في المحل الأول يقول أ. ك إنه كان للمجمع في أورشليم عضوية من خمسة آلاف، ويسأل: كيف يمكن لعدد كبير كهذا، بزوجاتهم وأطفالهم، أن يؤلفوا أسرة واحدة؟

لم يزعم أحد أنهم ألفوا أسرة واحدة أو أنهم أكلوا على مائدة واحدة. وسوف يكون من الصعب حتى تأكيد أن المجمع الأولي كان لديه بالفعل عضوية من خمسة

آلاف كما ورد في أعمال الرسل (4/ 4). لم تكن الإحصاءات نقطة القوة في الأدب القديم وبالتأكيد ليس في الأدب الشرقي: كانت المبالغة كوسيلة لإنتاج تأثير معين مفضلة كثيرًا.

كان عدد الخمسة آلاف يعزى غالبًا من أجل أن يشير إلى كمية كبيرة للغاية. وهكذا تصرح الأناجيل بغاية التحديد بأن عدد الأشخاص الذين أطعمهم يسوع بخمسة أرغفة من الخبز كان خمسة آلاف إنسان "سوى النساء والأطفال" (متى 14/ 12). هل سيصر ناقدي أيضًا على صحة الرقم في هذه الحالة؟

ولكن لدينا كل سبب للاعتقاد بأن نسبة عضوية خمسة آلاف للمجمع الأولي كانت متسمة بالتبجح قليلاً.

عقب موت يسوع فورًا، طبقًا لأعمال الرسل، يلقي بطرس خطبة نارية مستنهضة، وعلى الفور تعمد ثلاثة آلاف شخص (2/ 41). تتمخض دعايته عن ان كثيرًا أصبحوا مؤمنين والآن يقدم رقم خمسة آلاف (4/ 4). الآن كيف كان الحجم الحقيقي للمجمع في زمن موت يسوع؟ التقى المجمع مباشرة عقب موته و"كان هناك حوالي مائة وعشرون شخصًا إجمالاً". (1/ 15).

يشير هذا بالتأكيد إلى أن المجمع كان في البداية صغيرًا جدًا، بالرغم من كل التحريض المثابر من جانب يسوع ورسله. والآن علينا ان نصدق انه فجأة، بعد وفاته، تزايد المجمع من أكثر من مائة بالكاد إلى خمسة آلاف، بواسطة إلقاء بعض الخطب؟ إذا كان لابد وأن نقبل أي رقم محدد فمن المحتمل ان الأخير أكثر بعدًا عن الحقيقة من الأول.

كان خمسة آلاف عضو منظمين سيكونون عصبة مرموقة تمامًا في أورشليم، ولكان يوسيفوس بالتأكيد قد أولاهم بعض الانتباه. لابد وأن المجمع كان بالفعل عديم الأهمية للغاية، ما دام لا يذكره أحد من معاصريه. أضف إلى ذلك، أن أ. ك يثير الاعتراض بأن الرواية التي تتعلق بشيوعية المجمع تصرح، بعد وصف المجمع:

"ويوسى، الذي لقب من قبل الرسل بارنابا (الذي، تفسيره، ابن العزاء)، لاويا ومن بلد قبرص، كانت لديه أرض، فباعها وأحضر النقود ووضعها تحت أقدام الرسل. ولكن رجل ما اسمه حنانيا، مع سفيرة زوجته، باع ممتلكات، واستبقى جزءًا من الثمن، زوجته أيضًا كانت مطلعة على ذلك، وأحضرت قدرًا معينًا ووضعته تحت أقدام الرسل". يقال

لنا إن هذه الشهادة ضد الشيوعية، لأن أ. ك يظن أن بارنابا لم يكن ليخص بالذكر إذا كان الأعضاء قد باعوا ممتلكاتهم وأحضروا النقود إلى الرسل.

ينسى أ. ك أن بارنابا هنا يُعارض مع حنانيا باعتباره نموذجًا للسلوك القويم، بالتأكيد لا يمكن لشيء أن يعبر بوضوح أكثر عن مطلب الشيوعية. هل كان ضروريًا أن يذكر أعمال الرسل كل إنسان باع ممتلكاته؟ نحن لا نعرف لماذا كان بارنابا فقط هو الذي ذُكر، ولكن الدفاع بأن ذكره يساوي تصريحًا بأنه هو فقط من قام بممارسة فعلية للشيوعية هو تقدير شديد التدني لذكاء مؤلفي أعمال الرسل إن مثل بارنابا مذكور في صلة مباشرة بحقيقة إن كل من امتلكوا شيئًا قد باعوه. إذا كان بارنابا قد ذكر بشكل خاص، فربما كان السبب أنه كان ذو حظوة لدى مؤلفي الأعمال، لأنهم ميزوه بالانتباه مرة أخرى. ولكن ربما كان هناك سبب آخر وهو مصادفة أن اسمه قد وصل (إلينا) مع اسم حنانيا. أو ربما كان هذان الاثنان هما العضوين الوحيدين من المجمع الأصلي الذي كان لديهما أي شيء جدير بالبيع بينما كان كل الباقين بروليتاريين.

الواقعة الثالثة التي أدلي بها هي التالية: نحن نقرأ في أعمال الرسل (6/ 1 وما يليها):

"وفي تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كن يغفل عنهن في الخدمة اليومية"

يسأل أ. ك بسخط: "أكان هذا سيكون ممكنًا إذا كانت الشيوعية ممارسة بالفعل؟"

ولكن لا أحد يدافع عن أن الشيوعية لم تواجه صعوبات في تنفيذها، أو بالفعل، أنه لم يكن ممكنًا أن تواجه مثل هذه الصعوبات! وتصرح الرواية إضافة لذلك، ليس بأنه قد جرى التخلي عن الشيوعية، وإنما أن تنظيمها قد تحسن بإدخال تقسيم العمل. لقد كان الرسل الآن مشغولين بالدعاية فقط بينما انتخبت لجنة من سبعة لتتولى الوظائف الاقتصادية للمجمع.

القصة بكاملها منسجمة تمامًا مع افتراض أن الشيوعية كانت ممارسة، وتصبح مضحكة تمامًا إذا قبلنا وجهة نظر ناقدنا، التي استعارها من هولتزمان، وفحواها أن المسيحيين كانوا متميزين عن مواطنيهم اليهود ليس بتنظيمهم الاجتماعي، وإنما فقط بإيمانهم ب"الناصري الذي صلب مؤخرًا".

لم وجد هناك اعتراض ما على نمط القسمة، إذا لم يكن تم اللجوء إلى القسمة؟

أضف إلى ذلك: "نحن نقرأ في الإصحاح الثاني عشر (أعمال الرسل)، كنقيض مباشر للرواية التي تفيد وجود الشيوعية، أن مريمًا ما، عضو للمجمع كانت تعيش في بيت يخصها".

هذا حقيقي، ولكن كيف يعرف أ. ك أن مريمًا كان لها أي حق في أن تبيع بيتها؟ ربما كان زوجها ما زال حيًا ولم يلتحق بالمجمع؟ ولكن حتى إذا كان لها حق في أن تبيع بيتها، لم يكن المجمع ليطلب بالضرورة بيعه. كان هذا البيت مكان اجتماع الأعضاء: وضعته مريم تحت تصرف المجمع. لقد كان يستعمل من قبل المجمع، بالرغم من أنه قانونيًا يخص مريم. حقيقة أن المجمع احتاج إلى أماكن للاجتماع، وأنه لم يكن ذو شخصية قانونية حتى يمكن أن يحوز بنفسه مثل هذه الأماكن، ومن ثم فإن الأعضاء الفرديين قد خبروا شكل مثل هذه الملكية، لا ينهض سندًا بالتأكيد ضد افتراض الشيوعية. ليس لدينا الحق في أن نفترض أن الشيوعية المسيحية الأولية كانت غبية لحد التحذلق في تطبيق تنظيماتها لتضطر أعضائها إلى بيع تلك البيوت التي أرادت استعمالها لتقتسم العائد.

يبدو أن الاعتراض الأخير المثار يتعلق بحقيقة أن الشيوعية قد روي عنها في حالة مجمع أورشليم فقط بينما لم يرد ذكر عنها بالارتباط مع المجامع المسيحية الأخرى. سوف تكون لدينا الفرصة لأن نشير لهذه النقطة عند تتبع التاريخ اللاحق للمجمع المسيحي. سوف نرى عندئذ عما إذا كانت، ولأي مدى، ولأي مدة، طبقت الشيوعية بنجاح، ولكن هذه مسألة أخرى. لقد أشرنا سلفًا إلى أن هناك صعوبات قد واجهتها في المدن الكبيرة، وهي لم توجد في حالة الجماعات الزراعية، على سبيل المثال بين الإسينيين.

إننا معنيون الآن فقط بالاتجاهات الشيوعية الأصلية للمسيحية. ليس لدينا أقل سبب لأن نشك في هذه. لدينا في صالحها شهادة العهد الجديد، الطابع البروليتاري للمجمع والاتجاه الشيوعي القوي للقسم البروليتاري من اليهود خلال القرنين السابقين على تدمير أورشليم، الذي عبرت عنه الإسينية بوضوح شديد.

إن كل البراهين ضد الاتجاه الشيوعي مؤسسة على سوء التفاهم، والحيل، والسفسطات البارعة، التي لا يوجد لها أقل سند مادي.

ه احتقار العمل

كانت الشيوعية التي طمحت إليها المسيحية الأولية تتفق مع شروط الأزمنة شيوعية في مواد الاستهلاك، شيوعية في التوزيع والاستهلاك المشترك لمثل هذه المواد. حينما تطبق على الزراعة فقد تؤدي هذه الشيوعية أيضًا إلى شيوعية في الإنتاج، في العمل المشترك المنظم، في المدينة الكبيرة، فإن طريقة كسب العيش، سواء كانت بواسطة العمل أم بالتسول، شتت بالضرورة البروليتاريين، بسبب شروط الإنتاج في تلك الأيام. لم تكن الشيوعية في المدينة الكبيرة لتعني في هدفها أي شيء سوى أعلى مرحلة ممكنة لاستنزاف الأغنياء من قبل الفقراء الذي تطور باقتدار شديد في القرون الأسبق حيثما حازت البروليتاريا قوة سياسية، كما في أثينا وروما. النشاطات المشتركة التي طمحت إليها أمكن أن ترقى على الأكثر للاستهلاك المشترك للأغذية والمواد الأخرى التي تحصلت هكذا شيوعية مساوية لاقتصاد منزلي مشترك، لتنظيم عائلي. في الواقع، يثبت فم الذهب، كما رأينا الأحقية للشيوعية من وجهة النظر هذه فقط. من الذي سينتج الثروة التي ستستهلك بشكل مشترك، ليس أمرًا يعنيه، ونحن نجد نفس الوضع في المسيحية الأولية. تورد الأناجيل ملاحظات يسوع حول كل الموضوعات الممكنة، ولكن ليس حول العمل أو بالأحرى، حين يتحدث عن العمل، فإنه يفعل ذلك بأكثر المصطلحات ازدراءًا. وهكذا نحن نقرأ في لوقا (12/ 22 وما يليها):

"لا تهتموا لحياتكم، بما تأكلون، ولا للجسد، بما تلبسون، الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغربان: إنها لا تزرع ولا تحصد؛ وليس لها مخدع ولا مخزن، والله يقيتها: كم أنتم بالحري أفضل من الطيور؟ ومن منكم اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدًا. فإن كنتم لا تقدرون ولا على الأصغر فلماذا تهتمون بالبواقي. تأملوا الزنابق كيف تنمو، لا تتعب، ولا تغزل، ولكن أقول لكم، إنه ولا سليمان في مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان العشب الذي يوجد اليوم في الحقل ويطرح غدًا في التنور يلبسه الله هكذا، فكم بالحري يلبسكم أنتم، يا قليلي الإيمان؟ فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون، وما تشربون ولا تقلقوا. فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم: وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه. بل اطلبوا ملكوت الله؛ وهذه كلها تزاد لكم. لا تخف أيها القطيع الصغير أن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت، بيعوا مالكم وأعطوا صدقة".

لا ينبغي أن يفهم هذا بأي حال من الأحوال بوصفه عظة للمسيحيين أن يكونوا زاهدين ومن ثم أن يتجاهلوا أمور الأكل والشرب، بسبب ضرورة توجيه عقولهم لرفاهة روحهم. لا، على المسيحيين أن يجاهدوا من أجل مملكة الله، بمعنى آخر، من أجل

حكمهم الخاص، وعندئذ سوف يكون لديهم كل شيء يحتاجونه. سوف تكون لدينا فرصة أخرى لنلاحظ كيف كان مفهومهم عن "ملكوت الله" هذا أرضيًا.

و تدمير العائلة

حينما لا تكون الشيوعية مؤسسة على جماعية الإنتاج وإنما جماعية الاستهلاك، وتتابع هدف تحويل الجماعة كلها إلى عائلة واحدة، فإنها ترى بالضرورة في وجود الروابط العائلية التقليدية عنصرًا مثيرًا للاضطراب. لقد رأينا سلفًا هذا في حالة الإسينيين، والآن نلاحظ تكرارًا لذلك في حالة المسيحية التي تعبر غالبًا عن عداوتها للعائلة بطريقة غاية في التشديد. وهكذا يقول لنا الإنجيل المنسوب إلى مرقص (3/ 31 وما يليها):

"فجاءت حينئذ أخوته، وأمه، ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه، يدعونه، وكان الجمع جالسًا حوله، فقالوا له، هو ذا، أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك. فأجابهم، قائلاً، من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين، وقال، ها أمي وإخوتي! لأن من يصنع مشيئة الله، هو أخي، وأختي، وأمي". لوقا يشدد بصفة خاصة على هذه النقطة، نقرأ (8، 59 وما يليها):

"وقال لآخر اتبعني، فقال، يا سيد، ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي، فقال يسوع، دع الموتى يدفنون موتاهم: وأما أنت فاذهب وناد بملكوت الله. وقال آخر أيضًا، اتبعك يا سيد ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي، فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله".

بينما ما سبق هو دليل على أعظم القساوات المطلوبة فيما يتصل بالعائلة، فإننا نجد في مقطع آخر عند لوقا تعبيرًا متميزًا عن الكراهية ضد العائلة (14/ 26):

"إن أحدًا يأتي إلي، ولا يبغض أباه، وأمه، وامرأته، وأولاده، وإخوته، وأخواته، حتى نفسه أيضًا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا".

في هذا الصدد ظهر متى بوصفه المحرف الانتهازي مرة أخرى. يعرض متى الجملة الآنفة بالطريقة الآتية (10/ 37):

"من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني" يمثل هذا بالفعل تخفيفًا ذو وزن للكراهية ضد العائلة. يرتبط بوثوق بهذه الكراهية للعائلة التخلي عن الزواج، الذي كان متطلبًا بعناد من المسيحية كما من

الإسينية. ولكن وجد أن النظامين مرة أخرى متشابهان في حقيقة أن كليهما يطور الشكلين الممكنين لحالة عدم الزواج، العزوبة، أو التخلي عن كل حياة زوجية، والعلاقات الجنسية غير المنتظمة خارج الزواج التي عينت أيضًا تحت اسم "مشاعة الزوجات".

هناك مقطع جدير بالملاحظة في مؤلف كام لپانيلا مدينة الشمس، الذي يؤكد فيه أحد النقاد بأن: "القديس كليمنت الروماني يقول إنه بواسطة ترتيبات الرسل كانت حتى زوجاتهم يملكن على المشاع، ويمتدح أفلاطون وسقراط لأنهما دافعا عن أن هذه الأشياء يجب أن ترتب هكذا. ولكن التعليقات تفسر هذا بوصفه يعني إطاعة عامة للجميع، وليس مشاعة الفراش. ويؤكد ترتيليان هذه التعليقات ويصرح أن المسيحيين الأوائل امتلكوا كل شيء على المشاع عدا زوجاتهم، اللاتي، أظهرن طاعة عامة للجميع، على أية حال".

هذه "الطاعة العامة" هي شبيه مثير للاهتمام لنعمة هؤلاء الذين هم "فقراء في الروح" يوحي مقطع في مذاهب الرسل الاثنى عشر، أحد أقدم المنتجات الأدبية للمسيحية، الذي يقدم فكرة عن مؤسساتها في القرن الثاني، بحالة غريبة من العلاقات الجنسية؛ هنا نقرأ (11/ 11):

"ولكن كل نبي، مجرب وصادق، الذي يتصرف باعتبار السر الأرضي للكنيسة، ولكنه لا يعلم الآخرين أن يفعلوا ما يفعله هو نفسه، لا تدعه يدان من قبلك، لأن له دينونة في الرب؛ هكذا كان سلوك الأنبياء (المسيحيون) القدامى.

يلاحظ هارناك أن الكلمات الغامضة "السر الأرضي للكنيسة" تدل على حالة الزواج، وأن موضوع هذه السطور كان إبطال الشك الذي شعر به المجمع نحو مثل هؤلاء الأنبياء حيث دخلوا في علاقات زوجية غريبة. يظن هارناك أن الإشارة هنا تخص أشخاصًا عاشوا في الزواج كخصيان، أو عاشوا مع زوجاتهم كأخوات. هل كان يمكن لكبح للنفس كهذا أن يثير الحفيظة بالفعل؟ قد نفترض ذلك بصعوبة شديدة. سوف يكون مثيرًا للاهتمام للغاية إذا أمكن أن نعلم أن هؤلاء الأنبياء، بالرغم من أنهم لم يعودوا يكرزون بممارسة جنسية خارج الزواج، ما زالوا "يشبهون الأنبياء القدامى" بمعنى آخر، المعلمون الأوائل للمسيحية، في أنهم مارسوا بالفعل مثل هذه العلاقات.

يقتبس هارناك المقطع التالي باعتباره مثالاً جيداً للسلوك فيما يتعلق بالسر الأرضي للكنيسة من رسالة حول العذرية (1/ 10) المنسوبة خطأ إلى القديس كليمنت.

"كثير من الأشخاص الذين لا حياء عندهم يعيشون معًا مع العذراوات تحت ذريعة الشفقة وهكذا يستهدفون للخطر، أو انهم يتجولون معهن في الطرق وفي البرية، في طرق مليئة بالخطر، تثير الغيظ، الأشراك والحفر... آخرون يأكلون ويشربون معهن، ويرقدون معهن على مائدة. مع عذراوات ونساء مقدسات (Sacratis)، بعربدة صاخبة وكثير من الخزي، لا ينبغي لمثل هذه الأشياء أن تحدث بين المؤمنين وعلى الأقل بين هؤلاء اللاتي اخترن شعيرة العذرية".

في الرسالة الأولى للقديس بولس إلى الكورنثيين، يدعي الرسل، الذين ارتبطوا بالعزوبة الحق في الطواف حول العالم مع الرفيقات، يصرح بولس لمستمعيه:

"ألست أنا حرًا؟... ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت (ἀδελφὴν)، زوجة [1] (γμυαίκα) كباقي الرسل وأخوة الرب وصفا (بطرس)؟ [2].

كان القديس بولس قد نصح بعدم الزواج لحظة قبلها.

تجوال الرسول مع شابة هو عنصر هام في أعمال القديس بولس، التي قال ترتليان عنها إنها رواية آرامية كتبها كاهن في آسيا الصغرى في القرن الثاني، طبقاً لاعتراف الأخير. مع ذلك كون هذه الأعمال كانت ولوقت طويل كتابًا مفضلاً للتثقيف علامة على أن الوقائع التي وردت فيها اعتبرها كثير من المسيحيين الورعين ليست كريهة على الإطلاق وإنما بالأحرى مثقفة تمامًا. القسم الذي يلفت النظر في هذا الكتاب هو الحكاية الجميلة عن تيكلا.... التي تتضمن تصويرًا ممتازًا لجو مسيحية القرن الثاني [3].

تروي لنا هذه الحكاية أن تيكلا، خطيبة شاب أرستقراطي من إيكاريوم، قد سمعت واحدة من عظات الرسول وأصبحت على الفور متحمسة له، تعطينا الرواية وصفاً

---

13 لوثر يترجمها هكذا: ان اجول بأخت كزوجتي؛ ف. يتساكر، "ان اجول بوصفها زوجتي المتزوجة" تعني امرأة، باعتبارها مخلوقاً جنسيًا، انثى الحيوانات، محظية، ومن ثم ايضًا زوجة. من المستحيل ان تكون زوجة متزوجة شرعًا هي المقصودة هنا بدفاع الرسول عن حريته".

14 الرسالة الأولى للكورنثيين 9/1، 5.

15 بفليدرر، المسيحية الأولية، مجلد 2، ص ص 245، 246.

شخصيًا مسليًا للرسول: قصير القامة، أصلع، ذو ساقين ملتويتين، وركبتين ناتئتين، عينان واسعتان، الحاجبان يلتقيان فوق الأنف، بالأحرى أنف طويلة، مليء بالجاذبية، له مظهر رجل حينًا وملاك حينًا آخر. لسوء الحظ، لا يقال لنا أي من أرصدته الجسدية الآنفة هي التي يمكن أن تصنف باعتبارها تسهم في صنع مظهره الملائكي.

باختصار، تخلق القوة السحرية لخطابه انطباعًا عميقًا عند الجميلة تيكلا فتتخلى عن خطيبها. يتهم الأخير بولس أمام الوالي بأنه رجلاً يغوي النساء والفتيات بأحاديثه حتى ينكصن عن الزواج. يلقى بولس في السجن. ولكن تيكلا تجد طريقها إلى زنزانته وتبقى معه هناك. على ذلك يحكم الوالي بإبعاد بولس عن المدينة وبحرق تيكلا على خازوق. وقد أنقذت بمعجزة: يطفئ المحرقة مطر غزير مفاجئ، يربك ويفرق المشاهدين أيضًا.

تيكلا، وقد باتت حرة الآن، تتبع بولس، الذي تجده في الطريق العام، يأخذ بيدها ويتجول معها ناحية أنطاكية، حيث يلتقيان بأرستقراطي، الذي يقع على الفور في حب تيكلا، وهو مستعد لأن يأخذها من بولس ويعوضه بسخاء عن قبوله. يجيب بولس بأنها لا تخصه وأنه لا يعرفها، وهو نوع من الإجابة شديد الضعف يرد بها رسول متفاخر. ولكن تيكلا تعوض هذا الضعف بالطاقة التي تدافع بها عن نفسها في وجه شهوانية الأرستقراطي، الذي يحاول أن يمتلكها بالقوة، بسبب هذه الإهانة يلقي بها للحيوانات المتوحشة في السيرك، ولكنها لن تصيبها بأذى، وصولاً إلى تحررها مرة أخرى. إنها ترتدي الآن ملابس الرجال، وتقص شعرها ومرة أخرى تتبع بولس، الذي يكلفها بأن تعلم كلمة الرب ويحتمل أنه منحها أيضًا حق التعميد، إذا كان لنا أن نحدس هذا من ملاحظة لترتليان.

احتوى الشكل الأصلي لهذه القصة بوضوح على كثير مما كان مزعجًا في عيني الكنيسة اللاحقة؛ "ولكن حيث وجد أن الأعمال مثقفة وممتعة، فقد تم اللجوء إلى حيلة تحرير إكليركي استبعد أكثر العناصر قابلية للاعتراض عليها، دون أن يزيل كلية آثار الطابع الأصلي للعمل". (بفيلدرر، نفس المصدر، المجلد الثالث، ص 256). ولكن رغم أن كثيرًا من هذه الكتابات ربما تكون قد فقدت، فما زال لدينا عدد كاف من الإشارات التي تشير إلى وجود علاقات جنسية غريبة، انحرفت بقدر كبير عن الأشكال التقليدية، وسببت إزعاجًا كثيرًا، ومن ثم تطلبت دفاعًا حيويًا من جانب الرسل، وقد حاولت الكنيسة اللاحقة، التي كان عليها أن تحمل مسئولية هذه الأوضاع، أن تطمس سجلها، بقدر الإمكان.

نحتاج بالكاد إلى أن نشير إلى أن حالة عدم الزواج من المرجح أن تؤدي لعلاقات جنسية خارج الزواج عدا في حالة الزهد التعصبي.

حقيقة أن المسيحيين توقعوا أن توسم دولتهم المقبلة، التي كان لها أن تبدأ بالقيامة بالكف عن الزواج، قد أشير لها أيضًا بوضوح بالمقطع التالي الذي يجيب فيه يسوع على السؤال الدقيق: إذا كان لامرأة سبعة أزواج متعاقبين، ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة:

"فأجاب وقال لهم يسوع: أبناء هذا الدهر (αἰῶνος) يزوجون ويزوجون: ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر، والقيامة من الأموات، لا يزوجون ولا يزوجون: إذ لا يستطيعوا أن يموتوا أيضًا: لأنهم مثل الملائكة؛ وهم أبناء الله؛ إذ هم أبناء القيامة". (لوقا، 20/ 34- 36).

لا ينبغي أن يفسر هذا باعتباره دالاً على أن البشر سوف يكونون أرواحًا خالصة في دولة المستقبل المسيحية الأولية، دون احتياجات جسدية. لقد جرى تأكيد طابعها الجسدي والفرح بمتعها المادية بصراحة، حيث ما تزال لدينا الفرصة لأن نعلم، ليس هناك شك في أن يسوع يقول هنا إن الزيجات القائمة سوف تنحل في دولة المستقبل، حتى أن مسألة لمن من الأزواج السبعة تكون زوجة تفقد معناها.

ولكن لا يجب أن نعتبر أعمال الأسقف الروماني كاليستوس (217- 222)، الذي سمح للفتيات والأرامل ذوي المنزلة الرفيعة **Senatorial** أن يدخلن في علاقات خارج الزواج حتى مع العبيد، بأنها دليل على العداء للزواج. لم يكن هذا الإقرار نتاجًا لشيوعية كان عدائها للعائلة قد بولغ فيه إلى الحد الأقصى، وإنما بالأحرى نتاج مراجعة انتهازية قدمت بسرور تنازلات للحصول على المؤيدين الأثرياء والأقوياء.

ولكن عورضت هذه المراجعة مرارًا بواسطة إحياء الاتجاهات الشيوعية في الكنيسة المسيحية، وكثيرًا ما ارتبطت هذه مع إدانة الزواج، باللجوء إلى العزوبية، أو مع ممارسة ما يسمى ب"مشاعة الزوجات" التي كثيرًا ما وجدت بين المانويين والغنوصيين.

كان الاتجاه الأكثر نشاطًا بين هذه الاتجاهات هو الذي مثله الكاربوكراتيين.

"علَّم إبيفانس (ابن كاربوكراتيس) بأن العدالة الإلهية قد منحت كل شيء لمخلوقاتها بالتساوي في الملك والمتعة. إن ما هو لي وما هو لك قد أدخل إلى العالم حين أصبحت القوانين البشرية سارية، ومعها السرقة والزنا وكل الخطايا الأخرى؛ ألا يقول الرسول: "لأن بالناموس معرفة الخطية (الرومانيين 3/ 20) و"بل لم أعرف

الخطية إلا بالناموس" (7، 7). ما دام الله نفسه قد زرع في البشر دوافع جنسية قوية حتى يبقي النوع، فإن اي منع للشهوة الجنسية عبث، ومنع اشتهاء زوجة الجار هو عبث مزدوج، مادام ما هو عام قد جعل بذلك تملكًا خاصًا. إن الغنوصيين من ثم يعتبرون الزواج الأحادي انتهاكًا لمشاعية الزوجات التي تتطلبها العدالة الإلهية بقدر ما تمثل الملكية الخاصة انتهاكًا لمشاعية الطيبات... يختتم القديس كليمنت تصويره لهذه الغنوصيات الفاسقة (الكاربوكراتيين النيقولائيين، قسم خاص من الشمعونيين) بملاحظة ان كل هذه الهرطقات يمكن أن تصنف وفقًا لاتجاهين: إما أنها تعلم اللامبالاة الأخلاقية او كبح للنفس منافق مبالغ فيه" [1].

كان هذان بالفعل البديلان اللذان كانت ستتبعهما شيوعية منزلية **House Hold** متماسكة. لقد اشرنا سلفًا إلى أن هذين التطرفين ربما يلتقيان، وأنهما يستمدان أصليهما من نفس الجذر الاقتصادي رغم ما قد يبدو من تضاربهما الظاهري فلسفيًا.

مع انحلال، أو على الأقل تراخي، الروابط العائلية التقليدية، فقد نتج بالضرورة تغير في مركز المراة، فإذا ما توقفت مرة عن أن تكون مرتبطة بالأنشطة العائلية الضيقة، إذا ما نبذتها مرة، فقد بات بمقدورها أن تكرس عقلها واهتماماتها لأفكار اخرى، خارج مجال العائلة. وفقًا لمزاجها، وبنيتها، ومنزلتها الاجتماعية، ربما تحرر نفسها في بعض الحالات ليس فقط من الروابط العائلية، وإنما أيضًا من كل الاعتبارات الأخلاقية. من كل احترام للوصايا الاجتماعية، من كل فضيلة واعتدال. كان هذا هو الحال مع السيدات الأرستقراطيات في روما الإمبراطورية، اللاتي تمكن بسبب ثروتهن الكبيرة وطفولتهن المصطنعة أن ينكصن عن القيام بأي عمل في العائلة.

من ناحية أخرى، فإن إلغاء العائلة بشيوعية منزلية أنتج عند النساء البروليتاريات تقوية عظيمة للمشاعر الأخلاقية، التي تحولت الآن من الدائرة الضيقة للعائلة إلى دائرة أكثر اتساعًا للمجمع المسيحي، أصبحت عنايتهن غير الأنانية بتلبية الاحتياجات اليومية للأزواج والأطفال عناية بتحرير الجنس البشري من كل بؤسه.

إننا نجد من ثم في المجمع المسيحي الأولي ليس فقط أنبياء، وإنما أيضًا نبيات. على سبيل المثال، فإن أعمال الرسل تروي لنا عن "الإنجيلي فيليبوس؛ "وكان له أربع بنات عذارى كن يتنبأن". (21/ 9)

---

16 بفليدرر، المسيحية الأولية، المجلد الثالث، ص 160.

إن قصة تيكلا، التي يفوضها بولس في أن تعلم وربما حتى أن تعمد، تشير أيضًا إلى أن وجود المعلمات الأنثيات للكلمة الإلهية لم يكن على الإطلاق غير عادي في المجمع المسيحي.

في الرسالة الأولى إلى الكورنثيين (الإصحاح 11) يعترف بولس صراحة بحق النساء في أن يتصرفن كنبيات ويطلب منهن فقط أن يضعن خمارًا حين يقمن بهذا الواجب حتى لا يثرن شهوة الملائكة! مما لا شك فيه، يقول الإصحاح الرابع عشر:

"لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونًا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضًا. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة" (34، 35)

ولكن يعتبر النقاد الإنجليون هذا المقطع إدراج متأخر. بالمثل، إن كامل الرسالة الأولى للقديس بولس إلى تيماثوس (وكذلك الثانية، وتلك الموجهة إلى تيطس) هي تزوير يعود تاريخه إلى القرن الثاني. تحاول هذه الكتابات بالفعل أن تعيد المرأة إلى الحدود الضيقة للعائلة؛ نقرأ فيما يتعلق بها "ولكنها ستخلص بولادة الأولاد" (2/ 15). هكذا كانت على أية حال وجهة نظر المجمع المسيحي الأولي، مفاهيمه عن الزواج، العائلة، مركز المرأة، على اتفاق عام مع ما يمكن أن نستنتجه منطقيًا من أشكال الشيوعية التي كانت قابلة للتحقيق عندئذ في الممارسة وتقدم دليلاً إضافيًا على أن الشيوعية هيمنت على فلسفة المسيحية الأولية.

***

الفصل الثاني
الفكرة المسيحية عن المخلص

أ مجيء مملكة الرب

إن عنوان هذا الفصل هو بالفعل حشو من الكلام؛ إننا نعرف أن كلمة خريستوس Christus هي ببساطة الترجمة اليونانية ل"المخلص". لا تعني "فكرة المسيحية عن المخلص" من ثم شيئا أكثر او اقل إذا أخذناها اشتقاقيًا من انها الفكرة الخلاصية عن المخلص.

ولكن لا تتضمن المسيحية تاريخيا، كل هؤلاء الذين آمنوا بالمخلص، انها تتضمن فقط فئة معينة من هؤلاء المؤمنين، فئة اختلفت توقعاتها الخلاصية قليلا ما فى البداية عن توقعات بقية الشعب اليهودى.

فى المحل الأول، توقع المجمع المسيحى فى أورشليم، مثل كل بقية اليهود، أن المخلص سوف يأتى خلال وقت قصير وان لم يكن محددا. بينما الأناجيل التى حفظت لنا قد كتبت فى وقت لم يعد لمعظم المسيحيين مثل هذه الآمال المتفائلة — حيث تبين لنا الأناجيل بوضوح تام ان توقعات معاصرى المسيح قد خاب أملها تماما - إلا إنها رغم ذلك مازالت تحفظ لنا بقايا معينة من امل كهذا، بقايا تلقوها من المصادر الشفوية والمكتوبة التى عملوا بها.

وفقا لمرقس (41،51/1) "وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله".

يسأل التلميذ يسوع ماهى العلامة التى سيعرفون بها مجيء المخلص. وهو يقول لهم كل هذه العلامات: الزلازل، الطاعون، كوارث الحرب، كسوف الشمس، إلخ، وعندئذ يخبرهم بأن ابن الإنسان سوف يأتى بقوة عظيمة وبجلال ليفتدى المؤمنين به ويضيف:

"الحق اقول لكم انه لايمضى هذا الجيل حتى يكون "الكل ". (لوقا،32/21).

تقرير مرقس مشابه (30/13) يجعل يسوع يقول مرة اخرى فى الاصحاح التاسع:

"الحق أقول لكم لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله ".

وأخيرا يجعل متى يسوع يعد تلاميذه:

"ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص. ومتى طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى. فانى الحق اقول لكم لاتكملون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان".(23،22/10)

إن تصريح بولس فى رسالته الاولى إلى التسالونيكيين (13/4 ومايليها) مشابه: "ثم لااريد ان تجهلوا ايها الأخوة من جهة الراقدين لكى لاتحزنوا كالباقين الذين لارجاء لهم. لأنه ان كنا نؤمن ان يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضًا معه. فاننا نقول لكم هذا بكلمة الرب إننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لانسبق الراقدين. لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس الملائكة وبوق الله: سوف ينزل من السماء والأموات فى المسيح سيقومون اولا: ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعا معهم فى السحب لملاقاة الرب فى الهواء: وهكذا نكون كل حين مع الرب ".

لم يكن من ثم ضروريا على الإطلاق أن يموت المرء حتى يدخل مملكة الله، ربما يعتمد الأحياء على انتظار قدومها، وقد جرى تصورها كمملكة فيها كل من كانوا أحياء فى هذا الوقت، وكذلك الذين قاموا من بين الأموات، سيتمتعون بالحياة بمعنى جسدى كامل. مازالت لدينا آثار هذا الاعتقاد فى الأناجيل، بالرغم من أن المفهوم اللاحق للكنيسة استبعد فكرة دولة أرضية فى المستقبل واستبدلها بدولة سماوية.

وهكذا يعد يسوع (متى28/19 ومايليها): "الحق اقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون انتم ايضًا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر. وكل من ترك بيوتا او اخوة او أخوات او ابا او أما او امرأة أو أولادا او حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحيوة الأبدية".

بمعنى آخر، المكافأة لترك العائلة والتخلى عن ملكية المرء سوف يكون استمتاعا واقعيا بالملذات الأرضية فى دولة المستقبل. ان ملذات المائدة هى التى عنيت بصفة خاصة.

يهدد يسوع من لن يتبعه، بالطرد، من مجتمعه فى يوم يلي هول الفزع الاكبر:

"هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رايتم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله وانتم مطروحون خارجا، ويأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال ومن الجنوب ويتكئون فى "ملكوت الله" (لوقا 13/ 29،28قارن أيضًا متى 12/11/8).

ولكنه يعد الرسل:

"وانا أجعل لكم كما جعل لى ابى ملكوتا، لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر" (لوقا 22/ 30،29).

ثارت جدالات حتى بين الرسل فيما يتعلق بأولوية الجلوس على المائدة فى دولة المستقبل. يعقوب ويوحنا طلبا موضعين على يمين السيد وشماله، الأمر الذى يثير غضبا شديدا بين الرسل العشرة الباقين. (مرقس 10/ 35 ومايليها)

يقول يسوع لرجل فريسى، يتعشى فى بيته، الا يدعو أصدقاءه وأقاربه ليتعشوا، وانما المساكين، المجدوعين، العرج، العمى: "فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك، لأنك تكافى فى قيامة الابرار". ولكننا نفهم مباشرة طبيعة هذه الطوبى: "فلما سمع ذلك واحد من المتكئين قال له: طوبى لمن يأكل خبزا فى ملكوت الله ". (لوقا 14/ 15)

ولكن سوف تكون هناك أيضًا مشروبات تصاحب الطعام. يعلن يسوع فى العشاء الاخير:"واقول لكم إنى من الآن لاأشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم فى ملكوت أبى". (متى26 / 29)

تعتبر قيامة يسوع بشيرا بقيامة تلاميذه؛ ولكن الأناجيل تؤكد بوضوح على الوجود الجسدى ليسوع بعد القيامة.

يلتقى باثنين من تلاميذه بعد قيامته فى قرية عمواس، وتعشى معهما، ثم اختفى عنهما.

"فقاما فى تلك الساعة، ورجعا إلى أورشليم، ووجدا الأحد عشر مجتمعين، هم والذين معهم، وهم يقولون: "إن الرب قام بالحقيقة، وظهر لسمعان، وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز. وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم، وقال لهم: سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا. فقال لهم: ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم؟ انظروا يدى

ورجلى، إنى أنا هو: جسونى وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام، كما ترون لى. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال أعندكم ههنا طعام. فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم ".

يعطى يسوع فى إنجيل القديس يوحنا، دليلا ليس فقط على وجوده بلحمه وشحمه بعد قيامته، وإنما أيضًا على شهية غاية فى الصحة. يروى يوحنا أن يسوع ظهر لتلاميذه فى غرفة كانت أبوابها مغلقة و"بالمزلاج" من قبل الشاك توما، ثم يواصل القول:

"بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية؛ ظهر هكذا. كان سمعان بطرس وتوما الذى يقال له التوأم ونثنائيل الذى من قانا الجليل وابنا زبدى، واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم، قال لهم سمعان بطرس أنا اذهب لأتصيد، قالوا له نذهب نحن أيضًا معك، فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت وفى تلك الليلة لم يمسكوا شيئا، ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع، فقال لهم يسوع يا غلمان لعل عندكم إداما؟ أجابوه لا، فقال لهم القوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا، فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذى كان يسوع يحبه لبطرس هو الرب فلما خرجوا نظروا جمرا موضوعا وسمكا موضوعا عليه وخبزا..... قال لهم يسوع هلم تغدوا.... هذه لمرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات (يوحنا،21).

من المحتمل أن المرة الثالثة كانت الأخيرة. وربما تم ذلك بعد أن تقوى يسوع بإفطار السمك فصعد إلى السماء فى خيال مؤلف الإنجيل، من حيث لابد وأن يعود كمخلص.

بينما دافع المسيحيون بثبات عن الحضور الجسدى للقائم من بين الأموات، فقد كان عليهم رغم ذلك أن يفترضوا أن هذا الجسد ذو طبيعة مختلفة عن الجسد الأسبق، على الأقل من أجل الحياة الابدية فقط. ليس هناك مايبعث على الدهشة في أن نجد أكثر الافكار مبالغة تزدهر حول هذا الموضوع فى العقول المسيحية وكذلك اليهودية فى فترة كانت تتسم بأقصى درجات الجهل والسذاجة كتلك التى تميز المسيحية الاولية.

نجد فى رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيين، أن النظرة التى عبر عنها وهي أن

رفاقه الذين سيعيشون ليروا دولة المستقبل، وكذلك هؤلاء الذين سوف يبعثون لأجل هذا الغرض، سيكون لهم نمطا جديدا وارفع من الوجود الجسدى:

"هو ذا سر أقوله لكم؛ لا نرقد كلنا (حتى يأتى المخلص) ولكننا كلنا نتغير، فى لحظة، فى طرفة عين، عند البوق الاخير، فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن (الأحياء) نتغير". (52،51/15)

إن رؤيا القديس يوحنا تتحدث عن قيامتين، أولهما سوف تحدث بعد الإطاحة بروما:

"ورأيت عروشا فجلسوا عليها، وأعطوا حكما: ورايت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن اجل كلمة الله..... فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة، وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه هى القيامة الأولى. مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم. بل سيكونون كهنة الله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة"(6،4/20).

ولكن عندئذ يقوم تمرد من أمم الارض ضد هؤلاء الرجال المقدسين. يُرمى المتمردون فى بحيرة من النار والكبريت، و يدان الموتى الذين قام جميعهم الآن، ويلقى، بغير البررة فى بحيرة النار، بينما البررة لن يعرفوا الموت بعد وسوف يبتهجون بالحياة فى أورشليم الجديدة التى سوف تأتى لها أمم الارض بمفاخرها وكنوزها.

سوف يلاحظ القارئ ان القومية اليهودية لاتزال تلوح هنا من خلال أشد الطرق سذاجة، إن نموذج نبوءة القديس يوحنا المسيحية ذو أصل يهودى وقد جرى تأليفه فى فترة حصار أورشليم.

كانت مازالت هناك نبوءات يهودية، عبرت بالمثل عن آمالها الخلاصية، حتى بعد سقوط أورشليم ومثالها باروخ والسفر الرابع من عزرا.

يعلن باروخ أن المخلص سوف يجمع الشعوب وسيمنح الحياة لهؤلاء الذين سوف يخضعون لنسل يعقوب ويدمر الآخرين الذين اضطهدوا اسرائيل. سوف يجلس المخلص عندئذ على عرشه فيسود فرح دائم؛ وتمنح الطبيعة كل هباتها بأسخى شكل، خاصة الخمر. سوف يقوم الموتى وينظم الرجال بشكل مختلف تماما. لن يكون البررة متعبين بعد ذلك بالعمل، سوف تتألق أجسادهم بفخامة، ولكن غير البررة سوف يكونون حتى أكثر قبحا من ذى قبل وسوف يعذبون.

يعرض مؤلف الإصحاح الرابع من سفر عزرا أفكارا مماثلة. سوف يأتى المخلص، سوف يعيش لمدة أربعمائة عام، ثم يموت مع بقية البشر. عندئذ، سوف يلى ذلك قيامة

عامة ودينونة ينال البررة فيها السلام وبهجة مضاعفة سبع مرات.

نحن نرى كيف أن الاختلاف طفيف فى كل هذه النقاط بين الآمال الخلاصية للمسيحيين الأوائل وآمال السكان اليهود ككل. جذب أيضًا السفر الرابع من عزرا، مع تزيينات عديدة لاحقة، انتباها عظيما فى الكنيسة المسيحية، وادخل فى عدد من الترجمات البروتستانتية للكتاب المقدس.

ب - أسلاف يسوع

توافق المفهوم المسيحى الباكر عن المسيح بشكل كامل مع المفهوم اليهودى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الأناجيل لاتزال تضع اشد تأكيد على (جعل) يسوع من نسل داود. لأن المخلص حسب الفكرة اليهودية، كان ينبغى أن يكون من عرق ملكى. وقد جرى التحدث عنه المرة بعد المرة باعتباره "من نسل داود" أو "ابن الله" الذى يساوى نفس الشيء فى العبرية وهكذا فإن السفر الثانى لصموئيل (14/7) يجعل الرب يقول لداود: "أنا "اكون له (من نسلك) أبا وهو يكون لى ابنا ؟

"ويقول الملك فى المزمور الثانى:

"إنى أخبر من جهة قضاء الرب. قال لى أنت ابنى. أنا اليوم ولدتك".

لقد كان ضروريا من ثم البرهنة بواسطة شجرة نسب طويلة أن يوسف، أب يسوع، كان من نسل داود، وأن يجعل يسوع، الناصرى، يولد فى بيت لحم، مدينة داود. حتى يجعل هذا جديرا بالتصديق، وظفت اشد التأكيدات بروزا. لقد أشرنا قبلا للرواية التى أوردها لوقا (2/1وما يليها).

"وفى تلك الايام صدر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة. (وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية). فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته. فصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم (لكونه من بيت داود وعشيرته) ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى".

إن مؤلف أو مؤلفى انجيل لوقا لديهم شك فى أن شيئا ما كان خاطئا وفى جهلهم دونوا أصرح أنواع الهراء. لم يأمر أغسطس أبدا بإحصاء إمبراطورى شامل. تخص الإشارة بوضوح الإحصاء الذى قام به كيرينيوس فى عام 7 ب.م فى اليهودية التى كانت قد أصبحت لتوها ولاية رومانية. كان هذا هو الإحصاء الأول من نوعه فى

اليهودية.

هذا الخطأ على اية حال، غير مهم. ولكن ماذا نقول عن فكرة أن يتطلب إحصاء إمبراطورى عام، أو حتى مجرد إحصاء ولاياتى من كل شخص أن يسافر إلى مسقط رأسه حتى يسجل! حتى اليوم، فى عصر السكك الحديدية، فإن مثل هذا الإجراء سوف يترتب عليه حدوث هجرة ضخمة، وستتزايد ضخامتها بسبب بلاهتها فقط.

فى الواقع، لم يتطلب الإحصاء الرومانى أبدا من أى أحد أن يتواجد إلا فى محل إقامته وقد كان على الرجال أن يحضروا شخصيا.

ولكن لم يكونوا ليخدموا الغاية الورعة إذا كان يوسف الطيب قد سافر وحده إلى مدينة داود. إن إجراء هذا الإحصاء من ثم قد صور بحيث يتطلب من كل رب عائلة أن يسافر إلى موطن أسلافه مع الطفل بقضه وقضيضه حتى يمكن أن يعرض يوسف وهو يجر زوجته إلى هناك بالرغم من المرحلة المتقدمة لحملها.

ولكن كل عمل الحب هذا قد ضاع. فى الواقع، لقد أصبح حتى مصدرا لحرج خطير للفكر المسيحى، حين بدأ المجمع المسيحى يتجاوز الوسط اليهودى. لم يكن للوثنيين اهتمام خاص بداود، وكونه من نسل داود لم يكن ليزكيه فى أعينهم. إن نمط التفكير الهيلينى والرومانى كان يميل كثيرا لأخذ أبوة الإله بجدية، بينما كان بالنسبة لليهود رمزا فحسب للنسب الملكى. لم يكن شيئا غير عادى بين اليونانيين والرومان، كما رأينا، أن يمثل رجل عظيم باعتباره ابن ابوللو أو أى إله آخر.

ولكن الفكر المسيحى، فى جهده لإيلاء المخلص مكانه فى عيون الوثنيين، واجه صعوبة قليلة: أى، التوحيد، الذى استعاره من اليهود. واقعة أن الله أنجب ابنا ليست شيئا خارج السياق فى تعدد الآلهة؛ لديك ببساطة إله واحد أكثر لتتعامل معه. ولكن أن تجعل الله ينجب إلها آخر، ومع ذلك يبقى الله واحدا ليس فى غاية السهولة تفسير هذا. ولم يبسط الأمر بعزل القوة الخلاقة المنبثقة من رأس الإله فى شكل روح قدس خاص، كانت المهمة الآن التوفيق بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة تحت مفهوم واحد يمكن أن يحتضنها جميعا. لقد كانت مهمة جلبت الأسى حتى للخيال الأكثر تهورا ولأكثر المراوغات حذقا. أصبحت عقيدة التثليث واحدة من الأسرار التى يجب الإيمان بها ببساطة دون فهم، سرا يجب الإيمان به بسبب لا معقوليته خاصة.

ليست هناك ديانة دون تناقضات. لم تولد ديانة قط من عقل مفرد بوصفها نتيجة لعملية منطقية محضة: كل ديانة هى نتاج لتأثيرات اجتماعية متعددة، غالبا ما

تمتد خلال قرون، وتعكس أكثر الأوضاع التاريخية اختلافا. ولكنه سوف يكون من الصعب أن تجد ديانة غنية جدا بتناقضاتها وغير معقولة فى افتراضاتها كما هى المسيحية: لأنه لاتوجد بالكاد أى ديانة أخرى قد نشأت من مثل هذه العناصر المتباينة بشكل صارخ: لقد انتهت المسيحية بواسطة اليهود إلى الرومان، وبواسطة البروليتاريين إلى حكام العالم، وبواسطة تنظيم شيوعى إلى تنظيم تشكيل لاستغلال كل الطبقات.

مع ذلك، فإن اتحاد الأب والابن فى شخص واحد لم يكن الصعوبة الوحيدة التى نشأت من صورة المخلص، للفكر المسيحى، بمجرد أن اتت تحت تأثير بيئة غير يهودية.

ماذا كان يجب أن يصنع بأبوة يوسف؟ لم يعد من الممكن جعل مريم تحمل بيسوع من زوجها. وحيث أن الله قد عاشرها ليس كإنسان وانما فى شكل روح، فلابد أنها بقيت عذراء. عنى هذا التخلى عن انحدار يسوع من داود. ولكن قوة التقليد العظيمة فى الدين أدت إلى أنه بالرغم من كل هذا استمرت شجرة الأسلاف المخترعة بجمال ليوسف هذا وتعيين يسوع باعتباره ابن داود متصلة بإخلاص. ولكن بالنسبة للمسكين يوسف فقد عزيت إليه الآن المهمة البغيضة بالعيش مع عذراء دون انتهاك عذريتها، وأيضا، بكونه لم ينزعج بأى طريقة من حملها.

ج- يسوع كمتمرد

بالرغم من أن مسيحيي الأزمنة اللاحقة لم يكن بمقدورهم أن يتحملوا التخلي كلية عن النسب الملكى لمخلصهم، بالرغم من اصله الالهى، فقد عانوا أشد معاناه لاستبعاد ملمح آخر لميلاده اليهودى، أى، **روحه المتمردة**.

كانت المسيحية فى القرن الثانى تتسم أكثر فأكثر بطاعة سلبية، مختلفة تماما عن الطبيعة اليهودية للقرن السابق. لقد علمنا سلفا بالطابع المتمرد لتلك الشريحة من الشعب اليهودى التى كانت تنتظر المخلص، خاصة بروليتاريي أورشليم وعُصب الجليل المتجوله، وبصفة أخص العناصر التى استمدت منها المسيحية أصلها. لابد وأن نفترض من ثم فى البداية أن المسيحية كانت تتسم بالعنف فى بداياتها. يصبح هذا الافتراض يقينا حين نكتشف آثارا لهذا الوضع فى الأناجيل، بالرغم من حقيقة أن محرريها اللاحقين كانوا طموحين بقلق لاستبعاد أى عنصر يمكن أن يزعج هؤلاء الذين فى السلطة.

رغم أن يسوع قد يبدو رقيقا ومذعنا كقاعدة، فإنه يصدر تصريحاً ذو نوع مختلف

كلية، تصريح يضطرنا إلى افتراض أنه - بغض النظر عما إذا كان قد وجد فعلا أم كان شخصية مثالية تعكس رؤى البشر فحسب - كان، فى التقليد الأصلى متمردا صلب بوصفه قائدا فاشلا لانتفاضة. حتى الطريقة التى يتحدث بها عرضا عن الأشخاص البررة شرعا جديرة بالملاحظة:

"لم آت لأدعو ابرارا (δικαίους) بل خطاة" (مرقس 17/2).

يترجم لوثر: "لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى **التوبة** ". ربما كان هذا هو المتغير فى النص الذى استخدمه. بالتأكيد، لابد وأن المسيحيين قد تعلموا مبكرا بالأحرى أن من الخطر الإقرار بأن يسوع دعا إليه تلك العناصر التى كانت مناهضة للشرائع خاصة. أضاف القديس لوقا من ثم إلى الدعوة: الندم(ξίς μξτάυοιαυ)، وهى الإضافة التى يمكن أن نجدها أيضًا فى كثير من نصوص القديس مرقس. ولكن متغيرة "دعا إلى نفسه" أو "دعا" (καλξω) إلى الكلمات "دعا إلى التوبة" فقد سلبوا هذه الجملة أى معنى على الإطلاق. من سوف يفكر فى دعوة "البار"، كما يترجم لوثر ال (δικαίους)، إلى التوبة؟ أضف إلى ذلك، مثل هذا التغيير سوف يناقض السياق، لأن يسوع يستخدم الكلمة لأنه قد اتهم **بالأكل** بصحبة أشخاص محتقرين، وبالارتباط بهم، "وليس لأنه ناشدهم تغيير سلوكهم فى الحياة. لم يكن أحد ليعارض دعوة الخطاة "الى الندم".

يعلق برونوباور بصواب فى مناقشته لهذا المقطع:

" إن هذا القول فى شكله الأصلى لايتعلق بمسألة ما اذا كان الخطاة بالفعل سوف يقومون بالكفارة، يقبلوا الدعوة **ويكسبوا** حقهم فى مملكة السماء بطاعة من يبشر بالكفارة. **كونهم** خطاة، يخولهم ميزات تتجاوز تلك التى للبررة. **لكونهم** خطاه فإنهم مدعوون للنعمة، **أعطوا معاملة مفضلة بلا شرط**. إن مملكة السماء قد خلقت للخطاة والدعوة التى توجه لهم تقرهم فحسب فى **حقوق ملكيتهم**، الملازمة لهم كخطاه" [1].

يوحى هذا المقطع باحتقار للشرائع التقليدية، والكلمات التى يعلن بها يسوع مجيء المخلص موحية بالعنف: سوف تفنى الإمبراطورية الرومانية القائمة فى عربدة القتل. ويبدو أن القديسين لن يلعبوا دورا سلبيا فى هذه العملية.

يعلن يسوع:

---

1 Kritik Der Evangelien Und Geschichte Ihres Ursprung, 1851, P 248.

"جئت لألقى نارا على الأرض؛ فماذا أريد لو اضطرمت؟ ولى صبغة اصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل ! أتظنون انى جئت لأعطى سلاما على الارض؟ كلا اقول لكم، بل انقساما: لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسمين، ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة". (لوقا 12/49)

وفى متى نقرأ الكلمات الصريحة:

"لاتظنوا انى جئت لألقى سلاما على الارض، ماجئت لألقى سلاما بل سيفا". (34/10)

حين وصل إلى أورشليم فى عيد الفصح، يطرد التجار والصيارفة من الهيكل، العمل الذى لايمكن تصوره دون مساعدة مجموعة معتبرة من الناس حرضها، ليس طويلا بعد، فى العشاء الأخير، قبل الكارثة مباشرة، يقول يسوع لتلاميذه:

"الآن، من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له، فليبع ثوبه، ويشتر سيفا، لأنى اقول لكم إنه ينبغى ان يتم فى أيضًا هذا المكتوب: واحصى مع إثمه (ἀνόμων)، لأن ماهو من جهتى له انقضاء. فقالوا: يارب هو ذا هنا سيفان، فقال لهم يكفى".

بعد ذلك مباشرة، يجرى النزاع مع القوة المسلحة للدولة على جبل الزيتون. يسوع على وشك ان يقبض عليه

"وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه".

ولكن فى هذا الإنجيل يبدو يسوع معارضا لإراقة الدماء، ويقبل أن يقيد فى هدوء، بينما يبقى رفاقه هادئين تماما.

فى الشكل الذى لدينا، فإن هذه القصة هى الأكثر بروزا، إنها من ناحية مليئة بالتصريحات المتناقضة التى لابد وأنها كانت أصلا مختلفة تماما.

يدعو يسوع لحمل السلاح كما لو أن ساعة العمل قد حانت، انطلق المؤمنون به مسلحين بالسيوف - وفى ذات اللحظة التى واجهوا فيها العدو وسحبوا سيوفهم، يعلن يسوع فجأة أنه يعارض مبدئيا كل استعمال للقوة - بالطبع هذا التصريح حاد بصفة خاصة فى حالة متى:

"رد سيفك إلى مكانه: لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. اتظن انى لا أستطيع الآن أن اطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة؟ فكيف تكمل الكتب إنه هكذا ينبغى أن يكون؟"

ولكن اذا كان يسوع معارضا من حيث المبدأ لأى استخدام للقوة، لم دعا إلى حمل السيوف؟ لم سمح لأصدقائه بحمل السلاح حينما صحبوه؟ نستطيع ان نفهم هذا التناقض فقط بافتراض أن التقليد المسيحى فى شكله الأصلى لابد وانه قد احتوى تقريرا عن انقلاب مخطط بعناية، أسر فيه يسوع، انقلاب بدا الوقت ناضجا له بعد أن طرد الصيارفة والباعة خارج الهيكل بنجاح. لم يجرؤ المحررون اللاحقون أن يلقوا بهذا التقرير جانبا، لأنه متأصل بعمق فى التراث، فى مجموعه. لقد بتروه بجعل استخدام القوة يظهر باعتباره عملا قام به الرسل ضد مشيئة يسوع.

ربما كان من غير النافل أن نتذكر أن هذا التصادم حدث على جبل الزيتون. كانت هذه نقطة الانطلاق المشار إليها لأى انقلاب ضد أورشليم.

دعنا نسجل، على سبيل المثال، الرواية التى يوردها يوسيفوس التى تتعلق بالانتفاضة غير الناجحة التى قادها يهودى مصرى فى زمن الضابط المالى فيلكس (52- 62ب.م) [1].

جاء هذا الرجل من الصحراء إلى جبل الزيتون مع ثلاثين ألف رجل حتى يهاجم مدينة أورشليم ويطرد الفيلق الرومانى ويحوز السلطة. تعارك فيلكس مع المصرى وفرق أتباعه؛ ويبدو أن المصرى نفسه قد هرب.

يعج تاريخ يوسيفوس بأحداث مماثلة. إنها ذات دلالة على مزاج السكان اليهود فى زمن المسيح. لن تتناقض انتفاضة حاولها النبى الجليلى يسوع مع هذا المزاج على الإطلاق.

اذا كان لنا أن ننظر إلى مشروعه كمحاولة من هذا النوع، فإننا نستطيع ان نفهم أيضًا خيانة يهوذا التى تتداخل مع التقرير الذى نناقشه الآن.

وفقا للطبعة التى حفظت لنا، فإن يهوذا قد وشى بيسوع من خلال قبله، وهكذا عَرَّفه للعسس بوصفه الرجل الذى ينبغى القبض عليه. ولكن لم يكن لهذه العملية أى معنى على الإطلاق. كان يسوع معروفا جيدا فى أورشليم، وفقا للأناجيل؛ لقد كرز علنا كل يوم؛ وتلقته الجماهير بأذرع مفتوحة، ومع ذلك علينا أن نصدق فجأة انه كان من الضرورى ليهوذا أن يدل عليه، حتى يمكن تمييزه من أتباعه. يشبه ذلك إلى حد ما أن نرى شرطة برلين تدفع لجاسوس من أجل أن يدلهم على من هو بيبل.

---

2 انظر الصفحات 302 - 303 من هذا الكتاب النص الإنجليزي.

(أوجست بيبل، أحد قادة الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية البارزين - المترجم).

ولكن الأمر يصبح مختلفا تماما، إذا كنا نتعامل مع انقلاب متقن بعناية. سوف يتضمن مثل هذا الموقف، شيئا جديرا بالخيانة، سر جدير بالشراء. إذا وجب استبعاد رواية الانقلاب الذى خطط له من القصة، تصبح خيانة يهوذا لا معنى لها ايضا. ولكن حيث أن فعل الخيانة هذا كان بوضوح معروفا للغاية بين الرفاق، وكراهتهم للخائن عظيمة للغاية، فقد كان من المستحيل على الإنجيلى أن يستبعد هذا الحدث كلية. ولكن بات الآن مضطرا لأن ينشئ فعلا جديدا للخيانة من خياله الخاص، وإن لم يلق فيه نجاحا كثيرا.

ليس أقل تعاسة من الطبعة الحالية من خيانة يهوذا اختراع أسر يسوع. فهو الذى قبض عليه فقط، بالرغم من أنهم صوروه باعتباره يكرز باستخدام الطرق السلمية، بينما الرسل الذين أخرجوا سيوفهم واستخدموها لم يزعجهم أحد. فى الواقع، يمشي بطرس، الذى "قطع" أذن مالخوس MALCHUS، وراء الشرطة ويجلس فى فناء رئيس الكهنة ويتحدث معهم بسلام. تخيل فقط رجلا من برلين يعارض بالقوة اعتقال رفيق، ويطلق غدارته فى هذه الحالة، فيجرح شرطيا، ثم يمشى عقب ذلك بهدوء، متحدثا بود مع الشرطة، وبعدئذ يجلس معهم فى مخفر الشرطة ليتدفأ ويشرب معهم قدحا من الجعة!

لقد كان من المستحيل اختراع أوضاع أكثر غباءا. ولكن هذه الخرافة تحديدا هى التى ينبغى ان تظهر لنا ان هناك جهدا قد جرى القيام به لإخفاء شئ كان يجب أن يستبعد بأى ثمن. إن عملا طبيعيا، يمكن أن يفهمه المرء ببساطة، نزاع التحامى ينتهي بهزيمة بسبب خيانة يهوذا، وبأسر القائد، يصبح عمليه بلا معنى مطلقا ولايمكن فهمها حين توصف بأنها من أجل "أن يتم المكتوب".

إن إعدام يسوع، الذى يسهل فهمه اذا كان متمردا، يصبح الآن عملا شريرًا لا معنى له لا يمكن فهمه، الذى ينجح حتى فى تحقيق هدفه بمعارضة الوالى الرومانى، الذى كان سوف يحرر يسوع. هذا تراكم لأوضاع غير معقولة يمكن أن تفسرها فقط الحاجة التى شعر بها المحررون اللاحقون لأن يبيضوا الحادثة الحقيقية.

حتى الإسينيين، الذين كانوا مسالمين ومعارضين لكل نزاع، قد انساقوا وقتها مع الموجه العامة للوطنية. نحن نجد إسينيين بين القادة اليهود فى الحرب العظمى

الأخيرة ضد الرومان. وهكذا يروى يوسيفوس عن بداية الحرب: لقد اختار اليهود ثلاث قواد عتاة، تمتعوا ليس فقط بالقوة البدنية والشجاعة، وإنما أيضًا بالذكاء والحكمة، ينجر من بيريا، سيلاس من بابل، ويوحنا الإسينى" [1].

افتراض أن إعدام يسوع كان يعود لحقيقة أنه كان متمردا هو من ثم ليس الافتراض الوحيد الذى يمكن أن يجعل الإشارات فى الإنجيل واضحة، وإنما يتوافق تماما مع طابع الحقبة والمكان. من الوقت الذى يعزى إليه موت يسوع عامة، حتى تدمير أورشليم، لم تكن هناك نهاية لعدم الاستقرار فى تلك المدينة. كانت حروب الشوارع شيئا شائعا للغاية، وكذلك إعدام منتفضين أفراد. شنت حرب الشوارع كهذه مجموعة صغيرة من البروليتاريين، تبعها صلب قائد حلقتها، الذى كان مواطنا من الجليل، التي كانت دائما مقاطعة متمردة ربما خلقت بالفعل لمدى بعيد انطباعا عميقا على كل المشاركين الذين بقوا على قيد الحياة، بينما التاريخ نفسه ربما لم يكلف نفسه عناء تسجيل مثل هذه الحادثة اليومية.

بالنظر إلى التحريض المتمرد الذى كان يعيش فيه كامل العرق اليهودى فى هذه الفترة، فقد كان من الطبيعى لهذه الطائفة التى أثمرت هذه الانتفاضة التى جرت محاولتها أن تشدد عليها لأغراض الدعاية، معطية إياها هكذا مكانا راسخا فى التراث ومن الطبيعى أيضًا أن تبالغ إلى حد ما وأن تزين تفاصيل مثل شخصية البطل.

ولكن الوضع تغير حين دمرت أورشليم مع تدمير المجتمع اليهودى، دمرت البقايا الأخيرة من المعارضة الديمقراطية التى كانت ماتزال تحافظ على نفسها فى الإمبراطورية الرومانية أيضا. تتوقف فى حوالى هذا الوقت الحروب الأهلية فى الإمبراطورية الرومانية ذاتها.

فى القرنين اللذين يقعان بين المكابيين وتدمير أورشليم على يد تيتوس، كان الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى حالة دائمة من عدم الاستقرار، انهارت حكومة بعد أخرى، وفقدت أمة بعد أخرى استقلالها أو مركزها المهيمن. ولكن القوة التى كانت خلف كل هذه الاضطرابات مباشرة أو غير مباشرة، أى، الدولة الرومانية، كانت تمزقها فى نفس الفترة أشد الكوارث ضخامة من الجراكسيين إلى ڤاسباسيان، الذين ظهروا أكثر فأكثر من بين الجيوش وقادتها. فى هذه الحقبة، التى تطور فيها

---

3 الحرب اليهودية 3، 2، 1.

وتمتن توقع المخلص، لم تبد أى عضوية سياسية أكثر من مؤقتة، بينما بدت الثورة السياسية وكأن لم يكن ممكنا تفاديها، وكان يجب توقعها. انتهت هذه الفترة فى ظل ڤسباسيان. حققت الملكية العسكرية فى ظل حكمه، أخيرا، الترتيب المالى الذى كان يحتاجه الإمبراطور حتى يعوق مقدما أى نشاط لمنافس محتمل فى نيل حظوة الجنود وليوقف هكذا لفترة طويلة التمردات العسكرية عند منبعها.

لدينا منذ هذا الوقت فصاعدا "العصر الذهبى" للإمبراطورية، وضع عام من السلام الداخلى يستمر لأكثر من قرن، من ڤسباسيان (69ب.م) حتى كومودوس (180ب.م). بينما كان الاضطراب بالنسبة للقرنين السابقين هو القاعدة، كان الهدوء شعار هذا القرن. الثورة السياسية، التى كانت سابقا شيئا طبيعيا، أصبحت الآن الأكثر شذوذا. بدا الآن الخضوع للسلطة الإمبراطورية، والطاعة الصابرة، ليس فقط وصية الحكمة للجبناء وإنما أصبح ضاريا بجذوره أكثر فأكثر كالتزام أخلاقى.

طبيعى أن كان لهذا تأثيره على المجمع المسيحى. لم يعد بمقدور الأخير بعد أن يستخدم المخلص المتمرد، الذى كان مقبولا لدى الفكر اليهودى. حتى الشعور الأخلاقى للمجمع تمرد ضد هذا المخلص المتمرد. ولكن حيث أن المجمع اعتاد أن ينظر إلى يسوع إلهه باعتباره اندماجا لكل الفضائل، لم يتضمن التحول تخليا عن يسوع المتمرد وإحلال صورة مثالية لشخصية أخرى، أكثر تكيفا مع الظروف الجديدة، ولكنها عنت ببساطة استبعادا تدريجيا لكل العناصر المتمردة من صورة يسوع الإله، هكذا محوله تدريجيا يسوع المتمرد بعدوانية إلى شخصية سلبية، الذى قتل ليس بسبب انتفاضة وإنما ببساطة بسبب طيبته اللامحدودة وقداسته، وفساد وحقد الحساد الغادرين.

لحسن الحظ فإن إعادة التلوين قد صنعت بغير مهارة حتى ان آثارا من الأصباغ الأصلية مازال يمكن اكتشافها، وهي تسمح لنا بأن نخلص إلى استنتاجات بالنسبة لكامل الصورة. يمكن لنا بسبب أن هذه البقايا تحديدا لاتتناسق مع اعادة التلوين اللاحقة أن نستنتج على نحو أكثر تأكيدا أن الأولى حقيقية وتمثل الرواية الفعلية الأصلية.

تتوافق تماما فى هذا الصدد، وكذلك فى (الجوانب) الأخرى التى نوقشت سلفا صورة المخلص فى المجمع المسيحى الأولى مع الصورة الاصلية اليهودية. بدأ المجمع المسيحى اللاحق فقط فى طرح الاختلافات. ولكن هناك نقطتان تختلف فيها صورة

المخلص فى المجمع المسيحى منذ البداية الأولى عن المخلص اليهودى.

د- قيامة المصلوب

لم يكن هناك نقص فى المخلصين فى زمن يسوع، خاصة فى الجليل، حيث ظهر الأنبياء وقادة العُصب فى كل لحظة، معلنين أنفسهم فادين وممسوحين من الرب. ولكن حين خضع مثل هذا الفادى للسلطة الرومانية، وأخذ أسيرا، صلب أو قتلَ، يكون دوره الخلاصي قد انتهى، وكان طبيعيا أن يعتبر نبيا زائفا ومخلصا زائفا. ومازال على النبى الحقيقى أن يأتى.

ولكن المجمع المسيحى وقف إلى جانب بطله. بالنسبة لهم أيضًا ما زال على المخلص فى كل مجده ان يأتى. ولكن المخلص الذى كان عليه ان يأتى لم يكن أحدا آخر غير من كان بالفعل، أى، المصلوب، الذى قام بعد ثلاثة أيام من موته وبعد أن ظهر لتلاميذه، صعد إلى السماء.

كان هذا المفهوم خاصا بالمجمع المسيحى. فماذا كان أصله؟

وفقا للمفهوم المسيحى الاولى فقد كانت معجزة قيامه المسيح فى اليوم الثالث بعد صلبه هى التى اثبتت طابعه الإلهى وأدت إلى تشكل توقعات عن عودته من السماء. لم يتقدم لاهوتيى زمننا الحاضر ماوراء هذه النقطة. بالطبع لم تعد "النفوس الليبرالية" بينهم تأخذ القيامة حرفيا. لأن الأخير، يسوع لم يقم حقا من "بين الأموات، ولكن تلاميذه إعتقدوا انهم رأوه فى نشواتهم الصوفية بعد موته، ومن ثم استنتجوا انه ذو أصل إلهى:

"من ثم، علينا أن نعتبر الظهور الأول للمخلص الذى خَبَرَه بطرس بنفس طريقة بولس أى ظهور النور السماوى للمسيح فى رؤية صوفيه مفاجئة فى طريقه إلى دمشق - تجربة طبيعية ليست بأى حال معجزة غير قابلة للفهم، ويمكن تصورها سيكولوجيا استنادا لكثير من التجارب المشابهة فى كل العصور...... اقتفاءً لتشابهات أخرى، فمن السهل أيضًا أن نفهم أن هذه التجربة للرؤية الملهمة لم تقتصر على بطرس، ولكنها سريعا ما تكررت لتلاميذ آخرين، وأخيرا، لمجموعة من المؤمنين..... نجد الأساس التاريخى لاعتقاد التلاميذ فى القيامة فى التجارب الرؤيوية الصوفية التي تنبثق عن فرد وسرعان ما تقنع الجميع، وقد اعتقدوا فى هذه التجارب انهم رأوا المعلم المصلوب حيا وصعد إلى مجد سماوى. فى البيت فى عالم عجائبى، نسج الخيال الرداء

ليلبس ما كان يحرك ويغمر النفس. فى الأساس، لم تكن القوة المحركة لقيامة يسوع فى اعتقادهم شيئا أكثر من الانطباع الذى لايمكن محوه الذى خلقه شخص واحد فيهم، كان حبهم وثقتهم فيه أقوى من الموت. كانت معجزة الحب هذه وليس معجزة كلى القدرة أساس عقيدة القيامة فى المجمع الأولى. من ثم لم يتوقف عندئذ تمرير العواطف، ولكن المستيقظ حديثا، ألهم عقيدة دفعت إلى الفعل، أدرك التلاميذ مهمة حياتهم. كان عليهم أن يعلنوا أن يسوع الناصرى، الذين سلموه لأعدائهم، كان المخلص، وقد أظهره الله أكثر بقيامة يسوع وصعوده إلى السماء، وأن يسوع سوف يعود سريعا ليتولى الحكومة الخلاصية للعالم" [1].

سوف يجعلنا العرض السابق نقبل انتشار إعتقاد المجمع المسيحى في المخلص، ومعه كل الظاهرة الضخمة التاريخية للمسيحية، كنتائج لهلوسة عرضية لإنسان فان بمفرده.

ليس من المستحيل أن تكون قد خطرت لواحد من الرسل رؤيا عن المصلوب، وليس من المستحيل أن يكون قد آمن عديد من الأشخاص بهذه الرؤية، لأن الحقبة كانت (حقبة) ساذجة تماما وكان الشعب اليهودى متأثرا بعمق بالاعتقاد فى القيامة. لم يكن يعتبر القيام من بين الأموات بأى حال غير قابل للتصور. دعنا نضيف بضعة أمثلة إلى التى قدمناها قبلا.

فى إنجيل متى، يصف يسوع للرسل أنشطتهم:

"اشفوا مرضى، طهروا برصا، **اقيموا** موتى، أخرجوا "شياطين". (10، 8)

الإقامة من الموتى قد ضمنت هنا بأشد الطرق واقعية فى تعداد للواجبات اليومية للرسل، مع شفاء المرضى. وقد أضيفت مذكرة تحذرهم من قبول أجر لقاء هذا العمل. اعتبر يسوع أو بالأحرى مؤلف الإنجيل الإقامة من بين الموتى مقابل أتعاب، بمعنى آخر، أن يقام بها كعمل، تدخل تماما فى مجال الممكن.

مميزة تماما قصة القيامة كما رويت عند متى. مقبرة يسوع حرسها الجنود، حتى لايسرق الرسل الجثة وينشروا الخبر بأنه قد قام. ولكن الحجر قد تدحرج عن فتحة القبر مصحوبا بومضات ضوء وزلازل، ويقوم يسوع.

"وفيما هما ذاهبتان، إذا، قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة، وأخبروا رؤساء الكهنة

---

4 أو. بفليدرر، **أصول المسيحية**، نيويورك. ب. و. هيوبش، 1906، ص ص 137 - 139.

بكل ماكان. فاجتمعوا مع الشيوخ، وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين: قولوا، إن تلاميذه أتوا ليلا، وسرقوه ونحن نيام. وإذا سمع هذا عند الوالى، فنحن نستعطفه، ونجعلكم مطمئنين. فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم: فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم". (28، 11 ومايليها) "

تخيل هؤلاء المسيحيون من ثم أن إقامة رجل مات ودفن لثلاثة أيام لن تخلق انطباعا شديد العمق على شهود العيان حتى تجعل من الضرورى إعطاء أكثر من رشوة سخية من أجل فرض الصمت عليهم، وحتى لإغوائهم بنشر رواية كانت عكس الحقيقة.

قد نعتقد عن طيب خاطر بأن المؤلفين الذين تبنوا نظرات كتلك التى عبر عنها الإنجيليون هنا كانوا قادرين على قبول خرافة القيامة بدون أدنى تردد.

ولكن هذا لايحسم كامل السؤال. هذه السذاجة، هذا الاعتقاد الحازم فى إمكانية القيامة، لم يكن سمة خاصة بالمجمع المسيحى، حيث شارك فيه كل السكان اليهود فى هذا الزمن، على الأقل ذلك القسم من السكان اليهود الذى كان يتوقع مخلصا. لم امتلك المجمع المسيحى فقط رؤيا لقيامة مخلصه؟ ولم يمتلكها أيضًا أتباع واحد من المخلصين الآخرين الذين عانوا الموت كشهداء فى هذا العصر؟

سوف يجيب لاهوتيونا بأننا يجب أن نفسر هذا بواسطة الانطباع العميق الذى خلفته بصفة خاصة شخصية يسوع، انطباع لم يكن أى من المخلصين الآخرين قادر على خلقه. ويناقض هذا التصريح حقيقة أن انشطة يسوع، التى لم تستمر وفقا لكل المؤشرات سوى لوقت قصير، لم تترك آثارا فى الجماهير، انتهاءا إلى انه لم يسجلها معاصر واحد. ولكن استمر مخلصون آخرون فى القتال لوقت طويل ضد الرومان وحققوا مؤقتا انتصارات عظيمة ضد الأخيرين، نجاحات سجلت فى التاريخ؛ هل كان يمكن أن يكون هؤلاء المخلصين قد خلقوا انطباعا أقل من يسوع؟ لكن دعنا نفترض أن يسوع، بينما لم يكن قادرًا على التأثير فى الجماهير، كان قادرا رغم ذلك على أن يخلف وراءه انطباعات لاتمحى بين بضعة من تلاميذه، بسبب قوة شخصيته. هذا سوف يفسر على الأكثر لماذا استمر الايمان بيسوع بين أصدقائه الشخصيين، وليس لم حازت الدعاية قوة بين الأشخاص الذين لم يعرفوه، والتى لم تستطع شخصيته أن تؤثر فيهم. اذا كان الانطباع الشخصى الذى خلقه يسوع هو الذى أنتج الاعتقاد بقيامته وبمهمته الإلهية فقط، فإن هذا الاعتقاد سوف يصبح بالضرورة أضعف حيث تخبو

الذكرى الشخصية عنه، ويتناقص عدد الأشخاص الذين كانوا على اتصال شخصى معه.

ليس للأخلاف أمجاد المنجزين الدراميين [1] وفى هذا الصدد فإن رجل الكوميديا والإكليركى يتشابهان كثيرا. ماهو صحيح بشأن الممثل صحيح أيضًا بشأن المبشر، إذا كان مبشرا فقط، ويؤثر فقط من خلال شخصيته، ولايترك كتابات وراءه تتجاوز حياته الشخصية، ربما تكون مواعظه دوما مؤثرة بعمق شديد، ربما ترتفع دوما بقوة شديدة، ولكنهالا تستطيع أن تنتج نفس الانطباع على هؤلاء الذين لايسمعونها، على هؤلاء الذين حصلوا عليها بالنقل فقط. فلن يكون لشخصيته أى أثر على مثل هؤلاء الأشخاص على الإطلاق، لن يستثار خيالهم بها. لايمكن لأحد ان يترك خلفه ذكرى شخصية وراء دائرة هؤلاء الذين كانوا على اتصال شخصى معه، مالم يكن قد انتج ابداعا جديرا بخلق انطباع منفصل تماما عن شخصيته، أن يكون إبداعا فنيا، صرحا، إعادة إنتاج، تأليفا موسيقيا، عملا أدبيا، أو إنجازا علميا، مجموعة من المواد المرتبه منهجيا، نظرية، اختراعا، اكتشافا، أو، أخيرا، مؤسسة أو تنظيم سياسى أو اجتماعى من نوع أو آخر، انتجه أو على الأقل نتج بتعاونه المميز.

مادام هذا النتاج وأثره يستمر، فسوف يستمر الاهتمام بشخصية المبدع أيضا. فى الواقع، بينما قد يتم تجاهل مثل هذا الإبداع عمليا خلال حياة منتجه، سوف ينمو بعد مونه ويُبدأ فى تبين مغزاه، كما هو الحال مع مكتشفات عديدة، اختراعات وتنظيمات، حيث يمكن تماما أن يبدأ الاهتمام بمبدعها بعد موته فقط، وقد يستمر في التزايد أكثر فأكثر. كلما كان الانتباه الذى أولى إياه أقل حين كان حيا، وقل ماهو معروف بالفعل عن شخصه، كلما استثار هذا الجهل الخيال، وكلما كان إبداعه قويا، كلما أحيطت هذه الشخصية بهالة من الحكايات والخرافات. فى الواقع، إن حب الإنسان للعلاقات السببية، الذى يبحث فى كل حدث اجتماعى - وكذلك أيضًا فى كل حدث طبيعى – (عن) شخصية فعاله وراءه، هذا الحب للعلاقات السببية قوى بما فيه الكفاية حتى يؤدي لإيجاد مبدع لأى عمل أصبح ذو أهمية عظيمة، أو على الأقل ربط هذا العمل باسم ما وصل إلينا، فى حالة ما اذا كان المبدع الفعلى قد نسى، أو، كما هو الحال كثيرا جدا، اذا كان نتاجًا لتعاون مواهب غاية فى الكثرة، لايبز أحد منهم الآخرين تماما - حتى يؤدي منذ البداية لاستحالة تسمية مبدع معين.

1 Dem Mimen Flicht Die nachwelt Keine Kranze - Schiller, Prologue To Walenstein Lager .

ليس علينا ان نبحث فى شخصيته، وإنما فى الإبداع الذى ارتبط باسمه، عن سبب أن النشاط الخلاصى ليسوع لم يلق مصير النشاطات المماثلة ليهوذا وتيوداس ومخلصين آخرين لهذا الزمان. الإيمان الصوفى بشخصية النبى، وحب المعجزات، النشوة، الايمان بالقيامة - كل هذه نجدها بين اتباع المخلصين الآخرين وكذلك بين تلامذة يسوع. قد لانبحث سبب اختلاف واحد منهم فيما يشتركون فيه جميعا. بينما قد يكون طبيعيا للاهوتيون، حتى الأكثر ليبرالية، أن يفترضوا بأنه رغم أن كل المعجزات التى أشيعت عن يسوع قد تطرح، فإن يسوع نفسه يبقى معجزة، إنسانا أعلى، لم ير العالم مثله قط - وإننا مضطرون حتى لإنكار هذه المعجزة. إن نقطة الاختلاف الوحيدة بين يسوع والمخلصين الآخرين هى فى حقيقة ان الأخيرين لم يتركوا شيئا ورائهم يمكن ان تحفظ فيه شخصيتهم، بينما أورث يسوع تنظيما ذو عناصر حُسبت بامتياز لتُبقى تلاميذه معا وتجذب أعدادا متزايدة من التلاميذ الجدد.

جمع المخلصون الآخرون معا عُصبا بغرض الانتفاض فحسب؛ وتفرقت العصب بعد إخفاق الانتفاضة. إذا لم يكن يسوع قد فعل أكثر من هذا، لكان اسمه قد اختفى دون أثر بعد صلبه. ولكن يسوع لم يكن متمردا فحسب، لقد كان أيضًا ممثلا وبطلا، ربما حتى مؤسس تنظيم تجاوزه واستمرت أعداده فى التزايد والقوة.

مما لاريب فيه، فإن الافتراض التقليدى يفيد بأن مجمع المسيح لم يكن منظما من قبل الرسل حتى بعد موته. ولكن لاشئ يضطرنا لقبول هذا الافتراض، الذى هو، أضف إلى ذلك، غير جدير بالتصديق بالمرة. لأن هذا الافتراض يأخذ كأمر مسلم به ليس وضعا أقل من أنه بعد موت يسوع مباشرةً أدخل تلاميذه فى مذهبه عنصرا جديدا كلية، جرى تجاهله حتى حينه وغير مرغوب فيه من جانبه، وان هؤلاء الذين بقوا غير منظمين حتى هذا الوقت انطلقوا فى اتخاذ خطوة التنظيم، التى كان يعارضها معلمهم، فى نفس اللحظة التى عانوا فيها هزيمة كانت قوية بما فيه الكفاية لأن تدمر حتى تنظيما محكما.

إذا حكمنا قياسا على تنظيمات أخرى مماثلة نحن ملمين ببداياتها على نحو أفضل، فيجب علينا أن نفترض بالأحرى أن التنظيمات الخيرية الشيوعية لبروليتاريى أورشليم، تشربت بالأمل بمجيء المسيح، وقد وجدت حتى قبل زمن يسوع، وان محرضا جريئا ومتمردا يدعى يسوع، أتى من الجليل، أصبح بطلهم وشهيدهم الأشد بروزا فحسب.

وفقا ليوحنا، كان للرسل الاثنى عشر صندوقا عاما حينما كان يسوع مازال حيا. ولكن يسوع يطلب ايضًا أن يتخلى كل تلاميذه الآخرين عن كل ملكيتهم.

ولا نقرأ فى أى مكان فى أعمال الرسل أن الرسل والمجمع لم يكونوا منظمين حتى بعد موت يسوع. نجدهم بالفعل منظمين فى هذا الوقت، ويقيمون اجتماعات عضويتهم قائمين بوظائفهم. إن أول ذكر للشيوعية فى أعمال الرسل هو مايلى:

"وكانوا يواظبون (ησαν δε ηροσκαρτξροΰντες) على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات". (2، 42) بمعنى آخر، فقد استمروا فى تناول وجباتهم معا كما كانوا قبلا، وأيضا مواصلين ممارسات شيوعية اخرى. إذا لم تكن هذه الممارسات قد أدخلت حتى بعد موت يسوع، ماكانت لتستخدم صياغة الكلمات هذه.

لقد كان تنظيم المجمع هو الذى خدم كرابطة تضم تلاميذ يسوع معا بعد موته، كوسيلة لإبقاء ذكرى بطلهم المصلوب حيا، الذى اعلن نفسه وفقا للتقليد انه المخلص. مع زيادة التنظيم، ونمو قوته أكثر فأكثر، شغل شهيده بالضرورة خيال أعضاءه أكثر فأكثر، وأصبحوا بالضرورة مبغضين أشد البغض لاعتبار المخلص المصلوب مخلصا غير حقيقيا، مرغمين غاية الإرغام على اعتباره المخلص الحقيقى رغم موته، بوصفه المخلص الذى سوف يأتى مرة اخرى بكل جلاله؛ وأصبح أكثر طبيعية بالنسبة لهم ان يؤمنوا بقيامته، وأصبح الإيمان بالطابع الخلاصى، وفى قيامة المصلوب العلامة المميزة للتنظيم، فارقة إياه عن المؤمنين الآخرين بالمخلص. اذا كان الإيمان بقيامة المخلص قد نشأ من انطباعات شخصية، لكان سيصبح بالضرورة أضعف وأضعف فى مجرى الزمن، حيث يكون قد طمس أكثر فأكثر بواسطة انطباعات اخرى، وسوف يختفى فى النهاية مع موت هؤلاء الذين عرفوا يسوع. ولكن اذا كان الإيمان فى قيامة المصلوب نتيجة نفوذ تنظيمه، فإن هذا الإيمان سوف يصبح أكثر متانة وحمية مع تزايد التنظيم، وكلما عرف أقل عن شخص يسوع، كلما قل تقيد خيال عابديه بتفصيلات محددة.

لم يكن الايمان بقيامة المصلوب هو الذى خلق المجمع المسيحى وأعطاه قوته، ولكن على النقيض، لقد كان نشاط وقوة المجمع هو الذى خلق الاعتقاد فى الحياة المستمرة للمخلص.

لم يكن هناك شيء فى الاعتقاد فى قيامة المخلص الذى صلب، يتناقض مع الفلسفة اليهودية للحياة. لقد رأينا إلى أى حد جرى تخلل هذه الفلسفة تماما

بالاعتقاد بالقيامة، ولكن لاينبغى أن نغفل عن حقيقة أن كامل الأدب الخلاصى لليهود قد تخللته فكرة ان المجد المقبل يمكن إحرازه فقط لقاء معاناة وموت البار، فكرة كانت نتيجة طبيعية للمحن والبلايا التى تعرض لها اليهود آنذاك.

لقد أعطى الإيمان بالمخلص المصلوب كل علامة من ثم، لصيرورته ببساطة واحدا من التنويعات المتعددة للنبوءة الخلاصية بين يهود تلك الأيام، ربما لم يبلغ أبدا أكثر من ذلك. ولكنه أنقذ من هذا المصير - ومن النسيان الناشئ - بواسطة حقيقة أن الأساس الذى أقيم عليه كان أساسا تضمن بالضرورة تطور معارضة ضد اليهود. هذا الأساس، الذى كان حياة ونشاط التنظيم الشيوعى للبروليتاريا ارتبط بوثوق مع النوعية الخاصة للتوقعات الخلاصية للبروليتاريين الشيوعيين فى أورشليم.

ه - الفادى الأممى

كانت التوقعات الخلاصية لبقية اليهود قومية محضة في طابعها، بما فيها تلك التى تخص الغيورون. لقد تضمنت: إخضاع الأمم الأخرى للهيمنة اليهودية العالمية، التى كان عليها أن تحل محل الحكم الرومانى للعالم؛ والانتقام من الأمم التى كانت تضطهد اليهود وتسيء معاملتهم. ولكن كانت التوقعات الخلاصية للمجمع المسيحى مختلفة تماما. كان هذا المجمع أيضًا حافلا بالوطنية اليهودية وبالعداء للرومان؛ مثلت الاطاحة بالنير الأجنبى الشرط، الاولى الضرورى لأى تحرير، ولكن اتباع المجمع المسيحى لم يكتفوا بذلك. فهم لم يخططوا للإطاحة بنير الحكام الأجانب فقط، وإنما بكل الحكام، بمن فيهم هؤلاء الذين فى الوطن. لقد دعوا لأنفسهم المرهقين والمثقلين بالهموم فقط؛ لقد كان يوم الدينونة هو يوم الانتقام من كل الأغنياء والأقوياء.

لم تكن العاطفة التى حركتهم حقدا عرقيا وإنما حقدا طبقيا، وكانت هذه السمة هي جرثومة انفصالهم عن بقية اليهود، الذين كانت توحدهم روح قومية. ولكن مثل هذا العنصر أيضًا جرثومة تقارب مع بقية العالم، العالم غير اليهودى. وقد بقيت النظرية القومية للمخلص قاصرة على العالم اليهودى، حيث رفضت من بقية العالم، الذى كان إخضاعه جزءا من هذه الفكرة.

لم يكن الحقد الطبقى ضد الأغنياء وكذلك التضامن البروليتارى أفكارا يقتصر قبولها بأي حال على البروليتاريا اليهودية فقط. لابد أن أملا خلاصيا تضمن

انقاذ الفقراء وجد بالضرورة أذنا صاغية بين فقراء كل الأمم. فقط المخلص الاجتماعى، وليس المخلص القومى، يمكن أن يتعالى على حدود اليهودية. يمكن لمثل هذا المخلص أن يتجاوز منتصرا الكارثة الفظيعة التى ألمت بالمجتمع اليهودى، والتى انتهت بتدمير أورشليم.

من ناحية أخرى، فإن تنظيما شيوعيا لايمكن ان يحافظ على نفسه فى الامبراطورية الرومانية، إلا فى اقليم قوى فيه هذا التنظيم بالإيمان فى مجيء المخلص وفى إنقاذه لهؤلاء الذين اضطهدوا وأسيئت معاملتهم. كانت هذه التنظيمات الشيوعية عمليا، كما سوف نعلم لاحقا، مؤسسة على جمعية للمساعدة المتبادلة.

أصبحت الحاجة لمثل هذه التنظيمات شاملة فى الإمبراطورية الرومانية بدءا من القرن الأول لعصرنا، وقد شعر بها على نحو أكثر حيوية حيثما تزايد الفقر العام وحيث كانت البقايا الأخيرة للشيوعية الأولية التقليدية تتحلل. ولكن الاستبداد الشاك يقمع كل أشكال التنظيم؛ لقد رأينا أن تراجان كان خائفا حتى من منظمات الحريق الطوعية. كان قيصر مازال مبقيا على التنظيمات اليهودية، ولكنها فقدت لاحقا أيضًا مركزها المتميز.

لم تستطع منظمات المساعدة المتبادلة أن تستمر فى الوجود إلا كجمعيات سرية. ولكن من يقبل انْ يخاطر بحياته لاجتناء مساعدات فى المرض فحسب؟ أو من سوف يخاطر بحياته من خلال شعور بالتضامن مع رفاقه فى وقت كانت فيه كل روح عامة قد أخمدت؟ أيا مابقى من مثل هذه الروح العامة، أو من التفانى للرفاه العام، لم تواجه فى أى مكان فكرة، عظيمة سامية مثل فكرة التجديد الخلاصي للعالم، التى تعنى، المجتمع. والأكثر أنانية بين البروليتاريين، هؤلاء الذين انضموا إلى جمعيات المساعدة المتبادلة من اجل امتياز شخصى قد اطمأنوا إذا عرضوا أشخاصهم للخطر بفكرة حدوث قيامة شخصية ترافقها مكافأة سخية لاحقة؛ فكرة لم تكن ضرورية الا من اجل رفع معنويات المضطهدين فى عصر دفعت فيه أوضاعه الغرائز الاجتماعية والمشاعر إلى الحد الأقصى، حتى ان الفرد شعر بنفسه مجبرا بشكل لايقاوم على الانصياع لها، إلى حد تعريض امتيازه للخطر، أي حياته ذاتها. كانت فكرة حدوث قيامة شخصية، من ناحية أخرى، لامفر منها، فى مسار صراع خطر ضد قوى عاتية، فى عصر كانت فيه الغرائز والمشاعر الاجتماعية قد قمعت إلى حد غاية فى التدني بواسطة، التفسخ الاجتماعى المتلاحق، ليس فقط ضمن الطبقات الحاكمة، وإنما أيضًا ضمن المضطهدين والمستغلين.

فقط فى الشكل الشيوعى للمجمع المسيحى، ذلك الذى ينتمي إليه المخلص المصلوب، أمكن لفكرة المخلص أن تضرب بجذورها خارج اليهودية. فقط من خلال الإيمان بالمخلص وفى القيامة أمكن للتنظيم الشيوعى أن يبقى ويوسع نفسه فى الإمبراطورية الرومانية كجمعية سرية. ولكن حين اتحد، هذين العاملين - الشيوعية والايمان بالمخلص - أصبحا لايقاومان. ما أمل اليهود فيه بلا جدوى من مخلصهم ذو النسب الملكى قد انجز بواسطة المخلص المصلوب الذى تحدر من البروليتاريا: اخضع روما، جعل القياصرة يركعون، قهر العالم. ولكنه لم يقهر العالم من أجل البروليتاريا. فى مجراه المنتصر، أصبح التنظيم الخيرى، البروليتارى، الشيوعى وقد تحول إلى أكثر الأدوات روعه للهيمنة والاستغلال فى العالم. ليست هذه العملية الجدلية جديدة كلية. لم يكن المخلص المصلوب لا أول ولا آخر قاهر يحول جيوشه التى كسبت انتصاراته فى النهاية، لتقاتل شعبها، موظفا إياها لإخضاعهم واستعبادهم.

كان لقيصر ونابليون أيضًا أصلهما فى الانتصارات الديمقراطية.

الفصل الثالث
المسيحيون اليهود والمسيحيون الوثنيون

أ- التحريض بين الوثنيين

تشكل المجمع الشيوعى الأولى للمخلص فى أورشليم؛ وليس لدينا أدنى سبب لنشك فى التصريحات التى تفيد ذلك فى أعمال الرسل. ولكن سرعان ما نشأت المجامع فى مدن أخرى بها بروليتاريا يهودية. كانت هناك بالطبع بين أورشليم والأقسام الأخرى من الإمبراطورية، خاصة نصفها الشرقى، مواصلات نشطة، على الأقل بسبب الكثير من مئات الآلاف، وربما الملايين من الحجاج، الذين حجوا سنويا لتلك المدينة. وكان عديد من المتسولين الذين لايملكون شيئا وبدون عائلة أو بيت يرتحلون بلا توقف من مكان إلى مكان، كما لايزال الحال فى أوروبا الشرقية، مقيمين فى كل مكان حتى تستنفذ الصدقة المحلية. هذا هو معنى التعليمات التى أعطاها يسوع لرسله:

"لاتحملوا كيسا، ولامزودة، ولاأحذية: ولاتسلموا على أحد فى الطريق. وأى بيت دخلتموه، فقولا أولا: سلام لهذا البيت. فإن كان هناك ابن السلام، يحل سلامكم عليه: وإلا، فيرجع إليكم، وأقيموا فى ذلك البيت، آكلين وشاربين مما عندهم: لأن الفاعل مستحق لأجرته. لاتنتقلوا من بيت إلى بيت. وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم، فكلوا مما يقدم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها، وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله. وأية مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فيها، فاخرجوا إلى شوارعها، وقولوا:

"حتى الغبار الذى لصق بنا، من مدينتكم. ننفضه لكم: ولكن اعلموا هذا قد اقترب منكم ملكوت الله. وأقول لكم أنه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة". (لوقا 10/4- 13)

إن التهديد الأخير الذى يضعه الإنجيلى فى فم يسوع يعكس نموذجيًا حقد المتسول الذى خدع فى توقعاته بشأن الصدقة. الذى سوف يرضيه أن يرى المدينة كلها تشتعل باللهب. ولكن المخلص فى هذه الحالة هو من يلعب (دور) مشعل الحرائق له.

كل المحرضين الذين لايملكون شيئا وينتمون للتنظيم الجديد الذين تجولوا هكذا كانوا يعتبرون رسلا، وليس فقط الاثنى عشر الذين وصلت إلينا أسمائهم ممن

نصبهم يسوع ليعلنوا كلمته. إن أعمال الرسل DIDACHE التي سبق وأن ذكرناها (تعاليم الرسل الاثنى عشر) مازالت تتحدث فى منتصف القرن التالى عن الرسل النشطين فى المجمع.

مثل هؤلاء "المتسولون والمتآمرون" الرحالون، الذين اعتبروا أنفسهم ملأى بالروح القدس أتوا بمبادئ التنظيم البروليتارى الجديد "البشرى الفرحة" للإنجيل من أورشليم إلى المجتمعات اليهودية المجاورة وأخيرا بعيدا حتى روما. لكن بمجرد أن ترك الإنجيل تربة فلسطين، فقد دخل بيئة اجتماعية مختلفة كلية تركت طابعا مختلفا كلية عليه [1].

وجد الرسل مع أعضاء الجماعة اليهودية، جماعة أخرى، على اتصال وثيق بهؤلاء الأعضاء، زملاء اليهود، الوثنيون "الذين يخشون الله" (σεβόμεγοι) الذين عبدوا الإله اليهودى، وحضروا فى الكنيس، ولكنهم لم يكونوا قادرين أن يبلغوا حد قبول كل العادات اليهودية. فى الأغلب فقد كانوا يخضعون لاحتفال الغمر أو التعميد؛ ولكن لم تكن لتكون لهم صلة بالختان أو شرائع التغذية، ومراعاة السبت، والمظاهر الأخرى التى سوف تنزعهم كلية من محيطهم "الوثنى".

لابد وان المحتوى الاجتماعى للإنجيل قد وجد قبولا جاهزا لدى الفئة البروليتارية من نمط "الوثنيون الذين يخشون الله". وهم من نقلوه إلى مجموعات بروليتارية غير يهودية أخرى، التى قدمت تربه مواتيه لمذهب المخلص المصلوب، على الأقل إلى المدى الذى وعد فيه بتحول اجتماعى ومؤسسات منظمة مباشرة لتقديم المساعدة. ولكن لم تتعاطف هذه الطبقات مع كل العادات اليهودية بصفة خاصة، وفى الواقع، فقد نظرت لها ببغض واحتقار.

كلما انتشر أكثر التعليم الجديد فى المجتمعات اليهودية خارج فلسطين، كلما أصبح واضحا بالضرورة انه سوف يكسب قوة دعائية أكثر لحد هائل إذا نبذ خصائصه اليهودية، وكف عن أن يكون قوميا، وأصبح على وجه القصر اجتماعيا فى طبيعته.

الرجل الذى أدرك أولا هذا الشرط ودافع عنه بحمية يدعى شاول، يهودى يقول عنه التراث أنه لم يأت من فلسطين، ولكن من المجمع اليهودى لمدينة إغريقية، طرسوس، فى قيلقيه. روح نارية، لقد رمى بنفسه أولا بكل قوته فى الدفاع عن

---

1 الإنجيل (GOSPEL) مشتقه من EU، طيب، البشارة Angello و (αγγελλω) يعلن، يخبر.

الفريسية، وحارب باعتباره فريسيا المجمع المسيحى، الذى كان مرتبطا بوثوق بنزعة الغيورين، حتى اقتنع فجأة، وفقا للرواية، بخطأ طريقه من خلال رؤيا، انتهاءا إلى أنه اندفع للطرف المعاكس. انضم للمجمع المسيحى، ولكنه ظهر فيه فورا باعتباره واحدا من المحبذين للإطاحة بوجهات النظر القائمة، فمادام الأمر قد تطلب أن يروج المذهب الجديد بين غير اليهود، فمن غير الضرورى لهم أن يقبلوا اليهودية.

حقيقة أنه غير اسمه العبرى من شاول إلى الاسم اللاتينى بولس نموذجى فى الدلالة على ميوله. وقد أجرى كثير من اليهود الذين رغبوا فى أن يلعبوا دورا فى الدوائر غير اليهودية مثل هذه التغييرات في الأسماء. إذا كان على منسى أن يغير اسمه إلى مينيلاوس، فلم لايسمى شاول نفسه بولس؟

من المحتمل أننا لايمكن أن نحدد فى يومنا هذا القسم الصحيح تاريخيا من قصة بولس بأى يقين. كما فى كل الامور التى تتعلق بالتواريخ الشخصية، فالعهد الجديد هنا أيضًا مصدر لا يعتمد عليه لأقصى حد، وهو حافل بالتناقضات وحكايات المعجزات المستحيلة. ولكن أعمال بولس الشخصية هى أمر ثانوى. النقطة المهمة هى معارضته مبدئيًا للنظرات السابقة للمجمع المسيحى. نشأت هذه المعارضة من طبيعة الحالة، التي لم يكن ممكنا تجنبها، ولايهم كم قد يبالغ أعمال الرسل فى الأحداث الفردية، فحقيقة الصراع بين هذين الاتجاهين داخل المجمع لم تخفى علينا. أعمال الرسل نفسها هى نتاج جدالى، نتيجة لهذا الصراع، كتبت بغرض كسب الأصدقاء للموقف البولسى، وأيضا لتهدئة المعارضة بين الاتجاهين.

من المحتمل فى البداية أن الاتجاه الجديد قد كان غاية فى التواضع، ولم يتطلب فقط سوى تسامح فى بعض النقاط التى احتمل المجمع الأم أن يتغاضى عنها.

على الأقل هذا ما يبدو محتملا من الرواية (الواردة) فى أعمال الرسل، التى، يجب أن نعترف، على أية حال، بأنها لونت الوضع بألوان وردية بالأحرى وتظاهرت بأن السلام قد حل بينما كان هناك بالفعل صراع وحشى يتطور [1].

وهكذا تروى الأعمال، على سبيل المثال، من زمن نشاط بولس الدعائى فى سوريا:

"وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة، أنه إن لم تختتنوا حسب عادة

---

2 انظر برونوباور،
Die Apostelgeschichte, Eine Ausgleichung Des Paulinismus Und Des Judentums Innerhalb Der Christlichen Kirche, 1850.

موسى لايمكنكم أن تخلصوا. فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثه ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة. فهؤلاء بعدما شيعتهم الكنيسة اجتازوا فى فينيقية والسامرة يخبرونهم برجوع الأمم وكانوا يسببون سرورا عظيما لجميع الأخوة. ولما حضروا إلى أورشليم قبلتهم الكنيسة والرسل والمشايخ فأخبروهم بكل ماصنع الله معهم. ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنه ينبغى أن يختنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى". (أعمال الرسل 15/1- 5)

الرسل والشيوخ، بمعنى آخر، اللجنة التنفيذية للحزب، تجتمع الآن، بطرس وكذلك يعقوب يلقيان خطابى صلح، وقرروا فى النهاية إرسال يهوذا وبرنابا وسيلاس، وهم أعضاء كذلك فى اللجنة التنفيذية إلى سوريا، من أجل إعلام الاخوة هناك (أعمال الرسل، 15/28،29):

"لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن، أن لانضع عليكم ثقلا أكثر غير هذه الأشياء الواجبة؛ أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى". وهكذا فإن اللجنة التنفيذية قد تخلت عن تختين المهتدين الجدد الوثنيين، ولكن الممارسات الخيرية قد لاتهمل: "غير أن نذكر الفقراء، وهذا عينه كنت اعتنيت أن افعله" هذا هو تقرير الرسول فى رسالته إلى الغلاطيين. (2/10)

كان نظام المساعدات عزيزا على قلوب كل من المسيحيين اليهود والمسيحيين الوثنيين، ولم يشكل موضوعا للخلاف بينهم. ومن ثم فقد ذكر قليلا جدا فى أدبهم، الذى كان معنيا تقريبا على وجه الحصر بأغراض جدالية. ولكن سيكون من الخطأ الافتراض من هذا التنويه غير المتكرر أن هذا النشاط الخيرى لم يلعب دورا فى المسيحية الأولية. انه من الحقيقى أنه لم يلعب دورا فى خلافات الأخيرة الداخلية.

استمرت هذه الخلافات بالرغم من كل جهود الصلح.

"فى رسالة القديس بولس إلى الغلاطيين التى اقتبسناها آنفا، نجد بالفعل أن المدافعين عن الختان اتهموا بالتصرف استنادا لاعتبارات إنتهازية:

"جميع الذين يريدون أن يعملوا منظرا حسنا فى الجسد هؤلاء يلزمونكم أن تختتنوا لئلا يضطهدوا لأجل صليب المسيح فقط". (6/12)

بعد المؤتمر المذكور فى أورشليم، يصف أعمال الرسل بولس باعتباره قائما بجولة تحريضية عبر بلاد الإغريق، موضوعها هو مرة أخرى التحريض بين الوثنيين. وبعد

عودته إلى أورشليم، يقدم تقريرا لرفاقه حول نجاح مهمته.

"فلما سمعوا كانوا يمجدون الرب. وقالوا له أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعا غيورون للناموس. وقد أخبروا أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا أن لا يختتنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد". (أعمال الرسل 20/21 -21)

مطلوب من بولس الآن أن يبرئ نفسه من هذه التهمة وان يقدم الدليل على أنه مازال يهوديا ورعا. وهو يعلن أنه مستعد لأن يفعل هذا، ولكنه يمنع من تنفيذ نيته بواسطة هجوم مفاجئ شنه اليهود عليه، ممن رغبوا فى قتله كخائن لأمتهم. تضعه السلطات الرومانية تحت نوع من الاعتقال الوقائى وأخيرا ترسله إلى روما، حيث يتمكن من أن يواصل تحريضه دون تحرش به بتاتا، الأمر الذى يختلف عما كان عليه الحال فى أورشليم: "كارزا بملكوت الله ومعلما بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة ولامانع". (31/28)

ب - التعارض بين اليهود والمسيحين

لقد كان من الطبيعى ان يعلن المسيحيون الوثنيون موقفهم على نحو أكثر توكيدا حين تزايدت أعدادهم. لقد كانت المعارضة من ثم مصممة على أن تصبح أكثر حدة.

كلما بقيت هذه المعارضة أطول، وكلما كثرت أوجه الخلاف، كلما كان موقف هذين الاتجاهين بالضرورة أكثر عدائية كل منهما إزاء الآخر. وقد تأجج هذا الوضع أكثر بتفاقم التضاد بين اليهود والأمم التى عاشوا وسطها، فى العقود التى سبقت توا تدمير أورشليم. لقد كان تحديدا العنصر البروليتارى فى اليهودية، خاصة فى أورشليم، الذى قارب الأمم غير اليهودية، خاصة الرومان، بحقد متعصب أكثر فأكثر. لقد كان الرومانى أسوأ مضطهد ومستغل، أسوأ عدو، وكان الهيلينى حليفه. كل مسألة تميز بها اليهود عنهم جرى تأكيدها الآن أكثر من ذى قبل بما لايقاس. كل هؤلاء الذين شددوا على الدعاية بين اليهود كانوا مدفوعين بالضرورة، باعتبارات قامت على نجاح تحريضهم، إلى أن يشددوا على السمات اليهودية، وأن يتمسكوا بكل الشرائع اليهودية، التى كانوا إضافة إلى ذلك ميالين إليها، بسبب تأثيرات محيطهم.

ولكن بنفس القدر الذى تزايد به الحقد المتعصب لليهود ضد قوميات

مضطهديهم فإن، المقت والاحتقار الذى شعرت به الجماهير نحو اليهود تزايد أيضا. مرة اخرى قاد هذا أيضًا عديدًا من المسيحيين الوثنيين ومحرضيهم ليس فقط لأن يطلبوا إعفاءا من الشرائع اليهودية، وإنما إلى أن يتحدثوا باستخفاف أكثر فأكثر عن هذه الشرائع. أصبح التضاد بين المسيحيين اليهود والمسيحيين الوثنيين أكثر فأكثر، فى حالة الأخيرين، بات عداء لليهودية ذاتها. مع ذلك، كان الاعتقاد فى المخلص، بما فيه أيضًا المخلص المصلوب، لحد بعيد أيضًا متداخلا بوثوق مع اليهودية حتى انتهى المسيحيين الوثنيين إلى إنكار الأخيرة كلية. لقد استعاروا من اليهودية كل النبوءات الخلاصية وبعض الروافد الاخرى للاعتقاد فى المخلص، وبالرغم من ذلك كانوا يصبحون فى نفس الوقت أكثر فأكثر عداء تجاه اليهودية. أضاف هذا تناقضا جديدا للتناقضات الكثيرة الموجودة سلفا فى المسيحية.

لقد رأينا قبلا كيف كان التأكيد الذى وضعته الأناجيل على انحدار يسوع من داود عظيما، وكيف صنعوا أكثر التركيبات غرابة لجعل الجليلى يولد فى أورشليم. وهم يقتبسون مرة بعد مرة مقتطفات من الكتابات المقدسة لليهود، حتى يثبتوا بواسطتها مهمة يسوع الخلاصية. وهم يعرضون يسوع نفسه بوصفه محتجا ضد أى اتهام برغبته فى نقض الشريعة اليهودية "لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس، أو الأنبياء: ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم: إلى ان تزول السماء والارض، لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل". (متى "17/5؛ انظر لوقا 16/16)

ويأمر يسوع تلاميذه بما يلى:

"الى طريق أمم لاتمضوا والى مدينة للسامريين لاتدخلوا: بل اذهبوا بالأحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة". (متى 6/10)

هذا منع صريح ضد الدعاية خارج اليهودية. وقد عبر يسوع عن نفسه بالمثل، وإن بشكل أكثر لطفا، لامرأة كنعانية عند متى (امرأة اغريقية، ولدت فى فينيقيا السورية، عند مرقس): صرخت اليه قائلة:

"ارحمنى ياسيد، يا ابن داود: ابنتى مجنونة جدا. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه، وطلبوا اليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: **لم أرسل إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة.** فأتت وسجدت له قائلة: ياسيد أعنى. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب، فقالت: نعم، ياسيد، والكلاب أيضًا تأكل

من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال: يا امرأة عظيم إيمانك: ليكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة". (متى، 21/15 وما يليها؛ انظر مرقس 27/7).

يذعن يسوع فى هذه الحالة لصوت العقل. ولكن يظهر فى البداية أنه فظ جدا إزاء المرأة، الإغريقية، لأنها ليست يهودية، رغم انها دعته ابن داود وهي كلمات تشى بإيمان يهودى بالمخلص.

تتراءى لنا الفكرة الكامنة وراء وعد يسوع لرسله بأنهم سوف يجلسون فى دولته المقبلة على اثنى عشر كرسيا، حاكمين أسباط إسرائيل الاثنى عشر يهودية تماما. كان يمكن لهذا الوعد ان يكون جذابا ليهودى فقط، وليهودى فى اليهودية فقط. لقد فقد أهميته تماما فى الدعاية بين الوثنيين.

ولكن بينما استعارت الأناجيل هذه الأمارات المؤثرة عن الإيمان اليهودى بالمخلص، فقد وضعتها غالبا فى تجاور مباشر مع انفجارات العداء تجاه اليهود التى كان مؤلفوها ومحرروها مملوءين بها. يلقى يسوع المرة بعد المرة مواعظه ضد كل شئ عزيز على اليهودى الورع، الصيام، سنن التغذية، مراعاة السبت. وهو يرفع الوثنيين فوق اليهود:

"لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره". (متى 43/21)

ويذهب يسوع إلى حد أن يلعن اليهود صراحة:

"حينئذ ابتدأ يوبخ المدن التى صنعت فيها أكثر قواته، لأنها لم تتب: ويل لك، ياكورزين ! ويل لك، يابيت صيدا ! لأنه لو صنعت فى صور وصيدا، القوات المصنوعة فيكما، لتابتا قديما فى المسوح والرماد. ولكن أقول لكم: إن صور وصيدا تكون لهما حالة أكثر احتمالا يوم الدين، مما لكما. وانت، ياكفرناحوم، المرتفعة إلى السماء، ستهبطين إلى الهاوية: لأنه لو صنعت فى سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم. ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالا يوم الدين ممالك". (متى 20/11 -24)

هذه الكلمات دليل على حقد متميز تجاه اليهود. نحن لانعد نسمع طائفة من اليهودية تسب طائفة أخرى من نفس الأمة. لقد وصمت الأمة اليهودية هنا بصفتها هذه باعتبارها متدنية أخلاقيا، وعرضت باعتبارها خبيثة على نحو غير عادى وعنيدة.

نحن نجد أيضًا هذه الفكرة وقد عبرت عنها النبوءات التى وضعت فى فم يسوع وتخص تدمير أورشليم، التى اصطنعت بالطبع بعد أن تحقق هذا الحدث. الحرب اليهودية، التى كشفت بشكل يثير الدهشة قوة اليهود والخطر الذى جسدوه بالنسبة لأعدائهم، هذا الانفجار الوحشى لليأس الضارى، قد زاد العداوة بين اليهود والوثنيين إلى أقصى درجة، وكان له تقريبا من ثم نفس الأثر الذى كان لمعركة يونيو وكومونة باريس على الحقد الطبقى بين البروليتاريا والبورجوازية. عمق هذا أيضًا الهوة بين المسيحية اليهودية والمسيحية الوثنية، ولكن يضاف إلى ذلك فقد حرم الأولى أكثر فأكثر من أساسها. انتزع تدمير أورشليم الأرض من تحت أقدام أى حركة طبقية مستقلة من جانب البروليتاريا اليهودية. فهذه الحركة يجب أن تؤسس على استقلال الأمة. بعد تدمير أورشليم، تواجد اليهود فقط فى بلدان أجنبية، وسط أعداء، حيث كانوا جميعهم أغنياء وفقراء، مكروهين ومضطهدين منهم على السواء، والذين كان عليهم أن يتضامنوا بحزم ضدهم. ان خيرية الأثرياء نحو مواطنيهم الفقراء وصلت من ثم نقطة عالية جدا تحديدا وسط اليهود، وفى حالات كثيرة فاق الشعور بالتضامن القومى العداوات الطبقية. فقدت المرحلة اليهودية من المسيحية من ثم بالفعل قوة دعايتها. أصبحت المسيحية منذ هذا الوقت فصاعدا أكثر فأكثر على وجه الحصر مسيحية وثنية، لم تعد بعد حزبا سياسيا داخل اليهودية، وإنما حزبا سياسيا خارج اليهودية، معاديا حتى لليهودية.

ولكن مع سقوط المجتمع اليهودى، فقد الأمل اليهودى القومى فى المخلص التربة التى نما منها. لقد كان من الممكن له أن يستمر فى الحياة لبضعة عقود، ليصنع المزيد من بضع حركات تشنجية قبل موته، ولكن تلقى ضربة الموت كعامل مؤثر فى التطور السياسى والاجتماعى فى تدمير العاصمة اليهودية.

ولكن هذا لم يكن صحيحا عن آمال المخلص بين المسيحيين الوثنيين، الذين كانوا منفصلين تماما عن الأمة اليهودية ولم تمسهم محنها. ان فكرة المخلص قد احرزت الآن قوتها الحية فقط فى شكل المخلص المصلوب، بمعنى آخر، المخلص غير اليهودى، المخلص المترجم إلى الإغريقية، المسيح.

فى الواقع، ذهب المسيحيون بعيدا إلى حد تحويل الحدث الرهيب الذى دل على إفلاس الأمل اليهودى فى المخلص إلى انتصار لمسيحهم. تبدأ أورشليم الآن فى الظهور كعدو للمسيح، تدمير أورشليم هو انتقام المسيح من اليهود، دليل مخيف على قوته المنتصرة. يروى لنا "لوقا عن دخول يسوع إلى أورشليم:

"وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة، وبكى عليها، قائلا: انك لو علمت أنت أيضا، حتى، فى يومك هذا، ماهو لسلامك! ولكن الان قد اخفى عن عينيك. فإنه ستأتى أيام، ويحيط بك أعداؤك بمترسه، ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك، وبنيك فيك ولايتركون فيك حجرا على حجر، لأنك لم تعرفى زمان افتقادك". (لوقا 19/14- 44)

وعقب ذلك مباشره يقول يسوع مرة أخرى إن أيام تدمير أورشليم، آتية بالإبادة حتى للحوامل والأمهات الحاضنات، سوف تكون "أيام الانتقام".(ἐκδικήσεως، لوقا 22/12)

إن اغتيالات سبتمبر الخاصة بالثورة الفرنسية، التى لم ترتكب بغرض إشفاء غليل **الانتقام** من الأطفال، وإنما من أجل صد عدو قاسى، تبدو نسبيا رقيقة حين تقارن بحكم الراعى الطيب.

ولكن تدمير أورشليم كان له أيضًا نتائج اخرى على الفكر المسيحى. لقد أشرنا سلفا كيف أن المسيحية، التى كانت حتى آنذاك قد وسمت بالعنف، حققت الآن طابعها السلمى. وكان يمكننا أن نجد فقط بين اليهود ديمقراطية نشطة فى البدايات الأولى للعصر الإمبراطورى. كانت أمم الإمبراطورية الأخرى قد اصبحت جبانة وعديمة اللياقة لشن الحرب، بل وحتى البروليتاريا. لقد قضي تدمير أورشليم على الاحتياطى الأخير للطاقة الشعبية فى الإمبراطورية. أصبح كل تمرد الآن ميئوسا منه. وغدت المسيحية الآن مسيحية وثنية فقط؛ لقد جعلها هذا خانعة، بل عبيدية.

ولكن كان حكام الإمبراطورية رومانيين. لقد كان من الضرورى لكل العناصر الأخرى فى الإمبراطورية أن تفوز لنفسها بالحظوة لدى الرومان. بينما كان المسيحيون الأوائل وطنيين يهود وأعداء لكل حكم أجنبى واستغلال، أكمل المسيحيون الوثنيون حقدهم لليهود بتقديس النزعة الرومانية والسلطة الإمبراطورية. نحن نجد أن هذا قد جرى التعبير عنه حتى فى الأناجيل، فى القصة المعروفة جيدا عن المحرضين الذين أرسلهم "الكتبة والفريسيين" إلى يسوع حتى يثيرونه للنطق بما ينطوى على خيانة:

"فراقبوه وأرسلوا جواسيس (ἐγκαθετους) يتراءون أنهم ابرار [1] لكى يمسكوه

---

3 اى، أعضاء من مجموعة يسوع.

بكلمه حتى يسلموه إلى الوالى وسلطانه. فسألوه قائلين يامعلم نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم ولاتقبل الوجوه بل بالحق تعلم طريق الله، أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر أم لا. فشعر بمكرهم وقال لهم لماذا تجربوننى. أرونى دينارا. لمن الصورة والكتابة. فأجابوا وقالوا لقيصر. فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله". (لوقا 20/20- 25)

يقدم يسوع هنا نظرية استثنائية عن النقود والضرائب: العملة النقدية تخص من تحمل صورته ونقشه؛ فى دفع الضرائب، وعليه فإننا نعيد فقط النقود إلى الإمبراطور.

تتخلل نفس الروح كتابات أبطال الدعاية بين المسيحيين الوثنيين. وهكذا فنحن نقرأ فى رسالة بولس للرومانيين. (13/1- 7)

"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله: والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله: والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة.... لأنه لايحمل السيف عبثا، إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذى يفعل الشر. لذلك يلزم أن يخضع. ليس بسبب الغضب فقط بل أيضًا بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا: إذ هم خدام الله، مواظبون على ذلك بعينه. فاعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية. الجباية لمن له الجباية والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام".

كم نحن بعيدون الآن عن يسوع الذى دعا تلاميذه لشراء السيوف والذى بشر بالحقد على الأغنياء والأقوياء، كم نحن بعيدون عن المسيحية التى تلعن روما فى رؤيا القديس يوحنا والملوك المتحالفون معها بكل قسوة: "بابل العظيمة (روما) مسكنا لشياطين ومحرسا لكل روح نجس ومحرسا لكل طائر نجس وممقوت. لأنه من خمر غضب زناها قد شرب جميع الأمم وملوك الأرض زنوا معها وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها.... وسيبكى وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها" إلخ. (18/2- 3- 9)

إن الملاحظة الأساسية فى أعمال الرسل هى التأكيد على العداوة التى شعر بها اليهود نحو تعاليم المخلص المصلوب، وايضا التأكيد على استقبال معين مزعوم للرومان لتعاليمه. مارغبه المسيحيون أو تخيلوا أنه الحال بعد سقوط أورشليم قد عرضوه وكأنه كان الحال فى تلك المدينة.

الدعاية المسيحية، وفقا لأعمال الرسل، مقموعة مرة بعد أخرى من قبل اليهود فى

أورشليم؛ اضطهد اليهود ورجموا المسيحيين حيثما استطاعوا، بينما حمت السلطات الرومانية المسيحيين. لقد رأينا انه قد قيل إن بولس قد هدد بجدية فى أورشليم بينما سمح له أن يكرز دون إزعاج فى روما. الحرية فى روما، القمع بالقوة فى أورشليم !

ولكن أكثر الأدلة سطوعا على كراهية اليهود وتملق الرومان يظهر فى قصة آلام المسيح، حكاية معاناة وموت المسيح. هنا يمكن أن نلاحظ بتميز كيف أن مضمون قصته قد تحول إلى عكسه تماما تحت تأثير الاتجاهات الجديدة.

حيث أن قصة الآلام هى القسم الأشد أهمية للمختصر التاريخى الذى قدمته الأناجيل، القسم الوحيد الذى نستطيع أن ندعى فيه بأننا نتعامل مع التاريخ، وحيث أنه غاية فى النموذجية عن نمط الكتابة التاريخية للمسيحية الأولية، فإن هذه القصة جديرة ببحثنا.

الفصل الرابع
قصة آلام المسيح

هناك بالفعل بضعة أشياء قد يشار إليها فى الأناجيل بدرجة معينة من الجدارة بالتصديق بوصفها وقائع فعلية فى حياة المسيح: ميلاده وموته؛ واقعتان بالفعل، اذا أمكن البرهنة عليهما، سوف يظهران أن يسوع عاش بالفعل ولم يكن شخصية أسطورية فحسب، ولكنهما لا يلقيان ضوءا ما على أكثر العناصر أهمية فى شخصية تاريخية: اى، الأنشطة التى ينخرط فيها هذا الشخص بين الميلاد والموت.ان خليط المبادئ الأخلاقية والأعمال العجائبية التى قدمتها الأناجيل كرواية عن هذه الأنشطة حافلة للغاية بمادة مستحيلة ومصطنعة بوضوح، وبها القليل القليل مما يمكن أن يتأيد بدليل آخر، حتى أنها لايمكن أن تستعمل كمصدر.

ليست الحالة مختلفة كثيرا مع الافادة التى تتعلق بميلاد وموت المسيح. مع ذلك فلدينا هنا بضعة إشارات بأن هناك نواة فعلية من الحقيقة تبقى مختفية تحت جملة الاصطناعات. ربما نستنتج وجود بعض هذه الحقائق الأساسية على الأقل من ملابسات أن هذه القصص تحتوى على اتصالات كانت محرجة للغاية للمسيحية، لم تخترعها المسيحية بالتأكيد، ولكن من الواضح أنها كانت معروفة للغاية ومقبولة بين أتباعها حتى أنها مكنت مؤلفى الأناجيل أن يستبدلوا اختراعاتهم بها، الأمر الذى فعلوه غالبا دون تردد فى حالات أخرى.

واحدة من هذه الحقائق هى الأصل الجليلى ليسوع، الذى لم يكن ملائما لأقصى حد نظرًا لزعمه بأنه المخلص من نسل داود. لأنه كان على المخلص أن يأتى من مدينة داود. لقد رأينا أية حيلة خاصة كانت مطلوبة لربط الجليلى بهذه المدينة. اذا كان يسوع نتاجا فحسب لخيال أحد المجامع التي تبنت رؤية خلاصية مبالغ فيها، فإن مثل هذا المجمع لم يكن ليفكر أبدا فى ان يصنع منه جليليا. إننا من ثم قد نقبل على الأقل هذا الأصل الجليلى، ومعه وجوده، بوصفه محتملا للغاية. ربما نقبل، أيضا، موته على الصليب. لقد رأينا أن الأناجيل مازالت تحتوى على مقاطع تسمح لنا أن نفترض أن يسوع قد خطط لانتفاضة باستخدام القوة، وقد صلب من أجل هذه المحاولة. هذا أيضًا موقف محرج يمكن تأسيسه بصعوبة على الاختراع. إنه يتناقض بحدة مع الروح

السائدة فى المسيحية فى الوقت الذى كانت قد بدأت فيه تفكر فى ماضيها وتسجل تاريخ أصلها. ليس ـ لابد أن نتذكر ـ لأغراض تاريخية، وإنما لأغراض جدالية ودعائية.

إن موت المخلص نفسه بالصلب كان فكرة غريبة للغاية على الفكر اليهودى، التى صورت المخلص دائما بجلالة بطل منتصر، حتى أن حادثة حقيقية فقط، استشهاد بطل القضية الخيرة، أنتج انطباعا لايمحى على تلاميذه، وأمكن له أن يخلق التربة الصالحة لفكرة المخلص المصلوب.

حين قبل المسيحيون الوثنيون تقليد هذا الصلب، فسرعان ما اكتشفوا أنه عائق: أعلن التقليد أن الرومان قد صلبوا يسوع كمخلص يهودى، ملك اليهود، بمعنى آخر. بطل للاستقلال القومى اليهودى، خائن للحكم الرومانى، وأصبح هذا التقليد بعد سقوط أورشليم محرجًا بشكل مزدوج. كانت المسيحية الآن فى معارضة مكشوفة لليهود، ورغبت فى أن تتفاهم مع السلطات الرومانية. لقد أصبح الآن مهما تشويه التقليد بطريقة تحول اللوم على صلب المسيح من أكتاف الرومان إلى (أكتاف) اليهود، وأن تطهر المسيح ليس فقط من كل مظهر لاستخدام القوة، وإنما أيضًا من كل تعبير يشى بأفكار مواليه لليهود ومعادية للرومان.

ولكن حيث أن الإنجيليين كانوا جهلة تماما مثل الجمهور الأعظم من الطبقات الدنيا فى تلك الأيام، فقد أنتجوا أكثر خلط للألوان لفتا للنظر فى إعادة تنقيحهم للصورة الأصلية.

من المحتمل أننا لانجد فى أى مكان فى الأناجيل تناقضات أكثر وأشياء غير معقولة أكثر مما فى القسم الذى خلق تقريبا ولمدة ألفى عام أعمق الانطباع على العالم المسيحى وأثار خياله على نحو أشد قوة. ومن المحتمل أنه لم تلون مادة أخرى مرارا إلى هذا الحد مثل معاناة وموت المسيح. ومع ذلك فإن هذه الرواية لن تحتمل أى بحث رصين، وهى تجميع لأكثر الأساليب الروائية لا فنية وفظاظة.

لقد كانت قوة العادة فقط هي التى سببت حتى فى ان تبقى أرقى الشخوص فى العالم المسيحى متبلدة فيما يتعلق بالإدراجات التى لاتصدق التى صنعها مؤلفو الأناجيل، حتى أن الشفقة الأولية التي ينطوي عليها صلب يسوع، وكذلك فى أى استشهاد من أجل قضية عظمى، كان له أثره بالرغم من كتلة التفاصيل هذه، وأضفت هالة أكثر لمعانا على العناصر المثيرة للسخرية والعبثية للقصة.

تبدأ قصة الآلام بدخول يسوع إلى أورشليم. إن هذا موكب ملك منتصر [1]. يأتى السكان لتحيته، البعض نثروا ملابسهم أمامه على الطريق، آخرون قطعوا أغصان الأشجار، لنثرها فى طريقه، وصاحوا له بابتهاج: أوصنا **Hosanna** (ساعدنا!)؛ مبارك الآتى باسم الرب: مباركة مملكة أبينا داود، الآتية باسم الرب. (مرقس 9/11)

كان الملوك يستقبلون هكذا بين اليهود (انظر ملوك 13،9 حين يتحدث عن ياهو). العامة مرتبطين بيسوع؛ الأرستقراطية والبورجوازية فقط "الكهنة والكتبة"، معادين له. يتصرف يسوع كديكتاتور. لقد كانت لديه قوة كافية ليطرد الباعة والصيارفة من الهيكل، دون أن يواجه بأدنى مقاومة. ويبدو أن لديه سيطرة مطلقة على قلعة اليهودية هذه.

بالطبع هذه المبالغة طفيفة من جانب الإنجيليين. إذا كان يسوع قد امتلك مثل هذه القوة العظمى، فلم يكن ليخفق فى أن يجذب انتباها عظيما. إن مؤلفا مثل يوسيفوس، الذى يروى التفاصيل النافلة، كان من المؤكد أن يكون في جعبته شيء يقوله عن الموضوع. أضف إلى ذلك، فحتى العناصر البروليتارية فى أورشليم، الغيورون، على سبيل المثال، لم يكونوا أبدا أقوياء بما فيه الكفاية لحكم المدينة بلا معارضة. فقد واجهوا مقاومة مرة بعد المرة. اذا كان يسوع قد حاول أن يدخل أورشليم ويطهر الهيكل ضد معارضة الصدوقيين والفريسيين، فقد كان من الضرورى له أولا أن يقاتل معركة منتصرة فى الشوارع. كانت معارك الشوارع بين الفرق اليهودية المختلفة أحداثا يومية فى أورشليم فى ذلك الزمن.

إنه لجدير بالملاحظة، على أية حال، فى حكاية دخوله، أن السكان يظهرون وهم يحيون يسوع بأنه الذى سيأتى "بمملكة أبينا داود"، بمعنى آخر، باعتباره مسترد المملكة اليهودية. يظهر يسوع ليس فقط فى ضوء كونه خصمًا للطبقة الحاكمة وسط

---

1 كفضول مسلى، دعنا نلفت الانتباه هنا إلى المعجزة الأدبية التى انجزها متى بجعل يسوع يجلس فى آن معا على حيوانين حين يركب ليدخل المدينة. (برونوباور، **Kritik der Evangelien , vol. iii , p114**).

تحرف الترجمات التقليدية هذه المعجزة. وهكذا يترجم لوثر:

وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما ". (متى 7،21)

ولكننا نقرأ فى الأصل: وأحضروا الأتان (الأنثى) والجحش ووضعا ثيابهما عليهما **(εη ἀυτῶν)** وأجلساه عليهما **(ἐηάνω ἀντῶν)**.

وبالرغم من كل الحرية التى نالها سابقا فنانى الأدب المحترفين، أعيدت كتابة هذه المادة قرنا بعد قرن، وناسخ بعد آخر، هذا دليل على طيش وبساطة مصنفى الأناجيل.

اليهود، وإنما أيضًا كمعارض للطبقات الحاكمة من الرومان. ليست هذه العداوة بالتأكيد نتاج خيال مسيحى، وإنما هي من الواقع اليهودى.

يلى الآن فى رواية الأناجيل الأحداث التى عالجناها سلفا:الأمر بأن يحصل التلاميذ على السلاح، خيانة يهوذا، النزاع المسلح على جبل الزيتون. لقد رأينا سلفا أن هذه بقايا تقليد قديم لم يشعر أحد به لاحقاً بوصفه غير ملائم وأعيد تلوينه لجعله أكثر سلمية وخنوعا في نغمته.

يؤخذ يسوع سجينا، ويقاد إلى قصر رئيس الكهنة وهناك يحاكم:

"وكان رؤساء الكهنة والمجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا. لأن كثيرين شهدوا عليه زورا ولم تتفق شهادتهم...... فقام رئيس الكهنة فى الوسط وسأل يسوع قائلا: أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هؤلاء عليك؟ أما هو فكان ساكتا ولم يجب بشئ. فسأله رئيس الكهنة ايضا، وقال له: أأنت المسيح، إبن المبارك؟ فقال يسوع أنا هو: وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة، وآتيا فى سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة ثيابه وقال ماحاجتنا بعد إلى شهود. قد سمعتم التجاديف. مارأيكم؟ فالجميع حكموا عليه انه مستوجب الموت". (مرقس،56،55/14 "- 60 -64)

حقا شكل استثنائى من إجراءات المحاكمة! المحكمة تجتمع فورا بعد القبض على السجين، فى نفس الليلة، وليس فى المحكمة، التى يحتمل أنها كانت على جبل الهيكل [1]، وإنما فى قصر رئيس الكهنة! ماذا تكون ثقتنا فى تقدير محاكمة بتهمة الخيانة العظمى في ألمانيا، حين يقال بأن المحكمة منعقدة فى القصر الملكى ببرلين! يظهر شهود زور الآن ضد يسوع، ولكن بالرغم من حقيقة أنه لا أحد يستجوبهم، وأن يسوع لا يحير جوابا على اتهاماتهم فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا شيئا يجرمه. يسوع هو أول من يجرم نفسه بإعلان أنه هو المخلص. لماذا كل هذا الجهاز من شهود الزور إذا كان هذا الاعتراف كافيا لإدانة يسوع؟ غرضه أن يظهر شر اليهود فحسب. تفرض عقوبة الموت على الفور. هذا انتهاك للأشكال المقررة، التى شدد عليها اليهود فى هذا الزمن. إن الحكم بالبراءة فقط هو الذي يمكن أن تنطق به المحكمة دون تأخير؛ أما الإدانة فيمكن أن تنطق فى اليوم التالى على المحاكمة.

ولكن هل كان للمجلس فى هذا الوقت الحق فى فرض عقوبة الإعدام على

---

1 Schürer, Geschichte des jüdishen volkes , vol. ii , p.211.

الإطلاق؟ يقول السنهدرين: "قبل اربعون عاما من تدمير الهيكل كانت إسرائيل محرومة من حق النطق بأحكام البراءة والإعدام".

يؤيد هذا حقيقة أن المجلس لا ينفذ عقوبة يسوع، ولكن يسلمه، بعد أن يحاكمه، حتى يحاكم مرة أخرى من قبل بيلاطس، هذه المرة بتهمة الخيانة العظمى ضد الرومان، الاتهام بأن يسوع قد نوى أن يجعل نفسه ملك اليهود وان يحرر اليهودية من الحكم الرومانى اتهام ممتاز يوجه من محكمة من الوطنيين اليهود!

من الممكن تماما، على أية حال، انه كان للمجلس الحق فى نطق أحكام الإعدام التى تطلبت موافقة الوالى على الإعدام.

الآن اى مجرى تتخذه المحاكمة أمام الحكم الرومانى؟

"فسأله بيلاطس انت ملك اليهود فأجاب وقال له، أنت تقول. وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيرًا. فسأله بيلاطس أيضًا قائلاً أما تجيب بشيء. انظر كم يشهدون عليك. فلم يجب يسوع أيضًا بشيء حتى تعجب بيلاطس. وكان يطلق لهم فى كل عيد أسيرًا واحد من طلبوه. وكان المسمى باراباس موثقًا مع رفقائه فى الفتنه الذين فى الفتنة فعلوا قتلا. فصرخ الجمع وابتدأوا يطلبون ان يفعل كما كان دائما يفعل لهم. فأجابهم بيلاطس قائلاً اتريدون ان اطلق لكم ملك اليهود. لانه عرف ان رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسدًا. فهيج رؤساء الكهنة الجمع لكى يطلق لهم بالحرى باراباس. فأجاب بيلاطس أيضًا وقال لهم فماذا تريدون أن أفعل بالذى تدعونه ملك اليهود فصرخوا أيضًا اصلبه. فقال لهم بيلاطس وأيِ شر عمل. فازدادوا صراخًا اصلبه. فبيلاطس إذ كان يريد أن يعمل للجميع مايرضيهم أطلق لهم باراباس واسلم يسوع بعد ما جلده ليصلب" (مرقس 15/2- 15).

عند متى يذهب بيلاطس إلى حد أن يغسل يده فى حضور العامة وأن يعلن: "إنى برئ من دم هذا البار: أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى اولادنا". (متى، 21/24،25)

لا يقول لنا لوقا إن المجلس قد حكم على يسوع بالإعدام؛ والمجلس اتهم ببساطة يسوع عند بيلاطس.

"فقام كل جمهورهم، وجاءوا به إلى بيلاطس، وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلا إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلا أنت ملك اليهود. فأجابه وقال أنت تقول. فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة

والجموع إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان. فكانوا يشددون قائلين إنه يهيج الشعب وهو يعلم فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى هنا". (لوقا 23/1- 5)

من المحتمل أن لوقا أقرب إلى الحقيقة. يسوع هنا متهم بالخيانة فى حضور بيلاطس ويكبرياء شجاع لاينكر هذا الذنب. حينما سأله بيلاطس عما اذا كان هو ملك اليهود، بمعنى آخر، قائدهم فى النضال من أجل الاستقلال، يعلن يسوع "أنت تقول". إن إنجيل القديس يوحنا منتبه إلى أنه كيف سيكون رديئا الاحتفاظ بهذه البقية من الوطنية اليهودية، ومن ثم جعل يسوع يجيب: "ليست مملكتى من هذا العالم" بمعنى: أنها لو كانت من هذا العالم، لقاتل أتباعى. إن إنجيل القديس يوحنا هو الأحدث؛ لقد تطلب من ثم وقت طويل بالنسبة للكتاب المسيحيين ليقرروا هكذا أن يشوهوا الحقائق الأصلية.

إن الحالة بالنسبة لبيلاطس واضحة جدا. كممثل للسلطة الرومانية، فقد كان يقوم بواجبه فحسب بإعدام المتمرد يسوع.

ولكن الجمهور الأعظم من اليهود لم يكن لديه أدنى سبب حتى يسخط على رجل لم يرغب فى أن تكون له صلة بالحكم الرومانى، ودعاهم لرفض دفع الضرائب للإمبراطور. إذا كان يسوع قد فعل هذا بالفعل، فقد كان يتصرف باتفاق تام مع روح الغيورين المهيمنة آنئذ بين سكان أورشليم.

يترتب من ثم على طبيعة الحالة، إذا افترضنا أن الاتهام الوارد فى الإنجيل صحيح، أن اليهود تعاطفوا مع يسوع، بينما كان بيلاطس مضطرا لإدانته.

ولكن ماهو السجل فى الأناجيل؟ لايجد بيلاطس أقل ذنب فى جانب يسوع بالرغم من أن الأخير يعترف بمثل هذا الذنب هو نفسه. يعلن الوالى مرة بعد أخرى براءة المتهم، ويسأل أى شر فعله هذا الرجل.

هذا وحده سوف يبدو غريبا. ولكن لا يزال الأكثر غرابة حقيقة أنه بالرغم من أن بيلاطس لايعترف بذنب يسوع، فهو مع ذلك لا يبرئه.

الآن، يحدث أحيانا أن يجد الوالى حالة سياسية معقدة جدا يستعصي عليه أن يحكم فيها بنفسه. ولكن لم نسمع بأن واحدا من موظفي الإمبراطور كان عليه أن يجد حلا للصعوبة بسؤال جموع شعب عن ماذا ينبغى عمله مع المتهم. إذا لم يفضل أن يحكم بالإدانة فى حالات الخيانة العظمى، فقد كان عليه أن يرسل المتهم إلى روما، إلى الإمبراطور. الوالى أنتونيوس فيلكس (52- 60 ب.م)، على سبيل المثال، تصرف هكذا.

لقد أغوى قائد غيوري أورشليم، رئيس العصبة إليعازر، الذى أغار على الأرض لعشرين عاما، أن يأتى إليه، بوعده بالأمان، ثم أخذه سجينا وأرسله إلى روما، أضف إلى ذلك صلب عديدا من أتباعه.

ربما أرسل بيلاطس يسوع إلى روما بنفس الطريقة. ولكن إنجيل متى يعزو أشد الأدوار سخرية إلى بيلاطس: قاضى رومانى، ممثل الإمبراطور طيباريوس، سيد الحياة والموت، يتوسل إلى تجمع شعبى فى أورشليم أن يسمح له بتبرئة سجين، وحين "يقرر بشكل سلبى، يجيب: "حسنا، اذبحوه، أنا برئ من دمه" ولكن لايمكن لأى خاصية أن تتناقض بعنف أكثر مع (خاصية) بيلاطس التاريخى من الرحمة التي توحي بها فى الأناجيل. أجريبا الأول، فى رسالة إلى فيلون، يدعو بيلاطس "شخصية عنيدة وقاسية بلا رحمة" ويتهمه ب" الفساد، والرشوة، والسرقة، والتعامل بقسوة، الإهانات، إعدامات مستمرة دون حكم، قساوات لانهائية ولاتحتمل".

إن فظاظته وقسوته أثمرت مثل هذه الظروف الفظيعة التي أدت لاشمئزاز الحكومة المركزية فى روما فاستدعته (36 ب.م).

ويطلب منا أن نعتقد أن هذا الرجل كان عادلا على نحو استثنائى وشغوفا فى حالة المحرض البروليتارى يسوع، أضف إلى ذلك أظهر درجة من الاعتبار لرغبات الشعب التى كان لها نتاج أثر على المتهم.

لقد كان الإنجيليون غاية فى الجهل حتى يلاحظوا هذه الصعوبات. ولكن لابد أنهم كانوا قد شعروا بأنهم ينسبون دورًا غريبا للحاكم الرومانى. لقد بحثوا من ثم عن قضية تجعل هذا الدور أكثر جدارة بالتصديق: لقد رووا أن بيلاطس كان معتادا على إطلاق سجين فى عيد الفصح بناء على طلب اليهود، وأنه حين عرض أن يطلق سراح يسوع أجابوا: "ليس هذا بل باراباس!".

فى المحل الأول، من الغريب أنه لاتذكر عادة كهذه فى أى مكان عدا فى الأناجيل؛ مثل هذه العادة سوف تتناقض مع الممارسة الرومانية، التى لم تعط الولاة حق العفو. وتتناقض مع أى ممارسة قانونية منتظمة أن يمنح حق العفو لجمهور عرضى وليس لهيئة مسئولة. يمكن للاهوتيون فقط أن يقبلوا مثل هذه الأوضاع القانونية بقيمتها الظاهرية. ولكن حتى إذا تغاضينا عن ذلك، وحتى اذا قبلنا حق العفو المنسوب إلى الجمهور اليهودى على هذا النحو شديد الغرابة الذى تصادف أنه كان يتداول أمام بيت الوالى، فيجب مع ذلك أن نسأل ماهى العلاقة بين هذه الممارسة

والقضية الراهنة؟

لم يحكم على يسوع حتى قانونا. بنطس البيلاطى مواجه بالسؤال: هل يسوع مذنب بتهمه الخيانة العظمى أم لا؟ هل أحكم عليه أم لا؟ وهو يجيب بالسؤال: هل ستستخدم حقك فى العفو فى صالحه أم لا؟ بيلاطس بدلا من أن ينطق بالحكم، يدعو للعفو! اذا كان يعتبر يسوع بريئا، أليس له الحق فى تبرئته؟

يتوالى الآن عبث جديد. يفترض أن لليهود حق العفو؛ كيف يمارسون هذا الحق؟ هل بطلب إطلاق باراباس؟ لا، إنهم يطلبون أيضًا ان يصلب يسوع! يبدو أن الإنجيليين يستنتجون أن حق العفو عن واحد يتضمن حق إدانة الآخر.

توازى هذه الممارسة القضائية المجنونة ممارسة سياسية ليست أقل جنونا.

يصور الإنجيليون لنا جمهورا يكره يسوع إلى حد أنه يعفو بالأحرى عن قاتل وليس عنه؛ سوف يتفضل القارئ بتذكر، **قاتل** - لم يكن متاحا للرحمة موضوع أكثر جدارة — ولا يرضى حتى يقاد يسوع إلى الصلب.

تذكر أن هذا هو نفس الجمهور الذى حياه بالأمس فقط كملك بصيحات (أوصنا)، ونشر الأردية تحت قدميه وحياة بابتهاج، بدون أن يظهر صوت مناوئ. وقد كان هذا التفانى من جانب الجمهور فقط الذى مَثَّلَ - طبقا للأناجيل - سبب رغبة الأرستقراطيين فى القضاء على حياة يسوع، منعهم أيضًا من محاولة القبض عليه فى ضوء النهار وجعلهم يختارون الليل بدلا من ذلك. الآن يبدو أن نفس هذا الجمهور مجمع تماما فى كراهته الوحشية المتعصبة ضده، ضد الرجل الذى اتهم بجريمة سوف تجعله جديرا بأشد احترام فى عينى أى وطنى يهودى: محاولة تحرير الجماعة اليهودية من الحكم الأجنبى.

هل حدث أى شيء يبرر هذا التحول العقلى المثير للدهشة؟ سوف تكون هناك حاجة إلى أشد الدوافع قوة لتفسير مثل هذا التغير. الإنجيليون يتمتمون ببضع جمل غير متماسكة ومثيرة للسخرية، اذا كانت شيئا على الإطلاق. لايعزو لوقا ويوحنا أى دوافع؛ يقول مرقس: "فهيج رؤساء الكهنة الجمع ضد يسوع"؛ متى! "حرضوا الجموع". هذه المجازات تظهر فحسب أن الكتاب المسيحيين قد فقدوا حتى البقية الأخيرة من حسهم السياسى ومعرفتهم السياسية.

لا يمكن حتى لأكثر الجموع فقدانا للعقل أن تقتنع بكراهة متعصبة دون دافع ما. قد يكون هذا الدافع غبيا أو زائفا، ولكن يجب أن يكون هناك دافع. يتجاوز الجمع

اليهودى فى الأناجيل أكثر شريرى المسرح سوء سمعة وبلاهة فى خسته الغبية. لأنه بدون أدنى سبب، بدون أدنى قضية، يصخب مهدرًا دم من وَقَره بالأمس.

يصبح الأمر أكثر غباوة حين نعتبر الظروف السياسية للزمن. كان للجماعة اليهودية بصفة خاصة حياة سياسية نشطة متميزة في ذلك عن كل الأقسام الأخرى من الإمبراطورية الرومانية تقريبًا؛ مظهرة التطرفات القصوى لكل أنواع المعارضات الاجتماعية والسياسية. كانت الأحزاب السياسية منظمة جيدا، وكان هناك حتما جمهور ما وراء السيطرة. تشربت الطبقات الدنيا فى أورشليم تماما بنزعة الغيورين، وكانت فى صدام دائم حاد مع الصدوقيين والفريسيين، ومملوءة بأشد الأحقاد وحشية ضد الرومان. وكان أفضل حلفائهم الجليليين المتمردين.

"حتى اذا نجح الصدوقيين والفريسيين فى "تهييج" بعض الناس ضد يسوع، فلم يكن من المحتمل أن يتمخضوا عن تظاهرة شعبية متفق عليها، ولكن على أكثر تقدير حرب شوراع دموية. ليس هناك شيء أكثر إثارة للسخرية من فكرة أن الغيورين سوف يندفعون بصرخات وحشية ليس ضد الرومان والأرستقراطيين، وإنما ضد المتهم المتمرد الذى انتزعوا إعدامه من الحاكم الرومانى ضعيف الشخصية، بالرغم من افتتان الحاكم الغريب بالخائن.

لم يخترع أحد أبدا أى شيء أكثر طفولية بفظاظة. ولكن مع هذا الجهد لتصوير الطاغية الدموى بيلاطس كحمل برئ، وجعل الفساد الأهلى لليهود مسئولا عن صلب المخلص المسالم الذى لاضرر منه، استنفدت عبقرية الإنجيليين تماما. إن نهير اختراعهم "يجف قليلا وتتردد القصة الأصلية مرة أخرى بخفوت، على الأقل للحظة: "بعد أن أدين، سخروا من يسوع وأسيئت معاملته - ولكن ليس من اليهود — إنما من جنود بيلاطس ذاته الذى أعلن توا أنه برئ، بيلاطس الآن يجعل جنوده لايصلبون يسوع فقط ولكن يجلدونه أولا ويسخرون منه باعتباره ملك اليهود، ثم يضعون تاجًا من الشوك على رأسه، ويلفونه برداء أرجوانى، ويركع الجنود أمامه، وعندئذ مرة أخرى يضربونه على رأسه ويبصقون عليه. وأخيرا يضعون على صليبه الكتابة "يسوع ملك اليهود".

ينتج هذا مرة أخرى "الطبيعة الأصلية ل "حل العقدة". يبدو الرومان مرة أخرى باعتبارهم أعداء يسوع اللدودين، وسبب سخريتهم وكذلك كراهيتهم هو الخيانة العظمى، ودعواه بأنه ملك اليهود، وجهده فى زعزعة النير الرومانى.

لسوء الحظ، فإن الحقيقة البسيطة لاتستمر فى الصمود لفترة طويلة.

يموت، يسوع، ومن الضرورى الآن تقديم دليل، فى شكل عدد من المؤثرات المسيحية العنيفة، بأن إلها فد مات:

"فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح. وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين". (متى 27/05- 53)

لايروى الإنجيليون ماذا أنجز "القديسون" الذين بعثوا فى وبعد خروجهم الجماعى إلى أورشليم، ما إذا كانوا قد بقوا أحياء أو رقدوا فى حينه مرة أخرى فى قبورهم. فى اى حالة، سوف يتوقع المرء أن حدثا استثنائيا كهذا سيخلق انطباعا عميقا على كل الشهود ويقنع الجميع بإلوهية يسوع. ولكن يبقى اليهود عنيدين، مرة أخرى الرومان فقط هم الذين يقرون بالإلوهية.

"وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وماكان خافوا جدا وقالوا هذا حقا ابن الرب". (متى 27/54)

ولكن رؤساء الكهنة الفريسيين من ناحية أخرى مازالوا يعلنون بأن يسوع مضل (27/63)، وحين قام من بين الأموات فإن الأثر الوحيد الذي تمخض عنه ذلك هو أن يغتني الشهود الرومان بواسطة الرشوة التى ذكرناها سابقا، بالدفع لإعلانهم بأن المعجزة مزيفة.

وهكذا، فى نهاية قصة الآلام، تحول الرشوة اليهودية الجنود الرومان الشرفاء إلى أدوات للغدر اليهودى والنذالة، الذى أظهر حقدا شيطانيا فى قتال الرحمة الإلهية الرفيعة.

فى هذه الحكاية بمجملها الميل للخنوع إزاء الرومان والحقد ضد اليهود موضوع بغاية الغلاظة وجرى التعبير عنه فى مثل هذا التراكم من الهولات التى قد يظن المرء أنه لم يكن ممكنا أن يكون لها أدنى تأثير على الأشخاص الأذكياء، ومع ذلك فنحن نعلم أن هذه الحيلة قد فعلت فعلها. زينت هذه الحكاية، بهالة الألوهية، تعظمت باستشهاد المعلن الفخور لمهمة عليا، وكانت لعدة قرون واحدا من أفضل الوسائل لإثارة الحقد والاحتقار لليهود، حتى فى أكثر العقول الخيرة فى العالم المسيحى؛ لأن اليهودية لم تكن شيئا بالنسبة لهم، وقد بقوا بعيدين عنها. ولقد وصموا اليهود

باعتبارهم حثالة الإنسانية، كعرق موهوب بالطبيعة بأكثر (أنواع) الخبث شرا وعنادا، الذى يجب أن يبقى بعيدا عن كل مجتمع إنسانى، وأن يقبض عليه بيد من حديد.

ولكن كان سيكون من المستحيل أبدا تأمين قبول عام لهذا الموقف نحو اليهود، اذا لم يكن قد نشأ فى وقت الكراهية الشاملة واضطهاد اليهود.

اذ نشأ هذا الموقف فى وقت كان اليهود فيه خارجين على القانون، فقد تفاقم هذا الوضع بشدة، أطال استمراره، ووسع مجاله.

مانعرف باعتبارها قصة آلام ربنا يسوع المسيح هى فى الواقع حادثة واحدة فقط فى تاريخ معاناة الشعب اليهودى.

الفصل الخامس
تطوير تنظيم المجمع

أ- بروليتاريون وعبيد

لقد رأينا أن مقومات عديدة للمسيحية، التوحيد، النزعة الخلاصية، الاعتقاد فى البعث، الشيوعية الإسينية، ظهرت وسط اليهود، وأن قسما من الطبقات الدنيا لهذا الشعب وجد أكثر التعابير إشباعا لرغباته وطموحاته فى تركيب من هذه العناصر. لقد رأينا أيضًا أن كامل العضوية الاجتماعية للإمبراطورية الرومانية قد اخترقتها أوضاع جعلتها - خاصة أقسامها البروليتارية - عرضة للتأثر أكثر فأكثر بهذه الاتجاهات الجديدة ذات الأصل اليهودى، ولكن هذه الاتجاهات، حين خضعت لتأثير محيط غير يهودى، لم تكن قد انفصلت عن اليهودية فقط، وإنما اتخذت حتى موقفا عدائيا تجاه الأخيرة. أصبحت هذه الاتجاهات منصهرة الآن مع حركات موت العالم الإغريقى الرومانى، الذى حول الروح القومية النشطة التى سادت بين اليهود حتى تدمير أورشليم إلى عكسها تماما، محللا الحركة اليهودية إلى استسلام عاجز، خنوع ذليل، وتوق الموت.

مع التغير فى مجال الفكر، تغير تنظيم المجمع بعمق أيضًا فى آن معا.

ألهمته فى البداية شيوعية نشطة وإنما غامضة، إدانة لكل ملكية خاصة، رغبة فى نظام اجتماعى جديد وأفضل حيث يقضى على كل التمايزات الطبقية بتقسيم الملكية.

من المحتمل أن المجمع المسيحى كان فى البداية تنظيما مقاتلا بصفة رئيسة، إذا كنا مصيبين فى افتراضنا بأن الإشارات إلى العنف فى الأناجيل التى يتعذر تفسيرها بخلاف ذلك هى بقايا تقليد أصلى. هذا الملمح سوف يتفق تمامًا أيضًا مع المركز التاريخى للأمة اليهودية فى هذا الوقت.

إنه من غير المتصور أن نفترض أن طائفة بروليتارية - فوق كل شيء - قد بقيت بعيدة عن التيار الثورى العام.

كيفما كان الأمر، فإن التنظيمات المسيحية الأولى بين اليهود كانت مشبعة بالرغبة فى الثورة، توق لمجيء المخلص، لجيشان اجتماعى. الانتباه للحظة الحاضرة،

أي العمل التفصيلى العملى بكلمات أخرى، يحتمل انه أهمل.

ولكن تغير هذا الوضع بعد تدمير أورشليم. هزمت العناصر التى أعطت المجمع الخلاصى طابعه المتمرد. وأصبح مجمع المخلص أكثر فأكثر مجمعا معاديا لليهود، داخل البروليتاريا غير اليهودية، التى لم يكن لديها لا القدرة ولا الرغبة فى الصراع. ولكن كلما شاخ المجمع، أصبح واضحا أكثر فأكثر انه لم يعد بمستطاعه ان يعتمد على تحقيق النبوءة التى مازالت تحتويها الأناجيل، انتهاءا إلى أن معاصرى يسوع سوف يعيشون حتى يروا التغير العظيم. اختفى تدريجيا الإيمان بمجيء "مملكة الله" على الأرض. مملكة الله، التى كان عليها أن تهبط من السماء، كانت قد تحولت أكثر فأكثر إلى السماء؛ قيامة البدن (اللحم) تحولت الآن إلى خلود الروح، التى قدر لها وحدها أن تجرب كل مباهج السماء أو غصص الجحيم.

كلما اتخذت التوقعات الخلاصية للمستقبل هذا الشكل غير الأرضى أكثر فأكثر، صائرة محافظة سياسيا أو غير مبالية، أصبح الاهتمام العملى باليوم الحاضر بالضرورة أكثر فأكثر بروزا.

ولكن مع تناقص الحماس الثورى، عانت الشيوعية العملية ذاتها تغيرات عديدة.

لقد نجمت بصفة أصلية عن رغبة حيوية وإن غامضة لإزالة الملكية الخاصة، رغبة فى علاج فقر الرفاق بجعل كل الممتلكات مشتركة.

ولكننا قد أشرنا سلفا أنه بالتعارض مع الإسينيين، كانت المجامع المسيحية أصلا مدينية فحسب، بل مجامع متروبوليتانية بصفة أساسية، وأن هذا قد شكل عقبة فى وجه التطور التام والدائم لشيوعيتها.

كانت الشيوعية بين الإسينيين، وكذلك وسط المسيحيين، أصلا شيوعية استهلاك، ملكية للسلع. ولكن مازال الاستهلاك والإنتاج يرتبطان اليوم بوثوق فى المقاطعات الريفية، وقد كان الحال آنذاك أكثر بما لايقاس. عنى الإنتاج، الإنتاج من أجل الاستهلاك الخاص، وليس من أجل البيع؛ الزراعة، تربية الماشية، الاقتصاد المنزلى، كلها كانت مرتبطة بوثوق. كان الإنتاج الكبير فى الزراعة ملائما تماما فى هذا الزمن وبالفعل أرفع قياسا بالإنتاج الصغير، بقدر ماسمح بتقسيم للعمل أكثر كمالا وتوظيف أتم للأدوات والهياكل المختلفة. بالطبع، لقد كان هذا أكثر من جيد بالقياس لمساوئ العمل العبودى. ولكن بينما كان الاشتغال بواسطة العبيد آنئذ الشكل الأكثر شيوعا لأبعد حد للزراعة الكبيرة، لم يكن الشكل الممكن الوحيد. نحن

نجد بالفعل مؤسسات كبرى قد شغلتها عائلات فلاحية عديدة، فى بدء التطور الزراعى. من المحتمل أن الإسينين قد أسسوا مشاريع عائلية تعاونية زراعية على نطاق كبير حيثما ألف الإسينيون مستوطنات كبيرة شبه رهبانية فى الصحراء، تشبه المستوطنات التي ظهرت جانب البحر الميت التى روى عنها بلينى (**التاريخ الطبيعى**، الكتاب الخامس)، "حيث عاشوا فى مجتمع النخيل".

ولكن شكل الإنتاج فى التحليل الأخير هو دائما العامل الحاسم فى كل بنية اجتماعية. فقط هذه المجتمعات التى تقوم على نمط الإنتاج قد تكون لها القوة والاحتمال.

بينما كانت الزراعة الاجتماعية أو التعاونية ممكنة فى الوقت الذى نشأت فيه المسيحية، لم يكن أى من المتطلبات المسبقة الضرورية من أجل الصناعة الحضرية التعاونية، قائما، على أية حال. كان العمال فى الصناعات الحضرية إما عبيد أو عمال منزليين أحرارا. كانت المؤسسات الكبرى ذات العمال الأحرار، التى تشبه العائلة الفلاحية الكبيرة، بالكاد معروفة. العبيد، العمال المنزليين، حاملى الأثقال، أيضًا الباعة الجائلين، البدالين الصغار، **البروليتارية الرثة**، كانت هذه هى الطبقات الدنيا من السكان الحضريين فى هذه الأزمنة التى أمكن أن تظهر بينها الاتجاهات الشيوعية. ولكن هذه الطبقات لم تقدم عنصرا يمكن أن يوسع الملكية المشتركة للسلع إلى خاصية عامة للإنتاج. بقى العنصر العام جماعية استهلاك فقط. وهذه الجماعية بدورها لم تكن بصفة أساسية شيئا أكثر من تناول الوجبات المشتركة. اللباس، ومواطن السكنى فى مهد المسيحية، أيضًا فى وسط ايطاليا وجنوبها، لم تكن ذات أهمية كبيرة. حتى شيوعية متطرفة كشيوعية الإسينيين لم توغل فى تأسيس جماعية ملابس. يبدو أن الملكية الخاصة فى مسألة اللباس، بدت حتمية وكانت جماعية السكنى هى الأكثر صعوبة فى التحقق بمدينة كبرى مادامت ورش الرفاق العديدين كانت منتشرة فى كل الاتجاهات، ومادامت المضاربة فى الملكية العقارية فى العصر المسيحى الباكر جعلت أسعار المنازل فى المدن الكبرى غاية فى الارتفاع. وضع غياب تسهيلات المواصلات سكان المدن الكبرى فى مساحة صغيرة وجعل ملاك هذه المساحة السادة المطلقين لسكانها الذين سلبوا بفظاعة. بنيت المنازل مرتفعة فى الهواء بقدر ما سمح فن البناء آنذاك؛ وبلغت فى روما سبع طوابق أو أكثر فى الارتفاع، وبلغت الإيجارات أرقاما خرافية. كان استغلال الملكية العقارية من ثم شكلا مفضلا من الاستثمار لدى رأسماليى هذا الزمن. فى عهد الثلاثى الذى اشترى الجمهورية الرومانية، حاز

كراسوس بصفة خاصة ثروته بمثل هذه المضاربة.

لم يستطع بروليتاريى المدينة الكبرى أن يتنافسوا فى هذا المضمار؛ هذا وحده جعل من المستحيل عليهم أن ينعموا بسكنى جماعية. أضف إلى ذلك، بالنظر إلى الطابع الشاك للأباطرة، لم يستطع المجمع المسيحى أن يوجد إلا كجمعية سرية... كانت السكنى الجماعية ستجعل اكتشافه أمرًا سهلا.

لم تستطع الشيوعية المسيحية من ثم أن يكون لها أى شكل عام دائم بالنسبة لأكثر أعضائها سوى ما جرى التعبير عنه فى الوجبات المشتركة.

تصف الأناجيل أيضًا "مملكة الله"، دولة المستقبل، تقريبا على وجه الحصر باعتبارها وجبة مشتركة؛ مامن بهجة أخرى متوقعة؛ كان هذا النعيم بوضوح أول ما داعب مخيلة المسيحيين الأوائل.

رغم ما كان لهذا الشكل من الشيوعية العملية من أهمية للبروليتاريين الأحرار، فقد عنى قليلا للغاية بالنسبة للعبيد، الذين كانوا عادة جزءا من عائلة سيدهم وكانوا يطعمون على مائدته، بتكاليف رخيصة للغاية، مما لاشك فيه. بضعة عبيد فقط هم الذين عاشوا خارج بيت سيدهم، على سبيل المثال، هؤلاء الذين أداروا محلا فى المدينة لبيع منتجات ضيعة سيدهم الريفية.

كان الأمل فى المخلص الآتى بالنسبة للعبيد، أفق مملكة النعيم العام، بالضرورة أكثر جاذبية، بكثير من الشيوعية العملية، التى أمكن أن تتحقق فقط فى أشكال ضئيلة المغزى بالنسبة لهم مادامو عبيدا.

نحن لانعرف موقف المسيحيين الأوائل بالنسبة للعبودية. لقد أدانها الإسينيون كما رأينا. يروى فيلون:

"لايوجد عبيد بينهم، وإنما جميعهم أحرار، يعمل كل منهم بشكل متبادل من أجل الآخر. وهم يعتبرون اقتناء العبيد ليس فقط غير عادل وانتهاك للتقوى، وانما أيضًا غير إلهى، انتهاك للقانون الطبيعى، الذى خلق الجميع "متساوين.... كأخوة".

من المحتمل أن بروليتاريى مجمع المخلص في أورشليم كانوا بنفس العقلية.

ولكن اختفت آفاق الثورة الاجتماعية مع تدمير أورشليم. إن المتحدثين باسم المجمع المسيحى، الذين كانوا معنيين بجزع ألا يثيروا أية شكوك بالعداء تجاه القوى السائدة، حاولوا بالضرورة أيضًا أن يهدئوا العبيد المتمردين الذين عدوهم فى صفوفهم.

هكذا على سبيل المثال، فإن مؤلف رسالة بولس إلى الكولوسيين - وهي فى الشكل الباقى حاليا "تحرير" أو اصطناع يعود تاريخه إلى القرن الثانى - يناشد العبيد على النحو التالى:

"أيها العبيد، أطيعوا فى كل شيء سادتكم حسب الجسد، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب" (22/3).

إن مؤلف رسالة بطرس الأولى - ومن المحتمل انها الفت فى زمن تراجان يستخدم حتى عبارات أوضح:

"أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة، ليس للصالحين المترفعين فقط، بل للعنفاء [1] أيضا. لأن هذا أفضل، إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يتحمل أحزانا متألما بالظلم. لأنه أى مجد هو، إن كنتم تلطمون مخطئين، فتبصرون بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير، "فتصبرون فهذا فضل عند الله ". (بطرس الأولى 18/2- 20)

وجدت الانتهازية المسيحية الأولية للقرن الثانى حتى من الملائم للسادة المسيحيين أن يستبقوا عبيدا كانوا إخوتهم فى المجمع، كما تبرهن على ذلك رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس:

"جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا ساداتهم مستحقين كل إكرام، لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه. والذين لهم سادة مؤمنون، لايستهينوا بهم، لأنهم اخوة، بل ليخدموهم أكثر لأن الذين يتشاركون فى الفائدة (ἀγαπητοί) [2] هم مؤمنون ومحبوبون". (1/6- 2)

لايمكن أن يكون هناك شيء أكثر خطأ من القول إن المسيحية ألغت العبودية، على العكس، لقد أمدت العبودية برافد جديد. كان العبد فى العصور القديمة، يبقى فى مكانه بواسطة الخوف. لقد قدر للمسيحية أن ترفع طاعة العبد العمياء إلى واجب أخلاقى، يقام بها بابتهاج.

المسيحية، على الأقل بعد أن كفت عن أن تكون ثورية، لم تعد تقدم للعبد أملا فى الحرية، وشيوعيتها العملية نادرا ماتضمنت مميزات للعبد. العنصر الوحيد الذى كان

---

1 Σκολιοις، التي تتضمن الظلم، الخيانة، تعمد الأذى. لوثر يترجمها بغاية الاعتدال Die wunderlichen

2 الوجبات المشتركة.

لايزال يجذب الأخير هو "المساواة أمام الله"، بمعنى آخر، داخل المجمع حيث لكل رفيق حقوقا متساوية، حيث يمكن للعبد أن يجلس بجوار سيده في الوجبة المشتركة، إذا كان الأخير أيضًا عضوا في المجمع.

اصبح كاليستوس العبد المسيحي لمسيحي معتق، حتى أسقف روما (217- 222 ب م).

ولكن حتى هذا الشكل من المساواة لم يعد ذو مغزى كبير. لابد وأن يتذكر القارئ كيف كان وضع البروليتاريا الحرة قريبا من (وضع) العبيد، التي خرج من عدادها كثير منهم، ومن ناحية أخرى حاز عبيد العائلة الإمبراطورية مناصب رفيعة في الدولة وكان ينافقهم أحيانا حتى الأرستقراطيين.

إذا لم تكن المسيحية، بالرغم من كل شيوعيتها وكل إحساسها البروليتاري غير قادرة على إلغاء العبودية في صفوفها الخاصة، فلأنه كان للعبودية جذور قوية في العصور القديمة "الوثنية"، بالرغم من أن الأخيرة في مجملها كانت معارضة لها، وبالرغم من أن الأخلاق كقاعدة مرتبطة بوثوق بنمط الإنتاج. الحب الشامل للجار، الأخوة، مساواة الجميع أمام الله، كما أعلنت في مجمع المخلص لم تكن أكثر تعارضا مع العبودية مما كانت حقوق الإنسان كما أعلنت في إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية. كانت المسيحية في البداية بصفة رئيسية دين البروليتاريا الحرة، ولكن بالرغم من كل التقارب بين الأخيرة والعبيد في العصور القديمة بقى هناك اختلاف في المصالح بين الطبقتين.

لقد ألف البروليتاريون الأحرار أغلبية في المجمع المسيحي منذ البداية، مانعين مصالح العبيد من أن تجد تعبيرا كاملا في المجمع. هذا بدوره جعل بالضرورة المجمع أقل جاذبية للعبيد مما للبروليتاريين الأحرار، مقويا هكذا أغلبية الأخيرة.

كان التطور الاقتصادي يعمل في نفس الاتجاه وتحديدا في الوقت الذي تلقت فيه الاتجاهات الثورية في المجمع المسيحي ضربة موتها، أي، في وقت سقوط أورشليم، يبدأ عصر جديد للإمبراطورية الرومانية، عصر سلام شامل، ولكن أيضًا بقدر عظيم سلام عالمي، منذ أن فقدت الإمبراطورية الرومانية قوتها في التوسع. ولكن الحرب، الحرب الأهلية وكذلك الحرب الإمبريالية، قد كانت وسائل الحصول على عبيد رخيصين؛ توقف هذا الوضع الآن. أصبح العبد نادرا ومكلفا، لم يعد تشغيل العبد مثمرا، استبدل في الزراعة بالمستوطن coloni، وفي الصناعة الحضرية بعمل العمال

الأحرار، كف العبد أكثر فأكثر عن أن يكون منتجا لمنتجات ضرورية وأصبح منتجا لمواد الترف. أصبحت الخدمات الشخصية للعظماء والأقوياء الآن الوظيفة الأساسية للعبودية. أصبحت روح العبد الآن مرادفة أكثر فأكثر لروح الخانع. ولت أيام سبارتاكوس.

احتدم بالضرورة التعارض بين العبد والبروليتاريين الأحرار بالتناقص فى عمل العبيد مترافقًا في نفس الوقت مع زيادة فى عدد البروليتاريين الأحرار فى المدن الكبرى. سبب كلا هذين الاتجاهين للعنصر العبيدى فى المجمع المسيحى أن يزاح إلى الخلفية. لايثير الدهشة أن المسيحية فقدت أخيرا كل اهتمام بالعبيد.

من السهل فهم هذا التطور إذا نظرنا للمسيحية باعتبارها الإطاحة بمصالح طبقية معينة؛ ولكنه لايمكن أن يفهم إذا اعتبرنا المسيحية كبنية أيديولوجية فحسب. لأن التطور المنطقى لأفكارها الأساسية كان سيؤدى لإلغاء العبودية؛ ولكن المنطق لم يشتغل أبدا فى التاريخ العالمى حين أملت المصالح الطبقية خلاف ذلك.

ب - تدهور الشيوعية

الاعتراف بالعبودية، وكذلك الاتجاه المتزايد لقصر جماعية الطيبات على الوجبات المشتركة، لم تكن العقبتان الوحيدتان اللتان واجههما المجمع المسيحى فى جهده لتنفيذ طموحاته الشيوعية.

تطلبت هذه الطموحات ان يبيع كل عضو فى المجمع كل ممتلكاته ويضع العائدات تحت تصرف المجمع لتوزيعها على أعضاءه.

من الواضح فى البداية أن هذه الممارسة لم يكن ممكنا أن تنفذ على نطاق واسع. كان متطلبها المسبق الضرورى هو أن يبقى على الأقل نصف المجتمع غير مؤمن وإلا لم يكن ليوجد أحد ليشترى ممتلكات المؤمنين. ولم يكن أحد يبيع للمؤمنين المواد الغذائية التى احتاجوها، مقابل عائدات بيعهم.

إذا قصد المؤمنون أن يعيشوا ليس على الإنتاج وإنما على التقسيم، فقد كان عدد كاف من غير المؤمنين ضروريا، الذين سوف ينتجون للمؤمنين. ولكن حتى فى الحالة الأخيرة، فقد حكم على النظام بالإخفاق بمجرد أن باع كل المؤمنين أملاكهم، قسموها واستهلكوها. بالطبع سوف يهبط المخلص من السحب قبل ذاك ويعالج كل شرور "الجسد".

ولكن هذا الاختبار لم يتح له الوقت أبدا حتى يتحقق.

ان عدد الأعضاء الذين «كان لديهم أى شيء يستحق البيع والتقسيم كان ضئيلا للغاية فى المراحل الأولى للمجمع. لقد كان يمكن لهم أن يحصلوا على دخل ثابت فقط بجعل كل عضو يسلم كسبه اليومى للمجمع. إذا لم يكن الأعضاء مجرد متسولين أو حمالين، فقد احتاجوا لملكية ما إذا كانوا سيكسبون أى شيء، مثلاً الملكية فى وسائل الإنتاج بالنسبة للنساجين، صانعى الفخار أو الحدادين، أو فى مخزون السلع، فى حالة البدالين أو الباعة الجائلين.

لم يستطع المجمع فى ظل الشروط المعنية، أن يهيئ ورشا خاصة للإنتاج من أجل احتياجاته الخاصة؛ كما فعل الإسينيين، ولم يتمكن من أن ينعزل عن نطاق الإنتاج السلعى والإنتاج الفردى؛ من ثم، بالرغم من كل مطامحه الشيوعية، كان عليه أن يقبل الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج ومخزون السلع.

ولكن بعد قبول الإنتاج الفردى، القبول بالاقتصاد المنزلى الفردى، المرتبط بمثل هذا الإنتاج، كان يجب أن يعقبه، وايضا مايخص العائلة الفردية، الزواج الأحادى بالرغم من كل وجباتهم المشتركة.

مرة أخرى تبين أن العائد العملى للاتجاهات الشيوعية هو الوجبات المشتركة ولكنها لم تكن نتيجتها الوحيدة. لقد نجح البروليتاريون فى الاتحاد من أجل تقليل بؤسهم بواسطة جهودهم المشتركة. فحين واجهوا عقبات فى تنفيذ شيوعية كاملة فقد وجدوا انفسهم مضطرين لتوسيع عملهم الخيرى أكثر بما لايقاس، الذى سوف يعطى مساعدة للفرد فى حالات العوز الاستثنائى.

كانت المجامع المسيحية مرتبطة بوثوق بعضها بالآخر. كان العضو الذى يصل من مدينة أخرى يعطى عملا من المجمع إذا رغب فى أن يبقى، أما إذا رغب فى أن يرحل قدما، فقد كان يعطى نفقة ضئيلة.

إذا أصبح عضو مريضا، يتولاه المجمع. إذا مات، فإنه يدفنه على نفقته ويعنى بأرملته وأطفاله، إذا كان مسجونا، وهو ماحدث غالبا، فالمجمع مرة أخرى الذى يقدم له المواساه والمساعدة.

خلق التنظيم المسيحى البروليتارى هكذا دائرة للواجبات مكافئة تقريبا لنظام التأمينات فى أمة حديثة. فى الأناجيل، فإن مراعاة هذا النظام للتأمين المتبادل يخول المرء الحياة الأبدية. حين يأتى المخلص، فإنه سوف يقسم البشر إلى هؤلاء الذين سوف

يشاركون فى جلالة مملكة المستقبل والحياة الأبدية وهؤلاء الذين قدر لهم اللعنة الأبدية. للأوائل، الخراف، سوف يقول الملك:

"تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم: لأنى جعت فأطعمتمونى: عطشت فسقيتمونى: كنت غريبا، فآويتمونى: عريانا، فكسوتمونى: مريضا فزرتمونى: محبوسا فأتيتم إلى فيجيب الأبرار حينئذ قائلين بأنهم لم يفعلوا شيئا كهذا للرب. فيجيب الملك ويقول: الحق اقول لكم بما إنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم ". (متى25/34- 40)

كانت وجباتهم المشتركة وإحسانهم المتبادل فى اى حال آمن رابطة داخل المجمع المسيحى، رابطة تلحم دوما الجماهير معا.

ولكن كانت هذه الممارسة للإحسان تحديدا تطور قوة قُدِرَ لها ان تُضعف وتُمزق إربا الطموحات الشيوعية الأصلية.

حيث تضاءل توقع مجيء المخلص فى كل مجده، وحيث أصبح المجمع مقتنعا أكثر فأكثر أنه كان من الضرورى حيازة ملكية لتنفيذ برنامجه فى المساعدة، انتهك الطابع الطبقى البروليتارى للدعاية المسيحية. ووجه جهد أكثر فأكثر لتجنيد الأعضاء الأثرياء الذين يمكن استخدام نقودهم.

كلما احتاج المجمع لنقود أكثر، كلما عمل محرضوه باجتهاد أكثر من أجل أن يثبتوا للأنصار الأثرياء تفاهة كل كنوز هذا العالم وانعدام قيمتها مقارنة بنعم الحياة الأبدية، التى كان يمكن للأغنياء أن يحصلوا عليها إذا تخلوا فقط عن ممتلكاتهم. لم يكن تبشيرهم فى زمن التشاؤم العام ذاك، خاصة وسط الطبقات الثرية، دون إثر. كم كان هناك من الاشخاص الأثرياء الذين ملأهم الاشمئزاز، من كل المتع وكل وسائل المتعة، بعد فترة شباب فاسق. بعد أن استنفدوا كل الأحاسيس التى تشترى بالنقود، مازال باقيا هناك إحساس واحد: إحساس الفقر.

نزولا إلى العصور الوسطى مازلنا نجد عودة متكررة لحالة الاشخاص الأثرياء الذين يعطون كل ممتلكاتهم للفقراء ويعيشون هم انفسهم حياة المتسولين، فى أغلب الحالات بعد أن تمتعوا تماما بكل ملذات العالم، حتى درجة الغثيان الكامل.

ولكن لم يكن مثل هؤلاء الاشخاص غاية فى الكثرة حتى يجعلوا طرح الريح هذا متكررا كما تطلب المجمع. مع الفاقة المتزايدة فى الإمبراطورية، مع تضاعف البروليتارية الرثة فى المجمع، التى إما لم تستطع أو لم تكن لتكسب خبزها بالكدح،

اصبح إلزاميا اكثر تجنيد اشخاص اغنياء للقيام بنفقات المجمع.

لقد كان من الأسهل ان تجعل غنيا يترك نقوده لأغراض الإحسان الخاصة بالمجمع عند موته من أن تجعله يتبرع بها خلال حياته. كانت العائلات التى لا أطفال لديها شائعة للغاية، كانت الروابط العائلية غاية فى الضعف؛ وغالبا ما كانت الرغبة فى عمل وصايا للأقارب ضئيلة للغاية. تطور من ناحية أخرى، الاهتمام بشخصية المرء الخاصة إلى درجة عليا، متضمنا الرغبة فى حياة مستمرة ما بعد الموت، من أجل حياة سعيدة بالطبع.

لقد تكيف المذهب المسيحى جيدا لإشباع هذه الرغبة، فأتاح للأغنياء طريقة ملائمة للحصول على الأبدية دون حرمان خطير فى هذه الحياة اذا لم يتخلوا عن ملكيتهم حتى الموت، حين لم تعد لها فائدة بالنسبة لهم. فالإيصاء بملكيتهم، التى لافائدة فيها الآن كلية قد تشترى لهم الخلاص الأبدى.

لقد أسر المحرضون المسيحيون من ثم الأرستقراطيين الشباب العاطفيين من خلال اشمئزازهم من الحياة التى عاشوها؛ لقد أسروا الأغنياء العجائز الهالكين من خلال خوفهم من الموت وقصص الجحيم التى تنتظرهم. لم يتوقف التلاعب الاختلاسى بالمواريث منذاك عن أن يكون طريقة مفضلة للمحرضين المسيحيين، لإتخام المعدة القوية للكنيسة بغذاء أكثر فأكثر.

ولكن فى القرون القليلة الأولى من حياة المجمع، ولكونه تنظيما سريا، فلم تكن له شخصية قانونية ولم يستطع من ثم أن يرث مباشرة.

لقد جرى القيام بجهود من ثم لتجنيد أشخاص أغنياء وهم مازالوا أحياء لدعم المجمع، حتى لو لم يكن مثل هؤلاء الاشخاص مستعدين لتنفيذ وصايا الرب بدقة فيوزعوا بين الفقراء كل ما امتلكوا. لقد رأينا أن الكرم كان سمة عامة بين أثرياء تلك الأيام قبل أن يلعب تراكم رأس المال دورا هاما فى نمط الإنتاج. لقد تعزز هذا الكرم لصالح المجمع، مشكلا مصدرا دائما لدخله، حيثما كان ممكنا إيقاظ اهتمام وتعاطف الثرى مع المجمع. كلما كف المجمع عن أن يكون تنظيما مقاتلا، كلما تأكدت أكثر مرحلته الإحسانية، وكلما أصبحت الاتجاهات داخل المجمع لتلطيف الحقد البروليتارى الأصلى ضد الأغنياء أقوى ولتمكن الأخيرين من أن يشعروا بالراحة فى المجمع رغم انهم بقوا أغنياء ومتشبثين بممتلكاتهم.

وجهة نظر المجمع إلى الحياة - رفضه الآلهة القديمة، التوحيد، الاعتقاد فى

البعث، الأمل فى المخلص – كانت هذه الأشياء تتفق كما رأينا، مع الاتجاهات العامة لتلك الأزمنة، جاعلة المذهب المسيحى متعاطفا حتى مع الطبقات العليا.

من جانب آخر، واجه الأغنياء، الفاقة المتزايدة للجماهير، كانوا يبحثون عن طرائق لتقليل هذه الفاقة، كما تبين مؤسسات إحسانهم. لأن هذه الفاقة عرضت كل المجتمع للخطر. جعلت هذه الحقيقة أيضًا التنظيم المسيحى أكثر تعاطفا فى عيونهم.

أخيرا، لعبت الرغبة فى الشعبية أيضًا دورا فى الدعم الذى قُدم للمجمع المسيحى، على الأقل فى الأماكن التى حازت فيها هذه المجامع نفوذا على قسم يعتد به من السكان.

من ثم قد يصبح المجمع المسيحى ولحد بعيد جذابا بالنسبة لأمثال هؤلاء الأغنياء الذين لم يصبحوا روحيين ويائسين، حيث لم يدفعهم للوعد بالإيصاء بملكيتهم الخوف من الموت أو غصص اللعنة الأبدية.

ولكن حتى يشعر الأغنياء بالراحة فى المجمع، كان على طابعه أن يتغير جوهريا، كان لابد من هجر الحقد الطبقى على الأغنياء.

تأذت النفوس البروليتارية المقاتلة فى المجمع، بهذا الجهد فى جذب الأغنياء وتقديم تنازلات لهم كما نعلم من رسالة يعقوب العامة إلى الاثنى عشر سبطا فى الشتات، التى يعود تاريخها لمنتصف القرن الثانى وذكرت سابقا فى هذا الكتاب. يحث يعقوب الأعضاء: "فإنه إن دخل إلى مجمعكم رجل بخواتم ذهب، فى لباس بهى،، ودخل أيضًا فقير بلباس وسخ؛ فنظرتم إلى اللابس اللباس البهى، وقلتم له اجلس أنت هنا حسنا، وقلتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس أنت هنا تحت موطئ قدمى: فهل لاترتابون فى أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة؟... وأما انتم فأهنتم الفقير..... ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية" (2/2- 9).

ثم يهاجم بعدئذ هؤلاء الذين يتطلبون من الأغنياء قبولا نظريا للمذهب فقط، وليس أن يعطوا نقودهم:

"ما المنفعة ياإخوتى إن قال أحد إن له إيمانا ولكن ليس له أعمال؟ هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟ إن كان أخ وأخت عريانين، ومعتازين للقوت اليومى، فقال لهما أحدكم، امضيا بسلام، استدفيا واشبعا؛ ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد فما المنفعة؟ هكذا الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميت فى ذاته " "(2/41- 71).

لم يتغير أساس التنظيم بالطبع بسبب هذا التقدير للأغنياء، بقى الأساس نظريا وعمليا غير متغير. ولكن واجب إعطاء كل مايملكه المرء قد استبدل بضريبة طوعية مفروضه ذاتيا، غالبا مالاترقى سوى لهبه صغيرة.

أحدث إلى حد ما من رسالة يعقوب هو الدفاع **apologeticus** (عن العقائد المسيحية) لترتليان (من المحتمل حوالى 051- 061ب.م) تصف هذه الوثيقة أيضًا تنظيم المجمع:

"حتى اذا كان يوجد نوع من المالية المشتركة، فهى ليست مكونة من رسوم. لأنه هكذا فقد عقدنا اتفاقا لعبادتنا. كل منا يضع كمية صغيرة يوما فى الشهر، أو حينما يرغب؛ وفقط إذ هو يرغب وإذا كان قادرا، لأنه ليس هناك إجبار فى هذا الأمر، كل واحد يسهم بإرادته الحرة، هذه النقود، إذا جاز القول، ودائع التقوى. إنها لاتنفق على المآدب أو فترات الشراب أو بيوت الأكل التى لانفع فيها، وإنما لإطعام ودفن الفقراء، لصالح الأولاد والبنات الذين ليس لديهم والدين أو نقود، فى دعم العجائز غير القادرين على التجول، وكذلك للناس الذين تحطمت سفنهم أو الذين ربما كانوا فى المناجم أو منفيين فى الجزر أو السجن - مادامت فاقتهم بسبب مصاحبتهم للرب، وهم أنفسهم مستحقون لأن يقام أودهم باعترافهم".

ويواصل ترتليان: "نحن الذين نشعر بأنفسنا متحدين قلبا وروحا، ليست لدينا صعوبات بشأن جماعية الطيبات؛ لدينا كل شيء مشترك، عدا زوجاتنا؛ تتوقف الجماعية هناك، حيث الآخرون وحدهم يمارسونها" [1].

تم الاحتفاظ بالشيوعية من ثم نظريا، وبدا أن تطبيقاتها الأكثر صرامة قد تلطفت فى الممارسة. ولكن دونما وعي فإن كامل طابع المجمع، الذى تكيف أصلا لمجرد الأوضاع البروليتارية، كان يتغير بسبب التقدير المتزايد للاغنياء. تلك العناصر التى حبذت تجنيد الأعضاء الأغنياء كان عليها أن تكافح ليس فقط الحقد الطبقى للمجمع، وانما أن تغير أيضًا عملياته الداخلية بعدة طرق.

بالرغم من أن الشيوعية قد ضعفت كثيرا، بقيت الوجبات المشتركة الرابطة الأقوى التى توحد كل الأعضاء. كانت الترتيبات الخيرية مطبقة فقط فى حالات

---

3 مقتبس فى هارناك، **توسع المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى**، لندن ونيويورك، 1904- 6، المجلد الأول، ص ص 189- 190. انظر بفليدرر، المسيحية الأولية، المجلد الرابع، ص 479.

معزولة من العوز، التى كان كل الأعضاء معرضين لها على أية حال. ولكن الوجبة المشتركة أشبعت الحاجة اليومية لكل عضو. هذه الوجبة كان يشهدها كل المجمع؛ لقد كانت المركز الذى دارت حوله كل حياة المجمع.

ولكن لم يكن للوجبة المشتركة أى مغزى كوجبة، فى حالة الأعضاء الأثرياء. لقد كان لديهم طعام وشراب أفضل فى بيوتهم. إن الوجبة البسيطة، وغالبا الرديئة قد آذت بالتأكيد حاسة الذوق عندهم. لقد أتوا إلى هذه الوجبات بغرض المشاركة فى الحياة المجمعية، للحصول على نفوذ داخلها، وليس من أجل ملئ معدهم. ذلك الذى عنى إشباع حاجة عضوية للآخرين، عنى بالنسبة لهم إشباع حاجة روحية فقط؛ كانت المشاركة فى الخبز والنبيذ أداء رمزيا محضا. حيث تزايد عدد الأثرياء فى المجمع، كان هناك زيادة أيضًا فى عدد هؤلاء المشاركين فى الوجبات المشتركة الذين كانوا مهتمين فقط بالتجمع ورموزه، وليس بالأكل والشرب. من ثم، فصلت فى القرن الثانى، الوجبات العامة الفعلية للأعضاء الأفقر عن الوجبات الرمزية المحضة والمخصصة لكل المجمع. وفى القرن الرابع، بعد أن أصبحت الكنيسة القوة المهيمنة فى الدولة، استبعدت الوجبات من النوع الأول من منازل اجتماعات المجمع، والكنائس. لقد أهملت أكثر فأكثر، حيث الغيت فى مجرى القرون التالية. اختفى هكذا كلية الملمح الأكثر بروزًا للشيوعية العملية من المجمع المسيحى، واحتل مكانه العمل الخيرى على سبيل الحصر، والعناية بالفقراء والضعفاء، الذي بقي حتى اليوم، على نطاق أقل توسعا لحد كبير، على أية حال.

لم يبق هناك شيء فى المجمع يمكن أن يؤذى الأغنياء؛ لقد كف عن أن يكون مؤسسة بروليتارية. الأغنياء الذين كانوا مستبعدين كلية بصفة أصلية من "مملكة الرب" إذا لم يتخلوا عن ممتلكاتهم للفقراء، قد يلعبون الآن نفس الدور فى هذه المملكة كما فى "عالم الشيطان"، وقد استغلوا بوفرة هذه الميزة.

لم تكن التعارضات الطبقية القديمة هى التى أحييت مرة أخرى فى المجمع المسيحى، وإنما نشأت طبقة مهيمنة جديدة فى الأخير، بيروقراطية جديدة بقائد جديد، الأسقف، الذى سوف نتعرف عليه قريبا جدا.

لقد كان المجمع المسيحى، وليس الشيوعية المسيحية، هى التى ثنى لها أباطرة روما أخيرا ركبهم. لم يكن انتصار المسيحية هو ديكتاتورية البروليتاريا، ولكن دكتاتورية السادة التى أنشأتها فى مجمعها الخاص.

أبطال وشهداء المجامع الأولى، الذين تخلوا عن ممتلكاتهم، عن عملهم، عن حياتهم، من أجل تحرير الفقراء والبؤساء، قد وضعوا الأساس فحسب لنمط جديد من الطغيان والاستغلال.

ج- رسل، وأنبياء ومعلمون

لم يكن لدى المجمع أصلا مسئولين ولاتمييزا بين أعضاءه. كل الأعضاء، ذكورا أو إناثا، قد يعينوا كمعلمين ومحرضين، إذا شعروا بأن لديهم القدرة. تحدث كل منهم بصراحة "وفقا لنوره"، أو كما صيغ فى تلك الأيام، كيفما حَرَّكه الروح القدس. واصل أغلبهم أيضا، بالطبع، تجارته الخاصة، ولكن عددا كبيرا، ممن نالوا وضعا خاصا، باعوا ممتلكاتهم وكرسوا أنفسهم للتحريض كلية باعتبارهم رسلا وأنبياء. وكانت النتيجة تمييزا فئويا class جديدا.

نشأت فئتان الآن داخل المجمع المسيحى: الأعضاء العاديون، التى كانت شيوعيتهم العملية مطبقة فقط على الوجبات المشتركة وترتيبات الرفاه العام للمجمع: التكليف بالأعمال، تقديم المساعدة للأرامل واليتامى، وكذلك للسجناء، تأمين ضد المرض، معاشات الوفاة.

ولكن هؤلاء الذين طبقوا الشيوعية تماما كانوا يعتبرون أشخاصا "مقدسين" أو ""كاملين"؛ هؤلاء تخلوا عن الملكية والزواج الأحادى، مقدمين كل ممتلكاتهم للمجمع.

كان هذا بادرة جيدة وأعطى هذه العناصر الردايكالية، كما تشير إلى ذلك أسمائهم بذاتها وضعا عظيما فى المجمع؛ وقد حركهم شعور بالتفوق على الرفاق الآخرين وعاملوا أنفسهم كنخبة مهيمنة.

وهكذا كان الشكل الراديكالى للشيوعية هو ما أنتج أرستقراطية جديدة.

مثل أى أرستقراطية أخرى، فإن الأخيرة، لم تكتف بادعاء حق قيادة بقية الجماعة، وإنما حاولت أيضًا أن تستغل الجماعة.

بعد كل شيء، كيف سيعيش "المقدسون" بعد أن تخلوا عن كل وسائل الإنتاج ومخازن السلع التى امتلكوها؟

يمكن لهم أن يلجأوا فقط للعمل العرضى، مثل حمل الطرود أو العمل كمراسلين سعاة وما أشبه، أو إلى التسول.

كان أكثر الأشياء طبيعية هو كسب العيش بالتكفف من رفاقهم ومن المجامع نفسها، الذين لم يكونوا ليسمحوا لرجل ذو قيمة أو امرأة ذات قيمة أن تهلك جوعا، خاصة إذا كان هذا العضو الجدير بالتقدير امتلك موهبة الدعاية؛ لم تتطلب هذه الموهبة آنئذ معرفة من الصعب اكتسابها، وإنما مزاجا وعقلا فطنا، وحضورا للبديهة.

نحن نجد بولس بالفعل ينتقد الكورنثيين ويذكرهم أن المجمع مضطر أن يعفيه مع كل الرسل الآخرين من العمل اليدوى، وأيضا أن يعيلهم:

"ألست أنا رسولا؟ ألست أنا حرا؟ أما رأيت يسوع المسيح ربنا؟.... ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول باخت زوجة. كباقى الرسل وأخوة الرب وصفا. أم أنا وبرنابا وحدنا ليس لنا سلطان أن لانشتغل؟... أو من يرعى رعية ومن لبن الرعية لا يأكل؟.... فإنه مكتوب فى ناموس موسى، لاتكم ثورا دارسا. ألعل الله تهمه الثيران؟ أم يقول مطلقا من أجلنا؟"

ثور الله الدارس يعنى نحن: هذا هو مغزى كلمة بولس. لايشير هذا المقطع بالطبع للثيران التى تدرس قشا فارغا. يواصل الرسول:

"إن كنا نحن قد زرعنا لكم الروحيات، أفعظيم إن حصدنا منكم الجسديات؟ إن كان آخرون شركاء فى السلطان عليكم أفلسنا نحن "بالأولى" (الرسالة الأولى للكورنثيين 9/7- 12)

قد نلاحظ عرضا، أن الجملة الأخيرة، تشير أيضًا للطابع الشيوعى للمجامع المسيحية الأولى.

بعد هذا الالتماس لطيبات الحياة من أجل الرسل، يصرح بولس بأنه لايتحدث عن نفسه، وانما من أجل الآخرين؛ هو لايطلب شيئا من الكورنثيين. ولكنه يسمح لمجامع أخرى أن تعوله: "سلبت كنائس أخرى، آخذا أجرة منهم (όψώνιον) لأجل خدمتكم... لأن احتياجى سده الأخوة الذين أتوا من مكدونية" (الرسالة الثانية إلى الكورنثيين 8/11).

ولكن هذا لايغير من حقيقة أن بولس يؤكد على واجب المجمع فى الاعتناء ب"مقدسه"، الذى لايقر بالالتزام بالعمل.

الأثر الذى خلفته هذه الشيوعية المسيحية فى عقول غير المؤمنين واضح من قصة بيريجرينوس بروتيوس، التى كتبت فى 165 ب.م، من قبل لوسيان. لوسيان الساخر ليس بالطبع مراقبا غير متحيز، وهو يروى كثيرا من الثرثرات الخبيثة من تنويعة

بعيدة الاحتمال، منها على سبيل المثال أن بيريجرينوس قد ترك مدينته الأم، باريوم على الهيلسبونت، لأنه قتل أبيه. ومادام لم يوجه إليه اتهام قضائي أبدا فى المحكمة يخص هذا الانتهاك، فإن الأمر على الأقل مشكوك فيه تماما.

ولكن بعد أن طبقنا المحاذير الضرورية على رواية لوسيان، مازال لدينا مايكفى مما له اهمية عظيمة لأنه لايظهر فقط كيف تأثر الوثنيون بالمجمع المسيحى، وإنما يقدم أيضًا لمحات عن الحياة الفعلية للأول.

بعد أن قام لوسيان بإطلاق عدد من أكثر التصريحات خبثا حول بيريجرينوس. يروى كيف أصبح الأخير منفيا طوعا بعد أن قتل أبيه وارتحل فى العالم:

"أصبح ملما أيضًا فى هذا الوقت بحكمة المسيحيين المثيرة للإعجاب بالتداخل مع كهنتهم وكتبهم فى فلسطين. سرعان ماظهروا مجرد أطفال بالمقارنة معه، لقد أصبح نبيهم؛ المتحدث فى مآدبهم (θιασάρης)، رئيس المعبد (لايميز لوسيان بوضوح بين اليهود والمسيحيين، ك)، الجميع فى شخص واحد؛ علق على عدد من الكتابات وفسرها لهم، وكتب عددا منها بنفسه، باختصار، اعتبروه الها، جعلوه مشرعهم ونصبوه قائدا لهم. بالطبع، مازالوا يوقرون الرجل العظيم الذى صلب فى فلسطين، لأنه أدخل الدين الجديد (τελετήν) [1] لهذا السبب أعتقل بيريجرينوس والقى به فى السجن، الأمر الذى أعطاه مكانه خاصة بقية حياته، زيادة على ذلك أضفى عليه عادات كذبه ورغبته فى الشهرة، التى أصبحت العاطفة المهيمنة عليه".

"حين كان ملقى فى السجن، اعتقد المسيحيون أن هذا سوء حظ عظيم، ولم يألوا جهدا فى مساعدته على الهرب، وحيث وجدوا أن هذا مستحيل غمروه بكل عناية ممكنة واهتمام. بدئا من الصباح الباكر يمكنك أن ترى النساء العجائز، الأرامل واليتامى، جالسين خارج السجن بينما شيوخهم يرشون الحراس ويقضون الليل معه. كانوا يأتون له بكثير من الطعام، ويتبادلون خرافاتهم المقدسة، والعزيز بيريجرينوس،

---

4 هذه الجملة مناقضة للفكرة، ويمكن أن تثار اعتراضات اخرى ضدها، خاصة كلمة "بالطبع"(γοῦν). "اضف إلى ذلك، فإن سويداس مؤلف معجم من القرن العاشر، يصرح بصراحة ان لوسيان قد "شوه المسيح "نفسه" فى سيرته عن بيريجرينوس. ولكن لايوجد مثل هذا المقطع فى التغيرات التى حفظت. يبدو من المعقول أن نبحث عن مثل هذا المقطع فى الجملة الآنفة، وان نفترض ان هذا كان الموضع الذى سخر فيه لوسيان من المسيح، الذى شهر بالنفوس الورعة، واغراهم بتغيير المقطع إلى عكسه حين نسخه. فى الواقع، يفترض عدد من الدارسين أن هذه الجملة فى شكلها الراهن هى تشويه مسيحى.

كما كانوا لايزالون يسمونه، كان سقراطا جديدا فى عيونهم، ممثلين معينين من المجامع المسيحية اتوا حتى من المدن الأسيوية من أجل مساندته، ولمساعدته فى المحكمة، ولتعزيته. فى حالات كهذه، التى تتدخل فيها أخوتهم، يظهرون حماسا لايصدق، باختصار، لايدخرون ثروة. لقد تلقى بيريجرينوس أيضًا نقودا كثيرة منهم بسبب سجنه، ولم يكن ماحصل عليه بالقليل لذلك.

"لأن هؤلاء البؤساء الحزانى يعيشون مقتنعين بأنهم سوف يكونون جميعا خالدين ويعيشون إلى الأبد، لذلك فهم يحتقرون الموت وغالبا مايسعون إليه طوعا. أضف إلى ذلك، فإن مشرعهم الأول قد صَوَّر لهم انهم جميعا قد أصبحوا أخوة منذ أن هجروا الآلهة الهيلينية، وعبدوا معلمهم (σοφιστήυ) ذاك المصلوب وعاشوا وفق شرائعه؛ من ثم فإنهم يقدرون كل الأشياء باعتبارها غير مهمة، معتبرين إياها ممتلكات مشتركة (κοινα ήγούνται) دون أن يكون لديهم أى سبب وجيه لهذه النظرة. إذا ما زارهم أفاق ذكى، قادر على استغلال الوضع، سرعان ما سوف يصبح غنيا جدا، بسبب قدرته على أن يخدع بمظهره الكاذب هذه الجماهير الساذجة".

بالطبع قد لايؤخذ كل هذا حرفيا؛ من المحتمل أنه ليس أكثر صدقا من حكايات الكنوز التى يراكمها المحرضون الاشتراكيون من ملاليم العمال. كان على المجمع المسيحى أن يصبح أولا أغنى مما كان، قبل أن يصبح أحد غنيا منه. ولكن يحتمل أن يكون من الحقيقى أنه فى ذلك الوقت اعتنى جيدا بمحرضيه ومنظميه وقد استغل الزملاء عديمو الضمير هذا الوضع. ويجب أن نلاحظ أيضًا مايتضمنه هذا فى العلاقة بالشيوعية فى المجمع.

يخبرنا لوسيان عندئذ أن حكومة سوريا حررت بيريجرينوس لأن الأخير بدا لاأهمية له. عاد بيريجرينوس على ذلك إلى مدينته الأم، حيث وجد أن ميراثه قد تناقص إلى حد بعيد. على أية حال، مازال لديه قدر كبير من النقود، اعتبره أتباعه ضخما، وقد قدره حتى لوسيان، بشكل ملائم، بخمسة عشر تالنت (17000 جنيه إسترلينى). وقد، أعطى هذا المبلغ لسكان مدينته الأم، حتى يحرر نفسه من الاتهام بقتل أبيه:

"لقد تحدث فى الجمعية الشعبية للباريين parians: كان قد بات لديه شعر طويل، ارتدى عباءة قذرة، وتحلوق بحقيبة، وحمل عصا فى يده، وقد خلق بصفة عامة انطباعا مسرحيا للغاية. وقد ظهر امامهم فى هذه الثياب وأعلن أن كل الأملاك التى تركها له والده ستكون ملكية الناس. حين سمع الناس هذا، الزملاء الفقراء الذين

دكان يسيل لعابهم على القسمة، صاحوا على الفور بأنه وحده كان صديقا للحكمة والأسة، وانه وحده خلف ديوجين وكراتيس. وهكذا ختمت أفواه الأعداء، ومن يتذكر حادثة القتل كان سيذبح على الفور".

"انطلق فى رحلته الآن كرحال لا بيت له، ويمده المسيحيون للمرة الثانية بوفرة من النقود للسفر ويتبعونه فى كل مكان، ولايسمحون له بأن يعانى أى حاجة. وقد شق طريقه هكذا لبعض الوقت" [1].

ولكنه قد استبعد أخيرا من المجمع، لسبب مزعوم بأنه أكل طعاما محرما. وقد حرم هكذا من وسائل عيشه، وحاول أن يستعيد أملاكه، الأمر الذى لم يفلح فيه. بوصفه فيلسوفًا كلبيًا وناسكًا متسولاً، تجول الآن عبر مصر، إيطاليا، بلاد الإغريق، ووضع أخيرا نهاية لحياته فى أولمبيا، مستهديًا بنمط الألعاب، فى حضور جمهور دعاه لهذا المشهد، بأن وثب بطريقة مسرحية فى محرقة فى منتصف الليل، على ضوء القمر.

من الواضح أن العصر الذى ظهرت فيه المسيحية كان غنيًا بالمخلوقات الشاذة. ولكنه سوف يكون من الظلم أن نعتبر رجالاً مثل بيريجرينوس محتالين فقط، موته الطوعى وحده دليل على العكس. يتطلب الانتحار بالتأكيد باعتباره إيقافًا إعلانيًا للحياة ليس فقط إحساسا لاحدود له باللاجدوى وحب الأحاسيس، وإنما أيضًا قدرا من الاحتقار للعالم والاشمئزاز من الحياة، وإلا وجب أن نصنفه كجنون كلية.

إذا لم يكن بيريجرينوس بروتيوس، كما صوره لوسيان، ليس بيريجرينوس الحقيقى، وإنما كاريكاتير، فإن الكاريكاتير ذكى. إن جوهر الكاريكاتير ليس مجرد تشويه للمظهر، ولكن تأكيد أحادى الجانب ومبالغة فى العناصر المحددة والمميزة. قد لايكون رسام الكاريكاتير الحقيقى مجرد مهرج خيالى، فهو لابد وأن يخترق الأشياء ويدرك العناصر الأساسية وذات الدلالة فيها.

وهكذا أكد لوسيان أطوار بيرجرينوس تلك التى كانت ستصبح هامة لكل فئة "المقدسين والكاملين" التي كان ممثلها. ربما حفزتهم أكثر الدوافع اختلافا، وهي أحيانا رفيعة، وأحيانا دوافع حمقاء، تبدو غير أنانية لأقصى حد بالنسبة لهم، ولكن خلف موقفهم الكلى نحو المجمع كان هناك بالفعل الاتجاه المستغل الذى لاحظه

5 لوسيان، موت بيريجرينوس، 11- 16.

لوسـيان. ربمـا كـان لايـزال اغتنـاء "المقدسـين" المفقـرين بشـيوعية المجمـع فـى أيامـه مبالغة، إلا أنه سرعان ما كان ما سيصبح واقعا، واقـع تجـاوز وراءه نهائيًا أفظ مبالغـات الساخر عن مرحلتها الباكرة.

يضـع لوسـيان أشـد توكيـد علـى "الثـروة" التـى حازهـا الأنبيـاء؛ وآخـر، معاصـر للوسيان، يؤكد جنونهم.

سيلسوس يصف "كيف يتنبأون فى فينيقيا وفلسطين":

"هنـاك كثيرون، بـالرغم مـن أنهـم ليسـوا ذوى سمعـة أو اسـم، يتصـرفون عنـد أدنـى إثارة وبـأكبر سـهولة، داخـل وخـارج الأمـاكـن المقدسـة، كمـا لـو كـان قـد غشـيهم وجـد نبـوى؛ آخـرون يتسـكعون كمتسـولين، يـزورون المـدن والمعسـكرات الحربيـة، يقـدمون نفـس المشهد. كل منهم يملك الكلمات على طرف لسانه ويستعملها مباشرة: "أنا إلـه، أو ابـن الله"، أو "روح "الله". لقـد جئـت لأن خـراب العـالم مـا انفـك يقـترب، وأنـتم أيهـا البشـر ذاهبون إلى الدمار بسبب إثمكم. ولكن سوف أخلصكم، وسرعان ماترونني آتيا مـرة أخـرى بقـوة سماويـة! طوبـى لمـن يبجلنـى الآن. سـوف أرسـل كـل الآخـرين إلـى الجحـيم الأبـدى، المـدن وكـذلك الأريـاف وسـكانها. الـذين لـن يعترفـوا الآن بـالهلاك الـذى يتوعـدهم، سـرعان ماسـيغيرون رأيهـم بـلا جـدوى وحسـرة! ولكـن هـؤلاء الـذين آمنـوا بـى، سـوف أحفظهم إلى الأبد. يضيفون لتلك التهديدات الطنانـة كلمـات فضـولية، نصـف بلهـاء غير متماسكة مطلقا قد لايفهم معناهـا مـن قبـل أى إنسـان، مهمـا كـان ذكيـا، شـديدة الغموض وفارغة؛ ولكن أول مغفل أو مشعوذ يسمعها يستطيع أن يفسرها علـى هـواه..... هـؤلاء الأنبيـاء المزعـومين الـذين سمعـتهم أكثـر مـن مـرة بـأذنى هـاتين قـد اعترفـوا بضعفهم لى، بعد أن أقنعهتم، واعترفوا هم أنفسهم بأنهم قد اخترعوا كل كلماتهم "الغامضة" [1].

هنـا مـرة أخـرى نحـن نتعامـل مـع التركيـب اللطيـف للمحتـال والنبـى، ولكـن مـرة أخـرى سـوف يكـون مـن المغـالاة إذا وصـفنا العمـل بمجملـه باعتبـاره خـداعا. إنـه يشـير فحسب إلى وضع عام للسكان قدم حقلا طيبا لأنشطة المخادعين، ولكـن الـذى قـدم سـندا أيضًا لظهور حالات واقعية من مشاعر مبالغ فيها ووجدية فى عقول أثيرت بسهولة.

من المحتمل أن الرسل وكذلك الأنبياء كانوا متشابهين فى هذا الصدد. ولكنهم

---

6 اقتبسه هارناك فى طبعته الخاصة ب مذهب الرسل الإثنى عشر.
(Die lehre der zwölf Apostel), p 130 ff.

اختلفوا فى جانب هام واحد: الرسل لم يكن لهم موطن إقامة دائم؛ لقد ارتحلوا بلا مأوى الذى منه اتى اسمهم (ἀπόστολος، رسول، رحال، مسافر بحر)؛ الأنبياء من ناحية أخرى، كانوا "المشهورون المحليين". لابد وأن فئة الرسل قد تطورت أولا. بينما كان المجمع لايزال صغيرا، لم يكن بمقدوره أن يعول بشكل دائم محرضا. بمجرد أن تستنفد وسائل إعالته، كان عليه أن يذهب لمكان آخر. وبينما كان عدد المجامع صغيرا، كان الواجب المهم هو تأسيس مجامع جديدة فى المدن التى ليس بها مجمع بعد. كان توسع التنظيم فى حقول جديدة، لم تمس حتى الآن، وإبقاء صلة بينها، المهمة العظمى لهؤلاء المحرضين الرحالين، الرسل. إنهم مسئولون بصفة خاصة عن الطابع الأممى للتنظيم المسيحى، الذى أسهم كثيرا فى دوامه. يمكن لتنظيم محلى أن يدمر، لأن ليس له دعما خارجيا. لقد كان ممكنا بالكاد، بالموارد التى كانت عندئذ تحت تصرف سلطة الدولة، أن تضطهد كل المجامع المسيحية فى كل أجزاء الإمبراطورية. لقد بقيت دائما هناك قلة استطاعت تقديم المساعدة المادية للمضطهدين، والتى بحث عندها المضطهدون عن مأوى. كان هذا يعود قبل كل شيء للرسل الذين كانوا يتحركون دوما، والذين لابد وأن عددهم فى بعض الأوقات كان معتبرا.

لم يتمكن المحرضون المحليون، المعنيون تحديدا بالعمل التنظيمى من الظهور إلى أن حازت مجامع معينة حجما أتاح لها وسائل الحفاظ على مثل هؤلاء المحرضين بشكل دائم.

كلما كان عدد المدن التى تضم مجامع مسيحية أكبر، وكلما كانت عضوية الأخيرة أكبر، كلما ازدهر الأنبياء، وبات حقل نشاط الرسل أصغر، الذين اشتغلوا أساسا حتى الآن فى المدن التى لا تحتوى على مجامع أو على مجامع صغيرة فحسب، تدهورت مكانة الرسل بالضرورة. ولكن لابد أنه كان هناك نوع من التعارض بينهم وبين الأنبياء. لأن وسائل المجامع كانت محدودة. كلما أخذ الرسل أكثر لأنفسهم، ترك القليل للأنبياء. لقد جاهد الأخيرون بالضرورة ليحطوا من المكانة المتدهورة بالفعل للرسل، ليحدوا من الهبات التى تخصص لهم، من ناحية أخرى، أن يرفعوا مكانتهم الخاصة وأن يبلوروا ادعاءات محددة على هبات المؤمنين.

هذه الجهود ظاهرة بوضوح فى مذهب (فن التعليم Didache) الرسل الاثنى عشر، الذى اقتبسناه سلفا عدة مرات، وهي وثيقة كتبت بين 135 و170 ب.م. نقرا فى هذه الوثيقة:

"كل رسول يأتى اليك سوف يستقبل باعتباره المعلم. ولكنه لايجب أن يبقى أكثر من يوم واحد؛ يومان على الأكثر. ولكنه إذا بقى لثلاثة أيام، فهو نبى كاذب. وحين يغادرك الرسول، فلن يتلقى شيئا عدا مايحتاجه من الخبز فى رحلته إلى محطته التالية. ولكنه إذا طلب نقودا، فهو نبى زائف".

"لاتغوى ولاتختبر اى نبى يتحدث فى الروح لأن كل خطية سوف تغفر اما هذه "الخطية فلن تغفر. ولكن ليس كل إنسان يتحدث فى الروح نبى، وانما من كان له سلوك المعلم فقط، ومن ثم فإن النبى والنبى الزائف يمكن ان يميزا بسلوكهما. وليس هناك نبى، مدفوع بروح الله، يطلب وجبة (يقول هارناك: من أجل الفقير) سوف يتقاسم فيها إلا إذا كان نبيا زائفا. ولكن كل نبى يعلم الحقيقة هو نبى زائف إذا لم يمارس مايبشر به. وكل نبى، مختبر وصادق، يتصرف باحترام نحو الأسرار الأرضية للكنيسة، ولكنه لايعلم الآخرين أن يقوموا بما يقوم به هو نفسه؛ لاتحكم عليه بنفسك؛ لأن دينونته بيد الله. تصرف الأنبياء (المسيحيون) القدامى هكذا دائما".

يحتمل أن هذا المقطع في الحقيقة يحتوى على إشارة إلى الحب الحر، الذى كان سيسمح به للرسل، اذا لم يسألوا المجمع أن يحاكى مثالهم، كما رأينا سلفا.

ونقرأ المزيد:

"من يقول فى الروح؛ اعطنى نقودا أو شيئا ما آخر، لاتلتفت إليه؛ ولكن إذا طلب هبات لمعوزين آخرين، لايدينه أحد".

"ولكن كل إنسان يأتى باسم الرب (بمعنى آخر، كل رفيق، ك)، دعه يدخل، ولكنك سوف تختبره وتميز الصادق من الزائف، لأنه يجب أن يكون لك فهم. إذا كان الآتى الجديد زائرا عابرا، ساعده، ولكنه لن يبقى أكثر من يومين أو ثلاثة معك على الأكثر. إذا رغب فى أن يستقر بينكم، دعه يعمل ويأكل، إذا كان حرفيا. ولكن إذا لم يكن يعرف تجارة، انظر (للمسألة) حسب علمك بأنه لن يعيش مسيحى عاطلا بينكم. إذا لم يقبل هذا الشرط، فإنه واحد ممن يتكسبون من المسيح. تجنب مثل هذا".

لقد كان من ثم يعتبر ضروريا بالفعل أن يراعى أن المجمع لم يكن يكتسحه ويستغله متسولين من أماكن أخرى. ولكن كان على هذا أن يطبق فقط على المتسولين العموميين: "ولكن كل نبى حقيقى يرغب فى أن يقيم بينكم جدير بما يقيم أوده.. بالمثل، معلم حقيقى، مثل أى عامل جدير بما يقيم أوده. كل بواكير ثمارك ومعاصر خمرك ودراس الحنطة، من ماشيتك وخرافك، سوف تأخذها وتعطها

للأنبياء، لأنهم رؤساء كهنتك. ولكن إذا لم يكن عندك نبى اعطها للفقراء. حين تصنع فطيرا، خذ القطعة الأولى منه وقدمها وفقا للوصايا. وبالمثل حين تفتح وعاءا للخمر أو الزيت، خذ الدفقة الأولى واعطها للأنبياء. ولكن من النقود واللباس والممتلكات الأخرى، خذ نصيبا حسب تقديرك وقدمه وفقا للوصايا".

يعامل الرسل بغاية الجور فى هذه التعليمات. ليس من الممكن بعد أن يقمعوا تماما، ولكن المجمع الذى قدموا فيه أنفسهم عليه أن يرسلهم بأقصى سرعة ممكنة. بينما رفيق عادى عابر قد يطلب استضافة المجمع ليومين أو ثلاثة، الرسول التعس يحصل فقط على يوم أو يومين. ولكنه لايستطيع أن يطلب نقودا على الإطلاق.

النبى، من ناحية أخرى، "جدير بما يقيم أوده" ! يجب أن يعال من صندوق المجمع. ولكن إضافة إلى هذا، فإن المؤمنين مضطرين أن يسلموا إليه كل بواكير الثمار، الخمر، الخبز، الزيت والقماش، حتى من دخلهم النقدى.

يتوافق هذا تماما مع الوصف الذى قدمه لوسيان فى نفس الوقت الذى كتب فيه المذهب (فن التعليم **Didache**)، عن الحياة المزدهرة لبيريجرينوس الذى كان قد أعلن نفسه نبيا. بينما كان الأنبياء يزيحون الرسل هكذا، كانوا هم أنفسهم يواجهون منافسة جديدة ممثلة فى **المعلمين**، الذين كانت أهميتهم حين كتب المذهب ضئيلة تماما حتى أنهم قد ذكروا عرضا فقط.

بالإضافة لهذه العناصر الثلاثة، كان هناك أيضًا آخرون نشطون فى المجمع الذين لم يذكروا فى المذهب **Didache**. يذكرهم بولس جميعا فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين (28/12):

"فوضع الله اناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قواتٍ وبعد ذلك مواهب الشفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة".

من تلك، **أعوانا** وتدابير أصبحت غاية فى الأهمية، ولكن ليس تلك الخاصة بالشعوذة والشفاء، التى من المحتمل أنها لم تأخذ، فى المجمع أية أشكال ميزتها عن ماهو جارٍ بصفة عامة فى تلك الأزمنة. إن ظهور المعلمين مرتبط بدخول العناصر الغنية والمثقفة إلى المجمع. كان الرسل والأنبياء إناسا جهلة واصلوا الكلام، دون أن يدرسوا أبدا موضوعات ملاحظاتهم. من المحتمل أن المثقفين قد تعالوا فحسب على هذا. سرعان ماوجد أشخاص فى عداد الأخيرين انجذبوا إما بالطبيعة الخيرية للمجمع، أو بقوته، أو يمكن بالطابع العام للمذهب المسيحى، وحاولوا أن يرتفعوا

بالأخير إلى مرحلة أعلى مما كان يعرف آنذاك كعلم، الذى، لاشك، لم يعد يرقى للكثير. أصبح هؤلاء الأشخاص معلمون. لقد كانوا من سعى أولا لملئ المسيحية بروح سينيكا أو فيلون، التى لم يكن لديها قبلا منها الكثير.

ولكن كان ينظر اليهم، بحسد وكراهية من هيئة المجمع، من المحتمل أيضًا من قبل غالبية الرسل والأنبياء؛ ربما لم تكن العلاقة متباينة عن تلك التى بين اليد "الخشنة" عند "الكادح" و "المثقفين" بالرغم من ذلك فقد كان للمعلمين بلا شك أن يؤمنوا مكانة أكبر فأكبر مع تزايد العناصر الثرية والمثقفة داخل المجمع، وأن يتخلصوا فى النهاية من الأنبياء والرسل.

ولكن قبل أن تبلغ الأمور هذا الحد، كانت الفئات الثلاثة قد امتصتها سلطة كانت قد بدأت تتجاوزها جميعا فى القوة، ولكن التى يذكرها المذهب **Didache** عرضا فقط: الأسقف.

د ــ الأسقف

لم تكن بدايات المجامع المسيحية مختلفة فى ظروفها عن الظروف التى أحاطت بكل تنظيم بروليتارى جديد. مؤسسوها، رسلها، كان عليهم أن يديروا كل عمل المجمع بأنفسهم، الدعاية وكذلك التنظيم والإدارة. ولكن مع نمو المجمع، أصبحت الحاجة لتقسيم العمل محسوسة، ضرورة تخصيص وظائف معينة لموظفين محددين.

أولا، جعلت إدارة دخل ونفقات المجمع منصبا مجمعيا منفصلا.

يمكن أن يقوم أى عضو بالدعاية بالطريقة التى يعتقد أنها أفضل. حتى هؤلاء الذين كانوا معنيين على وجه الحصر بالدعاية لم يعهد اليهم، فى القرن الثانى، كما رأينا توا، بهذه المهمة من قبل المجمع. كان الرسل والأنبياء معينين ذاتيا فى مهماتهم، أو كما بدا لهم، فقد تبعوا صوت الله فقط. إن المكانة التى نعم بها الداعية الفرد فى المجمع بغض النظر عما إذا كان رسولا أو نبيا، وكذلك قدر دخله، اعتمدت على الانطباع الذى خلقه، بمعنى آخر على شخصيته.

من ناحية أخرى، إن الحفاظ على الانضباط الحزبى، إذا جاز لنا أن نسميه كذلك، كان مسألة للمجمع ذاته، مادام المجمع كان صغيرا وعرف كل الأعضاء منهم الآخر. بت المجمع نفسه بشأن دخول الأعضاء الجدد، لم يكن مهما من يدير الاحتفال الأولى، الذى كان يتعلق بالتعميد. قرر المجمع نفسه بشأن عمليات الطرد،

حفظ السلام بين الرفاق، قرر بشأن الخلافات التى قد تنشأ بينهم. لقد كان المحكمة التى تحاكم أمامها كل الاتهامات التى تقام من رفاق ضد رفاق. لم يكن المسيحيون أقل شكا فى محاكم الدولة من الاشتراكيين الآن. كانت وجهات نظرهم الاجتماعية أيضًا فى تناقض حاد مع وجهات نظر قضاة الدولة. لقد كان المسيحى يعتبرها خطيئة أن يقف أمام قاضى الدولة بحثا عن حقوقه، خاصة فى حالة تتضمن خصومة مع رفيق. وهكذا فإن جرثومة سلطة قضائية خاصة قد زرعت، سلطة ادعتها الكنيسة دائما على أتباعها، باعتبارها معارضة لمحاكم الدولة. بالطبع، فى هذا الأمر أيضا، شوه تماما طابع القانون الأصلى للكنيسة فيما بعد، لأنه، فى بدايات المجمع المسيحى، فقد دلت محاكمة المتهم من قبل أنداده على إلغاء العدالة الطبقية.

فى رسالة بولس الأولى "الى الكورنثيين (1/6 - 4) نقرأ:

"أيتجاسر منكم أحد له دعوى على آخر، أن يحاكم عند الظالمين، وليس عند القديسين. (يعنى الرفاق)؟ الستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟ فإن كان العالم يدان بكم فأنتم غير مستاهلين للمحاكم الصغرى؟ الستم تعلمون اننا سندين ملائكة؟ فبالأولى أمور هذه الحيوة؟ فإن كان لكم محاكم فى امور هذه الحياة فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة قضاة".

لقد كان لحفظ النظام والسلام فى المجمع فى البداية شكلا بسيطا وصلة ضئيلة بأى منصب محدد أو أى سلطة محددة كما كان للدعاية نفسها.

ولكن تطلب العامل الإقتصادى تنظيما حتى فى مرحلة باكرة، خاصة مادام المجمع لم يكن مجرد تنظيم للدعاية، ولكن منذ البداية أيضًا جمعية للمساعدة المتبادلة.

وفقا لأعمال الرسل، سرعان ما استشعرت الحاجة فى مجمع أورشليم لأن يعهد لرفاق معينين بجمع وتوزيع هبات الأعضاء، خاصة تقديم الوجبات على المائدة. Diakoneo (διακονέω) وهي كلمة تعنى أن يخدم، خاصة على المائدة. من الواضح أن هذا كان أول مهمة رئيسة للشمامسة deacons، حيث كانت الوجبة المشتركة الوظيفة الرئيسية للشيوعية المسيحية الأولية.

نقرأ فى أعمال الرسل:

"وفى تلك الأيام، إذ تكاثر التلاميذ، حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن "أرامـلهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية (παρεθεωρούντο ευ τή διακονία) فدعا الاثنى عشر (كان الرسل فى الواقع إحدى عشر آنئذ، إذا اعتبرنا

الحساب فى الأناجيل حسب قيمته الظاهرية) جمهور التلاميذ وقالوا: لايرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد. فانتخبوا أيها الأخوة سبعة رجال منكم مشهودا لهم ومملوءين من الروح القدس، وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة" (6/1- 3).

يخبرنا التقرير بأن هذا الاقتراح قد نفذ، وهو مايبدو جديرا بالتصديق تماما بطبيعة الحال.

أعفى الرسل من ثم من خدمتهم كنادلين فى قاعة الطعام، التي كانوا مضطرين أصلا للقيام بها بالإضافة إلى الدعاية التى أصبحت عبئا ثقيلا عليهم مع زيادة المجمع. ولكن النادلين المعينين حديثا (الشمامسة) كان عليهم بالضرورة أيضًا أن يقسموا مهماتهم. كانت الخدمة على المائدة وعمليات الخدمة والنظافة الأخرى أمرا مختلفا تماما عن جمع وإدارة اشتراكات الأعضاء. تضمن هذا المنصب قدرا كبيرا من الأمانة، معرفة بالأعمال، وعطفا، مقترنا بالصرامة.

وقد عين من ثم مديرًا على الشمامسة. كان تعيين مدير كهذا أمرا حتميا. كل تنظيم لديه ملكية أو دخل يجب أن يكون له مثل هذا المدير. حمل الموظفون الإداريون والماليون لقب Epimeletes أو Episkopos (ἐπίσκοπος المراقب، المشرف). لقد استعمل نفس الاسم أيضًا فى حكومة المدن لبعض الموظفين الإداريين. هاتش، الذى يتتبع هذا التطور بالتفصيل، ويصفه فى كتاب ندين له بمعلومات كثيرة حول هذا الموضوع [1]، يقتبس من القاضى الرومانى كاريسيوس ما يلى: "الأساقفة (Episcopi) هم هؤلاء الذين يشرفون على الخبز والأشياء الأخرى المشتراة، ويخدمون لأجل المعيشة اليومية لسكان المدينة

(eppiscopi, qui praesunt pani et caeteris venalibus rebus quae civitatum populis at quotidianum victum usui sunt).

كان أسقف المدينة من ثم مديرا رسميا معنى خاصة بالتغذية الملائمة للسكان. لقد كان من الطبيعى إعطاء نفس اللقب لمدير "بيت الشعب"، المسيحى.

لقد قرأنا سلفا عن الخزانة العامة للمجمع، التى ذكرها ترتليان. نحن نعلم من الدفاع الأول لجوستين الشهيد (ولد حوالى 100 ب.م) أن إدارة هذه الخزانة قد عهد بها

---

7 إدرين هاتش، تنظيم الكنائس المسيحية الأولى، ثمان محاضرات ألقيت أمام جامعة إكسفورد، فى عام 1880. لندن، 1882، ص 38. يقتبس كاوتسكى ترجمة ألمانية وتعليق من أدولف هارناك (جيسن 1883) - المترجم عن النص الألمانى.

إلى أمين خاص. يقول ترتليان:

"الأثرياء والراغبون قد يعطون على هواهم من ممتلكاتهم، تجمع الهبات وتودع مع المشرف، يعول الأخير بعد ذلك اليتامى، الذين يعانون الفاقة بسبب المرض أو لسبب آخر، والسجناء والغرباء فى المدينة، ويعنى بكل ذوى الحاجة بشكل عام". جهد كثير، مسئولية كثيرة، ولكن أيضًا سلطة كبيرة وضعت هكذا بين يدى الأسقف.

كان منصب الأسقف فى بدايات المجمع وكذلك مساعديه ووظائف أخرى فى المجمع، مناصب شرفيه، تمارس بلا مكافأة بالاضافة إلى التجارة المنتظمة لكل موظف:

"احتفظ الأساقفة والقسس فى تلك الايام الباكرة ببنوك، مارسوا الطب، زخرفوا كصاغة: فضة، رعوا الخراف، أو باعوا سلعهم فى الأسواق المفتوحة.... القانون الأساسى القائم للمجالس المحلية الأولى حول المسألة هى أن الأساقفة لايجب أن يبيعوا سلعهم بالتجزئة من سوق إلى سوق، ولا أن يستخدموا وضعهم ليشتروا أرخص ويبيعوا أغلى من الناس الآخرين" [1].

ولكن حيث نما المجمع، أصبح من المستحيل تصريف وظائفه الاقتصادية العديدة باعتبارها هواية. بات الأسقف موظفا لدى المجمع وتلقى راتبا مدفوعا.

ولكن هذا جعل توليه للمنصب دائما. لقد كان للمجمع حق إبعاده اذا لم يحقق متطلباته، ولكن من الواضح أنه سوف يحس ببعض النفور من حرمان رجل من منصبه وإبعاده عن مهامه. من ناحية أخرى، تطلبت إدارة أعمال المجمع درجة معينة من المهارة والماما بظروف المجمع، التى يمكن أن تحرز فقط بواسطة نشاط طويل فى المنصب. لقد كان ضروريا، من ثم، من أجل تسهيل تصريف أعمال المجمع، تجنب أى تغيير غير ضرورى فى منصب الأسقف.

ولكن كلما بقى الأسقف أطول فى المنصب، كلما تزايدت بالضرورة مكانته وسلطته: إذا كان كفؤا لمتطلبات المنصب.

لم يبق الموظف الدائم الوحيد للمجمع. لم يكن من الممكن أيضًا أن يمارس منصب الشمامسة دوما كهواية. كان يدفع أيضًا للشمامسة، مثل الأسقف، من مالية المجمع، ولكنهم كانوا مرؤوسيه. الأسقف، الذى كان عليه أن يعمل معهم، كان لهذا السبب يستشار عند تعيينهم. وهكذا كان للأسقف ميزة توزيع الأعمال فى المجمع الأمر الذى

---

8 هاتش، نفس المصدر، ص ص151، 152.

زاد نفوذه بالضرورة.

حيث تزايد المجمع، فقد أصبح من المستحيل له أن يعنى بشئون انضباطه. لم يتزايد فقط عدد الأعضاء، وإنما أيضًا تنوعت مهنهم. بينما شكلوا جميعا فى البداية عائلة واحدة، ألِفَ كل واحد فيها الرفاق الآخرين، واتحد كلهم تماما الواحد مع الآخر فى الفكر والشعور، هكذا مؤلفين نخبة من المتحمسين المضحين بالذات، تغير هذا الشرط تدريجيا مع زيادة المجمع. حصلت أكثر العناصر تباينا على (حق) الدخول. عناصر من طبقات وأقاليم مختلفة، غالبا غريبة ويدون فهم كل منها للآخر، أحيانا معادية حتى كل منها للآخر - مثل العبيد وملاك العبيد - أيضًا عناصر لم تكن مدفوعة بالحماس، ولكن بالحساب الماكر، أن تستغل سذاجة وكرم الرفاق. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك اختلاف فى وجهات النظر - أنتج كل هذا بالضرورة جدالات من كل الأنواع، خلافات لم يكن يمكن أن تحسم غالبا من خلال مناقشة بسيطة فى تجمعات المجمع، ولكن تطلبت بالأحرى أبحاثا طويلة عن الحقائق الفعلية.

من ثم عهد إلى لجنة، لجنة الشيوخ، أو الكهنة بمهمة حفظ الانضباط وحل الخلافات التى تنشأ داخله، وتقديم تقرير للمجمع عن طرد الأعضاء غير الجديرين بالعضوية، ربما أيضًا البت بشأن دخول اعضاء جدد، الذين احتفلت بدخولهم هذه اللجنة بالاحتفال الإستهلالى: التعميد.

الأسقف، الذى كان عالما تحديدا بكل الشئون المجمعية، كان رئيس هذه اللجنة وهكذا حصل على نفوذ على التنظيم الأخلاقى والقضائى للمجمع، حيثما أصبح الكهنة (كلمة كاهن **priest** مشتقه من **presbyter**)، بسبب الحجم المتزايد للمجمع ، موظفيه الدائمين مدفوعى الأجر، فقد وضعوا مباشرة تحت سلطان حارس مالية المجمع، الأسقف، وكذلك كان الشمامسة أيضا.

يمكن للمجمع بسهولة فى مدينة كبرى، أن يصبح كبيرا جدا حتى ليتطلب أكثر من بناء واحد ليأوى تجمعاته. لقد كان مقسما عندئذ إلى مقاطعات، فى كل مقاطعة تجمع.

كان على الشماس أن يقوم على خدمته، بينما فوض الأسقف كاهنًا ليدير التجمع ويمثل الأسقف. كان الحال فى الضواحى والقرى مماثلا. حيث وقعت هذه قريبة من مجمع كمجمع روما أو الإسكندرية، كان نفوذ الأخير طاغيا، ووقع المجمع المجاور مباشرة تحت تأثير المدينة الكبرى وأسقفها، الذى أرسل لهم شمامسته وكهنته.

وهكذا فقد تشكلت تدريجيا بيروقراطية مجمعية تراسها الأسقف، أصبحت مستقلة وقوية أكثر فأكثر. لقد كان على المرء أن تكون له أعظم مكانة فى المجمع حتى ينتخب فى مركز كان يسعى إليه كثيرا. إذا ماتم الحصول على المنصب، فقد أضفى كثيرا من القوة على صاحب المنصب حتى أن أى أسقف ذو ذكاء وقدرة قليلين يمكن أن يفرض إرادته أكثر فأكثر، خاصة فى الأمور الشخصية، وأكثر من ذلك مادامت اتجاهاته قد توافقت من البداية مع (اتجاهات) أغلبية مجمعه.

كانت النتيجة أنه حاز سلطة ليس فقط على الأشخاص الذين قاموا بالوظائف فى إدارة المجمع، وانما أيضًا على مثل هؤلاء الذين كانوا معنيين بالدعاية والنظرية.

لقد رأينا كيف نحى الرسل الأنبياء فى القرن الثانى ولكن كلا من الأنبياء والرسل، دخلوا فى نزاعات متكررة مع الأسقف، الذى لم يكن ليتردد فى مناسبات كهذه بأن يدعهم يشعرون بسلطته المالية والأخلاقية. من المحتمل أنه لم يجد أية صعوبة فى منع الرسل والأنبياء وحتى المعلمين من أن يقيموا فى المجمع حالما كشفوا عن اتجاهات لم ترضيه. ومن المحتمل أن هذا قد جرى مرارًا كثيرة فى حالتى الأنبياء والرسل.

الأساقفة، بمعنى آخر، المسكون بالمال، لم يجر اختيارهم بالطبع بالتفضيل من المتحمسين غير الأرضيين، ولكن من بين الرجال المقتصدين، المولعين بالأعمال، العمليين. هؤلاء الرجال عرفوا قيمة النقود، ومن ثم أيضًا فائدة الحصول على كثير من الأعضاء الأثرياء. إنه من الطبيعى أن نفترض أن هؤلاء الرجال هم من مثلوا المراجعة الانتهازية فى المجمع المسيحى، حتى إنهم جاهدوا لتخفيف الحقد ضد الأغنياء فى المجمع لإضعاف تعاليم المجمع إلى حد يجعل الثرى يشعر أكثر فيه بأنه فى بيته.

لقد كان أثرياء ذلك الزمن هم المثقفون أيضا. إن فعل تكييف المجمع لمتطلبات الغنى والمثقف عنيت إضعافا لنفوذ الرسل والأنبياء وإنقاصا لاتجاههم إلى حد العبث وكذلك لاتجاهات هؤلاء الذين حاربوا الأثرياء من خلال مجرد اللعن. ولكن ترتب هذا الأثر أيضًا على هؤلاء الذين حاربوهم بحماس وبحقد عميق، خاصة ماداموا قد قدموا كل ما يملكون للمجمع، بينما كانوا مازالوا أثرياء، من أجل تحقيق مثالهم الشيوعى الرفيع.

فى الصراع بين الصرامة والانتهازية، انتصرت الأخيرة، بمعنى آخر، كان الأساقفة

منتصرين على الرسل والأنبياء، التى كانت حرية حركتهم، الذى كان حقهم فى الحياة، قد تناقص بشكل محسوس فى المجمع. ازاحهم موظفو المجمع اكثر فأكثر مادام قد كان لكل عضو فى البداية الحق فى أن يقف خطيبا فى تجمع المجمع وأن ينخرط فى انشطة دعائية، قد يقوم موظف فى المجمع أيضًا بنشاط كهذا، الأمر الذى يحتمل أنهم فعلوه على نطاق واسع. إنه من الواضح أن الأعضاء الذين برزوا من الجمهور الذى لا اسم له كمتحدثين معروفين قد كانت لديهم فرصة افضل لأن ينتخبوا لمنصب فى المجمع أكثر من الأعضاء المجهولين كلية. من ناحية أخرى، من المحتمل أن هؤلاء المنتخبين أيضًا كان مطلوبا منهم ان يقوموا بالعمل الدعائى بالإضافة إلى انشطتهم الإدارية والقضائية. من المحتمل أن كثيرا من الموظفين الإداريين كانوا أكثر نشاطا فى الوظيفة الأولى أكثر مما في العمل الذى كان عملهم أصلا، مادام نمو المجمع قد خلق مراكز جديدة أعفت الآخرين. وهكذا فإن الشمامسة قد تمكنوا فى حالات كثيرة من أن يكرسوا انتباها أكثر للعمل الدعائى، إذ كانت وظائفهم فى المجامع الكبيرة قد تولتها مآوى خاصة، ملاجئ اليتامى، بيوت الفقراء، خانات للأعضاء من المدن الأخرى.

من ناحية أخرى، فقد أصبح ضروريا، تحديدا بسبب نمو المجمع ووظائفه الاقتصادية، إعطاء موظفيه بعض التدريب لمنصبهم. لقد كان سيكون الآن مكلفا للغاية وخطرا السماح لكل إنسان باكتساب الحكمة من خلال خبراته الفعلية فقط. تدرب المدد الجديد للموظفين المجمعيين فى منزل الأسقف وهناك صار ملما بواجبات مناصب الكنيسة. حيث كان على الموظفين أن يقوموا بالدعاية بالإضافة إلى عملهم الرسمى أيضا، فقد كان من الطبيعى تدريبهم لهذا العمل أيضًا فى بيت الأسقف، لتوجيههم بشأن تعاليم المجمع.

وهكذا أصبح الأسقف هو المركز ليس فقط للنشاط الاقتصادى، وانما أيضًا الدعائى للمجمع، فالأيديولوجية مضطرة مرة أخرى لأن تركع للشروط الاقتصادية.

لقد تطور الآن مذهب رسمى، اعترفت به ونشرته البيروقراطية المجمعية، التى طبقت إجراءات قمعية أكثر فأكثر على كل المذاهب التى لم توافق عليها.

هذا لايعنى أن المذهب الرسمى كان معاديا دائما للرأى الذكى.

كانت الاتجاهات التى عارضها الأساقفة هي تلك التى تتعلق بالشيوعية البروليتارية الأصلية، المعادية للملكية والدولة. بالاتفاق مع جهل الطبقات الدنيا من

السكان، سذاجتهم، وعدم توافق آمالهم مع الواقع، كانت هذه الاتجاهات تحديدا هي التي ارتبطت بإيمان معين في المعجزات وبحالة عقلية أرفع. إذ أن الكثير قد أنجزته الكنيسة الرسمية في هذا المجال، فإن الطوائف التي اضطهدتها في القرون القليلة الأولى قد تجاوزتها بعيدا في مبالغاتها المجنونة.

لايجب أن يضللنا التعاطف مع المضطهدين، ومقت كل اضطهاد، حتى نعتبر كل معارضة للكنيسة الرسمية، كل شكل من الهرطقة، يمثل بالضرورة حالة عقلية أرفع.

سهلت صياغة مذهب رسمي للكنيسة أيضًا بعض الظروف الأخرى.

إن معلوماتنا ضئيلة بالنسبة للمذاهب التي جرى تعليمها في البدايات الباكرة للمجمع المسيحي. فلا يمكن لنا أن نحكم بواسطة مجرد إشارات، لم تكن واسعة للغاية، وذات طبيعة بسيطة للغاية. بالتأكيد قد لانفترض أنها احتوت بالفعل كل شيء عُرض لاحقا باعتباره تعاليم يسوع في الأناجيل.

بينما قد نذهب بعيدا إلى حد الاعتراف باحتمال أن يكون يسوع قد عاش وصلب، من المحتمل بسبب محاولة انتفاض، فليس هناك عمليا أي شيء آخر يمكن أن يقال عنه. مايروى أنه تعليمه، لا يؤيده إلا دليل غاية في الضآلة، وهو متناقض جدا وشديد الضآلة في أصالته، وملئ جدا بمبادئ أخلاقية مألوفة جرت عندئذ على أفواه كثيرين؛ حتى أنه لايمكن نسبة أدنى أثر بيقين إلى التعاليم الفعلية ليسوع. ففيما يتعلق بها فنحن لانعلم شيئا.

من ناحية اخرى، فإن لنا كل الحق في أن نتخيل بدايات المجامع المسيحية باعتبارها مماثلة لبدايات التنظيمات الاشتراكية، التي تقدم تشابهات عديدة أخرى. لاتكشف لنا نظرة على هذه البدايات أبدا شخصية متفوقة أصبح مذهبها القاعدة للتاريخ اللاحق للحركة، وإنما دائما جرثومة مشوشة، بحث غير متيقن، غريزي وتلمس، من عديد من البروليتاريين، لاأحد منهم بارز بشكل محسوس يفوق الآخرين، كلهم تحركوا للأمام إجمالا بواسطة نفس الاتجاهات، غير أنهم نشروا غالبًا أكثر الانحرافات فردية إثارة للانتباه. مثل هذه الصورة، قدمتها على سبيل المثال بدايات الحركة الاشتراكية البروليتارية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر. وهكذا فإن عصبة العادلين، الاتحاد التالي للشيوعيين، كانت بالفعل مؤسسة لها بعض العمر، قبل أن يعطيها ماركس وانجلز أساسا نظريا محددا في البيان الشيوعي. وهذه

العصبة ذاتها كانت فقط استمرارا لاتجاهات بروليتارية أبكر فى فرنسا وانجلترا. ولولا ماركس وانجلر، لاستمرت تعاليمها فى مرحلة الاختمار لفترة طويلة. إن مؤلفى البيان الشيوعى، قد تمكنا من تأمين مركزهما المهيمن والمحدد بسبب تمكنهما من علم زمنهما فقط.

ليس لدينا مايبين - على النقيض، فإنه مستحيل إطلاقا - أن شخصا مثقفا حقًا قد تراس مهد المسيحية. لقد رويَ بوضوح عن يسوع أنه لم يبز رفاقه، البروليتاريين الصرحاء، فى التعليم. لايشير بولس إلى معرفته الرفيعة، بل إلى موته كشهيد، ولقيامته. خلق هذا الموت انطباعا عميقا لدى المسيحيين.

لايكرر الرسل والأنبياء مذاهب محددة وصلت اليهم من الآخرين، وإنما يتحدثون تماما مثلما تحركهم الروح. انهم يعبرون عن أكثر النظرات اختلافا، المجمع الأولى مليئ بالتشاحن والخلافات.

يكتب بولس إلى الكورنثيين:

"ولكننى إذ اوصى بهذا، لست أمدح، كونكم تتجمعون ليس للأفضل بل للأردا، لأنى أولا، حين تجتمعون للكنيسة، أسمع أن بينكم انشقاقات (σχίσματα) وأصدق بعض التصديق. لأنه لابد أن يكون بينكم بدع، ليكون المزكون (δόκιμοι) ظاهرين بينكم". (الرسالة الأولى للكورنثيين 11/17- 19).

هذه الحاجة لاتجاهات متعددة، بدع (يستخدم بولس كلمة αἱρέσεις) داخل المجمع لم تكن قد اعترفت بها الكنيسة الرسمية فيما بعد بأى حال من الاحوال. يبلغ فى القرن الثانى هذا السعى الضبابى والمتلمس نهايته: هذا المجمع له تاريخ وراءه. وفى مجرى هذا التاريخ خرجت عديداً من مذاهب الإيمان منتصرة، محققة الاعتراف بين الجمهور الأعظم للمجمع. أضف إلى ذلك، يدخل الآن المتعلمون المجمع، من ناحية، يضعون تاريخ ومذاهب الحركة، التى نقلت اليهم شفويا، فى شكل مكتوب، حافظين إياها من تغيرات تالية؛ ومن ناحية أخرى، يدفعون تعاليم المجمع، التي وجدوها بسيطة تماما، إلى مستوى علم زمانهم، الذى مازال متدنيا، مالئين هذه التعاليم بفلسفتهم، جاعلين إياها سائغة للمثقفين أيضا، كما حصنوها ضد اعتراضات النقد الوثنى.

كان على من سيصبح الآن معلما فى المجمع المسيحى أن يمتلك قدرا معينا من المعرفة. لم يستطع الرسل والأنبياء، الذين استشاطوا غضبا حول خطية العالم وتنبأوا بانهياره العاجل فحسب، أن يتنافسوا معهم.

وهكذا فإن الرسل والأنبياء التعساء كانوا مقيدين ومقموعين من كل الجهات. سرعان ماكان على عملهم الضئيل أن يخضع للآلية الضخمة للبيروقراطية المسيحية؛ فاختفوا ولكن المعلمين كانوا محرومين من حريتهم وباتوا خاضعين للأسقف. سرعان ما لم يجرؤ أحد أن يفتح فمه فى تجمع المجمع، الكنيسة [1]، دون إذن مسبق من الأسقف، أى، لاأحد خارج بيروقراطية المجمع، التى كان يديرها الأسقف، بمعنى آخر، الإكليروس [2]، الذى كان سيصبح أكثر فأكثر تميزا عن جهور الأعضاء، غير الإكليركيين [3] ومتخذا مركزا رفيعا. إن مجاز الراعى وقطيعه يصبح شعبيا، والقطيع يعنى قطيعا من الخراف الراغبة فى التعلم حتى أنهم يسمحون لأنفسهم بأن يساقوا وأن يجزوا دون مقاومة. الراعى الأعلى هو الأسقف.

أسهم الطابع الأممى للحركة فى زيادة سلطة الأسقف. لقد كان الرسل سابقا هم الذين حافظوا على الالتحام الأممى للمجامع المختلفة، بسفرهم الدائم بينها. ولكن حيث أن الرسل قد أزيحوا جانبًا، أصبح إيجاد وسائل أخرى للحم وتوحيد المجامع أكثر أهمية. اذا ماظهرت خلافات، تطلبت عملاً مشتركًا أو تنظيمًا مشتركًا فى أى أمر، فسوف تلتقى مؤتمرات المندوبين، مؤتمرات مقاطعات، وحتى مؤتمرات إمبراطورية، بدءا من القرن الثانى.

فى البداية خدمت هذه التجمعات فقط فى المناقشة والاتفاق المتبادل. لم يكن لها أن تصدر قرارات ملزمة. كل مجمع بمفرده شعر بأنه رفيع (المرتبة). أعلن كيبريان فى النصف الأول من القرن الثالث، الاستقلال التام للمجمع. ولكن من الواضح ان الأغلبية لابد وأن سيطرت على المجمع من البداية. حازت هذه الرفعة تدريجيا قوة ملزمة، أصبحت قرارات الأغلبية قانونا لكل المجامع الممثلة، لقد أحلوا جميعا أنفسهم فى جسم واحد متحد. كل ما فقده المجمع الفرد من حرية العمل قد أحرزه الآن فى قوة الحركة ككل.

وهكذا خُلقت الكنيسة الكاثوليكية [4]. أما المجامع التى رفضت أن تنصاع

---

9 الكنيسة، ἐκκλησια، تعنى أصلا تجمعا للناس.

10 الإكليروس κληρος، الارث بوصية، ملكية الرب، إناس الرب، هؤلاء الذين اختارهم الرب.

11 من laos (λάος).

12 كاثوليكية، من holos (ὅλος) كامل، تام، ومن حرف الجر kata (kata) بمعنى، من عهد سحيق، يتعلق ب، يخص katholikos تعنى تختص بالكل؛ الكنيسة الكاثوليكية من ثم هى الكنيسة ككل.

لقـرارات المـؤتمرات (السـينودات، المجـالس) فقـد طـردت مـن تنظـيم الكنيسـة الكاثوليكيـة، واسـتبعدت مـن قبـل الهيئـة المركزيـة. ولكـن الفـرد الـذي طـرد مـن مجمعـه، لا يسـتطع أن يـدخل إلى مجـامع أخـرى. فقـد طـرد مـن كـل المجـامع. ونتائج الطرد أو الحرمان كانت الآن أكثر شدة.

إن حـق طـرد الأعضـاء الـذين عارضـوا أغـراض التنظيم لـن ينكـر بالتأكـيد علـى الكنيسة حينما كانت حزبا معينا أو تنظيما يوجد بجانب أحزاب أو تنظيمات أخرى كثيرة داخل الدولـة، متابعًا هـدفا خاصـا. ولم تكـن لتحـرز هـذا الهـدف إذا كانـت قـد تخلت عن حق طرد اى أحد معارضا لهدفها.

ولكـن باتـت الأشـياء مختلفـة حـين أصـبحت الكنيسـة تنظيمـا يطـوق الدولـة بكاملـها، كـل المجتمـع الأوروبـى، الـذى شـكلت فيـه الأمـم فقـط اقسـاما متعـددة. أصـبح الطـرد مـن الكنيسـة الآن مسـاويا للطـرد مـن المجتمـع الإنسـانى؛ قـد يرقـى إلى عقوبة الإعدام.

الحـق فـى طـرد الأعضـاء الـذين لايعترفـون بـأغراض التنظـيم ضـرورى لتشـكيل وللعمل الناجح لأحزاب محددة فى الدولة من أجل حياة سياسية نشيطة ومثمـرة، مـن ثم، من أجل تطور سياسى صحى؛ ولكنه يصبح وسيلة لمنع تكوينات الحزب، ولجعل كل الحيـاة السياسية والتطـور السياسـى مستحيلا، إذا، بـدلا مـن أن توظفـه أحـزاب متعـددة فى الدولة، يصبح وظيفة للدولة ذاتها، أو لتنظيم بحجم نطاق الدولة، ولكنه مـن الهـراء المحض أن نطلـب مـن الأحـزاب المتعـددة، لأعضـاء كـل تنظـيم، نفـس حريـة الـرأى التـى يجـب أن يطلبهـا كـل حـزب ديمقراطـى مـن الدولـة. إن حزبـا يتسـامح مـع كـل الآراء الممكنـة فـى مراتبـه يكـف عـن أن يكـون حزبـا. ولكـن الدولـة، حـين تضـطهد وجهـات نظـر معينـة، تصـبح هـى ذاتهـا حزبـا. يجـب الا تتطلـب الديمقراطيـة أن تكـف الأحـزاب عـن أن تكون أحزابا، وانما أن تكف الدولة عن أن تكون حزبا.

قـد لايكـون هنـاك اعـتراض مـن منطلـق ديمقراطـى علـى الحرمانـات الـتي تفرضـها الكنيسـة، حينمـا تبقـى الكنيسـة حزبًـا مـن أحـزاب متعـددة فحسـب. إن مـن لايعتقـد فـى مـذاهب الكنيسـة، ولا ينصـاع لأحكامهـا، لامكـان لـه فـى الكنيسـة. لـيس للديمقراطيـة حـق طلـب تسـامح الكنيسـة - حيثمـا تكتفـى الكنيسـة بـأن تبقـى حزبـا ضـمن أحـزاب أخـرى، اذا لم تتخـذ الدولـة جانـب الكنيسـة أو تتطـابق معهـا. عندئـذ لابـد مـن إدخـال ديمقراطيـة علـى سياسـة الكنيسـة، ولـيس طلبـا للتسامح مع غير المؤمنين فى الكنيسة، الذى سوف يكون نصف إجراء ضعيف.

ولكن بينما لايمكن أن يثار اعتراض من وجهة نظر ديمقراطية بالنسبة لحق الكنيسة فى الحرمان بذاته per se، قبل أن تصبح كنيسة دولة. قد يمكن قول الكثير ضد الطريقة التى طبق بها هذا الحق. لأنه لم يعد جمهور الأعضاء الأعظم هو الذي يطبق الحرمان، وإنما البيروقراطية. كلما كان الضرر الذى يمكن أن يحيق بالفرد أكثر، كلما نمت سلطة البيروقراطية الكنسية ورأسها الأسقف.

تزايدت سلطة الأخير أيضًا بسبب حقيقة أنه كان مندوبا لمجمعه فى المؤتمرات الكنسية. تبدأ سلطة الأسقف من ثم فى وقت واحد مع المجالس، وقد كانت هذه تجمعات أساقفة منذ البداية الأولى.

المكانة والسلطة التى تمتع بها الأسقف بسبب إدارته المالية للمجمع وتعيينه وحكمه على كامل الجهاز العالم، والإدارى، والقضائى، والدعائى للبيروقراطية المجمعية، لم تكمله السلطة التى حازها الكل، **الكنيسة الكاثوليكية**، باعتبارها مواجهة للجزء، المجمع. لقد تعامل الأسقف مع المجمع بكل سلطة الكنيسة وراءه. حينما أصبح تنظيم كامل للكنيسة أكثر صرامة، أصبحت المجامع بلا قوة أكثر فى مواجهة الأساقفة، على الأقل فى الحالات التى مثل فيها الأخيرون اتجاهات أغلبية أعضائها. سلبت هذه الجمعية من الأساقفة تماما "حقوق سواد الناس" [1].

لم يكن الأساقفة مخطئين فى تأكيد أن سلطتهم اتت من الرسل، وفى اعتبار أنفسهم خلفائهم. كان الأساقفة، مثل الرسل قبلهم، العنصر الدولى الموحد بين كل المجامع. وهذه الحقيقة تحديدا هي التى أعطتهم كثيرا من نفوذهم وسلطتهم على المجامع الفردية.

حتى البقية الأخيرة من الديمقراطية الأصلية للمجمع سرعان ما اختفت الآن، أى، الحق فى انتخاب الموظفين الذين كانت هناك حاجة لهم. مع تزايد استقلال وسلطة الأسقف واتباعه بين المجمع، أصبح من الأسهل بالنسبة له أن يحث الأخيرين

---

13 هارناك، **توسع المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى**، لندن ونيويورك، المجلد الثانى، ص 59. كمثال على القوة والعظمة التى حازها الأسقف على مجمعه، يقتبس هارناك حادثة الأسقف تروفيموس. حين تحول الأخير إلى الوثنية فى فترة الاضطهاد، ذهب معه القسم الأعظم من مجمعه. "ولكن حين عاد لحظيرة الخراف وقام بالكفارة، تبعه الآخرون مرة أخرى، الذى لم يكن أحد منهم ليعود إلى الكنيسة اذا لم يكن قد قادهم تروفيموس".

على انتخاب أشخاص مناسبين له، لقد كان الأسقف فعليا هو من ملأ هذه المناصب. ولكن عند انتخاب الأسقف نفسه، كان لدى المرشحين المقترحين من قبل الإكليروس أفضل الآفاق منذ البداية، بسبب قوة الإكليروس فى المجمع. أخيرا انتهى الأمر إلى أن الإكليروس فقط هو من انتخب الأسقف، واحتفظ جمهور اعضاء المجمع بحق المصادقة على أو رفض هذا الانتخاب فقط. ولكن حتى هذا أصبح تدريجيا أمرا شكليا فحسب. لقد انحط المجمع أخيرا إلى مجرد متملقين، الذين اضطروا، حين قدم الأسقف الذي انتخبه الإكليروس، لتحيته بتصفيق شديد.

عنى هذا التدمير النهائى للتنظيم الديمقراطى للمجمع، بواسطة تأكيد السلطة المطلقة للإكليروس، وإكمال تحوله من "خادم خدام الرب" المتواضع إلى سيدهم المطلق.

لقد كان طبيعيا أن تصبح ملكية المجمع الآن فعليا ملكية المديرين. بالطبع ليست ملكية شخصية ولكن ملكية البيروقراطية كهيئة. كفت ملكية الكنيسة عن أن تكون ملكية مجمعية للأعضاء. لقد أصبحت ملكية الإكليروس. وجد هذا التحول سندا قويا فى، وقد سرع بواسطة، اعتراف الدولة بالمسيحية فى بداية القرن الرابع. ولكن من ناحية أخرى، فإن اعتراف الأباطرة بالكنيسة الكاثوليكية كان نتيجة للتقدم الذى صنعته قوة البيروقراطية ولسلطة الأسقف المطلقة داخل البيروقراطية فحسب.

طالما كانت الكنيسة تنظيما ديمقراطيا، فقد كانت معارضة بشكل مطلق للاستبداد الإمبراطورى فى الإمبراطورية الرومانية. من ناحية أخرى، فإن بيروقراطية الأساقفة، التى حكمت واستغلت الناس بشكل مطلق، كانت أداة جيدة جدا للاستبداد الإمبراطورى. أضف إلى ذلك، فإن الأخير لم يستطع أن يتجاهل الكنيسة، بل كان عليه أن يتصالح معها، وإلا ربما تجاوزته الكنيسة.

أصبح الإكليروس سلطة كان على كل حاكم للإمبراطورية أن يحسب لها حسابا. من بين عديد من المدعين بالعرش قبل الحروب الأهلية فى بداية القرن الرابع، كان قنسطنطين، الذى تحالف مع الإكليروس الكنسى، هو المنتصر.

أصبح الأسقف الآن هو السيد، يحكم الإمبراطورية جانب الأباطرة. غالبا ما ترأس الأباطرة فى مجالس الأساقفة، ولكن بالمقابل وضعوا سلطة الدولة تحت أمر الأساقفة لتنفيذ قرارات المجالس والحرمانات الكنسية.

فى نفس الوقت، حازت الكنيسة الآن حقوقاً شخصية قانونية. إذ باتت قادرة على حيازة وإرث الملكية (321 ب.م) فقد ثارت شهيتها التى تضرب بها الأمثال هكذا على نحو ضخم، فنمت ملكية الكنيسة بسرعة. ولكن الاستغلال الذى مارسته الكنيسة تزايد أيضا.

وهكذا فقد قاد تنظيم شيوعية بروليتارية مقوضة لأكثر (أنواع) الدعم للاستبداد والاستغلال إخلاصا، إلى مصدر لاستبداد جديد، واستغلال جديد.

كان المجمع المسيحى المنتصر فى كل جوانبه العكس تماما من ذلك المجمع الذى أسس قبل ثلاثة قرون من صيادى السمك الجليليين الفقراء والفلاحين وبروليتاريي أورشليم. أصبح المخلص المصلوب أقوى دعامة لذلك المجتمع المنحط والشائن الذى كان المجمع الخلاصى قد توقع منه تدميره الكامل.

ه ـ الدير

الكنيسة الكاثوليكية، خاصة كما اعترفت بها الدولة، حولت اتجاهات المجمع الخلاصى الأصلية إلى عكسها تماما، ولكن هذا لم يجر بوسائل سلمية، دون مقاومة وصراع. استمرت الشروط الاجتماعية التى أنتجت الشيوعية الديمقراطية للمسيحيين الأوائل فى الوجود، فى الواقع، أصبحت أكثر تفاقما وإقلاقا عندما تحللت الإمبراطورية.

لقد رأينا أن تلك الأصوات التى تحتج ضد المفهوم الجديد قد جعلت نفسها مسموعة منذ البداية الأولى. ولكن حين أصبحت البدعة الموقف المهيمن والرسمى للكنيسة، غير متسامحة مع وجهات النظر الأخرى داخل المجمع، نشأت طوائف جديدة ديمقراطية وشيوعية مرة بعد مرة بجانب الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا، على سبيل المثال، فى الوقت الذى اعترف فيه قنسطنطين بهذه الكنيسة، أصبحت طائفة اللاأدريين **circumcelliones** منتشرة فى أفريقيا الشمالية، الرهبان المتسولون أصحاب الوجد الصوفى الذين دفعوا إلى الحد الأقصى صراع اتباع دوناتس (**Donatist**) ضد كنيسة الدولة والدولة نفسها، مبشرين بالعداء لكل الأثرياء والأقوياء. كما فى الجليل فى زمن المسيح، كذلك فى أفريقيا الشمالية فى القرن الرابع، نهض السكان الفلاحين فى يأس ضد مضطهديهم، وتبين ممارسة عصب متعددة قطع الطريق الطريقة التى عبر بها احتجاجهم عن نفسه. كما كان الحال سابقا مع الغيورين، وربما أيضًا مع

التلاميذ الأول ليسوع، وضع اللادريون الآن لهذه العصب هدف التحرر والحرية من كل قهر. تعاركوا بجراءة متطرفة حتى مع القوات الإمبراطورية، التى سعت، يدا بيد مع الإكليروس الكاثوليكى، لإخماد الانتفاضة، التى استمرت لعدة عقود.

ولكن أخفق هذا الجهد، كما أخفق كل جهد آخر لإدخال الشيوعية إلى الكنيسة أيضًا بوسائل سلمية أو عنيفة.

لقد هزمت جميعا لنفس الأسباب التى حولت فى النهاية الشيوعية الأولية إلى عكسها، أسباب استمرت فى الوجود جنبا إلى جنب مع المثير المنتج لمثل هذه الجهود. بينما تزايد هذا المثير بالفاقة الناشئة، فلا يجب أن ننسى أن موراد الكنيسة كانت تتزايد ايضا، وقد مكنت الكنيسة من ان تقى قسما ضخما متزايداً من البروليتاريا من أسوأ الإغواءات بواسطة مؤسساتها الخيرية، وهكذا جعلت البروليتاريا معتمدة على الإكليروس، وأفسدتها وخنقت داخلها كل حماس وكل المثل العليا.

حينما أصبحت الكنيسة كنيسة دولة، أداة للاستبداد والاستغلال أكثر قوة وأكثر جبروتًا من أى (أداة) ظهرت بعد فى التاريخ، بدا هلاك كل الاتجاهات الشيوعية فيها أخيرا أنه بلغ غايته. ومع ذلك فقد كان لهذه الاتجاهات أن تستمد قوة جديدة من كنيسة الدولة تحديدا.

حتى زمن الاعتراف بها من قبل الكنيسة، فإن انتشار المجامع الكنسية قد اقتصر كقاعدة على المدن الكبرى؛ استطاعت فى هذه المدن فقط أن تصون نفسها فى فترات الاضطهاد. فى المقاطعات، حيث من السهل مراقبة كل فرد، ربما تصون المنظمات السرية نفسها فقط حين تتمتع بدعم كامل السكان، مثلما هو الحال، على سبيل المثال، مع الجمعيات السرية الأيرلندية، فى القرون القليلة الماضية، فى معارضتها للنير الانجليزى. لقد واجهت دائما حركة معارضة تقوم بها اقلية فى المجتمع أعظم الصعوبات فى المقاطعات، وينطبق هذا أيضًا على الحركة المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى.

حين كفت المسيحية عن أن تكون حركة معارضة واعترفت بها الدولة اختفت العقبات فى سبيل انتشارها فى المقاطعات. منذ هذا الوقت فصاعدا لم يقف شيء فى طريق تنظيم المجامع المسيحية فى المقاطعات. كانت المسيحية لمدة ثلاثة قرون - مثل اليهودية - تقريبا على وجه الحصر دين مدينة. أصبحت الآن وللمرة الأولى دين الفلاحين أيضا.

جنبا إلى جنب مع المسيحية، غزت اتجاهاتها الشيوعية المقاطعات، لاقية ظروفا مختلفة وأكثر ملائمة إلى حد بعيد مما فى المدينة، كما رأينا سلفا فى مناقشتنا للإسينيين. اسيقظ الأخيرون مباشرة على حياة جديدة فى شكل مسيحى، بمجرد أن عرضت إمكانية تنظيمات شيوعية علنية فى المقاطعات، التى تشير إلى كيف كانت الحاجة التى حققتها قوية فى الوقت الذى اعترفت فيه الدولة بالمسيحية تحديدا، فى بدايات القرن الرابع، أسست الأديرة الأولى فى مصر، وسرعان ماتبعتها أخرى فى أقسام عديدة من الإمبراطورية.

سرعان مالم يلقى هذا الشكل من الشيوعية معارضة من السلطات الكنسية والقومية، وانما حتى حبذته، مثله في ذلك مثل التجارب الشيوعية فى أمريكا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر التي تعاطفت معها حكومتى فرنسا وإنجلترا. لم يخفقوا فى الاستفادة من جعل المحرضين الشيوعيين القلقين في مدنهم الكبيرة ينعزلون عن العالم، ليكرسوا أنفسهم لزراعة مسالمة للكرنب فى البرية.

على خلاف التجارب الشيوعية للأوينيين، والفوريين والكابيين فى أمريكا، فإن تجارب الفلاح المصرى أنطون وأتباعه لقيت أكثر النجاحات بريقًا، كما حدث أيضًا للمستعمرات الشيوعية الفلاحية فى الولايات المتحدة فى القرنين الثامن والتاسع عشر، التى كانت مشابهة للغاية للحركة المصرية. يحب عديد من الأشخاص أن يعزوا نجاحهم للحماس الدينى، الذى يفتقر اليه أتباع اليوتوبيات الحديثة، بالقول بأن لا شيوعية بلا دين. ولكن نفس الحماس الدينى الذى ألهم الرهبان فى الأديرة قد ألهم أيضًا مسيحيي المدن الكبرى فى القرون الأولى، ومع ذلك لم تكن تجاربهم الشيوعية شاملة، ولا ذات استمرارية طويلة.

سبب النجاح فى حالة ما والإخفاق فى الأخرى لايوجد فى الدين، وإنما فى ظروفها المادية.

بالتضاد مع التجارب الشيوعية للمسيحية الأولية فى المدن الكبرى، فإن الأديرة، وكذلك المستعمرات الشيوعية فى البرية، لها ميزة أن الزراعة تتطلب اقترانا للمزرعة والعائلة، والزراعة الكبيرة لم تصبح فقط ممكنة، وإنما كانت قد حازت بالفعل مرحلة عليا من التطور فى نظام الاقتصاد المنزلي **oikos** للملاك العقاريين الكبار. على أى حال، تأسست عملية الإنتاج على النطاق الكبير هذه لنظام الاقتصاد المنزلي **oikos**، على العبودية. وضعت العبودية الحدود لإنتاجيتها ولوجودها أيضا. أدى توقف إمداد

العبيد للمزارع الكبيرة الخاصة بكبار الملاك لأن تختفى. أخذتها الأديرة وواصلتها، فى الواقع، تمكنت من تطويرها إلى نقطة أعلى، لأن الأديرة أحلت محل العمل العبودى عمل أعضائها الاحرار. بالنظر إلى الانحلال العام للمجتمع، أصبحت الأديرة فى النهاية هي الأماكن الوحيدة فى الإمبراطورية المضمحلة التى حفظت فيها البقية الأخيرة للتقنية القديمة من خلال عواصف فترة الهجرة حتى اكتملت فى عديد من النقاط.

بعيدا عن تأثيرات الشرق، خاصة من العرب، كانت الأديرة هى المواضع التى بدأت منها الحضارة فى أوربا فى النمو خلال العصور الوسطى.

لقد كيَّف نمط الإنتاج التعاونى الأديرة بشكل رائع لشروط الإنتاج القروى نحو نهاية الفترة القديمة وفى العصور الوسطى الباكرة؛ وهذا يفسر نجاحها. من ناحية أخرى، كانت شروط الإنتاج مناقضة للعمل التعاونى فى المدن، وأمكن للشيوعية أن توجد فقط فى شكل شيوعية للاستهلاك فحسب، غير أن نمط الإنتاج، وليس نمط التوزيع أو الاستهلاك، هو الذى يحدد فى التحليل الأخير طابع العلاقات الاجتماعية. لقد قامت فقط فى الريف، فى الأديرة، جماعية الاستهلاك التى رغبت فيها المسيحية أصلا على اساس دائم فى جماعية الإنتاج. على هذا الأساس، ازدهرت أخويات الإسينيين لعدة قرون، حيث دمرت نهائيا بالإبادة المفاجئة للجماعة اليهودية، وليس كنتيجة لأسباب داخلية. لقد نشأ على جماعية الإنتاج ذلك الهيكل الكبير للرهبنة المسيحية وظل باقيا حتى اليوم.

ولكن لم كانت مستعمرات الشيوعية اليوتوبية الحديثة إخفاقا؟ لم يكن أساسها مختلفا عن الشيوعية الرهبانية، ولكن نمط الإنتاج تغير تماما منذئذ. مكان الصناعات المعزولة الفردية للعصور القديمة التي طورت فردية فى العمل، وجعلت تعاون العمال الحضريين صعبا، وألهمتهم بموقف فوضوى تجاه الإنتاج، نجد الآن منشآت ضخمة فى الصناعات الحضرية يشكل العامل فيها ترسا فقط يشتغل مع تروس أخرى لا حصر لها. عادات العمل بالتعاون، بالانضباط فى العمل، بخضوع الفرد لمتطلبات الكل فى الحالة الحديثة يحل محل الموقف الفوضوى للعامل الفرد. ولكن فقط فى الإنتاج؛ أما الاستهلاك فأمر مختلف.

كانت شروط الحياة سابقا بسيطة للغاية وموحدة بالنسبة لجمهور السكان، حتى أثمرت وحدة في الاستهلاك والحاجات، لم تجعل جماعية الاستهلاك بأى حال غير محتملة.

إن نمط الإنتاج الحديث، الذى يرمى كل الطبقات والأمم معا، يجمع منتجات العالم كله داخل المراكز التجارية الكبرى، ينتج منتجات جديدة بلا توقف، خالقا بلا كلل ليس فقط وسائل جديدة لإشباع الحاجات، وانما أيضًا خالقا الحاجات، وهكذا يؤسس فى جمهور السكان تنويعة مختلفة من الميول الشخصية والرغبات. نوع من ال"فردية" أمكن أن يوجد سابقا فقط فى الطبقات الثرية والأرستقراطية. بمعنى آخر، عديد من أنماط الاستهلاك، آخذين الكلمة بأوسع معنى ل"الاستمتاع" بالأشياء المادية. إن أخشن، أشد وسائل الاستهلاك مادية، الأطعمة، المشروبات، الألبسة، هى بالطبع، فى حالات كثيرة، خاضعة لمستوى موحد فى نمط الإنتاج الحديث. ولكن من جوهر نمط الإنتاج هذا ألا يحد استهلاك الجماهير لمثل هذه المواد، وانما أن يخلق بين العمال أيضًا طلبا متصلا لمواد أكثر تخص الحضارة، تعليمية، فنية، رياضية، ومواد أخرى، هذه الحاجات تميز نفسها أكثر فأكثر وتجد تعبيرا متنوعا فى كل فرد. وهكذا فإن فردية المتعة، ميزة الثرى والمثقف سابقا، منتشرة بين الطبقات العاملة أيضا، فى البداية فى المدن الكبرى، من ثم مخترقة تدريجيا بقية السكان. بالرغم من أن العامل الحديث مضطر لعمل تنازلات كبيرة للانضباط فى تعاونه مع زملاءه العمال، ويقر بأن مثل هذه التنازلات ضرورية، فإنه بالرغم من ذلك يقاوم بشكل مؤكد كل محاولات حكم استهلاكه، متعته. يصبح فى هذا الحقل فرديا أكثر فأكثر، أو اذا أحببت، فوضويا. سوف يفهم القارئ الآن كيف يجب أن يشعر بروليتارى المدينة الحديث فى مستعمرة شيوعية صغيرة فى البرية، التى لاتستطيع أن تكون أكثر من مؤسسة زراعية كبيرة ذات عمليات صناعية ثانوية. كما صرحنا سابقا، فإن الصناعة والاقتصاد المنزلى قد كانا دائما مرتبطين فى هذا الفرع من الإنتاج. كان هذا ميزة للشيوعية المسيحية، التى بدأت بجماعية الاستهلاك. كانت هذه الشيوعية فى المؤسسات الرهبانية فى المقاطعات، من ثم مضطرة لأن تقترن مع شيوعية إنتاج، التى أعطتها قوة عظيمة للمقاومة والتطور.

تبدأ الشيوعية الطوباوية الحديثة، بجماعية فى الإنتاج، وتجد أساسا متينا جدا فى هذه الجماعية، وقد كانت مضطرة من ناحية أخرى، بواسطة العلاقة الوثيقة بين الاستهلاك والإنتاج، فى مستوطناتها الصغيرة، لأن تضيف شيوعية استهلاك لشيوعية الإنتاج، والأولى تؤثر فى الأخيرة كما يثير القماش الأحمر ثورا، تنتج تشاحنا أبديا حول الأشياء الصغيرة من أكثر الأنواع تنفيرا.

فقط عناصر السكان التى بقيت كما هي لم تمسسها الرأسمالية الحديثة، الفلاحين غير المجربين، كان مازال يمكن أن يؤسسوا مستوطنات شيوعية فى القرن التاسع عشر داخل نطاق الحضارة الحديثة. ليس لدينهم علاقة بنجاحهم، سوى في حدود أن الحماس الدينى كظاهرة اجتماعية، وليس كخاصية فردية، قد وجد الآن فى أشد الفئات تخلفا من السكان فحسب.

يمكن لشيوعية الإنتاج أن تطبق فى المستوطنات السكانية ذات الإنتاج الصناعى الكبير فقط فى مرحلة متقدمة حتى يمكن لفردية ممعنة فى الاستهلاك - بأوسع معنى للكلمة - أن تتحد معها. لقد كانت شيوعية الإنتاج هى ماواجهت فشلا فى المستعمرات الشيوعية غير الدينية للقرن التاسع عشر، لأن الرأسمالية كانت تمارس بنجاح مثل هذه الشيوعية لبعض الوقت. لقد كانت شيوعية فى تسوية الاستهلاك الشخصى المناقض للغاية للعادات الحديثة، standardization الذى فشل.

فى الأزمنة القديمة، وأيضا فى العصور الوسطى، لم يكن هناك أثر بين جماهير الشعب لتفرد individualiztion الحاجات. وهكذا لم تواجه الشيوعية الرهبانية عقبة كهذه، وأمكن أن تزدهر أكثر لأن نمط إنتاجها تفوق على الذى ساد عموما، بالتوافق مع رقيه الاقتصادي الخاص. روفينوس (345- 410 ب.م) الذى أسس ديرا هو نفسه على جبل الزيتون بالقرب من أورشليم، فى 370ب.م، يفيد بأنه عاش هناك تقريبا أشخاص عديدون فى الأديرة فى المقاطعات الريفية فى مصر كما فى المدن. بعد اعتبار الهامش اللازم لخيال متحيز مبالغ فيه، ليس هناك شك أن هذا التصريح كان مؤسس على عدد الرهبان والراهبات الذين لابد وأن بدا غير عادي.

وهكذا فإن النظام الرهبانى أعطى فرصة جديدة للحماس الشيوعى للحياة فى المسيحية، مادام الأخير وجد هنا تعبيرا ولم يكن مضطرا أن يظهر كمعارضة هرطقية للبيروقراطية الكنسية المهيمنة، وإنما اتفق تمام الاتفاق مع الأخيرة.

ولكن لم يمكن لهذا الشكل من الشيوعية المسيحية أيضًا أن يصبح الشكل الشامل للمجتمع، وإنما كان قاصرا على فئة معينة. ومن ثم تحولت الشيوعية الجديدة أيضًا بالضرورة المرة بعد الأخرى إلى عكسها، التى كان رقيها الاقتصادى أعظم على الأرجح. كان العامل الأخير على الأرجح يحول المشاركين فيها إلى أرستقراطية، أرفع بالنسبة لبقية السكان، وأخيرا مهيمنة ومستغلة إياها.

لم تستطع الشيوعية الرهبانية أن تكون الشكل الشامل للمجتمع لا لشيء إلا لأن إدارتها للاقتصاد المشترك، التى تأسست عليها، تضمن رفض الزواج بالضرورة، كما فعل الإسينيون قبلا، وكما فعلت فيما بعد المستوطنات الشيوعية الدينية (فى القرن التاسع عشر).

تطلب ازدهار الاقتصاد المشترك فقط، التخلى عن الزواج الفردى؛ حيث كان سيتسق تمامًا معه نوع من الزواج الجماعى، كما ظهر أيضًا عند عدد من المستوطنات التى أشير اليها. ولكن هذه العلاقة بين الجنسين أيضًا ناقضت بحدة الشعور الاجتماعى العام للعصور الوسطى حتى يعترف بها عامة وتمارس علنا. كانت هذه الفترة بصفه عامة، تتسم بشعور بالكآبة جعل الامتناع عن كل متعة، الزهد، حلا أكثر طبيعية، أضف إلى ذلك هؤلاء الذين مارسوا مثل هذا الامتناع أحاطوه بهالة خاصة. ولكن ممارسة العزوبة حكم على الرهبنة مقدما بأن تبقى قاصرة على أقلية. هذه الأقلية قد تتزايد فى وقت لحد بعيد، كما يبين المقتطف المقتبس أعلاه من روفينوس، ولكن حتى مبالغة روفينوس الواضحة لاتجرؤ على أن تعرض السكان الرهبان كأغلبية. و سرعان ماخمد الحماس الرهبانى عند المصريين فى زمن روفينوس.

حيثما أصبحت الشيوعية الرهبانية راسخة ومتينة، تزايدت بالضرورة ثروة الدير. سرعان ما قدمت الصناعة الرهبانية أفضل المنتجات وأرخصها، مادام الاقتصاد المشترك قد جعل تكاليف الإنتاج منخفضة تماما. مثل نظام الاقتصاد المنزلي oikos للملاك العقاريين الكبار، أنتجت الأديرة لنفسها تقريبا كل شيء احتاجته من المواد الغذائية والمواد الخام. أظهر العمال حماسًا أكثر من العبيد في علاقاتهم بكبار ملاك الأرض لأنهم كانوا أعضاء هم أنفسهم، متلقين كامل نتاج عملهم. أضف إلى ذلك، شمل الدير عديدا من العمال مكنه من أن يختار لكل من صناعاته العاملين الأكثر ملائمة له، فأدخل هكذا تقسيما للعمل بعيد المدى. أخيرا كان الدير، باعتباره مناقضا للفرد، أبديا. الاختراعات وأسرار العمل التى قد تضيع بسهولة مع موت المخترع وعائلته، أصبحت مشروع عدة أعضاء فى الدير، حيث تنتقل بواسطتهم إلى أخلافهم. أضف إلى ذلك، فإن الرهبانية، حيث أنها شخصية أبدية، لم تكن قلقة من الخطر المدمر لتفتيت ميراثها بالإرث. لم تقسم أبدا تراكمات الملكية فى شكل إرث.

وهكذا نمت ثروة الدير، وأيضا ثروة مجموعات من الأديرة أدارها رئيس مفرد وفق قواعد موحدة، وهي المسماة طوائف الرهبان. ولكن لم يصبح دير ما غنيا وقويا بشكل عاجل، نفس العملية التى جرت فيه هي التى ترددت فى تنظيمات شيوعية أخرى

منذئذ، ضامة جزءا فقط من المجتمع، كما يمكن أن نلاحظ بعد فى التنظيمات التعاونية المنتجة القائمة الآن. إن ملاك وسائل الإنتاج الآن يجدون من السهل جعل الآخرين يعملون من أجلهم أكثر من أن يعملوا هم أنفسهم، إذ كان يمكنهم ايجاد العمال الضروريين: العمال المأجورين المفلسين، العبيد، أو الأقنان.

بينما منح النظام الرهبانى فى بداياته حياة جديدة للحماس الشيوعى فى المسيحية، فإنه مع ذلك اتخذ أخيرا نفس الطريق الذى اتخذه إكليروس الكنيسة قبله، مثل الإكليروس، أصبح تنظيما للاستغلال والهيمنة.

مما لاريب فيه، أن هذا التنظيم المتحكم لم يقبل دائما أن يكون أداة عمياء فحسب لحكام الكنيسة، الأساقفة. إذا كانت الأديرة مستقلة عنهم اقتصاديا، تنافسهم فى الثروة، ذات تنظيم دولى مثلهم، فقد باتت قادرة على معارضة الأساقفة حين لم يجرؤ أحد آخر أن يفعل ذلك.

وهكذا فقد ساعدوا عرضا فى أن يوهنوا إلى حد ما استبداد الأساقفة، ولكن هذه الرحمة كان مقدرا لها فى النهاية أن تتحول إلى عكسها.

بعد انقسام الكنيسة إلى كنيسة شرقية وغربية، أصبح الإمبراطور متمتعا بحق الولاء الإقطاعى **liege lord** على الأساقفة فى الأولى. فى الأخيرة لم تكن هناك سلطة دولة أمكن أن تحكم كامل مجال الكنيسة. من ثم كان أسقف روما هو الذى حصل أولا على أسبقية على الأساقفة الآخرين فى الكنيسة الغربية، بفضل أهمية أسقفيته. تطورت هذه السابقة فى مجرى القرون أكثر فأكثر إلى صيرورتها هيمنة على الأساقفة الآخرين. ولأن الملكية المطلقة فى الأزمنة الحديثة تطورت من الصراع الطبقى بين النبالة الإقطاعية والبورجوازية، فإن الملكية المطلقة للبابا تطورت من الصراع الطبقى مع أرستقراطية الأساقفة والرهبان ملاك صناعات الأديرة الكبيرة. مع تعزيز البابوية، وصل المنحنى الهابط للكنيسة إلى ذروته، تتضمن كل التطورات اللاحقة فى الدولة والمجتمع هزائم للكنيسة، التطور الآن ضد الكنيسة والكنيسة ضد كل تطور؛ وتصبح رجعية تماما، أي مؤسسة مناهضة للمجتمع.

حتى بعد تحولها إلى العكس من مرحلتها الأولية، بعد أن أصبحت منظمة للهيمنة والاستغلال، نجحت الكنيسة بعد لبعض الوقت فى تحقيق أشياء عظيمة. ولكن مع نهاية الصليبيين، لم يكن للكنيسة وظيفة أبعد تؤديها للجنس البشرى. إسهامها، بعد أن أصبحت دين دولة، يكمن فى إنقاذ وتطوير بقايا الحضارة القديمة

كما وجدتها. ولكن عندما تطور نمط إنتاج جديد،، أرفع بما لايقاس بالنسبة للقديم، على أساس النظام الذى كان قد أنقذ واستكمل من قبل الكنيسة، حين كانت الرأسمالية هى النتيجة وظهرت شيوعية إنتاج شاملة، لم تستطع الكنيسة أن تكون شيئا أكثر من عقبة في وجه التطور الاجتماعى. ولدت من الشيوعية، وهى الآن ألد أعداء الشيوعية الحديثة.

ألن تطور هذه الشيوعية بدورها نفس السيرورة الديالكيتكية مثل الشيوعية المسيحية وتصبح أيضًا آلية جديدة للاستغلال والهيمنة. هذا السؤال آخر مايتطلب انتباهنا.

***

الفصل السادس
المسيحية والاشتراكية

إن المقدمة الشهيرة التى كتبها إنجلز فى مارس 1895، للطبعة الجديدة من **الصراعات الطبقية فى فرنسا من 1848 إلى 1850** لماركس تنتهى بهذه الكلمات:

"منذ قرابة 1600 عام مضت، كان يعمل فى الإمبراطورية الرومانية حزبا ثوريا خطيرا. فقد قوض الدين وجميع أسس الدولة؛ وأنكر صراحة أن تكون إرادة الإمبراطور هى القانون الأعلى؛ وقد كان بلا وطن؛ كان أمميا، وقد انتشر فى جميع أقاليم الإمبراطورية من بلاد الغال حتى آسيا، وحتى ماوراء حدود الإمبراطورية. وقد عمل زمنا طويلا خفية وفى سرية، ولكنه شعر لبعض الوقت بأنه صار من القوة بحيث يستطيع أن يخرج علنا وجهارا. وقد كان أيضًا لهذا الحزب الثورى، المعروف باسم المسيحيين تمثيلا قويا فى الجيش، فقد غدت فيالق برمتها مسيحية. وعندما كانت تؤمر، بحضور الاحتفالات الأضحوية الخاصة بالهياكل الوثنية القائمة، هناك لتخدم كحراس شرف، كان الجنود الثوريون يتجاسرون فى اعتدادهم إلى حد تعليق رموز خاصة - صلبان- على خوذاتهم. برهنت الإجراءات الاعتيادية الانضباطية التي طبقها ضباطهم فى الثكنات على عدم جدواها. لم يستطع الإمبراطور ديوكليتيان، أن يراقب بهدوء ويرى كيف يتقوض النظام والطاعة والانضباط فى جيشه. أصدر قانونا ضد الاشتراكيين - عفوا- ضد المسيحيين. منعت اجتماعات الثوريين، أغلقت أماكن اجتماعاتهم أو حتى أزيلت، ومنعت الرموز المسيحية، الصلبان، إلى آخره، كما منعت فى ساكسونيا مناديل الجيب الحمراء. لقد أعلن أن المسيحيين غير صالحين لشغل مناصب فى الدولة، لم يتمكنوا حتى من أن يصبحوا عرفاء. نظرا لأنه لم يكن لديهم فى هذا الوقت قضاة مدربون جيدا فيما يتعلق ب"سمعة الشخص" مثلما يفترض قانون الهركولر المناهض للاشتراكيين، فقد كان المسيحيون ممنوعين ببساطة من حماية حقوقهم فى المحكمة. ولكن بقى هذا القانون الاستثنائى هو أيضًا غير نافذ. نزعة المسيحيون عن الجدران فى تحد، بل إنهم، كما يقال أحرقوا قصر الإمبراطور فى نيقوميديا على رأسه. وحينذاك انتقم الأخير منهم بواسطة اضطهاد

عظيم للمسحيين فى 303 ب.م. وكان ذلك آخر اضطهاد من نوعه. وقد كان أثره قويا إلى حد أن الأغلبية الساحقة من الجيش كانت تتألف بعد سبعة عشر عاما على انقضائه من المسيحيين، وإلى حد أن قنسطنطين، الحاكم الأوتوقراطى، الذى لقبه رجال الكنيسة "الكبير"، أعلن المسيحية دين دولة [1].

إن من يعرف إنجلز ويقارن هذه السطور الأخيرة من "العهد السياسى" لإنجلز مع النظرات التى عبر عنها إنجلز طوال حياته، لايمكن أن يكون لديه أى شك بشأن نواياه وراء هذه المقارنة المرحة. لقد أراد إنجلز أن يشير للطبيعة التى لاتقاوم والأساسية لتقدم حركتنا، التى قال إنها مدينة بحتميتها خاصة إلى تزايد أتباعها فى الجيش، حتى أنها سرعان ما ستكون قادرة على إجبار حتى أكثر الأوتوقراطيين قوة أن يستسلم.

هذا الوصف مثير للاهتمام بصفة أساسية كتعبير عن التفاؤل الصحى الذى احتفظ به إنجلز حتى وفاته.

ولكن المقطع قد فسر أيضًا بشكل مختلف، مادام قد سبقه بتصريحات تفيد أن الحزب يزدهر على نحو أفضل حين يتابع الطرق الشرعية. لقد دافع بعض الأشخاص عن أن إنجلر فى "عهده السياسى" ينكر كامل عمل حياته ويعرض أخيرا الموقف الثورى، الذى دافع عنه لجيلين، باعتباره خطأ. استنتج هؤلاء الأشخاص أن إنجلر قد اعترف بأن مذهب ماركس - وهو أن القوة هى قابلة كل شكل جديد للمجتمع - لم يعد قابلا للدفاع عنه. فى رسم مقارنة بين المسيحية والاشتراكية، لم يضع المفسرون من هذا الطراز تأكيدا على الطبيعة التى لاتقاوم والأساسية للتقدم، ولكن على إعلان قنسطنطين الطوعى للمسيحية كديانة دولة، لقد انتهت الأخيرة إلى النصر دون اضطرابات عنيفة فى الدولة، بوسائل سلمية فقط، من خلال المساعدة الودية للحكومة.

يعتقد هؤلاء الأشخاص أن الاشتراكية أيضًا سوف تتغلب هكذا. بدا هذا الأمل بالفعل مباشرة بعد موت إنجلز على وشك التحقق، حيث ظهر السيد والدك روسو باعتباره قنسطنطينا جديدا فى فرنسا وعين أسقف المسيحيين الجدد، السيد ميليران، وزيره.

---

1 كارل ماركس، الصراعات الطبقية فى فرنسا 1848 - 1850، مع مقدمة بقلم فردريك إنجلز ترجمة هنرى كون، نيويورك: 1924، ص ص 29، 30.

إن من يعرف إنجلز ويحكم عليه دون تحيز، سوف يعرف أنه لم يدخل حتى ذهن إنجلز أبدا أن يرتد عن معتقداته الثورية، وأن المقطع الأخير لمقدمته لايمكن من ثم أن يفسر بالمعنى الذى أشير اليه أعلاه. ولكن يجب أن نقر بأن هذا المقطع ليس فى غاية الوضوح. إن الأشخاص الذين لايعرفون إنجلز، الذين يتخيلون أنه قد راودته شكوك مفاجئة قبل وفاته تتعلق بجدوى كل عمل حياته، قد يفسر هذا المقطع، بمفرده، باعتباره يشير إلى أن طريق المسيحية إلى الانتصار هو نموذج للرحلة التى على الاشتراكية أن تقطعها.

إذا كان هذا هو رأى إنجلز بالفعل، فلم يكن هناك حكم أسوأ نطق به عن الاشتراكية، ولكان مساويا لنبوءة ليس عن بلوغ النصر، وإنما عن هزيمة كاملة للهدف العظيم الذى اقترحته الاشتراكية.

إنه لمن المميز أن هؤلاء الأشخاص الذين يوظفون هذا المقطع بهذا الشكل يغفلون كل العناصر العظيمة والعميقة فى إنجلز، ويحيون بحماس جملا - إذا احتوت بالفعل ما أدعوا أنه فيها - سوف تكون خاطئة كلية.

لقد رأينا أن المسيحية لم تحرز النصر حتى تحولت إلى عكس طابعها الأصلى تماما؛ وأن انتصار المسيحية لم يكن انتصار البروليتاريا، وانما الإكليروس الذى كان يستغل ويهيمن على البروليتاريا؛ وان المسيحية لم تكن منتصرة كقوة مقوضة، وإنما كقوة محافظة، كدعامة جديدة للقمع والاستغلال، حتى انها لم تقضى فقط على القوة الإمبراطورية، العبودية، فقر الجماهير، وتركيز الثروة فى أيدى قليلة، وإنما خلدت هذه الشروط. أحرز التنظيم المسيحى، الكنيسة، النصر بالتخلى عن أغراضه الأصلية وبالدفاع عن عكسها.

بالفعل، إذا كان على انتصار الاشتراكية أن يتحقق بنفس الطريقة التى حققتها المسيحية، فإن هذا سوف يكون سببا جيدا للتخلى عن، ليس الثورة، وانما عن الديمقراطية الاجتماعية؛ لايمكن أن يوجه اتهام أشد ضد الديمقراطية الاجتماعية من موقف بروليتارى، والهجوم الذى يقوم به الفوضويون ضد الديمقراطية الاجتماعية سوف يكون مبررا أيضًا للغاية. بالفعل، السعى بواسطة العناصر البورجوازية الاشتراكية لوظيفة اشتراكية وزارية فى فرنسا، التى هدفت إلى تقليد الطريقة المسيحية فى جعل المسيحية مؤسسة دولة فى الماضى - وطبقت، بغرابة كافية، فى هذه الحالة، لتكافح كنيسة الدولة - لم يكن لها أثر آخر إلا ان تقوى النزعة النقابية شبه الفوضوية، المناهضة للاشتراكية.

ولكن لحسن الحظ التشابه بين المسيحية والاشتراكية لامحل له على الإطلاق فى هذا الصدد. ممالاشك فيه أن المسيحية فى أصلها حركة الفقراء، مثل الاشتراكية، وكلتاهما من ثم لديها عديد من العناصر المشتركة، حيث كانت لدينا الفرصة لأن نشير إلى ذلك.

اشار إنجلز أيضًا لهذا التشابه فى مقال معنون "حول تاريخ المسيحية الأولية" فى الأزمنة الحديثة [1] Neuezeit كتب قبل وفاته بوقت قصير، ويشير إلى كيف كان إنجلز مهتما بعمق بهذا الموضوع فى ذلك الوقت، كيف كان طبيعيا من ثم بالنسبة له أن يكتب عن التشابه الذى وجد فى مقدمته لكتاب الصراعات الطبقية فى فرنسا، يقول هذا المقال:

"يعرض تاريخ المسيحية الأولية توافقات ملحوظة مع الحركة العمالية الحديثة. مثل الأخيرة، كانت المسيحية أصلا حركة المضطهدين، وقد ظهرت فى البداية كدين للعبيد والمعتقين، الفقراء، والمنبوذين، وللشعوب التى أخضعتها أو شتتت شملها روما. كلا من المسيحية والاشتراكية تبشر بخلاص آت من العبودية والبؤس، تحيل المسيحية هذا الخلاص إلى حياة مقبلة فى السماء بعد الموت؛ أما الاشتراكية فسوف تحرزه فى هذا العالم من خلال تحويل المجتمع. كلتاهما مطاردتان ومضطهدتان، أتباعهما خارج القانون، خاضعين لتشريع خاص، يعرضون، فى حالة، كأعداء للجنس البشرى، وفى الأخرى، كأعداء للأمة، الدين، العائلة، وللنظام الاجتماعى. ورغم كل الاضطهادات، وفى بعض الحالات ساعدت مثل هذه الاضطهادات على تحقيق النصر، كلتاهما تتقدم على نحو لايقاوم. بعد ثلاثة قرون من بدايتها، المسيحية هى ديانة الدولة المعترف بها للإمبراطورية الرومانية، خلال أقل من ستين عاما احتلت الاشتراكية موقعا بات فيه انتصارها النهائى مؤكدا بشكل مطلق".

هذا التشابه صحيح فى إجماله، مع بعض التحديدات القليلة بالطبع؛ يمكن بالكاد أن تسمى المسيحية ديانة العبيد؛ فهي لم تفعل شيئا لهم. من ناحية أخرى، فإن التحرر من البؤس الذى أعلنته المسيحية كان فى البداية ماديا تماما، عليه أن يتحقق فى هذه الأرض، وليس فى السماء. هذا الظرف الأخير، على أية حال، يزيد التشابه مع حركة العمال الحديثة. يواصل إنجلز:

---

2 المجلد 13، رقم 1، ص 4 ومايليها، سبتمبر 1894.
(zür geschichte des urchristentums)

"إن التشابه بين هاتين الظاهرتين التاريخيتين يصبح واضحا حتى فى العصور الوسطى، فى الانتفاضات الأولى للفلاحين المضطهدين، وخاصة العامة الحضريين..... إن شيوعيى الثورة الفرنسية، وكذلك فايتلج واتباعه قد أشاروا إلى المسيحية الأولية قبل أن يقول إرنست رينان: إذا أردتم أن تكونوا فكرة عن المجامع المسيحية الأولى قوموا بزيارة إلى القسم المحلى من جمعية العمال الأممية ".

"إن هذا الأديب الفرنسى الذى كتب الرواية الإكليريكية **أصول المسيحية**، وهي إنتحال للنقد الألمانى للكتاب المقدس لايضارع فى وقاحته - لم يكن هو نفسه واعيا بما احتوت كلماته هذه من حقيقة. أننى أود أن أرى أى "أممى" عجوز، يقرأ، دعنا نقول، مايسمى بالرسالة الثانية إلى الكورنثيين، دون أن يشعر بانفتاح جراح قديمة بمعنى معين على الأقل".

يواصل إنجلز عندئذ الدخول فى تفاصيل أكثر فى مقارنة المسيحية الأولية والأممية، ولكنه لايتتبع التطور اللاحق للمسيحية أو للحركة العمالية. الانهيار الجدلى للأولى لايلقى انتباها منه، ومع ذلك إذا كان إنجلز قد واصل هذا الموضوع، لاكتشف آثار تحولات مماثلة في الحركة العمالية الحديثة. فمثل المسيحية هذه الحركة مضطرة إلى خلق أجهزة دائمة فى مجرى نموها، من البيروقراطية المحترفة فى الحزب، إلى النقابات، التى بدونها لايمكن أن تعمل، والتى هى ضرورة بالنسبة لها، التى يجب أن تستمر، وأن تحصل على واجبات هامة أكثر فأكثر.

هذه البيروقراطية - التى يجب أن تؤخذ بالمعنى الأوسع باعتبارها تشمل ليس فقط الموظفين الإداريين، وانما أيضًا المحررين والمندوبين البرلمانيين - ألن تصبح هذه البيرواقراطية فى مجرى الأمور أرستقراطية جديدة، مثل الإكليروس الذى يترأسه الأسقف؟ ألن تصبح أرستقراطية مهيمنة على ومستغلة للجماهير العاملة وأخيرا حائزة على السلطة للتعامل مع سلطات الدولة بشروط متساوية، وهكذا تغوى بألا تطيح بها وإنما تنضم اليها؟

هذا الحاصل النهائى سوف يكون مؤكدا اذا كان التشابه تاما. ولكن لحسن الحظ ليس هذا هو واقع الحال. بالرغم من التشابهات العديدة بين المسيحية والحركة العمالية الحديثة، هناك أيضًا اختلافات جوهرية. البروليتاريا اليوم مختلفة تماما بصفة خاصة عن البروليتاريا المسيحية الأولية. يحتمل أن النظرة التقليدية عن بروليتاريا حرة تتألف من المتسولين فقط مبالغ فيها؛ فلم يكن العبيد هم العمال الوحيدين. ولكنه من الحقيقى أن عمل العبد قد أفسد البروليتاريين

الأحرار العاملين، الذين عمل أغلبهم فى بيوتهم. لقد كان نموذج البروليتارى الكادح الذى جاهد من أجله عندئذ، مثله في ذلك مثل المتسول، هو تحقيق عيش بدون عمل على حساب الأغنياء، حيث كان يُتوقع أن يعتصروا الكمية الضرورية من المنتجات من العبيد.

أضف إلى ذلك كانت المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى حركة حضرية على وجه الحصر، ولكن بروليتاريى المدن فى هذا الوقت لم يكن لهم سوى مغزى ضئيل فى تركيب المجتمع، الذى كانت قاعدته الإنتاجية تقريبا كلية هى تلك التى للعصور القديمة، وإن اقترنت بعمليات صناعية هامة تماما.

كنتيجة لكل هذا، فإن الحملة الأساسيين للحركة المسيحية، البروليتاريين الأحرار الحضريين، عاملين ومتعطلين، لم يشعروا أن ذلك المجتمع يعيش على حسابهم، لقد جاهدوا ليعيشوا على حساب المجتمع دون تقديم أى مقابل. لم يلعب العمل دورًا فى رؤيتهم للدولة المقبلة.

لقد كان من ثم طبيعيا بالطبع أنه بالرغم من كل الحقد الطبقى ضد الأغنياء، يصبح الجهد للحصول على معروفهم وكرمهم واضحا مرة بعد أخرى، وواجه ميل البيروقراطية الإكليريكية لتفضيل الأعضاء الأغنياء فى جمهور المجمع مقاومة ضئيلة مثلما جرى لعجرفة هذه البيروقراطية نفسها.

كان التدهور الاقتصادى والمعنوى للبروليتاريا فى الإمبراطورية الرومانية قد تزايد أكثر بالانحلال العام لكل المجتمع الذى كان يصبح أفقر وأكثر يأسا، بينما كانت قواه المنتجة تتدهور أكثر فأكثر. هكذا فإن فقدان الأمل واليأس استولى على كل الطبقات، شل مبادرتها، سبب للجميع أن يتوقعوا الخلاص على أيدى قوى غير عادية وفوق طبيعية فقط، وجعلهم ضحايا عاجزة لأى مخادع ذكى، أو أى مغامر، ذو حيوية وواثق بذاته، سبب لهم أن يتخلوا عن أى مقاومة مستقلة نحو أى من القوى المهيمنة باعتبارهم عاجزين.

يا لاختلاف البروليتاريا الحديثة ! إنها بروليتاريا الكدح، وهى تعرف أن كل المجتمع يقوم على أكتافها، ونمط الإنتاج الرأسمالى يحول مركز الجاذبية فى الإنتاج أكثر فأكثر من المقاطعات إلى المراكز الصناعية، حيث الحياة العقلية والسياسية أكثر فاعلية. إن عمال هذه المراكز، الأكثر حيوية وذكاء بين الجميع، يصبحون الآن العناصر التى تحكم أقدار المجتمع.

فى نفس الوقت يعزز نمط الإنتاج السائد القوى المنتجة بضخامة، ويزيد هكذا المطالب التى وضعها العمال على المجتمع، ويزيد قوتهم أيضًا على إنجاز هذه المطالب. الأمل، الثقة، الوعى بالذات، تلهمهم، كما ألهمت ذات مرة البورجوازية الناشئة، معطية إياها القوة على أن تكسر سلاسل الهيمنة والاستغلال الإقطاعية، الكنيسة والبيروقراطية، ومستمدة القوة الضرورية من النمو الكبير لرأس المال.

يتوافق أصل المسيحية مع انحلال الديمقراطية. تتسم القرون الثلاثة من تطورها السابقة على الاعتراف بها بتدهور دائم لكل بقايا الحكم الذاتى، وأيضا بتحلل متلاحق للقوى المنتجة.

تنبثق الحركة العمالية الحديثة من نصر ضخم للديمقراطية، أى، من الثورة الفرنسية العظمى. إن القرن الذى انصرم منذئذ، بكل تغيراته وتقلباته، يمثل مع ذلك تقدما مستمرا للديمقراطية، زيادة خرافية بحق فى القوى المنتجة وليس فقط توسعا أعظم، وانما أيضًا استقلالا أعظم ووضوحًا فى جانب البروليتاريا.

على المرء أن يفحص فقط هذا التضاد حتى يصبح واعيا بأن تطور الاشتراكية ليس من الممكن أن ينحرف عن مجراه كما حدث (لمجرى) المسيحية. لانحتاج إلى أن نخاف من أنها ستطور طبقة جديدة من الحكام والمستغلين من مراتبها مشركة فى غنيمتهما المستبدين القدامى.

بينما تناقصت القدرة القتالية والروح القتالية للبروليتاريا بشكل متلاحق فى الإمبراطورية الرومانية تقوت هذه الخصائص فى المجتمع الحديث، وتُدرك التناقضات الطبقية بشكل أكثر حده، وهذا وحده لابد وأن يحبط كل محاولات إغواء البروليتاريا بأن تتخلى عن نضالها لأن أبطالها قد ميزوا. أدت أى من هذه المحاولات حتى حينه إلى عزلة الشخص الذى يفعلها، الذى هجرته البروليتاريا بالرغم من خدماته السابقة لها. ولكن ليس البروليتاريا فقط والبيئة السياسية والاجتماعية التى تتحرك فيها هى المختلفة كلية اليوم عن ظروف عصر المسيحية الأولية، بل إن الشيوعية اليوم وشروط تحققها مختلفة تماما عن شروط الشيوعية القديمة.

النضال من أجل الشيوعية، الحاجة إلى الشيوعية، تنشأ اليوم من نفس المصدر، أى الفقر، ومادامت الاشتراكية هى فقط اشتراكية الشعور فهى تعبير عن هذه الحاجة فقط، وقد تعبر اتفاقا عن نفسها حتى فى الحركة العمالية الحديثة فى اتجاهات تشبه تلك التى كانت لعهد المسيحية الأولية. إن أدنى فهم فقط للشروط الاقتصادية

لشيوعية اليوم سوف يدرك على الفور كيف أنها تختلف عن الشيوعية المسيحية الأولية.

إن تركز الثروة فى أيد قليلة، الذى انطلق فى الإمبراطورية الرومانية يدا بيد مع تناقص دائم فى القوى المنتجة - الذى كان مسئولا عن التناقض بصورة جزئية - أصبح اليوم نفس هذا التركيز قاعدة لتزايد عظيم فى القوى المنتجة. بينما لم يؤذ توزيع الثروة عندئذ إنتاجية المجتمع بأدنى درجة، وإنما لائمة، فإنه سيكون مساويا لشلل كامل للإنتاج اليوم. لايمكن للشيوعية الحديثة أن تفكر بعد فى توزيع متساوٍ للثروة، إن موضوعها بالأحرى أن تؤمن أعظم زيادة ممكنة فى إنتاجية العمل وتوزيعا أكثر عدالة لمنتجات العمل السنوية بواسطة دفع تركيز الثروة إلى أعلى نقطة، محولة إياه من الاحتكار الخاص لمجموعات رأسمالية قليلة إلى احتكار للدولة.

ولكن الشيوعية الحديثة، إذا كانت ستلبى احتياجات الإنسان الجديد التى خلقتها الطرق الحديثة للإنتاج، يجب أن تستبقى تماما فردية الاستهلاك. لاتتضمن هذه الفردية عزلة الأفراد عن بعضهم الآخر عند الاستهلاك، انها قد تأخذ حتى شكل استهلاك اجتماعى للنشاط الاجتماعى، ليست فردية المتعه مساوية لإلغاء المشاريع الكبيرة فى إنتاج مواد الاستهلاك، ولا لإحلال الآلة محل العمل اليدوى، كما قد يحلم كثير من الاشتراكيين الجماليين. ولكن فردية الاستهلاك تتطلب الحرية فى اختيار المتع، أيضًا الحرية فى اختيار المجتمع الذى يستهلك فيه المستهلك.

ولكن جمهور السكان الحضريين فى أيام المسيحية الأولية لم يعرفوا أشكالا للإنتاج الاجتماعى، ومن الصعب أن يقال بأن المشروعات الكبرى قد وجدت فى الصناعات الحضرية. ولكنها مرتبطة جيدا بالأشكال الاجتماعية للاستهلاك، خاصة الوجبات المشتركة، وغالبا ماقدمت من المجمع أو الدولة.

وهكذا كانت الشيوعية المسيحية الأولية شيوعية **توزيع الثروة وتسوية الاستهلاك**، بينما تعنى الشيوعية الحديثة تركيز الثروة **وتركيز الإنتاج**.

لم تحتاج الشيوعية المسيحية الأولية لأن تطوق كل المجتمع حتى تظهر. أمكن أن يبدأ تنفيذها داخل نطاق محدود، فى الواقع، قد تتخذ، داخل تلك الحدود، أشكالا دائمة، كانت الأخيرة بالفعل ذات طبيعة أعاقت صيروتها شكلا شاملا للمجتمع.

ومن ثم أصبحت الشيوعية المسيحية الأولية بالضرورة شكلا جديدا للأرستقراطية، وقد كانت مجبرة أن تنجز هذا الديالكتيك الداخلى حتى ضمن

المجتمع كما كان آنذاك. لم يمكنها أن تلغى الطبقات، ولكنها أضافت فقط شكلا جديدا من الهيمنة بالنسبة للمجتمع.

ولكن الشيوعية الحديثة بالنظر إلى التوسع الضخم لوسائل الإنتاج، والطابع الاجتماعى لنمط الإنتاج، والتركيز بعيد المدى لأكثر موضوعات الثروة أهمية، ليس لديها أقل فرصة لأن تثمر على أى نطاق أصغر من نطاق المجتمع بكامله. أخفقت كل محاولات تحقيق الشيوعية فى المؤسسات الصغيرة للمستوطنات الاشتراكية أو التعاونيات الإنتاجية. قد لايمكن للشيوعية أن تنتج بتشكيل تنظيمات صغيرة داخل المجتمع الرأسمالى، التى سوف تمتص تدريجيا هذا المجتمع حين تتوسع، وإنما فقط بحيازة السلطة الكافية للسيطرة وتحويل كامل الحياة الاجتماعية. هذه السلطة هى سلطة الدولة. إن استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية هو الشرط الأول لتحقيق الشيوعية.

إلى أن تصل البروليتاريا هذه المرحلة، لايمكن أن يكون هناك تفكير فى الإنتاج الاشتراكى أو فى تناقضات الأخير المؤثرة فى تطوره التى سوف تحول المعقول إلى هراء والهبات إلى عذابات [1]. ولكن حتى بعد أن تستولى البروليتاريا على السلطة السياسية، لن يأتى الإنتاج الاشتراكى إلى الوجود على الفور ككل ناجز، ولكن التطور الاقتصادى سوف يأخذ فجأة منعطفا جديدا، لن يعد فى اتجاه تأكيد الرأسمالية ولكن نحو تطور إنتاج اجتماعى. متى سوف يتقدم الأخير إلى نقطة تظهر فيها التناقضات والمساوئ، والذي يقدر له أن يطور المجتمع الجديد فى اتجاه جديد غير معروف الآن وغامض على نحو مطلق؟ هذا الوضع لايمكن أن يوجز حاليا وليست هناك حاجة لأن يعالج هنا.

بقدر ما نستطيع أن نتتبع الحركة الاشتراكية الحديثة، فإنه من المستحيل بالنسبة لها أن تنتج ظواهر تطرح أى تشابه مع ظواهر المسيحية كدين دولة. ومن الحقيقى كذلك أيضًا أن الطريقة التى حازت بها المسيحية انتصارها لايمكن بأى طريقة أن تخدم كنموذج للحركة الحديثة للطموحات البروليتارية.

إن انتصار البروليتاريا لن يكون بالتأكيد سهلا كنصر الأساقفة الطيبين من القرن الرابع.

---

3 vernunft wird unsinn , wohltat plage , weh dir. dass du ein enkel bist ! فاوست، جوته-

ولكننا قد ندافع عن انه ليس فقط أن الاشتراكية لن تطور أى تناقضات داخلية فى الفترة السابقة على هذا الانتصار الذى سوف يكون قابلا للمقارنة مع تلك التناقضات التى تحيط بالمراحل الأخيرة للمسيحية، وانما أيضًا أنه لن تتحقق مثل هذه التناقضات فى الفترة التى تطورت فيها النتائج القابلة للتنبؤ بها لهذا النصر.

لقد طورت الراسمالية الشروط لوضع المجتمع على أساس جديد كليا، مختلف تماما عن كل الأسس التى وقف عليها المجتمع حين ظهرت التمايزات الطبقية. بينما لم تكن هناك طبقة ثورية جديدة أو حزب - حتى تلك التى ذهبت أبعد من المسيحية فى الشكل الذى اعترف به قنسطنطين، وحتى حينما كانوا بالفعل سيلغون التمايزات الطبقية القائمة - قادرة على إلغاء كل الطبقات، وإنما أحلت دائما تمايزات طبقية جديدة محل القديمة، بينما تتوفر لدينا الآن الشروط المادية للقضاء على كل التمايزات الطبقية. لقد تحركت البروليتاريا الحديثة بهدى مصالحها الطبقية لتوظيف هذه الشروط فى اتجاه هذا الإلغاء، لأنها هي الآن الطبقة الأدنى، بينما فى أزمنة المسيحية كان العبيد أدنى من البروليتاريا.

تعين أن تختلط الاختلافات الطبقية والتعارضات الطبقية حتما مع التمايزات التى نتجت بين الحرف المختلفة، وبتقسيم العمل. التضاد بين الطبقات هو نتيجة لثلاثة أسباب: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، استخدام الأسلحة، العلوم. تنتج شروط تقنية واجتماعية معينة التمايز بين هؤلاء الذين يملكون وسائل الإنتاج والذين لايملكون، فيما بعد، تنتج التمايز بين هؤلاء الذين تدربوا على استخدام الأسلحة وهؤلاء الذين بلا دفاع؛ أخيرا يأتى التمييز بين هؤلاء الضليعين فى العلوم والجهلة.

يخلق نمط الإنتاج الرأسمالى الشروط الضرورية لإلغاء كل التعارضات. إنه لايعمل فقط باتجاه إلغاء الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج، ولكن بواسطة ثروته فى القوى المنتجة فهو يلغى أيضًا ضرورة قصر التدريب العسكرى والمعرفة على شريحة معينة. لقد نشأت هذه الضرورة بمجرد أن حاز التدريب العسكرى والعلم مرحلة عالية بالأحرى، مُمكنا هؤلاء الذين كان لديهم وقت فراغ ووسائل مادية تتجاوز احتياجات الحياة، أن يحوزوا أسلحة ومعرفة وأن يطبقا الاثنين بنجاح.

حيثما بقيت إنتاجية العمل قليلة وأنتجت فائضا ضئيلا، لم يكن كل واحد قادرا على أن يحصل على وقت كافٍ ووسائل وأن يلم جنبا إلى جنب بالمعرفة العسكرية أو العلم العام لزمنه. فى الواقع، كان فائض أفراد عديدين مطلوبا لتمكين فرد واحد من

أن يقوم بإنجاز فى الحقل العسكرى أو العلمى.

لايمكن أن يحدث هذا سوى باستغلال كثيرين من قبل قلة. الذكاء المتزايد والقدرة العسكرية للقلة مكنتها من أن تضطهد وتستغل الجماهير الجاهلة العزلاء. من ناحية أخرى، أصبح الاستغلال والاضطهاد للجماهير تحديدا وسائل زيادة المهارة العسكرية ومعرفة الطبقات الحاكمة.

ظلت الأمم التى كانت قادرة على البقاء متحررة من الاستغلال والاضطهاد جاهلة وغالبا عزلاء، باعتبارها مناقضة للجيران المسلحين على نحو أفضل والمتعلمين بشكل أفضل. فى صراعات الوجود، هزمت أمم المستغلين والمضطهدين من ثم هؤلاء الذين احتفظوا بشيوعيتهم البدائية وديمقراطيتهم البدائية.

إن نمط الإنتاج الرأسمالى نفسه، بسبب الفائض الكبير الذى خلقه، قد مكن الأمم المختلفة من أن تلجأ إلى خدمة عسكرية شاملة، وهكذا استبعدت أرستقراطية المحاربين. ولكن تأتى الرأسمالية ذاتها بكل أمم السوق العالمى لمثل هذه العلاقات الوثيقة والدائمة كل منها مع الآخر حتى أن السلام العالمى يصبح ضرورة ملحه أكثر فأكثر، إن حربا من أى نوع هى جزء من حماقة قاسية. إذا أمكن التغلب على نمط الإنتاج الراسمالى والعداء الاقتصادى بين الأمم المختلفة، فإن حالة السلام الأبدى التى رغبت فيها الآن الجماهير العظيمة للبشرية سوف تصبح واقعا. السلام الشامل الذى حققه الاستبداد الإمبراطورى للأمم المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى القرن الثانى من العصر المسيحى - وهى الميزة الوحيدة التى منحها الاستبداد لهذه الأمم - سوف يتحقق فى القرن العشرين لأمم العالم بواسطة الاشتراكية.

إن كامل أساس التعارض بين طبقات المحاربين وغير المحاربين سوف يختفى عندئذ.

ولكن أسس التضاد بين المتعلمين وغير المتعلمين سوف تختفى أيضًا. الآن، فقط، فقد رخص نمط الإنتاج الرأسمالى لحد ضخم أدوات المعرفة بالطباعة الرخيصة، جاعلا إياها فى إمكان الجماهير. وفى نفس الآن فإنه ينتج طلبا متزايدا على المثقفين، الذين يدربهم فى مدارسه بأعداد ضخمة، دافعًا إياهم إلى البروليتاريا، على أى حال، حين يصبحون عديدين. وهكذا فإن الرأسمالية قد خلقت الإمكانية التقنية لتقصير شديد ليوم العمل، وحازت طبقات من العاملين بالفعل على ميزات معينة فى هذا الاتجاه، مع توفر وقت أكثر للأنشطة التعليمية.

مـع انتصار البروليتاريا فإن هذه الجراثيم سوف تتطور تماما على الفور، خالقة واقعا ممتازا لإمكانيات التعليم العام للجماهير التى أنتجها نمط الإنتاج الرأسمالى.

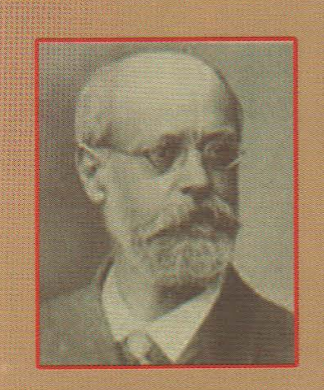
إن فترة ظهور المسيحية هى فترة أحزن تدهور ثقافى، لازدهار جهل لا معقول، لأكثر الخرافات، غباوة، وفترة ظهور الاشتراكية هى فترة التقدم الصارخ فى العلوم الطبيعية وحيازة سريعة للمعرفة من قبل الطبقات المتأثرة بالديمقراطية الاشتراكية.

فقد التناقض الطبقى الناشئ عن التدريب العسكرى أساسه سلفا، التضاد الطبقى الناشئ عن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج سوف يفقد أساسه أيضًا بمجرد أن ينتج الحكم السياسى للبروليتاريا آثاره، ونتائج هذا الحكم سرعان ماسوف تصبح واضحة فى تناقص التمييز بين المتعلمين وغير المتعلمين، الذى قد يختفى خلال جيل واحد.

ستكون الأسباب الأخيرة للتمييزات الطبقية والتناقضات الطبقية آنئذ قد توقفت.

لابد للاشتراكية من ثم لا أن تحرز السلطة بوسائل مختلفة كلية فحسب عما فعلت المسيحية، ولكنها لابد وأن تنتج تأثيرات مختلفة كلية. يجب أن تقضى والى الأبد على كل حكم طبقى.

المحتويات



يعد كارل كاوتسكي (1854 - 1938) وهو مؤرخ واقتصادى ألمانى، أبرز مفكرى ومنظرى الاشتراكية الديموقراطية فى الأممية الثانية، وأهم ممثلى الوسط داخلها. وقد تنوعت اهتماماته النظرية فشملت التاريخ والسياسة والفلسفة والاقتصاد وقضايا الدين والتنوير والنزعات العقلانية. ورغم أن فردريك إنجلز، أحد مؤسسي الماركسية قد تناول بعض تجليات الظاهرة الدينية فى معظم كتاباته الأساسية وأبرزها كتابه "حرب الفلاحين فى ألمانيا" ومقالاته التى تناول فيها أعمال برونو باور والمسيحية الباكرة وسفر رؤيا القديس يوحنا وتاريخ المسيحية الأولية، إلا أن كاوتسكى كان أول من حاول أن يخضع أصول الديانات الإبراهيمية التى ترافقت مع فترة الانتقال من النظم العبودية إلى الإقطاعية فى مراكز العالم القديم لمفاهيم المادية التاريخية، وجاء كتابه -الذى يعد تطويرا لكراس أسبق أسماه رواد الاشتراكية- محاولة فذة للتحليل الماركسي مستندا على آخر الإنجازات العلمية فى هذا المجال النوعى الخاص. وتميز بأصالة أفكاره وجدتها حتى أن الأبحاث الأخيرة فى وقتنا الراهن لم تتجاوزه حتى الآن رغم انصرام مايزيد على قرن من الزمان على تأليفه. لقد عارض بمنهجه المادى التاريخى التعتيمات الميثولوجية التى أحاطت بالظاهرة التى تناولها؛ فأبان أصولها وكشف جذورها بأصالة واقتدار. ولاغرو فقد بات الكتاب من أكثر المؤلفات النظرية الماركسية شعبية. وقد اعتبره البعض واحدا من أهم مائة كتاب صدر فى القرن العشرين. وقد ترجم الكتاب إلى تسع لغات ومايزال تعاد طباعته ونشره. وجدير بالذكر أن هذه هى أول ترجمة عربية له تنشر فى العالم العربى.

